سعيد حوّى



الأساس في التفسير

المجلد التاسع

وفيه تفسير المجموعات: الثالثة والرابعة والخامسة من قسم المثاني
وتشمل السور: من سورة الزمر إلى سورة ق

دار السلام
للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع
لصاحبها
عبد القادر محمود البكار

القاهرة ص.ب : ١٦١ غورية . ت : ٩٣٥٦٤٤
حلب ص.ب : ١٨٩٣ . هـ : ١٧٧٦٤
بيروت ص.ب : ١٣٥٣٣٧

الطبعة الأولى
١٤٠٥ هـ = ١٩٨٥م

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ. وَٱلصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَىٰ رَسُولِ ٱللَّهِ وَآلِهِ وَأَصْحَابِهِ

رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا، إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ

المجموعة الثالثة

من القسم الثالث من أقسام القرآن
المسمّى بقسم المثاني
وتشمل سور :
(الزمر ، وغافر ، وفصلت)

كلمة في المجموعة الثالثة من قسم المثاني :

دلَّلنا من قبل على أنَّ سورة (ص) نهاية مجموعة ، وهذا يعني تلقائياً أن سورة الزمر بداية مجموعة ، وسنرى بأكثر من دليل أن سورة الشورى بداية مجموعة أخرى ، وهذا يقتضي بالضرورة أن تكون سورتا غافر وفصلت تتمة لمجموعة الزمر ، خاصة إذا دلّنا على ذلك المعنى ، وإذا لم يكن هناك مايدلّ على أن واحدة منهما خارجة عن ذلك . وعندما ندرس السور الثلاث نلاحظ أن كل شيء فيهن يدلّ على أن السور الثلاث تشكّل وحدة متكاملة .

نلاحظ بشكل واضح أن سورة فصّلت تفصّل في محور سورة هود ، لاحظ بدايتي السورتين .

بدأت سورة هود بقوله تعالى : ﴿ **الّر * كتاب أُحكمت آياته ثُمَّ فُصِّلت من لدن حكيم خبير * ألا تعبدوا إلا الله إنني لكم منه نذير وبشير ...** ﴾ .

وبدأت سورة فصّلت بقوله تعالى : ﴿ **حمّ * تنزيل من الرحمٰن الرحيم * كتاب فصّلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون * بشيراً ونذيراً ...** ﴾ .

ومن المعلوم أن سورة هود فصّلت من سورة البقرة قوله تعالى : ﴿ **ياأيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم ...** ﴾ .

ونلاحظ بشكل واضح أن سورة الزّمر تفصّل في محور سورة يونس، لاحظ بدايتي السورتين :

بدأت سورة يونس بقوله تعالى : ﴿ **الّر تلك آيات الكتاب الحكيم * أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم قال الكافرون إنَّ هذا لساحر مبين** ﴾ .

وبدأت سورة الزمر بقوله تعالى : ﴿ **تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم * إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصاً له الدين** ﴾ وسنرى التشابه الكبير بين مضمونات سورة الزمر وسورة يونس .

وكان محور سورة يونس قوله تعالى في سورة البقرة : ﴿ **الّمّ * ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين** ﴾

ونلاحظ بشكل واضح أن سورة غافر تفصّل في الكلام عن الكافرين ، بدليل أنه بعد مقدمة السورة مباشرة يأتي قوله تعالى : ﴿**ما يجادل في آيات الله إلا الذين كفروا فلا يغررك تقلبهم في البلاد**﴾ .

ونجد في السورة قوله تعالى : ﴿ **إنَّ الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم إنْ في صدورهم إلا كبر ماهم ببالغيه ...** ﴾ .

ونجد في خاتمة السورة قوله تعالى : ﴿ **وخسر هنالك الكافرون** ﴾ .

ولذلك نقول : إنَّ محور سورة المؤمن (غافر) هو قوله تعالى من سورة البقرة : ﴿ **إنَّ الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لايؤمنون** ﴾ .

وبناء على ما مرّ نقول : إنّ سورتي الزمر والمؤمن تفصّلان في مقدمة سورة البقرة ، ثم تأتي سورة فصّلت لتفصل في حيز الآيات الآتية مباشرة بعد مقدمة سورة البقرة ﴿ **يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم ...** ﴾ وسنرى تفصيل ذلك كله .

— — — — — — — —

وإذن فأنت تلاحظ أن آيات سورة البقرة الأولى تفصّل في قسم المثاني مرات ، وفي كل مرة تجد روحاً جديدة ، وأسلوباً جديداً ، وسياقاً جديداً ، وعرضاً جديداً ، ووحدة في كل سورة ، ووحدة في كل مجموعة ، إن هذا لمظهر من مظاهر الإعجاز في القرآن ، أن تجد المعنى الواحد يعرض بالأساليب الكثيرة وفي السور الكثيرة ، وفي كل مرة تجد جديداً وتجد تفريعات وتفصيلات لمعان مستكنة .

— — — — — — — —

ولعلّه يتضح لك في عرضنا لمجموعات هذا القسم لِمَ سُمِّي هذا القسم بالمثاني ؟ إذ تجد المعاني تثنى وتكرّر مرّة بعد مرّة ، ويلاحظ أيضاً أن سورة الزمر يرد فيها قوله تعالى : ﴿ **الله نَزَّل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله** ﴾ .

ولنبدأ عرض السور الثلاث .

سورة الزمر

وهي السورة التاسعة والثلاثون بحسب الرسم القرآني
وهي السورة الأولى من المجموعة الثالثة من قسم المثاني
وآياتها خمس وسبعون آية
وهي مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وآله وأصحابه

ربنا تقبل منا، إنك أنت السميع العليم

كلمة في سورة الزمر ومحورها :

تبدأ السورة بمقدمة هي آية واحدة وهي قوله تعالى : ﴿ **تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم** ﴾ (الآية : ١) . ثم يأتي قوله تعالى : ﴿ **إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصاً له الدّين** ﴾ (الآية : ٢) .

ثم تسير السورة حتى نهاية الآية ٤٠ ثم يأتي قوله تعالى : ﴿ **إنا أنزلنا عليك الكتاب للناس بالحق فمن اهتدىٰ فلنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها وما أنت عليهم بوكيل** ﴾ (الآية : ٤١) . ثم تسير السورة إلى نهايتها .

فكأن السورة تتألف من مقدمة ومقطعين كل مقطع مبدوء بقوله تعالى : ﴿ **إنا أنزلنا** .... ﴾ .

والصلة بين بدايتي المقطعين ومقدمة السورة واضحة ؛ إذ يشترك الجميع في وجود معنى التنزيل . وفي المقطع الأول تجد قوله تعالى : ﴿ **الله نزَّل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله** .. ﴾ (الآية : ٢٣) . وتجد ﴿ **ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل لعلهم يتذكرون * قرآناً عربياً غير ذي عوج لعلهم يتقون** ﴾ (الآيتين : ٢٧ ، ٢٨) .

وفي المقطع الثاني تجد قوله تعالى : ﴿ **وقال لهم خزنتها ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا بلى ولكن حقّت كلمة العذاب على الكافرين** ﴾ (الآية : ٧١) .

وهذا يشير إلى أن الكلام عن القرآن وكونه منزلاً من عند الله عز وجل موضوع رئيسي في السورة ، ونلاحظ أن هناك آيات في السورة مبدوءة بلفظ الجلالة :

﴿ **الله نزَّل أحسن الحديث** ... ﴾

﴿ **الله يتوفى الأنفس حين موتها** ... ﴾ .

﴿ **الله خالق كل شيء وهو على كل شيء وكيل** ﴾ .

مما يشير إلى أن الكلام عن الله عز وجل منزل هذا القرآن موضوع رئيسي من مواضيع السورة .

ونلاحظ أن موضوع العبادة يتكّرر في السورة كثيراً :
﴿ **فاعبد الله مخلصاً له الدين** ﴾ .
﴿ **قل إني أمرت أن أعبد الله مخلصاً له الدين** ... ﴾ .
﴿ **قل الله أعبد مخلصاً له ديني** ... ﴾ .
﴿ **قل ياعبادي** ... ﴾ .
﴿ **قل أفغير الله تأمروني أعبد** ... ﴾ .
﴿ **بل الله فاعبد** ... ﴾ .
مما يشير إلى أنّ هناك صلة بين معرفة الله وعبادته وإنزاله القرآن .

— — — — — — — —

فلنتذكر الآن بعض معانٍ في سورة يونس :
﴿ **الّر تلك آيات الكتاب الحكيم * أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس وبشِّر الذين آمنوا أن لهم قَدَم صدقٍ عند ربهم قال الكافرون إن هذا لَساحِرٌ مبين * إن ربكم الله الذي خلق السمٰوات والأرض في ستة أيام ثم استوىٰ على العرش يدبِّر الأمر مامن شفيع إلا من بعد إذنه ذلكم الله ربكم فاعبدوه أفلا تذكرون** ﴾ .

لاحظ وجود اسم الله (الحكيم) في الآية الأولى من السورتين ، ولاحظ الأمر (فاعبد) في أوائل سورة الزمر ، والأمر (فاعبدوه) في أوائل سورة يونس ، ثم لاحظ خاتمة سورة يونس . ﴿ **قل ياأيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها وماأنا عليكم بوكيل** ﴾ . وصلة ذلك بقوله تعالى في سورة الزمر :
﴿ **إنا أنزلنا عليك الكتاب للناس بالحق فمن اهتدى فلنفسه ومن ضلّ فإنّما يضلّ عليها وماأنت عليهم بوكيل** ﴾ (الآية : ٤١) .

من خلال ذلك ندرك أن هناك صلة بين السورتين ، وأنّ سورة الزمر تبني على سورة يونس ، وتفصّل في محورها ، ومن المعلوم أن سورة يونس فصّلت في الآية الأولى

من سورة البقرة ، أي : في قوله تعالى : ﴿ **الٓمٓ * ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين** ﴾ .

وقد كنا رأينا من قبل أن سورة الصافات فصّلت في الآيات الأربع الأولى التي وصفت المتقين من سورة البقرة ، ونلاحظ أن سورة الصافات ختمت بقوله تعالى : ﴿ **وسلام على المرسلين * والحمد لله رب العالمين** ﴾ .

كما نلاحظ أن سورة الزمر ختمت بقوله تعالى ﴿ **وقُضِيَ بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين** ﴾ .

وهذه الخاتمة كذلك تجعلنا نستأنس أن سورة الزمر تفصّل في ما فصلت فيه سورة الصافات ، أي في الآيات الأولى من سورة البقرة .

— — — — — — — —

إن تفصيل سورة الزمر ينصبّ على المحور الذي فصلته سورة يونس ، وهو قوله تعالى ﴿ **الٓمٓ * ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين** ﴾ إلا أن التفصيل الموجود في سورة الزمر يكمّل التفصيل الموجود في سورة يونس ، فإذا كان الكلام في سورة يونس انصب على نفي الريب عن هذا القرآن بنفي كل ما يؤدي إليه، وتقرير أن هذا القرآن هدى ، فإن سورة الزمر ينصب الكلام فيها على أن هذا القرآن منزَّل من عند الله ، وعلى تعريفنا على الله منزِّل هذا القرآن ، وعلى ما يترتب على كون هذا القرآن من عند الله : من عبادة لله ، وصياغة للسلوك والأفكار على ضوء ذلك ، إلى غير ذلك من المواضيع التي سنراها

— — — — — — — —

ونلاحظ في السورة بشكل واضح كثرة الآيات المبدوءة باستفهام :

﴿ **أمّن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً ...** ﴾

﴿ **أفمن حق عليه كلمة العذاب أفأنت تنقذ مَنْ في النار** ﴾

﴿ **ألم تر أنّ الله أنزل من السماء ماءً فسلكه ينابيع ....** ﴾

﴿ أفمن شرح الله صدره للإسلام .... ﴾

﴿ أفمن يتَّقي بوجهه سوء العذاب يوم القيامة ﴾

﴿ فمن أظلم ممّن كذب على الله وكذّب بالصدق إذ جاءه ﴾

﴿ أليس الله بكاف عبده .... ﴾

﴿ أم اتخذوا من دون الله شفعاء .... ﴾

﴿ أو لم يعلموا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ..... »

مما يعطي السورة جرساً معيّناً ، ويصبغها بصبغة معينة ، وهذا يرينا مظهراً من مظاهر هذا الإعجاز ؛ إذ تجد الموضوع الواحد تفصّله سور كثيرة ، كلّ سورة تبرز جانباً من جوانبه المتعلّقة به ، مع كون التفصيل في كل مَرَّة يأتي بروح جديدة ، وصيغة جديدة ، وأسلوب جديد ، وهكذا .

— — — — — — — —

وسنعرض السورة على أنّها مقدّمة ومقطعان ، وسنرىٰ أنّ كل مقطع فيه مجموعات واضحة المعالم ، وسنرىٰ صلة هذه المجموعات بسياق السورة الخاص ، وصلتها بمحور السورة ، ولا نستعجل الكلام عن ذلك ، وقبل أن نبدأ عرض السورة نحبّ أن ننقل مجموعة نقول حول السّورة :

نقول :

١ – قدّم ابن كثير لتفسير سورة الزمر بالحديث التالي :

(روى النسائي عن عائشة رضي الله عنها قالت : كان رسول الله ﷺ يصوم حتى نقول مايريد أن يفطر ، ويفطر حتى نقول مايريد أن يصوم ، وكان ﷺ يقرأ في كل ليلة بني إسرائيل والزمر .) .

٢ – وقال الألوسي في تقديمه لسورة الزمر :

(وتسمى سورة الغرف كما في الإتقان والكشاف لقوله تعالى **﴿ لهم غرف من**

فوقها غرف ﴾ أخرج ابن الضريس . وابن مردويه . والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس أنها أنزلت بمكة ولم يستثن ، وأخرج النحاس عنه أنه قال : نزلت سورة الزمر بمكة سوى ثلاث آيات نزلت بالمدينة في وحشي قاتل حمزة ﴿ **قل ياعبادي الذين أسرفوا على أنفسهم** ﴾ إلى ثلاث آيات ، وزاد بعضهم ﴿ **قل ياعبادي الذين آمنوا اتقوا ربكم** ﴾ الآية ذكره السخاوي في جمال القراء وحكاه أبو حيان عن مقاتل ، وزاد بعض ﴿ **الله نزّل أحسن الحديث** ﴾ حكاه ابن الجوزي ، والمذكور في البحر عن ابن عباس استثناء ﴿ **الله نزّل أحسن الحديث** ﴾ وقوله تعالى ﴿ **قل ياعبادي الذين أسرفوا** ﴾ الخ ، وعن بعضهم إلا سبع آيات من قوله سبحانه ﴿ **قل ياعبادي الذين أسرفوا** ﴾ إلى آخر السبع وآيها خمس وسبعون في الكوفي ، وثلاث في الشامي ، واثنتان في الباقي ، وتفصيل الاختلاف في مجمع البيان وغيره ، ووجه اتصال أولها بآخر سورة (صٓ) أنه قال سبحانه هناك : ﴿ **إن هو إلا ذكر للعالمين** ﴾ وقال جل شأنه هنا ﴿ **تنزيل الكتاب من الله** ﴾ وفي ذلك كمال الالتئام بحيث لو أسقطت البسملة لم يتنافر الكلام ، ثم إنه تعالى ذكر آخر سورة (صٓ) قصة خلق آدم ، وذكر في صدر هذه قصة خلق زوجه منه ، وخلق الناس كلهم منه ، وذكر خلقهم في بطون أمهاتهم خلقاً من بعد خلق ، ثم ذكر أنهم مَيِّتون ، ثم ذكر سبحانه القيامة والحساب والجنة والنار وختم بقوله سبحانه : ﴿ **وقضي بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين** ﴾ فذكر جل شأنه أحوال الخلق من المبدأ إلى آخر المعاد ، متصلاً بخلق آدم ـــ عليه السلام ـــ المذكور في السورة قبلها ، وبين السورتين أوجه أخر من الربط ، تظهر بالتأمل ، فتأمّل .) .

☆ ☆ ☆

المقدمة :

وهي آية واحدة وهذه هي :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾

التفسير :

﴿ **تنزيل الكتاب** ﴾ أي: القرآن ﴿ **من الله العزيز** ﴾ أي: المنيع الجناب ، غير المنازَع في السّلطان ﴿ **الحكيم** ﴾ في تدبيره وفي أقواله وأفعاله ، وشرعه وقدره .

كلمة في السياق :

قلنا إن محور هذه السورة من سورة البقرة هو قوله تعالى: ﴿ **الٓمٓ * ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين** ﴾ وقد جاءت مقدّمة السورة لتقرّر أنّ منزل هذا القرآن الذي لا ريب فيه هو الله العزيز الحكيم ، وفي ذكر اسم الله العزيز في هذه المقدمة بيان أن الله لم ينزل كتابه ذلّة ، وأنّ مافيه من تكليف إنما هو تكليف عزيز في سلطانه ، وفي ذلك إشعار إلى أنه سيحاسب ويعاقب لمن خالف كتابه ، فذلك شأن العزيز ، وفي ذكر اسم الله الحكيم في هذه المقدمة إشعار بأن كتابه حكيم ، لأن الحكيم يصدر عنه ماهو حكيم ، وفي ذلك بيان أن هذا القرآن فيه الحكمة في ما أمر ، وفي مانهى ، وفيما أخبر ، وفي ترتيبه ، وترتيب سوره ، وترتيب آياته . وإن ظهور الحكمة في هذا القرآن، وظهور آثار العزة الإلهية فيه لواضح ، وذلك دليل على أن هذا القرآن من عند الله العزيز الحكيم ، فالبشر لا يملكون الحكمة الكاملة ، لأنّهم لا يملكون العلم الكامل ، والبشر لا يملكون العزة المطلقة ، فلو أنّ هذا القرآن بشريّ المصدر لظهر فيه الضعف البشري ، والجهل البشري ، أمّا وهو منزّه عن ذلك فذلك دليل أنّه من عند الله ، وإذ تقرر ذلك كله في المقدمة يأتي المقطع الأول .

المقطع الأول

ويتألف من سبع مجموعات ، ويمتد من الآية (٢) إلى نهاية الآية (٤٠) وهذا هو :

المجموعة الأولى

إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿٢﴾ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ
ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ
ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾
لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ
ٱلْقَهَّارُ ﴿٤﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ
ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ
ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٥﴾ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ
ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۚ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ
ثَلَٰثٍ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾ إِن تَكْفُرُوا۟
فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ ۗ وَلَا
تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۚ إِنَّهُۥ
عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٧﴾ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا

خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن
سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ﴿٨﴾ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ
ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ
يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾

المجموعة الثانية

قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ
ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ
أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّىٓ
أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ﴿١٤﴾
فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ
ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن
تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ ۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟
ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ
يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟
ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٨﴾

المجموعة الثالثة

أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ ﴿١٩﴾ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ
لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ
ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٢٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ
يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ
لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢١﴾

المجموعة الرابعة

أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن
ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا
مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ
ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾

المجموعة الخامسة

أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ
تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ
﴿٢٥﴾ فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟
يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾

المجموعة السادسة

وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾
قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ
مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ
لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ
رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ ۚ
أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ ۙ أُولَٰئِكَ
هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ
اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾

المجموعة السابعة

أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ ۚ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ
مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّضِلٍّ ۗ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انتِقَامٍ ﴿٣٧﴾
وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ
مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ

هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾

تفسير المجموعة الأولى

﴿ **إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق** ﴾ فالمنزِل هو الله تعالى، والمنزَل عليه محمد ﷺ، والمنزَل بالحق الكتاب، ويلاحظ التشابه بين الآية الأولى في السورة وهذه الآية قال النسفي: (هذا ليس بتكرار؛ لأنّ الأول (أي: ماورد في الآية الأولى) كالعنوان للكتاب، أي: القرآن، والثاني (أي: ماورد في هذه الآية لبيان مافي الكتاب) أي: القرآن، أي لبيان مضمون مافي هذا الكتاب وهو الحق الخالص، وبعد أن بيّن الله عزّ وجلّ هذا، أمر اللهُ رسولَه ﷺ بالعبادة والإخلاص، فهما لازما كون هذا القرآن من عند الله، وكونه حقاً خالصاً، لقد خلق الله الخلق لعبادته، فشيء بديهي أن ينزل كتابه من أجل هذه العبادة، وبيانها والمطالبة بها، وذكر شروطها ومواصفاتها، ومن ثَمّ قال: ﴿ **فاعبد الله مخلصاً له الدين** ﴾ أي: ممحِّضاً له الدين من الشرك والرياء، وذلك بالتوحيد، وتصفية السر، قال ابن كثير: (أي: فاعبد الله وحده لاشريك له، وادعُ الخلق إلى ذلك، وأعلمهم أنه لا تصلح العبادة إلا له وحده، وأنه ليس له شريك ولا عديل ولا نديد) ﴿ **ألا لله الدين الخالص** ﴾ أي: هو الذي وجب اختصاصه بأن تخلص له الطاعة من كل شائبة كَدَر؛ لاطّلاعه على الغيوب والأسرار. فالدين في الآية المراد به الخضوع والطاعة. قال ابن كثير في الآية: (أي: لا يقبل من العمل إلا ما أخلص فيه العامل لله وحده لا شريك له) وهذا لا يكون إلا بالتوحيد الخالص، ومن ثمّ فسّر قتادة الدين في الآية: بأنه شهادة أن لا إله إلا الله ﴿ **والذين اتّخذوا من دونه** ﴾ أي: من دون الله ﴿ **أولياء** ﴾ أي: آلهة فإنهم يقولون ﴿ **ما نعبدهم إلا ليقرِّبونا إلى الله زلفىٰ** ﴾ أي: تقرباً، أي: ليشفعوا لهم عند الله تعالى في نصرهم ورزقهم، وما ينوبهم من أمور الدنيا، أما الآخرة فكانوا جاحدين لها، كافرين بها ﴿ **إن الله يحكم**

بينهم ﴾ أي: بين عباده والمشركين به يوم القيامة ﴿ **في ما هم فيه يختلفون** ﴾ دلّ على أنّ المشركين ينازعون ويفلسفون ، ويجادلون ويدّعون ويبرّرون . كما دلّت الآية على أنّ الله يحكم يوم القيامة بين المتنازعين من الفريقين ، أي: سيفصل بين الخلائق يوم معادهم ، ويجزي كل عامل بعمله ﴿ **إن الله لا يهدي من هو كاذب كَفّار** ﴾ قال ابن كثير : (أي: لايرشد إلى الهداية من قصد الكذب والافتراء على الله تعالى ، وقلبه كافر بآياته وحججه وبراهينه .) قال النّسفي : (أي: لا يهدي من هو في علمه أنه يختار الكفر ، يعني لا يوفّقه للهدى ، ولا يعينه وقت اختياره الكفر ، ولكنه يخذله)

أقول : دلّت الآية على أنّه إذا اجتمعت صفتا الكذب والكفران في إنسان فإنّ الله لا يلهمه الهداية ، فليحذر امرؤ من صفتي الكذب والكفران ﴿ **لو أراد الله أن يتّخذ ولداً لاصطفى مما يخلق ما يشاء** ﴾ أي: لو جاز اتخاذ الولد على ما تظنون لاختار مما يخلق ما يشاء ، لا ما تختارون أنتم وتشاؤون ، وقد أشعرتنا الآية أنّ بعضاً ممّن عبدوا مع الله غيره ليتقربوا ـــ في زعمهم ـــ إليه ، عبدوهم بعد أن خلعوا عليهم صفات البنوّة لله عز وجل كبعض العرب إذ قالوا : الملائكة بنات الله ، والنصارىٰ الذين قالوا : المسيح ابن الله ، واليهود الذين قالوا : عزير ابن الله ، وقد ردّ الله هذا القول وفنّده ، ثمّ نزّه ذاته سبحانه عن أن يكون له مانسبوا إليه من الشركاء والأولاد فقال : ﴿ **سبحانه** ﴾ أي: تعالى وتقدّس وتنزّه عن أن يكون له ولد ﴿ **هو الله الواحد القهار** ﴾ أي فإنه الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، الذي كل شيء عبد لديه ، فقير إليه ، وهو الغني عمّا سواه ، الذي قد قهر الأشياء ؛ فدانت له وذلّت وخضعت ، وإذ كان كذلك فقد كذب من نسب إليه الشريك والولد . قال النسفي : (يعني: أنه واحد ، متبرىء عن انضمام الأعداد ، متعالٍ عن التجزؤ والأولاد ، قهار غلاب لكل شيء ، ومن الأشياء آلهتم ، فأنّىٰ يكون له أولاد وشركاء .)

نقل :

بمناسبة قوله تعالى على لسان المشركين : ﴿ **ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفىٰ** ﴾ قال صاحب الظلال :

(فلقد كانوا يعلنون أن الله هو خالقهم وخالق السماوات والأرض .. ولكنهم لم يكونوا يسيرون مع منطق الفطرة في إفراد الخالق إذن بالعبادة ، وفي إخلاص الدين لله بلا

شريك . إنما كانوا يبتدعون أسطورة بنوة الملائكة لله سبحانه . ثم يصوغون للملائكة تماثيل يعبدونها فيها . ثم يزعمون أن عبادتهم لتماثيل الملائكة ـــ وهي التي دعوها آلهة أمثال اللات والعزى ومناة ـــ ليست عبادة لها في ذاتها ، إنما هي زلفىٰ وقربىٰ لله ؛ كي تشفع لهم عنده ، وتقرّبهم منه !

وهو انحراف عن بساطة الفطرة واستقامتها ، إلى هذا التعقيد والتخريف . فلا الملائكة بنات الله . ولا الأصنام تماثيل للملائكة . ولا الله ـــ سبحانه ـــ يرضى بهذا الانحراف . ولا هو يقبل فيهم شفاعة . ولا هو يقربهم إليه عن هذا الطريق !

وإن البشرية لتنحرف عن منطق الفطرة كلما انحرفت عن التوحيد الخالص البسيط الذي جاء به الإسلام ، وجاءت به العقيدة الإلهية الواحدة مع كل رسول . وإنا لنرى اليوم في كل مكان عبادة للقديسين والأولياء ، تشبه عبادة العرب الأولين للملائكة ـــ أو تماثيل الملائكة ـــ تقرباً إلى الله ـــ بزعمهم ـــ وطلبا لشفاعتهم عنده . وهو سبحانه يحدد الطريق إليه . طريق التوحيد الخالص الذي لا يتلبس بوساطة أو شفاعة على هذا النحو الأسطوري العجيب !)

كلمة في السياق :

قلنا إن محور السورة هو قوله تعالى : ﴿ **الٓمٓ * ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين** ﴾ والآيات السابقة قرّرت أن هذا الكتاب من عند الله ، وأنّ ذلك يقتضي توحيد الله بالعبادة ، وإذن فأوّل مظاهر هدايته للمتقين دلالتهم على إفراد الله تعالى بالعبادة ، وإخلاصهم إيَّاها لله عز وجل ، وإن الشرك بكل صوره باطل ، ولنلاحظ الصلة بين قوله تعالى في الآيات المارة ﴿ **إن الله لا يهدي من هو كاذب كفار** ﴾ ، وبين قوله تعالى في الآية التي هي محور السورة من سورة البقرة ﴿ **هدىً للمتقين** ﴾ ولنلاحظ أنه في سورة البقرة قال تعالى بعد مقدمتها ﴿ **يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون** ﴾ مما يشير إلى أن نقطة البداية الصحيحة للوصول إلى التقوىٰ هي العبادة ، وسورة الزمر ـــ التي هي تفصيل لقوله تعالى : ﴿ **ذلك الكتاب لا ريب فيه هدىً للمتقين** ﴾ـــ تذكر في سياقها الآن نقطة البداية التي يقتضيها إنزال هذا القرآن ، وهي العبادة الخالصة لله عز وجل ، التي هي الطريق للاهتداء إلى اتباع كتاب الله ، والتي هي اللازم الأول لإنزال الكتاب ، وبعد أن بيّن الله عز وجل في الآيات التي مرّت معنا استحقاقه وحده للعبادة ، وأنّه منزّه عن الشريك

والولد ، وأنه الواحد القهار ، يحدثنا الآن عن مظاهر من خلقه تدل على وحدانيته ، وعلى استحقاقه عز وجل العبادة وحده ، وتدلّ على تنزهه عن الشريك والولد .

— — — — — — — —

﴿ **خلق السمٰوات والأرض بالحق** ﴾ وخلقه السمٰوات والأرض بالحق دليل على أنه أنزل كتابه بالحق ، ودليل على أنّه سيكلّف ويحاسب ﴿ **يكوِّرُ الليل على النهار ويكوّر النهار على الليل** ﴾ قال النسفي : (والتكوير : اللف واللّي ، يقال كار العمامة على رأسه وكوّرها) وفي ذلك إشارة واضحة إلى كروية الأرض ؛ إذ التكوير لا يكون إلا للشيء الدائري . وقال ابن كثير في الآية : (أي : سخّرهما يجريان متعاقبين لا يفتران ، كل منهما يطلب الآخر طلباً حثيثاً) وقد أثبتنا في سورة الأعراف وغيرها أنّ القرآن أشار إلى دوران الأرض ، ونقول ههنا : إن ذكر تكوير الليل على النهار ، وتكوير النهار على الليل ، فيه إشارة إلى الكروية والدوران ، والله أعلم ﴿ **وسخّر الشمس والقمر كل يجري لأجل مُسمّى** ﴾ أي : إلى مدة معلومة عند الله ، تنتهي بيوم القيامة ﴿ **ألا هو العزيز** ﴾ أي : الغالب القادر ﴿ **الغفّار** ﴾ أي : مع عزته وعظمته وكبريائه هو غفار لمن عصاه ثم تاب وأناب إليه ﴿ **خلقكم من نفس واحدة** ﴾ قال ابن كثير : (أي : خلقكم مع اختلاف أجناسكم وأصنافكم ، وألسنتكم وألوانكم ، من نفس واحدة ، وهو آدم عليه الصلاة والسلام) ﴿ **ثم جعل منها زوجها** ﴾ وهي حواء عليها السلام ﴿ **وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج** ﴾ قال ابن كثير : (وخلق لكم من ظهور الأنعام ثمانية أزواج ، وهي المذكورة في سورة الأنعام ﴿ **ثمانية أزواج من الضأن اثنين ومن المعز اثنين** ﴾ (من الآية : ١٤٣) ﴿ **ومن الإبل اثنين ومن البقر اثنين** ﴾ (من الآية : ١٤٤) وفي استعماله سبحانه كلمة أنزل كلام سنراه في الفوائد ﴿ **يخلقكم في بطون أُمهَاتكم خلقاً من بعد خلق** ﴾ نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم .... ﴿ **في ظلمات ثلاث** ﴾ قال النسفي : (ظلمة البطن والرحم والمشيمة) وهو قول ابن كثير . وذكر أنه قول ابن عباس ومجاهد وعكرمة .... ﴿ **ذلكم الله ربكم** ﴾ أي : الذي فعل هذا كله هو الله ربنا ﴿ **له الملك** ﴾ لأنّه الخالق ، دلّ على أنّ من فعل هذا هو وحده المستحقّ للربوبية ، والمالك الحقيقي ، وبالتالي فهو وحده المستحقّ لعبوديّتنا ، ومن ثمّ ختم الآية بقوله تعالى ﴿ **لا إله إلا هو فأنّىٰ تُصرفون** ﴾ عن عبادته سبحانه إلى عبادة غيره ؟ فأين يذهب بعقولكم ؟ .

نقول :

بمناسبة قوله تعالى: ﴿ **يكوّر الليل على النهار ويكوّر النهار على الليل** ﴾ قال صاحب الظلال : (وهو تعبير عجيب يقسر الناظر فيه قسراً على الالتفات إلى ما كشف حديثاً عن كروية الأرض ، ومع أنني في هذه الظلال حريص على ألا أحمل القرآن على النظريات التي يكشفها الإنسان ، لأنها نظريات تخطىء وتصيب ، وتثبت اليوم وتبطل غداً . والقرآن حق ثابت يحمل آية صدقه في ذاته ، ولا يستمدها من موافقة أو مخالفة لما يكشفه البشر الضعاف المهازيل !

مع هذا الحرص فإن هذا التعبير يقسرني قسراً على النظر في موضوع كروية الأرض . فهو يصوّر حقيقة مادية ملحوظة على وجه الأرض . فالأرض الكروية تدور حول نفسها في مواجهة الشمس ؛ فالجزء الذي يواجه الشمس من سطحها المكور يغمره الضوء ويكون نهاراً . ولكن هذا الجزء لا يثبت لأن الأرض تدور . وكلما تحركت بدأ الليل يغمر السطح الذي كان عليه النهار . وهذا السطح مكوّر ، فالنهار كان عليه مكوّراً والليل يتبعه مكوّراً كذلك . وبعد فترة يبدأ النهار من الناحية الأخرى يتكوّر على الليل . وهكذا في حركة دائبة : ﴿ **يكوّر الليل على النهار ويكوّر النهار على الليل** ﴾ . واللفظ يرسم الشكل ، ويحدد الوضع ، ويعين نوع طبيعة الأرض وحركتها . وكروية الأرض ودورانها يفسران هذا التعبير تفسيراً أدق من أي تفسير آخر لا يستصحب هذه النظرية) .

وبمناسبة قوله تعالى: ﴿**وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج**﴾ قال صاحب الظلال: (والأنعام الثمانية كما جاءت في آية أخرى ــ هي : الضأن والمعز والبقر والإبل، من كلّ ذكر وأنثى ، وكلٌّ من الذكر والأنثى يسمى زوجاً عند اجتماعهما . فهي ثمانية في مجموعها .. والتعبير يعبر عن تسخيرها للإنسان بأنه إنزال لها من عند الله ، فهذا التسخير منزل من عنده منزل من عليائه إلى عالم البشر ، ومأذون لهم فيه من عنده تعالى) .

كلمة في السّياق :

هاتان الآيتان خدمتا في تقرير أن القرآن حق ، وخدمتا في موضوع استحقاق الله

وحده للعبادة ، ومن ثم نلاحظ أن الآية التالية تتحدّث عن الشكر والكفر .

— — — — — — — —

﴿ **إن تكفروا فإن الله غني عنكم** ﴾ وعن أعمالكم وإيمانكم وأنتم محتاجون إليه لأنّكم أنتم الذين تتضررون بالكفرِ ، وتنتفعون بالإيمان ﴿ **ولا يرضىٰ لعباده الكفر** ﴾ أي: لا يحبه ولا يأمر به وإن كان بإرادته ، لأنه لا يخرج شيء عن إرادته ، فالإرادة في حق الله غير الأمر ، وغير الرضا ﴿ **وإن تشكروا** ﴾ بالإيمان والعبادة والعمل الصالح ﴿ **يرضه لكم** ﴾ أي: يرضىٰ الشكر لكم ، لأنه سبب فوزكم ، فيثيبكم عليه الجنة ، قال ابن كثير : (أي: يحبه لكم ويزدكم من فضله) ﴿ **ولا تزر وازرة وزر أخرىٰ** ﴾ أي: ولا يؤاخذ أحد بذنب آخر ، أي: ولا تحمل نفس عن نفس شيئاً ، بل كل مطالب بأمر نفسه ﴿ **ثمّ إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم تعملون إنه عليم بذات الصدور** ﴾ أي: فيخبركم بأعمالكم ويجازيكم عليها ، فإنّه لا تخفىٰ عليه خافية .

كلمة في السياق :

قرّرت هذه الآية استحقاق الله عز وجل للشكر ، وأن هذا الشكر لصالح الإنسان نفسه ، وقررت أن كفر الإنسان لا يضر الله عز وجل ، كما قررت أن كل نفس مسؤولة عن نفسها ، ومحاسبة على فعلها ، وهي معانٍ كلها مرتبطة بمعرفة الله عز وجل ، ومرتبطة بمعاني العبادة ، التي هي نقطة البداية في الاهتداء بهذا القرآن . والآن تأتي آية تذكّر الإنسان بأنّه في الضرُّ يوحّد ، وفي الرَّخاء يكفر ، وتهدده وتنذره .

— — — — — — — —

﴿ **وإذا مَسَّ الإنسان ضُرٌّ** ﴾ أي: بلاء وشدة ﴿ **دعا ربه منيباً إليه** ﴾ أي: راجعاً إلى الله بالدعاء ، لا يدعو غيره ﴿ **ثم إذا خوَّله** ﴾ أي: أعطاه ﴿ **نعمة منه** ﴾ أي: من الله عز وجل ﴿ **نَسِيَ ما كان يدعو إليه من قبل** ﴾ أي: نسي ربه الذي كان يتضرّع إليه ، أو نسي الضر الذي كان يدعو الله إلى كشفه . قال ابن كثير : (أي: في حال الرفاهية ينسىٰ ذلك الدعاء والتضرع) ﴿ **وجعل لله أنداداً** ﴾ أي: أمثالاً ﴿ **ليضل عن سبيله** ﴾ أي: عن الإسلام ، فهو في حال العافية يشرك بالله ، ويدعو إلى الشرك

﴿ **قل** ﴾ يا محمد لهذا الكافر ﴿ **تمتَّع بكفرك قليلاً** ﴾ أي: في الدنيا، وهو أمر تهديد. قال ابن كثير: (أي: قل لمن هذه حالته وطريقته ومسلكه: تمتّع بكفرك قليلاً، وهو تهديد شديد، ووعيد أكيد) دلّ هذا على أنّ للكفر متعته وهي آثار الكفر في الانفلات من التكليف ﴿ **إنّك من أصحاب النار** ﴾ أي: من أهلها.

كلمة في السياق:

أقامت هذه الآية الحجة على الكفار بأنّهم جاحدون لنعم الله العامة والخاصة؛ فالطبيعة الكافرة طبيعة جحود، على خلاف الطبيعة المؤمنة، ومن ثم تأتي الآية اللاحقة لتبيّن الفارق البعيد بين موقف الكافر الذي صوّرته الآية السابقة، وموقف المؤمن الشاكر الذي تصوره الآية اللاحقة.

﴿ **أمَّن هو قانت** ﴾ أي: مطيع لله ﴿ **آناء الليل** ﴾ أي: ساعاته ﴿ **ساجداً وقائماً** ﴾ أي: مصلياً ﴿ **يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه** ﴾ أي: هو في حال عبادته خائف راج، يخاف عذاب الآخرة، ويرجو جنة ربه، لا كذلك الكافر الجاحد المشرك، الذي مرّ ذكره في الآية السابقة ﴿ **قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون** ﴾ قال ابن كثير: (أي: هل يستوي هذا والذي قبله ممن جعل لله أنداداً؛ ليضل عن سبيله) جعل الكافر لا يعلم، وأي: علم لمن يجهل ربه، ويجهل طريق شكر ﴿ **إنّما يتذكّر أولوا الألباب** ﴾ أي: إنّما يتّعظ بوعظ الله أولوا العقول أو إنّما يعلم الفرق بين هذا وهذا من له لبٌّ وهو العقل.

نقل

بمناسبة قوله تعالى: ﴿ **هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون** ﴾ قال صاحب الظلال رحمه الله: فالعلم الحق هو المعرفة. هو إدراك الحق. هو تفتّح البصيرة. هو الاتصال بالحقائق الثابتة في هذا الوجود. وليس العلم هو المعلومات المفردة المنقطعة التي تزحم الذهن، ولا تؤدي إلى حقائق الكون الكبرى، ولا تمتد وراء الظاهر المحسوس.

وهذا هو الطريق إلى العلم الحقيقي والمعرفة المستنيرة.. هذا هو.. القنوت لله وحساسية القلب، واستشعار الحذر من الآخرة، والتطلّع إلى رحمة الله وفضله؛

ومراقبة الله هذه المراقبة الواجفة الخاشعة .. هذا هو الطريق ، ومن ثم يدرك اللب ويعرف ، وينتفع بما يرى ومايسمع ومايجرب ؛ وينتهي إلى الحقائق الكبرى الثابتة من وراء المشاهدات والتجارب الصغيرة . فأما الذين يقفون عند حدود التجارب المفردة ، والمشاهدات الظاهرة ، فهم جامعو معلومات وليسوا بالعلماء ..)

كلمة في السياق :

١ ـ أعطتنا الآيتان الأخيرتان نموذجين على الشكر والكفر ، بما ينفّر من الكفر وأهله ، وبما يقيم الحجة على أهله ، وكلّ ذلك قد جاء بعد الآية التي ذكرت الشكر والكفر ، وكان قد سبق ذلك ذكر مايقتضي الشكر ، وجاء قبل ذلك الأمر بعبادة الله وتوحيده بعد ذكر أن العبادة هي اللازم لإنزال القرآن بالحق .

٢ ـ كنّا ذكرنا أن بين سورة الزمر وبين سورة يونس تشابهاً يدلّنا على وحدة المحور ، وذكرنا نماذج على التشابه ، وههنا نذكر نوعاً آخر من التشابه : في سورة يونس يتكرّر الكلام عن النفسية الكافرة ، كيف تقبل على الله في الشدة ، وتكفر في الرخاء :

قال تعالى في سورة يونس : ﴿ **وإذا مَسّ الإنسان الضُّر دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائماً فلما كشفنا عنه ضُرَّه مَرَّ كأن لم يدعنا إلى ضر مَسَّه كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون** ﴾ (الآية : ١٢) وقال كذلك في سورة يونس ﴿ **وإذا أذقنا الناس رحمة من بعد ضراء مَسَّتهم إذا لهم مكر في آياتنا قل اللَّهُ أسرعُ مكراً إن رسلنا يكتبون ما تمكرون** ﴾ (الآية : ٢١) وقال تعالى في سورة الزمر : ﴿ **وإذا مَسّ الإنسان ضُرٌّ دعا ربّه منيباً إليه ثم إذا خوَّله نعمة منه نسيَ ما كان يدعو إليه من قبل وجعل لله أنداداً ليضلّ عن سبيله قل تمتَّع بكفرك قليلاً إنّك من أصحاب النار** ﴾ (الآية ٨) وسيأتي في المقطع الثاني من سورة الزمر قوله تعالى : ﴿ **فإذا مس الإنسان ضُرٌّ دعانا ثم إذا خوَّلناه نعمة مِنّا قال إنما أُوتيته على علم بل هي فتنة ولكن أكثرهم لا يعلمون** ﴾ .

٣ ـ بدأ المقطع الأول بالأمر بعبادة الله ، ثم أوصلنا إلى الكلام عن شكر الله ، ثم من خلال المقارنة بين المطيع المؤمن والجاحد ، عرّفنا على مظهر من مظاهر عبادته تعالى وهو الصلاة آناء الليل، مع التلبس بحالي الرجاء والخوف ، فعرفنا من خلال ذلك مظهراً من مظاهر الشكر ، ومن مظاهر العبادة ، وذلك عنوان العلم الصحيح ، ومن ثمّ فإن

علينا أن نعطي قيام الليل حقه من سلوكنا ، إذا أردنا أن نشكر نعمة الله علينا بهذا القرآن ، وبما سخّر لنا من الأكوان .

٤ - بعد أن استقر السياق في المقطع الأول على مارأينا تأتي مجموعة أخرى يأمر الله فيها رسوله ﷺ أن يقول مجموعة أقوال سنراها أثناء عرضنا للمجموعة ، ولنلاحظ قبل أن نعرض المجموعة القادمة أن المجموعة التي مرت معنا انتهت بقوله تعالى ﴿ **إنّما يتذكّر أولوا الألباب** ﴾ وأنّ المجموعة القادمة ستنتهي بقوله تعالى ﴿ **أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب** ﴾ وقد لاحظنا أن المجموعة السابقة قد شكّلت وحدة متكاملة ، وسنرى أن المجموعة الثانية تشكل وحدة متكاملة كذلك ، ضمن المقطع الأوّل وسياقه .

وقبل أن ننتقل إلى المجموعة الثانية فلننقل بعض الفوائد المتعلقة بالمجموعة الأولى :

فوائد :

١ - في قوله تعالى على لسان المشركين ﴿ **ما نعبدهم إلاّ ليقرّبونا إلى الله زلفىٰ** ﴾ قال ابن كثير : (قال قتادة والسّدّي ومالك عن زيد بن أسلم وابن زيد ﴿ **إلا ليقربونا إلى الله زلفىٰ** ﴾ أي : ليشفعوا لنا ويقربونا عنده منزلة ، ولهذا كانوا يقولون في تلبيتهم إذا حجُّوا في جاهليتهم : لبيك لا شريك لك ، إلا شريكاً هو لك ، تملكه وما ملك ، وهذه الشبهة هي التي أعتمدها المشركون في قديم الدهر وحديثه ، وجاءتهم الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين بردّها ، والنهي عنها ، والدعوة إلى إفراد العبادة لله وحده لا شريك له ، وأن هذا شيء اخترعه المشركون من عند أنفسهم ، لم يأذن الله فيه ، ولا رضي به ، بل أبغضه ونهى عنه ﴿ **ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت** ﴾ (النحل : ٣٦) ﴿ **وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون** ﴾ (الأنبياء : ٢٥) وأخبر أن الملائكة التي في السمٰوات من الملائكة المقربين وغيرهم ، كلهم عبيد خاضعون لله ، لا يشفعون عنده إلا بإذنه لمن ارتضى ، وليسوا عنده كالأمراء عند ملوكهم يشفعون عندهم بغير إذنهم فيما أحبه الملوك وأبوه ﴿ **فلا تضربوا لله الأمثال** ﴾ (النحل : ٧٤) تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً)

٢ - يلاحظ أن الله عز وجل قال: ﴿ **وأنزل لكم من الأنعام** ﴾ فهل المراد بالإنزال الخلق ، أو غير ذلك ؟ قال النسفي مفسّراً كلمة (أنزل) في الآية : (أي : جعل عن الحسن، أو خلقها في الجنة مع آدم عليه السلام ، ثم أنزلها ، أو لأنها لا تعيش إلا بالنبات ، والنبات لا يقوم إلا بالماء ، وقد أنزل الماء فكأنه أنزلها)

٣ ـــ عند قوله سبحانه وتعالى عن المؤمن : ﴿ **يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه** ﴾ قال النسفي : (ودلّت الآية على أن المؤمن يجب أن يكون بين الخوف والرجاء يرجو رحمته لا عمله ، ويحذر عقابه لتقصيره في عمله ، ثم الرجاء إذا جاوز حدّه يكون أمناً ، والخوف إذا جاوز حدّه يكون إياساً ، وقد قال الله تعالى ﴿ **فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون** ﴾ (الأعراف : ٩٩) وقال ﴿ **إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون** ﴾ (يوسف : ٨٧) فيجب أن لا يجاوز أحدهما حده) وقال ابن كثير : (ولابد في العبادة من هذا وهذا (أي الرجاء والخوف) وأن يكون الخوف في مدة الحياة هو الغالب ، ولهذا قال تعالى : ﴿**يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه** ﴾ فإذا كان عند الاحتضار فليكن الرجاء هو الغالب عليه ، كما قال الإمام عبد بن حميد في مسنده عن أنس رضي الله عنه قال : دخل رسول الله ﷺ على رجل وهو في الموت فقال « كيف تجدك ؟ » فقال : أرجو وأخاف ، فقال رسول الله ﷺ : « لا يجتمعان في قلب عبد في مثل هذا الموطن إلا أعطاه الله عز وجل الذي يرجو ، وأمّنه الذي يخافه » . ورواه الترمذي والنسائي في اليوم والليلة ، وابن ماجه وقال الترمذي غريب ، وقد رواه بعضهم عن ثابت عن أنس عن النبي ﷺ مرسلاً .)

٤ - وفي قوله تعالى: ﴿ **أمّن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً** ﴾ قال ابن كثير : يقول عز وجل أمّن هذه صفته كمن أشرك بالله وجعل له أنداداً ؟ لا يستوون عند الله كما قال تعالى : ﴿ **ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون** ﴾ (آل عمران : ١١٣) وقال تبارك وتعالى ههنا﴿ **أمن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً** ﴾ أي: في حال سجوده وفي حال قيامه ، ولهذا استدل بهذه الآية من ذهب إلى أن القنوت هو الخشوع في الصلاة ، ليس هو القيام وحده ، كما ذهب إليه آخرون . وقال الثوري عن فراس عن الشعبي عن مسروق عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال : القانت المطيع لله عز وجل ولرسوله ﷺ ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما والحسن والسّدّي وابن زيد (آناء الليل) : جوف الليل ، وقال الثوري

عن منصور : بلغنا أن ذلك بين المغرب والعشاء ، وقال الحسن وقتادة : آناء الليل أوله وأوسطه وآخره)

(وروى ابن أبي حاتم عن يحيىٰ البكاء أنه سمع ابن عمر رضي الله عنهما يقرأ ﴿ **أمَّن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه** ﴾ قال ابن عمر : ذاك عثمان بن عفان رضي الله عنه ، وإنما قال ابن عمر رضي الله عنهما ذلك لكثرة صلاة أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه بالليل ، وقراءته ، حتى أنه ربما قرأ القرآن في ركعة كما روى ذلك أبو عبيدة عنه رضي الله تعالى عنه ، وقال الشاعر :

ضحوا بأشمط عنوان السجود به   يقطع الليل تسبيحاً وقرآناً

وقال الإمام أحمد كتب إلي الربيع بن نافع ... عن تميم الداري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من قرأ بمائة آية في ليلة كتب له قنوت ليلة » وكذا رواه النسائي في اليوم والليلة .

٥ – عند قوله تعالى: ﴿ **هل يستوي الذين يعلمون والذين لايعلمون** ﴾قال النسفي : (كأنه جعل من لا يعمل غير عالم ، وفيه ازدراء عظيم بالذين يقتنون العلوم ، ثم لايقنتون ويفتنّون فيها ثم يفتنون بالدنيا ، فهم عند الله جهلة ، حيث جعل القانتين هم العلماء ، أو أريد به التشبيه أي كما لا يستوي العالم والجاهل ، كذلك لا يستوي المطيع والعاصي) . ولننتقل إلى المجموعة الثانية في المقطع الأول من سورة الزمر .

تفسير المجموعة الثانية

﴿ **قل ياعباد الذين آمنوا اتقوا ربكم** ﴾ بامتثال أوامره ، واجتناب نواهيه ، ﴿ **للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة** ﴾ قال النسفي : (معناه: الذين أحسنوا في هذه الدنيا فلهم حسنة في الآخرة وهي دخول الجنة) وقال ابن كثير : أي لمن أحسن العمل في هذه الدنيا حسنة في دنياهم وأخراهم ﴿ **وأرض الله واسعة** ﴾ قال مجاهد : فهاجروا فيها وجاهدوا واعتزلوا الأوثان . وقال عطاء : (أي) إذا دُعيتم إلى معصية فاهربوا ، وقال النسفي : (أي لاعذر للمفرّطين في الإحسان البتة ، حتى إن اعتلوا بأنهم لا يتمكّنون في أوطانهم من التوفر على الإحسان ، قيل لهم فإن أرض الله واسعة ، وبلاده كثيرة ، فتحوّلوا إلى بلاد أخر . واقتدوا بالأنبياء والصالحين في مهاجرتهم إلى غير

بلادهم ليزدادوا إحساناً إلى إحسانهم ، وطاعة إلى طاعتهم) . ﴿ **إنما يوفَّى الصابرون** ﴾على مفارقة أوطانهم وعشائرهم ، وعلى غيرها من تَجرُّع الغصص ، واحتمال البلايا في طاعة الله ، وازدياد الخير ﴿ **أجرهم بغير حساب** ﴾ أي : لا يهتدي إليه حساب الحسّاب ولا يعرف ، أي : يوفون أجرهم موفراً في الجنة ﴿ **قل إني أمرت أن أعبد الله** ﴾ أي : بأن أعبد الله ﴿ **مخلصاً له الدين** ﴾ أي : أمرت بإخلاص الدين ، قال ابن كثير : أي : إنما أمرت بإخلاص العبادة لله وحده لا شريك له ﴿ **وأمرت لأن أكون أول المسلمين** ﴾ قال السّدّى : يعني من أمته . قال النسفي : (أي وأمرت بذلك لأجل أن أكون أوّل المسلمين أي مقدّمهم وسابقهم في الدنيا والآخرة . والمعنى : أن الإخلاص له السُّبقة في الدين فمن أخلص كان سابقاً ، فالأول أمر بالعبادة مع الإخلاص ، والثاني بالسبق ، فلاختلاف جهتيهما نزلا منزلة المختلفين ، فصح عطف أحدهما على الآخر) .

﴿ **قل** ﴾ يا محمد ﴿ **إنّي أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم** ﴾ وهو يوم القيامة ، فإذا كان هو كذلك فما بال المقصّرين ﴿ **قل الله أعبد مخلصاً له ديني** ﴾ قال النسفي : (وهذه الآية إخبار بأنه يخص الله وحده بعبادته مخلصاً له دينه دون غيره ، والأولى إخبار بأنه مأمور بالعبادة والإخلاص ، فالكلام أولاً واقع في نفس الفعل وإثباته ، وثانياً فيما يفعل الفعل لأجله) . ولذلك رتّب عليه قوله ﴿ **فاعبدوا ما شئتم من دونه** ﴾وهذا أمر تهديد وتبرٍ منهم ﴿ **قل إن الخاسرين** ﴾ أي : الكاملين في الخسران ، الجامعين لوجوهه وأسبابه ﴿ **الذين خسروا أنفسهم** ﴾ بإهلاكها في النار ﴿ **وأهليهم** ﴾ أي : وخسروا أهليهم ﴿ **يوم القيامة** ﴾ لأنّهم أضلّوهم فصاروا إلى النار ، ثم وصف خسرانهم وأنه في غاية الفظاعة بقوله ﴿ **ألا ذلك هو الخسران المبين** ﴾ وذلك لأنّهم استبدلوا بالجنة ناراً ، وبالدرجات دركات ، ثمّ وصف حالهم في النار فقال ﴿ **لهم من فوقهم ظلل** ﴾ أي : أطباق ﴿ **من النار ومن تحتهم ظلل** ﴾ أي : أطباق من النّار ، أي : النار محيطة بهم ﴿ **ذلك** ﴾ أي : الذي وصف من العذاب ، وذلك الظلل ﴿ **يخوِّف الله به عباده** ﴾ ليؤمنوا به ويتّقوه ، ويجتنبوا مناهيه ، دلّ ذلك على أنّ الوعظ لا يؤثر إلا في عباد الله المؤمنين ﴿ **يا عباد فاتقون** ﴾ أي : لا تتعرّضوا لما يوجب سخطي ، خوّفهم بالنّار ، ثمّ حذّرهم نفسه ، قال ابن كثير : أي : اخشوا بأسي وسطوتي وعذابي ونقمتي ، ﴿ **والذين اجتنبوا الطاغوت** ﴾ أي : الشياطين ﴿ **أن**

يعبدوها ﴾ أي: عبادتها ﴿ **وأنابوا** ﴾ أي: رجعوا ﴿ **إلى الله لهم البشرى** ﴾ قال النسفي: هي البشارة بالثواب تتلقاهم الملائكة عند حضور الموت مبشّرين، وحين يحشرون ﴿ **فبشّر عباد * الذين يستمعون القول فيتّبعون أحسنه** ﴾ أي: يفهمونه ويعملون بما فيه قال النسفي: (أراد أن يكونوا نقاداً في الدين يميِّزون بين الحسن والأحسن، والفاضل والأفضل، فإذا اعترضهم أمران واجب وندب اختاروا الواجب، وكذا المباح والندب، حرصاً على ما هو أقرب عند الله، وأكثر ثواباً أو يستمعون القرآن وغيره، فيتّبعون القرآن، أو يستمعون أوامر الله فيتبعون أحسنها نحو القصاص والعفو ونحو ذلك، أو يستمعون الحديث مع القوم فيه محاسن ومساوىء، فيحدّث بأحسن ما سمع، ويكفّ عن سواه) ﴿ **أولئك الذين هداهم الله** ﴾ أي: المتّصفون بهذه الصفة هم الذين هداهم الله في الدنيا والآخرة ﴿ **وأولئك هم أولوا الألباب** ﴾ أي: ذوو العقول والفطر المستقيمة.

— — — — — — — —

نقل

بمناسبة قوله تعالى: ﴿ **وأرض الله واسعة** ﴾ قال صاحب الظلال: (فلا يقعد بكم حب الأرض، وإلف المكان، وأواصر النسب والقربى والصحبة في دار عن الهجرة منها، إذا ضاقت بكم في دينكم، وأعجزكم فيها الإحسان. فإن الالتصاق بالأرض في هذه الحالة مدخل من مداخل الشيطان؛ ولون من اتخاذ الأنداد لله في قلب الإنسان.

وهي لفتة قرآنية لطيفة إلى مداخل الشرك الخفية في القلب البشري، في معرض الحديث عن توحيد الله وتقواه، تنبىء عن مصدر هذا القرآن. فما يعالج القلب البشري هذا العلاج إلا خالقه البصير به، العليم بخفاياه.

والله خالق الناس يعلم أن الهجرة من الأرض عسيرة على النفس، وأن التجرد من تلك الوشائج أمر شاق، وأن ترك مألوف الحياة ووسائل الرزق واستقبال الحياة في أرض جديدة تكليف صعب على بني الإنسان؛ ومن ثم يشير في هذا الموضع إلى الصبر وجزائه المطلق عند الله بلا حساب: ﴿ **إنما يُوفَّى الصابرون أجرهم بغير حساب** ﴾.

كلمة في السياق :

١ – يلاحظ أن هذه المجموعة بدأت بقوله تعالى ﴿ **قل يا عباد الذين آمنوا** ﴾ وختمت بقوله تعالى : ﴿ **فبشّر عباد الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب** ﴾ ومن البداية والنهاية نعرف أنّ من صفات عباد الله : الإيمان ، واتّباع الحسن ، أو الأحسن من القول ، وتلك علامة الهداية فيهم ﴿ **أولئك الذين هداهم الله** ﴾ فلنتذكر محور السورة من سورة البقرة ﴿ **ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين * الذين يؤمنون بالغيب** ﴾ فالمتقون هم المهتدون بهدي القرآن ، وهم المؤمنون ، وهم عباد الله .

٢ – يلاحظ أنّ الآية الأولى في المجموعة أمرت بالتقوى ، ﴿ **قل يا عباد الذين آمنوا اتقوا ربكم** ﴾ ، وحضّت على الصّبر ﴿ **إنما يُوفّي الصابرون أجرهم بغير حساب** ﴾ والصبر جزء من التقوى كما رأينا ذلك في آية البرّ من سورة البقرة ، فالأمر بالتقوى والصبر أمر بالاهتداء بكتاب الله ، وذلك محور السورة ﴿ **ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين** ﴾ .

٣ – يلاحظ أنّ الله عزّ وجلّ أمر رسوله ﷺ أن يعلن إخلاصه العبادة لله قولاً ، وأن يعلن ممارسته لهذا الإخلاص في العبادة فعلاً ، وأن ينذر المشركين ، وأن يبيّن لهم خسارهم ، وأن يعلن خوفه من الله عز وجل ، وكل ذلك قضايا توضح ماهية التقوى ، وحقيقة المتقين الذين يهتدون بهذا القرآن .

٤ – من قوله تعالى : ﴿ **لهم من فوقهم ظُلَل من النار ومن تحتهم ظُلَل ذلك يخوّف الله به عباده يا عباد فاتقون** ﴾ ندرك أنّ السياق يربّي فينا مشاعر التقوى ، ومن ثمّ نعلم أن السورة تضعنا على حقيقة التقوى ، وتربينا عليها ، ولذلك صلته بقوله تعالى عن القرآن في آية المحور ﴿ **هدى للمتقين** ﴾ ومما ذكرناه ندرك صلة المجموعة بمحور السورة ، وأما صلة المجموعة بسياق السورة الخاص فقد رأينا من بداية المقطع أنّ الله عزّ وجلّ ربط بين نزول القرآن ، والأمر بعبادته ، والإخلاص فيها ، وبعد أن ذكر كل ما يلزم لتعميق هذا المعنى ، أمر رسوله ﷺ في هذه المجموعة أن يقول كلّ ما يلزم للتوكيد والتوضيح ، وهكذا نجد أنّه سبحانه أمره ﷺ في المجموعة الأولى أن يعبد ، وفي هذه المجموعة أمره أن يقول ويبشّر .

٥- نلاحظ أن المجموعتين السابقتين ختمتا بذكر أولي الألباب ، ونلاحظ أن المجموعة الثالثة القادمة قد ختمت بقوله تعالى: ﴿ **إن في ذلك لذكرى لأولي الألباب** ﴾ ممّا يوضّح أنّ المجموعات الثلاث الأولى في المقطع تعرّفنا على نفسها من خاتمتها فلنر المجموعة الثالثة .

تفسير المجموعة الثالثة

﴿ **أفمن حق عليه** ﴾ أي: وجب عليه ﴿ **كلمة العذاب** ﴾ أي: أن يعذبه الله ﴿ **أفأنت تُنقذ مَنْ في النار** ﴾ أي: أفأنت تنقذه ؟ أي: لا يقدر أحد أن ينقذ من أضلّه الله ، وسبق في علمه أنّه من أهل النّار ، قال ابن كثير: يقول تعالى : أفمن كتب الله أنّه شقي تقدر تنقذه مما هو فيه من الضلال أو الهلاك ؟ أي: لا يهديه أحد من بعد الله ، لأنه من يضلل الله فلا هادي له ، ومن يهده فلا مضلّ له ، ثم أخبر تعالى عن عباده السعداء وما أعدَّ لهم فقال : ﴿ **لكن الذين اتقوا ربهم لهم غرف من فوقها غرف** ﴾ أي : لهم منازل في الجنة رفيعة ، وفوقها منازل أرفع ، فللكفار ظلل من النار ، وللمتقين غرف ﴿ **مبنية** ﴾ قال ابن كثير : طباق فوق طباق ، مبنيات محكمات مزخرفات عاليات ﴿ **تجري من تحتها الأنهار** ﴾ قال ابن كثير : أي: تسلك الأنهار خلال ذلك كما يشاؤون ، وأين أرادوا ﴿ **وعد الله** ﴾ أي: هذا الذي ذكره وعد وعده الله عباده المؤمنين ﴿ **لايخلف الله الميعاد** ﴾ فهو وعد كائن لا محالة ﴿ **ألم تر أنّ الله أنزل من السماء ماءً** ﴾ يعني المطر، قال ابن كثير : يخبر تعالى أن أصل الماء في الأرض من السماء ، وفي هذا الذي ذكره ابن كثير معنى كبير سنراه في الفوائد ﴿ **فسلكه ينابيع في الأرض** ﴾ أي: فأدخله عيوناً ومسالك ومجاري كالعروق في الأجساد ، أي: فإذا أنزل الماء من السماء كَمُنَ في الأرض ، ثم يصرّفه تعالى في أجزاء الأرض كما يشاء ، وينبعه عيوناً ما بين صغار وكبار بحسب الحاجة إليها ﴿ **ثمّ يخرج به** ﴾ أي: بالماء ﴿ **زرعاً مختلفاً ألوانه** ﴾ أي: هيئاته من خضرة، وحمرة ، وصفرة، وبياض ، وأصنافه من بُرٍّ ، وشعير، وسمسم ، وغير ذلك ﴿ **ثمّ يهيج** ﴾ أي: ثم يجفّ ﴿ **فتراه مصفراً** ﴾ بعد نضارته وحسنه، قال ابن كثير : أي: بعد نضارته وشبابه يكتهل فتراه مصفراً قد خالطه اليبس ﴿ **ثم يجعله حطاماً** ﴾ أي: فتاتاً متكسِّراً ، أي: ثم يعود يابساً يتحطم ﴿ **إنّ في**

ذلك ﴾ أي: في إنزال الماء وإخراج الزرع ﴿ **لذكرى** ﴾ أي: لتذكيراً وتنبيهاً ﴿ **لأولي الألباب** ﴾ على أنّه لابد من صانع حكيم، وأن ذلك كائن عن تقدير وتدبير، لا عن إهمال وتعطيل، قال ابن كثير: (أي: الذين يتذكّرون بهذا فيعتبرون إلى أن الدنيا هكذا تكون خضرة ناضرة حسناء، ثم تعود عجوزاً شوهاء، والشاب يعود شيخاً هرماً كبيراً ضعيفاً، وبعد ذلك كله الموت، فالسّعيد من كان حاله بعده إلى خير).

— — — — — — — —

كلمة في السياق :

١ - حدّدت هذه المجموعة في آيتيها الأوليين حال الكافرين في الآخرة، وحال المتقين بهذا الشكل المعجز الذي رأيناه، من وصف الكافر وهو في طبقات النار، إلى وصف المؤمن وهو في طبقات الجنان، وذلك لاستجاشة النَّفس وبعثها نحو التقوى التي من خصالها الاهتداء بالقرآن الكريم ﴿ **هدى للمتقين** ﴾وذلك يذكّرنا بصلة المجموعة بمحور السورة، وفي هذا السياق لفت الله نظر رسوله ﷺ إلى موضوع إنزال الماء من السماء، ومايترتب عليه من نبات، ومايحدث للنبات من تغيّرات، وفي ذلك تزهيد في الدنيا، وتشويق للآخرة، وفي ذلك تذكير بأن منزل الماء هو منزل القرآن، ولكن القرآن هو الحياة الدائمة للقلوب في الدنيا، وهو سبب الحياة الدائمة للإنسان في الآخرة، أمّا الماء فإنه يحيي، ولكنّ مآل من حييٰ به الموت، فالمجموعة كلها تهيّج على التقوى، وعلى طلب الآخرة.

٢ - والصلة بين المجموعة وماقبلها مباشرة واضحة، فما قبلها كان حديثاً عن المتقين الذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها، كما كان حديثاً عن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة، فالمجموعة تكمّل صورة ماأعدّ لهؤلاء وهؤلاء، مع لفت النظر إلى فناء هذه الدار من خلال النّظر إلى حياة النبات.

٣ - نلاحظ أن المجموعة الأولى ختمت بقوله تعالى: ﴿ **إنما يتذكر أولوا الألباب** ﴾ والمجموعة الثانية ختمت بقوله تعالى: ﴿ **أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب** ﴾ والمجموعة الثالثة ختمت بقوله تعالى: ﴿ **إن في ذلك لذكرى لأولي الألباب** ﴾ والآن تأتي مجموعة تبدأ بالحديث عن نعْمة الله على مَنْ شرح الله قلبه للإسلام ﴿ **أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه** ﴾ فكأن المجموعات

الثلاث مقدمة لتبيان عظمة الاهتداء بهذا القرآن ، وكأن المجموعات الثلاث مقدّمة لتبيان فظاعة قسوة القلب .

فلنر المجموعة الرابعة في المقطع الأول من السورة :

تفسير المجموعة الرابعة

﴿ **أفمن شرح الله صدره للإسلام** ﴾ أي : وسّع صدره للإسلام فاهتدى ﴿ **فهو على نور من ربه** ﴾ أي : على بيان وبصيرة ، والمعنى أفمن شرح الله صدره فاهتدى ، كمن طبع على قلبه فقسا قلبه ، ولكنه حذف لدلالة ما بعده عليه ، قال ابن كثير : أي : هل يستوي هذا ومن هو قاسي القلب بعيد عن الحق ، ﴿ **فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله** ﴾ أي : فلا تلين عند ذكره ، ولا تخشع ، ولا تعي ، ولا تفهم ، قال النسفي : أي : من تَرْك ذكر الله ، أو من أجلِ ذكر الله ، أي : إذا ذكر الله عندهم أو آياته ازدادت قلوبهم قساوة كقوله ﴿ **فزادتهم رجساً إلى رجسهم** ﴾ (التوبة : ١٢٥) ﴿ **أولئك في ضلال مبين** ﴾ أي : في غواية ظاهرة ﴿ **الله نزّل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً** ﴾ أي : يشبه بعضه بعضاً في الصدق والبيان ، والوعظ والحكمة والإعجاز ، وغير ذلك ﴿ **مثاني** ﴾ جمع مثنى بمعنى : مُردّد ومكرّر لما ثُني من قصصه ، وأنبائه وأحكامه ، وأوامره ونواهيه ، ووعده ووعيده ، ومواعظه ومعانيه . قال ابن كثير : وليس هذا من المتشابه المذكور في قوله تعالى ﴿ **منه آيات محكمات هنّ أمّ الكتاب وأخر متشابهات** ﴾ (آل عمران : ٧) ذاك معنى آخر . ﴿ **تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم** ﴾ أي : تنقبض ، والمعنى أنهم إذا سمعوا القرآن وآيات وعيده ، أصابتهم خِشعة تقشعر منها جلودهم ، قال ابن كثير : (هذه صفة الأبرار ، عند سماع كلام الجبار ، المهيمن العزيز الغفار ، لما يفهمون منه من الوعد والوعيد ، والتخويف والتهديد ، تقشعر منه جلودهم من الخشية والخوف) ﴿ **ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله** ﴾ أي : إذا ذكرت آيات الرحمة لانت جلودهم وقلوبهم ، وزال عنها ما كان بها من الخشية والقشعريرة . قال النّسفي : (وعدّيَ بإلى لتضمّنه معنى فعل متعدٍ بإلى ، كأنه قيل اطمأنت إلى ذكر الله ، لينة غير منقبضة ، واقتصر على ذكر الله من غير ذكر الرحمة لأن رحمته سبقت غضبه ، فلأصالة رحمته إذا ذكر الله لم يخطر بالبال إلا كونه رءوفاً رحيماً ، وذكرت الجلود وحدها أولاً ، ثم قرنت بها القلوب ثانياً ، لأن محل الخشية

القلب ، فكان ذكرها يتضمن ذكر القلوب) ﴿ **ذلك** ﴾ إشارة إلى الكتاب ﴿ **هدى الله يهدي به من يشاء** ﴾ من عباده وهم من علم منهم اختيار الاهتداء ﴿ **ومن يضلل اللّـه** ﴾ أي : ومن يخلق الضلالة فيه ﴿ **فماله من هاد** ﴾ إلى الحق ، **فعلامة** من أراد الله هدايته تلك أن يقشعر جلده إذا تلي عليه القرآن ثم يلين .

— — — — — — —

كلمة في السياق :

١ – رأينا أن المقطع بدأ بقوله تعالى : ﴿ **إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصاً له الدين** ﴾ ورأينا أن آخر آية في المجموعة الثالثة هي قوله تعالى ﴿ **ألم تر أن الله أنزل من السماء ماءً** .. ﴾ ورأينا الصلة بين إنزال القرآن وإنزال الماء ، ورأينا أنه قد عرض خلال ذلك كل مايبعث على العبادة والتقوى ، التي بدونها لا يكون اهتداء بكتاب الله ، ثم جاءت بعد ذلك هذه المجموعة المؤلفة من آيتين ، لتبيّن في الآية الأولى الفارق الكبير بين من شرح الله صدره للإسلام وبين قساة القلوب ، فالأوَّلون مهتدون ﴿ **فهو على نور من ربه** ﴾ والآخرون ضالون ﴿ **أولئك في ضلال مبين** ﴾ وصلة ذلك بقوله تعالى ﴿ **ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين** ﴾ واضحة ، ثم تأتي الآية الثانية لتبيّن أربع خصائص من خصائص هذا القرآن ، ولتبيّن علامة المهتدين ، وعلامة التقوى ، ومن خلال ذكر الخصائص نعلم أن هذا القرآن معجز ، وذلك دليل على أنّه حق ، وأنّه لا ريب فيه ، وصلة ذلك بسياق السورة وبمحورها واضحة ﴿ **الٓمٓ * ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين** ﴾ .

٢ – ذكرت الآية الثانية أربع خصائص لهذا القرآن ، كلها تشهد أنّه كتاب رب العالمين :

أ – ﴿ **الله نَزَّل أحسن الحديث** ﴾ فالقرآن أحسن الحديث ، فكلمته أحسن الكلم ، ومعانيه أحسن المعاني ، وفي كتابنا (الرسول) ضربنا أمثلة كثيرة على كون الكلمة القرآنية في محلها لا يمكن أن يكون غيرها أحسن منها ، ولا يمكن أن يحل غيرها محلها ، وهذا وحده معجز ، فكيف إذا اجتمع مع ذلك حسن المعنى ، وحسن الجرس ، وحسن الأسلوب ، وأنواعاً أخرى من الحسن لا يحاط بها ؟.

ب - ﴿ **كتاباً متشابهاً** ﴾ فهو يشبه بعضه بعضاً في الصدق والبيان ، والوعظ والحكمة ، والإعجاز والإخبار ، والتذكير والتبشير والإنذار ، فكل جزء منه تظهر فيه خصائص القرآن كله ، مع تعدّد المواضيع وكثرتها وتنوّعها ، وهذا وحده معجز ، وإلا فأي كتاب في العالم يتحدّث عن الإبداع بنفس الأسلوب الذي يتحدّث فيه عن قضايا الإرث . وقد أبرزنا هذا المعنى في كتاب (الرّسول) في فصل (المعجزة القرآنية) .

جـ - ﴿ **مثاني** ﴾ جمع مثنى بمعنى : مُرَدّد ومكرّر ؛ لما ثنيّ من قصصه ، وأنبائه وأحكامه ، وأوامره ومعانيه ونواهيه ، ووعده ووعيده ، ومواعظه ، وقد رأينا في هذا التفسير كيف أنّ بعض المعاني تثنّى مرات ومرات ، وفي كلّ مرة تجد أسلوباً جديداً ، وروحاً جديدة ، وعرضاً جديداً ، بشكل عجيب مدهش ، غير مستطاع للبشر ، وهذا وحده مظهر من مظاهر الإعجاز في هذا القرآن يدلّ على أنّه من عند الله .

د - ﴿ **تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله** ﴾ إن التأثير الذي يحدثه القرآن في القلوب المؤمنة المخبتة شيء عجيب ، وقد وصفته الآية هنا ، ووصفته آيات كثيرة في القرآن ، إنّ مثل هذا التأثير لا يمكن أن يكون على مثل هذه الشاكلة ، لولا أنه من عند الله . إن إيراد هذه الخصائص في سياق السورة تدليل على ما بدأ به المقطع من ذكر إنزال القرآن بالحق ، ونفي لما نفاه محور السورة عن القرآن من ريب .

٣ - ثمّ إنّ الآية الثانية ذكرت علامات التقوى ، وعلامات الاهتداء بالقرآن : ﴿ **تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ذلك هدى الله يهدي به من يشاء** ﴾ فلنتذكر محور السورة ﴿ **هدى للمتقين** ﴾ لنعلم أي تفصيل لما أُجمل هناك قد وجد هنا .

٤ - نلاحظ أن خصائص أُخرى للقرآن ستذكر ، ولكن بعد المجموعة الخامسة التي تهيّج على التقوى فلنر المجموعة الخامسة .

— — — — — — — —

تفسير المجموعة الخامسة

﴿ **أفمن يتقي بوجهه سوء العذاب يوم القيامة** ﴾ أي : كمن هو آمن من العذاب ، والمراد بسوء العذاب : شدته ، واتقاء الكافر سوء العذاب بوجهه معناه كما قال النسفي : (إن الإنسان إذا لقي مخوفاً من المخاوف استقبله بيده ، وطلب أن يقي بها وجهه ، لأنه أعز أعضائه عليه ، والذي يُلقى في النار ، يُلقى مغلولة يداه إلى عنقه ، فلا يتهيأ له أن يتقي النار إلا بوجهه الذي كان يتقي المخاوف بغيره وقاية له ومحاماة عليه) . ﴿ **وقيل للظالمين** ﴾ أي : تقول لهم خزنة النار تقريعاً وتوبيخاً ﴿ **ذوقوا** ﴾ وبال ﴿ **ماكنتم تكسبون** ﴾ أي : وبال كسبكم ﴿ **كذّب الذين من قبلهم** ﴾ أي : القرون الماضية المكذبة لرسلها ﴿ **فأتاهم العذاب من حيث لايشعرون** ﴾ أي : من الجهة التي لايحتسبون ، ولايخطر ببالهم أن الشر يأتيهم منها ، بينما هم آمنون إذ فوجئوا من مأمنهم ﴿ **فأذاقهم الله الخزي** ﴾ أي : الذلّ والصغار كالمسخ والخسف ، والقتل والجلاء ، ونحو ذلك من عذاب الله ﴿ **في الحياة الدنيا** ﴾ قال ابن كثير : أي بما أنزل بهم من العذاب والنّكال ، وتشفّي المؤمنين منهم ، فليحذر المخاطبون من ذلك ، فإنهم قد كذّبوا أشرف الرسل ، وخاتم الأنبياء ﴿ **ولعذاب الآخرة أكبر** ﴾ من عذاب الدنيا ﴿ **لو كانوا يعلمون** ﴾ أي : والذي أعدّه الله جل جلاله لهم في الآخرة من العذاب الشديد أعظم ممّا أصابهم في الدنيا ، ولو كانوا يعلمون الحقيقة كاملة لآمنوا ، ولكن لايعلمون فيستمرون على الكفر ..

— — — — — — — —

كلمة في السياق :

١ - بيّنت هذه المجموعة عاقبة الضالين وعاقبة المهتدين ، وبيّنت كيف ستكون عاقبة الذي لايتقي الله في الآخرة حتى إنّه ليتّقي النّار بوجهه الذي كان في الدنيا يقيه بغيره ، هذا مع استحقاقه العذاب في الدنيا ، والخزي فيها ، فالصلة بين هذه المجموعة وماقبلها واضحة .

٢ - من هذا التصوير المعجز للعذاب يوم القيامة ، نرى كيف أن القرآن أحسن

الحديث ، وأنه متشابه ، وأنه مثان ، وأنّه تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ...، ومن ثم ندرك الصلة كذلك بين المجموعة وماقبلها .

٣ - وفي قوله تعالى: ﴿ **أفمن يتقي بوجهه سوء العذاب** ﴾ نرى مثلاً يوضّح لنا مآل الضالّين ، فإذا عرفنا أنّ المجموعة اللاحقة مبدوءة بقوله تعالى : ﴿ **ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل ...** ﴾ نعْلم كيف أنّ هذه المجموعة مقدّمة لما بعدها .

فلنر المجموعة السادسة من المقطع الأول .

تفسير المجموعة السادسة

﴿ **ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل** ﴾ أي: بيّنا للناس فيه بضرب كل نوع من أنواع الأمثال ﴿ **لعلّهم يتذكرون** ﴾ أي: ليتعظوا ، فإن المثل يقرِّب المعنى إلى الأذهان ﴿ **قرآناً عربياً غير ذي عوج** ﴾ أي: مستقيماً بريئاً من التناقض والاختلاف . قال ابن كثير : (أي: هو قرآن بلسان عربي مبين ، لا اعوجاج فيه ولا انحراف ، ولا لبس ، بل هو بيان ووضوح وبرهان) وإنما جعله الله تعالى كذلك ، وأنزله بذلك ﴿ **لعلّهم يتّقون** ﴾ أي يحذرون مافيه من الوعيد ، ويعملون بما فيه من الوعد ، ﴿ **ضرب الله مثلاً رجلاً فيه شركاء متشاكسون** ﴾ أي: متنازعون ومختلفون ﴿ **ورجلاً سلماً لرجل** ﴾ أي: ذا سلامة أي: ذا خلوص له من الشركة ، أي: خالصاً له لايملكه أحد غيره ﴿ **هل يستويان مثلاً** ﴾ قال ابن كثير : (أي: لايستوي هذا وهذا . كذلك لايستوي المشرك الذي يعبد آلهة مع الله ، والمؤمن المخلص الذي لايعبد إلا الله وحده لاشريك له ، فأين هذا من هذا ؟ قال ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد وغير واحد : هذه الآية ضربت مثلاً للمشرك والمخلص) . ولما كان هذا المثل ظاهراً بيناً جلياً قال : ﴿ **الحمد لله** ﴾ أي : على إقامته الحجة عليهم ﴿ **بل أكثرهم لايعلمون** ﴾ أي: فلهذا يشركون بالله . قال النسفي : (مَثّل الكافر ومعبوديه بعبد اشترك فيه شركاء بينهم تنازع واختلاف ، وكل واحد منهم يدّعي أنّه عبده ، فهم يتجاذبونه ويتعاورونه في مهن شتى ، وهو متحيّر لايدري أيّهم يرضي بخدمته ، وعلى أيهم يعتمد في حاجاته ، وممّن يطلب رزقه ، وممّن يلتمس رفقه ، فهمُّه مشاع ، وقلبه أوزاع ، (ومثَّل)

المؤمن بعبد له سيّد واحد فهمّه واحد ، وقلبه مجتمع) . وقال صاحب الظلال : إنهما لا يستويان . فالذي يخضع لسيد واحد ينعم براحة الاستقامة والمعرفة واليقين . وتجمع الطاقة ووحدة الاتجاه . ووضوح الطريق . والذي يخضع لسادة متشاكسين معذب مقلقل لا يستقر على حال ، ولا يُرضي واحداً منهم فضلًا عن أن يرضي الجميع ! .

وهذا المثل يصوّر حقيقة التوحيد وحقيقة الشرك في جميع الأحوال . فالقلب المؤمن بحقيقة التوحيد هو القلب الذي يقطع الرحلة على هذه الأرض على هدى ، لأن بصره أبداً معلق بنجم واحد على الأفق فلا يلتوي به الطريق . ولأنه يعرف مصدراً واحداً للحياة والقوة والرزق ، ومصدراً واحداً للنفع والضر ، ومصدراً واحداً للمنح والمنع ، فتستقيم خطاه إلى هذا المصدر الواحد ، يستمد منه وحده ، ويعلّق يديه بحبل واحد يشد عروته ، ويطمئن اتجاهه إلى هدف واحد لا يزوغ عنه بصره . ويخدم سيداً واحداً يعرف ماذا يرضيه فيفعله ، وماذا يغضبه فيتقيه .. وبذلك تتجمع طاقته كذلك وتتوحّد ، فينتج بكل طاقته وجهده وهو ثابت القدمين على الأرض متطلع إلى إله واحد في السماء ..

ويعقّب على ذلك المثل الناطق الموحي ، بالحمد لله الذي اختار لعباده الراحة والأمن والطمأنينة والاستقامة والاستقرار . وهم مع هذا ينحرفون ، وأكثرهم لا يعلمون ..) .

— — — — — — — —

﴿ **إنّك ميِّت وإنّهم ميّتون** ﴾ أي : إنك ستموت وإنّهم سيموتون ﴿ **ثمّ إنّكم** ﴾ أي : إنك وإياهم ﴿ **يوم القيامة عند ربكم تختصمون** ﴾ فتحتجّ أنت عليهم بأنك بلّغت فكذّبوا ، واجتهدت في الدّعوة فلجّوا في العناد ، ويعتذرون بما لا طائل تحته ، ثمّ بيّن من تكون بينهم الخصومة ﴿ **فمن أظلم مِمَّن كَذَب على الله** ﴾ فافترى عليه بإضافة الولد والشريك إليه ﴿ **وكذّب بالصدق** ﴾ أي : بالأمر الذي هو الصدق بعينه وهو ما جاء به محمد ﷺ ﴿ **إذ جاءه** ﴾ يفيد التعبير أنّه أسرع بالتّكذيب بما سمع به من غير وقفة ولا إعمال رويّة ، أو اهتمام بتمييز بين حق وباطل ، لا كما يفعل أهل النّصفة فيما يسمعون قال ابن كثير : (أي : لا أحد أظلم من هذا لأنّه جمع بين طرفي الباطل : كذب على الله ، وكذّب رسول الله ﷺ ، قالوا الباطل ، وردّوا الحق) ولهذا قال جلت عظمته متوعداً لهم ﴿ **أليس في جهنم مثوى للكافرين** ﴾ أي : مقاماً لهؤلاء الذين كذبوا على

الله ، وكذّبوا بالصدق ، وهم الجاحدون المكذّبون ﴿ **والذي جاء بالصدق** ﴾ هو رسول الله ﷺ ﴿ **وصدّق به** ﴾ هم المسلمون ﴿ **أولئك هم المتقون** ﴾ لا غيرهم ﴿ **لهم ما يشاءون عند ربهم** ﴾ يعني : في الجنة مهما طلبوا وجدوا ﴿ **ذلك جزاء المحسنين** ﴾ دلّ السّياق على أن المجيء بالصدق والتصديق به تقوى وإحسان ﴿ **ليكفِّر الله عنهم** ﴾ أي : عن المتقين ﴿ **أسوأ الذي عملوا** ﴾ أي : سيء عملهم ، لأن تكفير الأسوأ يرافقه تكفير السيء من باب أولى ﴿ **ويجزيهم أجرهم بأحسن الذي كانوا يعملون** ﴾ كرماً منه وتفضّلاً .

— — — — — — — —

كلمة في السياق :

١ - بدأت المجموعة بذكر خصيصتين من خصائص القرآن ، أولاهما أنه ضرب للناس من كل مثل ، وقد استوعب سيد قطب رحمه الله الكلام في كتابه (التصوير الفني في القرآن) هذا الموضوع إذ أثبت أن الأصل في العرض القرآني هو التصوير المبدع ، فأن يكون القرآن على مثل هذا الكمال في هذا الجانب وغيره ، فذلك دليل كونه من عند الله ، والخصيصة الثانية التي ذكرت هنا : هي كون القرآن لا عوج فيه ، لا في اللغة ، ولا في الأسلوب ، ولا في المعاني ، ولا في التشريع ، ولا في أي شيء ، فأن يكون كذلك فذلك دليل آخر على أنّه من عند الله ، وصلة ذلك بمقدمة المقطع ﴿ **إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق** ﴾ وبمحور السورة من سورة البقرة ﴿ **ذلك الكتاب لا ريب فيه** ﴾ واضحة ، وفي الآية الأولى من هذه المجموعة بيّن الله حكمة ضرب الأمثال ، فقال : ﴿ **لعلهم يتذكرون** ﴾ وفي الآية الثانية بيّن حكمة كونه غير ذي عوج فقال : ﴿ **لعلّهم يتقون** ﴾ فالتذكر والتقوى هما اللذان ينبغي أن يخرج بهما قارىء هذا القرآن . وصلة ذلك بما قبل هذه المجموعة وبمحور السورة ﴿ **هدى للمتقين** ﴾ واضحة .

٢ - وقد ضرب الله في الآية الثالثة مثلاً للموحّد والمشرك ، وصلة ذلك ببداية المجموعة واضحة ، إذ في المثل نموذج على كون القرآن قد ضرب الأمثال ، وصلة ذلك ببداية المقطع ﴿ **فاعبد الله مخلصاً له الدين** ﴾ واضحة ، فبعد الجولة الطويلة يعود

السياق إلى الكلام عن التوحيد . ثم إنّ المجموعة ذكّرت بالموت ، وذكّرت بمآل الإنسان ، وذكّرت بالحساب والمحاكمة ، ثمّ بيّنت أنه لاأظلم ممن كذب على الله ، وكذّب بالصدق إذ جاءه ، أي: بالقرآن والوحي ، فبيّنت بذلك أن الكافرين سيخسرون المحاكمة بلا ريب ، وسيدخلون النار .

٣ - ثمّ ذكرت المجموعة تعريفاً جديداً للمتقين ﴿ **والذي جاء بالصدق وصدّق به أولئك هم المتقون** ﴾ وصلة ذلك بمحور السورة ﴿ **ذلك الكتاب لاريب فيه هدى للمتقين** ﴾ واضحة ، كما أن صلة ذلك بمقدمة المقطع ﴿ **إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق** ﴾ واضحة ، كما أن صلة ذلك بمقدمة المجموعة ﴿ **ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل** ﴾ واضحة . وهكذا فالمجموعة خدمت سياق السورة ، وتفصيل المحور بشكل واضح .

٤ - ولم يبق عندنا في المقطع الأول إلا مجموعة واحدة، فلنر كيف سار السياق إليها : بيّنت المجموعة الأولى أن الله أنزل القرآن بالحق ، وأن هذا يقتضي عبادة وإخلاصاً ، وخصّت نوعاً من أنواع العبادة بالذكر ، وهو قيام الليل ، ثم جاءت المجموعة الثانية تأمر الرسول ﷺ أن يعلن مجموعة أمور لها علاقة بالعبادة . ثم جاءت المجموعة الثالثة لتهيّج على التقوى ، وتلفت النظر إلى مايوصل إليها . ثم جاءت المجموعة الرابعة لتقارن بين المهتدين والضالين ، وتبين بعض خصائص هذا القرآن . ثم جاءت المجموعة الخامسة لتحذِّر وتنذر ، ثم جاءت المجموعة السادسة لتحدّثنا عن خصائص أخرى للقرآن ، وتوصلنا إلى ضرورة الإيمان به ، وبمن أنزل عليه ، فإذ استقر هذا كله ، وانتفت الصوارف عن السير ، إلا أن يعوق عن السير رهبة أو رغبة ، أو تهديد أو تخويف،أو غير ذلك ،ومن ثمّ تأتي المجموعة السابعة لتعالج أمثال هذه القضايا ..

— — — — — — — —

تفسير المجموعة السابعة

﴿ **أليس الله بكافٍ عبده** ﴾ أي: محمداً ﷺ أو كل من اتصف بصفة العبودية له سبحانه . قال ابن كثير : (يعني أنه تعالى يكفي مَنْ عَبَده وتوكّل عليه) ﴿ **ويخوفونك بالذين من دونه** ﴾ يعني: المشركين يخوّفون الرسول ﷺ ، ويتوعَّدونه بأصنامهم وآلهتهم التي يدعونها معه دون الله ، جهلاً منهم ، وضلالاً ، ودخل في ذلك كل تخويف بغير الله يخوّفه أحد عبداً من عباد الله ﴿ **ومن يُضْلِل الله فما له من هاد * ومن يهد الله فما له من مضل أليس الله بعزيز ذي انتقام ؟** ﴾ أي: أليس الله منيع الجانب ، لا يضام من استند إلى جنابه ، ولجأ إلى بابه ؟! فإنه العزيز الذي لا أعزّ منه ، ولا أشدّ انتقاماً منه ، ممّن كفر به وأشرك ، وعاند رسوله ﷺ ، وفي الآية وعيد للكافرين ، ووعد للمؤمنين ، بأنه ينتقم لهم منهم ، وينصرهم عليهم ، ﴿ **ولئن سألتهم من خلق السمٰوات والأرض ليقولن الله قل أفرأيتم ما تدعون من دون الله إن أرادني الله بضر** ﴾ كائناً ما كان ﴿ **هل هنّ كاشفات ضرِّه** ﴾ أي: دافعات شدّته عني ﴿ **أو أرادني برحمة** ﴾ كائنة ما كانت ﴿ **هل هنّ ممسكات رحمته** ﴾ أي: هي لا تستطيع شيئاً من الأمر ، وقد جاء هذا في سياق تخويفهم إيّاه بمن دون الله ، فأمره أن يقررهم أولاً بأن خالق العالم هو الله وحده ، ثمّ يقول لهم بعد التقرير فإن أرادني خالق العالم الذي أقررتم به بضرّ أو برحمة هل يقدرون على خلاف ذلك ؟ فلمّا أفحمهم قال الله تعالى ﴿ **قل حسبي الله** ﴾ كافياً لمضرة أوثانكم وأصنامكم وآلهتكم ﴿ **عليه يتوكل المتوكلون** ﴾ لأنّه وحده أهل لأن يتوكل عليه ، توكّلنا عليك ربنا ، ثمّ أمر الله عزّ وجلّ رسوله ﷺ الأمر الأخير في المقطع ﴿ **قل يا قوم اعملوا على مكانتكم** ﴾ أي: على حالكم التي أنتم عليها وجهتكم من العداوة التي تمكّنتم منها ، والمكانة والمكان بمعنى واحد ، أي: اعملوا على طريقتكم وهذا تهديد ووعيد ﴿ **إني عامل** ﴾ أي: على مكانتي وطريقتي ومنهجي ﴿ **فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه** ﴾ أي: يذله في الدنيا ﴿ **ويحل عليه عذاب مقيم** ﴾ أي: دائم مستمرّ لا محيد له عنه ، وذلك يوم القيامة ، وفي الآية أمر بالتوعّد بكونه منصوراً عليهم ، غالباً عليهم في الدنيا والآخرة ؛ لأنهم إذا أتاهم الخزي والعذاب فذاك عزّهُ وغلبته ، من حيث إن الغلبة تتم له بعزّ عزيز ، يعز أولياءه ، ويذلّ أعداءه ، وبهذا انتهى المقطع الأول .

كلمة في السياق :

١ - رأينا أنّ هذه المجموعة ثبّتت على الطريق من خلال الأمر بالتوكل ، ومن خلال التعريف على الله ، ومن خلال إعلان المفاصلة في المواقف ، ومن خلال الإنذار والتبشير ، وبهذا تمّ المقطع ليبدأ مقطع جديد ، بدايتهُ شبيهة ببداية المقطع السابق :

لاحظ البدايتين :

﴿ إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصاً له الدين ﴾

﴿ إنا أنزلنا عليك الكتاب للناس بالحق فمن اهتدى فلنفسه ومن ضل فإنّما يضل عليها وما أنت عليهم بوكيل ﴾ .

٢ - والصلة ظاهرة بين بداية المقطع الجديد ، ونهاية المقطع السابق ، فالمقطع السابق انتهى بقوله تعالى : ﴿ **قل يا قوم اعملوا على مكانتكم إني عامل ، فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم** ﴾ فبعد أن أمر الله رسوله ﷺ أن يقول هذا الكلام ،ذكّر رسوله ﷺ في الآية التالية بنعمته عليه بإنزال هذا الكتاب ، وكونه حقاً ، وأن من اهتدى فقد نفع نفسه ، ومن ضلّ فإنّما يضرّ نفسه ، وأن مهمة الرسول ﷺ الإنذار فقط .

٣ - إنّ التشابه بين بداية المقطع الثاني وبداية المقطع الأول ومقدمة السورة يشير إلى أن البداية الجديدة سيبدأ معها السياق الرئيسي للسورة سيره من جديد ، وسنعرض المقطع الثاني بعد أن ننقل بعض الفوائد حول المجموعات الست الأخيرة :

فوائد :

١ - في قوله تعالى : ﴿ **والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها** .. ﴾ قال ابن كثير : (قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه ﴿ **والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها** ﴾ نزلت في زيد بن عمرة بن نفيل وأبي ذر وسلمان الفارسي رضي الله تعالى عنهم ، والصحيح أنها شاملة لهم ولغيرهم ممن اجتنب عبادة الأوثان ، وأناب إلى عبادة الرحمن ، فهؤلاء هم

الذين لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة) .

٢ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **لكن الذين اتقوا ربهم لهم غُرَف** ﴾ قال ابن كثير : (أخبر عز وجل عن عباده السعداء أن لهم غرفاً في الجنة وهي القصور أي: الشاهقة ﴿ **من فوقها غُرَف مبنية** ﴾ طباق فوق طباق مبنيات محكمات ، مزخرفات عاليات . روى عبد الله بن الإمام أحمد عن علي رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « إن في الجنة لغرفاً يرى بطونها من ظهورها ، وظهورها من بطونها » فقال أعرابي : لمن هي يا رسول الله ؟ قال ﷺ « لمن أطاب الكلام ، وأطعم الطعام ، وصلى بالليل والناس نيام » ورواه الترمذي من حديث عبد الرحمن بن إسحق ، وقال : حسن غريب ، وقد تكلم بعض أهل العلم فيه من قبل حفظه وروى الإمام أحمد عن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « إن في الجنة لغرفاً يرى ظاهرها من باطنها ، وباطنها من ظاهرها ، أعدّها الله لمن أطعم الطعام ، وألان الكلام ، وتابع الصيام ، وصلى والناس نيام » تفرّد به أحمد . وروى الإمام أحمد أيضا عن سهل بن سعد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال « إن أهل الجنة ليتراءون الغرفة في الجنة كما تراءون الكوكب في أفق السماء » قال : فحدثت بذلك النعمان بن أبي عياش فقال : سمعت أبا سعيد الخدري رضي الله عنه يقول : « كما تراءون الكوكب الذي في الأفق الشرقي أو الغربي » أخرجاه في الصحيحين وروى الإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إن أهل الجنة ليتراءون في الجنة أهل الغرف كما تراءون الكوكب الدري الغارب في الأفق الطالع في تفاضل أهل الدرجات » فقال يا رسول الله أولئك النبيون ؟ فقال ﷺ « بلى والذي نفسي بيده ، وأقوام آمنوا بالله وصدقوا الرسل » ورواه الترمذي ، وقال حسن صحيح . وروى الإمام أحمد عن أبي المدله مولي أم المؤمنين رضي الله عنها أنه سمع أبا هريرة رضي الله عنه يقول : قلنا يا رسول الله إذا رأيناك رقت قلوبنا وكنا من أهل الآخرة ، فإذا فارقناك أعجبتنا الدنيا ، وشممنا النساء والأولاد ، قال ﷺ : « لو أنكم تكونون على كل حال على الحال التي أنتم عليها عندي لصافحتكم الملائكة بأكفهم ، ولزارتكم في بيوتكم ؛ ولو لم تذنبوا لجاء الله عز وجل بقوم يذنبون كي يغفر لهم » قلنا : يا رسول الله حدثنا عن الجنة ما بناؤها ؟ قال صلى الله عليه وسلم : « لبنة ذهب ، ولبنة فضة ، وملاطها المسك الأزفر ، وحصباؤها اللؤلؤ والياقوت ، وترابها الزعفران ، من يدخلها ينعم ولا ييأس ، ويخلد ولا يموت . لا تبلى ثيابه ولا يفنى شبابه ، ثلاثة لا ترد دعوتهم : الإمام العادل ، والصائم حتى يفطر ، ودعوة المظلوم

تُحمل على الغمام ، وتُفتح لها أبواب السماوات ، ويقول الرب تبارك وتعالى : وعزتي لأنصرنك ولو بعد حين » وروى الترمذي وابن ماجه بعضه .

٣ - بمناسبة قوله تعالى عن المؤمنين في وصف حالهم عند سماع القرآن : ﴿ **تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثمّ تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله** ﴾ قال ابن كثير : (هذه صفة الأبرار عند سماع كلام الجبار ، المهيمن العزيز الغفار ، لما يفهمون منه من الوعد والوعيد ، والتخويف والتهديد ، تقشعر من جلودهم من الخشية والخوف ﴿ **ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله** ﴾ لما يرجون ويؤملون من رحمته ولطفه ، فهم مخالفون لغيرهم من الفجار من وجوه : (أحدها) أن سماع هؤلاء هو تلاوة الآيات ، وسماع أولئك نغمات الأبيات من أصوات القينات (الثاني) أنهم إذا تُليت عليهم آيات الرحمن خرّوا سجّداً وبكياً ، بأدب وخشية ، ورجاء ومحبة ، وفهم وعلم كما قال تبارك وتعالى ﴿ **إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون * الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون * أولئك هم المؤمنون حقاً لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم** ﴾ (الأنفال : ٢ - ٤) وقال تعالى : ﴿ **والذين إذا ذكّروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صُماً وعمياناً** ﴾ (الفرقان : ٢٥) أي : لم يكونوا عند سماعها متشاغلين لاهين عنها ، بل مصغين إليها فاهمين بصيرين بمعانيها ، فلهذا إنما يعملون بها ويسجدون عندها عن بصيرة لا عن جهل ومتابعة لغيرهم (الثالث) أنهم يلزمون الأدب عند سماعها كما كان الصحابة رضي الله عنهم عند سماعهم كلام الله تعالى من تلاوة رسول الله ﷺ تقشعر جلودهم ، ثم تلين مع قلوبهم إلى ذكر الله . لم يكونوا يتصارخون ولا يتكلّفون ما ليس فيهم ، بل عندهم من الثبات والسكون والأدب والخشية مالا يلحقهم أحد في ذلك ، ولهذا فازوا بالمدح من الرب الأعلى في الدنيا والآخرة . قال عبد الرزاق : حدثنا معمر قال : تلا قتادة رحمه الله ﴿ **تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله** ﴾ قال : هذا نعت أولياء الله ، نعتهم الله عز وجل بأن تقشعر جلودهم ، وتبكي أعينهم ، وتطمئن قلوبهم إلى ذكر الله ، ولم ينعتهم بذهاب عقولهم ، والغشيان عليهم ، إنما هذا في أهل البدع ، وهذا من الشيطان) .

٤ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **إنك ميت وإنهم ميتون * ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون** ﴾ قال ابن كثير : (هذه الآية من الآيات التي استشهد بها الصديق

رضي الله عنه عند موت الرسول ﷺ ، حتى تحقق للناس موته مع قوله عز وجل : ﴿ **وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزي الله الشاكرين** ﴾ ومعنى هذه الآية : أنكم ستنقلون من هذه الدار لامحالة ، وستجتمعون عند الله تعالى في الدار الآخرة ، وتختصمون فيما أنتم فيه في الدنيا من التوحيد والشرك بين يدي الله عز وجل ، فيفصل بينكم ، ويفتح بالحق ، وهو الفتاح العليم ، فينجي المؤمنين المخلصين الموحّدين ، ويعذّب الكافرين الجاحدين المشركين المكذبين . ثمّ إن هذه الآية – وإن كان سياقها في المؤمنين والكافرين ، وذكر الخصومة بينهم في الدار الآخرة فإنها شاملة لكل متنازعين في الدنيا فإنه تعاد عليهم الخصومة في الدار الآخرة .

روى ابن أبي حاتم رحمه الله عن ابن الزبير رضي الله عنهما قال : لما نزلت ﴿ **ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون** ﴾ قال الزبير رضي الله عنه : يارسول الله : أتكرّر علينا الخصومة ؟ قال ﷺ : « نعم » قال رضي الله عنه : إن الأمر إذن لشديد . وكذا رواه الإمام أحمد عن سفيان وعنده زيادة : ولما نزلت ﴿ **ثم لتسئلن يومئذ عن النعيم** ﴾ (التكاثر : ٨) قال الزبير رضي الله عنه : أي رسول الله ، أي نعيم نسأل عنه وإنما نعيمنا الأسودان : التمر والماء ؟ قال ﷺ : « أما إن ذلك سيكون » وقد روى هذه الزيادة الترمذي وابن ماجه من حديث سفيان به وقال الترمذي حسن ، وروى أحمد أيضاً عن عبد الله بن الزبير عن الزبير بن العوام رضي الله عنه قال : لما نزلت هذه السورة على رسول الله ﷺ ﴿ **إنك ميت وإنهم ميتون * ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون** ﴾ قال الزبير رضي الله عنه : أي رسول الله أيكرر علينا ماكان بيننا في الدنيا مع خواص الذنوب ؟ قال ﷺ « نعم ليكررن عليكم حتى يؤدى إلى كل ذي حق حقه » قال الزبير رضي الله عنه : والله إن الأمر لشديد . وكذا رواه الترمذي وقال حسن صحيح ، وروى الإمام أحمد عن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « أول خصمين يوم القيامة جاران » تفرد به أحمد ، وروى أيضاً عن أبي سعيد رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « والذي نفسي بيده إنه ليختصم حتى الشاتان فيما انتطحتا » تفرد به أحمد رحمه الله ، وفي المسند عن أبي ذر رضي الله عنه أنه قال : رأى رسول الله ﷺ شاتين ينتطحان قال : « أتدري فيما ينتطحان ياأبا ذر؟ » قلت : لا ، قال ﷺ « لكن الله يدري وسيحكم بينهما » وروى الحافظ أبو بكر البزار : عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « يُجاء بالإمام الجائر الخائن يوم القيامة ،

فتخاصمه الرعية فيفلحون عليه فيقال له : سد ركناً من أركان جهنم » ثم قال : الأغلب بن تميم ليس بالحافظ وهو من رجال الحديث . قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ **ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون** ﴾ يقول : يخاصم الصادق الكاذب ، والمظلوم الظالم ، والمهتدي الضال ، والضعيف المستكبر ، وقد روى ابن منده في كتاب الروح عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : يختصم الناس يوم القيامة ، حتى تختصم الروح مع الجسد ، فتقول الروح للجسد : أنت فعلت ، ويقول الجسد للروح : أنت أمرت ، وأنت سوَّلت ، فيبعث الله تعالى ملكاً يفصل بينهما ، فيقول لهما : إن مثلكما كمثل رجل مُقْعَد بصير ، والآخر ضرير ، دخلا بستاناً ، فقال المقعد للضرير ، إني أرى ههنا ثماراً ، ولكن لا أصل إليها ، فقال له الضرير : اركبني فتناولها ، فركبه فتناولها فأيهما المعتدي ؟ فيقولان : كلاهما ، فيقول لهما الملك : فإنكما قد حكمتما على أنفسكما ، يعني أن الجسد للروح كالمطية ، وهي راكبة . وروى ابن أبي حاتم عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : نزلت هذه الآية وما نعلم في أي شيء نزلت ﴿ **ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون** ﴾ قال : قلنا من نخاصم ؟ ليس بيننا وبين أهل الكتاب خصومة ، فمن نخاصم ؟ حتى وقعت الفتنة ، فقال ابن عمر رضي الله عنهما : هذا الذي وعدنا ربنا عز وجل نختصم فيه ، ورواه النسائي . وقال أبو العالية في قوله تبارك وتعالى : ﴿ **ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون** ﴾ قال : يعني أهل القبلة ، وقال ابن زيد : يعني أهل الإسلام وأهل الكفر ، وقد قدمنا أن الصحيح العموم والله سبحانه وتعالى أعلم) .

٥ - قال النّسفي في تبيان الفارق بين كلمتي (مَيْت) و(مَيِّت) :

قال الخليل أنشد أبو عمرو :

وتسألني تفسير ميْت وميِّت فدونك قد فسرت إن كنت تعقل
فمن كان ذا روح فذلك ميّت وما الميْت إلا من إلى القبر يحمل

فالميّت، من حاله أنه سيموت، والميْت من حلّ به الموت .

٦ - رأينا أن قوله تعالى: ﴿ **والذي جاء بالصدق** ﴾ هو محمد ﷺ ﴿ **وصدَّق به** ﴾ وهم المسلمون ، إلا أن في الآية أقوالاً أخرى ، ذكرها ابن كثير فلنرها، قال ابن كثير : (قال مجاهد وقتادة والربيع بن أنس وابن زيد ﴿ **الذي جاء بالصدق** ﴾ هو

رسول الله ﷺ ، وقال السّدّي: هو جبريل عليه السلام ﴿ **وصدّق به** ﴾ يعني محمداً ﷺ ، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ **والذي جاء بالصدق** ﴾ قال: من جاء بلا إله إلا الله ﴿ **وصدّق به** ﴾ يعني رسول الله ﷺ وقرأ الربيع بن أنس ﴿ **والذين جاءوا بالصدق** ﴾ يعني: الأنبياء ﴿ **وصدقوا به** ﴾ يعني: الأتباع . وقال ليث بن أبي سليم عن مجاهد ﴿ **والذي جاء بالصدق وصدق به** ﴾ قال أصحاب القرآن المؤمنون يجيئون يوم القيامة فيقولون: هذا ماأعطيتمونا فعملنا فيه بما أمرتمونا . وهذا القول عن مجاهد يشمل كل المؤمنين ، فإن المؤمنين يقولون الحق ويعملون به ، والرسول ﷺ أولى الناس بالدخول في هذه الآية على هذا التفسير ، فإنه جاء بالصدق وصدّق المرسلين ، وآمن بما أنزل من ربه والمؤمنون ، كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ﴿ **والذي جاء بالصدق** ﴾ هو رسول الله ﷺ ﴿ **وصدّق به** ﴾ قال: المسلمون ﴿ **أولئك هم المتقون** ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما : اتقوا الشرك .

٧ – بمناسبة قوله تعالى: ﴿ **أليس الله بكاف عبده** ﴾ قال ابن كثير : (وروى ابن أبي حاتم عن فضالة بن عبيد الأنصاري رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «أفلح من هدي إلى الإسلام وكان عيشه كفافاً وقنع به» ورواه الترمذي والنسائي وقال الترمذي: صحيح) .

٨ – في سبب نزول قوله تعالى: ﴿ **ويخوّفونك بالذين من دونه** ﴾ ذكر النّسفي أن قريشاً : قالوا للنبي ﷺ : لتكفنّ عن شتم آلهتنا أو لنأمرنها فَلَتُخبلنّك ، فنزلت ﴿ **ويخوّفونك بالذين من دونه ...** ﴾ .

٩ – بمناسبة قوله تعالى: ﴿ قل أفرأيتم ماتدعون من دون الله إن أرادني الله بضر هل هن كاشفات ضُرّه أو أرادني برحمة هل هن ممسكات رحمته قل حسبي الله ﴾ .

قال ابن كثير: (وذكر ابن أبي حاتم ... عن ابن عباس مرفوعاً : «احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، تعرّف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة ، إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يكتبه الله عليك لم يضروك ، ولو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لم يكتبه الله لك لم ينفعوك ، جفت الصحف ورفعت الأقلام ، واعمل لله بالشكر في اليقين . واعلم أن في الصبر على ما تكره خيراً كثيراً . وأن النصر مع الصبر ، وأن الفرج

مع الكرب ، وأن مع اليسر يسراً » ﴿ **قل حسبي الله** ﴾ أي : الله كافي ﴿ **عليه توكلت وعليه فليتوكل المتوكلون** ﴾ كما قال هود عليه الصلاة والسلام حين قال قومه ﴿ **إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء قال إني أُشهد الله واشهدوا أني بريء مما تشركون * من دونه فكيدوني جميعاً ثم لاتنظرون * إني توكلت على الله ربي وربكم ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربي على صراط مستقيم** ﴾ (هود: ٥٤-٥٦) وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما رفع الحديث إلى رسول الله ﷺ قال : « من أحب أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله تعالى ، ومن أحب أن يكون أغنى الناس فليكن بما في يد الله عز وجل أوثق منه بما في يديه ، ومن أحب أن يكون أكرم الناس فليتق الله عز وجل » .

ولننتقل إلى المقطع الثاني .

☆ ☆ ☆

المقطع الثاني

ويتألف من ثلاث مجموعات ويمتدّ من الآية (٤١) إلى نهاية الآية (٧٥) أي : إلي نهاية السورة وهذا هو :

المجموعة الأولى

إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ

مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ
شُفَعَآءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ
جَمِيعًا ۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ
ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ
يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾ قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ
تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَا فِى
ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَبَدَا لَهُم
مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا
كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤٨﴾ فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً
مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ ۚ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ قَدْ
قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا
كَسَبُوا۟ ۚ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ
﴿٥١﴾ أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ
لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾

المجموعة الثانية

قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ
ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ
أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم
مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ
عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ
هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ
مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ
ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى
جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾ وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ
وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾

المجموعة الثالثة

ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ
وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٣﴾ قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ
أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ

لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٦٥) بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ (٦٦)
وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ
مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٧) وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ
مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ
قِيَامٌ يَنظُرُونَ (٦٨) وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ
بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٦٩) وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ
مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ (٧٠) وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا
جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ
آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ
الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ (٧١) قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى
الْمُتَكَبِّرِينَ (٧٢) وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا
وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ (٧٣)
وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ
نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (٧٤) وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ
بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٧٥)

تفسير المجموعة الأولى

﴿ **إنا أنزلنا عليك الكتاب** ﴾ أي : القرآن ﴿ **للناس** ﴾ أي : لأجلهم ولأجل حاجتهم إليه ، ليبشَّروا وينذَروا فتقوى دواعيهم إلى اختيار الطاعة على المعصية ، وقال ابن كثير (أي : لجميع الخلق من الإنس والجن لتنذرهم به) أي : لأجل الناس ومصالحهم الدنيوية والأخروية ﴿ **بالحق** ﴾ الخالص الذي لا يخالطه باطل ﴿ **فمن اهتدى فلنفسه** ﴾ أي : فإنّما يعود نفع ذلك إلى نفسه ﴿ **ومن ضلّ فإنما يضلّ عليها** ﴾ أي : إنما يرجع وبال ذلك على نفسه ، قال النسفي : (أي : فمن اختار الهدى فقد نفع نفسه ، ومن اختار الضّلالة فقد ضرّ) ﴿ **وما أنت عليهم بوكيل** ﴾ أي : بحفيظ ثم أخبر تعالى بأنه الحفيظ القدير عليهم ﴿ **الله يتوفّى الأنفس حين موتها** ﴾ وتوفيها إماتتها : وهو أن يسلب ما هي به حيّة حسَّاسة درّاكة ﴿ **والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى** ﴾ أي : يتوفى الأنفس التي لم تمت في منامها ، أي : يتوفّاها حين تنام ، تشبيهاً للنائمين بالموتى حيث لا يتصرفون كما أنّ الموت كذلك. قال ابن كثير : (قال تعالى مخبراً عن نفسه الكريمة بأنّه المتصرف في الوجود بما يشاء ، وأنّه يتوفى الأنفس الوفاة الكبرى ، بما يرسل من الحفظة الذين يقبضونها من الأبدان ، والوفاة الصغرى عند المنام) ﴿ **إن في ذلك** ﴾ أي : في توفي الأنفس مائتة ونائمة ، وإمساكها أو إرسالها إلى أجل ﴿ **لآيات** ﴾ على قدرة الله وعلمه ﴿ **لقوم يتفكّرون** ﴾ أي : يجيلون في ذلك أفكارهم ويعتبرون .

كلمة في السياق :

ما الصلة بين إنزال الكتاب على محمد ﷺ وبين توفي الأنفس ؟ أي : الصلة بين الآية الأولى والآية الثانية في هذا المقطع ؟ إن الآية الثانية بيّنت أنّ روح الإنسان في قبضة الله عز وجل ، فهو يتوفّاها الوفاة الكبرى ، ويتوفّاها الوفاة الصغرى ، وهذا يقتضي من الإنسان أن يستجيب لأمر الله ، ويهتدي بهداه الذي أنزله الله على رسوله عليه الصلاة والسلام ، كما أن في ذكر الوفاة ، وكونها بيد الله ، تعزية لرسول الله ﷺ . فإذا تنكّب أحد عن الهدى فإنّ الآية تذكّر بإحاطة الله عزّ وجلّ به ، فإذا عرفنا الصلة بين الآيتين فلنتذكر الصلة بين الآية الأولى منهما وبين محور السورة ، قال تعالى في سورة البقرة ·

﴿ **ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين** ﴾ وههنا قال تعالى مبيّناً الحكمة في إنزال الكتاب : ﴿ **إنا أنزلنا عليك الكتاب للناس** ﴾ لكل الناس ﴿ **بالحق** ﴾ ثمّ بيّن أنّ نفع من اهتدى به عائد عليه ، وضرر من ضلّ عنه عائد عليه ، ﴿ **فمن اهتدى فلنفسه ومن ضلّ فإنّما يضلّ عليها** ﴾ ولذلك صلته بقوله تعالى ﴿ **هدى للمتقين** ﴾ وإذا تقررت هذه المعاني ، تأتي الآن آية تبيّن كيف أنّ الكافرين قد أشركوا : ﴿ **أم** ﴾ أي : بل ﴿ **اتخذوا من دون الله شفعاء** ﴾ أي : آلهة تشفع لهم في زعمهم عند الله عز وجل والاستفهام للإنكار ﴿ **قل** ﴾ يا محمد لهؤلاء الزاعمين ذلك ﴿ **أو لو كانوا لا يملكون شيئاً** ﴾ أي : أيشفعون ولو كانوا لا يملكون شيئاً قط ﴿ **ولا يعقلون** ﴾ أي : ولا عقل لهم ﴿ **قل لله الشفاعة جميعاً** ﴾ أي : هو مالكها فلا يستطيع أحد شفاعة إلا بإذنه ﴿ **له ملك السموات والأرض** ﴾ هذا تقرير لكون الشفاعة لله جميعاً ، لأنّه إذا كان له الملك كله ، والشفاعة من الملك ، كان مالكاً لها ﴿ **ثمّ إليه ترجعون** ﴾ يوم القيامة ، فلا يكون الملك في ذلك اليوم إلا له ، فله ملك الدنيا والآخرة أي : فيحكم بينكم بعدله ، ويجزي كلاً بعمله .

— — — — — — — —

كلمة في السياق :

ذكرت الآية الأولى أنّ الله عز وجل منزل الكتاب ، وذكرت الآية الثانية أن الله عز وجل يتوفى الأنفس ، ثم ذكرت الآية الثالثة موضوع اتخاذ المشركين آلهة مع الله لتشفع لهم – في زعمهم – عنده ، فكأنّ السّياق يقول : إنه مع إنزال الكتاب ، ومع كون أرواح الناس في قبضة الله فإنّ المشركين يشركون معه غيره مما لم ينزل به سلطاناً ثم يأتي موقف آخر للكافرين وردّ عليه ، فالمشرك لايكتفي بأن يتخذ شريكاً لله ، بل إنّه يشمئز من ذكر اسم الله منفرداً .

— — — — — — — —

﴿ **وإذا ذكر الله وحده** ﴾ أي : إذا أفرد الله بالذكر ، ولم تذكر معه آلهتهم

﴿ **اشمأزّت** ﴾ أي: نفرت وانقبضت ﴿ **قلوب الذين لايؤمنون بالآخرة** ﴾ دلّ على أنّ العلة هي الكفر باليوم الآخر ﴿ **وإذا ذكر الذين من دونه** ﴾ يعني: آلهتهم ﴿ **إذا هم يستبشرون** ﴾ لافتتانهم بها. لاحظ موقفهم البشع، فهم في الغاية من السرور إذا ذُكر غير الله، وفي غاية الانقباض إذا ذكر الله. قال النسفي: (ولقد تقابل الاستبشار والاشمئزاز إذ كل واحد منهما غاية في بابه، فالاستبشار أن يمتلىء قلبه سروراً حتى تنبسط له بشرة وجهه ويتهلل، والاشمئزاز أن يمتلىء غماً وغيظاً حتى يظهر الانقباض في أديم وجهه، والعامل في (إذا ذكر) هو العامل في إذا المفاجأة. تقديره وقت ذكر الذين من دونه فاجئوا وقت الاستبشار) وأمام هذا الموقف المغرق في الشرك والنفرة من التوحيد أمر الله رسوله ﷺ أن يقول معلناً للحق، ومذكّراً وواعظاً ومنذراً ﴿ **قل اللهم فاطر** ﴾أي: يافاطر ﴿ **السمٰوات والأرض عالم** ﴾ أي: ياعالم ﴿ **الغيب والشهادة** ﴾ أي: السّر والعلانية ﴿ **أنت تحكم** ﴾ أي: تقضي ﴿ **بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون** ﴾ من الهدى والضلال، أي: أنت تفصل بينهم يوم معادهم، ونشورهم وقيامهم من قبورهم، ثمّ يحدّثنا الله عز وجل عن موقف الكافرين يوم الفصل، ﴿ **ولو أن للذين ظلموا** ﴾ أي: أشركوا ﴿ **ما في الأرض جميعاً ومثله معه** ﴾ أي: لو أن لهم جميع ما في الأرض وضعفه معه ﴿ **لافتدوا به من سوء العذاب يوم القيامة** ﴾ أي: من شدّته ﴿ **وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون** ﴾ أي: وظهر لهم من الله من العذاب والنّكال بهم مالم يكن في بالهم، ولا في حسابهم ﴿ **وبدا لهم سيئات ما كسبوا** ﴾ أي: سيئات أعمالهم التي كسبوها، أو سيئات كسبهم حين تعرض صحائف أعمالهم، وكانت خافية عليهم، أو عقاب ذلك. وقال ابن كثير: أي: وظهر لهم جزاء ما اكتسبوا في الدار الدنيا من المحارم والمآثم. ﴿ **وحاق بهم** ﴾ أي: نزل بهم وأحاط ﴿ **ما كانوا به يستهزؤون** ﴾ أي: جزاء هزئهم، أي: وأحاط بهم من لعذاب والنّكال ماكانوا يستهزؤون به في الدار الدنيا.

كلمة في السياق:

رأينا في الآيات الأخيرة موقفاً آخر للمشركين من قضية التوحيد، ورأينا ما هو الموقف المكافىء لهذا الموقف، ثمّ يعرض الله عز وجل علينا موقفاً ثالثاً للكافرين، وردٌّ عليه، هذا الموقف هو إنكار الكافرين أن يكون ما بهم من نعمة من الله، مع أنهم في أيام الشدة لا يدعون إلّا الله.

﴿ **فإذا مسَّ الإنسانَ ضرٌّ دعانا** ﴾ أي: تضرّع إلينا لنكشف عنه ضرّه ، وهذا اعتراف منه بأنّ النعم من الله ﴿ **ثمّ إذا خوّلناه** ﴾ أي : أعطيناه تفضّلاً ﴿ **نعمة منّا قال إنّما أوتيته على علم** ﴾ أي : على علم مني بوجوه الكسب والعمل والحركة ﴿ **بل هي فتنة** ﴾ أي : ابتلاء وامتحان لك ، أتشكر أم تكفر ﴿ **ولكن أكثرهم لايعلمون** ﴾ أنها فتنة ، فلهذا يقولون مايقولون ، ويدّعون مايدّعون ﴿ **قد قالها** ﴾ أي : قد قال هذه المقالة وهي قولة ﴿ **إنما أوتيته على علم** ﴾ ﴿ **الذين من قبلهم** ﴾ كقارون مثلاً إذ قال : (إنما أوتيته على علم عندي) ﴿ **فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون** ﴾ من متاع الدنيا ومايجمعون منها ﴿ **فأصابهم سيئات ماكسبوا** ﴾ أي : جزاء سيئات كسبهم ﴿ **والذين ظلموا من هؤلاء** ﴾ أي : والذين أشركوا من هذه الأمّة ﴿ **سيصيبهم سيئات ماكسبوا** ﴾ أي : سيصيبهم مثل ماأصاب أولئك ﴿ **وماهم بمعجزين** ﴾ أي : بفائتين من عذاب الله ﴿ **أو لم يعلموا** ﴾ عن طريق مايشاهدونه ﴿ **أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر** ﴾ أي : ويضيّق ﴿ **إنّ في ذلك لآيات لقوم يؤمنون** ﴾ بأنّه لاقابض ولاباسط إلّا الله عز وجل ، أما الكافرون فإنّهم عمي عن رؤية الآيات ، وبهذا بينت الآيات تناقض الكافرين ، وأقامت عليهم الحجة ، فهم في حال الشدة يؤمنون بأنّ النعم بيد الله ، فإذا أصبحوا في نعمة أنكروا أن يكون مصدر النعمة هو الله ، بل نسبوها لأنفسهم ، مع أنّ نظرة صحيحة لموضوع بسط الرزق وقبضه تدلّ على أن الله وحده هو المنعم ، وفي سياق ذلك أنذرهم الله عزّ وجلّ العذاب ، مبيّناً أنّ عدم اعتراف الإنسان بالنّعمة ، وأنّها من عند الله ، يُستحقّ بسببه عذابُ الاستئصال . وبهذا انتهت المجموعة الأولى من المقطع الثاني .

— — — — — — — — —

نقـل :

بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **فإذا مسَّ الإنسان ضر دعانا . ثم إذا خوَّلناه نعمة منا ، قال : إنما أوتيته على علم . بل هي فتنة ولكن أكثرهم لايعلمون** ﴾ قال صاحب الظلال : (والآية تصور نموذجاً مكرراً للإنسان ، مالم تهتد فطرته إلى الحق ، وترجع إلى ربها الواحد ، وتعرف الطريق إليه ، فلا تضل عنه في السراء والضراء .

إن الضر يسقط عن الفطرة ركام الأهواء والشهوات ، ويعريها من العوامل المصطنعة التي تحجب عنها الحق الكامن فيها وفي ضمير هذا الوجود . فعندئذ ترى الله وتعرفه وتتجه إليه وحده . حتى إذا مرت الشدة وجاء الرخاء . نسي هذا الإنسان ماقاله في الضراء ، وانحرفت فطرته بتأثير الأهواء . وقال عن النعمة والرزق والفضل : ﴿ **إنما أوتيته على علم** ﴾ .. قالها قارون ، وقالها كل مخدوع بعلم أو صنعة أو حيلة يعلل بها ما اتفق له من مال أو سلطان . غافلاً عن مصدر النعمة ، وواهب العلم والقدرة ، ومسبب الأسباب ، ومقدّر الأرزاق .

﴿ **بل هي فتنة ولكن أكثرهم لايعلمون** ﴾ هي فتنة للاختبار والامتحان . ليتبين إن كان سيشكر أو سيكفر ؛ وإن كان سيصلح بها أم سيفسد ؛ وإن كان سيعرف الطريق أم يجنح إلى الضلال .

والقرآن ــ رحمة بالعباد ــ يكشف لهم عن السر ، وينبههم إلى الخطر ، ويحذرهم الفتنة . فلا حجة لهم ولا عذر بعد هذا البيان .

وهو يلمس قلوبهم بعرض مصارع الغابرين قبلهم . مصارعهم بمثل هذه الكلمة الضالة التي يقولها قائلهم : ﴿ **إنما أوتيته على علم** ﴾ . ﴿ **قد قالها الذين من قبلهم فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون * فأصابهم سيئات ما كسبوا والذين ظلموا من هؤلاء سيصيبهم سيئات ما كسبوا وماهم بمعجزين** ﴾ .. هي ذاتها هذه الكلمة الضالة قالها الذين من قبلهم ، فانتهت بهم إلى السوء والوبال . ولم يغن عنهم علمهم ولا مالهم ولا قوتهم شيئا . وهؤلاء سيصيبهم ماأصاب الغابرين . فسنَّة الله لاتتبدّل ﴿ **وماهم بمعجزين** ﴾ . فالله لايعجزه خلقه الضعاف المهازيل !.

فأما ماأعطاهم الله من نعمة ، وماوهبهم من رزق ، فإنه يتبع إرادة الله وفق حكمته وتقديره في بسط الرزق وقبضه ، ليبتلي عباده ، ولينفذ مشيئته كما يريد : ﴿ **أو لم يعلموا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ؟ إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون** ﴾فلا يجعلوا آيات الله سبباً في الكفر والضلال .. وهي جاءت للهدى والإيمان ..) .

ملاحظات حول السياق :

١ – لاحظنا أن المجموعة الأولى في المقطع الأول : بدأت بقوله تعالى : ﴿ **إنا أنزلنا**

إليك الكتاب بالحق ﴾ ثم تحدثت عن اتخاذ المشركين شركاء ﴿ **ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى** ﴾ ثم حدثنا السياق عن الله عز وجل وعن شكره ، ثم حدثنا عن موقف الكافر عند الشدة ﴿ **وإذا مسَّ الإنسان ضرّ دعا ربه منيباً إليه ثم إذا خوَّله نعمة منه نسي ما كان يدعو إليه من قبل ..** ﴾ ثم جاءت مجموعة مبدوءة بقوله تعالى ﴿ **قل يا عباد الذين آمنوا اتقوا ربكم ..** ﴾ .

ونلاحظ أن المجموعة الأولى في المقطع الثاني بدأت بقوله تعالى : ﴿ **إنا أنزلنا عليك الكتاب للناس بالحق ..** ﴾ ثم حدثتنا عن اتخاذ المشركين آلهة ليشفعوا لهم ... ﴿ **أم اتخذوا من دون الله شفعاء ..** ﴾ ثمّ وثمّ حتى حدثتنا عن موقف الكافر عند الشدة ، وكفره عند الرخاء ﴿ **فإذا مسَّ الإنسان ضرٌّ دعانا ثمّ إذا خوّلناه نعمة منا ...** ﴾ ثم تأتي الآن مجموعة مبدوءة بقوله تعالى ﴿ **قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ...** ﴾ .

هذا التشابه الكبير بين المجموعة الأولى والثانية في المقطع الأول ، وبين المجموعة الأولى والثانية في المقطع الثاني ، يذكّرنا بقوله تعالى : ﴿ **الله نزّل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ...** ﴾ إنك تلاحظ التشابه الواضح ، وتلاحظ تثنية المعاني ، وتلاحظ أن ذلك عرض على أعظم ما يكون البيان ، وأحسن ما يكون الكلم ، وكل ذلك في صيغة تبشير وإنذار ، تقشعر منها الجلود ثم تلين ، وهذا كله يتأدّى دون أن تحسّ بملل لرؤيتك التجديد والجديد كلما سرت في السورة ، ومن ثم فإنك تجد كيف أنّ السورة يخدم بعضها بعضاً بأشكال متعددة ، وبشكل لا يمكن الإحاطة به ، وهذا مظهر من مظاهر الإعجاز الكبير في هذا القرآن ، ودليل على أنّ القرآن من عند الله .

٢ ــ من التشابه بين المقطعين تستطيع أن تدرك مسار السورة ، فالسورة تحدّثنا عن تنزيل هذا القرآن ، وهذا يقتضي عبادة لله ، والعبادة تقتضي معرفة لله وعملاً ، وقد عرفنا الله عز وجل في المقطع الأول على ذاته ، ودلّنا على طريق العمل ، وأقام الحجة على الجاحدين والجاهلين والمشركين . وجاء المقطع الثاني ليكمّل المسار ، فيقرر تنزيل الله هذا القرآن ، ثم يعرفنا على الله عز وجل ، ثم يبيّن ضلال المشركين في شأن الألوهية ، ثم يبين لنا ما ينبغي فعله ، وهكذا ما بين التعريف بالله عز وجل ، والتعريف على العمل ، وتبيان المآل ، نرى السياق يسير ، وكل ذلك بما يخدم محور السورة من سورة البقرة

﴿ **ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين** ﴾ إذ إنّ أوّل ما يقدّمه القرآن في باب الهداية هو الهداية إلى معرفة الله ، والتعريف على طريق عبادته .

فلنر المجموعة الثانية في المقطع الثاني التي تفتح باب التوبة ، والرّجوع إلى الله .

تفسير المجموعة الثانية

﴿ **قل ياعبادي الذين أسرفوا على أنفسهم** ﴾ أي : جنوا عليها بالإسراف في المعاصي والغلوّ فيها ﴿ **لا تقنطوا** ﴾ أي : لا تيأسوا ﴿ **من رحمة الله إنّ الله يغفر الذنوب جميعاً** ﴾ بالعفو عنها إلا الشرك ﴿ **إنه هو الغفور** ﴾ بستر عظائم الذنوب ﴿ **الرحيم** ﴾ بكشف فظائع الكروب ، قال ابن كثير : (هذه الآية الكريمة دعوة لجميع العصاة من الكفرة وغيرهم إلى التوبة والإنابة ، وإخبار بأن الله تبارك وتعالى يغفر الذنوب جميعاً لمن تاب منها ورجع عنها ، وإن كانت مهما كانت ، وإن كثرت وكانت مثل زبد البحر ، ولا يصح حمل هذه على غير توبة ؛ لأن الشرك لا يُغفر لمن لم يتب منه) . ﴿ **وأنيبوا إلى ربكم** ﴾ أي : وارجعوا إليه ، أي : وتوبوا إليه ﴿ **وأسلموا له** ﴾ أي : واستسلموا له بالانقياد لشرعه ، والتسليم لقدره ﴿ **من قبل أن يأتيكم العذاب ثمّ لا تنصرون** ﴾ إن لم تتوبوا قبل نزول العقاب ، أي : بادروا بالتوبة والعمل الصالح قبل حلول النقمة ﴿ **واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم** ﴾ وهو القرآن أو عزائم القرآن ﴿ **من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون** ﴾ أي : من قبل أن يفجأكم العذاب وأنتم غافلون كأنكم لا تخشون شيئاً لفرط غفلتكم من حيث لا تعلمون ولا تشعرون ﴿ **أن تقول** ﴾ لئلا تقول ﴿ **نفس** ﴾ من الأنفس ﴿ **يا حسرتى على ما فرَّطتُ** ﴾ أي : على ما قصّرت ﴿ **في جنب الله** ﴾ أي : في أمر الله ، أو في طاعة الله ، أو في ذاته ، أو في طريقه : وهو توحيده والإقرار بنبوّة محمد ﷺ ﴿ **وإن كنتُ** ﴾ أي : وإنه كنت ﴿ **لمن الساخرين** ﴾ أي : المستهزئين قال قتادة لم يكفه أن ضيّع طاعة الله حتى سخر من أهلها ، وتقدير الكلام فرَّطتُ في حال سخريتي ﴿ **أو تقول** ﴾ يوم القيامة ﴿ **لو أن الله هداني** ﴾ أي : أعطاني الهداية ﴿ **لكنتُ من المتقين** ﴾ أي : من الذين يتقون الشرك ﴿ **أو تقول حين ترى العذاب لو أنّ لي كرّة** ﴾ أي : رجعة إلى الدنيا ﴿ **فأكون من المحسنين** ﴾ أي : من الموحّدين ، أي : تودّ لو أعيدت إلى الدنيا لتحسن العمل . ولمّا عرض الله علينا ما يتمنّاه أهل الجرائم من العود إلى الدنيا ردّ عليهم فقال : ﴿ **بلى قد**

جاءتك آياتي فكذبت بها واستكبرتَ وكنت من الكافرين ﴾ قال ابن كثير : (أي : قد جاءتك أيها العبد النادم على ما كان منه آياتي في الدار الدنيا ، وقامت حججي عليك فكذّبت بها ، واستكبرت عن اتباعها ، وكنت من الكافرين بها الجاحدين لها) .

وقال النسفي : (كأنه يقول : بلى قد جاءتك آياتي وبيّنت لك الهداية من الغواية وسبيل الحق من الباطل ، ومكنتُك من اختيار الهداية على الغواية ، واختيار الحق على الباطل ، ولكن تركتَ ذلك وضيَّعتَه ، واستكبرت عن قبوله ، وآثرت الضلالة على الهدى ، واشتغلت بضدّ ما أمرت به ، فإنما جاء التضييع من قِبلَك فلا عذر لك) وبعد هذا الرد يعود السياق ليعرض علينا الحال يوم القيامة ، لنتدارك أمرنا في الدنيا ، ونكون من المتقين ﴿ **ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله** ﴾ أي : وصفوه بما لا يجوز عليه من إضافة الشريك والولد إليه ﴿ **وجوههم مسودَّة** ﴾ أي : بكذبهم وافترائهم ﴿ **أليس في جهنم مثوى** ﴾ أي : منزل ﴿ **للمتكبّرين** ﴾ أي : أليست جهنم كافية لهم سجناً وموئلاً لهم ، فيها الخزي والهوان بسبب تكبّرهم وتجبّرهم ، وإبائهم عن الانقياد إلى الحق ، ﴿ **وينجّي الله الذين اتقوا بمفازتهم** ﴾ أي : بفلاحهم ، أي : بما سبق لهم من السعادة والفوز عند الله ، ثمّ فسّر فوزهم ﴿ **لا يمسّهم السوء** ﴾ أي : النار يوم القيامة ﴿ **ولا هم يحزنون** ﴾ أي : ولا يحزنهم الفزع الأكبر ، بل هم آمنون من كل فزع ، مزحزحون عن كل شر ، نائلون كل خير .

نقـل :

بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم** ﴾ قال صاحب الظلال : (إنها الرحمة الواسعة التي تسع كل معصية كائنة ما كانت ، وإنها الدعوة للأوبة ، دعوة العصاة المسرفين الشاردين المبعدين في تيه الضلال . دعوتهم إلى الأمل والرجاء والثقة بعفو الله . إن الله رحيم بعباده . وهو يعلم ضعفهم وعجزهم . ويعلم العوامل المسلّطة عليهم من داخل كيانهم ومن خارجه . ويعلم أن الشيطان يقعد لهم كل مرصَد . ويأخذ عليهم كل طريق . ويجلب عليهم بخيله ورَجِله . وأنه جاد كل الجد في عمله الخبيث ! ويعلم أن بناء هذا المخلوق الإنساني بناء واه . وأنه مسكين سرعان ما يسقط إذا أفلت من يده الحبل الذي يربطه والعروة التي تشده . وأن ما ركب في كيانه من وظائف ومن ميول ومن

شهوات سرعان ما ينحرف عن التوازن فيشط به هنا أو هناك ؛ ويوقعه في المعصية وهو ضعيف عن الاحتفاظ بالتوازن السليم ..

يعلم الله ـــ سبحانه ـــ عن هذا المخلوق كل هذا فيمد له في العون ؛ ويوسع له في الرحمة ؛ ولا يأخذه بمعصيته حتى يهيء له جميع الوسائل ليصلح خطأه ويقيم خطاه على الصراط . وبعد أن يلج في المعصية ، ويسرف في الذنب ، ويحسب أنه قد طُرد وانتهى أمره ، ولم يعد يقبل ولا يستقبل . في هذه اللحظة ـــ لحظة اليأس والقنوط ـــ يسمع نداء الرحمة الندي اللطيف : ﴿ **قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم** ﴾ .

وليس بينه ـــ وقد أسرف في المعصية ، ولج في الذنب ، وأبق عن الحمى ، وشرد عن الطريق ـــ ليس بينه وبين الرحمة الندية الرخية ، وظلالها السمحة المحيية . ليس بينه وبين هذا كله إلا التوبة . التوبة وحدها . الأوبة إلى الباب المفتوح الذي ليس عليه بواب يمنع ، والذي لا يحتاج من يلج فيه إلى استئذان .

﴿ **وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون * واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون** ﴾ .

الإنابة . والإسلام . والعودة إلى أفياء الطاعة وظلال الاستسلام .. هذا هو كل شيء . بلا طقوس ولا مراسم ولا حواجز ولا وسطاء ولا شفعاء !.

إنه حساب مباشر بين العبد والرب . وصلة مباشرة بين المخلوق والخالق . من أراد الأوبة من الشاردين فليؤب . ومن أراد الإنابة من الضالين فلينب . ومن أراد الاستسلام من العصاة فليستسلم . وليأت . ليأت وليدخل فالباب مفتوح . والفيء والظل والندى والرخاء. كله وراء الباب لا حاجب دونه ولا حسيب !) .

— — — — — — — —

كلمة في السياق :

١ - يلاحظ أن هذه المجموعة تبنى على معانٍ موجودة في المقطع الأول وتكمّلها ،

بل نلاحظ أن في هذه المجموعة مايقابل أشياء موجودة في المقطع الأول ، مما يؤكد ماذكرناه من ملاحظات حول السياق بعد المجموعة الأولى من هذا المقطع ، فمثلاً في أواخر المقطع السابق ورد قوله تعالى : ﴿ **فمن أظلم ممّن كذب على الله وكذّب بالصّدق إذ جاءه أليس في جهنم مثوى للكافرين** ﴾ وههنا يرد قوله تعالى : ﴿ **ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودّة أليس في جهنم مثوى للمتكبّرين** ﴾ وهناك يرد قوله تعالى : ﴿ **والذي جاء بالصدق وصدّق به أولئك هم المتقون** ﴾ وههنا يرد قوله تعالى : ﴿ **وينجي الله الذين اتقوا بمفازتهم** .. ﴾ وفي المقطع الأول يرد قوله تعالى : ﴿ **الذين يستمعون القول فيتبّعون أحسنه** ﴾ وههنا يرد قوله تعالى : ﴿ **واتبعوا أحسن ماأنزل إليكم من ربكم** ﴾ فالمقطع الثاني يكمّل المقطع الأول .

٢ - لخّصت هذه المجموعة ماينبغي أن يكون عليه المهتدون : من توبة ، وإنابة ، وإسلام لله ، واتباع للقرآن ، وإحسان وتقوى ، وتجنّب لليأس من رحمة الله ، وتجنّب للتفريط أو للسخرية بشرع الله وأهله أو للكبر ، وهي معان تدخل في معنى العبادة ، وهي أثر من آثار معرفة الله عز وجل .

٣ - نلاحظ أنّ سورة آل عمران فصّلت في الآيات الأولى من سورة البقرة ، وقد ورد فيها قوله تعالى : ﴿ **فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز** ﴾ والملاحظ أنه قد مرّ معنا في هذه المجموعة قوله تعالى : ﴿ **وينجي الله الذين اتقوا بمفازتهم** ﴾ والصلة واضحة .

٤ ــ ونلاحظ أن مجموعة جديدة ستأتي على صلة وثيقة جداً ببداية المقطع ، فقد بدأ المقطع بقوله تعالى : ﴿ **إنا أنزلنا عليك الكتاب للناس بالحق فمن اهتدى فلنفسه ومن ضلّ فإنّما يضلّ عليها وماأنت عليهم بوكيل** ﴾ .

ثمّ تأتي مجموعة مبدوءة بقوله تعالى : ﴿ **الله خالق كل شيء وهو على كل شيء وكيل** ﴾ فالصلة واضحة ، أنت يامحمد لست عليهم بوكيل ، ولكن الله على كل شيء وكيل ، فكأن المجموعتين السابقتين وضحتا معاني موجودة في الآية الأولى من المقطع ، ثم تأتي المجموعة الجديدة فتوضح كذلك بشكل مباشر شيئاً موجوداً في هذه الآية فلنر تفصيل ذلك :

الآية الأولى هي : ﴿ **إنا أنزلنا عليك الكتاب للناس بالحق فمن اهتدى فلنفسه ومن ضلّ فإنّما يضلّ عليها وما أنت عليهم بوكيل** ﴾ . وقد جاء مباشرة بعد هذه الآية قوله تعالى : ﴿ **الله يتوفى الأنفس ..** ﴾ وسار السياق حتى المجموعة الثالثة وهي مبدوءة بلفظ الجلالة ﴿ **الله خالق كل شيء** ﴾ ، فكأن المقطع الثاني مؤلَّف من مقدمة وجولتين ، كل منهما مبدوءة بلفظ الجلالة (الله) (الله) .

وإذا تأمّلنا مجموعتي الجولة الأولى نلاحظ أنّها تفصّل في كون الله هو الوكيل ، وأنّ محمداً ﷺ ليس وكيلاً ، وتفصّل كيف أنّ من اهتدى فلنفسه ، ومن ضلّ فعليها ، وتذكر مظاهر من الهداية ، ومظاهر من الضلال ، فإذا جاءت الجولة الجديدة فإنّها تفصّل في كون الله هو الوكيل بما يخدم الموضوع الرئيسي وهو تنزيل الكتاب ، ووجوب اهتداء الإنسان به .

فلنر الجولة الثانية في المقطع الثاني وهي تستمر حتى نهاية السورة وهي المجموعة الثالثة في المقطع الثاني .

— — — — — — — —

تفسير المجموعة الثالثة

﴿ **الله خالق كل شيء وهو على كل شيء وكيل** ﴾ فالذي يخلق كل شيء هو الذي على كل شيء وكيل ، أي : حافظ ومراقب ، ومن ثمّ فإنّه هو الذي يتولى أمر من يخالف الكتاب الذي أنزله ، ومن ثم قال : ﴿ **له مقاليد السموات والأرض** ﴾ أي : مفاتيح السموات والأرض ، أي : هو مالك أمرهما ﴿ **والذين كفروا بآيات الله** ﴾ التي أنزلها على رسوله ﷺ ﴿ **أولئك هم الخاسرون** ﴾ في الدنيا والآخرة .

— — — — — — — —

كلمة في السياق :

إن ختم الآيتين السابقتين بقوله تعالى : ﴿ **والذين كفروا بآيات الله أولئك هم**

الخاسرون ﴾ دليل على ماذكرناه من كون السياق هنا يفصّل ما سبق ذكره في مقدمة المقطع ، من أن الله هو الوكيل ، وأنّ ذلك مرتبط بموضوع موقف الإنسان من كتاب الله ، وإذا تقرّر أنّ الله عزّ وجلّ هو منزل الكتاب ، وأنّه هو الوكيل ، وأنّ محمداً ﷺ ليس وكيلاً ، فالسّياق الآن يتوجه آمراً رسول الله ﷺ أن يقول للجاهلين الذين لم يهتدوا بهدي الله :

ـــ ـــ ـــ ـــ ـــ ـــ ـــ ـــ

﴿ **قل** ﴾ يا محمد ﴿ **أفغير الله تأمرونيّ أعبد** ﴾ أي : أفغير الله أعبد بأمركم بعد هذا البيان ﴿ **أيها الجاهلون** ﴾ بتوحيد الله ؟ ﴿ **ولقد أوحي إليك وإلى الذين من قبلك** ﴾ من الأنبياء ﴿ **لئن أشركت ليحبطنَّ عملك** ﴾ الذي عملته قبل الشرك ﴿ **ولتكوننَّ من الخاسرين** ﴾ قال النسفي : (وإنما صح هذا الكلام مع علمه تعالى بأن رسله لايشركون ؛ لأن الخطاب للنبي عليه السلام والمراد به غيره ، ولأنه على سبيل الفرض . والمحالات يصح فرضها ، وقيل لئن طالعت غيري في السر ليحبطن مابيني وبينك من السر . ﴿ **بل الله فاعبد** ﴾ هذا رد لما أمروه به من عبادة آلهتهم ، كأنّه قال : لا تعبد ماأمروك بعبادته ، بل فاعبد الله ﴿ **وكن من الشاكرين** ﴾ على ماأنعم به عليك ﴿ **وما قدروا الله حَقَّ قدره** ﴾ أي : وما عظّموه حقّ تعظيمه ، إذ دعوك لعبادة غيره ، ورفضوا الاهتداء بكتابه ، ثمّ نبّههم على عظمته ، وجلال شأنه فقال : ﴿ **والأرض جميعاً** ﴾ أي : والأرضون السبع كلها ﴿ **قبضته يوم القيامة** ﴾ والقبضةبالمرّة من القبض ، يعني أنّ الأرضين مع عظمهن وبسطتهن لايبلغن إلا قبضة واحدة من قبضاته ﴿ **والسّمٰوات مطويات بيمينه** ﴾ والطّيّ ضدّ النّشر كما قال تعالى : ﴿ **يوم نطوي السّماء كطي السّجل للكتب** ﴾ ﴿ **سبحانه وتعالى عما يشركون** ﴾ أي : ماأبعد مَنْ هذه قدرته وعظمته ، وما أعلاه عمّا يضاف إليه من الشركاء .

ـــ ـــ ـــ ـــ ـــ ـــ ـــ ـــ

كلمة في السياق :

عرفنا ممّا مر أن الله وحده هو الوكيل ؛ ولأنّه هو الخالق ، ولأنّه هو المالك ، ولأن الأرضين قبضته يوم القيامة ، والسّمٰوات مطويات بيمينه يوم القيامة ، ومن ثمّ فإنّه وحده المستحق للعبادة ، والمستحق للشكر ، وأنّ من يشرك به خاسر وحابط عمله ، وكون الله عز وجل هو الوكيل فإنه سيحاسب من رفض هدايته ورفض كتابه ، ومن ثمّ تبدأ المجموعة تعرض لنا مشهداً من مشاهد يوم القيامة ، تذكر فيه كيف سيفعل الله عز وجل بالمتقين الذين اهتدوا بكتابه ، والكافرين الذين رفضوا كتابه .

— — — — — — — —

﴿ **ونفخ في الصور فصعق** ﴾أي : مات ﴿ **من في السمٰوات ومن في الأرض إلا من شاء الله** ﴾ قال النسفي : (أي : جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت ، وقيل هم حملة العرش ، أو رضوان والحور العين ومالك والزبانية) وسنرى تحقيق هذا الموضوع في الفوائد ، وسنرى في سورة المؤمن القادمة تفصيلاً آخر ﴿ **ثم نفخ فيه أخرى** ﴾ أي : ثم نفخ في الصور نفخة أخرى ﴿ **فإذا هم قيام ينظرون** ﴾ قال النسفي : (يقلبون أبصارهم في الجهات ، نظر المبهوت إذا فاجأه خطب،أو ينظرون أمر الله فيهم ، ودلت الآية على أن هناك نفختين : الأولى للموت ، والثانية للبعث ، والجمهور على أنها ثلاث : الأولى للفزع ، كما قال تعالى : ﴿ **ونفخ في الصور ففزع** ﴾ والثانية للموت والثالثة للإعادة) . ﴿ **وأشرقت الأرض بنور ربها** ﴾ أي : وأضاءت ، وهل المراد بالنور العدل ، أو المراد نور يخلقه الله عز وجل يوم القيامة ، وأضافه إلى ذاته تشريفاً لإضاءة الأرض ؟، قولان للمفسرين . قال ابن كثير : (أي : أضاءت يوم القيامة إذا تجلّى الحقّ جلّ وعلا للخلائق لفصل القضاء ﴿ **وَوُضع الكتاب** ﴾ أي : كتاب الأعمال ﴿ **وجيء بالنبيين** ﴾ ليسألهم ربهم عن تبليغ الرسالة ، وما أجابهم قومهم ﴿ **والشهداء** ﴾ أي : الحفظة من الملائكة ﴿ **وقضي بينهم** ﴾ أي : بين العباد ﴿ **بالحقّ** ﴾ أي : بالعدل ﴿ **وهم لايُظلمون** ﴾ شيئاً ﴿ **ووفّيت كلّ نفس ماعملت** ﴾ أي : جزاءه ﴿ **وهو أعلم بما يفعلون** ﴾ من غير كتاب ولا شاهد ﴿ **وسيق الذين كفروا إلى جهنم زُمراً** ﴾ أي : أفواجاً متفرقة بعضها في أثر بعض

﴿ **حتى إذا جاؤوها فتحت أبوابها** ﴾ السبعة قال ابن كثير : (أي : بمجرد وصولهم إليها فتحت أبوابها سريعاً ، لتعجّل لهم العقوبة ، ﴿ **وقال لهم خزنتها** ﴾ أي : قال لهم خزنتها من الزبانية الذين هم غلاظ الأخلاق ، شداد القوى ، على وجه التقريع والتوبيخ والتنكيل ﴿ **ألم يأتكم رسل منكم** ﴾ أي : من جنسكم تتمكّنون من مخاطبتهم والأخذ عنهم ﴿ **يتلون عليكم آيات ربكم** ﴾ أي : وحيه ، ويقيمون عليكم الحجج والبراهين على صحة مادعوكم إليه ﴿ **وينذرونكم لقاء يومكم هذا** ﴾ أي : ويحذرونكم وقت دخولكم النار ، ﴿ **قالوا** ﴾ أي : الكفار للخزنة ﴿ **بلى** ﴾ قد جاؤونا وتلوا علينا آيات ربنا ﴿ **ولكن حَقّت كلمة العذاب على الكافرين** ﴾ أي : ولكن وجبت علينا كلمة الله بأن يملأ جهنم ، ذكروا عملهم الموجب لكلمة العذاب وهو الكفر والضلال ﴿ **قيل ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها** ﴾ أي : ماكثين فيها لاخروج لكم منها ، ولا زوال لكم عنها ﴿ **فبئس مثوى المتكبرين** ﴾ جهنم ، أي : فبئس المصير وبئس المقيل لكم ، بسبب تكبركم في الدنيا ، وإبائكم عن اتّباع الحق ، فهو الذي صيّركم إلى ماأنتم فيه ، فبئس الحال ، وبئس المآل ، ومن القائل لهم هذا ؟ قال ابن كثير : (لم يسند هذا القول إلى قائل معيّن ، بل أطلقه ليدلّ على أنّ الكون شاهد عليهم بأنهم يستحقون ماهم فيه بما حكم العدل الخبير عليهم) ﴿ **وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمراً** ﴾ قال النسفي : المراد سوق مراكبهم ، لأنّه لايذهب بهم إلا راكبين إلى دار الكرامة والرضوان ، قال ابن كثير : (وهذا إخبار عن حال السعداء المؤمنين حين يساقون على النجائب وفداً إلى الجنة ﴿ **زمراً** ﴾ أي : جماعة بعد جماعة : المقرّبون ، ثم الأبرار ، ثم الذين يلونهم ، كل طائفة مع من يناسبهم : الأنبياء مع الأنبياء ، والصديقون مع أشكالهم ، والشهداء مع أضرابهم ، والعلماء مع أقرانهم ، وكل صنف مع صنف ، كل زمرة تناسب بعضها بعضاً) .

﴿ **حتى إذا جاؤوها** ﴾ أي : وصلوا إلى أبواب الجنة ﴿ **وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم** ﴾ من دنس المعاصي ، وطهّرتم من خبث الخطايا ، وقال الزّجاج : أي : كنتم طيبين في الدنيا ، ولم تكونوا خبيثين ﴿ **فادخلوها خالدين** ﴾ أشعرت الآية أن دخول الجنة مسبّب عن الطيب والطّهارة ، لأنّها دار الطيبين ، ومثوى الطاهرين ، قد طهّرها الله من كل دنس ، وطيّبها من كل قذر ، فلا يدخلها إلا مناسب لها ، موصوف بصفتها ﴿ **وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده** ﴾ أي : أنجزنا ماوعدنا في الدنيا من نعم العقبى ﴿ **وأورثنا الأرض** ﴾ أي : أرض الجنة ، وقد أورثوها أي :

ملكوها وجُعلوا ملوكها ، وأطلق تصرّفهم فيها كما يشاؤون ، تشبيهاً بحال الوارث وتصرفه فيما يرثه ، واتساعه فيه ﴿ **نتبوَّأ من الجنة حيث نشاء** ﴾ أي : يكون لكل واحد منهم جنة لاتوصف سعة وزيادة على الحاجة ، فيتبوَّأ أي : فيتخذ مبوًّأ ومقراً من جنته حيث يشاء ﴿ **فنعم أجر العاملين** ﴾ الجنةّ ﴿ **وترى الملائكة حافّين من حول العرش** ﴾ أي : محدقين من حوله ﴿ **يسبّحون بحمد ربهم وقضي بينهم** ﴾ أي : بين الأنبياء والأمم ، أو بين أهل الجنة والنار ﴿ **بالحق** ﴾ أي : بالعدل ﴿ **وقيل الحمد لله رب العالمين** ﴾ . قال النسفي : أي : يقول أهل الجنة شكراً حين دخولها وتمّ وعد الله لهم كما قال : ﴿ **وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين** ﴾ .

— — — — — — — —

كلمة في المجموعة الأخيرة والمقطع :

١ - إن المجموعة الأخيرة أرتنا كيف أن الله عز وجل الذي أنزل هذا القرآن هو الوكيل ، وأرتنا ماهي عاقبة الذين صدّقوا بالكتاب واهتدوا به ، وعاقبة الذين كذّبوا بالكتاب ، ومن ثم رأينا كيف كان خطاب الملائكة لأهل النار ﴿ **ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم ...** ﴾ وهذا يدلنا على الصلة بين المجموعة الأخيرة وبداية المقطع ، وبين المجموعة وسياق السورة كلها .

٢ - نلاحظ أنّ المجموعة الأخيرة أكملت بناء الأمر بالعبادة في السورة ، ففي المقطع الأول ورد قوله تعالى : ﴿ **فاعبد الله مخلصاً له الدين ...** ﴾ ﴿ **قل إني أُمرت أن أعبد الله مخلصاً له الدين ...** ﴾ وفي هذا المقطع ورد قوله تعالى ﴿ **قل أفغير الله تأمرونّي أعبد أيها الجاهلون * ولقد أوحي إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين * بل الله فاعبد وكن من الشاكرين** ﴾ وهكذا نجد كلاًّ من المقطعين في السورة يكمّل الآخر .

٣ - نلاحظ أنّ المقطع الأخير قد بين أن الله عز وجل الذي أنزل هذا القرآن هو الذي يتولّى أمر عقاب المنحرفين عن دينه وكتابه في الدنيا والآخرة وماعلى الرسول إلا أن يطيع الله فيما أمره به .

فـوائد :

١ ــ في قوله تعالى : ﴿ **الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى** ﴾ قال ابن كثير : (قال تعالى مخبراً عن نفسه الكريمة بأنه المتصرف في الوجود بما يشاء ، وأنه يتوفى الأنفس الوفاة الكبرى بما يرسل الحفظة الذين يقبضونها من الأبدان . والوفاة الصغرى عند المنام كما قال تبارك وتعالى : ﴿ **وهو الذي يتوفاكم بالليل ويعلم ماجرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه ليُقضى أجل مسمى ثم إليه مرجعكم ثم ينبئكم بما كنتم تعملون * وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظة حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لايفرّطون** ﴾ (الأنعام : ٦٠ ، ٦١) فذكر الوفاتين الصغرى ثم الكبرى وفي هذه الآية ذكر الكبرى ثم الصغرى ولهذا قال تبارك وتعالى : ﴿ **الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى** ﴾ فيه دلالة على أنها تجتمع في الملإ الأعلى إذا ماتت ، كما ورد بذلك الحديث المرفوع الذي رواه ابن منده وغيره . وفي صحيحي البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ «إذا أوى أحدكم إلى فراشه فلينفضه بداخلة إزاره ، فإنه لايدري ماخلفه عليه ، ثم ليقل باسمك ربي وضعت جنبي وبك أرفعه ، إن أمسكت نفسي فارحمها ، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين» . وقال بعض السلف : يقبض أرواح الأموات إذا ماتوا ، وأرواح الأحياء إذا ناموا ، فتتعارف ما شاء الله تعالى أن تتعارف) .

وقال النسفي في الآية : (وقالوا : التي تتوفى في المنام هي نفس التمييز لا نفس الحياة ، لأن نفس الحياة إذا زالت زال معها النَّفَس ، والنائم يتنفّس ، ولكل إنسان نفسان : إحداهما نفس الحياة وهي التي تفارقه عند الموت ، والأخرى نفس التمييز وهي التي تفارقه إذا نام ، وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما : في ابن آدم نفس وروح ، بينهما شعاع مثل شعاع النفس ، فالنفس هي التي بها العقل والتمييز ، والروح هي التي بها النفس والتحرك ، فإذا نام العبد قبض الله نفسه ولم يقبض روحه ، وعن علي رضي الله عنه قال : تخرج الروح عند النوم ويبقى شعاعها في الجسد فبذلك يرى الرؤيا ، فإذا انتبه من النوم عاد الروح إلى جسده بأسرع من لحظة ، وعنه : مارأت نفس النائم في السماء فهي الرؤيا الصادقة ، ومارأت بعد الإرسال فيلقنها الشيطان فهي كاذبة ، وعن سعيد بن

جبير أن أرواح الأحياء وأرواح الأموات تلتقي في المنام فيتعارف منها ما شاء الله أن يتعارف ، فيمسك التي قضى عليه الموت ، ويرسل الأخرى إلى أجسادها إلى انقضاء مدة حياتها ، وروي أن أرواح المؤمنين تعرج عند النوم في السماء ، فمن كان منهم طاهراً أذن له في السجود ، ومن لم يكن منهم طاهراً لم يؤذن له فيه) .

٢ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **وإذا ذُكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لايؤمنون بالآخرة** ﴾ أقول : إن العلة الكبرى في المواقف الخاطئة هي انعدام أو نقص الإيمان باليوم الآخر ، فهو الذي ينبع عنه ماينبع ، ومن ذلك هذا الاشمئزاز الذي يقابل به الكافرون ذكر اسم الله وحده ، وهو داء استشرى في عصرنا ، فإنك إذا ذكرت أن الشفاء بيد الله ، والنصر بيد الله ، أو غير ذلك من الكلام الذي هو توحيد محض ، رأيت الاشمئزاز يعلو وجوه كثيرين ، وإذا ذكرت عالم الأسباب وتأثيرات الأسباب تستبشر القلوب المنكرة ، والوجوه ، ومن ثم فإن على الدعاة إلى الله أن يحيوا قضية الإيمان باليوم الآخر بأن يدلّلوا ، ويعظوا ، ويذكّروا ، والله الموفق .

٣ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **قل اللهم فاطر السمٰوات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون** ﴾ قال النسفي : (وعن ابن المسيب : لاأعرف آية قرئت فدعي عندها إلا أجيب سواها) وقال ابن كثير : (روى مسلم في صحيحه : عن أبي سلمة بن عبد الرحمن قال : سألت عائشة رضي الله عنها بأي شيء كان رسول الله ﷺ يفتتح صلاته إذا قام من الليل ، قالت رضي الله عنها : كان رسول الله ﷺ إذا قام من الليل افتتح صلاته «اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل فاطر السمٰوات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم» . وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : إن رسول الله ﷺ قال : «من قال : اللهم فاطر السمٰوات والأرض عالم الغيب والشهادة إني أعهد إليك في هذه الدنيا أني أشهد أن لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك ، وأن محمداً عبدك ورسولك ، فإنك إن تكلني إلى نفسي تقربني من الشر وتباعدني من الخير ، وإني لا أثق إلا برحمتك ، فاجعل لي عندك عهداً توفينيه يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد ، إلا قال الله عز وجل لملائكته يوم القيامة : إن عبدي قد عهد إلي عهداً فأوفوه إياه فيدخله الله الجنة » وروى الإمام أحمد عن يحيى بن عبد الله أن أبا عبد الرحمن حدثه قال : أخرج لنا عبد الله ابن عمرو رضي الله عنهما قرطاساً وقال : كان رسول الله ﷺ يعلمنا نقول : « اللهم فاطر

السمٰوات والأرض عالم الغيب والشهادة ، أنت رب كل شيء ، وإله كل شيء ، أشهد أن لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك وأن محمداً عبدك ورسولك والملائكة يشهدون ، أعوذ بك من الشيطان وشركه ، وأعوذ بك أن أقترف على نفسي إثماً أو أجرّه إلى مسلم » . قال أبو عبد الرحمن رضي الله عنه كان رسول الله ﷺ يعلّمه عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن يقول ذلك حين يريد أن ينام ، تفرد به أحمد أيضاً .

وروى الإمام أحمد عن أبي راشد الحبراني قال : أتيت عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما فقلت له : حدّثنا ماسمعت من رسول الله ﷺ ، فألقى بين يدي صحيفة ، فقال : هذا ما كتب لي رسول الله ﷺ ، فنظرت فيها فإذا فيها أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه قال : يارسول الله علمني ماأقول إذا أصبحت وإذا أمسيت فقال له رسول الله ﷺ : « ياأبا بكر قل اللهم فاطر السمٰوات والأرض عالم الغيب والشهادة ، لا إله إلا أنت ، رب كل شيء ومليكه ، أعوذ بك من شرنفسي ، وشر الشيطان وشركه ، أو أقترف على نفسي سوءاً أو أجرّه إلى مسلم » ورواه الترمذي وقال : حسن غريب من هذا الوجه. وروى الإمام أحمد عن مجاهد قال : قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه : أمرني رسول الله ﷺ أن أقول إذا أصبحت وإذا أمسيت وإذا أخذت مضجعي من الليل : ﴿ **اللهم فاطر السمٰوات والأرض** ... ﴾ .

٤ – بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **قل ياعبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لاتقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم** ﴾ قال ابن كثير : (روى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما أن ناساً من أهل الشرك كانوا قد قتلوا فأكثروا ، وزنوا فأكثروا ، فأتوا محمداً صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم فقالوا : إن الذي تقول وتدعو إليه لحسن لو تخبرنا أن لما عملنا كفارة فنزل ﴿ **والذين لايدعون مع الله إلهاً آخر ولايقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولايزنون** ﴾ (الفرقان : ٦٨) ونزل ﴿ **قل ياعبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لاتقنطوا من رحمة الله** ﴾ وهكذا رواه مسلم وأبو داود والنسائي . والمراد من الآية الأولى قوله تعالى : ﴿ **إلا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً** ﴾ الآية ، وروى الإمام أحمد عن ثوبان مولى رسول الله ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « ماأحب أن لي الدنيا ومافيها بهذه الآية ﴿ **قل ياعبادي الذين أسرفوا على أنفسهم** ﴾ إلى آخر الآية » فقال رجل : يارسول الله فمن أشرك ؟ فسكت رسول الله ﷺ ثم قال : « ألا ومن أشرك » ــ ثلاث مرات ــ تفرد به الإمام أحمد . وقال الإمام أحمد أيضاً عن عمرو بن عنبسة رضي الله عنه قال : جاء رجل إلى النبي ﷺ

شيخ كبير يدعم على عصا له فقال : يارسول الله إن لي غدرات وفجرات فهل يغفر لي ؟ قال ﷺ : «ألست تشهد أن لا إله إلا الله ؟» قال : بلى وأشهد أنك رسول الله ، فقال صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم «قد غفر لك غدراتك وفجراتك» تفرد به أحمد . وروى الإمام أحمد عن أسماء بنت يزيد رضي لله عنها قالت : سمعت رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم يقرأ ﴿ **إنه عمل غير صالح** ﴾ وسمعته صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم يقول : ﴿ **قل ياعبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لاتقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً** ﴾ ولا يبالي ﴿ **إنه هو الغفور الرحيم** ﴾ . ورواه أبو داود والترمذي من حديث ثابت ، فهذه الأحاديث كلها دالة على أن المراد أنه يغفر جميع ذلك مع التوبة ، لا يقنطن عبد من رحمة الله وإن عظمت ذنوبه وكثرت فإن باب الرحمة والتوبة واسع قال الله تعالى : ﴿ **ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده** ﴾ (التوبة : ١٠٤) وقال عز وجل ﴿ **ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً** ﴾ (النساء : ١١٠) وقال جل وعلا في حق المنافقين : ﴿ **إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيراً * إلا الذين تابوا وأصلحوا** ﴾ (النساء : ١٤٥ ، ١٤٦) وقال جل جلاله : ﴿ **لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة ومامن إله إلا إله واحد وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسّن الذين كفروا منهم عذاب أليم** ﴾ (المائدة : ٧٣) ثم قال جلت عظمته : ﴿ **أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه والله غفور رحيم** ﴾ وقال تبارك وتعالى : ﴿ **إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا** ﴾ (البروج : ١٠) قال الحسن البصري رحمة الله عليه : انظروا إلى هذا الكرم والجود قتلوا أولياءه وهو يدعوهم إلى التوبة والمغفرة ، والآيات في هذا كثيرة جداً . وفي الصحيحين عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ حديث الذي قتل تسعة وتسعين نفساً ، ثم ندم ، وسأل عابداً من عباد بني اسرائيل هل له من توبة ؟ فقال : لا ، فقتله وأكمل به مائة ، ثم سأل عالماً من علمائهم هل له من توبة ؟ فقال : ومن يحول بينك وبين التوبة ؟ ثم أمره بالذهاب إلى قرية يعبد الله فيها فقصدها ، فأتاه الموت في أثناء الطريق ، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب ، فأمر الله عز وجل أن يقيسوا ما بين الأرضين فإلى أيهما كان أقرب فهو منها ، فوجدوه أقرب إلى الأرض التي هاجر إليها بشبر ، فقبضته ملائكة الرحمة ، وذكر أنه نأى بصدره عند الموت ، وأن الله تبارك وتعالى أمر البلدة الخيّرة أن تقترب ، وأمر تلك البلدة أن تتباعد ، هذا معنى الحديث وقد كتبناه في موضع آخر بلفظه . قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما في

قوله عز وجل: ﴿ **قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً** ﴾ إلى آخر الآية، قال: قد دعا الله تعالى إلى مغفرته من زعم أن المسيح هو الله، ومن زعم أن المسيح ابن الله، ومن زعم أن عزيزاً ابن الله، ومن زعم أن الله فقير، ومن زعم أن يد الله مغلولة، ومن زعم أن الله ثالث ثلاثة، يقول الله تعالى لهؤلاء ﴿ **أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه والله غفور رحيم** ﴾ ثم دعا إلى التوبة من هو أعظم قولاً من هؤلاء؛ من قال أنا ربكم الأعلى وقال: ﴿ **ما علمت لكم من إله غيري** ﴾ قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: من آيس عباد الله من التوبة بعد هذا فقد جحد كتاب الله عز وجل، ولكن لا يقدر العبد أن يتوب حتى يتوب الله عليه. وروى الطبراني من طريق الشعبي عن سنيد ابن شكل أنه قال: سمعت ابن مسعود يقول: إن أعظم آية في كتاب الله ﴿ **الله لا إله إلا هو الحي القيوم** ﴾ وإن أجمع آية في القرآن بخير وشر ﴿ **إن الله يأمر بالعدل والإحسان** ﴾ وإن أكثر آية في القرآن فرحاً في سورة الغرف ﴿ **قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله** ﴾ وإن أشد آية في كتاب الله تفويضاً ﴿ **ومن يتق الله يجعل له مخرجاً * ويرزقه من حيث لا يحتسب** ﴾ فقال له مسروق: صدقت، وقال الأعمش: عن أبي سعيد عن أبي الكنود قال: مَرَّ عبد الله يعني ابن مسعود رضي الله عنه على قاص وهو يذكر الناس فقال: يا مذكر لم تقنط الناس من رحمة الله؟ ثم قرأ ﴿ **قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله** ﴾ رواه ابن أبي حاتم رحمه الله.

فصل: في ذكر أحاديث فيها نفي القنوط:

روى الإمام أحمد عن حسن السدوسي قال: دخلت على أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول «والذي نفسي بيده لو أخطأتم حتى تملأ خطاياكم ما بين السماء والأرض ثم استغفرتم الله تعالى لغفر لكم، والذي نفس محمد بيده لو لم تخطئوا لجاء الله عز وجل بقوم يخطئون ثم يستغفرون الله فيغفر لهم» تفرد به أحمد. وروى الإمام أحمد أيضاً عن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه أنه قال حين حضرته الوفاة: قد كنت كتمت منكم شيئاً سمعته من رسول الله ﷺ، يقول «لولا أنكم تذنبون لخَلَق الله عز وجل قوماً يذنبون فيغفر لهم» هكذا رواه الإمام أحمد، وأخرجه مسلم في صحيحه والترمذي. وروى الإمام أحمد عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما

قال : قال رسول الله ﷺ : «كفارة الذنب الندامة» وقال رسول الله ﷺ : «لو لم تذنبوا لجاء الله تعالى بقوم يذنبون فيغفر لهم» تفرد به أحمد . وروى عبد الله بن الإمام أحمد عن محمد بن الحنفية عن أبيه علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم : «إن الله تعالى يحب العبد المفتن التواب» ولم يخرجوه من هذا الوجه .

وروى ابن أبي حاتم عن عبد الله بن عبيد بن عمير قال «إن إبليس لعنه الله تعالى قال : يارب إنك أخرجتني من الجنة من أجل آدم ، وإني لاأستطيعه إلا بسلطانك ، قال : فأنت مسلط ، قال : يارب زدني ، قال : لا يولد له ولد إلا ولد لك مثله ، قال : يارب زدني ، قال : أجعل صدورهم مساكن لكم وتجرون منهم مجرى الدم ، قال : يارب زدني ، قال : أجلب عليهم بخيلك ورَجلك وشاركهم في الأموال والأولاد وعدهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً ، فقال آدم عليه الصلاة والسلام : يارب قد سلّطته علي وإني لاأمتنع إلا بك ، قال تبارك وتعالى : لا يولد لك ولد إلا وكّلت به من يحفظه من قرناء السوء ، قال : يارب زدني ، قال : الحسنة عشر أو أزيد ، والسيئة واحدة أو أمحوها ، قال : يارب زدني ، قال : باب التوبة مفتوح ما كان الروح في الجسد ، قال : يارب زدني ، قال : ﴿ **ياعبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لاتقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم** ﴾ وقال محمد بن إسحاق : قال نافع عن عبد الله بن عمر عن عمر رضي الله عنهما في حديثه قال : وكنا نقول ما الله بقابل ممن افتتن صرفاً ولا عدلاً ولا توبة ، عرفوا الله ثم رجعوا إلى الكفر لبلاء أصابهم ، قال : وكانوا يقولون ذلك لأنفسهم ، قال : فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة أنزل الله تعالى فيهم وفي قولنا وقولهم لأنفسهم : ﴿ **ياعبادي الذين أسرفوا أنفسهم لاتقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم * وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لاتنصرون * واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لاتشعرون** ﴾ قال عمر رضي الله عنه : فكتبتها بيدي في صحيفة ، وبعثت بها إلى هشام بن العاص رضي الله عنه قال : فقال هشام : لما أتتني جعلت أقرؤها بذي طوي ، أصعد بها فيه وأصوّب ولاأفهمها ، حتى قلت اللهم أفهمنيها ، قال : فألقى الله عز وجل في قلبي أنها إنما أنزلت فينا ، وفيما كنا نقول في أنفسنا ، ويقال فينا ، فرجعت إلى بعيري فجلست عليه فلحقت برسول الله ﷺ بالمدينة) .

٥ - في سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **قل أفغير الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون** ﴾ قال ابن كثير : (ذكروا في سبب نزولها ما رواه ابن أبي حاتم وغيره عن ابن عباس رضي الله عنهما أن المشركين من جهلهم دعوا رسول الله ﷺ إلى عبادة آلهتهم ويعبدوا معه إلهه فنزلت ﴿ **قل أفغير الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون ؟** ﴾ .

٦ - من قوله تعالى : ﴿ **وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه** ﴾ قال ابن كثير : يقول تبارك وتعالى ﴿ **وما قدروا الله حق قدره** ﴾ أي : ما قدر المشركون الله حق قدره حين عبدوا معه غيره ، وهو العظيم الذي لا أعظم منه القادر على كل شيء المالك لكل شيء وكل شيء تحت قهره وقدرته ، قال مجاهد : نزلت في قريش ، وقال السّدّي ما عظموه حق تعظيمه ، وقال محمد بن كعب : لو قدروه حق قدره ما كذبوه . وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ **وما قدروا الله حق قدره** ﴾ هم الكفار الذين لم يؤمنوا بقدرة الله عليهم ، فمن آمن أن الله على كل شيء قدير فقد قدر الله حق قدره ، ومن لم يؤمن بذلك فلم يقدر الله حق قدره ، وقد وردت أحاديث كثيرة متعلقة بهذه الآية الكريمة ، والطريق فيها وفي أمثالها مذهب السلف ، وهو إمرارها كما جاءت من غير تكييف ولا تحريف . قال البخاري : قوله تعالى ﴿ **وما قدروا الله حق قدره** ﴾ عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : جاء حبر من الأحبار إلى رسول الله ﷺ ، فقال : يا محمد إنا نجد أن الله عز وجل يجعل السموات على أصبع ، والأرضين على أصبع ، والشجر على أصبع ، والماء والثرى على أصبع ، وسائر الخلق على أصبع ، فيقول أنا الملك ، فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه تصديقاً لقول الحبر ثم قرأ رسول الله ﷺ ﴿ **وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة** ﴾ الآية ورواه البخاري أيضاً في غير هذا الموضع من صحيحه والإمام أحمد ومسلم والترمذي والنسائي في التفسير من سننهما عن ابن مسعود رضي الله عنه بنحوه . وروى الإمام أحمد عن عبد الله رضي الله عنه قال : جاء رجل إلى النبي ﷺ من أهل الكتاب فقال : يا أبا القاسم أبلغك أن الله تعالى يحمل الخلائق على أصبع ، والسموات على أصبع ، والأرضين على أصبع ، والشجر على أصبع ، والماء والثرى على أصبع ؟ فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه ، قال : وأنزل الله عز وجل ﴿ **وما قدروا الله حق قدره** ﴾ إلى آخر الآية ، وهكذا رواه البخاري ومسلم والنسائي وروى الإمام أحمد عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : مر يهودي برسول الله ﷺ وهو جالس فقال : كيف تقول يا أبا القاسم يوم يجعل الله سبحانه وتعالى السماء

على ذه ــ وأشار بالسبابة ــ والأرض على ذه والجبال على ذه وسائر الخلق على ذه ــ كل ذلك يشير بأصابعه ــ قال: فأنزل الله عز وجل ﴿ **وماقدروا الله حق قدره** ﴾ الآية، وكذا رواه الترمذي في التفسير، وقال: حسن صحيح غريب لانعرفه إلا من هذا الوجه: البخاري عن أبي سلمة بن عبد الرحمن أن أبا هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول «يقبض الله تعالى الأرض ويطوي السماء بيمينه ثم يقول: أنا الملك أين ملوك الأرض» تفرد به من هذا الوجه ورواه مسلم من وجه آخر.

وروى البخاري في موضع آخر عن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ قال «إن الله تبارك وتعالى يقبض يوم القيامة الأرضين على أصبع وتكون السمٰوات بيمينه ثم يقول: أنا الملك» تفرد به أيضاً من هذا الوجه ورواه مسلم من وجه آخر، وقد رواه الإمام أحمد من طريق أخرى بلفظ آخر أبسط من هذا السياق وأطول عن مقسم عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: إن رسول الله ﷺ قرأ هذه الآية ذات يوم على المنبر ﴿ **وماقدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسمٰوات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون** ﴾ ورسول الله ﷺ يقول: هكذا بيده يحركها يقبل بها ويدبر «يمجد الرب نفسه أنا الجبار، أنا المتكبر، أنا الملك، أنا العزيز أنا الكريم» فرجف برسول الله ﷺ المنبر حتى قلنا ليخرن به، وقد رواه مسلم والنسائي وابن ماجه، ولفظ مسلم عن عبيد الله بن مقسم في هذا الحديث أنه نظر إلى عبد الله بن عمر رضي الله عنهما كيف يحكي النبي ﷺ قال: يأخذ الله تبارك وتعالى سمواته وأرضه بيده ويقول: أنا الملك، ويقبض أصابعه ويبسطها أنا الملك حتى نظرت إلى المنبر يتحرك من أسفل شيء منه حتى إني لأقول أساقط هو برسول الله ﷺ ؟. وروى البزار عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: إن رسول لله ﷺ قرأ هذه الآية على المنبر ﴿ **وماقدروا الله حق قدره** ﴾ حتى بلغ ﴿ **سبحانه وتعالى عما يشركون** ﴾ فقال المنبر هكذا، فجاء وذهب ثلاث مرات والله أعلم. ورواه الإمام الحافظ أبو القاسم الطبراني من حديث عبيد بن عمير عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما وقال: صحيح. وروى الطبراني في المعجم الكبير عن جرير رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ لنفر من أصحابه رضي الله عنهم «إني قارىء عليكم آية من آخر سورة الزمر فمن بكى منكم وجبت له الجنة» فقرأها ﷺ من عند ﴿ **وماقدروا الله حق قدره** ﴾ إلى آخر السورة فمنا من بكى، ومنا من لم يبك فقال الذين لم يبكوا: يارسول الله لقد جهدنا أن نبكي فلم نبك، فقال ﷺ «إني سأقرؤها عليكم فمن لم يبك فليتباك» هذا حديث غريب

جداً وأغرب منه مارواه في المعجم الكبير أيضاً عن الأشعري قال : قال رسول الله ﷺ « إن الله تعالى يقول : ثلاث غيبتهن عن عبادي لو رآهنّ رجل ماعمل بسوء أبداً : لو كشفت غطائي فرآني حتى استيقن ، ويعلم كيف أفعل بخلقي إذا أتيتهم ، وقبضت السمٰوات بيدي ، ثم قبضت الأرضين ثم قلت : أنا الملك من ذا الذي له الملك دوني ، فأريهم الجنة وماأعددت لهم فيها من كل خير ، فيستيقنوها ، وأريهم النار وماأعددت لهم فيها من كل شر ، فيستيقنوها ، ولكن عمداً غيبت ذلك عنهم ، لأعلم كيف يعملون وقد بينته لهم » وهذا إسناد متقارب وهي نسخة تروى بها أحاديث جمة ، والله أعلم .

٧ - عند قوله تعالى ﴿ **ونفخ في الصور فصعق من في السمٰوات ومن في الأرض إلا من شاء الله** ﴾ قال ابن كثير : (هذه النفخة هي الثانية ، وهي نفخة الصعق ، وهي التي يموت بها الأحياء من أهل السمٰوات والأرض ، إلا من شاء الله كما جاء مصرحاً به مفسراً في حديث الصور المشهور ، ثم يقبض أرواح الباقين حتى يكون آخر من يموت ملك الموت ، وينفرد الحي القيوم الذي كان أولاً وهو الباقي آخراً بالديمومة والبقاء ويقول ﴿ **لمن الملك اليوم** ﴾ ثلاث مرات ثم يجيب نفسه بنفسه فيقول ﴿ **لله الواحد القهار** ﴾ أنا الذي كنت وحدي وقد قهرت كل شيء ، وحكمت بالفناء على كل شيء ، ثم يحيي أول من يحيي إسرافيل ، ويأمره أن ينفخ في الصور أخرى ، وهي النفخة الثالثة : نفخة البعث ، قال الله عز وجل ﴿ **ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون** ﴾ أي : أحياء بعد ما كانوا عظاماً ورفاتاً ، صاروا أحياء ينظرون إلى أهوال يوم القيامة ، كما قال تعالى : ﴿ **فإنما هي زجرة واحدة * فإذا هم بالساهرة** ﴾ (النازعات : ١٣ ، ١٤) وقال عز وجل : ﴿ **يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده وتظنون إن لبثتم إلا قليلاً** ﴾ (الإسراء: ٥٢) وقال جل وعلا ﴿ **ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون** ﴾ (الروم: ٢٥) وروى الإمام أحمد عن يعقوب بن عاصم بن عروة بن مسعود قال: سمعت رجلاً قال لعبد الله بن عمرو رضي الله عنهما : إنك تقول الساعة تقوم إلى كذا وكذا ، قال: لقد هممت أن لا أحدثكم شيئاً ، إنما قلت : سترون بعد قليل أمراً عظيماً ، ثم قال عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما : قال رسول الله ﷺ : « يخرج الدجال في أمتي ، فيمكث فيهم أربعين ، لا أدري أربعين يوماً ، أو أربعين شهراً ، أو أربعين عاماً ، أو أربعين ليلة ، فيبعث الله تعالى عيسى ابن مريم عليهما الصلاة والسلام ، كأنه عروة بن مسعود الثقفي ، فيظهر فيهلكه الله تعالى ، ثم يلبث الناس بعده سنين سبعاً ليس بين اثنين عداوة ، ثم يرسل الله تعالى ريحاً

باردة من قبل الشام ، فلا يبقى أحد في قلبه مثقال ذرة من إيمان إلا قبضته ، حتى أن لو كان أحدهم كان في كبد جبل لدخلت عليه » قال : سمعتها من رسول الله ﷺ « ويبقى شرار الناس في خفة الطير وأحلام السباع ، لا يعرفون معروفاً ولا ينكرون منكراً ، قال : فيتمثل لهم الشيطان فيقول : ألا تستجيبون ، فيأمرهم بعبادة الأوثان فيعبدونها وهم في ذلك دارة أرزاقهم ، حسن عيشهم ، ثم ينفخ في الصور ، فلا يسمعه أحد إلا أصغى ليتاً ورفع ليتاً ، وأول من يسمعه رجل يلوط حوضه فيصعق ، ثم لا يبقى أحد إلا صعق ، ثم يرسل الله تعالى ، أو ينزل الله عز وجل مطراً كأنه الظل ـــ أو الطل شك نعمان ـــ فتنبت منه أجساد الناس ثم ينفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون ، ثم يقال : أيها الناس هلموا إلى ربكم ﴿ **وقفوهم إنهم مسؤولون** ﴾ ـــ قال ـــ ثم يقال أخرجوا بعث النار ، فيقال : كم ؟ فيقال : من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين ، فيومئذ تبعث الولدان شيباً ، ويومئذ يكشف عن ساق » انفرد بإخراجه مسلم في صحيحه (حديث أبي هريرة رضي الله عنه) وروى البخاري عن أبي صالح قال : سمعت أبا هريرة رضي الله تعالى عنه يحدث عن النبي ﷺ قال : « ما بين النفختين أربعون » قالوا : يا أبا هريرة أربعون يوماً ؟ قال رضي الله تعالى عنه : أبيت ، قالوا : أربعون سنة ؟ قال : أبيت ، قالوا : أربعون شهراً ؟ قال : أبيت ويبلى كل شيء من الإنسان إلا عجب ذنبه فيه يركب الخلق) .

٨ - عند قوله تعالى : ﴿ **وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمراً حتى إذا جاؤوها وفتحت أبوابها** ﴾ قال ابن كثير : « وقد ورد في حديث الصور أن المؤمنين إذا انتهوا إلى أبواب الجنة تشاوروا فيمن يستأذن لهم في الدخول ، فيقصدون آدم ، ثم نوحاً ، ثم إبراهيم ، ثم موسى ، ثم عيسى ، ثم محمداً ﷺ وعليهم أجمعين ، كما فعلوا في العرصات عند استشفاعهم إلى الله عز وجل أن يأتي لفصل القضاء ، ليظهر شرف محمد ﷺ على سائر البشر في المواطن كلها . وقد ثبت في صحيح مسلم عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « أنا أول شفيع في الجنة » وفي لفظ لمسلم « وأنا أول من يقرع باب الجنة » .

وروى الإمام أحمد عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « آتي باب الجنة يوم القيامة أستفتح ، فيقول الخازن : من أنت ؟ فأقول : محمد ـــ قال ـــ فيقول : بك أمرت أن لا أفتح لأحد قبلك » ورواه مسلم عن أنس رضي الله عنه به . وروى الإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « أول

زمرة تلج الجنة صورهم على صورة القمر ليلة البدر ، لا يبصقون فيها ، ولا يمتخطون فيها ، ولا يتغوطوّن فيها ، آنيتهم وأمشاطهم الذهب والفضة ، ومجامرهم الألوّة ، ورشحهم المسك ، ولكل واحد منهم زوجتان ، يرى مخ ساقهما من وراء اللحم من الحسن ، لا اختلاف بينهم ولا تباغض ، قلوبهم على قلب واحد ، يسبحون الله تعالى بكرة وعشياً » ورواه البخاري ومسلم . وروى الحافظ أبو يعلى عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر ، والذين يلونهم على ضوء أشد كوكب دري في السماء إضاءة ، لا يبولون ولا يتغوطوّن ولا يتفلون ولا يمتخطون ، أمشاطهم الذهب ، ورشحهم المسك ، ومجامرهم الألوة ، وأزواجهم الحور العين ، أخلاقهم على خلق رجل واحد ، على صورة أبيهم آدم ستون ذراعاً في السماء» وأخرجاه أيضا من حديث جرير ، وروى الزهري : عن سعيد عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال « يدخل الجنة من أمتي زمرة وهم سبعون ألفاً تضيء وجوههم إضاءة القمر ليلة البدر » فقام عكاشة بن محصن فقال : يارسول الله ادع الله أن يجعلني منهم فقال « اللهم اجعله منهم » ثم قام رجل من الأنصار فقال يارسول الله ادع الله تعالى أن يجعلني منهم فقال ﷺ « سبقك بها عكاشة » أخرجاه وقد روى هذا الحديث في السبعين ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب البخاري ومسلم عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما وجابر بن عبد الله وعمران بن حصين وابن مسعود ورفاعة بن عرابة الجهني وأم قيس بنت محصن رضي الله عنهم ، ولهما عن أبي حازم عن سهل بن سعد رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال : «ليدخلن الجنة من أمتي سبعون ألفاً أو سبعمائة ألف ، آخذ بعضهم ببعض ، حتى يدخل أولهم وآخرهم الجنة ، وجوههم على صورة القمر ليلة البدر» وروى أبو بكر بن أبي شيبة عن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول «وعدني ربي عز وجل أن يدخل في الجنة من أمتي سبعين ألفاً مع كل ألف سبعون ألفاً لا حساب عليهم ولا عذاب ، وثلاث حثيات من حثيات ربي عز وجل » ورواه الطبراني . عن عيينة بن عبد السلمي « ثم مع كل ألف سبعين ألفاً » ويروى مثله عن ثوبان وأبي سعيد الأنماري وله شواهد من وجوه كثيرة وقوله تعالى : ﴿ **حتى إذا جاؤوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين** ﴾ لم يذكر الجواب ههنا ، وتقديره : حتى إذا جاؤوها وكانت هذه الأمور من فتح الأبواب لهم إكراماً وتعظيماً ، وتلقتهم الملائكة الخزنة بالبشارة والسلام والثناء ، كما تلقى الزبانية الكفرة بالتثريب

والتأنيب ، فتقديره : إذا كان هذا سعدوا وطابوا وسروا وفرحوا بقدر كل مايكون لهم فيه نعيم ، وإذا حذف الجواب ههنا ذهب الذهن كل مذهب في الرجاء والأمل ، ومن زعم أن الواو في قوله تبارك وتعالى : ﴿ **وفتحت أبوابها** ﴾ واو الثمانية واستدل به على أن أبواب الجنة ثمانية فقد أبعد النجعة وأغرق في النزع ، وإنما يستفاد كون أبواب الجنة ثمانية من الأحاديث الصحيحة . وروى الإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من أنفق زوجين من ماله في سبيل الله تعالى دعي من أبواب الجنة وللجنة أبواب ، فمن كان من أهل الصلاة دعي من باب الصلاة ، ومن كان من أهل الصدقة دعي من باب الصدقة ، ومن كان من أهل الجهاد دعي من باب الجهاد ، ومن كان من أهل الصيام دعي من باب الريان » فقال أبو بكر رضي الله تعالى عنه يارسول الله ماعلى أحد من ضرورة دعي من أيها دعي ، فهل يدعى منها كلها أحد يارسول الله ؟ قال ﷺ : « نعم وأرجو أن تكون منهم » رواه البخاري ومسلم من حديث الزهري بنحوه وفيهما من حديث أبي حازم سلمة بن دينار عن سهل بن سعد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إن في الجنة ثمانية أبواب » باب منها يسمى الريان ، لايدخله إلا الصائمون » . وفي صحيح مسلم عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « مامنكم من أحد يتوضأ فيبلغ أو فيسبغ الوضوء ثم يقول أشهد أن لاإله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء » وروى الحسن بن عرفة عن معاذ رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « مفتاح الجنة لاإله إلا الله » .

فصل : في ذكر سعة أبواب الجنة وبعض ما أعد الله فيها :

في الصحيحين من حديث أبي زرعة عن أبي هريرة رضي الله عنه في حديث الشفاعة الطويل « فيقول الله تعالى : يامحمد أدخل من لاحساب عليه من أمتك من الباب الأيمن ، وهم شركاء الناس في الأبواب الأخر ، والذي نفس محمد بيده إن مابين المصراعين من مصاريع الجنة مابين عضادتي الباب لكما بين مكة وهجر — وفي رواية — مكة وبصرى » . وفي صحيح مسلم عن عتبة بن غزوان أنه خطبهم خطبة فقال فيها : ولقد ذكر لنا أن مابين مصراعين من مصاريع الجنة مسيرة أربعين سنة ، وليأتين عليه يوم وهو كظيظ من الزحام ، وفي المسند عن حكيم ابن معاوية عن أبيه رضي الله

عنه عن رسول الله ﷺ مثله ، وروى عبد بن حميد عن أبي سعيد رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : «إن ما بين مصراعين في الجنة مسيرة أربعين سنة» . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ **وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم** ﴾ أي : طابت أعمالكم وأقوالكم ، وطاب سعيكم ، وطاب جزاؤكم كما أمر رسول الله ﷺ أن ينادى بين المسلمين في بعض الغزوات «إن الجنة لايدخلها إلا نفس مسلمة ــ وفي رواية ــ مؤمنة» وقوله ﴿ **فادخلوها خالدين** ﴾ أي : ماكثين فيها أبداً لا يبغون عنها حولاً ﴿ **وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده** ﴾ أي : يقول المؤمنون إذا عاينوا في الجنة ذلك الثواب الوافر ، والعطاء العظيم ، والنعيم المقيم ، والملك الكبير ، يقولون عند ذلك ﴿ **الحمد لله الذي صدقنا وعده** ﴾ أي : الذي كان وعدنا على ألسنة رسله الكرام كما دعوا في الدنيا ﴿ **ربنا وآتنا ماوعدتنا على رسلك ولاتخزنا يوم القيامة إنك لاتخلف الميعاد** ﴾ (آل عمران : ١٩٤) ﴿ **وقالوا الحمد لله الذي هدانا لهذا وماكنا لنهتدي لولا أن هدانا الله لقد جاءت رسل ربنا بالحق** ﴾ (سورة الأعراف : ٤٣) ﴿ **وقالوا الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور * الذي أحلنا دار المقامة من فضله لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب** ﴾ (سورة فاطر : ٣٤ ، ٣٥) وقولهم ﴿ **وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء فنعم أجر العاملين** ﴾ . قال أبو العالية وأبو صالح وقتادة والسدي وابن زيد : أي : أرض الجنة ، فهذه الآية كقوله تعالى : ﴿ **ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون** ﴾ (الأنبياء : ١٠٥) ولهذا قالوا ﴿ **نتبوأ من الجنة حيث نشاء** ﴾ أي : أين شئنا حللنا ، فنعم الأجر أجرنا على عملنا . وفي الصحيحين من حديث الزهري عن أنس رضي الله عنه في قصة المعراج قال النبي ﷺ : «أدخلت الجنة فإذا فيها جنابذ اللؤلؤ وإذا ترابها المسك» . وروى عبد بن حميد عن أبي سعيد رضي الله عنه قال : إن رسول الله ﷺ سأل ابن صائد عن تربة الجنة فقال : درمكة بيضاء مسك خالص فقال رسول الله ﷺ : «صدق» . ورواه مسلم أيضاً عن أبي سعيد رضي الله عنه قال : إن ابن صائد سأل رسول الله ﷺ عن تربة الجنة فقال «درمكة بيضاء مسك خالص» . وروى ابن أبي حاتم عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه في قوله تعالى : ﴿ **وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمراً** ﴾ قال : سيقوا حتى انتهوا إلى باب من أبواب الجنة فوجدوا عندها شجرة يخرج من تحت ساقها عينان فعمدوا إلى إحداهما فتطهروا منها ، فجرت عليهم نضرة النعيم ، فلم تغير أبشارهم بعدها أبداً ، ولم تشعث أشعارهم أبداً بعدها كأنما دهنوا بالدهان ، ثم عمدوا إلى الأخرى كأنما

أمروا بها فشربوا منها فأذهبت ما كان في بطونهم من أذى أو قذى وتلقتهم الملائكة على أبواب الجنة ﴿ **سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين** ﴾ وتلقى كل غلمان صاحبهم يطوفون به فعل الولدان بالحميم جاء من الغيبة ، أبشر قد أعد الله لك من الكرامة كذا وكذا ، قد أعد الله لك من الكرامة كذا وكذا ، قال : وينطلق غلام من غلمانه إلى أزواجه من الحور العين فيقول : هذا فلان باسمه في الدنيا فيقلن : أنت رأيته ؟ فيقول : نعم فيستخفهن الفرح ، ثم يخرج إلى أسكفة الباب ، قال : فيجيء فإذا هو بنمارق مصفوفة ، وأكواب موضوعة ، وزرابي مبثوثة ، قال : ثم ينظر إلى تأسيس بنيانه ، فإذا هو قد أسس على جندل اللؤلؤ بين أحمر وأخضر وأصفر وأبيض ، ومن كل لون ، ثم يرفع طرفه إلى سقفه ، فلولا أن الله تعالى قدر له أن لا يذهب ببصره إنه لمثل البرق ، ثم ينظر إلى أزواجه من الحور العين ، ثم يتكىء على أريكة من أرائكه ثم يقول : ﴿ **الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله** ﴾ .

٩ - لاحظ أنه لما كان الحديث عن أهل النار قال تعالى : ﴿ **حتى إذا جاؤوها فتحت أبوابها** ﴾ بدون واو قبل (فتحت) بينما قال في أهل الجنة : ﴿ **حتى إذا جاؤوها وفتحت أبوابها** ﴾ بواو قبل (فتحت) فما السر في ذلك ؟ علل النسفي لذلك بقوله : (إن أبواب النار لا تفتح إلّا عند دخول أهلها فيها ، وأما أبواب الجنة فتقدم فتحها كقوله تعالى : ﴿ **جنات عدن مفتحة لهم الأبواب** ﴾ فلذلك جيئت بالواو ، كأنه قال حتى إذا جاؤوها وقد فتحت أبوابها) وقد رأينا ردّ ابن كثير على من زعم أن هذه الواو تسمّى واو الثمانية .

وبهذا ينتهي ما أردنا نقله من فوائد المقطع الأخير ، وقد آن أن نتكلم كلمة أخيرة عن السورة .

كلمة أخيرة في سورة الزمر :

بدأت السورة بقوله تعالى : ﴿ **تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم** ﴾ وقد كانت السورة مجلىً لعزة الله وحكمته ، فرأينا آثار عزّة الله في الكلام عن خلقه وعظمته ، وفعله بالكافرين والمكذّبين والمستكبرين في الدنيا والآخرة ، ورأينا آثار عزته بأمره بالعبادة والتقوى والإحسان والتوبة والإنابة ، ورأينا آثار حكمته ، في العرض والأمر

والنهي ، وإحاطة الأمر بكل مايلزمه من معان ، وتكرار المعنى اللازم تكراره بأكثر من طريقة عرض .

وفي الوقت نفسه فقد كانت السورة تدليلاً على أنّ هذا القرآن منزل من عند الله ، إذ هي نموذج لمجموعة خصائص من خصائص هذا القرآن ذكرت في السورة ، وكل خصيصة من هذه الخصائص برهان كامل على أن هذا القرآن من عند الله .

— — — — — — — —

رأينا أنّ السورة تتألف من مقدّمة ومقطعين يبدأ المقطع الأول بقوله تعالى : ﴿ **إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصاً له الدين** ﴾ وقد سار المقطع بعد ذلك مبيناً الحق في أمور كثيرة ، وراسماً طريق العبادة الخالصة لله .

وبدأ المقطع الثاني بقوله تعالى : ﴿ **إنا أنزلنا عليك الكتاب للناس بالحق فمن اهتدى فلنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها وما أنت عليهم بوكيل** ﴾ .

وقد سار المقطع الثاني مبيناً الحق في أمور ، وسار في طريق تفصيل أن الله عز وجل هو الوكيل ، وذكر مظاهر من كونه هو الوكيل ، وبين كيف أن من اهتدى فإنما نفع هدايته عائد عليه ، ومن ضلّ فإنما وبال ضلاله عليه .

— — — — — — — —

وتحدّث المقطعان عن واجبات المنزل عليه القرآن ، من عبادة وتبليغ ، فحدّدا للرسول ﷺ كثيراً من القضايا التي عليه أن يبلغها أو يقولها ، ومن ذلك قوله تعالى ﴿ **أمّن هو قانت** ﴾ فهناك قراءة هي «أمن» على أنّ الهمزة للنّداء ، والمنادى رسول الله ﷺ ، فعلى هذه القراءة تكون الآية ﴿ **أمن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لايعلمون** ﴾ أي : يا محمد المتصف بالقيام والرجاء والخوف ﴿ **قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون** ﴾ ومن ثم نجد في السورة الأمر (قل) يتكرّر كثيراً .

— — — — — — — —

ورأينا أنّ السورة ذكرت خصائص ستاً للقرآن : أنه أحسن الحديث ، وأنه متشابه . وأنّه مثان ، وأنّه في أعلى درجات التبشير والإنذار ، وأنه ضرب للناس من كل مثل ، وأنه غير ذي عوج .

وكانت السورة نموذجاً واضحاً على كون هذا القرآن كذلك .

ورأينا بأكثر من دليل أن السورة محورها قوله تعالى من سورة البقرة ﴿ **الٓمٓ * ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين** ﴾ ولذلك ذكر في أكثر من مكان في السورة أن هذا القرآن من عند الله ، وكان هذا الموضوع من الوضوح والتأكيد بحيث ذكر في المقدمة ، وذكر في مقدمتي المقطعين ، ورأينا من خلال ذكر خصائص القرآن كيف أن هذا القرآن من عند الله ، لاشك في ذلك ولاريب ، ورأينا في السورة عاقبة اهتداء المتقين بهذا القرآن ، وعاقبة نكوص الكافرين عن الاهتداء به بأشكال متعددة ، ورأينا علامات الاهتداء به ، وعلامات الضلال عنه في مثل قوله تعالى : ﴿ **أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله** ... ﴾ .

ورأينا في السورة أن نقطة البداية في الاهتداء بهذا القرآن هي العبادة ، والعبادة فهم وسلوك وعلم وعمل ، وقد وضّحت السورة هذه المعاني كلها ، كما ذكرت كل الأشياء اللازمة للتحقق بالهداية ، وكل الأشياء التي تحول دون الهداية كالكذب والكفر والكبر ، كما فتحت الطريق للهداية ولو أن الإنسان كان غارقاً في الذنوب .

— — — — — — — —

وهكذا نجد أنّ السورة فصّلت في محورها من سورة البقرة تفصيلاً جديداً فأتمّت البناء ، فهذا المحور فصّلت فيه سورة آل عمران ، وفصّلت فيه سورة يونس ، وفصّلت فيه سورة طه ، وفصّلت فيه سورة الزمر ، وكلّ سورة فصّلت في المحور تفصيلاً يكمّل تفصيل السور الأخرى ، هذا مع احتفاظ السورة بسياقها الخاص ، واحتفاظ كل مقطع منها وكل مجموعة بوحدتهما ، وكل ذلك يظهر على كماله وتمامه ، وذلك شأن عجيب في هذا القرآن ، يدلّك على أن هذا القرآن من عند الله عز وجل .

— — — — — — — —

ونلاحظ أنّ السورة على طولها خلت من القصة مع أنه لم تمرّ معنا سورة من قبل خالية من القصص ، وهذا يشير إلى أن هذا القرآن إن تكلّم قاصاً فهو أحسن الحديث ، وإن تكلم كلاماً مجرداً عن القصة فهو أحسن الحديث ، وأن أسلوبه الأعلى هو أسلوبه الذي لا يختلف في أي فن من فنون الكلام تطرَّق له ، فهذا الإبداع في العرض والأسلوب مع وجود مجموعة الخصائص القرآنية ـــ من تذكير وتبشير وإنذار وهداية وصدق وحق وعدل في كل جزء منه ـــ لدليل على أن هذا القرآن من عند الله .

— — — — — — — —

وقد أبرزنا أثناء الكلام عن مقدّمة السورة ﴿ **تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم** ﴾ صلة ذكر اسمي الله العزيز الحكيم بموضوع السورة ، إذ بيّنا أنّ موضوع السورة كان فيه إظهار لمعاني اتصاف الله عز وجل بالعزة والحكمة ، وهو موضوع سنراه في أكثر من سورة من سور القرآن ، فكما أنّ هذا الكون تظهر فيه أسماء الله عز وجل كلها ، من أنّه المحي والمميت ، والمعز والمذلّ ، والقادر والغالب والعليم .. فكذلك هذا القرآن ، نرى فيه ظهوراً لأسماء الله كلها ، ففيه يظهر اسم الله البديع والحكيم والعزيز ، وبقية الأسماء ، إما من خلال وصف القرآن لله عز وجل فيها ، أو من خلال كون الكتاب كلام الله عز وجل ، والكلام يدل على المتكلم .

— — — — — — — —

وأخيراً نقول :

إنّ علينا أن ننظر ببالغ الأهمية لما ورد في السورة من معان عملية ، فنقبل على الله بالعبادة ملاحظين الرجاء والخوف ، والشكر والاعتراف لله بالنعم ، والإيمان والتقوى ، والصبر والإخلاص والإسلام ، والإنابة إلى الله ، واجتناب عبادة الطاغوت ، واتباع الأحسن من القول ، والخشية لله ، وتصديق الرسول ﷺ في كل ما جاء به ، والتوكل على الله عز وجل في كل حال ، ولنلاحظ خاصة علامات انشراح الصدر في الإسلام ، فقد قال النسفي عند قوله تعالى : ﴿ **أفمن شرح الله صدره للإسلام** ﴾ : (وسئل رسول الله ﷺ عن الشرح فقال : «إذا دخل النور القلب انشرح وانفسح» فقيل : هل

لذلك من علامة ؟ قال : «نعم : الإنابة إلى دار الخلود ، والتجافي عن دار الغرور ، والاستعداد للموت قبل نزول الموت») .

☆ ☆ ☆

سورة غافر

وهـــي الســـورة الأربعـــون بحـــب الرســـم القـــرآنـي
وهي الســورة الثانيـة من المجموعـة الثالثة من قسم
المثاني ، وآياتها خمس وثمانون آيـة
وهـــي مكيـــة

وهي السورة الأولى من آل (حمٓ)

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحَمْدُ لِلَّهِ، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ وَآلِهِ وَأَصْحَابِهِ

رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا، إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ

كلمة في سورة غافر ومحورها :

تبدأ السورة بآيتين هما قوله تعالى : ﴿ **حمٓ * تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم * غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول لا إله إلا هو إليه المصير** ﴾ وبعد ذلك يأتي قوله تعالى ﴿ **مايجادل في آيات الله إلا الذين كفروا فلا يغررك تقلبهم في البلاد** ﴾ (الآية : ٤) ثم تسير السورة حتى تجد قوله تعالى ﴿ **إن الذين كفروا ينادَون لمقت الله أكبر من مقتكم أنفسكم ..** ﴾ (الآية : ١٠) ثم تتحدّث السورة عن أشياء كثيرة حتى تصل إلى قوله تعالى : ﴿ **الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم كبر مقتاً عند الله وعند الذين آمنوا كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار** ﴾ (الآية : ٣٥) ثم تسير السورة فتحدّثنا عن معان كثيرة حتى تصل إلى قوله تعالى : ﴿ **إن الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم إن في صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه فاستعذ بالله إنه هو السميع البصير** ﴾ (الآية : ٥٦) ثم تسير السورة فتحدّثنا عن معانٍ كثيرة حتى تصل إلى قوله تعالى : ﴿ **ألم تر إلى الذين يجادلون في آيات الله أنى يصرفون ..** ﴾ (الآية : ٦٩) ثم تسير السورة حتى تختتم بلفظ (الكافرون) في قوله تعالى : ﴿ **فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنة الله التي قد خلت في عباده وخسر هنالك الكافرون** ﴾ . (الآية : ٨٥) .

إن افتتاح السورة وختمها بالكلام عن الكافرين يشعرنا أن السورة تفصّل بشكل أخصّ في قوله تعالى من مقدمة سورة البقرة : ﴿ **إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون * ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم** ﴾ حتى لتكاد تكون هاتان الآيتان هما محور السورة .

— — — — — — — —

ولكنا في الوقت نفسه نلاحظ أنّ السورة تفصّل فيما فصّلت فيه سورة الروم ، إذ نجد تشابهاً كبيراً بين سورة الروم وسورة غافر . فمثلاً في سورة الروم يتكرّر الكلام عن نصر الله عز وجل أكثر من مرة ﴿ **ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم** ﴾ ﴿ **وكان حقاً علينا نصر المؤمنين** ﴾ ونلاحظ أن سورة غافر ذكر فيها قوله تعالى : ﴿ **إنا لننصر رسلنا**

والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ﴾ . ونلاحظ أن سورة الروم ورد فيها قوله تعالى : ﴿ **أوَ لم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها وجاءتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون** ﴾ (الآية : ٩) .

ونلاحظ أن سورة غافر ورد فيها قوله تعالى : ﴿ **أو لم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة وآثاراً في الأرض فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق** ﴾ . (الآية : ٢١) وكذلك ورد فيها قوله تعالى : ﴿ **أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أكثر منهم وأشد قوة وآثاراً في الأرض فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون** ﴾ (الآية: ٨٢) .

فإذا تذكرنا أن سورة الروم فصّلت في الآيات الأربع الأولى من سورة البقرة فإن هذا يشعرنا أن لسورة غافر صلة بذلك ، وعلى هذا فسورة غافر تفصّل بشكل مباشر في الآيتين الخامسة والسادسة من مقدمة سورة البقرة ، وتفصّل بشكل غير مباشر في الآيات الأربع الأولى من سورة البقرة ، وهي مواضيع متلاحمة ، فصار تفصيلها الكلي في قوله تعالى : ﴿ **الٓمٓ * ذلك الكتاب لاريب فيه هدى للمتقين * الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون * والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون * أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون * إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لايؤمنون * ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم** ﴾ .

— — — — — — — —

فإذا كانت سورة الزمر فصّلت قوله تعالى : ﴿ **الٓمٓ * ذلك الكتاب لاريب فيه هدى للمتقين** ﴾ كما رأينا ، فإنّ سورة غافر تبني على تفصيل سورة الزمر ، وتكمّل ذلك ، ومن ثم نلاحظ مجيء قوله تعالى فيها : ﴿ **ما يجادل في آيات الله إلا الذين كفروا فلا يغررك تقلّبهم في البلاد** ﴾ .

ويذكّرنا آخر الآية هذه بقوله تعالى من سورة آل عمران : ﴿ **لايغرنك تقلّب**

الذين كفروا في البلاد ﴾ فيشعرنا كذلك بأن سورة غافر عليها طابع سورة آل عمران التي فصّلت مقدمة سورة البقرة كلها . ومن ثم نستطيع القول : إن سورة الزمر فصّلت في الآية الأولى من سورة البقرة بشكل أخص ، وفصّلت فيما سوى ذلك من الآيات الأولى من سورة البقرة بشكل ضمني ، وجاءت بعد ذلك سورة غافر لتفصّل في الآيتين الخامسة والسادسة بشكل أخص ، وتفصّل في الآيات الأولى من سورة البقرة بشكل ضمني ، وسنرى أن سورة فُصّلت ستفصّل بشكل أخص في الآيات التي ستأتي بعد المقدمة من سورة البقرة ، وتفصّل فيما قبل ذلك بشكل ضمني ، فالتكامل بين السور الثلاث واضح بحيث تبني الثانية على الأولى ، والثالثة على الأولى والثانية ، فالأولى تفصّل في حيز محدّد ، وتأتي الثانية لتفصّل في حيز أوسع يغطي نفس الحيّز الأول ويزيد عليه . وتأتي الثالثة لتغطي ماغطته السورتان الأوليان وزيادة ، وكل ذلك يتمّ بتكامل وتداخل بحيث لايطغى على السياق الخاص لكل سورة .

— — — — — — — —

ونلاحظ بشكل واضح أن السورة تتألف من مقدمة طويلة تستمر حتى نهاية الآية (٢٠) ، ثم يأتي قوله تعالى : ﴿ **أو لم يسيروا في الأرض** ... ﴾ وتسير السورة حتى يأتي قبيل آخرها قوله تعالى : ﴿ **أفلم يسيروا في الأرض** ... ﴾ مما يشير إلى أنّ هذه الآية معطوفة على شبيهتها بحرف العطف الفاء . ثم بعد ثلاث آيات مرتبطة بالآية المذكورة تنتهي السورة ، فكأن السورة تتألف من مقدمة طويلة ، ومقطع واحد ، وسنرى ذلك بالتفصيل .

— — — — — — — —

كلمة في زمرة (آل حم)

إنّ سورة غافر هي أول سورة مبدوءة بـ (حم) والسور المبدوءة بـ (حم) سبع ، تأتي متعاقبة لايفصل بينها شيء . والسؤال الذي يحتاج إلى جواب هو : لماذا اعتبرنا سورة الزمر بداية مجموعة ؟ ، ولماذا لم نعتبر (حم غافر) بداية مجموعة ؟ ، ولماذا لم نعتبر حواميم كلها مجموعة واحدة ؟ والجواب : إن سورة الزمر مبدوءة بقوله تعالى :

﴿ **تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم** ﴾ وهذه سورة غافر مبدوءة بقوله تعالى : ﴿ **حمٓ * تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم** ﴾ وستأتي معنا سورتان من حواميم هما : الجاثية والأحقاف ، مبدوءتان بقوله تعالى : ﴿ **حمٓ * تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم** ﴾ .

إن هذه البداية المتشابهة بين سورة الزمر وثلاثة من حواميم تدلنا على أن سورة الزمر لها صلة بحواميم ، وإن لم تبدأ (بحم) ، وقد رأينا أن سورة (ص) نهاية مجموعة ، فلابد أن تكون سورة الزمر بداية مجموعة ، وسنرى بالدليل أن المعاني التي تعرّضت لها السور هي التي ساقتنا إلى تقسيماتنا التي سنراها .

— — — — — — — —

ولقد رأينا من قبل أنّ السور المبدوءة بـ (الٓرٓ) لم تشكّل كلها مجموعة واحدة ، بل كان بعضها في مجموعة ، وواحدة منها في مجموعة أخرى ، ولكنها كانت كلها في قسم واحد ، والمعاني هي التي هدتنا إلى ذلك وكذلك (آل حم) فإنها وإن اشتركت بحرفي (حم) إلا أنها تشكّل أكثر من مجموعة ، كما سنرى بالدليل . إلا أنها مع كونها كذلك فإنها جميعاً تشترك بخاصية واحدة كما سنرى وسيبرز معنا من خلال رؤية أن آل حم مجموعات ، سبب من الأسباب التي سميّ بها هذا القسم من القرآن بقسم المثاني ، وسنرى بوضوح كيف أن سورة الزمر التي ذكر فيها وصف القرآن بأنه مثاني هي في الحقيقة مقدمة لآل حم .

— — — — — — — —

نقول :

١ ــ قال ابن كثير في تقديمه لسورة المؤمن (غافر) : (قد كره بعض السلف منهم محمد بن سيرين أن يقال (الحواميم) وإنما يقال آل حم قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : آل حم ديباج القرآن ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : إن لكل شيء لباباً ، ولباب

القرآن آل حم ، أو قال : الحواميم ، وقال مسعر بن كدام : كان يقال لهن العرائس ، روى ذلك كله الإمام العالم أبو عبيد القاسم بن سلام رحمه الله تعالى في كتاب (فضائل القرآن) . وروى حميد بن زنجويه : عن عبد الله رضي الله عنه قال : إن مثل القرآن كمثل رجل انطلق يرتاد لأهله منزلاً ، فمرّ بأثر غيث ، فبينما هو يسير فيه ويتعجّب منه إذ هبط على روضات دمثات فقال : عجبت من الغيث الأول فهذا أعجب وأعجب ، فقيل له : إن مثل الغيث الأول مثل عظم القرآن ، وإن مثل هؤلاء الروضات الدمثات مثل آل حم في القرآن ، أورده البغوي . وروى ابن لهيعة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : لكل شيء لباب ولباب القرآن الحواميم ، وقال ابن مسعود رضي الله عنه : إذا وقعت في آل حم فقد وقعت في روضات أتأنق فيهنّ . وروى أبو عبيد أن رجلاً رأى أبا الدرداء رضي الله عنه يبني مسجداً فقال له : ماهذا ؟ فقال : أبنيه من أجل حم . وقد يكون هذا المسجد الذي بناه أبو الدرداء رضي الله عنه هو المسجد المنسوب إليه داخل قلعة دمشق ، وقد يكون صيانتها وحفظها ببركته وبركة ماوضع له ، فإن هذا الكلام يدل على النصر على الأعداء ، كما قال رسول الله ﷺ لأصحابه في بعض الغزوات «إن بيتم الليلة فقولوا حم لاينصرون ـــ وفي رواية ـــ لاتنصرون» . وروى الحافظ أبو بكر البزار : عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «من قرأ آية الكرسي ، وأول حم المؤمن عصم ذلك اليوم من كل سوء» ورواه الترمذي من حديث المليكي وقال : تكلم فيه بعض أهل العلم من قبل حفظه) .

أقول : إن حرص بعض السلف على تسمية السور المبدوءة بـ (حم) آل حم يشير إلى أنهم اعتبروا هذه السور السبع أسرة واحدة وزمرة واحدة . وهذا لا ينفي أن تكون هذه السور مجموعات . فكما أن السورة المبدوءة بـ (الۤر) أو (الۤمۤ) لم تشكل مجموعة واحدة مع أنها زمرة واحدة فكذلك هنا .

— — — — — — — —

٢ – وقال الألوسي في تقديمة لسورة (المؤمن) :

(وتسمى سورة غافر وسورة الطوْل ، وهي كما روي عن ابن عباس . وابن الزبير . ومسروق . وسمرة بن جندب مكية ، وحكى أبو حيان الإجماع على ذلك ، وعن الحسن

أنها مكية إلا قوله تعالى ﴿ **وسبح بحمد ربك** ﴾ لأن الصلوات نزلت بالمدينة ، وكانت الصلاة بمكة ركعتين من غير توقيت . وأنت تعلم أن الحق قول الأكثرين : أن الخمس نزلت بمكة على أنه لا يتعيّن إرادة الصلاة بالتسبيح في الآية ، وقيل : هي مكية إلا قوله تعالى : ﴿ **إن الذين يجادلون** ﴾ الآية ، فإنها مدنية ، فقد أخرج ابن أبي حاتم عن أبي العالية وغيره أنها نزلت في اليهود لما ذكروا الدجال ، وهذا ليس بنص على أنها نزلت بالمدينة ، قال شيخ الإسلام ابن تيمية : قولهم نزلت الآية في كذا يراد به تارة سبب النزول ، ويراد به تارة أن ذلك داخل في الآية ، وإن لم يكن السبب كما تقول : عنى بهذه الآية كذا ، وقال الزركشي في البرهان : قد عرف من عادة الصحابة والتابعين أن أحدهم إذا قال : نزلت الآية في كذا فإنه يريد بذلك أنها تتضمّن هذا الحكم ، لا أن هذا سبب في نزولها ، فهو من جنس الاستدلال على الحكم بالآية ، لا من جنس النقل لما وقع . نعم سيأتي إن شاء الله تعالى عن أبي العالية ما هو كالنص على ذلك ، وآيها خمس وثمانون في الكوفي والشامي ، وأربع في الحجازي ، واثنتان في البصري ، وقيل : ست وثمانون ، وقيل : ثمان وثمانون ، ووجه مناسبة أولها لآخر الزمر أنه تعالى لما ذكر سبحانه هناك مايؤول إليه حال الكافر وحال المؤمن ، ذكر جل وعلا هنا أنه تعالى غافر الذنب ، وقابل التوب ، ليكون ذلك استدعاء للكافر إلى الإيمان والإقلاع عما هو فيه ، وبين السورتين أنفسهما أوجه من المناسبة ، ويكفي فيها أنه ذكر في كل من أحوال يوم القيامة وأحوال الكفرة فيه وهم في المحشر وفي النار ماذكر ، وقد فصّل في هذه من ذلك مالم يفصّل منه في تلك ، وفي تناسق الدرر : وجه إيلاء الحواميم السبع لسورة الزمر تواخي المطالع في الافتتاح (بتنزيل الكتاب) . وفي مصحف ابن مسعود أول الزمر (حمٓ) وتلك مناسبة جلية ، ثم إن الحواميم ترتبت لاشتراكها في الافتتاح بـ (حمٓ) ، وبذكر الكتاب ، وأنها مكية ، بل ورد عن ابن عباس . وجابر بن زيد أنها نزلت عقب الزمر متتاليات كترتيبها في المصحف ، وورد في فضلها أخبار كثيرة . أخرج أبو عبيد في فضائله عن ابن عباس قال : إن لكل شيء لبابا وإن لباب القرآن الحواميم . وأخرج هو ، وابن الضريس ، وابن المنذر ، والحاكم ، والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن مسعود قال : الحواميم ديباج القرآن . وأخرجه أبو الشيخ . وأبو نعيم . والديلمي عن أنس رضي الله تعالى عنه مرفوعاً ، وأخرج الديلمي . وابن مردويه عن سمرة بن جندب مرفوعاً «الحواميم روضة من رياض الجنة» .

وأخرج محمد بن نصر . والدارمي عن سعد بن إبراهيم قال : كنّ الحواميم يسمين

العرائس . وأخرج ابن نصر ، وابن مردويه عن أنس بن مالك قال : «سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الله تعالى أعطاني السبع الطوال مكان التوراة ، وأعطاني الراءات إلى الطواسين مكان الإنجيل ، وأعطاني ما بين الطواسين إلى الحواميم مكان الزبور ، وفضلني بالحواميم والمفصّل ، ماقرأهن نبي قبلي » .

وأخرج البيهقي في الشعب عن الخليل بن مرة أن رسول الله ﷺ قال : «الحواميم سبع وأبواب جهنم سبع تجيء كل (حم) منها فتقف على باب من هذه الأبواب تقول : اللهم لا تدخل من هذا الباب من كان يؤمن بي ويقرؤني» وجاء في خصوص بعض آيات هذه السور مايدل على فضله ، أخرج الترمذي ، والبزار ، ومحمد بن نصر ، وابن مردويه ، والبيهقي في الشعب عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « من قرأ ﴿ **حمٓ** ﴾ إلى ﴿ **وإليه المصير** ﴾ ، وآية الكرسي حين يصبح ، حفظ بهما حتى يمسي ، ومن قرأهما حين يمسي حفظ بهما حتى يصبح » .

٣- ومن تقديم صاحب الظلال لسورة المؤمن :

(هذه السورة تعالج قضية الحق والباطل ، قضية الإيمان والكفر ، قضية الدعوة والتكذيب ، وأخيراً قضية العلو في الأرض والتجبر بغير الحق ، وبأس الله الذي يأخذ العالين المتجبرين .. وفي ثنايا هذه القضية تلم بموقف المؤمنين المهتدين الطائعين ونصر الله إياهم ، واستغفار الملائكة لهم ، واستجابة الله لدعائهم ، ومايننتظرهم في الآخرة من نعيم .

وجو السورة كله ــ من ثم ــ كأنه جو معركة . وهي المعركة بين الحق والباطل ، وبين الإيمان والطغيان ، وبين المتكبرين المتجبرين في الأرض وبأس الله الذي يأخذهم بالدمار والتنكيل . تنسم خلال هذا الجو نسمات الرحمة والرضوان حين يجيء ذكر المؤمنين !.

ذلك الجو يتمثل في عرض مصارع الغابرين ، كما يتمثل في عرض مشاهد القيامة ــ وهذه وتلك تتناثر في سياق السورة وتتكرر بشكل ظاهر ــ وتعرض في صورها العنيفة المرهوبة المخيفة متناسقة مع جو السورة كله ، مشتركة في طبع هذا الجو بطابع العنف والشدة .

ولعله مما يتفق مع هذه النسمة افتتاح السورة بإيقاعات ذات رنين خاص : ﴿ **غافر الذنب وقابل التوب ، شديد العقاب ، ذي الطول ، لا إله إلا هو ، إليه المصير** ﴾ فكأنما هي مطارق منتظمة الجرس ، ثابتة الوقع ، مستقرة المقاطع ، ومعانيها كذلك مساندة لإيقاعها الموسيقي ! .

كذلك نجد كلمة البأس . وبأس الله . وبأسنا .. مكررة تتردد في مواضع متفرقة من السورة . وهناك غيرها من ألفاظ الشدة والعنف بلفظها أو بمعناها) .

وقال صاحب الظلال :

(هذه السورة بدء سبع سور كلها تبدأ بالحرفين : (حا، ميم) . منها سورة واحدة يذكر فيها بعد هذين الحرفين ثلاثة حروف أخر : (عين . سين قاف) . وقد سبق الحديث عن الأحرف المقطعة في أوائل السور . وأنها إشارة إلى صياغة هذا القرآن منها . وهو معجز لهم مع تيسير هذه الأحرف لهم ومعرفتهم بها ، وهي أحرف لغتهم التي يتحدثونها ويكتبونها) .

— — — — — — — —

ولنبدأ عرض السورة .

☆ ☆ ☆

المقدمة

وتتألف من أربع مجموعات ، وتستمر من الآية (١) إلى نهاية الآية (٢٠) وهذه هي :

المجموعة الأولى

بسم الله الرحمن الرحيم

حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٢﴾ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٣﴾ مَا يُجَٰدِلُ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿٤﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٦﴾

المجموعة الثانية

ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ

ٱلْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ
ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾

المجموعة الثالثة

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى
ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا
فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ ۖ وَإِن يُشْرَكْ
بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟ ۚ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ ﴿١٢﴾

المجموعة الرابعة

هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا ۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ
﴿١٣﴾ فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ
ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾
يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ
﴿١٦﴾ ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ
﴿١٧﴾ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْـَٔازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ
حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ

يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾

تفسير المجموعة الأولى

﴿ **حم** * **تنزيل الكتاب** ﴾ أي : حم هذا تنزيل الكتاب ﴿ **من الله العزيز** ﴾ أي : المنيع بسلطانه عن أن يتقوّل عليه متقوّل ﴿ **العليم** ﴾ بمن صدّق وكذّب ، **فهو تهديد** للمشركين وبشارة للمؤمنين ﴿ **غافر الذنب** ﴾ غافر أي : سائر ذنب المؤمنين ﴿ **وقابل التوب** ﴾ أي : وقابل توبة الراجعين . قال ابن كثير : أي : يغفر ما سلف من الذنب ، ويقبل التوبة في المستقبل لمن تاب إليه وخضع لديه ﴿ **شديد العقاب** ﴾ أي : لمن تمرَّد وطغى ، وآثر الحياة الدنيا ، وعتا عن أوامر الله وبغي ، والملاحظ أنه كثيراً ما يقرن تعالى بين وصفيه الغفور التوَّاب ، وبين شديد العقاب ، ليبقى العبد بين الرجاء والخوف ﴿ **ذي الطول** ﴾ أي : ذي الغنى والفضل ، وذي النعم والفواضل . قال ابن كثير : والمعنى أنه المتفضّل على عباده ، المتطوّل عليهم بما هم فيه من المنن والإنعام التي لا يطيقون القيام بشكر واحدة منها ﴿ **لا إله إلا هو** ﴾ أي : لا نظير له في جميع صفاته ، فلا إله غيره ولا ربّ سواه ﴿ **إليه المصير** ﴾ أي : المرجع والمآب ، فيجازي كل عامل بعمله ﴿ **ما يجادل في آيات الله** ﴾ أي : ما يدفع الحق ويجادل فيه بعد البيان وظهور البرهان ﴿ **إلا الذين كفروا** ﴾ أي : الجاحدون لآيات الله وبراهينه ، أي : ما يخاصم فيها بالتكذيب بها والإنكار لها إلا الذين كفروا ، قال النسفي : فأما الجدال فيها لإيضاح ملتبسها ، وحل مشكلها ، واستنباط معانيها ، وردّ أهل الزيغ بها ، فأعظم جهاد في سبيل الله ﴿ **فلا يغررك تقلُّبهم في البلاد** ﴾ أي : في أموالها ونعيمها وزهرتها بالتجارات النافعة ، والمكاسب المربحة ، والانتصارات السياسية والعسكرية ، والغلبة للخصوم ، فإن عاقبة أمرهم إلى العذاب في الدنيا والآخرة . ثم بيّن تعالى كيف ذلك فقال : ﴿ **كذّبت قبلهم قوم نوح والأحزاب من بعدهم** ﴾ أي : والأحزاب الذين تحزّبوا على الرسل ، وناصبوهم من كل أمة بعد قوم نوح ، كعاد وثمود وقوم لوط وغيرهم ﴿ **وهمَّت كل أمّة** ﴾ من هذه الأمم التي هي قوم نوح والأحزاب ﴿ **برسولهم ليأخذوه** ﴾ أي : ليتمكنوا منه فيقتلوه . قال ابن كثير : أي : حرصوا على قتله بكل ممكن ومنهم من قتل

رسوله ﴿ **وجادلوا بالباطل** ﴾ أي: بالكفر ﴿ **ليدحضوا به الحق** ﴾ أي: ليبطلوا به الإيمان . أي: ماحلوا بالشبهة ليردوا الحق الواضح الجلي ﴿ **فأخذتهم** ﴾ أي: أهلكتهم على ماصنعوا من هذه الآثام والذنوب العظام ، من محاولتهم أخذ الرسل وتكذيبهم ومماحلتهم ﴿ **فكيف كان عقاب** ﴾ أي: فكيف بلغك عذابي لهم ونكالي بهم ؟ قد كان شديداً موجعاً مؤلماً . قال قتادة : كان شديداً والله ﴿ **وكذلك حقّت كلمة ربك على الذين كفروا أنهم أصحاب النار** ﴾ أي: مثل ذلك الوجوب وجب على الكفرة كونهم من أصحاب النار . ومعناه كما وجب إهلاكهم في الدنيا بالعذاب المستأصل ، كذلك وجب تعذيبهم بعذاب النار في الآخرة ، أو المعنى : كما وجب إهلاك أولئك الأمم كذلك وجب إهلاك هؤلاء ، لأنّ علّة واحدة تجمعهم ، أنهم من أصحاب النار . وينتقل السياق ليحدثنا عن الملائكة ودعائهم للمؤمنين ..

كلمة في السياق :

١ – ذكر الله عز وجل في الابتداء أن هذا الكتاب تنزيله ، وذكر مجموعة من أسمائه عز وجل ، وذكر ذلك كله بصيغة تقريرية تشير إلى أن هذا الموضوع حقيقة مقررة مقطوع بها ، ومن ثم قال بعد ذلك : ﴿ **مايجادل في آيات الله إلا الذين كفروا ..** ﴾ .

٢ – في ذكر مجموعة الأسماء لله التي صدرت بها السورة إشارة إلى مظهر من مظاهر التدليل على كون هذا القرآن من عند الله . فكتاب يصف الله عز وجل بمثل هذا الكمال لايمكن أن يكون مكذوباً على الله . وكتاب تظهر فيه آثار هذه الأسماء من علم وحكمة ، وعزّة وغفران ، وشدة عقاب ، وكثرة إنعام ، دليل على أنه من عند الله ؛ إذ الكلام تظهر فيه صفات المتكلِّم وخصائصه . فعندما يقول الله عز وجل بعد ذلك ﴿ **مايجادل في آيات الله إلا الذين كفروا ..** ﴾ فلأن الحجة قد ذكرت من قبل .

٣ – إذا تذكرنا أن محور سورة غافر هو قوله تعالى من سورة البقرة : ﴿ **إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون * ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم** ﴾ نعْرف سرّ مجيء قوله تعالى : ﴿ **ما يجادل في آيات الله إلا الذين كفروا ..** ﴾ وأنّ هؤلاء المتّصفين بهذه الصفة هم الذين لا يفلح معهم الإنذار . وقد فصّلت الآيات الأخيرة نوعي العذاب العظيم الذي يستحقه هؤلاء

في الدنيا والآخرة .

٤ ـــ في قوله تعالى : ﴿ **فلا يغررك تقلّبهم في البلاد** ﴾ درس للنذير الذي يرى أن إنذاره لا ينفع في هؤلاء الكافرين ، ألّا يغتر بما هم فيه من متع الدنيا ، فالعبرة للعاقبة في الدنيا والآخرة .

٥ ـــ نلاحظ من الآيات التي مرّت معنا في سورة غافر : أن آيتين منها فصّلتا في الآيات الأربع الأولى من سورة البقرة . وأن الآيات الثلاث التالية فصّلت في الآيتين اللاحقتين من سورة البقرة . وهذا شيء سنراه كذلك في الآيات اللاحقة ، أن التفصيل يتناوب بين آيات المتقين من سورة البقرة ، وآيتي الكافرين منها . فقوله تعالى : ﴿ **تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم * غافر الذنب** ... ﴾ يفصّل في قوله تعالى : ﴿ **الٓمٓ * ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين** ... ﴾ وقوله تعالى : ﴿ **مايجادل في آيات الله إلا الذين كفروا** ... ﴾ تفصيل في قوله تعالى : ﴿ **إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لايؤمنون** .. ﴾ .

— — — — — — — —

وهذه مجموعة تحدثنا عن موقف الملائكة من المؤمنين في الدنيا ، وعن موقف الملائكة من الكافرين يوم القيامة ، وفي ذلك تفصيل لقضية من قضايا الإيمان بالغيب ﴿ **الذين يؤمنون بالغيب** ﴾ وتفصيل لنوع من أنواع الفوز ، وتفصيل لنوع من أنواع العذاب للكافرين .

تفسير المجموعة الثانية

﴿ **الذين يحملون العرش** ﴾ من الملائكة ﴿ **ومن حوله** ﴾ أي: والحافين حوله وهم الذين يسمّيهم العلماء الكروبيين نسبة إلى لفظة الكروبيم العبرانية ، والتي تعني العرش والله أعلم . ﴿ **يسبّحون بحمد ربهم ويؤمنون به** ﴾ أي: يجمعون بين الإيمان والعمل ، قارنين بين التسبيح الدال على نفي النقائص ، والتحميد المقتضي لإثبات صفات المدح ، وفائدة وصفهم بالإيمان في هذا المقام إظهار شرف الإيمان وفضله

والترغيب فيه ﴿ **ويستغفرون للذين آمنوا** ﴾ فالملائكة يستغفرون لأهل الإيمان أي: لمن في مثل حالهم . قال النسفي : وفيه دليل على أن الاشتراك في الإيمان يجب أن يكون أدعى شيء إلى النصيحة والشفقة ، وإن تباعدت الأجناس والأماكن ﴿ **ربنا** ﴾أي: يقول الملائكة ربنا ﴿ **وسعت كل شيء رحمة وعلماً** ﴾ أي: وسعت رحمتك كل شيء ، ووسع علمك كل شيء ، ولما كان الدعاء للمؤمنين فكأنهم أرادوا أن يقولوا : رحمتك تسع ذنوبهم وخطاياهم ، وعلمك محيط بجميع أعمالهم وأقوالهم وحركاتهم وسكناتهم ﴿ **فاغفر للذين تابوا** ﴾ أي: للذين علمت منهم التوبة ، أو فاصفح عن المسيئين إذا تابوا وأنابوا ﴿ **واتّبعوا سبيلك** ﴾ بأن أقلعوا عما كانوا فيه ، واتّبعوا ماأمرتهم به من فعل الخيرات وترك المنكرات . أي: واتّبعوا طريق الهدى الذي دعوت إليه ﴿ **وقهم عذاب الجحيم** ﴾ أي: وزحزحهم عن عذاب الجحيم وهو العذاب الموجع الأليم ﴿ **ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم ومَنْ صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم** ﴾ أي: اجمع بينهم وبينهم لتقرّ بذلك أعينهم بالاجتماع في منازل متجاورة ﴿ **إنك أنت العزيز** ﴾ أي: الذي لايمانع ولا يغالب ، وما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ﴿ **الحكيم** ﴾ في أقوالك وأفعالك ، من شرعك وقدرك ﴿ **وقهم السيئات** ﴾ أي: فعلها ، أو وبالها ممّن وقعت منه . أو جزاءها وهو عذاب النار ﴿ **ومن تقِ السيئات يومئذ** ﴾ أي: يوم القيامة ﴿ **فقد رحمته** ﴾ أي: لطفت به ونجيته من العقوبة ﴿ **وذلك** ﴾ أي: رفع العذاب ﴿ **هو الفوز العظيم** ﴾ الذي لافوز أعظم منه .

— — — — — — — —

كلمة في السياق :

رأينا في هذه المجموعة ماللمؤمنين من مقام عظيم ، إذ يدعو لهم حملة العرش ومَنْ حوله من الملائكة هذا الدعاء العظيم ، وفي ذلك دعوة للناس أن يكونوا من أهل الإيمان والتقوى ، وصلة ذلك بأحد محوري السورة واضحة ﴿ **ذلك الكتاب لاريب فيه هدى للمتقين * الذين يؤمنون بالغيب ... أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون** ﴾ . فالآيات دعوة لأن يكون الإنسان من هؤلاء لينال دعوات الملائكة ، وهي تفصيل لهذه الآيات كذلك من حيث إنها فصّلت في قضية فلاحهم ، وذكرت نموذجاً على هذا الفلاح في الدنيا والآخرة ، من إلحاق أزواجهم وذرياتهم بهم في

الآخرة ، ومن دعوات الملائكة لهم ، ومن وقايتهم السيئات ، لأن دعاء الملائكة مستجاب ، كما أنها بيّنت أنّ التّوبة ، واتباع السبيل ، هما قوام هذا الأمر ، وفي هذا زيادة تفصيل لقضية التقوى . والآن تأتي مجموعة آيات تتحدث عما يقوله الملائكة للكافرين يوم القيامة بعد أن عرفنا ماتدعو به الملائكة لأهل الإيمان في الدنيا ...

— — — — — — — —

تفسير المجموعة الثالثة

﴿ **إن الذين كفروا ينادَوْن** ﴾ أي يوم القيامة إذا دخلوا النار ومقتوا أنفسهم فيناديهم خزنة النار ﴿ **لمقت الله أكبر من مقتكم أنفسكم** ﴾ البغض أشد المقت والمعنى : لمقت الله أنفسكم أكبر من مقتكم أنفسكم ﴿ **إذ تُدعَوْن إلى الإيمان فتكفرون** ﴾ والمعنى : أنه يقال لهم يوم القيامة : كان الله يمقت أنفسكم الأمّارة بالسوء والكفر حين كان الأنبياء يدعونكم إلى الإيمان فتأبون قبوله ، وتختارون عليه الكفر أشد مما تمقتوهن اليوم وأنتم في النار ، إذا وقعتم فيها باتباعكم هواهنّ : قال ابن كثير : (يقول تعالى مخبراً عن الكفار أنهم ينادون يوم القيامة وهم في غمرات النيران يتلظون ، وذلك عندما باشروا من عذاب الله تعالى مالا قِبَل لأحد به ، فمقتوا عند ذلك أنفسهم ، وأبغضوها غاية البغض ، بسبب ماأسلفوا من الأعمال السيئة التي كانت سبب دخولهم إلى النار ، فأخبرتهم الملائكة عند ذلك إخباراً عالياً ، بأن نادتهم نداءً بأن مقت الله تعالى لهم في الدنيا حين كان يعرض عليهم الإيمان فيكفرون ، أشدّ من مقتكم أيها المعذبون أنفسكم اليوم في هذه الحالة . قال قتادة في قوله تعالى : ﴿ **لمقت الله أكبر من مقتكم أنفسكم إذ تدعون إلى الإيمان فتكفرون** ﴾ يقول لمقت الله أهل الضلالة حين عرض عليهم الإيمان في الدنيا فتركوه وأبوا أن يقبلوه أكبر مما مقتوا أنفسهم حين عاينوا عذاب الله يوم القيامة ، وهكذا قال الحسن البصري ومجاهد والسدي وذرّ بن عبيد الله الهمداني وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وابن جرير الطبري) . ﴿ **قالوا ربنا أمتّنا اثنتين وأحييتنا اثنتين** ﴾ أي أمتنا إماتتين أو موتتين ، وأحييتنا إحياءتين أو حياتين ، وأرادوا بالإماتتين خلقهم أمواتاً أولاً ، وإماتتهم عند انقضاء آجالهم ، وبالإحياءتين ، الإحياءة الأولى في الدنيا ، والإحياءة الثانية البعث ﴿ **فاعترفنا بذنوبنا** ﴾ لما رأوا الإماتة والإحياء قد تكررا عليهم علموا أن الله قادر على الإعادة ، كما هو قادر على الإنشاء ، فاعترفوا بذنوبهم التي

اقترفوها ، من إنكار البعث ، وماتبعه من معاصيهم ﴿ **فهل إلى خروج** ﴾ من النار أي إلى نوع من الخروج سريع أو بطيء لنتخلّص ﴿ **من سبيل** ﴾ قط أم اليأس واقع دون ذلك فلا خروج ولا سبيل إليه ؟ وجاء الجواب من خلال التعليل لبقائهم في النار بقوله : ﴿ **ذلكم** ﴾ أي الذي أنتم فيه ، وأن لا سبيل لكم إلى خروج قط ﴿ **بأنه إذا دُعِي اللهُ وحدَه كفرتم وإن يُشْرَك به تؤمنوا** ﴾ أي ذلكم كفركم بتوحيد الله ، وإيمانكم بالإشراك به ﴿ **فالحكم لله** ﴾ حيث حكم عليكم بالعذاب السرمد ﴿ **العلي** ﴾ شأنه فلا يرد قضاؤه ﴿ **الكبير** ﴾ أي العظيم سلطانه فلا يُحدّ جزاؤه .

كلمة في السياق :

١ — أرانا الله عز وجل في هذه المجموعة ماذا يقول الملائكة للكافرين يوم القيامة إذا دخلوا النار ، وبيّن لنا ماهية العذاب العظيم الذي يلاقونه ، وبيّن لنا علّة ذلك ، وهو رفضهم للإيمان والتوحيد ، وقبولهم الشرك وسيرهم فيه . وهكذا نجد من خلال عرض موقف الملائكة من أهل الإيمان في الدنيا ، وموقفهم من أهل الكفر في الآخرة ، الفارق الكبير بين الكفر والإيمان وأهلهما . ولذلك صلته بمقدّمة سورة البقرة ﴿ **ولهم عذاب عظيم** ﴾ .

٢ — بدأت السورة بالحديث عن الله عز وجل ، وأنه منزل الكتاب ، وأن من أسمائه ﴿ **العزيز العليم غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول لا إله إلا هو إليه المصير** ﴾ . ثم حدثتنا عن مجادلة الكافرين في آيات الله ، وعن تكذيب الأمم السابقة ، وأخذهم واستحقاقهم النار . وحدثتنا عن موقف الملائكة من أهل الإيمان ، ودعاء الله لهم بالتوبة ... والجنة . ثم عن موقف الملائكة من الكافرين إذا دخلوا النار ، وقد عرفنا من خلال ذلك مظاهر عزّة الله وعلمه ، وغفرانه وشدة عقابه ، وكثرة إنعامه ووحدانيته حتى إذا رأينا في مامرَّ مظاهر اتّصاف الله عز وجل بهذه الصفات كلها يعود الحديث الآن إلى الكلام عن الذات الإلهية في الآيات اللاحقة ، فنرى الآية الآتية هي : ﴿ **هو الذي يريكم آياته** ... ﴾ فكأنها استمرار مباشر لما ورد في أول السورة : ﴿ **لا إله إلا هو إليه المصير** ﴾ .. ﴿ **هو الذي يريكم آياته وينزّل لكم من السماء رزقاً ومايتذكر إلا من ينيب** ﴾ . وكأن ماورد بين ذلك قد أدى دوره المتعدد ، وعاد السياق إلى سيره الرئيسي في الكلام عن الله عز وجل : فلنتذكّر الآن أن هذه الآيات ومابعدها كلها

مقدمة للمقطع الرئيسي في السورة ، الذي يخاطب الكافرين . فكأنّ المقدّمة تعرِّفنا على الله عز وجل ، وتعرّفنا على عاقبة تكذيب رسله ، ثم تتوجه بالخطاب إلى الكافرين لتقيم عليهم الحجة .

٣ - نلاحظ أن المقدّمة الطويلة لسورة غافر تفصّل معاني موجودة في الآيات الست الأولى من سورة البقرة ، إلا أنّ السياق شيئاً فشيئاً سيستقل في تفصيل قوله تعالى : ﴿ **إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لايؤمنون** ﴾ فهو المحور الرئيسي في السورة فلنلاحظ ذلك ، فكأن مقدّمة سورة غافر تبني على سورة الزمر وتكملها ، وتفصّل فيما فصّلت فيه ، ثم تنطلق السورة لتفصّل في ما بعد محور سورة الزمر ، وهو الكلام عن الكافرين ، ولنعد إلى التفسير ، فقد رأينا أن المجموعة اللاحقة تكمِّل موضوع التعريف على الله عز وجل الذي بدأته الآيتان الأوليان في السورة .

تفسير المجموعة الرابعة

﴿ **هو الذي يريكم آياته** ﴾ أي : يظهر قدرته لخلقه بما يشاهدونه في خلقه العلوي والسفلي ، من الآيات العظيمة الدّالة على كمال خالقها ومبدعها ومنشئها ، من ريح وسحاب ورعد وصواعق وغير ذلك ﴿ **وينزِّل لكم من السماء رزقاً** ﴾ وهو المطر الذي يخرج به من الزروع والثمار ، ماهو مشاهد بالحس من اختلاف ألوانه وطعومه وروائحه وأشكاله ، وهو ماء واحد ، فبالقدرة العظيمة جعل المطر سبب الرزق ، وفاوت بين هذه الأشياء ﴿ **ومايتذكّر** ﴾ أي : يعتبر ويتفكّر في هذه الأشياء ، ويستدلّ بها على عظمة خالقها ﴿ **إلا من ينيب** ﴾ أي : إلا من هو رجّاع توّاب إلى الله . قال النسفي : (أي) ومايتعظ ومايعتبر بآيات الله إلا من يتوب من الشرك ، ويرجع إلى الله ، فإن المعاند لايتذكّر ولايتعظ . ثم قال للمنيبين ﴿ **فادعوا الله مخلصين له الدين** ﴾ أي : فاعبدوه مخلصين له الدين من الشرك ﴿ **ولو كره الكافرون** ﴾ أي : وإن غاظ ذلك أعداءكم ممن ليسوا على دينكم . قال ابن كثير : (أي : فأخلصوا لله وحده العبادة والدعاء ، وخالفوا المشركين في مسلكهم ومذهبهم ، ثمّ زادنا تعريفاً على ذاته عز وجل ليستخرج منا العبادة والإخلاص ، وليبيّن لنا حكمة إنزاله الوحيِ على رسله فقال : ﴿ **رفيع الدرجات** ﴾ أي : رافع السمٰوات بعضها فوق بعض ، أو رافع درجات عباده في الدنيا بالمنزلة أو رافع منازلهم في الجنّة ﴿ **ذو العرش** ﴾ أي : صاحب العرش ومالكه الذي خلقه فوق السمٰوات مطافاً للملائكة ، وإظهاراً لعظمته مع

استغنائه ﴿ **يلقي الروح** ﴾ أي: جبريل ينزله ، أو يلقي الوحي الذي تحيا به القلوب ﴿ **من أمره** ﴾ أي: من أجل أمره أو بأمره ﴿ **على من يشاء من عباده** ﴾ المرسلين ﴿ **لينذر** ﴾ الله أو الرسول ﴿ **يوم التلاق** ﴾ أي: يوم القيامة ، لأنه يلتقي فيه أهل السماء وأهل الأرض ، والأولون والآخرون ﴿ **يوم هم بارزون** ﴾ أي: ظاهرون لا يسترهم شيء من جبل أو أكمة أو بناء ﴿ **لايخفى على الله منهم شيء** ﴾ أي: من أعمالهم وأحوالهم ، أي: الجميع في علمه على السواء ﴿ **لمن الملك اليوم** ﴾ أي: يقول الله تعالى ذلك حين لا أحد يجيبه ، ثم يجيب نفسه بقوله: ﴿ **لله الواحد القهّار** ﴾ . أي: الذي قهر الخلق بالموت ﴿ **اليوم تُجزىٰ كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب** ﴾ . قال النسفي: (لما قرر أن الملك لله وحده في ذلك اليوم ، عدد نتائج ذلك وهي أن كل نفس تجزى بما كسبت وعملت في الدنيا من خير وشر ، وأن الظلم مأمون منه ؛ لأنه ليس بظلّام للعبيد ، وأن الحساب لا يبطىء ؛ لأنه لا يشغله حساب عن حساب ، فيحاسب الخلق كله في وقت واحد وهو أسرع الحاسبين) .

— — — — — — — —

كلمة في السياق :

نلاحظ أنه في معرض كلام الله عز وجل عن صفاته أعلمنا أن من صفاته إلقاء الوحي على رسله لينذروا يوم القيامة ، وإذ تقرر ذلك يصدر الله عز وجل أمراً لرسوله عليه الصلاة والسلام بالإنذار ، فمن السياق يتبيّن أنّ محمداً ﷺ قد أنزل عليه الروح ، ومن ثمّ فإنه يؤمر بالإنذار ، وكأنّ أمر نذارته بديهي .

— — — — — — — —

﴿ **وأنذرهم يوم الآزفة** ﴾ أي: القيامة ، سُميت بذلك لاقترابها . فيوم الآزفة اسم من أسماء يوم القيامة ﴿ **إذ القلوب لدىٰ الحناجر** ﴾ من الخوف ﴿ **كاظمين** ﴾ أي: ساكتين ﴿ **ما للظالمين** ﴾ أي: الكافرين ﴿ **من حميم** ﴾ أي: من محب مشفق ﴿ **ولا شفيع يُطَاع** ﴾ أي: ولا شفيع يشفّع . ثم أتَمَّ الله عز وجل تعريفنا على ذاته

﴿ **يعلم خائنة الأعين** ﴾ أي: استراق العين النظر إلى ما لا يحل ﴿ **وما تخفي الصدور** ﴾ أي: ما تسرّه من أمانة وخيانة . قال النسفي : وقيل (في الآية) : هو أن ينظر إلى أجنبية بشهوة مسارقة ، ثم يتفكّر بقلبه في جمالها ولا يعلم بنظرته وفكرته من بحضرته ، والله يعلم ذلك كله ﴿ **والله يقضي بالحق** ﴾ أي: والذي هذه صفاته لا يحكم إلا بالعدل ﴿ **والذين يدعون من دونه** ﴾ أي: من آلهة مزعومة ﴿ **لا يقضون بشيء** ﴾ أي: لا يملكون شيئاً ولا يحكمون بشيء ، لأنّهم ليس لهم مؤهلات الحكم ﴿ **إن الله هو السميع** ﴾ أي: لأقوال خلقه ﴿ **البصير** ﴾ بهم . قال النسفي (هذا تقرير لقوله ﴿ **يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور** ﴾ ووعيد لهم بأنه يسمع ما يقولون ويبصر ما يعملون وأنه يعاقبهم عليه ، وتعريض بما يدعون من دونه وأنها لا تسمع ولا تبصر) .

— — — — — — — —

كلمة في مقدّمة سورة غافر وسياقها :

١ – ذكر النسفي أن قوله تعالى : ﴿ **يريكم آياته** ﴾ وقوله تعالى : ﴿ **وينزِّل لكم من السماء رزقاً** ﴾ وقوله تعالى : ﴿ **رفيع الدرجات** ﴾ وقوله تعالى : ﴿ **ذو العرش** ﴾ وقوله تعالى : ﴿ **يلقي الروح من أمره على من يشاء** ﴾ وقوله تعالى : ﴿ **يعلم خائنة الأعين** ﴾ كلها أخبار لقوله تعالى في أول الآية : ﴿ **هو الذي يريكم آياته ...** ﴾ فإذا تذكّرنا أن هذه الآية امتداد لقوله تعالى في أول السورة : ﴿ **حمٓ * تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم * غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول لا إله إلا هو إليه المصير** ﴾ ندرك أن الله عز وجل عَرّفنا على ذاته في هذه المقدمة . ومما عرفنا به على ذاته : أنه منزل القرآن ، ومنزل الوحي ، ومرسل الرسل ، والحاكم بين العباد بالحق والعدل ، وأنه هو الذي أمر رسوله محمداً ﷺ بالإنذار .

٢ – نلاحظ أن بعد هذه المقدمة يأتي قوله تعالى مباشرة : ﴿ **أو لم يسيروا في الأرض فينظروا ...** ﴾ مما يشير أنّه لمّا أمر رسوله ﷺ بالإنذار رفض الكافرون هذا الإنذار ، ومن ثم خاطبهم ولفت نظرهم إلى ما فعله في المكذبين السابقين . فإذا أدركنا هذه النقطة نعرف أنّ محور السورة الرئيسي هو قوله تعالى من سورة البقرة : ﴿ **إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتم أم لم تنذرهم لا يؤمنون** ﴾ ولكن كما أنّ سورة البقرة

قدّمت لهذا بذكر معان ، فقدِ قدمت سورة غافر للوصول إلى هذا بمعان هي تفصيل للمعاني التي قدّمتها سورة البقرة ، ومن ثم عرضت لنا سورة غافر صوراً عن اليوم الآخر ، وصوراً من مضمونات الغيب ، وعرضت لقضية الإيمان ، وعرضت لقضية تنزيل الكتاب من الله عز وجل ، وأنه فوق الريب والشكوك ، فلا يجادل في هذا الشأن إلا معاند ، وأوصلتنا إلى أن نفهم من السياق أن الكافرين يرفضون الإيمان والإنذار ، وذكرت ذلك كله في مقدمة السورة ، لتوصّلنا إلى المقطع الوحيد فيها ، وهو الذي يقيم الله به الحجة على الكافرين ، وينذرهم ويخوفهم ، حتى تقوم الحجة الكاملة عليهم .

٣ - رأينا أن المقدمة بدأت بذكر أسماء الله عز وجل ، حدثتنا عن صفاته ، وقد رأينا كيف أن المقدّمة برهنت لنا على اتصاف الله عز وجل بذلك ، والواقع أن السورة كلها تُجلّي هذه الحقيقة ، وتدلّل على اتصاف الله عز وجل بهذه الصفات والأسماء .

فلننقل الآن بعض الفوائد المتعلّقة بهذه المقدّمة .

— — — — — — — —

فـــوائد :

١ ـ بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **حمٓ * تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم * غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول لاإله إلا هو إليه المصير** ﴾ قال ابن كثير (وقال أبو بكر بن عياش سمعت أبا إسحاق السبيعي يقول : جاء رجل إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال : ياأمير المؤمنين إني قتلت فهل لي من توبة ؟ فقرأ عمر رضي الله عنه ﴿ **حم * تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم * غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب** ﴾ وقال : اعمل ولاتيأس . رواه ابن أبي حاتم واللفظ له وابن جرير . وروى ابن أبي حاتم عن يزيد ابن الأصم قال : كان رجل من أهل الشام ذو بأس وكان يفد إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، ففقده عمر فقال : مافعل فلان بن فلان ، فقالوا ياأمير المؤمنين تتابع في هذا الشراب . قال فدعا عمر كاتبه فقال : اكتب من عمر بن الخطاب إلى فلان بن فلان ، سلام عليك ، فإني أحمد إليك الله الذي لاإله إلا هو غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول لاإله إلا هو إليه المصير . ثم قال لأصحابه ادعوا الله لأخيكم أن يقبل بقلبه ، ويتوب الله عليه ، فلما بلغ الرجل كتاب

عمر رضي الله عنه جعل يقرؤه ويردده ويقول : غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ، قد حذروني عقوبته ، ووعدني أن يغفر لي . ورواه الحافظ أبو نعيم من حديث جعفر بن برقان وزاد فلم يزل يرددها على نفسه ثم بكى ثم نزع فأحسن النزع ، فلما بلغ عمر خبره قال : هكذا فاصنعوا إذا رأيتم أخاً لكم زل زلة فسددوه ووثقوه ، وادعوا الله له أن يتوب عليه ، ولا تكونوا أعواناً للشيطان عليه . وروى ابن أبي حاتم عن ثابت البناني قال كنت مع مصعب بن الزبير رضي الله عنه في سواد الكوفة ، فدخلت حائطاً أصلي ركعتين ، فافتتحت حمّ المؤمن ، حتى بلغت لا إله إلا هو إليه المصير ، فإذا رجل خلفي على بغلة شهباء ، عليه مقطعات يمنية قال : إذا قلت : غافر الذنب فقل يا غافر الذنب اغفر لي ذنبي ، وإذا قلت : وقابل التوب فقل : يا قابل التوب اقبل توبتي . وإذا قلت شديد العقاب فقل : يا شديد العقاب لا تعاقبني ، قال فالتفت فلم أر أحداً ، فخرجت إلى الباب فقلت مَرّ بكم رجل عليه مقطعات يمنية ؟ قالوا : ما رأينا أحداً ، فكانوا يرون أنه إلياس ، ثم رواه من طريق أخرى عن ثابت بنحوه وليس فيه ذكر إلياس والله سبحانه وتعالى أعلم) .

٢ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **الذين يحملون العرش ومن حوله يسبّحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ربنا ...** ﴾ قال ابن كثير : (ولما كان هذا من سجايا الملائكة عليهم الصلاة والسلام كانوا يؤمِّنون على دعاء المؤمن لأخيه بظهر الغيب ، كما ثبت في صحيح مسلم «إذا دعا المسلم لأخيه بظهر الغيب قال الملك آمين ولك بمثله) .

٣ - التحقيق أنّ حملة العرش الآن أربعة ، ويوم القيامة يكونون ثمانية . وهو موضوع سنحققه عند الكلام عن سورة الحاقة إن شاء الله .

٤ - بمناسبة دعاء الملائكة : ﴿ **وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم** ﴾ قال ابن كثير : (وقال سعيد بن جبير : إن المؤمن إذا دخل الجنة سأل عن أبيه وابنه وأخيه أين هم ؟ فيقال : إنهم لم يبلغوا طبقتك في العمل فيقول إني إنما عملت لي ولهم فيلحقون به في الدرجة ، ثم تلا سعيد بن جبير هذه الآية ﴿ **ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم إنك أنت العزيز الحكيم** ﴾ قال مطرف بن عبد الله بن الشخير : أنصح عباد الله للمؤمنين الملائكة ثم تلا هذه الآية ﴿ **ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم** ﴾ الآية

أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ
ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ
بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٧﴾

المجموعة الثالثة من الفقرة الأولى

وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ
وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا
يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَٰقَوْمِ
لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ۚ قَالَ
فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ
ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ
وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ
عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن
يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ
فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ
يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ

أَتَىٰهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ
مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾
أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ
لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴿٣٧﴾

المجموعة الرابعة من الفقرة الأولى

وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ
ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا
وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ
فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾ وَيَٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾
تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ
﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ
إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ
إِلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ
سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟
ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾

المجموعة الخامسة من الفقرة الأولى

وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاؤُا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم
مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ
بَيْنَ الْعِبَادِ ﴿٤٨﴾ وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا
مِّنَ الْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا فَادْعُوا
وَمَا دُعَاؤُا الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٥٠﴾ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ
الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ
وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٥٢﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ
الْكِتَابَ ﴿٥٣﴾ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٥٤﴾

الفقرة الثانية

وتشتمل على أربع مجموعات

المجموعة الأولى من الفقرة الثانية

فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ
﴿٥٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا
هُم بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾

المجموعة الثانية من الفقرة الثانية

لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ
﴿٥٧﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ ۚ
قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ
﴿٥٩﴾ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى
سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾

المجموعة الثالثة من الفقرة الثانية

ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى
ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ لَّآ
إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾ كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ
﴿٦٣﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ
وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾ هُوَ ٱلْحَىُّ
لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾ قُلْ إِنِّى
نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِىَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّى وَأُمِرْتُ
أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٦﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ

عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا ۚ وَمِنكُم مَّن
يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ۖ وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ
فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾

المجموعة الرابعة من الفقرة الثانية

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِٱلْكِتَٰبِ
وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ
وَٱلسَّلَٰسِلُ ۚ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ
أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا۟ مِن
قَبْلُ شَيْـًٔا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى
ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ
فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾

الفقرة الثالثة

فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۚ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ
﴿٧٧﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ
عَلَيْكَ ۗ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ قُضِىَ بِٱلْحَقِّ

وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا
وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا
وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾ أَفَلَمْ
يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ
وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا
جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟
بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا
بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ
خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾

تفسير المجموعة الأولى من الفقرة الأولى

﴿ **أَوَ لم يسيروا في الأرض** ﴾ أي : أَوَ لم يسر هؤلاء المكذبون برسالتك وإنذارك يامحمد ﴿ **فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم** ﴾ أي : كيف كان آخر أمر الذين كذبوا الرسل من قبلهم ، ماحلّ بهم من العذاب والنكال ﴿ **كانوا هم أشدَّ منهم قوّة** ﴾ بأجسادهم ﴿ **وآثاراً في الأرض** ﴾ يشهد على ذلك ما خلّفوه ، ومن رأى سدّ الصين ، وأهرامات مصر ، وأعمدة تدمر ، وبعلبك رأى فضل آثار السابقين على آثار من بعدهم . هذا إذا اعتبرنا أنّ الخطاب عام للبشرية كلها التي بعث لها محمد ﷺ ، أما إذا كان الخطاب لأهل مكة المخاطَبين الأولّين بهذا الخطاب فالأمر واضح ، كيف أنّ الأولّين أقوى منهم ، وأشدّ آثاراً في الأرض ، ﴿ **فأخذهم الله بذنوبهم** ﴾ أي : عاقبهم

بذنوبهم مع هذه القوّة العظيمة ، والبأس الشديد ﴿ **وما كان لهم من الله من واق** ﴾ أي : ومادفع عنهم عذاب الله أحد ، ولا ردّه عنهم رادّ ، ولا وقاهم منه واق . ثم ذكر علة أخذه إياهم ، وأنّها ذنوبهم التي ارتكبوها واجترموها فقال تعالى : ﴿ **ذلك** ﴾ أي : الأخذ ﴿ **بأنهم** ﴾ أي : بسبب أنهم ﴿ **كانت تأتيهم رسلهم بالبينات** ﴾ أي : بالدلائل الواضحات ، والبراهين القاطعات ﴿ **فكفروا** ﴾ أي : مع هذا البيان والبرهان كفروا وجحدوا ﴿ **فأخذهم الله** ﴾ أي : أهلكهم ودمّرهم ﴿ **إنّه قوي** ﴾ أي : ذو قوة عظيمة وبطش شديد ﴿ **شديد العقاب** ﴾ أي : عقابه أليم شديد موجع إذا عاقب .

كلمة في السياق :

بدأ الكلام عن الكافرين في هذه السورة بقوله تعالى : ﴿ **مايجادل في آيات الله إلا الذين كفروا فلا يغررك تقلبهم في البلاد * كذّبت قبلهم قوم نوح والأحزاب من بعدهم وهمّت كل أمّة برسولهم ليأخذوه وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق فأخذتهم فكيف كان عقاب * وكذلك حقّت كلمة ربك على الذين كفروا أنهم أصحاب النار** ﴾ .

ثم جاء كلام آخر عنهم في الآيات (١٠، ١١، ١٢) وهو : ﴿ **إن الذين كفروا ينادَوْن لمقت الله أكبر من مقتكم أنفسكم إذ تدعون إلى الإيمان فتكفرون * قالوا ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين فاعترفنا بذنوبنا فهل إلى خروج من سبيل * ذلكم بأنه إذا دعي الله وحده كفرتم وإن يشرك به تؤمنوا فالحكم لله العليّ الكبير** ﴾ .

وفي الآية (١٨) ورد قوله تعالى : ﴿ **وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع** ﴾ .

وبعد ذلك تأتي آيتان لاتشعراننا بقبولهم الإنذار . ثم يأتي قوله تعالى : ﴿ **أولم يسيروا ...** ﴾ مما يشير إلى أنهم رفضوا الإنذار والله عز وجل يحذرهم أن يفعل بهم كما فعل بالمكذبين من قبل .

ونلاحظ أنّ هناك صلة بين الآيات التي تتحدّث عنهم : ﴿ **مايجادل ... كذبت قبلهم ... فأخذتهم فكيف كان عقاب** ﴾ ﴿ **فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق** ﴾ فالسورة إذن تصبّ في الكلام عن الكافرين في سيرها الرئيسي ، وتذكّرهم

بالمعنى الواعظ مرَّة بعد مرَّة . مرَّة بصيغة التقرير ، ومرّة بصيغة الطلب ، وتذكرهم بالعذاب الدنيوي ، والعذاب الأخروي .

فالسير العام للسورة يفصّل قوله تعالى من سورة البقرة : ﴿**إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لايؤمنون * ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم**﴾ .

والسورة تبين لنا نوعية هؤلاء الكافرين الذين لاينفعهم الإنذار ، وهم الذين يجادلون في آيات الله ، تكذيباً وعناداً مع وضوحها . ونلاحظ أن السورة مع تبيانها عدام استفادة الكافرين من الإنذار فإن الله عز وجل يأمر رسول الله ﷺ بالإنذار ، لأن الكافرين الذين حكم الله عليهم بالموت على الكفر لايعلمهم إلا الله ، ومن أعلمه الله بشأنهم ، وإذ كان الأمر غيباً فإن على الرسول الإنذار ، ثم إنه مع كفر الكافرين لابد من إقامة الحجة عليهم ، هذا مع ملاحظة أن الكافرين الذين ختم الله على قلوبهم هم الذين اجتمعت بهم صفات معينة استكملوا بها صفات لم يعد ينفع معها إنذار . وقد رأينا في سورة الأنبياء هذه الصفات . وسنرى في هذه السورة كذلك هذه الصفات ،ولاحتمال أن هناك كافراً لم يصل إلى هذا الحد فإن على الرسول ﷺ الإنذار لعلّ أحداً يهتدي .

— — — — — — — —

ونلاحظ أنه بعد ماقال الله عز وجل ﴿**أو لم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا أشد منهم قوة وآثاراً في الأرض فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق * ذلك بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فكفروا فأخذهم الله إنه قويّ شديد العقاب**﴾ يقصُّ علينا الله عز وجل قصة من قصص السابقين كيف كانوا أشدّ قوة وآثاراً ، وكيف كذّبوا رسل الله ، وكيف كانت عاقبتهم ، وكيف كان عقابهم شديداً ، هذه القصة هي قصة فرعون ، وذكر قصة فرعون في هذا السياق له دلالته ، إذ الفراعنة كانوا أشدّ قوة وآثاراً في الأرض ، كما هو مشهور . وسنرى أنّ القصة تخدم سياق السورة بأكثر من وجه .

☆ ☆ ☆

تفسير المجموعة الثانية من الفقرة الأولى

﴿ **ولقد أرسلنا موسى بآياتنا** ﴾ أي: المعجزات التسع ﴿ **وسلطان مبين** ﴾ أي وحجة ظاهرة، فاجتمع له المعجزة والحجة القولية ﴿ **إلى فرعون** ﴾ ملك مصر ﴿ **وهامان** ﴾ وهو وزيره في مملكته ﴿ **وقارون** ﴾ وهو من بني إسرائيل، وكان أكثر الناس في زمانه مالاً وتجارة. وقد مرَّت قصته في سورة القصص ﴿ **فقالوا** ﴾ عن موسى هو ﴿ **ساحر كذّاب** ﴾ فسمّوا المعجزات سحراً، والحجة الواضحة كذباً. أي: كذّبوه وجعلوه ساحراً مجنوناً مموّهاً كذّاباً في أنّ الله أرسله ﴿ **فلمّا جاءهم بالحق من عندنا** ﴾ أي: بالبرهان القاطع الدّال على أنّ الله عز وجل أرسله إليهم ﴿ **قالوا اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه واستحيوا نساءهم** ﴾ أي: أعيدوا عليهم قتل الذكور الذي كان أولاً، واستحياء الإناث للخدمة. قال ابن كثير: (وهذا أمر ثان من فرعون بقتل ذكور بني إسرائيل، أما الأول فكان لأجل الاحتراز من وجود موسى، أو لإذلال هذا الشعب وتقليل عددهم، أو لمجموع الأمرين، وأما الأمر الثاني فللعلة الثانية، ولإهانة هذا الشعب، ولكي يتشاءموا بموسى عليه السلام؛ ولهذا قالوا ﴿ **أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ماجئتنا قال عسى ربكم أن يهلك عدوّكم ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون** ﴾ (سورة الأعراف : ١٢٩). قال قتادة هذا أمر بعد أمر). ومن القائل هذه المرة، هل هو فرعون وحده، أو اشترك معه هامان وقارون؟ الملاحظ أن القرآن عبّر بصيغة (قالوا) وهذا يشير إلى تواطؤ الثلاثة على القتل. وسنتحدث في الفوائد عن قارون وهامان. فلنسر الآن في التفسير قال تعالى عن كيدهم في قتل الأولاد واستحياء الذرية ﴿ **وماكيد الكافرين إلا في ضلال** ﴾ أي: في ضياع يعني أنهم باشروا قتلهم أولاً، فما أغنى عنهم، ونفذ قضاء الله بإظهار من خافوه، فما يغني عنهم هذا القتل الثاني؟! وكان فرعون قد كفّ عن قتل الولدان. فلمّا بعث موسى عليه السلام، وأحسّ بأنه قد وقع، أعاده عليهم غيظاً وظناً منه أنّه يصدّهم بذلك عن مظاهرة موسى عليه السلام، وماعلم أنّ كيده ضائع في الكرّتين جميعاً ﴿ **وقال فرعون** ﴾ لملئه ﴿ **ذروني أقتل موسى** ﴾ أي: دعوني حتى أقتل موسى. قال ابن كثير: وهذا عزم من فرعون لعنه الله تعالى على قتل موسى عليه الصلاة والسلام ﴿ **وليدعُ ربه** ﴾ قال ابن كثير: أي لاأبالي منه، وهذا في غاية الجهل والتجهرم والعناد ﴿ **إني أخاف أنّ يبدل دينكم** ﴾ أي أن يغيّر ماأنتم عليه ﴿ **أو أن يظهر** ﴾

موسى ﴿ **في الأرض الفساد** ﴾ أي التقاتل والتهايج والفوضى ، بحيث يذهب معه الأمن ، وتتعطّل المزارع والمكاسب والمعايش ، ويهلك الناس قتلاً وضياعاً ، كأنه قال : إني أخاف أن يفسد عليكم دينكم بدعوتكم إلى دينه ، أو يفسد عليكم دنياكم ، بما يظهر من الفتن بسببه قال ابن كثير : يخشى فرعون أن يضل موسى الناس ويغيِّر رسومهم وعاداتهم . وهذا كما يقال في المثل : صار فرعون مذكّراً يعني واعظاً يشفق على الناس من موسى عليه السلام . ﴿ **وقال موسى** ﴾ لمّا بلغه قول فرعون : ﴿ **إني عُذْت بربي وربكم** ﴾ أي استجرت بالله وعذت به ﴿ **من كل متكبِّر** ﴾ عن الحق مجرم ﴿ **لا يؤمن بيوم الحساب** ﴾ لأنه إذا اجتمع في الرجل التكبُّر ، والتكذيب بالجزاء ، وقلة المبالاة بالعاقبة ، فقد استكمل أسباب القسوة والجراءة على الله وعلى عباده ، ولم يترك عظيمة إلا ارتكبها ، وأراد موسى بالتكبِّر الاستكبار عن الإذعان للحق ، وهو أقبح استكبار ، وأدل على دناءة صاحبه ، وعلى فرط ظلمه . وفي قول موسى ﴿ **وربكم** ﴾ بعث لهم على أن يقتدوا به فيعوذ بالله عياذه ، ويعتصموا بالتوكل عليه اعتصامه .

— — — — — — — —

فــوائد :

١ - يلاحظ أن قارون ورد ذكره هنا على أنه من الذين شاركوا في تعذيب بني إسرائيل ، فهل هو نفس قارون الذي ورد في سورة القصص ؟ وإذا كان هو فهل يعني هذا أنه كان خائناً لقومه باغياً عليهم ؟ الظاهر نعم ؛ لقوله تعالى في سورة القصص : ﴿ **إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم** ﴾ وهل هو قورح المذكور في التوراة الحالية على أنه خسف به الأرض أو هو غيره ؟ يلاحظ أن أسفار موسى تذكر أن هذا الخسف حدث بعد خروج بني إسرائيل من مصر ، ويلاحظ أن بحيرة في مصر بجانب بلدة الفيوم تسمى بحيرة قارون . فإذا كانت هذه البحيرة هي مكان الخسف بقارون ، وإذا كانت رواية التوراة صحيحة . فمعنى هذا أن قارون غير قورح ، فهما حادثتان منفصلتان ، وقد تكون الحادثة واحدة إذا كان قارون هو قورح ، والخطأ إما في رواية التوراة الحالية ، أو في رواية الناس .

٢ - في سفر أستير من كتب العهد القديم حديث عن هامان وزير الملك أحشويروش في زمن سبي بابل ، وأنه كاد لبني اسرائيل في زمن المحنة هذه ، فهل هامان وزير فرعون

موسى هو هذا نفسه . ونسّاخ بني إسرائيل الكذبة حرّفوا القصة وجعلوا هامان وزير هذا بدل فرعون ، أو أن هناك تشابهاً في الاسم والعمل بين وزير فرعون ووزير أحشويروش ؟ أو أنهم أطلقوا على وزير أحشويروش اسم ذاك تشبيها له به ؟ أعلم بحقيقة الأمر .

٣ - بمناسبة قول موسى : ﴿ **إني عذت بربي وربكم** ﴾ قال ابن كثير : ولهذا جاء في الحديث (عن أبي موسى رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان إذا خاف قوما قال « اللهم إنا نعوذ بك من شرورهم وندرأ بك في نحورهم ») .

كلمة في السياق :

إنّ قصة موسى عليه السلام في سياق هذه السورة تعرض لنا قصة كفرة يجادلون في آيات الله ، ولا ينفع معهم الإنذار ، ويكذّبون الرسل ، فيعاقبون في الدنيا والآخرة ، والآيات التي مرت معنا أرتنا من طبيعة هؤلاء الكافرين اتهامهم موسى رسول الله ﷺ بالسحر والكذب ، ومحاولتهم إيذاء قوم موسى ، ومحاولتهم قتل موسى ، واتهامهم موسى بالإفساد في الأرض ، وتغيير النظام ، واتصافهم بالكبر والكفر باليوم الآخر ، وفي هذا دروس كثيرة في فقه الدعوة ، سواء للنذير ، أو لأهل الإيمان ، أو في معرفة مواقف الكافرين من المؤمنين ، ومن أهم ما ينبغي أن نعرفه مما له علاقة بسياق السورة العام : أن الكبر والكفر باليوم الآخر هما أفظع وأسوأ الأخلاق ، وعنهما ينبع كل شر ، وبوجودهما لا ينفع الإنذار . وبعد أن أرانا الله عز وجل في المجموعة السابقة موقف الكافرين من نذارة موسى ، ورغبتهم في قتله . يعرض علينا بعد ذلك كيف قام رجل من آل فرعون يدافع عن موسى ويعظ قومه وكيف كان موقفهم منه :

تفسير المجموعة الثالثة من الفقرة الأولى

﴿ **وقال رجل مؤمن من آل فرعون** ﴾ قال ابن كثير : المشهور أن هذا الرجل المؤمن كان قبطياً من آل فرعون ﴿ **يكتم إيمانه** ﴾ أي آمن بموسى سرّاً ﴿ **أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله** ﴾ أي : أترتكبون الفعلة الشنعاء التي هي قتل نفس محرّمة ، ومالكم علة في ارتكابها إلا كلمة الحق ، وهي قوله : ربي الله ، وهو ربكم أيضاً لا ربه وحده ﴿ **وقد جاءكم بالبينات من ربكم** ﴾ يعني أنه ليس له بينة واحدة فقط ، بل له بيّنات

من الله ، وقد جاءكم بها ﴿ **وإن يك كاذباً فعليه** ﴾ وبال ﴿ **كذبه** ﴾ لا يتخطّاه إلى غيره ﴿ **وإن يك صادقاً يصبكم بعض الذي يعدكم** ﴾ أي من العذاب ، ولم يقل : كل الذي يعدكم مع أنّه وعد من نبي صادق القول ؛ مداراة لهم ، فجاء بما هو أقرب إلى تسليمهم قال ابن كثير في تفسير قول مؤمن آل فرعون هذا : (يعني إذا لم يظهر لكم صحة ماجاءكم به فمن العقل والرأي التام والحزم أن تتركوه ونفسه فلا تؤذوه ، فإن يك كاذباً فإن الله سبحانه وتعالى سيجازيه على كذبه بالعقوبة في الدنيا والآخرة ، وإن يك صادقاً وقد آذيتموه يصبكم بعض الذي يعدكم ، فإنه يتوعّدكم إن خالفتموه بعذاب في الدنيا والآخرة ، فمن الجائز عندكم أن يكون صادقاً ، فينبغي على هذا أن لا تتعرضوا له ، بل اتركوه وقومه يدعوهم ويتبعونه) . ﴿ **إن الله لا يهدي من هو مسرف** ﴾ أي : مجاوز للحد ﴿ **كذّاب** ﴾ في ادّعائه ، وهذا أيضاً من باب المجاملة . والمعنى أنه إن كان مسرفاً كذّاباً خذله الله وأهلكه فتخلصون منه ، أو لو كان مسرفاً كذّاباً لما هداه الله بالنبوة ، ولما عضده بالبينات . وقال النسفي : وقيل : أَوْهم أنّه عنى بالمسرف موسى وهو يعني به فرعون . وقال ابن كثير : (أي لو كان هذا الذي يزعم أن الله تعالى أرسله إليكم كاذباً كما تزعمون لكان أمره بيّناً يظهر لكل أحد في أقواله وأفعاله ، فكانت تكون في غاية الاختلاف والاضطراب ، وهذا نرى أمره سديداً ومنهجه مستقيماً ، ولو كان من المسرفين الكذابين لما هداه الله وأرشده إلى ماترون من انتظام أمره وفعله) . ﴿ **ياقوم لكم الملك اليوم ظاهرين** ﴾ أي : عالين ﴿ **في الأرض** ﴾ أي : بأرض مصر ، أو الأرض كلها بانتشار نفوذهم ، وانتشار سمعتهم . قال ابن كثير : (أي : قد أنعم الله عليكم بهذا الملك والظهور في الأرض ، بالكلمة النافذة والجاه العريض ، فراعوا هذه النعمة بشكر الله تعالى ، وتصديق رسوله ﷺ ، واحذروا نقمة الله إن كذبتم رسوله ﴿ **فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا** ﴾ أي : لا تغني عنكم هذه الجنود وهذه العساكر ولا ترد عنا شيئاً من بأس الله إن أرادنا بسوء) . يعني أن لكم ملك مصر ، وقد علوتم الناس وقهرتموهم ، فلا تفسدوا أمركم على أنفسكم ، ولا تتعرَّضوا لبأس الله أي عذابه ، فإنه لا طاقة لكم به إن جاءكم ، ولا يمنعكم منه أحد ﴿ **قال فرعون** ﴾ لقومه راداً على هذا الرجل الصالح ﴿ **ما أريكم إلا ما أرى** ﴾ أي ما أشير عليكم برأي إلا بما أرى من قتله ، يعني : لا أستصوب إلا قتله ، وهذا الذي تقولونه غير صواب ﴿ **وما أهديكم** ﴾ بهذا الرأي ﴿ **إلا سبيل الرشاد** ﴾ أي طريق الصواب والصلاح ، أو ما أعلمكم إلا ما أعلم من الصواب ولا ادّخر منه شيئاً ، ولا أسرّ

عنكم خلاف ما أظهر ، يعني : أن لسانه وقلبه متواطئان على ما يقول ، فلعنه الله ما أكثر ضلاله ، إذ يرى أن في قتل موسى رشاداً ﴿ **وقال الذي آمن** ﴾ متابعاً دفاعه عن موسى عليه السلام ومحاوراً ﴿ **ياقوم إني أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب** ﴾ أي: مثل أيام الذين كذّبوا رسل الله في قديم الدهر . كقوم نوح وعاد وثمود ، والذين من بعدهم من الأمم المكذبة ، كيف حلّ بهم بأس الله ، ومارده عنهم رادّ ، ولا صدّه عنهم صادّ ، ومن ثم قال : ﴿ **مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم** ﴾ أي مثل جزاء دأب هؤلاء ، ودأب هؤلاء دؤوبهم في عملهم من الكفر والتكذيب وسائر المعاصي وديمومتهم عليه لا يفترون فيه ﴿ **وما الله يريد ظلماً للعباد** ﴾ أي وما يريد الله أن يظلم عباده فيعذّبهم بغير ذنب ، أو يزيد على قدر ما يستحقون من العذاب يعني : أنّ تدميرهم كان عدلاً ، لأنّهم استحقوه بأعمالهم ، ثمّ تابع تذكيره ووعظه وتحذيره دفاعاً عن موسى عليه السلام ، محذّراً إيّاهم من عذاب الآخرة بعد أن خوّفهم عذاب الدنيا ﴿ **وياقوم إني أخاف عليكم يوم التّناد** ﴾ أي يوم القيامة ، وسمّي بذلك لأن أصحاب النار ينادون أصحاب الجنة ، وأصحاب الجنة ينادون أصحاب النار ، كما ذكر في سورة الأعراف ، وقيل غير ذلك كما سنذكره في الفوائد ﴿ **يوم تولون مدبرين** ﴾ أي منصرفين عن موقف الحساب إلى النار ﴿ **ما لكم من الله من عاصم** ﴾ أي لا مانع يمنعكم من بأس الله وعذابه ﴿ **ومن يضلل الله فماله من هاد** ﴾ أي من مرشد ﴿ **ولقد جاءكم يوسف** ﴾ بن يعقوب ﴿ **من قبل بالبيّنات** ﴾ أي بالمعجزات ، أي جاء أهل مصر قبل موسى عليه السلام ﴿ **فمازلتم في شك مما جاءكم به** ﴾ أي فشككتم فيها ولم تزالوا شاكّين ﴿ **حتى إذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسولاً** ﴾ وذلك لكفرهم وتكذيبهم حكموا هذا الحكم من عند أنفسهم من غير برهان ، أي : أقمتم على كفركم ، وظننتم أنّه لا يجدّد الله عليكم إقامة الحجة ﴿ **كذلك** ﴾ أي : مثل هذا الإضلال ﴿ **يضل الله من هو مسرف مرتاب** ﴾ أي : مسرف في عصيانه ، مرتاب : أي : شاك في دينه . قال ابن كثير : أي : كحالكم هذا يكون حال من يضله الله لإسرافه في أفعاله ، وارتياب قلبه . ثمّ بيّن مَنْ هؤلاء المسرفون المرتابون ؟، وماهي صفاتهم فقال : ﴿ **الذين يجادلون في آيات الله** ﴾ دفعاً لها وإبطالاً ﴿ **بغير سلطان أتاهم** ﴾ أي : بغير حجة جاءتهم من الله . قال ابن كثير : أي : الذين يدفعون الحق بالباطل ، ويجادلون الحجج بغير دليل وحجة معهم من الله تعالى . فإن الله عز وجل يمقت على ذلك أشد المقت . ولهذا قال تعالى : ﴿ **كبر مقتاً** ﴾ أي : عظم بغضاً جدال الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم ﴿ **عند الله**

وعند الذين آمنوا ﴾ فالله يبغضهم أشد البغض ، والمؤمنون أيضاً يبغضون من تكون هذه صفته ﴿ **كذلك** ﴾ أي : مثل هذا الطبع ﴿ **يطبع الله على كل قلب متكبِّر** ﴾ على الحق ﴿ **جَبَّار** ﴾ على خلق الله ، وإنما وصف القلب بالتكبر والتجبر لأنه منبعهما . وقد بيّنت الآية أنّ الطبع على القلب إنّما يستحقّه من اتّصف بالكبرياء والجبروت ، ويبدو أنّه على أثر هذا الدفاع الحارّ عن موسى عليه السلام ، وعلى أثر هذا الوعظ الشديد ، أقلع فرعون عن قتل موسى ، فخاطب وزيره من أجل أن يبني له صرحاً يطّلع إلى إله موسى عليه السلام ، وبذلك أشعر بصرف النظر ، وأراد أن يغطي ذلك بهذا الطلب دون أن يعترف أنه كان مخطئاً في تفكيره في قتل موسى عليه السلام ، ودون أن يعلن انصرافه عن هذا القتل ﴿ **وقال فرعون** ﴾ جهلاً ، أو تمويهاً ، أو تغطية ، أو انصرافاً عما كان فيه ، أو إنهاءً لكلام مؤمن آل فرعون ﴿ **ياهامان ابن لي صرحاً** ﴾ أي : قصراً عالياً منيفاً شاهقاً . قال النسفي : وقيل الصرح : البناء الظاهر الذي لا يخفى على الناظر وإن بعد ﴿ **لعلّي أبلغ الأسباب * أسباب السموٰات** ﴾ أي : طرقها وأبوابها ، ومايؤدي إليها ، إذ كل ماأدّاك إلى شيء فهو سبب ﴿ **فأطّلع إلى إله موسى** ﴾ أي : فأنظر إليه ﴿ **وإني لأظنُّه** ﴾ أي : موسى عليه السلام ﴿ **كاذباً** ﴾ في قوله له إله غيري ، أو في وجود إله غيري ﴿ **وكذلك** ﴾ أي : ومثل ذلك التزيين وذلك الصدّ ﴿ **زُيِّن لفرعون سوء عمله وصُدَّ عن السبيل** ﴾ المستقيم ﴿ **وما كيد فرعون إلا في تباب** ﴾ أي : في خسران وهلاك .

كلمة في السياق :

١ - يلاحظ أنه ورد في أول السورة قوله تعالى : ﴿ **مايجادل في آيات الله إلا الذين كفروا فلا يغررك تقلبهم في البلاد** ﴾ وأنه ورد على لسان مؤمن آل فرعون هنا قوله : ﴿ **الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم كبر مقتاً عند الله وعند الذين آمنوا كذلك يطبع الله على كل قلب متكبرّ جبار** ﴾ وفي ذلك دليل على أن قصة موسى عليه السلام وماورد فيها تمثيل واقعي للمعاني التي ذكرت من قبل في السورة ، كما أن في الآية دليلاً على أنّ علامة الطبع على القلب الجدال في آيات الله . وبإدراكنا لهذه القضية ندرك مفتاح السورة ، ونعرف محورها ﴿ **إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لايؤمنون * ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم** ﴾ فالختم على القلب سببه الجدال في آيات الله ، وهي علامته . ومن ثم فإن

السورة عندما بدأت في الكلام عن الجدال في آيات الله إنّما كانت تفصّل قوله تعالى : ﴿ **إن الذين كفروا ...** ﴾ من سورة البقرة .

٢ - ورد في كلام مؤمن آل فرعون هذان القولان : ﴿ **إن الله لا يهدي من هو مسرف كذّاب** ﴾ ﴿ **إن الله لا يهدي من هو مسرف مرتاب * الذين يجادلون في آيات الله ...** ﴾ . وهذا يدل على أن الله عز وجل إذا حكم على إنسان بالكفر ، وختم على قلبه فما ذلك إلا لاتّصافه بصفات : منها الإسراف ، ومنها الكذب ، ومنها الارتياب الذي يرافقه جدال في آيات الله بغير حق ، وردٌّ لها ودفع ، أما إذا كان ريب يرافقه رغبة في الإيمان ، وتسليم للحجة ، فهذا يرجى من صاحبه خير .

٣ - إذا اعتبرنا كلام مؤمن آل فرعون تفصيلاً لمحور السورة ﴿ **إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون** ﴾ فإننا ندرك ههنا قضية مهمة : وهي أنّه إذا كان الإنذار لأمثال هؤلاء الكافرين لا ينفعهم ، بحيث يؤمنون ، فإن الكلام معهم قد يفيد في شيء آخر ؛ فإننا لاحظنا أن كلام مؤمن آل فرعون أثّر في صرف فرعون عن قتل موسى عليه السلام ، ومن ثم فلابد من إنذار ، فإنه إنّ لم ينفع في تحقيق قضية الإيمان ، فإنه ينفع في شؤون أخرى ، فلا يقولن إنسان لا ينفع الإنذار أبداً ، فليس هناك طاغية كفرعون ، ومع ذلك تزحزح عن موقف من مواقفه بسبب الإنذار البليغ .

٤ - نلاحظ أنه في أول السورة وعظ الله الكافرين بقوله : ﴿ **كذبت قبلهم قوم نوح والأحزاب من بعدهم وهمّت كل أمّة برسولهم ليأخذوه ..** ﴾ ونلاحظ أن مؤمن آل فرعون وعظ قومه بهذا : ﴿ **يا قوم إني أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب * مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود ...** ﴾ فالله عز وجل يعظ هذه الأمة من خلال الخطاب المباشر ، ومن خلال العرض ، ومن خلال القصة .

ومن كل ما ذكرناه ندرك أنّ السورة تسير في اتجاه واحد ، وتؤلف وحدة متكاملة ومحوراً محدداً .

وقبل أن ننتقل إلى الجولة الثانية من كلام مؤمن آل فرعون . فلننقل بعض الفوائد .

فـوائد :

١ - بمناسبة الكلام عن مؤمن آل فرعون . قال ابن كثير : (قال ابن جرير عن ابن

عباس رضي الله عنهما لم يؤمن من آل فرعون سوى هذا الرجل ، وامرأة فرعون والذي قال ﴿ **يا موسى إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك** ﴾ (سورة القصص : ٢٠) رواه ابن أبي حاتم ، وقد كان هذا الرجل يكتم إيمانه عن قومه القبط فلم يظهر إلا هذا اليوم حين قال فرعون ﴿ **ذروني أقتل موسى** ﴾ فأخذت الرجل غضبة لله عز وجل . وأفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر كما ثبت بذلك الحديث ، ولا أعظم من هذه الكلمة عند فرعون وهي قوله ﴿ **أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله** ﴾ اللهم إلا مارواه البخاري في صحيحه عن عروة بن الزبير رضي الله تعالى عنهما قال : قلت لعبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أخبرني بأشد شيء صنعه المشركون برسول الله ﷺ قال : بينا رسول الله ﷺ يصلي بفناء الكعبة إذ أقبل عقبة بن أبي معيط ، فأخذ بمنكب رسول الله ﷺ ، ولوى ثوبه في عنقه ، فخنقه خنقاً شديداً فأقبل أبو بكر رضي الله عنه ، فأخذ بمنكبه ، ودفعه عن النبي ﷺ ثم قال : ﴿ **أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم** ؟ ﴾ انفرد به البخاري وروى ابن أبي حاتم عن عمرو بن العاص رضي الله عنه أنه سئل ما أشد ما رأيت قريشاً بلغوا من رسول الله ﷺ ؟ قال : مَرّ ﷺ بهم ذات يوم فقالوا له : أنت تنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا ؟ فقال « أنا ذاك » فقاموا إليه فأخذوا بمجامع ثيابه ، فرأيت أبا بكر رضي الله عنه محتضنه من ورائه وهو يصيح بأعلى صوته ، وإن عينيه ليسيلان وهو يقول ياقوم ﴿ **أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم** ﴾ حتى فرغ من الآية كلها وهكذا رواه النسائي من حديث عبدة فجعله من مسند عمرو بن العاص رضي الله عنه) .

٢ - ذكرنا أن في سبب تسمية يوم القيامة يوم التناد أقوالاً متعددة وقد عرض ابن كثير الأقوال الواردة في ذلك . قال : (وسمي بذلك قال بعضهم : لما جاء في حديث الصور إن الأرض إذا زلزلت وانشقت من قطر إلى قطر ، وماجت وارتجت ، فنظر الناس إلى ذلك ، ذهبوا هاربين ، ينادي بعضهم بعضاً ، وقال آخرون منهم الضحاك : بل ذلك إذا جيء بجهنم ، ذهب الناس هراباً منها ، فتتلقاهم الملائكة فتردهم إلى مقام المحشر ، وهو قوله تعالى ﴿ **والملك على أرجائها** ﴾ (الحاقة : ١٧) وقوله ﴿ **يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان** ﴾ (الرحمن : ٣٣) وقد روي عن ابن عباس رضي الله عنه والحسن والضحاك أنهم قرأوا يوم التنادّ بتشديد الدال ، من ندّ البعير إذا تردى وذهب ، وقيل : لأن الميزان عنده ملك ، إذا وزن عمل العبد فرجح نادى بأعلى صوته : ألا قد سعد فلان

ابن فلان سعادة لايشقى بعدها أبداً ، وإن خفّ عمله نادى ألا قد شقي فلان بن فلان ، وقال قتادة : ينادى كل قوم بأعمالهم ، ينادي أهلُ الجنة أهلَ الجنة وأهلُ النار أهلَ النار ، وقيل سمي بذلك لمناداة أهل الجنة أهل النار ﴿ **أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً ؟ قالوا نعم** ﴾ (الأعراف : ٤٤) ومناداة أهل النار أهل الجنة ﴿ **أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله قالوا إن الله حرمهما على الكافرين** ﴾ (الأعراف : ٥٠) ولمناداة أصحاب الأعراف أهل الجنة وأهل النار كما هو مذكور في سورة الأعراف ، واختار البغوي وغيره أنه سمي بذلك لمجموع ذلك وهو قول حسن جيد والله أعلم) .

٣ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار** ﴾ روى ابن أبي حاتم عن عكرمة وحكى عن الشعبي أنهما قالا : لايكون الإنسان جباراً حتى يقتل نفسين ، وقال أبو عمران الجوني وقتادة : آية الجبابرة القتل بغير حق والله تعالى أعلم) .

أقول : ليس شرطاً حتى يعتبر الإنسان من الجبارين أن يقتل ، بل قد يكون جباراً لمجرد قسوته وظلمه بدليل الحديث : «لايزال الرّجل يذهب بنفسه حتى يكتب في الجبارين فيصيبه ما أصابهم» رواه الترمذي وقال حديث حسن قال النووي : (يذهب بنفسه) أي يرتفع ويتكبر ، فقد يكون الإنسان من الجبارين ولو لم يقتل بغير حق ، ولكن القتل بغير حق علامة من علامات الجبروت .

٤ - في مقدمة كتابنا (الله جل جلاله) ذكرنا أن الطريق إلى الله آياته ، وذكرنا أن كثيرين- خلال العصور السابقة وفي عصرنا - يطلبون الوصول إلى الله عن طريق الحسّ . واستشهدنا - من جملة ما استشهدنا على ذلك - بموقف فرعون إذ يقول لهامان ﴿ **ابن لي صرحا لعلي أبلغ الأسباب * أسباب السمٰوات فأطّلع إلى إله موسى** ﴾ وذكرنا أن الطريق إلى الله ليس هذا ، مستشهدين بأدلة العقل والنقل ، ومن جملة مااستشهدنا عليه من أدلة النقل قول الله عز وجل في هذا المقام : ﴿ **وكذلك زُيِّن لفرعون سوءُ عمله وصُدَّ عن السبيل** ﴾ فالسبيل إلى الله ليس ما تصوره فرعون .

٥ - نلاحظ أنه في أول قصة موسى عليه السلام ههنا ورد قوله تعالى : ﴿ **وما كيد الكافرين إلا في ضلال** ﴾ وفي نهاية المجموعة الأخيرة ورد قوله تعالى : ﴿ **وما كيد فرعون إلا في تباب** ﴾ وهذه بشارة لأهل الإيمان أن يطمئنوا إلى العاقبة ، وأن يعرفوا أن

أعداء الله ليسوا على شيء مهما علا سلطانهم وامتد بغيهم ، هذا في الدنيا ، وما عند الله أشد . وفي الحديث : « ما من إمام يموت - يوم يموت - وهو غاش لرعيته إلا لم يرح رائحة الجنة ، وإن ريحها ليوجد من مسيرة خمسمائة عام » ولننتقل إلى الجولة الثانية في قصة مؤمن آل فرعون وهي المجموعة الرابعة من الفقرة الأولى في المقطع ..

تفسير المجموعة الرابعة من الفقرة الأولى

﴿ **وقال الذي آمن يا قوم اتّبعون أهدكم سبيل الرشاد** ﴾ لا كما كذب فرعون عندما قال : ﴿ **وما أهديكم إلا سبيل الرشاد** ﴾ . والرشاد هو : نقيض الغي : وفي قول مؤمن آل فرعون تعريض شبيه بالتصريح ، أن ما عليه فرعون وقومه سبيل الغيّ . وبعد أن أجمل في دعوته فسّر ، فافتتح بذم الدنيا فزهّدهم فيها ، وهي التي قد آثروها على الأخرى ، وصدّتهم عن التصديق برسول الله موسى عليه السلام ، وفي ذلك إشارة إلى أن بداية الرشاد وطريقه هو الزهد في الدنيا ﴿ **يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع** ﴾ أي قليلة زائلة فانية عن قريب تذهب وتضمحل ، والمتاع هو ما فيه تمتيع يسير ، فالإخلاد إلى الدنيا أصل الشر ، ومنبع الفتن . وبعد أن حقّر الدنيا ثنى بتعظيم الآخرة ، وبيّن أنّها هي الوطن والمستقر فقال : ﴿ **وإنّ الآخرة هي دار القرار** ﴾ أي : الدار التي لا زوال لها ، ولا انتقال منها ، ولا ظعن عنها إلى غيرها ، بل إما نعيم وإما جحيم . ومن ثم عقّب بذكر الأعمال سيئها وحسنها ، وعاقبة كل منها ، ليثبّط عما يتلف ، وينشّط لما يزلف فقال : ﴿ **مَنْ عمل سيئة فلا يُجزى إلا مثلها ومن عمل صالحاً مَن ذكر أو أنثى وهو مؤمن** ﴾ هذا هو الشرط ﴿ **فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب** ﴾ أي لا يتقدّر بجزاء بل يثيبه الله عز وجل ثواباً كثيراً لا انقضاء له ولا نفاد . ثم وازن بين الدعوتين : دعوته إلى دين الله الذي ثمرته الجنات ، ودعوتهم إلى اتخاذ الأنداد الذي عاقبته النار . فقال : ﴿ **ويا قوم مالي أدعوكم إلى النجاة** ﴾ وهي عبادة الله وحده لا شريك له وتصديق رسوله ﷺ الذي بعثه والتي مآلها الجنة ﴿ **وتدعونني إلى النار** ﴾ ثم بيّن ما يدعونه إليه ﴿ **تدعونني لأكفر بالله** ﴾ أي : أجحده ﴿ **وأشرك به ما ليس لي به علم** ﴾ أي : ما ليس لي بربوبيته وألوهيته علم ، أي : ما لا يقوم الدليل والبرهان على صحة ألوهيته وربوبيته ﴿ **وأنا أدعوكم إلى العزيز** ﴾ الذي لا أعظم من عزته ، والذي هو مع عزته ﴿ **الغفّار** ﴾ يغفر ذنب من تاب إليه ﴿ **لا جَرَم** ﴾ أي : حقاً أو لا كذب

﴿ **أن ماتدعونني إليه** ﴾ من الأصنام والأنداد ﴿ **ليس له دعوة في الدنيا ولا في الآخرة** ﴾ أي: هو لا يدعو إلى عبادة نفسه، لا في الدنيا ولا في الآخرة فكيف تعبدونه ؟! أوْ ليس له استجابة دعوة في الدنيا ولافي الآخرة، فكيف تدعون من لا يستطيع استجابة دعاء من دعاه ﴿ **وأنَّ مَردّنا إلى الله** ﴾ أي: وإن رجوعنا إليه في الدار الآخرة، فيجازي كلّاً بعمله ﴿**وأن المسرفين هم أصحاب النار**﴾ أي: خالدين فيها بإسرافهم، وهو شركهم بالله عز وجل ﴿ **فستذكرون ما أقول لكم** ﴾ أي: من النصيحة عند نزول العذاب. أي: سوف تعلمون صدق ماأمرتكم به، ونهيتكم عنه، ونصحتكم ووضحت لكم، وتتذكرونه وتندمون حيث لا ينفعكم الندم ﴿ **وأفوِّض أمري إلى الله** ﴾ أي: وأتوكل على الله وأستعينه، وأقاطعكم وأباعدكم، أو وأسلّم أمري إلى الله ﴿ **إن الله بصير بالعباد** ﴾ أي: بأعمالهم ومآلهم. أي: هو بصير بهم تعالى وتقدّس، فيهدي من يستحق الهداية، ويضلّ من يستحقّ الإضلال، وله الحجة البالغة، والحكمة التامّة، والقدر النافذ ﴿ **فوقاه الله سيئات ما مكروا** ﴾ أي: شدائد مكرهم، وما همّوا به من إلحاق أنواع العذاب بمن خالفهم، دلّ ذلك على أنّهم أرادوا الإيقاع به، ولكنّ الله نجاه ﴿ **وحاق** ﴾ أي: ونزل ﴿ **بآل فرعون سوء العذاب** ﴾ وهو الغرق في اليمّ، ثم النقلة منه إلى الجحيم، فإن أرواحهم تعرض على النار صباحاً ومساءً إلى قيام الساعة. فإذا كان يوم القيامة اجتمعت أرواحهم وأجسادهم في النار، ولهذا قال: ﴿ **النار يعرضون عليها غدواً وعشياً** ﴾ أي: في هذين الوقتين يعذّبون في النار، وفيما بين ذلك، إما أن يعذبوا بجنس آخر، أو ينفّس عنهم، ويجوز أن يكون المراد بذلك الدوام. وهذه الآية دليل على عذاب القبر. قال ابن كثير: وهذه الآية أصل كبير في استدلال أهل السنة على عذاب البرزخ في القبور ﴿ **ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب** ﴾ أي: أشدّه ألماً وأعظمه نكالاً.

....

كلمة في السياق :

نلاحظ أن الله عز وجل عقّب على إنذار مؤمن آل فرعون بقوله: ﴿ **فوقاه الله سيئات ما مكروا وحاق بآل فرعون سوءُ العذاب** ﴾ وهذا يدل على أنّهم لم ينتفعوا بإنذاره، ولذلك صلته بمحور السورة. من سورة البقرة: ﴿ **إن الذين كفروا سواء**

عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لايؤمنون * ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم ﴾ وقد عرض الله عز وجل علينا نموذجاً من هذا العذاب العظيم في قوله : ﴿ **النار يُعرضون عليها غدوّاً وعشياً ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشدّ العذاب** ﴾ ولما كان آل فرعون أتباعاً ومتبوعين فإنّ الله عز وجل يقصّ علينا خصومة أهل النّار مع بعضهم . ثم يقصّ علينا حكمة تعذيبه الكافرين في الدنيا والآخرة . ثم يختم قصة موسى عليه السلام في السورة . فلنر ذلك ثم نعود إلى السياق .

....

تفسير المجموعة الخامسة من الفقرة الأولى

﴿ **وإذ يتحاجُون في النار** ﴾ أي: واذكر وقت تخاصمهم في النار ﴿ **فيقول الضعفاء** ﴾ يعني الأتباع ﴿ **للذين استكبروا** ﴾ يعني الرؤساء ﴿ **إنّا كُنّا لكم تبعاً** ﴾ أي: أتباعاً أطعناكم فيما دعوتمونا إليه في الدنيا من الكفر والضلال ﴿ **فهل أنتم مغْنُون** ﴾ أي: دافعون ﴿ **عَنَّا نصيباً** ﴾ أي: جزءاً ﴿ **من النار قال الذين استكبروا إنّا كلّ فيها** ﴾ أي: إنا كلنا فيها لا يغني أحد عن أحد ، أي: لا نتحمل عنكم شيئاً ، كفى بنا ماعندنا ، وماحمّلنا من العذاب والنكال ﴿ **إن الله قد حكم** ﴾ أي: قضى ﴿ **بين العباد** ﴾ أي: قسم بيننا العذاب بقدر مايستحقّه كل منّا ﴿ **وقال الذين في النار** ﴾ جميعاً ﴿ **لخزنة جهنم** ﴾ أي: للملائكة الموكّلين بعذاب أهل النار ﴿ **ادعوا ربكم يخفف عنّا يوماً** ﴾ أي: بقدر يومٍ من أيام الدنيا ﴿ **من العذاب** ﴾ لمّا علموا أنّ الله عز وجل لا يستجيب منهم ، ولايستمع لدعائهم ، سألوا الخزنة ــ وهم كالسجّانين لأهل النار ــ أن يدعوا لهم الله تعالى في أن يخفف عن الكافرين ولو بمقدار يومٍ واحد من العذاب ، فقالت لهم الخزنة رادّين عليهم ﴿ **قالوا أو لم تك تأتيكم رسلكم بالبينات** ﴾ أي : بالمعجزات والدلائل الواضحات ﴿ **قالوا** ﴾ أي : الكافرون ﴿ **بلى قالوا فادعوا** ﴾ أي : أنتم لأنفسكم ، فنحن لاندعو لكم ، ولانسمع منكم ، ولانودّ خلاصكم ، ونحن منكم براء ،ثمّ أخبروهم أنه سواء دَعَوْا أو لم يَدْعوا لا يستجاب لهم ، ولا يُخفف عنهم ؛ ولهذا قالوا ﴿ **ومادعاء الكافرين إلا في ضلال** ﴾ أي : إلا في ضياع وذهاب لايقبل ولايستجاب .

نقــل :

عند قوله تعالى : ﴿ **فيقول الضعفاء للذين استكبروا : إنّا كنّا لكم تبعاً . فهل أنتم مغنون عنّا نصيباً من النار ؟** ﴾ قال صاحب الظلال : (إن الضعفاء إذن في النار مع الذين استكبروا . لم يشفع لهم أنهم كانوا ذيولاً وإمَّعات ! ولم يخفف عنهم أنهم كانوا غنماً تساق ! لا رأي لهم ولا إرادة ولا اختيار !.

لقد منحهم الله الكرامة . كرامة الإنسانية . وكرامة التبعة الفردية . وكرامة الاختيار والحرية . ولكنهم هم تنازلوا عن هذا جميعاً . تنازلوا وانساقوا وراء الكبراء والطغاة والملأ والحاشية . لم يقولوا لهم : لا . بل لم يفكروا أن يقولوها . بل لم يفكروا أن يتدبروا ما يقولونه لهم وما يقودونهم إليه من ضلال .. ﴿ **إنا كنا لكم تبعاً** ﴾.. وما كان تنازلهم عما وهبهم الله واتباعهم الكبراء ليكون شفيعاً لهم عند الله . فهم في النار . ساقهم إليها قادتهم كما كانوا يسوقونهم في الحياة . سوق الشياه ! ثم هاهم أولاء يسألون كبراءهم : ﴿ **فهل أنتم مغنون عنا نصيباً من النار ؟** ﴾.. كما كانوا يوهمونهم في الأرض أنهم يقودونهم في طريق الرشاد ، وأنهم يحمونهم من الفساد ، وأنهم يمنعونهم من الشر والضر وكيد الأعداء !.

فأما الذين استكبروا فيضيقون صدراً بالذين استضعفوا ، ويجيبونهم في ضيق وبرم وملالة . وفي إقرار بعد الاستكبار ...

﴿ **قال الذين استكبروا : إنا كلٌّ فيها إن الله قد حكم بين العباد** ﴾ .

كلمة فى السياق :

ذكر الله عز وجل ثلاثة أنواع من العذاب يسلّطه على الكافرين به وبرسله : عذاب الدنيا ، وعذاب البرزخ في القبر ، وعذاب النار ، وبعد أن ذكر الله سبحانه أنواع العذاب هذه بيّن أنّ ذلك كله إنّما يفعله نصرة لرسله وللمؤمنين فقال :

﴿ **إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا** ﴾ كما نصر موسى ومؤمن آل فرعون بإغراق فرعون ﴿ **ويوم يقوم الأشهاد** ﴾ أي : يوم القيامة ﴿ **يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم** ﴾ أي : لا يقبل عذرهم ﴿ **ولهم اللعنة** ﴾ أي : البعد من رحمة الله ﴿ **ولهم سوء الدار** ﴾ أي : سوء دار الآخرة وهو عذابها ، وسمّي يوم القيامة بيوم الأشهاد ؛ لأن

الأنبياء يشهدون فيه ، والحفظة يشهدون ، فالأنبياء يشهدون عند رب العزة على الكفرة بالتكذيب ، والحفظة يشهدون على بني آدم بما عملوا من الأعمال .

كلمة في السياق :

بدأ الله عزّ وجلّ موسى عليه السلام بقوله ﴿ **ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين * إلى فرعون وهامان وقارون** ... ﴾ ثمّ قصّ علينا موقف الكافرين من موسى عليه السلام ودفاع مؤمن آل فرعون عن موسى ، ثم قصّ الله علينا أنواع العذاب الذي يعذّبها الله الكافرين ، انتصاراً لرسله وللمؤمنين ، ويختم الله عز وجل قصة موسى عليه السلام في هذه السورة بقوله:

﴿**ولقد آتينا موسى الهدى**﴾ يريد به جميع ماأتى به في باب الدين من المعجزات والتوراة والشرائع ﴿**وأورثنا بني إسرائيل الكتاب**﴾ أي: التوراة ﴿**هدى**﴾ أي: هداية ﴿ **وذكرى** ﴾ أي : تذكيراً ﴿ **لأولي الألباب** ﴾ أي : لأولي العقول .

كلمة في السياق :

بدأت قصة موسى عليه السلام بقوله تعالى : ﴿ **ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين**﴾ وختمت بقوله تعالى: ﴿**ولقد آتينا موسى الهدى وأورثنا بني إسرائيل الكتاب * هدى وذكر لأولي الألباب**﴾ فكأنه يشير إلى البداية والنهاية في حياة موسى عليه السلام : مرحلة الصراع مع فرعون ، ومرحلة النجاة ، وهداية بني إسرائيل ، ووراثتهم التوراة بعد ذلك وهي النعم الكبرى ، والنصر العظيم ، فالنّعمة الكبرى أن يكون الإنسان على الهدى ، والنّصر العظيم أن يوجد ورّاثٌ لدين الله ودعوته .

وبهذا تنتهي الفقرة الأولى من المقطع الوحيد بعد مقدمة السورة ، ويتوجّه الآن الخطاب لرسول الله ﷺ آمراً إياه بالصبر والاستغفار والتسبيح كما سنرى . وهذه بعض الفوائد المتعلّقة بالمجموعتين الأخيرتين .

— — — — — — — —

فوائد :

١ – بمناسبة قوله تعالى: ﴿**النار يعرضون عليها غدواً وعشياً**﴾ قال ابن كثير: (روى الإمام أحمد عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشي، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار، فيقال: هذا مقعدك حتى يبعثك الله عز وجل إلى يوم القيامة» أخرجاه في الصحيحين من حديث مالك به.

٢ – بمناسبة قوله تعالى: ﴿**إنّا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد**﴾ قال ابن كثير: (قد أورد أبو جعفر بن جرير رحمه الله تعالى عند قوله تعالى ﴿**إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا**﴾ سؤالاً فقال: قد علم أن بعض الأنبياء عليهم الصلاة والسلام قتله قومه بالكلية كيحيىٰ وزكريا وشعياء، ومنهم من خرج من بين أظهرهم، إما مهاجراً كإبراهيم، وإما إلى السماء كعيسى، فأين النصرة في الدنيا؟ ثم أجاب عن ذلك بجوابين «أحدهما» أن يكون الخبر خرج عامّاً، والمراد به البعض، قال: وهذا سائغ في اللغة «الثاني» أن يكون المراد بالنصر الانتصار لهم ممن آذاهم، وسواء كان ذلك بحضرتهم، أو في غيبتهم، أو بعد موتهم، كما فعل بقتلة يحييٰ وزكريا وشيعاء سلط عليهم من أعدائهم من أهانهم، وأذلوهم وأظهرهم الله تعالى عليهم، ثم قبل يوم القيامة سينزل عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام إماماً عادلاً، وحَكَماً مقسطاً، فيقتل المسيح الدجال وجنوده من اليهود، ويقتل الخنزير، ويكسر الصليب، ويضع الجزية، فلا يقبل إلا الإسلام، وهذه نصرة عظيمة، وهذه سنة الله تعالى في خلقه في قديم الدهر وحديثه، أن ينصر عباده المؤمنين في الدنيا، ويقر أعينهم ممن آذاهم. ففي صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «يقول الله تبارك وتعالى: من عادى لي ولياً فقد بارزني بالحرب» وفي الحديث الآخر: «إني لأثأر لأوليائي كما يثأر الليث الحرب» ولهذا أهلك الله عز وجل قوم نوح وعاد وثمود وأصحاب الرس وقوم لوط وأهل مدين وأشباههم وأضرابهم ممن كذب الرسل وخالف الحق. وأنجى الله تعالى من بينهم المؤمنين، فلم يهلك منهم أحداً، وعذب الكافرين فلم يفلت منهم أحداً. وقال السدي لم يبعث الله عز وجل رسولاً قط إلى قوم فيقتلونه، أو قوم من المؤمنين يدعون إلى الحق فيقتلون فيذهب ذلك القرن حتى يبعث الله تبارك وتعالى لهم من ينصرهم، فيطلب بدمائهم ممن فعل ذلك بهم في الدنيا،

قال فكانت الأنبياء والمؤمنون يقتلون في الدنيا وهم منصورون فيها ، وهكذا نصر الله نبيه محمداً ﷺ وأصحابه على من خالفه وناوأه وكذبه وعاداه ، فجعل كلمته هي العليا ، ودينه هو الظاهر على سائر الأديان ، وأمره بالهجرة من بين ظهراني قومه إلى المدينة النبوية ، وجعل له فيها أنصاراً وأعواناً ، ثم منحه أكتاف المشركين يوم بدر ، فنصره عليهم وخذلهم ، وقتل صناديدهم ، وأسر سراتهم فاستاقهم مقرّنين في الأصفاد ، ثم منّ عليه بأخذ الفداء منهم ، ثم بعد مدة قريبة فتح عليه مكة فقرّت عينه ببلده ـــ وهو البلد المحرم الحرام المشرف المعظم ـــ فأنقذه الله تعالى به مما كان فيه من الكفر والشرك ، وفتح له اليمن ، ودانت له جزيرة العرب بكمالها ، ودخل الناس في دين الله أفواجاً ، ثم قبضه الله تعالى إليه لما له عنده من الكرامة العظيمة ، فأقام الله تبارك وتعالى أصحابه خلفاء بعده ، فبلّغوا عنه دين الله عز وجل ، ودعوا عباد الله تعالى إلى الله جلّ وعلا ، وفتحوا البلاد والرساتيق ، والأقاليم والمدائن ، والقرى والقلوب ، حتى انتشرت الدعوة المحمدية في مشارق الأرض ومغاربها ، ﴿**إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد**﴾ أي : يوم القيامة تكون النصرة أعظم وأكبر وأجل) ..

أقول : الذي يظهر من السياق في السورة أنّ النّصرة التي وقعت لموسى عليه السلام ولمؤمن آل فرعون تظهر في أخذ فرعون وجنده في البحر ، وتسليط أنواع من العذاب الرباني عليهم ، ثم تعذيبهم في القبر ، ثم تعذيبهم يوم القيامة ، فهذه مظاهر النصرة لموسى عليه السلام ومن آمن به ، ومظاهر انتصار الله لرسله وللمؤمنين كثيرة فليستبشر المؤمنون ، فإنّ في قوله تعالى : ﴿**إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا**﴾ بشارة للمؤمنين إلى قيام الساعة بنصرة الله .

وبمناسبة قوله تعالى : ﴿**إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد * يوم لاينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار**﴾ قال صاحب الظلال :

فأما في الآخرة فقد لايجادل أحد من المؤمنين بالآخرة في هذه النهاية . ولا يجد مايدعوه إلى المجادلة . وأما النصر في الحياة الدنيا فقد يكون في حاجة إلى جلاء وبيان .

إن وعد الله قاطع جازم : ﴿ **إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا** ... ﴾ .. بينما يشاهد الناس أن الرسل منهم من يقتل ، ومنهم من يهاجر من أرضه وقومه مكذّباً مطروداً ، وأن المؤمنين فيهم من يُسَام العذاب ، وفيهم من يلقى في الأخدود ، وفيهم من

يستشهد ، وفيهم من يعيش في كرب وشدة واضطهاد .. فأين وعد الله لهم بالنصر في الحياة الدنيا؟ ويدخل الشيطان إلى النفوس من هذا المدخل، ويفعل بها الأفاعيل! .

ولكن الناس يقيسون بظواهر الأمور . ويغفلون عن قيم كثيرة وحقائق كثيرة في التقدير . إن الناس يقيسون بفترة قصيرة من الزمان ، وحيّز محدود من المكان . وهي مقاييس بشرية صغيرة . فأما المقياس الشامل فيعرض القضية في الرقعة الفسيحة من الزمان والمكان ، ولا يضع الحدود بين عصر وعصر ولا بين مكان ومكان . ولو نظرنا إلى قضية الاعتقاد والإيمان في هذا المجال لرأيناها تنتصر من غير شك . وانتصار قضية الاعتقاد هو انتصار أصحابها . فليس لأصحاب هذه القضية وجود ذاتي خارج وجودها . وأول مايطلبه منهم الإيمان أن يفنوا فيها ويختفوا هم ويبرزوها ! .

والناس كذلك يقصرون معنى النصر على صورة معينة معهودة لهم ، قريبة الرؤية لأعينهم . ولكن صور النصر شتى . وقد يلتبس بعضها بصور الهزيمة عند النظرة القصيرة . إبراهيم عليه السلام وهو يلقى في النار فلا يرجع عن عقيدته ولا عن الدعوة إليها .. أكان في موقف نصر أم في موقف هزيمة؟ مامن شك ــ في منطق العقيدة ــ أنه كان في قمة النصر وهو يلقى في النار . كما أنه انتصر مرة أخرى وهو ينجو من النار . هذه صورة وتلك صورة . وهما في الظاهر بعيد من بعيد . فأما في الحقيقة فهما قريب من قريب ! .. والحسين ــ رضوان الله عليه ــ وهو يستشهد في تلك الصورة العظيمة من جانب ، المفجعة من جانب؟ أكانت هذه نصراً أم هزيمة؟ في الصورة الظاهرة وبالمقياس الصغير كانت هزيمة . فأما في الحقيقة الخالصة وبالمقياس الكبير فقد كانت نصراً . فما من شهيد في أرض تهتز له الجوانح بالحب والعطف ، وتهفو له القلوب وتجيش بالغيرة والفداء كالحسين رضوان الله عليه . يستوي في هذا المتشيعون وغير المتشيعين من المسلمين . وكثير من غير المسلمين ! .

وكم من شهيد ماكان يملك أن ينصر عقيدته ودعوته ولو عاش ألف عام ، كما نصرها باستشهاده . وما كان يملك أن يودع القلوب من المعاني الكبيرة ، ويحفز الألوف إلى الأعمال الكبيرة ، بخطبة مثل خطبته الأخيرة التي يكتبها بدمه ، فتبقى حافزاً محركاً للأبناء والأحفاد . وربما كانت حافزاً محركاً لخطى التاريخ كله مدى أجيال .

ماالنصر؟ وما الهزيمة؟ إننا في حاجة إلى أن نراجع مااستقر في تقديرنا من الصور ومن القيم . قبل أن نسأل : أين وعد الله لرسله وللمؤمنين بالنصر في الحياة الدنيا ! .

على أن هناك حالات كثيرة يتم فيها النصر في صورته الظاهرة القريبة. ذلك حين تتصل هذه الصورة الظاهرة القريبة بصورة باقية ثابتة. لقد انتصر محمد ﷺ في حياته. لأن هذا النصر يرتبط بمعنى إقامة هذه العقيدة بحقيقتها الكاملة في الأرض. فهذه العقيدة لايتم تمامها إلا بأن تهيمن على حياة الجماعة البشرية وتصرفها جميعاً ــ من القلب المفرد إلى الدولة الحاكمة ــ فيشاء الله أن ينصر صاحب هذه العقيدة في حياته ليحقق هذه العقيدة في صورتها الكاملة، ويترك هذه الحقيقة مقررة في واقعة تاريخية محددة مشهودة. ومن ثم اتصلت صورة النصر القريبة بصورة أخرى بعيدة، واتحدت الصورة الظاهرة مع الصورة الحقيقية. وفق تقدير الله وترتيبه.

وهنالك اعتبار آخر تحسن مراعاته كذلك. إن وعد الله قائم لرسله وللذين آمنوا. ولا بد أن توجد حقيقة الإيمان في القلوب التي ينطبق هذا الوعد عليها. وحقيقة الإيمان كثيراً مايتجوز الناس فيها. وهي لاتوجد إلا حين يخلو القلب من الشرك في كل صوره وأشكاله. وإن هنالك لأشكالاً من الشرك خفية؛ لايخلص منها القلب إلا حين يتجه لله وحده، ويتوكل عليه وحده، ويطمئن إلى قضاء الله فيه وقدره عليه، ويحس أن الله وحده هو الذي يصرفه فلا خيرة له إلا مااختار الله. ويتلقى هذا بالطمأنينة والثقة والرضى والقبول. وحين يصل إلى هذه الدرجة فلن يقدم بين يدي الله، ولن يقترح عليه صورة معينة من صور النصر أو صور الخير. فسيكل هذا كله لله. ويلتزم. ويتلقى كل مايصيبه على أنه الخير.. وذلك معنى من معاني النصر.. النصر على الذات والشهوات. وهو النصر الداخلي الذي لايتم نصر خارجي بدونه بحال من الأحوال.

كلمة في الفقرة الأولى من هذا المقطع وفي مقدمة السورة:

١ - بدأ هذا المقطع بقوله تعالى: ﴿**أو لم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة وآثاراً في الأرض فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق * ذلك بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فكفروا فأخذهم الله إنه قوي شديد العقاب**﴾. ثم جاءت قصة موسى عليه السلام نموذجاً على تعذيب الله لمن كذّب الرسل، حتى إذا استقر هذا المعنى يتوجّه الآن الخطاب لرسول الله ﷺ آمراً إياه بالصبر، فإذا تذكرنا مقدمة سورة (صٓ) التي تفصّل في نفس المحور الذي تفصّل فيه سورة غافر، فإننا نلاحظ أنّه قد جاء بعد مقدمة السورة قوله تعالى ﴿**اصبر على مايقولون واذكر عبدنا داود ذا الأيد إنه أوّاب**﴾ وههنا بعد إذ

قرر الله عز وجل مارأينا يأتي قوله تعالى ﴿**فاصبر ....**﴾ ثم بعد آيات كثيرة يتكرر الأمر بالصبر ﴿**فاصبر**﴾ فإذا تذكّرنا أنه قبيل بداية المقطع ورد قوله تعالى ﴿**وأنذرهم يوم الآزفة ..**﴾ نعلم كيف أنّ السورة وجّهت الرسول ﷺ نحو الإنذار، ثم تبدأ الآن توجّهه نحو الصبر أمام المواقف المتعنّتة المستكبرة .

٢ - إذا اتضح مامرّ ندرك كيف تسير السورة في تفصيل المحور ﴿**إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لايؤمنون * ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم**﴾ فالسورة ترينا أنّ هناك كافرين لايؤثّر فيهم الإنذار، وترينا مظاهر من العذاب العظيم للكافرين، وترينا علامة الكافرين الذين يستأهلون الطبع على القلوب ، كما ترينا ضرورة الإنذار . وهاهي ذي تصل إلى الحديث عما ينبغي أن يكون عليه النذير من الصفات .

٣ - رأينا في قصة مؤمن آل فرعون نموذجاً على إنذار المؤمن، ونموذجاً على مواقف المؤمنين، والدرس الكبير الذي نأخذه من القصة : أن كتمان الإيمان ينبغى أن يكون لخدمة الدعوة، حتى إذا أصبح الإظهار هو المصلحة الحقيقية فينبغي أن يظهر الإيمان، فالذين يكتمون ويموتون وهم كاتمون مع وجود المصلحة الحقيقية للإظهار - وخاصة عندما يكونون في وضع يفترض عليهم أن يفعلوا - هؤلاء آثمون .

٤ - بدأت السورة بتبيان أن هذا القرآن من عند الله، ثم تحدّثت عن كون الكافرين يجادلون في آيات الله، وأمرت رسول الله ﷺ بألا يغرّ بتقلّبهم في البلاد، ثم ذكرت موقف الأمم السابقة من رسلها، وما عوقبوا به، ثم حدّثتنا عن دعاء الملأ الأعلى للمؤمنين، وتأنيب الملائكة للكافرين يوم القيامة، ثمّ عرّفتنا على الله عز وجل، آمرة لنا بعبادته، والإخلاص فيها ولو كره الكافرون، ثمّ عرّفتنا على الله وإرساله الرسل، وأمرت الرسول ﷺ بالإنذار . ثمّ خاطب الله الكافرين بأن يعتبروا بمشاهداتهم لفعل الله لرسله وللمؤمنين، وفي ذلك بشارة للمؤمنين وتثبيت لقلب رسول الله ﷺ، حتى إذا وضحت الأمور هذا الوضوح يأتي الآن توجيه لرسول الله ﷺ آمراً إياه بالصبر كما سنرى .

٥ - إن قصة موسى عليه السلام خدمت بشكل مباشر قوله تعالى ﴿**أو لم يسيروا ..**﴾، كما خدمت مقدمة السورة كذلك؛ إذ بيّنت لنا الأسباب النفسية والقلبية

لجدال الكافرين، واستحقاقهم الطبع على القلب بذلك، وبيّنت لنا أنماطاً من جدال الكافرين بآيات الله، وبيَّنت لنا تأييد الله لرسله وللمؤمنين، وبيّنت لنا مآل الكافرين، وكل ذلك قد تحدّثت عنه مقدمة السورة، فالقصة خدمت ماسبقها من معانٍ، وهي كذلك تخدم المعاني التي ستأتي بعدها فلننتقل الآن إلى الفقرة الثانية في المقطع.

....

الفقرة الثانية من المقطع

تفسير المجموعة الأولى من الفقرة الثانية

﴿**فاصبر**﴾ يامحمد على مايجرعك الكافرون من الغصص في مواقفهم الظالمة الكافرة المنكرة المستكبرة الرافضة للحق ﴿**إن وعد الله**﴾ بإقامة الساعة ﴿**حق**﴾ لامرية فيه ولا شك ﴿**واستغفر لذنبك**﴾ قال النسفي: أي: لذنب أمّتك، وقال ابن كثير: هذا تهييج للأمّة على الاستغفار، أقول: هو على كل حال أمر له عليه الصلاة والسلام بالاستغفار، وكان عليه الصلاة والسلام يستغفر كثيراً كل يوم كما سنرى في الفوائد، ولعل استغفاره أثر عن رؤية التقصير عن مراتب العمل كما ينبغي لله جل جلاله، فإنّ الإنسان كلّما عرف من جلال الله وكماله، زاد شعوره بكثرة تقصيره؛ فيستغفر استغفار المذنبين، ومن ثمّ قالوا: حسنات الأبرار سيئات المقربين ﴿ **وسبّح بحمد ربك بالعشيّ** ﴾ أي: في أواخر النّهار، وأوائل الليل ﴿**والإبكار**﴾ وهي أوائل النهار وأواخر الليل هكذا قال ابن كثير في تفسير العشي والإبكار، وقال النسفي: أي: دُمْ على عبادة ربك والثناء عليه، وقيل: هي صلاتا الفجر والعصر، وقيل: سبحان الله وبحمده ﴿**إنّ الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم**﴾ أي: يدفعون الحق بالباطل، ويردّون الحجج بالشبه الفاسدة بلا برهان ولا حجة من الله ﴿**إنْ في صدورهم إلا كبر**﴾ أي: تعظّم، وهو إرادة التقدّم والرياسة، وألا يكون أحد فوقهم، فلهذا عادوك ودفعوا آياتك، خيفة أن تتقدمهم، ويكونوا تحت يدك وأمرك ونهيك؛ لأن النبوة تحتها كل ملك ورياسة، أو إرادة أن تكون لهم النبوة دونك، حسداً وبغياً، أو إرادة دفع الآيات بالجدل ﴿**ماهم ببالغيه**﴾ أي: ماهم ببالغي موجب الكبر ومقتضاه وهو متعلّق إرادتهم من الرياسة، أو النّبوة، أو دفع الآيات، قال ابن كثير: أي: مافي صدورهم إلا كبر على اتباع الحق واحتقار لمن جاءهم

به ، وليس مايرومونه من إخماد الحق ، وإعلان الباطل بحاصل لهم ، بل الحق هو المرفوع ، وقولهم وقصدهم هو الموضوع ﴿ **فاستعذ بالله إنه هو السميع** ﴾ لما تقول ويقولون ﴿ **البصير** ﴾ بما تعمل ويعملون فهو ناصرك عليهم ، وعاصمك من شرّهم ، أو المعنى : فاستعذ بالله من شر مثل هؤلاء المجادلين في آيات الله بغير سلطان ، إنه هو السميع لكل شيء ، البصير بكل شيء .

....

كلمة في السياق :

يلاحظ أنّ موضوع مجادلة الذين كفروا بآيات الله قد ذكرت ثلاث مرات حتى ههنا : مرّة في أوّل السورة ﴿**مايجادل في آيات الله إلا الذين كفروا فلا يغررك تقلّبهم في البلاد**﴾ ومرة على لسان مؤمن آل فرعون : ﴿**إن الله لايهدي من هو مسرف مرتاب * الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم كَبُر مقتاً عند الله وعند الذين آمنوا كذلك يطبع الله على كل قلب متكبّر جبار**﴾ ومرة هنا : ﴿**إن الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم إن في صدورهم إلا كبر ماهم ببالغيه فاستعذ بالله إنه هو السميع البصير**﴾ .

المرة الأولى قررت أن المجادلة في آيات الله لايفعلها إلا الكافرون ، والمرّة الثانية بيّنت أنّ الإسراف والارتياب هما سبب الجدل في آيات الله ، وأن الجدل في آيات الله هو علامة أن القلب قد طبع عليه بسبب الكبرياء والجبروت ، والمرّة الثالثة بيّنت أنّ الجدال في آيات الله أثر عن الكبر الذي يستهدف أصحابه الجاه والعظمة والرياسة .

وإذ تحدّدت الأسباب النفسية والقلبية للجدال في آيات الله ، وتبيّنت مظاهر ذلك وأهداف أصحابه ، فإن الآيتين الأخيرتين حدّدتا الموقف المكافىء لذلك ، وهو الصبر والاستغفار ، والتسبيح بحمد الله ، والاستعاذة بالله ، ومن قبل أمرت الآية الأولى من الآيات الثلاث بعدم الاغترار بما عليه الكافرون ، وهكذا نرى كيف أن السياق يصبّ في مصبّ واحد مع تعرضه لكثير من المعاني خلال سيره الرئيسي ؛ لاحتياج المعنى الرئيسي إلى ذلك ، وإذا كان الصبر مستحيل الوجود إلا إذا كان هناك إيمان بالله وباليوم الآخر . وإذا كان الاستغفار والتسبيح والاستعاذة أثراً عن معرفة الله عز وجل ، فإنّ السياق الآن يتّجه للحديث عن اليوم الآخر ، ويتّجه ليعرّفنا على الله عز وجل .

تفسير المجموعة الثانية من الفقرة الثانية

﴿ **لخلق السمٰوات والأرض أكبر من خلق الناس** ﴾ قال النّسفي : (لما كانت مجادلتهم في آيات الله مشتملة على إنكار البعث - وهو أصل المجادلة ومدارها - حُجّوا بخلق السمٰوات الأرض ؛ لأنهم كانوا مقرين بأن الله خالقها ، فإن من قدر على خلقها مع عظمها كان على خلق الإنسان مع مهانته أقدر) . ﴿ **ولكن أكثر الناس لايعلمون** ﴾ لأنهم لايتأملون لغلبة الغفلة عليهم قال ابن كثير في الآية : (يقول الله تعالى منبهاً على أنه يعيد الخلائق يوم القيامة ، وأن ذلك سهل عليه يسير لديه بأنه خلق السمٰوات والأرض ، وخلقهما أكبر من خلق الناس بدأة وإعادة ، فمن قدر على ذلك فهو قادر على ما دونه بطريق الأولى والأحرى) ، ولأنّ رؤية هذه المعاني تدلّ على بصيرة القلب ، وعدم رؤيتها يدلّ على العمى ، ولأن الإيمان بها ينبع عنه العمل الصالح ، وعدم الإيمان ينبع عنه العمل السيء ، قال تعالى ﴿ **وما يستوي الأعمى والبصير والذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا المسيء** ﴾ أي : كما لا يستوي الأعمى الذي لايبصر شيئاً ، والبصير الذي يرى ما انتهى إليه بصره ، بل بينهما فرق عظيم ، كذلك لايستوي المؤمنون الأبرار ، والكفرة الفجار ﴿ **قليلاً ما تتذكّرون** ﴾ أي : تذكراً قليلاً تتذكّرون ، قال ابن كثير : أي : ما أقلّ مايتذكّر كثير من الناس ، ثمّ قرّر تعالى : ﴿ **إن الساعة لآتية** ﴾ أي : لكائنة وواقعة ﴿ **لا ريب فيها** ﴾ أي : لاشك . قال النسفي : (أي : لابدّ من مجيئها ، وليس بمرتابٍ فيها لأنّه لابدّ من جزاء لئلا يكون خلق الخلق للفناء) . ﴿ **ولكن أكثر الناس لا يؤمنون** ﴾ أي : لا يصدّقون بها بل يكذّبون بوجودها ﴿ **وقال ربكم ادعوني** ﴾ أي : اعبدوني ، أو وحّدوني ، أو سلوني ﴿ **أستجب لكم** ﴾ أي : أثيبكم ، أو أغفر لكم ، أو أعطكم قال ابن كثير : هذا من فضله تبارك وتعالى وكرمه أنه ندب عباده إلى دعائه ، وتكفّل لهم بالإجابة ، ولنا عودة في الفوائد على هذه الآية ﴿ **إن الذين يستكبرون عن عبادتي** ﴾ قال ابن كثير : أي : عن دعائي وتوحيدي ﴿ **سيدخلون جهنم داخرين** ﴾ أي : صاغرين حقيرين .

نقــول :

١ - قال صاحب الظلال عند قوله تعالى : ﴿ **لخلق السمٰوات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لايعلمون** ﴾ والسماوات والأرض معروضتان للإنسان

يراهما ، ويستطيع أن يقيس نفسه إليهما . ولكنه حين (يعلم) حقيقة النسب والأبعاد ، وحقيقة الأحجام والقوى ، يطامن من كبريائه ، ويتصاغر ويتضاءل حتى ليكاد يذوب من الشعور بالضآلة . إلا أن يذكر العنصر العلوي الذي أودعه الله إياه ، والذي من أجله كرمه . فهو وحده الذي يمسك به أمام عظمة هذا الكون الهائل العظيم . ولمحة خاطفة عن السمٰوات والأرض تكفي لهذا الإدراك .

هذه الأرض التي نحيا عليها تابع صغير من توابع الشمس تبلغ كتلتها ثلاثة من مليون من كتلة الشمس ! ويبلغ حجمها أقل من واحد من مليون من حجم الشمس .

وهذه الشمس واحدة من نحو مئة مليون من الشموس في المجرة القريبة منا ؛ والتي نحن منها . وقد كشف البشر – حتى اليوم – نحو مئة مليون من هذه المجرات ! متناثرة في الفضاء الهائل من حولها .

والذي كشفه البشر جانب ضئيل صغير لا يكاد يذكر من بناء الكون ! وهو – على ضآلته – هائل شاسع يدير الرؤوس مجرد تصوره . فالمسافة بيننا وبين الشمس حوالي ثلاثة وتسعين مليوناً من الأميال . ذلك أنها رأس أسرة كوكبنا الأرضي الصغير . بل هي – على الأرجح – أم هذه الأرض الصغيرة . ولم تبعد أرضنا عن أحضان أمها بأكثر من هذه المسافة : ثلاثة وتسعين مليوناً من الأميال .

أما المجرة التي تتبعها الشمس فقطرها حوالي مئة ألف مليون سنة .. ضوئية .. والسنة الضوئية تعني مسافة ست مئة مليون مليون ميل ! لأن سرعة الضوء هي ستة وثمانون ومئة ألف ميل في الثانية !.

وأقرب المجرات الأخرى إلى مجرتنا تبعد عنا بنحو خمسين وسبعمائة ألف سنة ضوئية ..! ونذكر مرة أخرى أن هذه المسافات وهذه الأبعاد وهذه الأحجام هي التي استطاع علم البشر الضئيل أن يكشف عنها . وعلم البشر هذا يعترف أن ماكشفه قطاع صغير في هذا الكون العريض !) .

٢ – وقال صاحب الظلال عند قوله تعالى : ﴿ **وقال ربكم ادعوني أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين** ﴾ :

وللدعاء أدب لابد أن يراعى . إنه إخلاص القلب لله . والثقة بالاستجابة مع عدم اقتراح صورة معينة لها ، أو تخصيص وقت أو ظرف ، فهذا الاقتراح ليس من أدب

السؤال. والاعتقاد بأن التوجه للدعاء توفيق من الله، والاستجابة فضل آخر. وقد كان عمر - رضي الله عنه - يقول: «أنا لاأحمل همّ الإجابة إنما أحمل همّ الدعاء. فإذا أُلهمت الدعاء كانت الإجابة معه» وهي كلمة القلب العارف، الذي يدرك أن الله حين يقدر الاستجابة يقدر معها الدعاء. فهما - حين يوفق الله - متوافقان متطابقان.

فأما الذين يستكبرون عن التوجه لله فجزاؤهم الحق أن يوجهوا أذلاء صاغرين لجهنم! وهذه نهاية الكبر الذي تنتفخ به قلوب وصدور في هذه الأرض الصغيرة، وفي هذه الحياة الرخيصة، وتنسى ضخامة خلق الله. فضلاً على نسيانها عظمة الله. ونسيانها للآخرة، وهي آتية لاريب فيها. ونسيانها للموقف الذليل في الآخرة بعد النفخة والاستكبار).

....

كلمة في السياق :

١ - جاءت هذه الآيات بعد الآية التي قالت ﴿**إن الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم إن في صدورهم إلا كبر ماهم ببالغيه**﴾ وكأنّها تذكر أمهات القضايا التي يجادلون فيها، وهي الساعة والإيمان والعمل الصالح والعبادة، وقد عرضها الله عز وجل عرضاً يظهر منه أنّ جدالهم في غير محله، فذكر أن خلق السمٰوات والأرض أكبر من خلق الناس، فموضوع البعث بديهي، وذكر أن الإيمان والعمل الصالح لايستوي مع الإساءة، كما لايستوي الأعمى والبصير، فالإيمان والعمل الصالح لاينبغي أن يمارى في فضلهما، والعبادة لله عز وجل بديهية من البديهيات، كيف والله عز وجل قد خلق للإنسان ماخلق ممّا سنراه في المجموعة اللاحقة، فالمجموعة تربط بين ماقبلها وما بعدها .

٢ - جاءت هذه المجموعة بعد أمر الله رسوله ﷺ بالصبر والتسبيح والاستعاذة بالله، فكانت برهاناً على مجيء اليوم الآخر، وتهييجاً على الإيمان والعمل الصالح والدعاء والعبادة التي فيها الاستغفار والتسبيح والاستعاذة .

٣ - إذا تأمّلنا محور السورة ﴿**إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لايؤمنون**﴾ وتأمّلنا قوله تعالى في المجموعة ﴿**إن الساعة لآتية لاريب فيها، ولكن أكثر الناس لايؤمنون**﴾ وإذا تأمّلنا عدم استواء الإيمان والكفر، والعمل الصالح والإساءة،

أدركنا صلة ذلك بكون الكافرين لايستفيدون من الإنذار، وأدركنا ضرورة الصبر على مثل هذه المواقف.

٤ - نلاحظ أنّ المجموعات القادمة تتحدّث عن الله عز وجلّ، وذلك بعد قوله تعالى ﴿**وقال ربكم ادعوني أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين**﴾ فكأنّ السياق يرينا أنّه من البديهي أن تجب العبادة لله، فلنر ذلك ملاحظين أن لفظ الجلالة (الله) أو الضمير العائد إليه (هو) يتكرر ورودهما في آيات المجموعة التالية:

تفسير المجموعة الثالثة من الفقرة الثانية

أ- ﴿**الله الذى جعل لكم الليل لتسكنوا فيه**﴾ أي: لتطمئنوا فيه وتستريحوا ﴿**والنّهار مبصراً**﴾ أي: مضيئاً ليتصرفوا بالأسفار، وقطع الأقطار، والتمكّن من الصناعات ﴿**إنّ الله لذو فضل على النّاس**﴾ أي: لَصَاحب فضل عليهم لايوازيه فضل ﴿**ولكنّ أكثر الناس لايشكرون**﴾ أي: لايقومون بشكر الله عليهم، بأن يعبدوه كما أمرهم ﴿**ذلكم**﴾ أي: الذي خلق الليل والنهار ﴿**الله ربكم خالق كل شيء**﴾ فلا شيء إلا وهو خلقه ﴿**لا إله إلا هو**﴾ فلا رب غيره، ولا إله سواه، فهو الجامع لأوصاف الربوبية والإلهية والوحدانية ﴿**فأنّى تؤفكون**﴾ أي: تصرفون. قال ابن كثير: أي فكيف تعبدون غيره من الأصنام التي لاتخلق شيئاً بل هي مخلوقة منحوتة. وقال النسفي: أي: (فكيف ومن أي وجه تُصرفون عن عبادته إلى عبادة الأوثان) ﴿**كذلك يُؤفَك الذين كانوا بآيات الله يجحدون**﴾ قال النسفي: أي: كل من جحد بآيات الله، ولم يتأمّلها، ولم يطلب الحق، أفك كما أفكوا وقال ابن كثير: (أي كما ضلّ هؤلاء بعبادة غير الله، كذلك أفك الذين من قبلهم فعبدوا غيره بلا دليل ولا برهان، بل بمجرد الجهل والهوى، وجحدوا حجج الله وآياته) ومعنى يؤفك: يصرف.

....

كلمة في السياق :

وهكذا أقامت هذه الآيات الحجة على ضرورة عبادة الله وشكره، بأن ذكّرت بنعم الله في خلقه الليل والنهار والأشياء كلها، وبأن ذكّرت بوحدانيته وربوبيته وألوهيته، كما أنكرت على من يُصرف عن العبادة، وبيّنت أنّ سبب الصرف عن العبادة هو جحود آيات الله. فالجحود هو الصارف عن العبادة، وعن الشكر، وصلة ذلك بقوله تعالى ﴿ **وقال ربكم ادعوني أستجب لكم** ﴾ واضحة، وصلة ذلك بالجدال في آيات الله واضحة.

....

ب- ﴿**الله الذي جعل لكم الأرض قراراً**﴾ قال النسفي: أي مستقراً وقال ابن كثير: (أي جعلها لكم مستقراً بساطاً مهاداً تعيشون عليها وتتصرّفون فيها، وتمشون في مناكبها، وأرساها بالجبال لئلا تميد بكم). أقول: وقد أخطأ من ظنّ أن القرار لايجتمع مع الدوران، فأنت تشعر بالاستقرار وأنت راكب في السيارة والقطار والطائرة، ولا يعني ذلك نفي الحركة، فالله عز وجل يمنّ علينا باستقرارنا على الأرض بحيث لاتميد بنا ولا تضطرب، وهذا يتحقق في حالة سكون الأرض، أو حركتها المنتظمة ﴿**والسماء بناءً**﴾ محكماً غير مضطرب، أي: فخلقكم في أحسن الأشكال، ومنحكم أكمل الصور.

قال صاحب الظلال: فأما الإنسان ذاته فمن حسن صورته هذه الهيئة المتفردة بين سائر الأحياء، وهذا الاكتمال من ناحية الأجهزة لأداء وظائفه جميعها في يسر ودقّة؛ وهذا التوافق بين تكوينه والظروف الكونية العامة التي تسمح له بالوجود والحركة في هذا الوسط الكوني كما هو كائن. وذلك كله فوق خاصيته الكبرى التي جعلت منه خليفة في الأرض، مجهزاً بأداة الخلافة الأولى: العقل والاتصال الروحي بما وراء الأشكال والأعراض.

ولو رحنا نبحث دقة التكوين وتناسق أجزائه ووظائفه- بوصفها داخلة في قوله تعالى: ﴿ **وصوّركم فأحسن صوركم** ﴾ ـــ لوقفنا أمام كل عضو صغير، بل أمام كل خلية مفردة، في هذا الكيان الدقيق العجيب.

ونضرب مثلاً لهذه الدقة العجيبة فك الإنسان ووضع الأسنان فيه من الناحية الآلية البحتة . إن هذا الفك من الدقة بحيث إن بروز واحد على عشرة من المليمتر في اللثة أو في اللسان ، يزحم اللثة واللسان ، وبروز مثل هذا الحجم في ضرس أو سن يجعله يصطك بما يقابله ويحتك ! ووجود ورقة كورقة السيجارة بين الفكين العلوي والسفلي يجعلها تتأثر بضغط الفكين عليها فتظهر فيها علامات الضغط لأنهما من الدقة بحيث يلتقيان تماماً ليمضغ الفك ويطحن ماهو في سمك ورقة السيجارة .

ثم .. إن هذا الإنسان بتكوينه هذا مجهز ليعيش في هذا الكون .. عينه هذه مقيسة على الذبذبات الضوئية التي تقتضي وظيفته في الأرض أن يراها . وأذنه تلك مقيسة على الذبذبات الصوتية التي تقتضي وظيفته في الأرض أن يسمعها . وكل حاسة فيه أو جارحة مصممة وفق الوسط المهيأ لحياته ، ومجهزة كذلك بالقدرة على التكيف المحدود عند تغير بعض الظروف .

إنه مخلوق لهذا الوسط ، ليعيش فيه ، ويتأثر به ، ويؤثر فيه . وهناك ارتباط وثيق بين تصميم هذا الوسط وتكوين هذا الإنسان . وتصوير الإنسان على هذه الصورة ذو علاقة بوسطه . أي : بالأرض والسماء . ومن ثم يذكر القرآن صورته في نفس الآية التي يذكر فيها الأرض والسماء .. ألا إنه الإعجاز القرآني ..) .

....

﴿**ورزقكم من الطيبات**﴾ أي : من المآكل والمشارب في الدنيا قال ابن كثير : فذكر أنّه خلق الدار والسكان والأرزاق فهو الخالق الرازق ﴿**ذلكم**﴾ أي : الذي فعل هذا كله ﴿**الله ربكم فتبارك الله رب العالمين**﴾ أي : فتعالى وتقدّس وتنزّه رب العالمين كلهم ﴿**هو الحيّ**﴾ وليس كمن تعبدون من الأموات من أصنام وطبيعة ﴿**لا إله إلا هو**﴾ فهو المنفرد بالألوهية ﴿**فادعوه**﴾ أي : فاعبدوه ﴿**مخلصين له الدين**﴾ أي : الطاعة من الشرك والرياء ، مع التوحيد الخالص قائلين ﴿**الحمد لله رب العالمين**﴾ أي : جامعين بين العبادة والشكر ﴿**قل إني نُهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله**﴾ من الأصنام والأوثان والأنداد ﴿**لمّا جاءني البيّنات من ربي**﴾ أي : القرآن ﴿**وأُمرت أن أسلم لرب العالمين**﴾ أي : وأمرت أن أستسلم وأستقيم وأنقاد لرب العالمين .

كلمة في السياق :

ذكر الله عز وجل في هذه الآيات مايستوجب شكره وعبادته وإفراده بالعبادة ، وختم هذه الآيات بأن أمر رسوله الله ﷺ أن يبيّن أنّه منهي عن عبادة غير الله عز وجل ، ومأمور بالاستسلام لله ، وفي ذلك بيان أنّ الموقف الصحيح من الآيات هو إفراد الله عز وجل بالعبادة والاستسلام ، لا كما فعل الكافرون من ردّ الآيات، ورفض العبادة والاستسلام لله عز وجل، وهذا يؤكّد الصلة بين هذه الآيات ومسار السورة عامة ، كما يوضح الصلة بين هذه الآيات وبين قوله تعالى : ﴿**وقال ربكم ادعوني أستجب لكم**﴾ كما يوضح أن الأمر بعبادة الله يدخل فيه النهي عن عبادة غيره، كما يدخل فيه التسليم لله رب العالمين .

....

جـ- ﴿**هو الذي خلقكم من تراب**﴾ قبل أن تكونوا نُطَفاً، وذلك أن التراب والهواء يتحوّلان إلى غذاء، والغذاء يتحوّل داخل الجسم إلى نطف، أو المراد خلق آدم عليه السلام من تراب ﴿**ثم من نطفة ثم من علقة ثم يخرجكم طفلاً ثم لتبلغوا أشدكم**﴾ ببلوغكم الأربعين ﴿**ثم لتكونوا شيوخاً**﴾ بعد بلوغكم الأشدّ ﴿**ومنكم من يتوفىٰ من قبل**﴾ أي: من قبل بلوغ الأشدّ أو بلوغ الشيخوخة ﴿**ولتبلغوا أجلاً مسمّى**﴾ أي: ويفعل ذلك ليبلغ الجنس البشري يوم القيامة ﴿**ولعلكم تعقلون**﴾ : مافي ذلك من العبرة والحجج، فتؤمنوا وتعبدوا وتُسلموا ﴿**هو الذي يحيي ويميت**﴾ أي: هو المنفرد بذلك لايقدر على ذلك أحد سواه ﴿**فإذا قضىٰ أمراً فإنّما يقول له كن فيكون**﴾ أي: فإنّما يكوّنه سريعاً من غير كلفة، ومن كان هذا شأنه فيجب أن يعبد وحده، ولا يشرك به، وأن يسلم له .

....

كلمة في السياق :

قلنا إن سورة المؤمن تتألف من مقدّمة ومقطع، ورأينا أنّه بانتهاء قصة موسى تنتهي

الفقرة الأولى من المقطع، ثمّ تأتي الفقرة الثانية التي تبدأ بقوله تعالى ﴿**فاصبر إن وعد الله حق**﴾ وقد مرّت معنا من الفقرة الثانية ثلاث مجموعات، والملاحظ أن المجموعة التي ستأتي معنا لها صلة ببداية الفقرة، فلقد جاء في بداية الفقرة قوله تعالى: ﴿**إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لايؤمنون**﴾ فلنر المجموعة الرابعة من الفقرة الثانية من المقطع:

....

تفسير المجموعة الرابعة من الفقرة الثانية

﴿**ألم تر إلى الذين يجادلون في آيات الله أنّى يصرفون**﴾ قال ابن كثير: يقول تعالى: ألا تعجب يامحمد من هؤلاء المكذّبين بآيات الله، ويجادلون بالباطل كيف تصرف عقولهم عن الهدى إلى الضلال ﴿**الذين كذّبوا بالكتاب**﴾ أي: بالقرآن ﴿**وبما أرسلنا به رسلنا**﴾ أي: من الهدى والبيان ﴿**فسوف يعلمون**﴾ قال ابن كثير: (هذا تهديد شديد، ووعيد أكيد من الرب جل جلاله لهؤلاء) ثم بيّن متى سيكون هذا العلم فقال ﴿**إذ الأغلال في أعناقهم والسلاسل**﴾ أي: إذ الأغلال والسلاسل في أعناقهم ﴿**يسحبون**﴾ أي: تسحبهم الزبانية على وجوههم ﴿**في الحميم ثم في النار يسجرون**﴾ قال ابن كثير: تارة إلى الحميم، وتارة إلى الجحيم. والحميم هو: الماء الحار، والجحيم: النار، وسجر التّنور معناه: ملأه وقوداً، ومعنى أنهم يسجرون أي أنّهم في النّار، فهي محيطة بهم، وهم مسجورون بالنّار، ومملوءة بها أجوافهم ﴿**ثم قيل لهم**﴾ على وجه التقريع والتوبيخ والتحقير والتصغير، والتهكم والاستهزاء بهم، والقائل هم خزنة جهنم ﴿**أين ماكنتم تشركون من دون الله**﴾ يعني: الأصنام التي كنتم تعبدونها ﴿**قالوا ضلّوا عنّا**﴾ أي: ذهبوا فلم ينفعونا، أو غابوا عن عيوننا فلا نراهم ولا ننتفع بهم ﴿**بل لم نكن ندعوا من قبل شيئاً**﴾ أي: تبيّن لنا أنّهم لم يكونوا شيئاً، وما كنا نعبد بعبادتهم شيئاً، وقد يكون المراد جحودهم لعبادة غير الله كذباً منهم، كعادتهم الكذب في الدنيا... ﴿**كذلك يضل الله الكافرين**﴾ أي: مثل ضلال آلهتهم عنهم في الآخرة، يضلهم الله عن الحق في الدنيا، بجدالهم في آيات الله، أو كما أضل هؤلاء المجادلين، يضل سائر الكافرين الذين علم منهم اختيار الضلال على الدين الحق ﴿**ذلكم**﴾ العذاب الذي نزل بكم ﴿**بما كنتم تفرحون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تمرحون**﴾ أي: بسبب ماكان لكم من

الفرح والمرح بغير الحق وهو الشرك ، وعبادة الأوثان . قال ابن كثير : (أي : تقول لهم الملائكة : هذا الذي أنتم فيه جزاءً على فرحكم في الدنيا بغير الحق ، ومرحكم وأشركم وبَطَرِكم) . ﴿ **ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبّرين** ﴾ أي : فبئس المنزل والمقيل الذي فيه الهوان والعذاب الشديد لمن استكبر عن آيات الله ، واتّباع دلائله وحججه ، وبهذا انتهت الفقرة الثانية من المقطع ، لتبدأ فقرة ثالثة مبدوءة بما بدأت به الفقرة الثانية ﴿ **فاصبر** ﴾ ...

....

كلمة في السياق :

١ – عجّبت هذه المجموعة الأخيرة رسول الله ﷺ من صرف الذين يجادلون في آيات الله عن الحق ، وبيّنت أنهم سيعلمون الحقّ عندما يعذّبون في الآخرة ، وذكرت أنّ استحقاقهم العذاب بسبب فرحهم في الأرض ومرحهم بغير الحق ، ففهمنا علة جديدة من علل جدال الكافرين ، وهي الفرح والمرح بغير الحق ، وكان السياق قد ذكر من قبل الدنيا والإسراف والارتياب والتكبر والجبروت .

٢ – إنّ هذا الجزء من المقطع والمتضمن للفقرة الثانية بدأ بأمر رسول الله ﷺ بالصبر والاستغفار ، والتسبيح والاستعاذة ، ليساعده ذلك على السير رغم مكابرة المكابرين ، وأقام الحجة على هؤلاء المكابرين في أمهات القضايا التي يكابرون فيها ويجادلون ، رغبة في إبطالها ، وبيّن أنّ كل مايجادلون فيه إنما هو من باب البديهيات لمن عقل أو تذكّر . حتى إذا قامت الحجة يعود السياق في الفقرة الثالثة إلى الأمر بالصبر ، وقبل أن نعرض الفقرة الثالثة فلنذكر بعض الفوائد ..

....

فوائد :

١ – للعلماء في قوله تعالى : ﴿**وقال ربكم ادعوني أستجب لكم**﴾ ثلاثة اتجاهات . أن المراد بالدعاء هنا الدعاء المعروف ، أو أن المراد به التوحيد ، أو أن المراد به العبادة ، والحديث الشريف يقول « الدعاء مخ العبادة » أو « الدعاء هو العبادة » وماذلك إلا لأن فيه

افتقاراً إلى الله ، وخضوعاً له ، ومعرفةً لكونه سمعياً قريباً مجيباً ، فمن عَبَد الله بالدعاء لم يستكبر عن عبادته بمعاني العبادة الأخرى ، ولذلك بدأت الآية بالأمر بالدعاء ، وختمت بقوله تعالى : ﴿**إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين**﴾ وبمناسبة هذه الآية قال ابن كثير : (روى الإمام الحافظ أبو يعلى في مسنده عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ فيما يروي عن ربه عز وجل قال : «أربع خصال : واحدة منهن لي ، وواحدة لك ، وواحدة فيما بيني وبينك ، وواحدة فيما بينك وبين عبادي ، فأما التي لي لاتشرك بي شيئاً ، وأما التي لك عليَّ فما عملت من خير جزيتك به ، وأما التي بيني وبينك فمنك الدعاء وعليّ الإجابة ، وأما التي بينك وبين عبادي فارض لهم ماترضى لنفسك» . وروى الإمام أحمد عن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال : قال رسول ﷺ «إن الدعاء هو العبادة» ثم قرأ ﴿**ادعوني أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين**﴾ وهكذا رواه أصحاب السنن الترمذي والنسائي وابن ماجه وابن أبي حاتم وابن جرير ، وقال الترمذي : حسن صحيح ورواه ابن حبان والحاكم في صحيحيهما وقال الحاكم : صحيح الإسناد . وروى الإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «من لم يدع الله عز وجل غضب عليه» تفرد به أحمد وإسناده لابأس به . وروى الحافظ أبو محمد الحسن بن عبد الرحمن الرامهرمزي عن محمد بن سعيد قال : لما مات محمد بن مسلمة الأنصاري وجدنا في ذؤابة سيفه كتاباً بسم الله الرحمن الرحيم ، سمعت رسول الله ﷺ قال : «إن لربكم في بقية أيام دهركم نفحات فتعرضوا له ، لعل دعوة أن توافق رحمة فيسعد بها صاحبها سعادة لايخسر بعدها أبداً» .

٢ – بمناسبة قوله تعالى : ﴿**فادعوه مخلصين له الدين الحمد لله رب العالمين**﴾ قال ابن كثير : (قال ابن جرير : كان جماعة من أهل العلم يأمرون من قال لا إله إلا الله أن يتبعها بالحمد لله رب العالمين ، عملاً بهذه الآية . ثم روى عن ابن عباس قال : من قال لا إله إلا الله فليقل على أثرها الحمد لله رب العالمين وذلك قوله تعالى ﴿**فادعوه مخلصين له الدين الحمد لله رب العالمين**﴾ . وعن سعيد بن جبير قال : إذا قرأت ﴿**فادعوه مخلصين له الدين**﴾ فقل لا إله إلا الله ، وقل على أثرها الحمد لله رب العالمين ثم قرأ الآية ﴿**فادعوه مخلصين له الدين الحمد لله رب العالمين**﴾ . روى الإمام أحمد عن أبي الزبير محمد بن مسلم بن بدر المكي قال : كان عبد الله بن الزبير يقول في دبر كل صلاة حين يسلم : لاإله إلا الله وحده لاشريك له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ، لا

حول ولا قوة إلا بالله، لا إله إلا الله، ولا نعبد إلا إياه، له النعمة، وله الفضل، وله الثناء الحسن، لا إله إلا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون، قال: وكان رسول الله ﷺ يهلل بهن دبر كل صلاة ، ورواه مسلم وأبو داود والنسائي من طرق أخرى عن أبي الزبير عن عبد الله بن الزبير قال: كان رسول الله ﷺ يقول في دبر كل صلاة «لا إله إلا الله وحده لاشريك له» وذكر تمامه).

ولننتقل للحديث عن الفقرة الثالثة في المقطع، وكما وجدت في الفقرة الثانية آيات مبدوءة بلفظ الجلالة فسنرى ههنا نفس الظاهرة .

تفسير الفقرة الثالثة

﴿**فاصبر إن وعد الله حق**﴾ أي: فاصبر يامحمد فإن وعد الله بالنصر على الكافرين حق بتعذيبهم في الدنيا، أو بالتسليط عليهم، عدا ماأعدّه لهم من عذاب الآخرة. قال ابن كثير: (يقول تعالى آمراً رسول ﷺ بالصبر على تكذيب من كذبه من قومه ، فإن الله تعالى سينجز لك ماوعدك من النصر والظفر على قومك ، وجعل العاقبة لك ولمن اتبعك في الدنيا والآخرة) . ﴿ **فإمّا نرينّك بعض الذي نعدهم** ﴾ من العذاب في الدنيا ﴿ **أو نتوفينّك**﴾ قبل أن نريك ذلك ﴿**فإلينا يرجعون**﴾ أي: يوم القيامة فننتقم منهم أشدّ الانتقام، وقد أرى الله رسوله ﷺ نصره في الحياة الدنيا، بأن أقرّ عينه من كبراء المشركين وعظمائهم الذين أُبيدوا في يوم بدر ، ثم فتح الله عليه مكة، وسائر جزيرة العرب في حياته عليه الصلاة والسلام، ثمّ قال تعالى مسلّياً رسوله ﷺ ومبيناً له سنته في هذا الأمر فقال ﴿**ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك**﴾ إلى أممهم ﴿**منهم من قصصنا عليك**﴾ أي: منهم من أوحينا إليك خبرهم وقصصهم مع أقوامهم كيف كذّبوهم، ثم كانت للرسل العاقبة والنصرة ﴿**ومنهم من لم نقصص عليك**﴾ قال ابن كثير: وهم أكثر ممّن ذكر بأضعاف أضعاف كما تقدّم التنبيه على ذلك في سورة النساء ﴿**وما كان لرسول أن يأتي بآية**﴾ أي: بمعجزة ﴿**إلا بإذن الله**﴾ فالأمر أمره ﴿**فإذا جاء أمر الله**﴾ وهو عذابه ونكاله المحيط بالمكذّبين ﴿**قُضي بالحق**﴾ قال ابن كثير: فينجيّ المؤمنين، ويهلك الكافرين ولهذا قال ﴿**وخسر هنالك المبطلون**﴾ أي: المعاندون الذين يجادلون في آيات الله .

كلمة في السياق :

١ ــ دلّت الآيتان على أنّ نصرة الله لرسله محقّقة ، ولكن ليس شرطاً أن يروها ، فإذا كانت النصرة بالتعذيب ، فقد يأتي التعذيب بعد انتقال الرسول ، وههنا نحبّ أن ننبّه إلى أمر : وهو أننا نلاحظ أن كلاً من هاتين الفقرتين في المقطع بدأت بقوله تعالى : ﴿ **فاصبر إن وعد الله حق** ﴾ وقد يراد بالوعد في الآية الأولى وعد الله يوم القيامة ، والوعد المذكور في الآية الثانية قد يراد به وعد الله بالنصر في الدنيا .

٢ – قال الله عز وجل في هذه الآيات ﴿ **وماكان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله** ﴾ وهذا يشعر أن الكافرين يقترحون على رسول الله ﷺ الآيات ولذلك فإن الله عز وجل يلفت النظر فيما يأتي إلى آية من آياته في الكون .

....

﴿ **الله الذي جعل** ﴾ أي : خلق ﴿ **لكم الأنعام** ﴾ البقر والإبل والغنم والماعز ﴿ **لتركبوا منها ومنها تأكلون** ﴾ أي : لتركبوا بعضها وتأكلوا بعضها ﴿ **ولكم فيها منافع** ﴾ في ألبانها وأوبارها وجمالها وغير ذلك ﴿ **ولتبلغوا عليها حاجة في صدوركم** ﴾ أي : لتبلغوا عليها ماتحتاجون إليه من الأمور ﴿ **وعليها** ﴾ أي : وعلى الأنعام ﴿ **وعلى الفلك تُحملون** ﴾ تفضلاً من الله ونعمة قال ابن كثير : (فالإبل تركب وتؤكل وتحلب ، ويحمل عليها الأثقال في الأسفار والرحال إلى البلاد النائية والأقطار الشاسعة ، والبقر تؤكل ويشرب لبنها ويحرث عليها الأرض ، والغنم تؤكل ويشرب لبنها ، والجميع تجز أصوافها وأشعارها وأوبارها فيتخذ منها الأثاث والثياب والأمتعة ، كما فصّل وبيّن في أماكن تقدم ذكرها في سورة الأنعام وسورة النحل وغير ذلك) . ﴿ **ويريكم آياته** ﴾ أي : حججه وبراهينه في الآفاق وفي أنفسكم ﴿ **فأي آيات الله تنكرون** ﴾ أي : لا تقدرون على إنكار شيء من آياته ، فكيف تقترحون الآيات وهي مبثوثة أمامكم ، وكيف لا تؤمنون والآيات مرئية مشاهدة ، ولماذا تجادلون وتعاندون وتكابرون والأمر أوضح من كل واضح ﴿ **أفلم يسيروا** ﴾ أي : أفلم يسر هؤلاء الكافرون المعاندون المجادلون ﴿ **في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة** ﴾ أي : نهاية ﴿ **الذين من قبلهم** ﴾ من الأمم ﴿ **كانوا أكثر منهم** ﴾ عدداً ﴿ **وأشدّ قوة** ﴾ أي : في أبدانهم ﴿ **وآثاراً** ﴾ خلّفوها ﴿ **في الأرض** ﴾ والظاهر أنّ الخطاب لقريش المخاطبين

الأوائل ﴿ **فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون** ﴾ أي : لم يردّ عنهم ذلك شيئاً لمّا جاء بأس الله .

كلمة في السياق :

بدأ المقطع بقوله تعالى ﴿ **أو لم يسيروا في الأرض ...** ﴾ وبعد ثلاث فقرات يعود السياق إلى خطابهم بنفس المضمون ﴿ **أفلم يسيروا في الأرض ...** ﴾ لافتاً نظرهم إلى الاعتبار في السير ، إلى علة هلاك الأمم السابقة ، وفي ذلك تحذير أي تحذير .

....

﴿ **فلما جاءتهم رسلهم بالبينات** ﴾ بالمعجزات والحجج القاطعات ، والبراهين الدامغات ﴿ **فرحوا بما عندهم من العلم** ﴾ قال النسفي : يريد علمهم بأمور الدنيا ، ومعرفتهم بتدبيرها كما قال تعالى ﴿ **يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون** ﴾ فلما جاءتهم الرسل بعلوم الدين ـــ وهي أبعد شيء من علمهم ؛ لبعثها على رفض الدنيا والظلف عن الملاذ والشهوات ـــ لم يلتفتوا إليها ، وحقروها واستهزؤوا بها ، واعتقدوا أنه لا علم أنفع وأجلب للفوائد من علمهم ، ففرحوا به ، أو علم الفلاسفة والدهريين فإنهم كانوا إذا سمعوا بوحي الله دفعوه ، وحقروا علم الأنبياء إلى علمهم ، ﴿ **وحاق بهم** ﴾ أي : بالكافرين الفرحين بما عندهم من العلم ﴿ **ما كانوا به يستهزؤون** ﴾ أي : يكذّبون ويستبعدون وقوعه ﴿ **فلمّا رأوا بأسنا** ﴾ أي : عاينوا وقوع العذاب بهم ﴿ **قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين** ﴾ أي : وحّدوا الله عز وجل ، وكفروا بالطاغوت ، ولكن حيث لا تقال العثرات ، ولا تنفع المعذرة ﴿ **فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا** ﴾ أي : عذابنا ، أي : فلم يصح ولم يستقم أن ينفعهم إيمانهم وقتذاك ﴿ **سنة الله التي قد خلت** ﴾ أي : مضت ﴿ **في عباده** ﴾ أنّ الإيمان عند نزول العذاب لا ينفع ، وأن العذاب نازل بمكذّبي الرسل . قال ابن كثير : أي : هذا حكم الله في جميع من تاب عند معاينة العذاب أنّه لا يقبل ، ولهذا جاء في الحديث : « إن الله تعالى يقبل توبة العبد مالم يغرغر » أي : فإذا غرغر ، وبلغت الروح الحنجرة ، وعاين الملك فلا توبة حينئذٍ ، ولهذا قال تعالى ﴿ **وخسر هنالك الكافرون** ﴾ والكافرون خاسرون في كل أوان ، ولكن يتبيّن خسرانهم إذا عاينوا العذاب ، وبهذا انتهت السورة مشبهاً آخرها أولها ، مرتبطاً أولها بآخرها بأواسطها .

ملاحظات في السياق :

جاء بعد آيتين في أوائل السورة قوله تعالى : ﴿**ما يجادل في آيات الله إلا الذين كفروا فلا يغررك تقلبهم في البلاد * كذبت قبلهم قوم نوح والأحزاب من بعدهم وهمّت كلّ أمّة برسلوهم ليأخذوه وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق فأخذتهم فكيف كان عقاب**﴾ .

وجاء في أول المقطع بعد المقدمة . ﴿**أو لم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة وآثاراً في الأرض فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق * ذلك بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فكفروا فأخذهم الله إنه قوي شديد العقاب**﴾ .

وجاء في آخر السورة قوله تعالى : ﴿**أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أكثر منهم وأشدّ قوة وآثاراً في الأرض فما أغنى عنهم ماكانوا يكسبون * فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ماكانوا به يستهزؤون * فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنّا به مشركين * فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سُنَّتَ الله التي قد خلت في عباده وخسر هنالك الكافرون**﴾ وإنك لتجد وحدة السياق من خلال وحدة هذه المعاني المتشابهة في أول السورة ووسطها وخاتمتها ، كما أنك تجدها في غير ذلك ، كموضوع جدال الكافرين في آيات الله الذي عرض في أول السورة ووسطها وخاتمتها ..

....

إنك لو تأمّلت قصة موسى عليه السّلام لوجدتها تخدم المعاني التي سبقتها ، والمعاني التي لحقتها ، ولو تأمّلت معاني الفقرات الأخيرة في السورة لوجدت تلاحمها مع بعضها ، ولوجدت صلاتها مع ماسبقها في السورة ، فالسورة كل متكامل ، ومع ذلك فهي تفصّل في محورها من سورة البقرة ، وتأخذ محلّها في مجموعتها .

فـــائدة :

إن هناك معان كثيرة تذكر في القرآن باختصار ، إن مجـرد الإشـارة إليها يعتبـر معجزة ضخمة لمن عقل ، وتأمّل من ذلك قوله تعالى : ﴿ **فلما جاءتهم رسلهم بالبينات**

فرحوا بما عندهم من العلم ﴾ فالإشارة إلى أنّ العلم الدنيوي عامل من عوامل الغرور الصاد عن متابعة الرسل ، معجزة من معجزات هذا القرآن ، وهي معجزة لايدرك الإنسان مداها كما يدركه في عصرنا ، إذ وصل الغرور البشري إلى ذروته ، فأصبح أهل العلم بقوانين هذا الكون يحتقرون كل العلوم الدينية إلا المنصفين منهم ، وقليل ماهم ، قال صاحب الظلال : (والعلم ــ بغير إيمان ــ فتنة . فتنة تعمي وتطغي . ذلك أن هذا اللون من العلم الظاهري يوحي بالغرور ، إذ يحسب صاحبه أنه يتحكم بعلمه هذا في قوى ضخمة ، ويملك مقدرات عظيمة ، فيتجاوز بنفسه قدرها ومكانها ! وينسى الآماد الهائلة التي يجهلها . وهي موجودة في هذا الكون ، ولا سلطان له عليها . بل لاإحاطة له بها . بل لامعرفة له بغير أطرافها القريبة . وبذلك ينتفخ فيأخذ أكثر من حقيقته . ويستخفه علمه وينسى جهله . ولو قاس مايعلم إلى مايجهل . ومايقدر عليه في هذا الكون إلى مايعجز حتى عن إدراك سره لطامن من كبريائه ، وخفف من فرحه الذي يستخفه) .

كلمة أخيرة في سورة غافر ومحلّها من مجموعتها :

رأينا أن محور سورة غافر هو قوله تعالى : ﴿ **إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لايؤمنون * ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم** ﴾ .

وقد رأينا في السورة الكثير مما له علاقة بالمحور ، فرأينا أنّ علامة الكفر هي المجادلة في آيات الله : ﴿ **مايجادل في آيات الله إلا الذين كفروا** ﴾ .

ورأينا أنّ الجدال في آيات الله هو علامة الطبع على القلب . ﴿ **كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب * الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم كبر مقتاً عند الله وعند الذين آمنوا كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار** ﴾ .

ورأينا أن العلّة الحقيقية للجدال في آيات الله هي الكبر : ﴿ **إن الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم إن في صدورهم إلا كبر ماهم ببالغيه** ﴾ .

ورأينا أن المجادلين في آيات الله مصروفون عن الحق بسبب العمى والصمم ، اللذين يصاب بهما القلب الكافر ﴿ **ألم تر إلى الذين يجادلون في آيات الله أنّىٰ يصرفون** ﴾ .

ورأينا في السورة : استحقاق الكافرين لعذاب الله في الدنيا ، ورأينا صورة عن عذابهم في البرزخ ، ورأينا صورة عن عذابهم يوم القيامة ، ورأينا – مع هذا كله – كيف أن الحجة قائمة عليهم ، ورأينا أدب النذير ، ونماذج من الإنذار ، ورأينا ماينبغي أن يفعله النذير في مقابلة كفر الكافرين ، وارتباط ذلك كله بمحور السورة واضح .

وقد رأينا من قبل أنّ سورة (صّ) فصّلت في نفس المحور ، ورأينا أنّ سورة الأنبياء فصّلت في نفس المحور ، ولو تأمّلنا هذه السور لوجدنا أن كل سورة منهنّ قد فصّلت في مجال ، وأبرزته ووضّحته ، فالمحور وإن كان واحداً لكن التفصيل والسياق الخاص لكل سورة متعدد ، ولكل سورة روحها الخاصة بها . وبمجموع السور التي تفصّل محوراً واحداً يتكامل التفصيل للمحور ، وكل سورة في محلها تخدم مجموعتها ، وتترابط معها بحيث تؤدي مع مجموعتها خدمة متكاملة لمجموع القرآن ، وذلك من عجائب هذا القرآن التي لا يحيط بها أحد إلا الله .

لاحظ ماذا أدّته سورة الزمر ؟.

سورة الزمر فصّلت في نقطة البداية للاهتداء بهذا القرآن ، وبيّنت أنّ الاهتداء بهذا القرآن لصالح الإنسان . وجاءت سورة غافر فبيّنت خطر المجادلة في آيات الله ، وربّت على التسليم . وستأتي سورة (فصّلت) لتبين مواقف الكافرين من دعوة رسول الله ﷺ ، ومن القرآن ، وتردّ عليها ، وتبيّن ملامح الطريق إلى الله ، وتدفع المسلم إلى السير الصحيح فيه ، وهكذا تجد أنّ المجموعة كمّلت بعضها بعضاً ، مع كون كل سوره قد خدمت محورها في سياقها الرئيسي .

— — — — — — — —

والملاحظ أن سورة غافر فصّلت في الآيات الأربع الأولى من سورة البقرة ، من خلال سياقها ، وماذلك إلا لأنّ الآيات الأولى من سورة البقرة الواردة في المتقين هي المقدمة الصحيحة للكلام عن الكافرين ، وسنلاحظ أنّ سورة (فصّلت) ستفصّل في الآيات نفسها ، وفي الآيات التي تتحدّث عن الكافرين ، حتى إنّ مقدمتها لتكاد تكون إجمالاً لذلك كله . وماذلك إلا لأنّ هذا كله مقدمة بديهية لمضمونها ، فسورة (فصّلت) تلخّص مضمون السورتين السابقتين ، ثم تنطلق في موضوعها الخاص .. وسورة (غافر) تلخّص مضمون سورة (الزمر) ، وتنطلق في سياقها الخاص ومن ثمّ نجد مايلي :

تبدأ سورة الزمر بقوله تعالى : ﴿ **تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم** ﴾ وسورة غافر تبدأ بقوله تعالى : ﴿ **حمٓ * تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم * غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول لا إله إلا هو إليه المصير** ﴾ .. ثم تحدثت عن الكافرين ، وسورة فصّلت تلخص في مقدمتها مضمون السورتين السابقتين ، وتنطلق فنجد بدايتها : ﴿ **حم * تنزيل من الرحمن الرحيم * كتاب فُصّلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون * بشيراً ونذيراً فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون * وقالوا قلوبنا في أكنّة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل إننا عاملون** ﴾ فالسورة اللاحقة في المجموعة تلخّص مضامين ماقبلها وتبني عليها .

— — — — — — — —

كنا قد سجّلنا معنى في سورة الزمر : هو أن سورة الزمر بدأت بذكر اسمين من أسماء الله عز وجل . ﴿ **العزيز الحكيم** ﴾ وقلنا إنه يلاحظ أنّ السورة يظهر فيها آثار هذين الاسمين فهي مجلى لهما .

ونلاحظ أن سورة غافر بدأت بذكر ستة أسماء لله عز وجل هي : العزيز ـــ العليم ـــ غافر الذنب ـــ قابل التوب ـــ شديد العقاب ـــ ذو الطول ـــ ومن تأمّل السورة وجد مظهر اسم الله العزيز في سياقها ، سواء في نصرة الرسل ، أو في تعذيب الكافرين ، أو في عقوبة من يجادل في آياته ، كما يجد فيها مظهر اسم الله العليم في سياقها عامة ، سواء في ذكر أدق خفايا النفس البشرية ، أو في عرضها مالا يعلمه إلا الله ، كما يجد فيها مظهر اسم الله غافر الذنب ، نرى ذلك عندما تحدّثنا عن دعاء الملائكة لأهل الإيمان بالغفران وكذلك قابل التوب ﴿ **فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك** ﴾ كما تجد فيها مظهر اسم الله ذي الطول في إنعامه على المؤمنين وعلى الرسل ، كما نجد فيها مظهر اسم الله شديد العقاب ، في الكلام عن معاقبته المكذبين للرسل ، فالسّورة مجلى لأسماء الله التي ذكرت في بدايتها ، وفي كون السور القرآنية تظهر فيها آثار أسماء الله عز وجل ، وتعرفنا على هذه الأسماء فذلك وحده دليل على أن هذا القرآن من عند الله ، فالكلام صفة المتكلم .

لقد جعل الله الكون مجلى لأسمائه ، وجعل كتابه مجلى لأسمائه ، فمن لم ير الله في الكون ، ويره في القرآن فإنه أعمى ، ومن شك أن هذا الكون ليس من خلق الله ، أو شك أن هذا القرآن ليس كلام الله ، فإنه أعمى .

هذه سورة غافر تنسجم بداياتها ونهاياتها وأواسطها مع بعضها . وتخدم محورها ، وتخدم مجموعتها ، وتتداخل هذه المعاني كلها مع السياق الخاص للسورة .

أليس هذا من العجب العجيب؟! أو ليس الكفر بعد ذلك ضرباً من الخيال العقلي الواضح؟!

☆ ☆ ☆

سورة فصلت

وهي السورة الحادية والأربعون بحسب الرسم القرآني
وهي السورة الثالثة من المجموعة الثالثة من قسم المثاني
وآياتها أربع وخمسون آية
وهي مكية

وهي السورة الثانية من آل (حمٓ)

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وآله وأصحابه

ربنا تقبل منا، إنك أنت السميع العليم

كلمة في سورة فصلت ومحورها:

أول ظاهرة نراها في سورة فصّلت هي التشابه الكبير بينها وبين سورة هود، فنلاحظ ما يلي:

بدأت سورة هود بقوله تعالى: ﴿ **الٓر كتاب أحكمت آياته ثم فُصّلت من لدن حكيم خبير * ألا تعبدوا إلا الله إنني لكم منه نذير وبشير** ﴾.

وبدأت سورة فصّلت بقوله تعالى: ﴿ **حمٓ * تنزيل من الرحمٰن الرحيم * كتاب فصّلت آياته قرآناً عربياً لقومٍ يعلمون * بشيراً ونذيراً فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون** ﴾.

ويأتي في الآية الثالثة في سورة هود قوله تعالى: ﴿ **وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه ...** ﴾. ونلاحظ أن الآية السادسة في سورة فصّلت فيها: ﴿**فاستقيموا إليه واستغفروه ..**﴾.

والآية السابعة في سورة هود هي: ﴿**وهو الذي خلق السمٰوات والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء ...**﴾.

ونلاحظ أن الآيتين التاسعة والعاشرة من سورة فصّلت: ﴿**قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أنداداً ذلك رب العالمين * وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدّر فيها أقواتها في أربعة أيام سواءً للسائلين**﴾.

وتحدثت سورة هود عن عاد وثمود، وقول هود وصالح لهما: ﴿**ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره**﴾ ونلاحظ أنّ سورة فصّلت ورد فيها قوله تعالى: ﴿**فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود * إذ جاءتهم الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم ألا تعبدوا إلا الله ..**﴾.

وجاءت في سورة هود قوله تعالى: ﴿**ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه ولولا كلمة سبقت من ربك لقضي بينهم وإنّهم لفي شك منه مريب ..**﴾ (الآية: ١١٠) والملاحظ أن هذه الآية وردت في سورة فصلت (الآية: ٤٥).

وقد ورد في سورة هود قوله تعالى: ﴿**فاستقم كما أمرت ومن تاب معك**﴾ (الآية: ١١٢).

ونلاحظ أنّه قد ورد في سورة فصّلت قوله تعالى: ﴿**فاستقيموا إليه**﴾ (من الآية: ٦) و ﴿**إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا**﴾ (الآية: ٣٠).

ونجد في سورة هود قوله تعالى: ﴿**ولئن أذقنا الإنسان منّا رحمة ثمّ نزعناها منه إنّه ليئوس كفور * ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسّته ليقولَنَ ذهب السيئات عني إنه لفرح فخور * إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة وأجر كبير**﴾ (الآية: ٩- ١١).

ونجد في سورة فصّلت ﴿**لايسأم الإنسان من دعاء الخير وإن مسّه الشر فيئوسٌ قنوط * ولئن أذقناه رحمة منا من بعد ضراء مسّته ليقولن هذا لي وما أظن الساعة قائمة ولئن رجعت إلى ربي إنّ لي عنده للحسنى فَلَنُنَبِئَنَّ الذين كفروا بما عملوا ولنذيقنّهم من عذاب غليظ * وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه وإذا مسَّه الشر فذو دعاء عريض**﴾ (الآية: ٤٩: ٥١).

من هذه المقارنة ندرك أن التشابه كبير بين سورة فصّلت وسورة هود، وهذا يفيد أنّ المحور واحد، فإذا كان محور سورة هود هو قوله تعالى من سورة البقرة: ﴿**ياأيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون * الذي جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناءً، وأنزل من السماء ماءً فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون**﴾ إذا كان هذا محور سورة هود فإنه هو نفسه محور سورة فصّلت.

لاحظ أن آيتي سورة البقرة فيهما أمر ونهي: ﴿**اعبدوا ربكم..**﴾ ﴿**فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون**﴾.

وفي سورة فصّلت نجد قوله تعالى: ﴿**قل إنما أنا بشر مثلكم يوحىٰ إليّ أنما إلهكم إله واحد فاستقيموا إليه واستغفروه**﴾ (الآية: ٦) ونجد ﴿**قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أنداداً**﴾ (الآية: ٩) فالعبادة ونفي الشرك واضحان من بدايات السورة.

وكما أن محور السورة من سورة البقرة فصل في الطريق إلى التقوى، وسورة هود فصّلت في هذا الطريق، فإنّ سورة فصّلت كذلك تفصّل في هذا الطريق.

ولا يظنّنّ ظانّ نتيجة للتشابه الكبير بين سورة هود وسورة فصّلت، ونتيجة لوحدة

المحور أنّ سورة فصّلت نسخة طبق الأصل من سورة هود فذلك خطأ كبير، إن سورة فصّلت ككلّ سورة، لها روحها الخاصة، ووحدتها الخاصة، وسياقها الخاص، ثم هي تفصّل محورها من سورة البقرة تفصيلاً جديداً، يبنى على تفصيل سورة هود، فإذا كانت سورة هود فصّلت في أنّ الأمر بالعبادة هو أمر مشترك بين هذه الرسالة وبين كل رسالة لله، وبينت ذلك، ودلّلت عليه، فإنّ سورة فصّلت ينصبّ الكلام فيها على مخاطبة هذه الأمة في هذا الشأن.

....

تتألف السورة من مقدمة هي: ﴿**حمٓ * تنزيل من الرحمٰن الرحيم * كتاب فصّلت آياته قرآناً عربياً لقومٍ يعلمون * بشيراً ونذيراً فأعرض أكثرهم فهم لايسمعون * وقالوا قلوبنا في أكنَة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل إننا عاملون**﴾. ومن مقطع واحد هو ردّ على موقفهم هذا. ويتألف من ثلاث فقرات، كل فقرة مبدوءة بكلمة ﴿**قل**﴾: ﴿**قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إليّ أنّما إلهكم إله واحد فاستقيموا إليه واستغفروه وويل للمشركين**﴾ (الآية: ٦) ﴿**قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أنداداً..**﴾ (الآية: ٩) ﴿**قل أرأيتم إن كان من عند الله ثم كفرتم به من أضل ممّن هو في شقاق بعيد...**﴾ (الآية: ٥٢) فالسورة عرض لموقف وردٌّ عليه، ودعوة لما يقابله، من التوحيد والعبادة، والاستقامة على الأمر.

ومن ثمّ فإنّ السّورة كما قلنا تفصيل جديد، بأسلوب جديد، لمحورها من سورة البقرة.

....

فمحور السورة من سورة البقرة دعا الناس جميعاً إلى عبادة الله للوصول إلى التقوى التي من أركانها الإيمان بالقرآن، وعدم الشك فيه، والاهتداء بهديه.

وجاءت سورة النّساء لتفصّل في ماهية التقوى، وجاءت سورة هود ففصّلت في موضوع العبادة، وتأتي سورة فصّلت لتبيّن موقف الكافرين من دعوة الرسول ﷺ عامة. ثم يأتي الرّد، ومن الرد نعلم أنهم رفضوا الاستقامة والاستغفار، ورفضوا الزكاة، ورفضوا التوحيد، وأصرُّوا على الشرك، ومن خلال الردّ يدعونا الله عز وجل للإيمان والتقوى، ومعرفة الله، وعبادته، والاستقامة على أمره.

وهكذا نجد السورة تكمّل البناء الذي وضعت آيتا سورة البقرة أساسه ، وجاءت سورة النساء ، وسورة هود ، وسورة الحج ، وسورة الأحزاب ، ثم سورة فصّلت لتكمّل كل منها البناء بشكل من الأشكال ، وكانت كل سورة من هذه السور تفصيلاً لمعنى مستكن في ذلك المحور .

نقــل :

قال الألوسي في تقديمه لسورة فصلت : (وتسمى سورة السجدة ، وسورة حم السجدة ، وسورة المصابيح ، وسورة الأقوات ، وهي مكية بلا خلاف ، ولم أقف فيها على استثناء ، وعدد آياتها كما قال الداني خمسون ، وآيتان بصري وشامي ، وثلاث مكي ومدني ، وأربع كوفي ، ومناسبتها لما قبلها أنه سبحانه ذكر قبل ﴿ **أفلم يسيروا في الأرض** ﴾ الخ .. وكان ذلك متضمناً تهديداً وتقريعاً لقريش ، وذكر جل شأنه هنا نوعاً آخر من التهديد والتقريع لهم ، وخصّهم بالخطاب في قوله تعالى : ﴿ **فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود** ﴾ثم بيّن سبحانه كيفية إهلاكهم ، وفيه نوع بيان لما في قوله تعالى : ﴿ **أفلم يسيروا** ... ﴾ (الآية : ٢) ، وبينهما أوجه من المناسبة غير ماذكر . وأخرج البيهقي في شعب الإيمان عن الخليل بن مرة أن رسول الله ﷺ كان لا ينام حتى يقرأ تبارك وحم السجدة .) .

☆ ☆ ☆

مقدمة السورة

وتتألف من خمس آيات وهذه هي

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا
عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ
﴿٤﴾ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ
حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ﴿٥﴾

التفسير :

﴿ **حمٓ * تنزيل من الرحمن الرحيم** ﴾يعني : القرآن ﴿ **كتاب فصّلت آياته** ﴾قال ابن كثير : أي : بيّنت معانيه ، وأحكمت أحكامه . وقال النسفي : أي : ميّزت وجعلت تفاصيل في معان مختلفة ، من أحكام وأمثال ، ومواعظ ووعد ووعيد ، وغير ذلك . ﴿ **قرآناً عربياً** ﴾ قال ابن كثير : أي : في حال كونه قرآناً عربياً واضحاً ، فمعانيه مفصّلة ، وألفاظه واضحة غير مشكلة . ﴿ **لقوم يعلمون** ﴾ قال ابن كثير : أي : إنما يعرف هذا البيان والوضوح العلماء الراسخون ﴿ **بشيراً ونذيراً** ﴾ أي : بشيراً للمؤمنين ، ونذيراً للكافرين ﴿ **فأعرض أكثرهم** ﴾ أي : أكثر الناس . أو أكثر المخاطَبين الأوائل به وهم قريش ﴿ **فهم لايسمعون** ﴾ أي : لا يسمعون سماع قبول ، ولا يعملون بمقتضاه ﴿ **وقالوا** ﴾ أي : الكافرون ﴿ **قلوبنا في أكنّة** ﴾ أي : في أغطية أي : في غلف مغطاة ﴿ **مما تدعونا إليه** ﴾ من التوحيد والإيمان والتقوى ﴿ **وفي آذاننا وقر** ﴾ أي : ثقل يمنع من استماع قولك . أي : صَمَم عما جئتنا به ﴿ **ومن بيننا وبينك حجاب** ﴾أي : ستر ، فلا يصل إلينا شيء مما تقول ﴿ **فاعمل إننا عاملون** ﴾ أي : اعمل أنت على طريقتك ونحن على طريقتنا عاملون ولن نتابعك ، أو اعمل على دينك إننا عاملون على ديننا ، أو فاعمل في إبطال أمرنا إننا عاملون في إبطال أمرك .

نقــل :

بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **حمٓ** ﴾ في افتتاح سورة فصّلت قال صاحب الظلال : (سبق الحديث عن الافتتاح بالأحرف المقطعة في سور شتى . وتكرار هذا الافتتاح : « حا . ميم » .. يتمشى مع طريقة القرآن في تكرار الإشارة إلى الحقائق التي يلمس بها القلب البشري ، لأن فطرة هذا القلب تحتاج إلى تكرار التنبيه ، فهو ينسى إذا طال عليه الأمد ، وهو يحتاج ابتداء إلى التكرار بطرق شتّى لتثبيت أية حقيقة شعورية فيه . والقرآن يأخذ هذا القلب بما أودع في فطرته من خصائص واستعدادات ، وفق ما يعلم خالق هذا القلب ومصرّفه بما يشاء) .

كلمة في السيـاق :

ذكرت مقدّمة السورة بعض خصائص القرآن ، وبيّنت أنّ العلم صفة لابدّ منها لمعرفة هذه الخصائص ، وبيّنت أنّ أكثر الناس قد أعرضوا عن قبول هذا القرآن ؛ لأنهم لايسمعون ، فقلوبهم صمّاء . ولو أنّنا تأمّلنا هذه المقدّمة لوجدناها قد أجملت المعاني الموجودة في مقدّمة سورة البقرة ﴿ **الٓمٓ * ذلك الكتاب لاريب فيه هدى للمتقين** ﴾ فالمقدّمة أشعرتنا بأن هذا القرآن أن لاريب فيه من خلال ذكر إحكامه وتفصيله .

كما أجملت المعاني الموجودة في قوله تعالى من مقدّمة سورة البقرة : ﴿ **إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لايؤمنون * ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم** ﴾ لقد أجملت مقدّمة سورة فصّلت هذه المعاني عندما قالت : ﴿ **فأعرض أكثرهم فهم لايسمعون * وقالوا قلوبنا في أكنّة ممّا تدعونا إليه وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل إننا عاملون** ﴾ .

وكما أنّه بعد المقدّمة في سورة البقرة جاء قوله تعالى : ﴿ **ياأيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون ... فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون** ﴾ . فسنرى فيما سيأتي من سورة فصّلت دعوة إلى العبادة والتوحيد ، ونهياً عن الشرك ، من خلال الردّ على قول الكافرين الذي تضمنته مقدّمة سورة فصّلت .

ولنتساءل : لقد قلنا إنّ محور سورة فصّلت هو قوله تعالى من سورة البقرة :

﴿ **يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون** ... ﴾ . بينما نرى سورة فصّلت تبدأ هذه البداءة ، فما الصّلة بين هذه البداية والمحور ؟ لقد دعا الله عزّ وجلّ الناس جميعاً لعبادته وتقواه ، ولكن الجزء الأكبر من الناس رفضوا هذه الدعوة ، وأعلنوا رفضهم ، وهذا الرفض ينبغي أن يناقش ، ومن ثمّ جاءت سورة فصلت لتبيّن رفض أكثر الناس لهذه الدعوة ، وتناقشهم ، وتبيّن أن مضمون هذه الدعوة حق ، وتلاحق فكرة الرفض هذه ملاحقة تامة ؛ فسورة فصّلت تؤدي دوراً جديداً في تفصيل محورها ، والدعوة إلى مضمونه .

ولكون إبراز هذا المعنى يقتضي منّا كلاماً متواصلاً فسنؤخّر نقل الفوائد إلى نهاية السورة ، وسنعرض بقية السورة على مجموعات ، وسنرى صلة المجموعات ببعضها البعض ، ومحلّها في الردّ على كلام الكافرين ، وموقفهم ، وصلتها بالمحور .

☆ ☆ ☆

المجموعة الأولى

وتمتد من الآية (٦) إلى نهاية الآية (٨) وهذه هي :

قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٨﴾

التفسير :

﴿ **قل** ﴾ يا محمّد ردّاً على موقف الكافرين وكلامهم ﴿ **إنما أنا بشر مثلكم يوحى إليّ أنّما إلهكم إله واحد** ﴾ أي : إني لست بملك ، وإنّما أنا بشر مثلكم ، وقد أوحي إليّ دونكم ، فصحّت نبوّتي بالوحي إليّ وأنا بشر ، وإذا صحّت نبوّتي وجب عليكم اتّباعي ، وفيما يوحى إليّ أنّ إلهكم إله واحد ﴿ **فاستقيموا إليه** ﴾ قال ابن كثير : (أي : أخلصوا له العبادة على منوال ما أمركم به على ألسنة الرّسل) وقال النّسفي :

(أي: فاستووا إليه بالتوحيد وإخلاص العبادة ، غير ذاهبين يميناً ولا شمالاً ، ولا ملتفتين إلى ما يسوِّل لكم الشيطان من اتّخاذ الأولياء والشفعاء) ﴿ **واستغفروه** ﴾ أي: لسالف الذنوب ، أو واستغفروه إذا وقعتم فيما يخالف الاستقامة ، أو واستغفروه من الشرك الذي واقعتموه ﴿ **وويل للمشركين** ﴾أي: دمار لهم وهلاك ﴿ **الذين لايؤتون الزكاة** ﴾ أي: لايؤمنون بوجوب الزكاة ، ولايعطونها ، أو لايفعلون مايكونون به أزكياء النفوس بأن يؤمنوا ﴿ **وهم بالآخرة** ﴾ أي: بالبعث والثواب والعقاب ﴿ **هم كافرون** ﴾ قال النسفي : (وإنما جعل منع الزكاة مقروناً بالكفر بالآخرة ؛ لأن أحب الشيء إلى الإنسان ماله ، وهو شقيق روحه ، فإذا بذله في سبيل الله فذلك أقوى دليل على استقامته ، وصدق نيته ، ونصوع طويته ، وماخدع المؤلفة قلوبهم إلا بلُمظة من الدنيا ، فقرت عصبيتهم ، ولانت شكيمتهم ، وماارتدت بنو حنيفة إلا بمنع الزكاة ، وفيه بعث للمؤمنين على أداء الزكاة ، وتخويف شديد من منعها) . ﴿ **إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون** ﴾ أي: غير مقطوع ولا مجبوب .

....

كلمة في السياق :

في هذه الآيات تلخيص لدعوة الرسول ﷺ التى رفضها الكافرون ، وهي الإيمان بالوحي الإلهي ، الذي مضمونه التوحيد ، والاستقامة على أمر الله ، والاستغفار ، والإيمان والعمل الصالح ، وأن العذاب واقع بالكافرين الذين من صفاتهم منع الزكاة ، والكفر باليوم الآخر ، وأنّ الأجر حاصل للمؤمنين الذين يعملون الصالحات . هذا تلخيص لدعوة الرسول ﷺ ، وهذا التلخيص ردّ على الكافرين في قولهم : ﴿ **وقالوا قلوبنا في أكنّة** .. ﴾ فدعوة هذا مضمونها لا شيء فيه يرفضه العقل أو العلم أو الإنصاف ، فلماذا يرفضها الكافرون ! هذا ماله علاقة بصلة هذه المجموعة بما قبلها . فلنر صلة المجموعة بمحور السورة .

رأينا أنّ محور السورة هو قوله تعالى : ﴿ **ياأيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون ... فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون** ﴾ وقد ذكرت آيات المجموعة التوحيد ، والاستقامة ، والاستغفار ، والزكاة ، والإيمان باليوم الآخر ،

والإيمان، والعمل الصالح، وكلها معانٍ داخلة في العبادة والتوحيد والتقوى، وأنذرت المشركين، وذكرت علامة الشرك، وأنها منع الزكاة، والكفر باليوم الآخر، وكل ذلك نوع تفصيل لمحور السورة؛ فالسورة لها مسارها الخاص، وهي في الوقت نفسه تفصيل لمحورها .

☆ ☆ ☆

المجموعة الثانية

وتمتد من الآية (٩) حتى نهاية الآية (١٢) وهذه هي :

قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١٢﴾

التفسير :

﴿ **قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين** ﴾ قال النسفي : تعليماً للأناة، ولو أراد الله أن يخلقها في لحظة لفعل ﴿ **وتجعلون له أنداداً** ﴾ أي : نظراء وأمثالاً وشركاء وأشباهاً تعبدونهم من دون الله ﴿ **ذلك رب العالمين** ﴾ أي : الخالق للأشياء هو رب العالمين وسيدهم ومربيهم فلا يستحق الربوبية إلا الخالق ﴿ **وجعل فيها رواسي** ﴾ أي : جبالاً ثوابت ﴿ **من فوقها** ﴾ كما هو مشاهد ﴿ **وبارك فيها** ﴾ أي :

وأكثر خيرها قال ابن كثير : أي : جعلها مباركة قابلة للخير والبذار والغراس ﴿ **وقدَّر فيها أقواتها** ﴾ أي : أرزاق أهلها ومعايشهم ومايصلحهم ﴿ **في أربعة أيام** ﴾ قال النّسفي : (أي : في تتمة أربعة أيام ، فخلق الأرض في يومين ، وإيجاد الرواسي وتقدير الأقوات في يومين آخرين ، فكان المجموع أربعة أيام) . ﴿ **سواء** ﴾ أي : استواء ﴿ **للسائلين** ﴾أي : هذا الحصر لأجل من سأل في كم خلقت الأرض وما فيها ؟ قال ابن كثير : (أي : لمن أراد السؤال عن ذلك ليعلمه ﴿ **ثم استوى إلى السماء وهي دخان** ﴾ أي : عمد إلى السماء في حالة كونها دخاناً ﴿ **فقال لها وللأرض**﴾ أي : لهما جميعاً ﴿ **ائتيا طوعاً أو كرهاً** ﴾ قال ابن كثير : أي استجيبا لأمري وانفعلا لفعلي طائعتين أو مكرهتين ﴿**قالتا أتينا طائعين**﴾ أي : قالتا بل نستجيب لك مطيعين قال الحسن البصري : (لو أبيا عليه أمره لعذّبهما عذاباً يجدان ألمه) رواه ابن أبي حاتم ﴿**فقضاهن سبع سمٰوات في يومين**﴾ أي : فأحكم خلقهن سبع سمٰوات في يومين ، قال ابن كثير : أي : ففرغ من تسويتهن سبع سمٰوات في يومين آخرين ﴿**وأوحىٰ في كل سماء أمرها**﴾ قال ابن كثير : أي : ورتّب فوراً في كل سماء ماتحتاج إليه من الملائكة ، وما فيها من الأشياء التي لايعلمها إلا هو ﴿**وزيّنا السماء الدنيا**﴾ أي : القريبة من الأرض ﴿**بمصابيح**﴾ وهي الكواكب المنيرة المشرقة على أهل الأرض ﴿**وحفظاً**﴾ أي : وحفظناها من المسترقة حفظاً ﴿**ذلك تقدير العزيز**﴾ الذي قد عزّ كل شيء فغلبه وقهره ﴿**العليم**﴾ بمواقع الأمور . ولنا في الفوائد كلام حول هذه الآيات وما ورد فيها من خلق السمٰوات والأرض .

وههنا ننقل وجهة نظر صاحب الظلال في هذه الآيات وقد جزم ههنا على غير عادته بأنّ هذه الأيام الستة ليست كأيامنا ، والذي دعاه إلى ذلك فيما يبدو ذكر الجبال والأقوات ، ولا شك أنّ خلقها كما هي عليه جاء متأخراً عن بدء خلق الأرض ، ولكنّ الآية تحتمل أنّه قد أوجد هذا فيها بالقوة ثمّ كان ذلك بالفعل .

قال رحمه الله شارحاً هذه الآيات التي مرّت معنا :

(إنه يذكر حقيقة خلق الأرض في يومين . ثم يعقب عليها قبل بقية قصة الأرض . يعقب على الحلقة الأولى من قصة الأرض . ﴿**ذلك رب العالمين**﴾ .. وأنتم تكفرون به وتجعلون له أنداداً . وهو خلق هذه الأرض التي أنتم عليها . فأي تبجح وأي استهتار وأي فعل قبيح ؟!

وما هذه الأيام : الاثنان اللذان خلق فيهما الأرض . والاثنان اللذان جعل فيهما الرواسي . وقدر فيهما الأقوات ، وأحل فيهما البركة . فتمت بهما الأيام الأربعة ؟.

إنها بلاشك أيام من أيام الله التي يعلم هو مداها . وليست من أيام هذه الأرض . فأيام هذه الأرض إنما هي مقياس زمني مستحدث بعد ميلاد الأرض . وكما للأرض أيام ، هي مواعيد دورتها حول نفسها أمام الشمس ، فللكواكب الأخرى أيام ، وللنجوم أيام . وهي غير أيام الأرض . بعضها أقصر من أيام الأرض وبعضها أطول .

والأيام التي خلقت فيها الأرض أولاً ، ثم تكونت فيها الجبال ، وقدرت فيها الأقوات ، هي أيام أخرى مقيسة بمقياس آخر ، لا نعلمه ، ولكننا نعرف أنه أطول بكثير من أيام الأرض المعروفة .

وأقرب مانستطيع تصوره وفق ماوصل إليه علمنا البشري أنها هي الأزمان التي مرت بها الأرض طوراً بعد طور ، حتى استقرت وصلبت قشرتها وأصبحت صالحة للحياة التي نعلمها . وهذه قد استغرقت ـــ فيما تقول النظريات التي بين أيدينا ـــ نحو ألفي مليون سنة من سنوات أرضنا !.

وهذه مجرد تقديرات علمية مستندة إلى دراسة الصخور وتقدير عمر الأرض بوساطتها . ونحن في دراسة القرآن لا نلجأ إلى تلك التقديرات على أنها حقائق نهائية . فهي في أصلها ليست كذلك . وإن هي إلا نظريات قابلة للتعديل . فنحن لا نحمل القرآن عليها ؛ إنما نجد أنها قد تكون صحيحة إذا رأينا بينها وبين النص القرآني تقارباً ، ووجدنا أنها تصلح تفسيراً للنص القرآني بغير تمحل . فنأخذ من هذا أن هذه النظرية أو تلك أقرب إلى الصحة ؛ لأنها أقرب إلى مدلول النص القرآني .

والراجح الآن في أقوال العلم أن الأرض كانت كرة ملتهبة في حالة غازية كالشمس الآن ـــ والأرجح أنها قطعة من الشمس انفصلت عنها لسبب غير متفق على تقديره ـــ وأنها استغرقت أزماناً طويلة حتى بردت قشرتها وصلبت . وأن جوفها لايزال في حالة انصهار لشدة الحرارة حيث تنصهر أقسى الصخور .

ولما بردت القشرة الأرضية جمدت وصلبت . وكانت في أول الأمر صخرية صلبة . طبقات من الصخر بعضها فوق بعض .

وفي وقت مبكر جداً تكونت البحار من اتحاد الإيدروجين بنسبة (٢) والأوكسجين

بنسبة (١) ومن اتحادهما ينشأ الماء .

(والهواء والماء على أرضنا هذه قد تعاونا على تفتيت الصخر وتشتيته ، وحمله وترسيبه ، حتى كانت من ذلك تربة أمكن فيها الزرع . وتعاونا على نحر الجبال والنجاد ، وملء الوهاد ، فلا تكاد تجد في شيء كان على الأرض أو هو كائن إلا أثر الهدم وأثر البناء)[١] .

(إن هذه القشرة الأرضية في حركة دائمة ، وفي تغيير دائم ، يهتز البحر بالموج فيؤثر فيها ، ويتبخّر ماء البحر . تبخّره الشمس ، فيصعد إلى السماء فيكون سحباً تمطر الماء عذباً ، فينزل على الأرض متدفقاً ، فتكون السيول ، وتكون الأنهار ، تجري في هذه القشرة الأرضية فتؤثر فيها . تؤثر في صخره فتحله فتبدل فيه من صخر صخراً . — أي : تحوله إلى نوع آخر من الصخور — وهي من بعد ذلك تحمله وتنقله . ويتبدّل وجه الأرض على القرون ، ومئات القرون وآلافها . وتعمل الثلوج الجامدة بوجه الأرض مايفعله الماء السائل . وتفعل الرياح بوجه الأرض ما يفعل الماء . وتفعل الشمس بوجه الأرض ما يفعله الماء والريح ، بما تطلق على هذا الوجه من نار ومن نور . والأحياء على الأرض تغير من وجهها كذلك . ويغير فيها ماينبثق فيها من جوف الأرض من براكين .

« وتسأل عالم الأرض — العالم الجيولوجي — عن صخور هذه القشرة فيعدد لك من صخورها الشيء الكثير ، ويأخذ يحدثك عن أنواعها الثلاثة الكبرى .

« يحدثك عن الصخور النارية . تلك التي خرجت من جوف الأرض إلى ظهرها صخراً منصهراً . ثم برد . ويضرب لك منها مثلاً بالجرانيت والبازلت . ويأتيك بعينة منها يشير لك فيها إلى ما احتوته من بلورات . بيضاء وحمراء أو سوداء ، ويقول لك : إن كل بلورة من هذه تدل على مركب كيماوي ، له كيان بذاته . فهذه الصخور أخلاط . ويلفت فكرك إلى أنه من هذه الصخور النارية ومن أشباهها تكونت قشرة هذه الأرض عندما تمت الأرض تكوناً في القديم الأقدم من الزمان . ثم قام يفعل فيها الماء ، هابطاً من السماء أو جارياً في الأرض ، أو جامداً في الثلج ، وقام يفعل الهواء ويفعل الريح .. وقامت تفعل الشمس . قامت جميعها تغير من هذه الصخور . من طبيعتها ومن

(١) من كتاب (مع الله في السماء) للدكتور أحمد زكي

كيميائها . فولدت منها صخوراً غير تلك الصخور ، حتى مايكاد يجمعها ـــ في منظر أو مخبر ـــ شيء .

وينتقل بك الجيولوجي إلى الصنف الأكبر الثاني من الصخور . إلى الصخور التي أسموها بالمترسبة أو الراسبة ، وهي تلك الصخور التي اشتقت بفعل الماء والريح والشمس ، أو بفعل الأحياء من صخور أكثر في الأرض أصالة وأعقد . وأسموها راسبة لأنها لا توجد في مواضعها الأولى . إنها حملت من بعد اشتقاق من صخورها الأولى ، أو وهي في سبيل اشتقاق . حملها الماء أو حملتها الريح ، ثم هبطت ورسبت واستقرت حيث هي من الأرض .

ويضرب لك الجيولوجي مثلاً للصخور الراسبة بالحجر الجيري الذي يتألف منه جبل كجبل المقطم ، ومن حجره تبني القاهرة بيوتها . ويقول لك : إنه مركب كيماوي يعرف بكربونات الكلسيوم ، وإنه اشتق في الأرض من عمل الأحياء أو عمل الكيمياء . ويضرب لك مثلاً بالرمل ، ويقول لك : إن أكثره أكسيد السيلسيوم ، وإنه مشتق كذلك ، ومثلاً آخر بالطَّفل والصلصال ، وكلها من أصول سابقة .

وتسأل عن هذه الأصول السابقة التي منها اشتقت تلك الصخور الراسبة ، على اختلافها ، فتعلم أنها الصخور النارية . بدأت الأرض عندما انجمد سطحها من بعد انصهار في قديم الأزل ، ولا شيء على هذا السطح المنجمد غير الصخر الناري . ثم جاء الماء ، وجاءت البحار ، وتفاعل الصخر الناري والماء . وشركهما الهواء .. شركهما غازات متفاعلة ، وشركهما رياحاً عاصفة ، وشركتهما الشمس ناراً ونوراً . وتفاعلت كل هذه العوامل جميعاً . وفقاً لما أودع فيها من طبائع . فغيرت من صخر ناري صلد غير نافع ، إلى صخر نافع . صخر ينفع في بناء المساكن ، وصخر ينفع في استخراج المعادن . وأهم من هذا ، وأخطر من هذا ، أنها استخرجت من هذا الصخر الناري الصلد ، الذي لا ينفع لحياة تقوم عليه ، استخرجت تربة ، رسبت على سطح الأرض ، مهدت لقدوم الأحياء والخلائق .

«إن الجرانيت لا ينفع لحرث أو زرع أو سقيا ، ولكن تنفع تربة هشة لينة خرجت منه . ومن أشباه له . وبظهور هذه التربة ظهر النبات ، وبظهور النبات ظهر الحيوان . وتمهدت الأرض لقيام رأس الخلائق على هذه الأرض . ذلك الإنسان ....»[1] .

---

(١) كتاب (مع الله في السماء)..

هذه الرحلة الطويلة ـــ كما يقدرها العلم الحديث ـــ قد تساعدنا على فهم معنى الأيام في خلق الأرض وجعل الرواسي فوقها ، والمباركة فيها . وتقدير أقواتها في أربعة أيام .. من أيام الله .. التي لا نعرف ماهي ؟ ما طولها ؟ ولكننا نعرف أنها غير أيام هذه الأرض حتماً ..

ونقف لحظة أمام كل فقرة من النص القرآني قبل أن نغادر الأرض إلى السماء ! .

﴿ **وجعل فيها رواسي من فوقها** ﴾ .. وكثيراً ما يرد تسمية الجبال « رواسي » وفي بعض المواضع يعلل وجود هذه الرواسي ﴿ **أن تميد بكم** ﴾ أي : إنها هي راسية ، وهي ترسي الأرض ، وتحفظ توازنها فلا تميد .. ولقد عبر زمان كان الناس يحسبون أن أرضهم هذه ثابتة راسخة على قواعد متينة ! ثم جاء زمان يقال لهم فيه الآن : إن أرضكم هذه إن هي إلا كرة صغيرة سابحة في فضاء مطلق ، لا تستند إلى شيء .. ولعلهم يفزعون حين يقال لهم هذا الكلام أول مرّة ، أو لعل منهم من ينظر بوجل عن يمينه وعن شماله خيفة أن تتأرجح به هذه الأرض ، أو تسقط في أعماق الفضاء ! فليطمئن . فإن يد الله تمسكها أن تزول هي والسماء . ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده ! وليطمئن فإن النواميس التي تحكم هذا الكون متينة من صنع القوي العزيز !.

ونعود إلى الجبال فنجد القرآن يقول إنها « رواسي » ، وإنها كذلك ترسي الأرض فلا تميد . ولعلها ـــ كما قلنا في موضع آخر من هذه الظلال ـــ تحفظ التناسق بين القيعان في المحيطات والمرتفعات في الأرض فتتوازن فلا تميد .

وهذا عالم يقول : «إن كل حدث يحدث في الأرض ، في سطحها أو فيما دون سطحها ، يكون من أثره انتقال مادة من مكان إلى مكان يؤثر في سرعة دورانها . فليس المد والجزر هو العامل الوحيد : ذلك . (أي : في بطء سرعة الأرض كما قال قبل هذه الفقرة) حتى ما تنقله الأنهار من ماء من ناحية في الأرض إلى ناحية يؤثر في سرعة الدوران . وما ينتقل من رياح يؤثر في سرعة الدوران . وسقوط في قاع البحار . أو بروز في سطح الأرض هنا أو هنا يؤثر في سرعة الدوران .. ومما يؤثر في سرعة هذا الدوران أن تتمدد الأرض أو تنكمش بسبب ما . ولو انكماشاً أو تمدداً طفيفاً لا يزيد في قطرها أو ينقص منه إلا بضع أقدام »[1].

---

(١) المصدر السابق .

فهذه الأرض الحساسة إلى هذا الحد ، لا عجب أن تكون الجبال الرواسي حافظة لتوازنها ومانعة : ﴿ **أن تميد بكم** ﴾ كما جاء في القرآن الكريم منذ أربعة عشر قرناً .

﴿ **وبارك فيها وقدر فيها أقواتها** ﴾ .. وقد كانت هذه الفقرة تنقل إلى أذهان أسلافنا صورة الزرع النامي في هذه الأرض،وبعض ما خبأه الله في جوف الأرض من معادن نافعة كالذهب والفضة والحديد وما إليها .. فأما اليوم بعد ما كشف الله للإنسان أشياء كثيرة من بركته في الأرض ومن أقواتها التي خزنها فيها على أزمان طويلة ، فإن مدلول هذه الفقرة يتضاعف في أذهاننا ..

وقد رأينا كيف تعاونت عناصر الهواء فكونت الماء .. وكيف تعاون الماء والهواء والشمس والرياح فكونت التربة الصالحة للزرع . وكيف تعاون الماء والشمس والرياح فكونت الأمطار أصل الماء العذب كله من أنهار ظاهرة وأنهار باطنة تظهر في شكل ينابيع وعيون وآبار .. وهذه كلها من أسس البركة ومن أسس الأقوات .

وهناك الهواء . ومن الهواء أنفاسنا وأجسامنا ...

« إن الأرض كرة تلفها قشرة من صخر . وتلفّ أكثر الصخر طبقة من ماء . وتلفّ الصخر والماء جميعاً طبقة من هواء . وهي طبقة من غاز سميكة . كالبحر ، لها أعماق . ونحن ــ بني الإنسان ، والحيوان ، والنبات ــ نعيش في هذه الأعماق ، هانئين بالذي فيها .

« فمن الهواء نستمد أنفاسنا ، من أكسجينه . ومن الهواء يبني النبات جسمه ، من كربونه ، بل من أكسيد كربونه ، ذلك الذي يسميه الكيماويون ثاني أكسيد الكربون . يبني النبات جسمه من أكسيد الفحم هذا . ونحن نأكل النبات . ونأكل الحيوان الذي يأكل النبات . ومن كليهما نبني أجسامنا . بقي من غازات الهواء النتروجين ــ أي الأزوت ــ فهذا لتخفيف الإكسجين حتى لا نحترق بأنفاسنا . وبقي بخار الماء ، وهذا لترطيب الهواء . وبقيت طائفة من غازات أخرى ، توجد فيه بمقادير قليلة هي ــ في غير ترتيب ــ الأرجون والهليوم والنيون ، وغيرها . ثم الإدروجين . وهذه تخلفت ــ على الأكثر ــ في الهواء من بقايا خلقة الأرض الأولى »[١] .

---

(١) المصدر السابق .

والمواد التي نأكلها والتي ننتفع بها في حياتنا ـــ والأقوات أوسع مما يؤكل في البطون ـــ كلها مركبات من العناصر الأصلية التي تحتويها الأرض في جوفها أو في جوها سواء . وعلى سبيل المثال هذا السكر ماهو ؟ إنه مركب من الكربون والأيدروجين والإكسجين . والماء علمنا تركيبه من الإدروجين والإكسجين .. وهكذا كل ما نستخدمه من طعام أو شراب أو لباس أو أداة .. إن هو إلا مركب من بين عناصر هذه الأرض المودعة فيها ..

فهذا كله يشير إلى شيء من البركة وشيء من تقدير الأقوات .. في أربعة أيام .. فقد تم هذا في مراحل زمنية متطاولة .. هي أيام الله ، التي لا يعلم مقدارها إلا الله .

﴿ ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين * فقضاهن سبع سمٰوات في يومين وأوحىٰ في كل سماء أمرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظاً ذلك تقدير العزيز العليم ﴾ .

﴿ ثم استوى إلى السماء وهي دخان ﴾ .. إن هناك اعتقاداً أنه قبل خلق النجوم كان هناك مايسمى السديم . وهذا السديم غاز .. دخان .

« والسدم ـــ من نيرة ومعتمة ـــ ليس الذي بها من غاز وغبار إلا ماتبقى من خلق النجوم . إن نظرية الخلق تقول : إن المجرة كانت من غاز وغبار . ومن هذين تكونت بالتكثّف النجوم ، وبقيت لها بقية . ومن هذه البقية كانت السدم . ولايزال من هذه البقية منتشراً في هذه المجرة الواسعة مقدار من غاز وغبار ، يساوي ماتكونت منه النجوم . ولاتزال النجوم تحرص منه بالجاذبية إليها . فهي تكنس السماء منه كنساً . ولكن الكناسين برغم أعدادهم الهائلة قليلون بالنسبة لما يراد كنسه من ساحات أكبر وأشد هولاً »[١] .

وهذا الكلام قد يكون صحيحاً لأنه أقرب مايكون إلى مدلول الحقيقة القرآنية : **﴿ ثم استوى إلى السماء وهي دخان ﴾** .. وإلى أن خلق الله السمٰوات تم في زمن طويل . في يومين من أيام الله .

ثم نقف أمام الحقيقة الهائلة : **﴿ فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً . قالتا : أتينا طائعين ﴾** .

---

(١) المصدر السابق .

إنها إيماءة عجيبة إلى انقياد هذا الكون للناموس ، وإلى اتصال حقيقة هذا الكون بخالقه اتصال الطاعة والاستسلام لكلمته ومشيئته . فليس هنالك إذن إلا هذا الإنسان الذي يخضع للناموس كرهاً في أغلب الأحيان . إنه خاضع حتماً لهذا الناموس ، لا يملك أن يخرج عنه ، وهو ترس صغير جداً في عجلة الكون الهائلة ؛ والقوانين الكونية الكلية تسري عليه رضي أم كره . ولكنه هو وحده الذي لا ينقاد طائعاً طاعة الأرض والسماء . إنما يحاول أن يتفلّت ، وينحرف عن المجرى الهين اللين ، فيصطدم بالنواميس التي لابد أن تغلبه — وقد تحطّمه وتسحقه — فيستسلم خاضعاً غير طائع . إلا عباد الله الذين تصطلح قلوبهم وكيانهم وحركاتهم وتصوراتهم وإرادتهم ورغباتهم واتجاهاتهم . تصطلح كلها مع النواميس الكلية ، فتأتي طائعة ، وتسير هينة لينة ، مع عجلة الكون الهائلة ، متجهة إلى ربها مع الموكب ، متصلة بكل ما فيه من قوى .. وحينئذ تصنع الأعاجيب ، وتأتي بالخوارق ، لأنها مصطلحة مع الناموس ، مستمدة من قوته الهائلة ، وهي منه وهو مشتمل عليها في الطريق إلى الله ﴿ **طائعين** ﴾ .

إننا نخضع كرهاً . فليتنا نخضع طوعاً . ليتنا نلبي تلبية الأرض والسماء . في رضى وفي فرح باللقاء مع روح الوجود الخاضعة المطيعة الملبية المستسلمة لله رب العالمين .

إننا نأتي أحياناً حركات مضحكة .. عجلة القدر تدور بطريقتها . وبسرعتها . ولوجهتها . وتدير الكون كله معها . وفق سنن ثابتة .. ونأتي نحن فنريد أن نسرع . أو أن نبطيء . نحن من بين هذا الموكب الضخم الهائل . نحن بما يطرأ على نفوسنا — حين تنفك عن العجلة وتنحرف عن خط السير — من قلق واستعجال وأنانية وطمع ورغبة ورهبة .. ونظل نشرد هنا وهناك والموكب ماض . ونحتك بهذا الترس وذاك ونتألم . ونصطدم هنا وهناك ونتحطم . والعجلة ماضية في سرعتها وبطريقتها إلى وجهتها . وتذهب قوانا وجهودنا كلها سدى . فأما حين تؤمن قلوبنا حقاً ، وتستسلم لله حقاً ، ونتصل بروح الوجود حقاً . فإننا — حينئذ — نعرف دورنا على حقيقته ؛ وننسق بين خطانا وخطوات القدر ؛ ونتحرك في اللحظة المناسبة بالسرعة المناسبة ، في المدى المناسب . نتحرك بقوة الوجود كله مستمدة من خالق الوجود . ونصنع أعمالاً عظيمة فعلاً . دون أن يدركنا الغرور . لأننا نعرف مصدر القوة التي صنعنا بها هذه الأعمال العظيمة . ونوقن أنها ليست قوتنا الذاتية . إنما هي كانت هكذا لأنها متصلة بالقوة العظمى .

ويا للرضى . ويا للسعادة . ويا للراحة . ويا للطمأنينة التي تغمر قلوبنا يومئذ في رحلتنا القصيرة ، على هذا الكوكب الطائع الملبي ، السائر معنا في رحلته الكبرى إلى ربه في نهاية المطاف .

ويا للسلام الذي يفيض في أرواحنا ونحن نعيش في كون صديق . كله مستسلم لربه ، ونحن معه مستسلمون . لا تشذ خطانا عن خطاه ، ولا يعادينا ولا نعاديه . لأننا منه . ولأننا معه في الاتجاه :

﴿ **قالتا : أتينا طائعين** ﴾ .. ﴿ **فقضاهن سبع سمٰوات في يومين** ﴾ .. ﴿ **وأوحى في كل سماء أمرها** ﴾ ..

واليومان قد يكونان هما اللذان تكونت فيهما النجوم من السدم . أو تم فيهما التكوين كما يعلمه الله . والوحي بالأمر في كل سماء يشير إلى إطلاق النواميس العاملة فيها ، على هدى من الله وتوجيه ، أما ما هي السماء المقصودة فلا نملك تحديداً .

﴿ **وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظاً** ﴾ ..

﴿ **وحفظاً** ﴾ .. من الشياطين .. كما يدل على هذا ما ورد في المواضع الأخرى من القرآن .. ولا نملك أن نقول عن الشياطين شيئاً مفصلاً . أكثر من الإشارات السريعة في القرآن فحسبنا هذا . ﴿ **ذلك تقدير العزيز العليم** ﴾ . وهل يقدر هذا كله ؟ ويمسك الوجود كلّه ؟ ويدبر الوجود كله ؟ إلا العزيز القويّ القادر ؟ وإلا العليم الخبير بالموارد والمصادر ..

كلمة في السياق :

١ – في الآيتين اللتين هما محور سورة فصّلت من سورة البقرة ورد قوله تعالى ﴿ **فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون** ﴾ وههنا يقول تعالى : ﴿ **قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أنداداً** ﴾ فالله عز وجل في آيتي المحور أمر النّاس جميعاً ألا يشركوا به ، . وفي هذه المجموعة يبيّن الله عزّ وجلّ أنّ رفض دعوة رسول الله ﷺ وهو الموقف الكافر الذي ذكرته مقدمة السورة يعني الكفر بالله ، ويعني الشرك به ، وهو الذي خلق الأرض وما فيها لصالح الإنسان ، فكيف يكفر

الإنسان بربه ، وهو الذي فعل ذلك كله !.

٢ - وفي الآيتين اللتين هما محور سورة فصّلت من سورة البقرة ورد قوله تعالى : ﴿ **الذي جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناءً وأنزل من السماء ماءً فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم** ﴾ . ثمّ جاء في سورة البقرة بعد ذلك قوله تعالى : ﴿ **هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سمٰوات وهو بكل شيء عليم** ﴾ .

وفي هذه المجموعة ورد تفصيل ذلك . ﴿ **قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أنداداً ذلك رب العالمين * وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدّر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين * ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين * فقضاهن سبع سمٰوات في يومين وأوحى في كل سماء أمرها وزيّنا السماء الدنيا بمصابيح وحفظاً ذلك تقدير العزيز العليم** .. ﴾ .

فمحور السورة يأمر بالعبادة لله الذي فعل هذه الأشياء ، وينهى عن الشرك بالله الذي فعل هذه الأشياء .

والمجموعة التي مرّت معنا تبيّن للكافرين أن موقفهم من رفض دعوة الرسول ﷺ يعني الجحود لله ، والإشراك به ، وهو الذي فعل هذه الأشياء كلها ، وهو موقف منكر مستنكر ، ومن ثم جاءت هذه المعاني في الآيات بصيغة الاستفهام الاستنكاري ﴿ **قل أئنكم لتكفرون** .. ﴾ .

———————

إنّ هذه المجموعة تبيّن أنّ توحيد الله عز وجل وعبادته وتقواه منطلقها الإيمان بالقرآن ، وقبوله وقبول دعوة الرسول ﷺ والاستماع لها ، وإزالة الحجب بين النفس البشرية وبينها . وأن الإنسان إذا لم يفعل هذا فإنّه بذلك يكون والغاً في الكفر ، مستغرقاً في الشرك ، وإذ قامت الحجة على الكافرين في المجموعتين الأولى والثانية ، فقد آن الأوان أن يترك الفساد ، ويقبل على الله بالعبادة ، والتوحيد ، والاستقامة ، والاستغفار ، فإن لم يفعل فإنّه يستحق العذاب ولذلك فقد أمر الله رسوله ﷺ في المجموعة الثالثة أن ينذر .

المجموعة الثالثة

وتمتدّ من الآية (١٣) إلى نهاية الآية (١٨) وهذه هي :

فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾

التفسير :

﴿ **فإن أعرضوا** ﴾ عن الإيمان بعد هذا البيان ، أو إن أعرضوا عن العبادة والتقوى والتوحيد بعد هذه الدعوة ، أو إن أعرضوا عن الاستقامة إلى الله ، والاستغفار إليه ، مصرّين على رفضهم وموقفهم ﴿ **فقل أنذرتكم** ﴾ أي: خوّفتكم وحذّرتكم ﴿ **صاعقة** ﴾ أي: عذاباً شديداً كأنه صاعقة ﴿ **مثل صاعقة عاد وثمود** ﴾ أي: ومن شاكلهما ممّن فعل كفعلهما ﴿ **إذ جاءتهم الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم** ﴾ أي:

أتوهم من كل جانب ، وأعملوا معهم كل حيلة ، فلم يروا منهم إلا الإعراض ، وأنذروهم من وقائع الله فيمن كان قبلهم من الأمم ، وأنذروهم عذاب الآخرة ﴿ **ألا تعبدوا إلا الله** ﴾ وحده ﴿ **قالوا** ﴾ أي : القوم ﴿ **لو شاء ربنا** ﴾ إرسال الرسل ﴿ **لأنزل ملائكة** ﴾ أي : لو أرسل الله رسلاً لكانوا ملائكة من عنده ﴿ **فإنا بما أرسلتم به كافرون** ﴾ أي : مادمتم بشراً ولستم بملائكة . فإنا لا نؤمن بكم وبما جئتم به ﴿ **فأمّا عاد فاستكبروا في الأرض** ﴾ أي : عتوا وبغوا وعصوا ﴿ **بغير الحق** ﴾أي : تعظّموا في الأرض على أهلها بما لا يستحقون به التعظيم ، وهو القوة وعظمة الإجرام ، أو استولوا على الأرض بغير استحقاق للولاية ﴿ **وقالوا من أشدّ منّا قوّة** ﴾ اغتروا بقوتهم الجسدية وتحدّوا بها .. ﴿ **أو لم يروا** ﴾ أي : أو لم يعلموا علماً يقوم مقام العيان ﴿ **أن الله الذي خلقهم هو أشدّ منهم قوّة** ﴾ أي : أوسع منهم قدرة ﴿ **وكانوا بآياتنا يجحدون** ﴾ أي : كانوا يعرفون أنّها حقّ ولكنّهم جحدوها وأنكروها كبراً وعناداً ، فبارزوا الجبّار بالعداوة ، وجحدوا بآياته ، وعصوا رسله ﴿ **فأرسلنا عليهم ريحاً صرصراً** ﴾ أي : عاصفة تصرصر . أي : تصوّت في هبوبها ، أو ريحاً باردة تحرق بشدة بردها ، أو ريحاً شديدة الهبوب قال ابن كثير : والحق أنها متصفة بجميع ذلك . فإنها كانت ريحاً شديدة قوية ، لتكون عقوبتهم من جنس مااغتروا به من قواهم ، وكانت باردة شديدة البرد جداً ، وكانت ذات صوت مزعج ... ﴿ **في أيامٍ نحسات** ﴾ أي : في أيام مشؤومات عليهم ، وقد ذكر الله عز وجل عددها في سورة الحاقة ﴿ **لنذيقهم عذاب الخزي** ﴾ أي : الذل ﴿ **في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى** ﴾ أي : أشد خزياً لهم ﴿ **وهم لاينصرون** ﴾ أي : في الأخرى . كما لم ينصروا في الدنيا من قبل شركائهم الذين عبدوهم من دون الله ، على رجاء النصر لهم ﴿ **وأمّا ثمود فهديناهم** ﴾ أي : بيّنا لهم الرّشد ﴿ **فاستحبوا العمى على الهدى** ﴾ أي : فاختاروا الكفر على الإيمان ﴿ **فأخذتهم صاعقة العذاب الهون** ﴾ أي : الهوان . قال ابن كثير : أي : بعث الله عليهم صيحة ورجفة ، وذلاً وهواناً ، وعذاباً ونكالاً . ﴿ **بما كانوا يكسبون** ﴾ أي : بكسبهم السّيء وهو التكذيب والجحود والشرك والمعاصي ﴿ **ونجّينا الذين آمنوا وكانوا يتقون** ﴾ قال ابن كثير : (أي : من بين أظهرهم لم يمسّهم سوء ، ولا نالهم من ذلك ضرر ، بل نجّاهم الله تعالى مع نبيّهم صالح عليه الصلاة والسلام . بإيمانهم وبتقواهم لله عز وجل ...) .

كلمة في السياق :

نلاحظ أن الرسل عليهم الصلاة والسلام بعثوا إلى عاد وثمود بالنهي عن عبادة غير الله عز وجل ﴿ **ألا تعبدوا إلا الله** ﴾ وأن النجاة كانت لمن اجتمع له صفتا الإيمان والتقوى ﴿ **ونجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون** ﴾ ومحور السورة هو ﴿ **اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون ...** ﴾ .

والتقوى مفسّرة في أول سورة البقرة بأنها إيمان واتّباع كتاب . فإذا اتضح هذا كله نعلم أن المجموعة تقول لهؤلاء الرافضين عبادة الله ، وبالتالي الرافضين للإيمان والتقوى واتّباع رسول الله ﷺ : إنكم برفضكم هذا تعرضون أنفسكم لعذاب الله في الدنيا ﴿ **فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عادٍ وثمود** ﴾ وهكذا نرى صلة المجموعة بسياق السورة الخاص ، وصلتها بمحور السورة ، وإذ كان العذاب الدنيوي هو بعض ماينتظر هؤلاء المكذبين الرافضين ، فقد أمر الله رسوله ﷺ أن يذكّرهم كذلك بما ينتظرهم من عذاب في اليوم الآخر ، وهذا هو موضوع المجموعة الرابعة .

☆ ☆ ☆

المجموعة الرابعة

وتمتد من الآية (١٩) إلى نهاية الآية (٢٤) وهذه هي :

وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (١٩) حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ
عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ (٢٠) وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ
لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ
وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢١) وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا
جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ (٢٢) وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ

ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۖ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾

التفسير :

﴿ **ويوم يُحشَر** ﴾ أي : واذكر يوم يحشر ﴿ **أعداء الله** ﴾ أي : الكفّار من الأوّلين والآخرين . ﴿ **إلى النار فهم يوزَعون** ﴾ أي : يحبس أولهم على آخرهم . أي : يستوقف سوابقهم حتى يلحق بهم تواليهم . قال ابن كثير : (أي : اذكر لهؤلاء المشركين يوم يحشرون إلى النار يوزعون أي : تجمع الزبانية أولهم على آخرهم) ﴿ **حتى إذا ما جاؤوها** ﴾ أي : وقفوا عليها أي : صاروا بحضرتها ﴿ **شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون** ﴾ أي : بأعمالهم ممّا قدّموه وأخّروه لا يكتم منه حرف ، وسنرى في الفوائد النصوص المبيّنة لهذا المعنى ﴿ **وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا** ﴾ أي : لاموا أعضاءهم وجلودهم حين شهدوا عليهم ، فعند ذلك أجابتهم الأعضاء ﴿ **قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كلّ شيء** ﴾ أي : من الحيوان ، والمعنى : إن نطقنا ليس بعجب من قدرة الله الذي قدر على إنطاق كلّ حيوان ﴿ **وهو خلقكم أوّل مرّة** ﴾ فهو لا يخالف ولا يمانع ﴿ **وإليه ترجعون** ﴾ ومن كان هذا شأنه فكيف لا ينطقنا ، وكيف لا ننطق إذا أمرنا . ﴿ **وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم** ﴾ قال النسفي : (أي : أنكم كنتم تستترون بالحيطان والحجب عند ارتكاب الفواحش ، وما كان استتاركم ذلك خيفة أن يشهد عليكم جوارحكم ، لأنكم كنتم غير عالمين بشهادتها عليكم ، بل كنتم جاحدين بالبعث والجزاء أصلاً) . ﴿ **ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيراً ممّا تعملون** ﴾ أي : ولكنّكم إنّما استترتم لظنّكم أنّ الله لا يعلم الخفايا من أعمالكم ﴿ **وذلكم ظنّكم** ﴾ أي : وذلك الظن ﴿ **الذي ظننتم بربكم أرداكم** ﴾ أي : أهلككم .. ﴿ **فأصبحتم من الخاسرين** ﴾ في الدنيا والآخرة . ﴿ **فإن يصبروا فالنّار مثوى لهم** ﴾ أي : فإن يصبروا لم ينفعهم الصبر ، ولم ينفكّوا به من الثواء في النار ﴿ **وإن يستعتبوا فما هم من المعتبين** ﴾ أي : وإن يطلبوا الرضا فماهم من المرضيين ، أو إن يسألوا العتبىٰ ـــ وهو الرّجوع إلى مايحبّون جزعاً مماهم فيه ـــ لم يعتبوا أي : لم يعطوا العتبى ، أي : الرجوع إلى الدنيا ، ولم يجابوا إليها . وقال ابن كثير في

الآية : (أي : سواء عليهم صبروا أم لم يصبروا في النار لا محيد لهم عنها ، ولا خروج لهم منها ، وإن طلبوا أن يستعتبوا ويُبدوا أعذاراً فمالهم أعذار ولا تقال لهم عثرات ...) .

....

كلمة في السياق :

رأينا أن سياق السورة سار كما يلي :

عرض علينا موقف الكافرين من القرآن ، ومن دعوة رسول الله ﷺ ، ثم ردّ على هذا الموقف : ١ - بعرض مضمون الدعوة . ٢ - بما يترتب على هذا الموقف من آثار بديهية البطلان . ٣ - ثم بإنذارهم بعذاب الدنيا . ٤ - ثم بإنذارهم عذاب الآخرة .

وبعد هذا البيان الذي رأيناه في المجموعات الأربع ، والذي لو وجد عقل أو إنصاف أو سماع تدبر لترتّب على ذلك انزجار ، إلا أنّه حيث لا عقل ، ولا إنصاف ، ولا سماع تدبّر ، فإنّ هذا كله لم يفد فيهم ، ومن ثمّ تأتي المجموعة الخامسة لتعرض علينا بشكل غير مباشر عدم استفادتهم وسببها ، وإصرارهم على حرب القرآن ، واستئهالهم العقوبات بذلك ، وندم بعضهم حيث لاينفع الندم . فلنر المجموعة الخامسة ..

☆ ☆ ☆

المجموعة الخامسة

وتمتد من الآية (٢٥) إلى نهاية الآية (٢٩) وهذه هي :

وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُواْ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ
فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُواْ خَٰسِرِينَ ﴿٢٥﴾
وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾
فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ

﴿ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعۡدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُۖ لَهُمۡ فِيهَا دَارُ ٱلۡخُلۡدِ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ٢٧ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيۡنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ نَجۡعَلۡهُمَا تَحۡتَ أَقۡدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلۡأَسۡفَلِينَ ٢٩﴾

التفسير :

﴿ **وقيضنا لهم قرناء** ﴾ أي: وقدّرنا لهؤلاء الكافرين المعرضين عن العبادة أخداناً وملازمين من الشياطين ، شياطين الإنس والجن ، سلّطناهم عليهم ﴿ **فزيّنوا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم** ﴾ قال ابن كثير : (أي: حسّنوا لهم أعمالهم في الماضي ، وبالنسبة إلى المستقبل فلم يروا أنفسهم إلا محسنين) وقال النسفي : أي: (زينوا لهم ما تقدّم من أعمالهم وماهم عازمون عليه ، أو ما بين أيديهم من أمر الدنيا واتّباع الشهوات ، وما خلفهم من أمر العاقبة ، وأن لا بعث ولا عذاب ولا حساب) ﴿ **وحق عليهم القول** ﴾ أي: كلمة العذاب ﴿ **في أمم** ﴾ أي: في جملة أمم ﴿ **قد خلت من قبلهم** ﴾ أي: من قبل كفار هذه الأمّة ﴿ **من الجن والإنس إنهم كانوا خاسرين** ﴾ هذا تعليل لاستحقاقهم العذاب ، والضمير لهم وللأمم ، أي: استوى الجميع في النار والدّمار ، وكأثر عن هذا التزيين فإنّهم يحاربون القرآن بكل الوسائل ، ومن ثم قال تعالى : ﴿ **وقال الذين كفروا لاتسمعوا لهذا القرآن** ﴾ إذا قرىء ﴿ **والغَوْا فيه** ﴾ أي: شوّشوا عليه وعارضوه بكلام غير مفهوم ﴿**لعلكم تغلبون**﴾ لتغلبوا على قراءته . وتغلبوا قرّاءه ومبلغيه ودعاته باستعمالكم كل أساليب التشويش : بالجحود والإنكار ، والرد والطعن ، والصفير والتصفيق ، والغناء مع عدم السماع ، قال تعالى مهدّداً لهم وموعداً إياهم : ﴿**فلنذيقنّ الذين كفروا عذاباً شديداً**﴾ قال ابن كثير : أي: في مقابلة مااعتقدوه في القرآن وعند سماعه . ﴿**ولنجزينّهم أسوأ الذي كانوا يعملون**﴾ أي: بشرِّ أعمالهم وسيّىء أفعالهم . قال النسفي : أي: ولنجزينّهم أعظم عقوبة على أسوأ أعمالهم وهو الكفر ﴿**ذلك**﴾ أي: الجزاء الأسوأ ﴿**جزاء أعداء الله**﴾ ثم فسَّر ماهيته فقال : ﴿**النار لهم فيها دار الخلد**﴾ فلا يخرجون منها ﴿**جزاءً**﴾ أي: جوزوا بذلك جزاءً ﴿**بما كانوا بآياتنا يجحدون**﴾ أي: بسبب جحودهم بآيات الله أي بالقرآن ﴿**وقال الذين**

كفروا﴾ إذا دخلوا النار ﴿**ربنا أرنا اللذين أضلانا**﴾ أي: الشيطانين اللذين أضلانا ﴿**من الجن والإنس**﴾ لأن الشيطان على ضربين إنس وجن، وقد تعاونا على الإضلال ﴿**نجعلهما تحت أقدامنا ليكونا من الأسفلين**﴾ في النّار جزاء إضلالهم إيانا. ولا ينفعهم هذا الكلام هناك، ومن ثم لانجد السياق يجيبهم على النداء.

كلمة في السياق:

١ - نلاحظ أن المجموعة هذه بدأت الكلام عن قرناء الكافرين الذين زيّنوا لهم مابين أيديهم وما خلفهم، وختمت بالكلام عن هؤلاء القرناء؛ إذ يدعو عليهم من ضلوا بسببهم إذا دخلوا النار، ممّا يشير إلى وحدة المجموعة.

٢ - فهمنا من المجموعة أن هؤلاء الكافرين الذين حدّثنا الله عنهم في أوّل السورة ثم ردّ عليهم لم يستفيدوا من التقرير والوعظ والإنذار؛ بل هم مُزيَّنة لهم أعمالهم، مصرّون على حرب القرآن، وأن الله عز وجل سلّط عليهم شياطين الجن والإنس يضلونهم، وذلك عقوبة لهم على إعراضهم، كما سنرى ذلك واضحاً في سورة الزخرف في قوله تعالى: ﴿**ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين**﴾ ومن ثمّ نعرف أنّ المجموعة الأخيرة ذكرت عقوبة جديدة مما يعاقب به الله عز وجل المعرضين، إذ يسلط عليهم الشياطين ليضلوهم فيستحقون دخول النار. وقد عرض هذا في سياق يخدم مجموعة أمور بآن واحد، وإذ وصل السياق إلي ههُنا، فإن السورة تتجه اتجاهاً جديداً. إذ نجد أن مجموعات ثلاثاً تأتي، وفي كل منها آية مبدوءة بكلمة ﴿**إنّ**﴾ التي تفيد التوكيد:

﴿**إنّ الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا ...**﴾.

﴿**إنّ الذين يلحدون في آياتنا لايخفون علينا ...**﴾.

﴿**إنّ الذين كفروا بالذكر لما جاءهم إنه لكتاب عزيز ...**﴾.

وسنعرض المجموعات مبتدئين بالمجموعة الأولى التي هي المجموعة السادسة في السورة.

المجموعة السادسة

وتمتد من الآية (٣٠) إلى نهاية الآية (٣٦) وهذه هي :

إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟
وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى
ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ
رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى
مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ
أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا
ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ
نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾

التفسير :

﴿**إن الذين قالوا ربنا الله**﴾ فاعترفوا لله بالربوبية، وعلى أنفسهم بالعبودية ﴿**ثم استقاموا**﴾ على أمر الله فلم ينحرفوا يميناً أو شمالاً. أخلصوا العمل لله، وعملوا بطاعة الله على ماشرع الله لهم. نطقوا بالتوحيد، ثم ثبتوا على الإقرار ومقتضياته ﴿**تتنزّل عليهم الملائكة**﴾. عند الموت قائلين ﴿**أن**﴾. أي: أنّه ﴿**لاتخافوا**﴾. قال مجاهد وعكرمة وزيد بن أسلم: أي: ممّا تقدمون عليه من أمر الآخرة ﴿**ولا تحزنوا**﴾. على ماخلّفتموه من أمر الدنيا من ولد وأهل ومال أو ديْن فإنا نخلفكم فيه. قال النسفي: (فالخوف: غمّ يلحق الإنسان لتوقّع المكروه، والحزن: غمّ يلحقه لما يتوقعه من فوات نافع، أو حصول

ضار، والمعنى: أن الله كتب لكم الأمن من كل غم فلن تذوقوه). ﴿**وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون**﴾ أي: في الدنيا. قال ابن كثير: (يبشرونهم بذهاب الشرّ وحصول الخير) ﴿**نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة**﴾ قال النسفي: (كما أن الشياطين قرناء العصاة وإخوانهم، فكذلك الملائكةأولياء المتقين وأحباؤهم في الدارين)، وقال ابن كثير: (أي تقول الملائكة للمؤمنين عند الاحتضار: «نحن كنا أولياءكم أي: قرناءكم في الحياة الدنيا نسدِّدكم ونوفقكم ونحفظكم بأمر الله، وكذلك نكون معكم في الآخرة، نؤنس منكم الوحشة في القبور وعند النفخة في الصور، ونؤمّنكم يوم البعث والنشور، ونجاوز بكم الصراط المستقيم، ونوصلكم إلى جنات النعيم.). ﴿ **ولكم فيها** ﴾ أي: في الجنة ﴿ **ما تشتهي أنفسكم** ﴾ أي: من جميع ما تختارون مما تشتهيه النفوس، وتقرُّ به العيون من النّعيم ﴿ **ولكم فيها** ﴾ أي: في الجنة ﴿ **ما تدَّعون** ﴾ أي: ما تتمنّون، أي: مهما طلبتم وجدتم وحَضَر كما اخترتم ﴿ **نزلاً** ﴾ أي: ضيافة وعطاءً وإنعاماً ﴿ **من غفور** ﴾ لذنوبكم ﴿ **رحيم** ﴾ بكم رؤوف، حيث غفر وستر ورحم ولطف ﴿ **ومن أحسن قولاً ممّن دعا إلى الله** ... ﴾ أي: إلى عبادته، أي: دعا عباد الله إلى الله ﴿ **وعمل صالحاً** ﴾ أي: وعمل عملاً صالحاً، وهو ما أمر الله به وكان خالصاً له ﴿ **وقال إنني من المسلمين** ﴾. قال النسفي: (متفاخراً بالإسلام ومعتقداً له) ودخل في ذلك جميع الهداة والدعاة إلى الله، وأولهم وسيدهم وقدوتهم رسول الله ﷺ وأصحابه، وممّن يدخل في ذلك المؤذنون قال ابن كثير في قوله تعالى: ﴿ **وقال إنني من المسلمين** ﴾. (أي: وهو في نفسه مهتد بما يقوله، فنفعه لنفسه ولغيره لازم ومتعد: وليس هو من الذين يأمرون بالمعروف ولا يأتونه وينهون عن المنكر ويأتونه، بل يأتمر بالخير، ويترك الشر، ويدعو الخلق إلى الخالق تبارك وتعالى، وهذه عامة في كل من دعا إلى خير، وهو في نفسه مهتد، ورسول الله ﷺ أولى الناس بذلك، كما قال محمد بن سيرين والسدى وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وقيل المراد بها المؤذنون الصلحاء كما ثبت في صحيح مسلم (المؤذنون أطول الناس أعناقاً يوم القيامة) وفي السنن مرفوعاً «الإمام ضامن والمؤذن مؤتمن فأرشد الله الأئمة وغفر للمؤذّنين».

﴿ **ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن** ﴾ يعني: إن الحسنة والسيئة متفاوتتان في أنفسهما، فخذ بالحسنة التي هي أحسن من أختها إذا اعترضتك حسنتان، وإذا اعترضتك سيئة فادفعها بالحسنة كذلك، كما لو أساء إليك رجل إساءة فالحسنة أن تعفو عنه، والتي هي أحسن أن تحسن إليه مكان إساءته إليك، مثل أن

يذمّك فتمدحه ، أو يقتل ولدك فتفتدي ولده من يد عدوّه ﴿ **فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه وليٌّ حميم** ﴾ . فإنك إذا فعلت ذلك انقلب عدوك المشاقّ مثل الوليّ الحميم مصافاة لك ﴿ **وما يلقّاها إلا الذين صبروا** ﴾ أي : وما يلقّى هذه الخصلة التي هي مقابلة الإساءة بالإحسان إلا أهل الصبر قال ابن كثير : أي : وما يقبل هذه الوصية ويعمل بها إلا من صبر على ذلك ، فإنّه يشق على النّفوس ﴿ **وما يلقّاها إلا ذو حظ عظيم** ﴾ أي : ذو نصيب وافر من السّعادة في الدنيا والآخرة . قال النسفي : أي : إلا رجل خيرٍ وفق لحظ عظيم من الخير . وقال ابن كثير : (قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في تفسير هذه الآية : أمر الله المؤمنين بالصبر عند الغضب ، والحلم عند الجهل ، والعفو عند الإساءة ، فإذا فعلوا ذلك عصمهم الله من الشيطان وخضع لهم عدوهم كأنه وليٌّ حميم) .

وبعد أن بيَّن الله طريقة معالجة عدوّ الإنس ، يبيّن طريقة معالجة عدوّ الجن : ﴿ **وإما ينزغنّك من الشيطان نزغٌ** ﴾ أي : نَخْس أي : وسوسة تنخس القلب نخساً ﴿ **فاستعذ بالله** ﴾ من شره ولا تطعه ﴿ **إنه هو السميع** ﴾ لاستعاذتك ﴿ **العليم** ﴾ بنزغ الشيطان . قال ابن كثير في الآية : (أي : إن شيطان الإنس ربما ينخدع بالإحسان إليه فأما شيطان الجن ، فإنه لا حيلة فيه إذا وسوس إلا الاستعاذة بخالقه الذي سلطه عليك ، فإذا استعذت بالله والتجأت إليه كفّه عنك وردّ كيده ، وقد كان رسول الله ﷺ إذا قام إلى الصلاة يقول : « أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم من همزه ونفخه ونفثه » وقد قدمنا أن هذا المقام لا نظير له في القرآن إلا في سورة الأعراف عند قوله تعالى : ﴿ **خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين * وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه سميع عليم** ﴾ وفي سورة المؤمنون عند قوله ﴿ **ادفع بالتي هي أحسن السيئة نحن أعلم بما يصفون * وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين * وأعوذ بك رب أن يحضرون** ﴾ . أقول : ومجيء الأمر بالاستعاذة بعد الآية التي أمرت بالدفع بالتي هي أحسن يعطينا معنى آخر سجّله النّسفي قال : (والمعنى : وإن صرفك الشيطان عمّا وصّيت به من الدفع بالتي هي أحسن ﴿ **فاستعذ بالله** ﴾ من شره ، وامض على حلمك ولا تطعه ...) .

كلمة في السياق :

١ - أمر الله عز وجل رسوله ﷺ في أول السّورة أن يقول : ﴿ **قل إنما أنا بشر**

مثلكم يوحى إليّ أنما إلهكم إله واحد فاستقيموا إليه واستغفروه ﴾ . ثمّ جاءت مجموعات ناقشت موضوع التوحيد ، وموقف الكافرين منه ، وأنذرتهم وحذرتهم ، ثم جاءت المجموعة الأخيرة لتبين ما للاستقامة على أمر الله ، ولتبين أن أحسن الأقوال الدعوة إلى الله ، ولتبين أن الداعية إلى الله عليه أن يتخلّق بخلقين : الدفع بالتي هي أحسن ، والاستعاذة بالله .

٢ - جاءت هذه المجموعة بعد المجموعة التي تحدّثت عن تقييض الله قرناء للكافرين ، لتبيّن أن الذين يستجيبون لأمر الله ، فيستقيمون يقيِّض الله لهم ملائكة يتولّونهم في الدنيا والآخرة ، وشتان بين الحالين .

٣- من سنّة القرآن أن يتحدّث عن الكافرين وماأعدّ لهم ، ثم يعقبه بالكلام عن المؤمنين وما أعد لهم ، أو العكس وإذ كانت المجموعات السابقة على المجموعة الأخيرة تتحدّث عمّا أعدّه الله للكافرين من عذاب ، فقد جاءت المجموعة الأخيرة لتتحدث عما أعد الله للمؤمنين ، فصلة المجموعة في السياق القريب والسياق العام للسّورة واضحة ، ولنر الصلة بين هذه المجموعة ومحور السورة .

٤ - رأينا أن محور السورة هو قوله تعالى ﴿ **يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون** .. ﴾ ورأينا أنّ مجموعاتٍ في السّورة قد ناقشت الكافرين الذين يرفضون العبادة والتوحيد ، وأنذرتهم وحذّرتهم ، وتأتي هذه المجموعة لتبين ماذا أعد الله عز وجل لمن يعبده ويتقيه ، وتحضّه على الدعوة إلى الله ، وتوجّهه في ما ينبغي فعله أمام الأعداء الظاهرين والخفيين ، وهي في الوقت نفسه تعرض علينا بعض مايدخل في العبادة والتقوى . إن العبادة تقتضي اعترافاً لله بالربوبية ، واستقامة على أمره ، وتقتضي دعوة إليه وعملاً صالحاً ، وإعلاناً عن الانتساب إلى الصف الإسلامي ، وصبراً على أعداء الله وأذاهم وتقتضي استعاذة دائمة بالله من الشيطان .

٥ - يلاحظ أنّ السورة بدأت بقوله تعالى . ﴿ **حمٓ * تنزيل من الرحمٰن الرحيم * كتاب فصّلت آياته قرآناً عربياً لقومٍ يعلمون * بشيراً ونذيراً** ... ﴾ وجاءت السورة بعد ذلك وفيها تبيان لخصائص القرآن هذه ، فالسورة تدلّنا على مظاهر تجليات اسمي الله : (الرحمٰن، الرحيم) الذي يتلطف فينزل وحياً ، والذي يتلطف فيناقش ويبين ويوضح ، والذي يأمر عباده بسلوك الطريق المرحوم أهلها ، ويأمرهم بالرحمة ، كما أنّ

كذلك بقوله تعالى ﴿ إنّ ﴾ بينما هذه المجموعة - أي السابعة - فقد انتهت بآية مبدوءة بـ﴿ إنّ ﴾ وذلك لأنها تتحدث عن الإلحاد بآيات الله ، فناسب أن تذكر بعض آيات الله قبل أن تأتي الآية التي تقرِّر جزاء الملحدين بآيات الله . وإنما نبهنا على ذلك حتى لا يظن ظان أن الآيات الثلاث الأولى من هذه المجموعة مرتبطة بالمجموعة السادسة . معتبراً أنّ الحرف (**إنّ**) هو العلامة على بداية المجموعة كما هو الحال في المجموعة السادسة ، والمجموعة الثامنة . إن التأمّل الدقيق للسياق يؤكد صحة ما قلناه والله الموفّق وله الحمد .

التفسير :

﴿ **ومن آياته** ﴾ الكونية الدالّة على قدرته ووحدانيته ﴿ **الليل والنّهار** ﴾ في تعاقبهما على حد معلوم ، وتناوبهما على قدر مقسوم ، وما فيهما من الحِكَم العظيمة ﴿ **والشمس والقمر** ﴾ في اختصاصهما بسير مقدّر ، ونور مقرّر ، وغير ذلك من الحِكَم العظيمة ، والآيات الباهرة ، ﴿ **لاتسجدوا للشمس ولا للقمر** ﴾ فإنّهما مخلوقان وإن كثرت منافعهما ﴿ **واسجدوا لله الذي خلقهن** ﴾ أي : الذي خلق الشمس والقمر والأرض التي هي محل الليل والنهار ﴿ **إن كنتم إيّاه تعبدون** ﴾ أي : إن كنتم تدّعون عبادته ، فهذا طريق عبادته ، وليس أن يشرك به غيره ﴿ **فإن استكبروا** ﴾ أي : عن إفراد العبادة له ، وأبَوْا إلّا أن يشركوا معه غيره . ﴿ **فالذين عند ربك** ﴾ يعني : الملائكة ﴿ **يسبِّحون له بالليل والنهار وهم لايسأمون** ﴾ أي لا يملّون . قال النسفي : (والمعنى : فإن استكبروا ولم يمتثلوا ماأمروا به وأبوا إلا الواسطة فدعهم وشأنهم ، فإنّ الله تعالى لا يعدم عابداً وساجداً بالإخلاص وله العباد المقرّبون الذين ينزّهونه بالليل والنهار من الأنداد) . ﴿ **ومن آياته** ﴾ الدالّة على توحيده وقدرته على إحياء الموتى والبعث ﴿ **أنّك ترى الأرض خاشعة** ﴾ أي : هامدة لا نبات فيها بل هي ميتة يابسة مغبرة ، والخشوع : التذلل ، فاستعير لحال الأرض إذا كانت قحطة لا نبات فيها ﴿ **فإذا أنزلنا عليها الماء** ﴾ أي : المطر ﴿ **اهتزّت** ﴾ أي : تحرّكت بالنبات ﴿ **وربت** ﴾ أي : انتفخت . قال ابن كثير : (أي أخرجت من جميع ألوان الزروع والثمار) ﴿ **إن الذي أحياها لمحي الموتى إنه على كل شيء قدير** ﴾ فيكون قادراً على البعث ضرورةً . ﴿ **إن الذين يلحدون في آياتنا** ﴾ أي : يكفرون ويعاندون في آيات الله بأن لا يرتّبوا عليها لازمها العقلي ، أو يرفضوا أن يعتبروها آية تدلّ على الله وأسمائه

وصفاته . ﴿ **لا يخفون علينا** ﴾ قال ابن كثير : فيه تهديد شديد ووعيد أكيد أي : أنه تعالى عالم بمن يلحد في آياته وأسمائه وصفاته ، وسيجزيه على ذلك بالعقوبة والنكال ولهذا قال تعالى : ﴿ **أفمن يلقى في النار خير أم من يأتي آمناً يوم القيامة** ﴾ هذا تمثيل للكافر والمؤمن أي : أيستوي هذا وهذا ؟ لا يستويان . ثم قال تعالى تهديداً للكفرة ﴿ **اعملوا ما شئتم** ﴾ أي : من خير أو شر . قال النسفي : (هذا نهاية في التهديد ..) ﴿ **إنه بما تعملون بصير** ﴾ أي : إنه عالم بكم وبصير بأعمالكم فيجازيكم عليه .

....

كلمة في السياق :

١ - مر معنا في أول المقطع قوله تعالى : ﴿ **فاستقيموا إليه واستغفروه وويل للمشركين * الذين لايؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم كافرون** ﴾ وقد رأينا أن المجموعه السادسة تحدثت عن الاستقامة ، وما لأصحابها ، وجاءت المجموعة السابعة التي نحن بصددها تتحدَّث عن أدلة التوحيد ، وأدلة اليوم الآخر ، وتذكر ما أعدّ الله للكافرين بآياته . أي فصّلت في ماهية الويل للمشركين ، ومن ثم نلاحظ أن قوله تعالى ﴿ **ومن آياته الليل والنهار ...** ﴾ تحدّث عن قضية التوحيد ، وأن قوله تعالى ﴿ **ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة ..** ﴾ تحدّث عن قضية اليوم الآخر . والآية الأخيرة تحدّثت عن عقوبة الملحدين في الآيات الدالة على التوحيد ، والدالّة على اليوم الآخر . فالصلة بين المجموعة وبداية المقطع واضحة .

٢ - بعد أن حدّثنا الله عز وجل في المجموعة السادسة . عن الذين يعترفون لله بالربوبية ، والمستقيمين على أمره . حدّثنا في المجموعة اللاحقة عن الطرف المقابل ، وهم الملحدون الذين لا يعترفون لله بالربوبية ، ولا يستقيمون على أمره ، والذين يلحدون في الآيات الدالّة عليه وعلى أسمائه وأفعاله ، وقدّم للكلام عن هؤلاء بذكر آيات كونية تدل عليه عز وجل وعلى أسمائه وأفعاله . وبهذا نعرف الصلة بين المجموعة السادسة والسابعة .

٣ - ونلاحظ أن في المجموعة السابعة أمراً بالسجود لله ، وهو من العبادة ﴿ **واسجدوا لله الذي خلقهن إن كنتم إياه تعبدون** ﴾ وأمر بإعطاء الآيات الكونية لوازمها العقلية ، وهي معرفة الله وأسمائه وصفاته ، كما نجد نهياً عن الشرك ، وصلة ذلك بمحور السورة وهو : ﴿ **يا أيها الناس اعبدوا ربكم .. فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون ..** ﴾ واضحة .

٤ - ذكر الله عز وجل آيات كونية في هذه المجموعة ، وأعقبها بقوله تعالى : ﴿ **إن الذين يلحدون في آياتنا** .. ﴾ وسنرى أن المجموعة الثامنة تتحدث عن الكفر بالقرآن فكأن المجموعة السابعة مخصصة للكلام عن الكفر بالآيات الكونية ، والمجموعة الثامنة مخصصة للكلام عن الكفر بالآيات القرآنية ، ومجيء قوله تعالى ﴿ **إن الذين يلحدون في آياتنا** .. ﴾ قبل قوله تعالى ﴿**إن الذين كفروا بالذكر** ..﴾ يلقي إشعاعاً على قوله تعالى ﴿ **إن الذين كفروا بالذكر** .. ﴾ وكأنه مقدمة له ، وبهذا ندرك أول صلة تربط بين المجموعة السابعة والثامنة ، فلنر المجموعة الثامنة .

☆ ☆ ☆

المجموعة الثامنة

وتمتد من الآية (٤١) إلى نهاية الآية (٤٥) وهذه هي :

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ
بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ
لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا
أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى
وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ
مَكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ
سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ ﴿٤٥﴾

التفسير :

﴿ **إن الذين كفروا بالذكر** ﴾ أي: بالقرآن ﴿ **لمّا جاءهم** ﴾ أي حين جاءهم . والخبر محذوف تقديره . أي : يعذّبون أو هالكون ﴿ **وإنه لكتاب عزيز** ﴾ قال ابن كثير : أي : منيع الجناب لا يرام أن يأتي أحد بمثله ﴿ **لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه** ﴾ قال ابن كثير : أي : ليس للبطلان إليه سبيل ، لأنه منزّل من رب العالمين : قال النسفي : أي : لا يأتيه التبديل أو التناقض ... بوجه من الوجوه أقول : أي : لا من الماضي ولا من المستقبل . فالماضي يؤيده والمستقبل يؤيده ، فلا ينقضه ماض ولا مستقبل ﴿ **تنزيل من حكيم** ﴾ في أقواله وأفعاله ﴿ **حميد** ﴾ أي : مستحق للحمد ، أي : محمود في جميع ما يأمر به وينهى عنه ، جميع ذلك محمودة عواقبه وغاياته ﴿ **ما يقال لك** ﴾ من التكذيب ﴿ **إلّا ما قد قيل للرسل من قبلك** ﴾ إلا مثل ما قال للرسل كفارُ قومهم من الكلمات المؤذية ، والمطاعن في الكتب المنزلة . فكما كُذِّبْتَ كُذِّبوا ، وكما صبروا على أذى قومهم لهم فاصبر أنت على أذى قومك لك . ﴿ **إنّ ربّك لذو مغفرة** ﴾ أي : لمن تاب إليه ﴿ **وذو عقاب أليم** ﴾ أي : لمن استمر على كفره وطغيانه وعناده وشقاقه ومخالفته ثمّ لمّا ذكر تعالى القرآن وفصاحته وبلاغته وإحكامه في لفظه ومعناه ، وأنّه مع هذا لم يؤمن به المشركون ممّا يدل على أن كفرهم به كفر عناد وتعنّت ، بيّن فيما يأتي أنّه لو أنزل هذا القرآن بلغة العجم لقالوا على وجه التعنّت ما سيقصه علينا ، فهم في كل حال متعنتون معاندون ﴿ **ولو جعلناه** ﴾ أي : القرآن ﴿ **قرآناً أعجمياً** ﴾ أي : بلغة العجم ، وهو مع ذلك ظاهر الإعجاز ، فاجتمع له أن يكون كتاباً أعجمياً معجزاً نزل على إنسان عربي ﴿ **لقالوا** ﴾ مع هذا تعنتاً وعناداً ﴿ **لولا فصّلت آياته أأعجمي وعربي** ﴾ أي : أقرآن أعجمي ومخاطب عربي ؟ والمعنى : أنّ آيات الله على أيّ طريقة جاءتهم وجدوا فيها مطعناً لأنّهم غير طالبين للحق ، وإنما يتّبعون أهواءهم ﴿ **قل هو** ﴾ أي : القرآن ﴿ **للذين آمنوا هدى** ﴾ أي : إرشاد إلى الحق ﴿ **وشفاء** ﴾ أي : لما في الصدور من الشكّ ، إذ الشكّ مرض . قال ابن كثير : أي : قل يا محمد . هذا القرآن لمن آمن به هدى لقلبه ، وشفاء لما في الصدور من الشكوك والريب ﴿ **والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر** ﴾ أي : ثقل وصمم ﴿ **وهو** ﴾ أي : القرآن ﴿ **عليهم عمى** ﴾ قال النسفي أي : ظلمة وشبهة وقال ابن كثير : أي : لا يهتدون إلى ما فيه من البيان ﴿ **أولئك** ﴾ أي : الكافرون ﴿ **ينادَوْن من مكان بعيد** ﴾ قال ابن جرير معناه . كأن من يخاطبهم يناديهم من مكان بعيد لا يفهمون ما يقول . وقال النسفي : يعني :

إنّهم لعدم قبولهم وانتفاعهم كأنهم ينادَوْن إلى الإيمان بالقرآن من حيث لا يسمعون لبعد المسافة . أقول : وهذا المعنى يحسّه الدّعاة إلى الله ، ويشعرون به ، فإنّهم عندما يكلّمون أمثال هؤلاء بالمعاني الإسلامية يستشعرون العجز عن الإسماع ، ويستشعرون بُعْد هؤلاء عن إمكانية فهم المعاني القرآنية على صفائها . وبعد هذا الذي مرّ يذكر الله عز وجل إنزاله الكتاب على موسى عليه السلام ، مما يفيد أن إنزال القرآن على محمد ﷺ ليس بدعاً من الأمر ، بل هو سنّة الله عز وجل ﴿ **ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه** ﴾ قال النسفي : فقال بعضهم حق وقال بعضهم باطل ، كما اختلف قومك يا محمد . وقال ابن كثير : أي : كُذِّب وأوذي ﴿ **فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل** ﴾ ﴿ **ولولا كلمة سبقت من ربك** ﴾ بتأخير الحساب إلى يوم المعاد ﴿ **لقضي بينهم** ﴾ أي : لعجّل لهم العذاب في الدنيا ؛ بل لهم موعد ﴿ **وإنّهم لفي شك منه مريب** ﴾ أي : موقع من الريبة ، أي : وإن الكافرين لفي شك من القرآن شديد . قال ابن كثير : (أي : وماكان تكذيبهم له عن بصيرة منهم لما قالوا بل كانوا شاكّين فيما قالوه غير محققين لشيء كانوا فيه . هكذا وجّهه ابن جرير وهو محتمل)..

كلمة في السياق :

١ - يذهب النسفي إلى أنّ قوله تعالى ﴿ **إن الذين كفروا بالذكر** .. ﴾ بدل من قوله تعالى .. ﴿ **إن الذين يلحدون في آياتنا** .. ﴾ وهذا يفيد أن المراد بالكفر بالآيات في الآية الأولى الكفر بالقرآن ، وليس هذا صحيحاً فيما أرى لأن قوله تعالى ﴿ **إنّ الذين يلحدون في آياتنا** ﴾ جاء بعد ذكر آيات كونية . فالآيات الكونية داخلة في الآية ، وفي عموم الآيات تدخل الآيات القرآنية ، ومن ثم قلنا من قبل إنّ تأخير قوله تعالى ﴿ **إن الذين يلحدون في آياتنا** .. ﴾ عن أول المجموعة جعل الآية تؤدي أكثر من خدمة ، إذ دخل في ذلك الآيات الكونية ، والآيات القرآنية .

٢ - في مقدّمة سورة فصّلت قال تعالى عن القرآن : ﴿ **بشيراً ونذيراً فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون * وقالوا قلوبنا في أكنّة ممّا تدعونا إليه وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل إنّنا عاملون** ﴾ وفي هذه المجموعة بيّن الله عز وجل أن القرآن بالنسبة للذين لايؤمنون عمى ، وأنّهم لا يسمعونه ؛ لأنّ في آذانهم وقراً ، فههنا قرّر أنّ ماقالوه عن أنفسهم صحيح ، ولكنه عرض في سياق التدليل على أن القرآن حق ، وأن خصائصه تدلّ على ذلك . وأن القرآن لأهل الإيمان هدى، وشفاء ، ولكن المرض

إنّهم لعدم قبولهم وانتفاعهم كأنهم ينادَوْن إلى الإيمان بالقرآن من حيث لا يسمعون لبعد المسافة . أقول : وهذا المعنى يحسّه الدّعاة إلى الله ، ويشعرون به ، فإنّهم عندما يكلّمون أمثال هؤلاء بالمعاني الإسلامية يستشعرون العجز عن الإسماع ، ويستشعرون بُعْد هؤلاء عن إمكانية فهم المعاني القرآنية على صفائها . وبعد هذا الذي مرّ يذكر الله عز وجل إنزاله الكتاب على موسى عليه السلام ، مما يفيد أن إنزال القرآن على محمد ﷺ ليس بدعاً من الأمر ، بل هو سنّة الله عز وجل ﴿ **ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه** ﴾ قال النسفي : فقال بعضهم حق وقال بعضهم باطل ، كما اختلف قومك يا محمد . وقال ابن كثير : أي : كُذّب وأوذي ﴿ **فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل** ﴾ ﴿ **ولولا كلمة سبقت من ربك** ﴾ بتأخير الحساب إلى يوم المعاد ﴿ **لقضي بينهم** ﴾ أي : لعجّل لهم العذاب في الدنيا ؛ بل لهم موعد ﴿ **وإنّهم لفي شك منه مريب** ﴾ أي : موقع من الريبة ، أي : وإن الكافرين لفي شك من القرآن شديد . قال ابن كثير : (أي : وماكان تكذيبهم له عن بصيرة منهم لما قالوا بل كانوا شاكّين فيما قالوه غير محققين لشيء كانوا فيه . هكذا وجّهه ابن جرير وهو محتمل)..

كلمة في السياق :

١ - يذهب النسفي إلى أنّ قوله تعالى ﴿ **إن الذين كفروا بالذكر ..** ﴾ بدل من قوله تعالى .. ﴿ **إن الذين يلحدون في آياتنا ..** ﴾ وهذا يفيد أن المراد بالكفر بالآيات في الآية الأولى الكفر بالقرآن ، وليس هذا صحيحاً فيما أرى لأن قوله تعالى ﴿ **إنّ الذين يلحدون في آياتنا** ﴾ جاء بعد ذكر آيات كونية . فالآيات الكونية داخلة في الآية ، وفي عموم الآيات تدخل الآيات القرآنية ، ومن ثم قلنا من قبل إنّ تأخير قوله تعالى ﴿ **إن الذين يلحدون في آياتنا ..** ﴾ عن أول المجموعة جعل الآية تؤدي أكثر من خدمة ، إذ دخل في ذلك الآيات الكونية ، والآيات القرآنية .

٢ - في مقدّمة سورة فصّلت قال تعالى عن القرآن : ﴿ **بشيراً ونذيراً فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون * وقالوا قلوبنا في أكنّة ممّا تدعونا إليه وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل إنّنا عاملون** ﴾ وفي هذه المجموعة بيّن الله عز وجل أن القرآن بالنسبة للذين لايؤمنون عمى ، وأنّهم لا يسمعونه ؛ لأنّ في آذانهم وقراً ، فههنا قرر أنّ ماقالوه عن أنفسهم صحيح ، ولكنه عرض في سياق التدليل على أن القرآن حق ، وأن خصائصه تدلّ على ذلك . وأن القرآن لأهل الإيمان هدى وشفاء ، ولكن المرض

وحده هو الذي جعل القرآن بالنسبة لهؤلاء عمى . فالذي قالوه عن أنفسهم مما ذكرته السورة في مقدمتها أبرزته المجموعة هنا وبيّنت سببه ، وهو كفرهم الذي لا يقوم على دليل بل الدليل ضدّه .

٣ - الملاحظ أنه قد ورد في أوائل السورة قوله تعالى : ﴿ **فاعمل إنّنا عاملون** ﴾ وفي الآية السابقة على المجموعة الأخيرة ورد قوله تعالى : ﴿ **اعملوا ما شئتم إنه بما تعملون بصير** ﴾ مما يفيد أنّ لامتدادات السورة صلة بمقدمتها ، وأمّا الصّلة بين المجموعة السابعة والثامنة فواضحة ، فالكلام كله عن الكفر بالآيات القرآنية والآيات الكونية .

٤ - نلاحظ أن في المجموعة السادسة حديثاً عن المستقيمين على أمر الله ، وأنّ في المجموعة السابعة حديثاً عن الملحدين في آيات الله . وأنّ في المجموعة الثامنة حديثاً عن القرآن في حق المؤمنين وعنه في حق الكافرين ﴿ **قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى** ﴾ وهكذا نجد أن المجموعة الثامنة تأخذ محلها في السياق القريب والبعيد للسورة .

٥ - نلاحظ أن محور السورة هو قوله تعالى . ﴿ **يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون ...** ﴾ ومن التقوى كما ورد في أول سورة البقرة الاهتداء بهديه وعدم الارتياب فيه : ﴿ **ذلك الكتاب لاريب فيه هدى للمتقين ..** ﴾ .

وقد بيّنت المجموعة أنّ القرآن هدى وشفاء ﴿ **قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء** ﴾ وذكرت خصائص من خصائص القرآن ﴿ **وإنه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ..** ﴾ وفي ذكر هذه الخصائص معالجة للريب في القرآن ولذلك صلته بمحور السورة وارتباطاته .

٦ - في كتابنا (الرسول ﷺ) فصّلنا في باب المعجزة القرآنية . موضوع أن القرآن لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . وبيَّنا أن ذلك وحده دليل على أن القرآن من عند الله ، وههنا نشير إلى خصيصة من خصائص القرآن مذكورة في المجموعة : لقد وصف الله كتابه بأنه عزيز فقال : ﴿ **وإنه لكتاب عزيز** ﴾ ومن عزّته أنه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . ومن عزّته أنه لا يطاله قلب الكافر ، ومن ثم قال تعالى ﴿ **وهو عليهم عمى** ﴾ وما ذلك إلا لعزّته فإنّه يأبى أن يصل إلى قلب كافر ،

ومن عزته أنه لا يبقى في قلب إذا لم يعطه حقه من العناية والرعاية ، ومن ثم قال عليه الصلاة والسلام : « تعاهدوا هذا القرآن فوالذي نفسي بيده لهو أشدّ تفلّتاً من الإبل من عقلها » .. ولننتقل إلى المجموعة التاسعة في السورة .

☆ ☆ ☆

المجموعة التاسعة

وتمتد من الآية (٤٦) إلى الآية (٥١) وهذه هي :

مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ۚ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓا۟ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴿٤٧﴾ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَظَنُّوا۟ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٤٨﴾ لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾

التفسير :

﴿ **من عمل صالحاً فلنفسه** ﴾ أي : إنّما يعود نفع ذلك على نفسه ﴿ **ومن أساء فعليها** ﴾ أي : إنما يرجع وبال ذلك عليه ﴿ **وما ربك بظلّام للعبيد** ﴾ قال ابن كثير :

أي : لا يعاقب أحداً إلا بذنبه ، ولا يعذّب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه وإرسال الرسل إليه ﴿ **إليه يردّ علم الساعة** ﴾ قال ابن كثير : أي : لا يعلم ذلك أحد سواه كما قال محمد ﷺ وهو سيد البشر لجبريل عليه الصلاة والسلام وهو من سادات الملائكة حين سأله عن الساعة فقال : « ما المسئول عنها بأعلم من السائل » وقال النسفي : أي : علم قيامها يردّ إليه ، أي : يجب على المسؤول أن يقول : الله يعلم ذلك . ﴿ **وما تخرج من ثمرات من أكمامها** ﴾ أي : من أوعيتها قبل أن تنشق ﴿ **وما تحمل من أنثى ولا تضع** ﴾ حملها ﴿ **إلا بعلمه** ﴾ أي : ما يحدث شيء من خروج ثمرة ، ولا حمل حامل ، ولا وضع واضع ، إلا وهو عالم به يعلم عدد أيام الحمل وساعاته وأحواله من الخداج والتمام ، والذكورة والأنوثة ، والحسن والقبح وغير ذلك . ﴿ **ويوم يناديهم أين شركائي** ﴾ الذين زعمتموهم أنّهم لي شركاء قال ابن كثير : أي : يوم القيامة ينادي الله المشركين على رؤوس الخلائق أين شركائي الذين عبدتموهم معي ﴿ **قالوا آذنّاك** ﴾ أي : أعلمناك ﴿ **ما منّا من شهيد** ﴾ أي : ليس أحد منا يشهد اليوم أنّ معك شريكاً ، فصار المعنى : إنك علمت يارب من قلوبنا الآن أنا لا نشهد بنفس الشهادة الباطلة ، وما منّا أحد اليوم يشهد بأنّ لك شريكاً ، وما منّا إلا من هو موحد لك . ﴿ **وضل عنهم ما كانوا يدعون من قبل** ﴾ أي : ما كانوا يعبدون من قبل أي : ذهبوا عنهم فلم ينفعوهم ﴿ **وظنّوا** ﴾ أي : وأيقنوا ﴿ **ما لهم من محيص** ﴾ أي : من مهرب ، أي : أيقنوا أنهم لا محيد لهم من عذاب الله ، ﴿ **لا يسأم الإنسان** ﴾ أي : لا يملّ الإنسان ﴿ **من دعاء الخير** ﴾ أي : من دعاء ربه بالخير : وهو المال ، وصحة الجسم وغير ذلك . ﴿ **وإن مسّه الشر** ﴾ وهو البلاء أو الفقر ﴿ **فيؤوس** ﴾ من الخير ﴿ **قنوط** ﴾ من الرحمة ، أي : يقع في ذهنه أنّه لا يتهيأ له بعد هذا خير ، والقنوط : أن يظهر عليه أثر اليأس ، فيتضاءل وينكر ، أي : يقطع الرجاء من فضل الله وروحه ، وهذه صفة الكافر بدليل ما يأتي ﴿ **ولئن أذقناه رحمة منا من بعد ضراء مَسَّته ليقولن هذا لي** ﴾ قال ابن كثير : أي : إذا أصابه خير ورزق بعد ما كان في شدة ليقولنّ هذا لي ، إني كنت أستحقه عند ربي . وقال النسفي : أي : وإذا فرّجنا عنه بصحة بعد مرض ، أو سعة بعد ضيق ، قال هذا لي ، أي : هذا حقي وصل إلي لأني استوجبته بما عندي من خير وفضل أعمال ﴿ **وما أظن الساعة قائمة** ﴾ أي : ما أظنها تكون قائمة . قال ابن كثير : أي : يكفر بقيام الساعة ، أي : لأجل أنه خوّل نعمة يبطر ويفخر ويكفر ويقول ﴿ **ولئن رجعت إلى ربي إنّ لي عنده للحسنى** ﴾ أي : الجنة أو الحالة الحسنى من الكرامة والنعمة قائساً أمر الآخرة على أمر

الدنيا. قال ابن كثير: أي ولئن كان ثَمَّ معاد فليحسننّ إليّ ربي كما أحسن إليّ في هذه الدار يتمنّى على الله عز وجل مع إساءته العمل وعدم اليقين، قال تبارك وتعالى: ﴿**فَلَنُنَبِّئَنَّ الذين كفروا بما عملوا ولنذيقنّهم من عذاب غليظ**﴾ أي: فلنخبرنّهم بحقيقة ما عملوا من الأعمال الموجبة للعذاب، ولنذيقنّهم من عذاب شديد لا يفتّر عنهم قال ابن كثير: يتهدّد تعالى من كان هذا عمله واعتقاده بالعقاب والنّكال ثم يذكر الله عز وجل ضرباً آخر من طغيان الإنسان، وإنّه إذا أصابته النعمة أبطرته فنسي المنعم، وأعرض عن شكره قال تعالى ﴿**وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه**﴾ أي: أعرض عن الطاعة واستكبر عن الانقياد لأوامر الله عزّ وجلّ وتباعد عن ذكر الله ودعائه أو ذهب بنفسه وتكبّر وتعظّم. والنّأي بالجنب يعني: البعد بالنفس، عبّر عن النّفس بالجنب .. ﴿**وإذا مَسّه الشرُّ**﴾ أي: الشدّة من ضرّ أو فقر، أو مرض أو سجن ﴿**فذو دعاءٍ عريض**﴾ أي: كثير أي: أقبل على دوام الدعاء، وأخذ في الابتهال والتضرع، **فهو** يؤوس قنوط القلب ذو دعاء عريض باللسان.

....

كلمة في السياق:

١ – بعد أن قصّ الله علينا حال المستقيمين على أمره، والملحدين بآياته، والكافرين بقرآنه في المجموعات الثلاث الأخيرة بيّن لنا في هذه المجموعة أنه ﴿**من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها وماربك بظلّامٍ للعبيد**﴾ فالمستقيم ينفع نفسه، والملحد يضرّها، والله عزّ وجلّ حكم عدل، ثمّ عرَّفنا الله عزّ وجل على إحاطة علمه ليدلّنا على شمول حسابه، وكمال عدله، ثمّ بيّن لنا أنّ الكافرين جميعاً يتبرّأون يوم القيامة من شركهم.

٢ – حدّثنا الله عز وجل عن طبيعة الإنسان الكافر في يأسه وقنوطه في المحنة، وادّعائه في نسبة النّعمة إلى نفسه في المنحة، وجهله في شأن الألوهية وكبريائه وبطره في النعمة ودعائه الله في النقمة، فهو إنسان جاهل لا يعرف أن يضع الأمور في مواضعها، ولذلك كفر، وصلة ذلك بالمجموعتين السابقتين المتكلّمتين عن كفر الإنسان وإلحاده واضحة.

٣ – جاء في خاتمة المجموعة الأولى من السورة قوله تعالى: ﴿**إن الذين آمنوا**

وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون﴾ وجاء بعد ذلك قوله تعالى : **﴿قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أنداداً﴾** فأن تحدثنا هذه المجموعة عن العمل الصالح ونفعه لصاحبه ، وتحدّثنا عن الشرك وعن الطبيعة الكافرة فذلك يشعرنا بصلة المجموعة ببداية المقطع الذي يردّ على قول الكافرين وموقفهم .

٤ - ماالصلة بين المجموعة ومحور السورة **﴿يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلّكم تتقون * الذي جعل لكم الأرض فراشاً ..﴾** ؟ .

لمّا كان موقف الإنسان من النعمة والنّقمة من أهمّ القضايا المرتبطة بمعرفة الله ؛ فقد حدّثنا الله عز وجل عن الموقف الجاهل للكافرين في هذا الشأن ، وفي هذا الحديث نرى افتقار الإنسان في ساعة الشدّة إلى الله ، وفي ذلك دليل على وجوب العبادة له ، وللمجموعات صلات أخرى بمحور السورة ، فمن عبد الله واتقاه فإنه يكون قد عمل صالحاً ، ونفع ذلك عائد إليه ، وإلّا فإنّه لا يضر إلا نفسه ولم يبق عندنا في السورة إلا مجموعة واحدة هي المجموعة العاشرة فلنرها .

☆ ☆ ☆

المجموعة العاشرة

وتمتد من الآية (٥٢) إلى نهاية الآية (٥٤) وهذه هي :

قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ ﴿٥٤﴾

ملاحظة في السياق :

يلاحظ أن هذه المجموعة هي المجموعة الثالثة المبدوءة بكلمة (قل) فالمجموعة الأولى

والثانية بدئتا بكلمة (قل) ، وهذه المجموعة بدئت بكلمة (قل) ، والملاحظ أن المجموعات السبع التي جاءت في الوسط خدمت المجموعتين الأولى والثانية ، ثم جاءت المجموعة الأخيرة على نمط المجموعتين الأولى والثانية ، من حيث إنّهما ردّ مباشر على موقف الكافرين .

لاحظ مايلي :

بدأت السورة بقوله تعالى : ﴿**حمٓ * تنزيل من الرحمن الرحيم * كتاب فصّلت آياته قرآناً عربياً لقومٍ يعلمون * بشيراً ونذيراً فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون * وقالوا قلوبنا في أكنّة ممّا تدعونا إليه وفي آذاننا وقْرٌ ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل إننا عاملون**﴾ .

وجاء الردّ الأول . ﴿**قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إليّ أنّما إلهكم إله واحد فاستقيموا إليه واستغفروه وويل للمشركين * الذين لا يؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم كافرون * إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون**﴾ .

ثم جاء الردّ الثاني . ﴿**قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أنداداً ذلك رب العالمين * وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدّر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين * ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين * فقضاهنّ سبع سمٰوات في يومين وأوحى في كل سماء أمرها وزيّنا السماء الدنيا بمصابيح وحفظاً ذلك تقدير العزيز العليم**﴾ .

ثم جاءت سبع مجموعات تخدم الردّين الأول والثاني . ثم يأتي الآن الرد الثالث والأخير وبه تختم السورة : ﴿**قل أرأيتم إن كان من عند الله ثم كفرتم به من أضلّ ممّن هو في شقاق بعيد * سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتي يتبيّن لهم أنّه الحق أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد * ألا إنهم في مِرْية من لقاء ربهم ألا إنّه بكل شيء محيط**﴾ .

فلنر تفسير هذا الجواب الأخير .

التفسير :

﴿**قل**﴾ يا محمد لهؤلاء المعرضين القائلين : ﴿**قلوبنا في أكنّة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل إننا عاملون**﴾ ﴿**أرأيتم**﴾ أي: أخبروني ﴿**إن كان**﴾ هذا القرآن ﴿**من عند الله ثم كفرتم به**﴾ ثم جحدتم أنه من عند الله كيف ترون حالكم عند الذي أنزله على رسوله ﷺ ، ولهذا قال ﴿**من أضلّ ممّن هو في شقاق بعيد ..**﴾ أي: من أضل ؟ وصفهم أنّهم في شقاق بعيد ، واستغنى بذكر صفتهم هذه عن توجيه الخطاب المباشر لهم ، والمعنى : من أضل منكم أنتم ياأصحاب الشقاق البعيد .. أي: ياأصحاب الكفر والعناد والمشاقة للحق ، ويا أصحاب المسلك البعيد عن الهدى ، ثم أكدّ الله عزّ وجلّ أنّ هذا القرآن من عنده فقال : ﴿**سنريهم آياتنا في الآفاق**﴾ . قال ابن كثير: أي: ستظهر لهم دلالاتنا وحججنا على كون القرآن حقاً منزّلاً من عند الله على رسوله ﷺ بدلائل خارجية في الآفاق .. ﴿**وفي أنفسهم**﴾ قال ابن كثير : ويحتمل أن يكون المراد من ذلك ما الإنسان مركّب منه ، وفيه، وعليه من الموادّ والأخلاط والهيئات العجيبة ، كما هو مبسوط في علم التشريح الدالّ على حكمة الصانع تبارك وتعالى . وكذلك ما هو مجبول عليه من الأخلاق المتباينة من حسن وقبيح وغير ذلك ، وما هو متصرّف فيه تحت الأقدار التي لا يقدر بحوله وقوّته وحيله ، وحذّره أن يجوزها ولا يتعداها ﴿**حتى يتبين لهم أنّه**﴾ قال النسفي : أي: القرآن أو الإسلام ﴿**الحق أوَ لَمْ يكف بربك أنّه على كل شيء شهيد**﴾ . أي: كفى بالله شهيداً على أفعال عباده وأقوالهم ، وهو يشهد أنّ محمداً ﷺ صادق فيما أخبر به عنه. قال النسفي : تقديره : أوَ لَمْ يكفهم أن ربك على كل شيء شهيد . أي: أوَ لَمْ تكفهم شهادة ربك على كل شيء ، ومعناه : أنّ هذا الموعود من إظهار آيات الله في الآفاق وفي أنفسهم سيرونه ويشاهدونه ، فيتبيَّنون عند ذلك أن القرآن تنزيل عالم الغيب الذي هو على كل شيء شهيد . أقول : وفي كتابنا (الرسول) ﷺ ذكرنا كيف أن الله عزّ وجلّ أنجز وعده . فأرى الإنسان في الآفاق وفي الأنفس البشرية ما هو مصدّق لما في القرآن ، حتى إن الإنسان إذا رأى ذلك ، ورأى ما ورد في القرآن في أمره ، أيقن أن هذا القرآن من عند الله عز وجل ، وقد ضربنا على ذلك أمثلة كثيرة ، ومن قرأ هذا التفسير ، أو ذلك البحث رأى هذا بشكل واضح ، فكيف يكفر كافر بالله وبالقرآن ؟ ثمّ ختم الله عزّ وجلّ السورة بقوله ﴿**ألا إنهم في مرية**﴾ أي: في شك ﴿**من لقاء ربهم**﴾ قال ابن كثير : أي : في شك من قيام الساعة ، ولهذا لايتفكرون فيه ، ولايعملون له ،

ولا يحذرون منه ، بل هو عندهم هزر لا يعبأون به ، بينما هو كائن لا محالة ، وواقع لا ريب فيه ، أقول : وهذه هي العلّة الكبرى فإنّ كلّ سوء في المواقف والأقوال أثر عن الكفر باليوم الآخر ، أو الشك فيه ، أو الغفلة عنه ، ثم قال تعالى ، مقرّراً أنه على كل شيء قدير ، وبكل شيء محيط ، فإقامة الساعة يسيرة عليه سهلة لديه : ﴿ **ألا إنّه بكل شيء محيط** ﴾ أي : المخلوقات كلها تحت قهرة وفي قبضته ،وتحت طيّ علمه ، وهو المتصرِّف فيها كلها بحكمه ، فما شاء كان ومالم يشأ لم يكن . قال النسفي : أي : عالم بجمل الأشياء وتفاصيلها ، وظواهرها وبواطنها ، فلا تخفى عليه خافية ، فيجازيهم على كفرهم ومريتهم في لقاء ربهم . أقول : في ختم السورة بهذا النص ، تهديد لهؤلاء الكافرين على مواقفهم وأقوالهم ، وشكّهم ورفضهم . وبهذا انتهت السورة .

كلمة في السياق :

وهكذا أقام الله عز وجل الحجة على الكافرين من خلال مضمون الدعوة ، ومن خلال ما يترتّب على مواقفهم من تناقضات واستحالات ، ومن خلال إثبات أن هذا القرآن من عند الله . ثم إن السورة حذّرت وأنذرت ، وبشّرت وبيَّنت وعلَّلت بما يخدم هذه المعاني ، وفي الوقت نفسه ربّت الذين يسمعون لهذا القرآن والمؤمنين به على كثير من المعاني العملية ، كما عرّفت على بعض آثار العبادة من استقامة واستعاذة ، وصبر وطاعة ، ولذلك كله ارتباطه بمحور السورة ، وفي الكلمة الأخيرة عن السورة مزيد بيان فلننقل بعض فوائد عن السورة .

الفوائد :

١ - بمناسبة الكلام عن بداية سورة (فصّلت) يذكر بعض المفسّرين الحادثة التي تلا فيها رسول الله ﷺ هذه البداية على عتبة بن ربيعة وهذه هي . قال ابن كثير :

روى الإمام العالم عبد بن حميد في مسنده عن جابر بن عبدالله رضي الله عنه قال : اجتمعت قريش يوماً فقالوا : انظروا أعلمكم بالسحر والكهانة والشعر فليأت هذا الرجل الذي قد فرّق جماعتنا وشتت أمرنا ، وعاب ديننا فليكلمه ، ولننظر ماذا يردّ عليه ، فقالوا : مانعلم أحداً غير عتبة بن ربيعة ، فقالوا : أنت ياأبا الوليد، فأتاه عتبة، فقال : يامحمد أنت خير أم عبدالله ؟ فسكت رسول الله ﷺ ، فقال : أنت خير أم عبدالمطلب ؟ فسكت رسول الله ﷺ ، فقال : إن كنت تزعم أن هؤلاء خير منك فقد

عبدوا الآلهة التي عبت ، وإن كنت تزعم أنك خير منهم فتكلم حتى نسمع قولك ، وإنا والله مارأينا سخلة قط أشأم على قومك منك ، فرّقت جماعتنا ، وشتّت أمرنا ، وعبت ديننا ، وفضحتنا في العرب ، حتى لقد طار فيهم أن في قريش ساحراً ، وأن في قريش كاهناً ، والله ماننتظر إلا مثل صيحة الحبلى أن يقوم بعضنا إلى بعض بالسيوف حتى نتفانى، أيها الرجل: إن كان إنما بك الحاجة جمعنا لك حتى تكون أغنى قريش رجلاً وأخذاً ، وإن كان إنما بك الباءة فاختر أي نساء قريش شئت فلنزوّجك عشراً ، فقال رسول الله ﷺ : « فرغت ؟» قال : نعم. فقال رسول الله ﷺ : ﴿**بسم الله الرحمن الرحيم * حمٓ * تنزيل من الرحمن الرحيم**﴾ حتى بلغ ﴿**فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود**﴾ فقال عتبة : حسبك حسبك ما عندك غير هذا ؟ فقال رسول الله ﷺ : « لا » فرجع إلى قريش فقالوا : ماوراءك ؟ قال : ماتركت شيئاً أرى أنكم تكلمون به إلا كلمته ، قالوا : فهل أجابك ؟ قال : نعم لا والذي نصبها بنية مافهمت شيئاً مما قاله غير أنه أنذركم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود ، قالوا : ويلك يكلمك الرجل بالعربية لا تدري ما قال ؟ قال : لا والله مافهمت شيئاً مما قال غير ذكر الصاعقة . وكذا رواه الحافظ أبو يعلى الموصلي في مسنده، وقد ساقه البغوي في تفسيره بسنده إلى جابر بن عبد الله رضى الله عنه فذكر الحديث إلى قوله : ﴿ **فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود** ﴾ فأمسك عتبة على فيه ، وناشده بالرحم ورجع إلى أهله ولم يخرج إلى قريش ، واحتبس عنهم ، فقال أبو جهل : يامعشر قريش، والله مانرى عتبة إلا قد صبأ إلى محمد، وأعجبه طعامه، وماذاك إلا من حاجة أصابته ، فانطلقوا بنا إليه ، فانطلقوا إليه فقال أبو جهل : ياعتبة ماحبسك عنا إلا أنك صبأت إلى محمد وأعجبك طعامه ، فإن كانت بك حاجة جمعنا لك من أموالنا ما يغنيك عن طعام محمد ، فغضب عتبة وأقسم أن لا يكلم محمداً ، أبداً ، وقال : والله لقد علمتم أني من أكثر قريش مالاً ، ولكني أتيته وقصصت عليه القصة فأجابني بشيء ، والله ماهو بشعر ولاكهانة ولاسحر ، وقرأ السورة إلى قوله تعالى ﴿ **فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود** ﴾ فأمسكت إليه وناشدته بالرحم أن يكف ، وقد علمتم أن محمداً إذا قال شيئاً لم يكذب ، فخشيت أن ينزل بكم العذاب . وهذا السياق أشبه من سياق البزار وأبي يعلى والله تعالى أعلم ، وقد أورد هذه القصة الإمام محمد بن إسحاق بن يسار في كتاب السيرة على خلاف هذا النمط فقال : حدثني يزيد بن زياد عن محمد بن كعب القرظي قال : حدثت أن عتبة بن ربيعة ــ وكان سيداً ــ قال يوماً وهو

جالس في نادي قريش ، ورسول الله ﷺ جالس في المسجد وحده : يامعشر قريش ألا أقوم إلى محمد فأكلمه وأعرض عليه أموراً لعله أن يقبل بعضها فنعطيه أيها شاء ويكف عنا ؟ وذلك حين أسلم حمزة رضي الله عنه ، ورأوا أصحاب رسول الله ﷺ يزيدون ويكثرون ، فقالوا : بلى ياأبا الوليد فقم إليه فكلمه ، فقام إليه عتبة حتى جلس إلى رسول الله ﷺ فقال : ياابن أخي إنك منا حيث علمت من البسطة في العشيرة ، والمكان في النسب ، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم ، فرّقت به جماعتهم ، وسفّهت به أحلامهم ، وعبت به آلهتهم ودينهم ، وكفّرت به من مضى من آبائهم ، فاسمع مني أعرض عليك أموراً تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها ، قال: قال رسول الله ﷺ : « قل ياأبا الوليد أسمع » ، قال : ياابن أخي ، إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً جمعنالك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً ، وإن كنت تريد به شرفاً سوّدناك علينا ، حتى لا نقطع أمراً دونك ، وإن كنت تريد به ملكا ملّكناك علينا ، وإن كان هذا الذي يأتيك رئيا تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الأطباء ، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه ، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه أو كما قاله ، حتى إذا فرغ عتبة ورسول الله ﷺ يستمع منه قال : « أفرغت ياأبا الوليد ؟» قال : نعم . قال: « فاستمع مني » قال : افعل ، قال : ﴿ **بسم الله الرحمن الرحيم * حمٓ * تنزيل من الرحمن الرحيم * كتاب فصّلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون * بشيراً ونذيراً فأعرض أكثرهم فهم لايسمعون** ﴾ ثم مضى رسول الله ﷺ فيها وهو يقرؤها عليه ، فلما سمع عتبة أنصت لها وألقى يديه خلف ظهره معتمداً عليهما يستمع منه حتى انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة منها فسجد ، ثم قال : « قد سمعت ياأبا الوليد ماسمعت فأنت وذاك » ، فقام عتبة إلى أصحابه ، فقال بعضهم لبعض : نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به ، فلما جلس إليهم قالوا : ما وراءك ياأبا الوليد؟ قال : ورائي أني سمعت قولاً والله ماسمعت مثله قط ، والله ماهو بالسحر ، ولا بالشعر ، ولا بالكهانة ، يامعشر قريش أطيعوني واجعلوها لي ، خلّوا بين الرجل وبين ماهو فيه ، فاعتزلوه ، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت نبأ ، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم ، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم وعزّه عزّكم ، وكنتم أسعد الناس به . قالوا: سحرك والله ياأبا الوليد بلسانه ؟ قال : هذا رأيي فيه ، فاصنعوا مابدا لكم . وهذا السياق أشبه من الذي قبله والله أعلم) .

٢ ــ بمناسبة قوله تعالى ﴿ **وويل للمشركين * الذين لا يؤتون الزكاة** ﴾ يذكر ابن

كثير مجموعة الأقوال الواردة في معنى الزكاة هنا ؛ لأن هذه الآية نزلت في مكة ، والزكاة المعروفة نزل تشريعها في المدينة قال ابن كثير : (﴿ **الذين لا يؤتون الزكاة** ﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : يعني الذين لا يشهدون أن لا إله إلا الله ، وكذا قال عكرمة ، وهذا كقوله تبارك وتعالى ﴿ **قد أفلح من زكّاها * وقد خاب من دساها** ﴾ (الشمس : ٩ ، ١٠) . وكقوله جلت عظمته ﴿ **قد أفلح من تزكى * وذكر اسم ربه فصلى** ﴾ (الأعلى : ١٤ ، ١٥) وقوله عز وجل ﴿ **فقل هل لك إلى أن تزكى ؟** ﴾ (النازعات : ١٨) والمراد بالزكاة ههنا طهارة النفس من الأخلاق الرذيلة ومن أهم ذلك طهارة النفس من الشرك ، وزكاة المال إنما سميت زكاة لأنها تطهره من الحرام ، وتكون سبباً لزيادته وبركته وكثرة نفعه وتوفيقاً إلى استعماله في الطاعات ، وقال السدي ﴿ **وويل للمشركين * الذين لايؤتون الزكاة** ﴾ أي : لا يؤدون الزكاة ، وقال معاوية بن قرة : ليس هم من أهل الزكاة ، وقال قتادة يمنعون زكاة أموالهم وهذا هو الظاهر عند كثير من المفسرين ، واختاره ابن جرير ، وفيه نظر ؛ لأن إيجاب الزكاة إنما كان في السنة الثانية من الهجرة إلى المدينة على ما ذكره غير واحد ، وهذه الآية مكية ، اللهم إلا أن يقال لا يبعد أن يكون أصل الصدقة والزكاة كان مأموراً به في ابتداء البعثة ، كقوله تبارك وتعالى ﴿ **وآتوا حقّه يوم حصاده** ﴾ (الأنعام : ١٤١) فأما الزكاة ذات النُّصب والمقادير فإنما بيّن أمرها بالمدينة ، ويكون هذا جمعاً بين القولين ، كما أن أصل الصلاة كان واجباً قبل طلوع الشمس وقبل غروبها في ابتداء البعثة ، فلما كان ليلة الإسراء قبل الهجرة بسنة ونصف ، فرض الله تعالى على رسوله ﷺ الصلوات الخمس ، وفصل شروطها وأركانها وما يتعلق بها بعد ذلك شيئاً فشيئاً والله أعلم) .

٣ - فهم بعضهم أنّ معنى ﴿ **ممنون** ﴾ في قوله تعالى ﴿ **إنّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون** ﴾ أي : غير ممتنّ عليهم به ، وهذا غلط بل غير الممنون هنا يعني : غير المقطوع . قال ابن كثير : (وقد رد هذا التفسير بعض الأئمة فإن المنة لله تعالى على أهل الجنة ، قال الله تبارك وتعالى : ﴿ **بل الله يمنّ عليكم أن هداكم للإيمان** ﴾ وقال أهل الجنة : ﴿ **فمنّ الله علينا ووقانا عذاب السموم** ﴾ وقال رسول الله ﷺ «إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل») .

٤ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **وقالوا قلوبنا في أكنّة ممّا تدعونا إليه وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب** ﴾ قال النسفي : (وهذه تمثيلات لنبوّ قلوبهم عن تقبل الحق

واعتقاده كأنها في غلف وأغطية من نفوذه فيها ، ومج أسماعهم له كأن بها صمماً عنه ، ولتباعد المذهبين والدينين كأن بينهم وماهم عليه وبين رسول الله ﷺ وماهو عليه حجاباً ساتراً وحاجزاً منيعاً من جبل أو نحوه فلا تلاقي ولا ترائي) .

٥ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿**قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين ...**﴾ نقول : إن هذا المقام ، مقام يصعب التحقيق فيه ، وقد ذكرنا رأينا فيه في سورة البقرة وسورة هود ، وههنا نلخص مجمل رأينا في الموضوع :

أ - إنّ السماء بمعنى النجوم والمجرّات خلقت قبل خلق الأرض يشهد على ذلك : ﴿ **أأنتم أشد خلقاً أم السماء بناها * رفع سمكها فسوّاها * وأغطش ليلها * وأخرج ضحاها * والأرض بعد ذلك دحاها** ﴾ وأنّ السمٰوات السبع خلقت بعد الأرض ﴿ **هو الذي خلق لكم مافي الأرض جميعاً ثمّ استوى إلى السماء فسوّاهن سبع سماوات** ﴾ وأنّ السمٰوات السبع والأرض ومابينهما خلقت في ستة أيام . وأن المراد بما بينهما الكواكب السيارة ، وأن الكواكب السيارة هي التي زينت بها السماء الدنيا ؛ لأنها هي التي بأجزاء منها ترجم الشياطين . ونتصوَّر أنه بكلامنا الذي قدّمناه نكون قد أعطينا الجواب الشافي الذي يجمع بين النصوص كلها ، وبين معطيات العلوم المعاصرة ، والتصور العام للكون حسب هذه المعطيات ، والله أعلم ، ونحبّ أن نذكّر هنا بما نبّهنا عليه في سورة البقرة أن مايرد من روايات في تحديد ماذا كان في يوم سبت أو أحد أو غير ذلك مرجعها كلها روايات أهل الكتاب على التحقيق .

ب ـــ وقد رجّحنا ـــ لأسباب كثيرة ـــ أن تكون السمٰوات السبع ـــ التي هي سكن الملائكة ، وإليها ترجع أرواح المؤمنين ، والتي فوقها عرش الرحمن ـــ غيبية ، فهي موجودة كما أخبرنا الله عز وجل ، ورسوله ﷺ عنها ولكنها مغيّبة عنا ، وقد ذكرنا أدلّة ذلك في أكثر من مكان في هذا التفسير .

٦ ـــ بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **حتى إذا ماجاؤوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون ..** ﴾ قال ابن كثير : (روى الحافظ أبو بكر البزار عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : ضحك رسول الله ﷺ ذات يوم ـــ أو تبسم ـــ فقال ﷺ : « ألا تسألوني عن أي شيء ضحكت ؟ » قالوا : يارسول الله من أي شيء ضحكت ؟ قال ﷺ : « عجبت من مجادلة العبد ربه يوم القيامة ، يقول : أي رب أليس وعدتني أن لاتظلمني ؟ قال : بلى ، فيقول : فإني لاأقبل عليّ شاهداً إلا من نفسي ،

فيقول الله تبارك وتعالى : أو ليس كفى بي شهيداً ، وبالملائكة الكرام الكاتبين ؟ قال : فيردد هذا الكلام مراراً ، قال : فيختم على فيه ، وتتكلم أركانه بما كان يعمل ، فيقول : بُعْداً لكنّ وسحقاً ، عنكنّ كنت أجادل » وكذا رواه ابن أبي حاتم ، وقد أخرجه مسلم والنسائي وروى ابن أبي حاتم عن حميد بن هلال قال : قال أبو بردة : قال أبو موسى : ويدعى الكافر والمنافق للحساب ، فيعرض عليه ربه عز وجل عمله فيجحد ويقول : أي رب ، وعزّتك لقد كتب عليّ هذا الملك مالم أعمل . فيقول له الملك : أما عملت كذا في يوم كذا في مكان كذا ؟ فيقول : لا وعزّتك أي: رب ماعملته . قال : فإذا فعل ذلك ختم على فيه ، قال الأشعري رضي الله عنه : فإني لأحسب أول ما ينطق منه فخذه اليمنى . وروى الحافظ أبو يعلى عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : «إذا كان يوم القيامة عرِّف الكافر بعمله ، فجحد وخاصم فيقول : هؤلاء جيرانك يشهدون عليك ، فيقول : كذبوا ، فيقول : أهلك وعشيرتك ، فيقول : كذبوا ، فيقول احلفوا فيحلفون ، ثم يصمتهم الله تعالى ، وتشهد عليهم ألسنتهم ويدخلهم النار » وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال لابن الأزرق : إن يوم القيامة يأتي على الناس منه حين لا ينطقون ولا يعتذرون ولا يتكلمون ، حتى يؤذن لهم ثم يؤذن لهم ، فيختصمون فيجحد الجاحد بشركه بالله تعالى ، فيحلفون له كما يحلفون لكم ، فيبعث الله تعالى عليهم حين يجحدون شهداء من أنفسهم ، جلودهم وأبصارهم وأيديهم وأرجلهم ، ويختم على أفواههم ، ثم يفتح لهم الأفواه فتخاصم الجوارح فتقول ﴿ **أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون** ﴾ فتقر الألسنة بعد الجحود . وروى ابن أبي حاتم عن رافع أبي الحسن قال : وصف رجلاً جحد قال : فيشير الله تعالى إلى لسانه فيربو في فمه حتى يملأه ، فلا يستطيع أن ينطق بكلمة ، ثم يقول لآرابه كلها : تكلمي واشهدي عليه ، فيشهد عليه سمعه وبصره وجلده وفرجه ، ويداه ورجلاه : صنعنا عملنا فعلنا) .

٧ – بمناسبة قوله تعالى ﴿ **وذلكم ظنّكم الذي ظننتم بربكم أرداكم** ﴾ قال ابن كثير : (روى الإمام أحمد عن عبد الله رضي الله عنه قال : كنت مستتراً بأستار الكعبة فجاء ثلاثة نفر قرشي وختناه ثقفيان ـــ أو ثقفي وختناه قرشيان ـــ كثير شحم بطونهم ، قليل فقه قلوبهم ، فتكلموا بكلام لم أسمعه ، فقال أحدهم : أترون أن الله يسمع كلامنا هذا ؟ فقال الآخر : إنا إذا رفعنا أصواتنا سمعه ، وإذا لم نرفعه لم يسمعه ، فقال الآخر : إن سمع منه شيئاً سمعه كله ـــ قال ـــ فذكرت ذلك للنبي ﷺ فأنزل الله

عز وجل ﴿ **وماكنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم** ﴾ إلى قوله ﴿ **من الخاسرين** ﴾ وهكذا رواه الترمذي وأحمد ومسلم والبخاري وروى عبد الرزاق عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده عن النبي ﷺ في قوله تعالى ﴿ **أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم** ﴾ قال : « إنكم تدعون يوم القيامة مقدماً على أفواهكم بالفدام ، فأول شيء يبين عن أحدكم فخذه وكفه » قال معمر : وتلا الحسن : ﴿ **وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم** ﴾ ثم قال : قال رسول الله ﷺ : « قال الله تعالى : أنا مع عبدي عند ظنه بي ، وأنا معه إذا دعاني » ثم أخذ الحسن ينظر في هذا فقال : ألا إنما عمل الناس على قدر ظنهم بربهم ، فأما المؤمن فأحسن الظن بربه فأحسن العمل ، وأما الكافر والمنافق فأساءا الظن بالله فأساءا العمل ثم قال : قال الله تبارك وتعالى ﴿ **وماكنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم** ﴾ إلى قوله ﴿ **وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم** ﴾ الآية . وروى الإمام أحمد عن جابر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يموتن أحد منكم إلا وهو يحسن بالله الظن ، فإن قوماً قد أرداهم سوء ظنهم بالله فقال الله تعالى : ﴿ **وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين** ﴾ .

٨ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا ...** ﴾ قال النسفي : (وعن الصديق رضي الله عنه : استقاموا فعلاً كما استقاموا قولاً ، وعنه أنه تلاها ثم قال : ماتقولون فيها ، قالوا : لم يذنبوا ، قال : حملتم الأمر على أشده ، قالوا : فما تقول ؟ قال : لم يرجعوا إلى عبادة الأوثان ، وعن عمر رضي الله عنه : لم يروغوا روغان الثعالب ، أي لم ينافقوا ، وعن عثمان رضي الله عنه : أخلصوا العمل ، وعن علي رضي الله عنه : أدوا الفرائض ، وعن الفضيل : زهدوا في الفانية ورغبوا في الباقية ، وقيل : حقيقة الاستقامة القرار بعد الإقرار ، لا الفرار بعد الإقرار) .

وقال ابن كثير في الآية : (روى الحافظ أبو يعلى الموصلي عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قرأ علينا رسول الله ﷺ هذه الآية ﴿ **إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا** ﴾ قد قالها ناس ثم كفر أكثرهم ، فمن قالها حتى يموت فقد استقام عليها ، وكذا رواه النسائي في تفسيره والبزار وابن جرير عن عمرو بن علي الفلاس عن مسلم بن قتيبة به . وكذا رواه ابن أبي حاتم عن أبيه عن الفلاس به . روى ابن جرير عن سعيد بن عمران قال : قرأت عند أبي بكر الصديق رضي الله عنه هذه الآية ﴿ **إن الذين قالوا ربنا الله ثم**

استقاموا ﴾ قال : هم الذين لم يشركوا بالله شيئا ثم روى من حديث الأسود بن هلال قال : قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه ماتقولون في هذه الآية ﴿ **إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا** ﴾ ؟ قال: فقالوا : ﴿ **ربنا الله ثم استقاموا** ﴾ من ذنب فقال : لقد حملتموها على غير المحمل ، قالوا : ربنا الله ثم استقاموا فلم يلتفتوا إلى إله غيره . وكذا قال مجاهد وعكرمة والسدي وغير واحد ، وروى ابن أبي حاتم عن عكرمة قال : سئل ابن عباس رضي الله عنهما : أيّ آية في كتاب الله تبارك وتعالى أرخص ؟ قال : قوله تعالى ﴿ **إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا** ﴾ على شهادة أن لاإله إلا الله ، وقال الزهري : تلا عمر رضي الله عنه هذه الآية على المنبر ثم قال : استقاموا والله لله بطاعته ، ولم يروغوا روغان الثعالب . وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ **قالوا ربنا الله ثم استقاموا** ﴾ على أداء فرائضه ، وكذا قال قتادة قال : وكان الحسن يقول : اللهم أنت ربنا فارزقنا الاستقامة ، وقال أبو العالية : ﴿ **ثم استقاموا** ﴾ أخلصوا له الدين والعمل . وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن سفيان الثقفي عن أبيه أن رجلاً قال : يارسول الله مرني بأمر في الإسلام لاأسأل عنه أحداً بعدك ، قال ﷺ : « قل آمنت بالله ثم استقم» قلت : فما أتقي ؟ فأومأ إلى لسانه . ورواه النسائي من حديث شعبة عن يعلى بن عطاء به ، ثم قال الإمام أحمد عن سفيان بن عبد الله الثقفي قال : قلت : يارسول الله حدثني بأمر أعتصم به ، قال صلى الله عليه وآله وسلم : « قل ربي الله ثم استقم » قلت يارسول الله ماأكثر ما تخاف عليّ ؟ فأخذ رسول الله ﷺ بطرف لسان نفسه ثم قال ـــ هذا » وهكذا رواه الترمذي وابن ماجه من حديث الزهري به وقال الترمذي حسن صحيح . وقد أخرجه مسلم في صحيحه والنسائي من حديث هشام بن عروة عن أبيه سفيان بن عبد الله الثقفي قال : قلت : يارسول الله قل لي في الإسلام قولاً لاأسأل عنه أحداً بعدك قال ﷺ : « قل آمنت بالله ثم استقم» وذكر تمام الحديث) .

٩ – بمناسبة قوله تعالى عن أهل الاستقامة ﴿ **تتنزّل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولاتحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون * نحن أولياؤكم...** ﴾ قال ابن كثير : (وهذا كما جاء في حديث البراء رضي الله عنه قال «إن الملائكة تقول لروح المؤمن اخرجي أيتها الروح الطيبة في الجسد الطيب كنت تعمرينه ، اخرجي إلى روْح وريحان ورب غير غضبان» وقيل : إن الملائكة تتنزل عليهم يوم خروجهم من قبورهم ، حكاه ابن جرير عن ابن عباس والسدي ، وروى ابن أبي حاتم : عن جعفر بن سليمان قال :

سمعت ثابتاً قرأ سورة حمّ السجدة حتى بلغ ﴿ **إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة** ﴾ فوقف فقال : بلغنا أن العبد المؤمن حين يبعثه الله تعالى من قبره يتلقاه الملكان اللذان كانا معه في الدنيا فيقولان له : لا تخف ولا تحزن ﴿ **وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون** ﴾ قال : فيؤمِّن الله تعالى خوفه ، ويقرّ عينه ، فما عظيمة يخشى الناس يوم القيامة إلا هي للمؤمن قرة عين لما هداه الله تبارك وتعالى ، ولما كان يعمل له في الدنيا ، وقال زيد بن أسلم : يبشرونه عند موته وفي قبره وحين يبعث . رواه ابن أبي حاتم ، وهذا القول يجمع الأقوال كلها وهو حسن جداً وهو الواقع) .

١٠ - وبمناسبة قوله تعالى عن جزاء أهل الاستقامة : ﴿ **ولكم فيها ماتشتهي أنفسكم ولكم فيها ماتدعون * نزلاً من غفور رحيم** ﴾ قال ابن كثير : (وقد ذكر ابن أبي حاتم ههنا حديث سوق الجنة عند قوله تعالى ﴿ **ولكم فيها ماتشتهي أنفسكم ولكم فيها ماتدعون * نزلاً من غفور رحيم** ﴾ فروى عن سعيد بن المسيب أنه لقي أبا هريرة رضي الله عنه فقال أبو هريرة رضي الله عنه : أسأل الله أن يجمع بيني وبينك في سوق الجنة ، فقال سعيد : أوفيها سوق ؟ فقال : نعم ، أخبرني رسول ﷺ أن أهل الجنة إذا دخلوا فيها نزلوا بفضل أعمالهم فيؤذن لهم في مقدار يوم الجمعة من أيام الدنيا فيزورون الله عز وجل ، ويبرز لهم عرشه ، ويتبدى لهم في روضة من رياض الجنة ، ويوضع لهم منابر من نور ، ومنابر من لؤلؤ ، ومنابر من ياقوت ، ومنابر من زبرجد ، ومنابر من ذهب ، ومنابر من فضة ، ويجلس أدناهم — ومافيهم دنيء — على كثبان المسك والكافور ، مايرون أن أصحاب الكراسي بأفضل منهم مجلساً . قال أبو هريرة رضي الله عنه : قلت : يارسول الله وهل نرى ربنا ؟ قال ﷺ : « نعم ، هل تمارون في رؤية الشمس والقمر لليلة البدر ؟ » قلنا : لا ؛ قال ﷺ : « فكذلك لا تتمارون في رؤية ربكم تعالى ، ولا يبقى في ذلك المجلس أحد إلا حاضره الله محاضرة حتى إنه ليقول للرجل منهم يافلان بن فلان أتذكر يوم عملت كذا وكذا يذكره ببعض غدراته في الدنيا — فيقول : أي رب أفلم تغفر لي ؟ فيقول : بلى ، فبسعة مغفرتي بلغت منزلتك هذه — قال : — فبينما هم على ذلك ، غشيتهم سحابة من فوقهم ، فأمطرت عليهم طيباً لم يجدوا مثل ريحه شيئاً قط — قال — ثم يقول ربنا عز وجل : قوموا إلى ماأعددت لكم من الكرامة ، وخذوا مااشتهيتم ، قال : فنأتي سوقاً قد حفت به الملائكة ، فيها مالم تنظر العيون إلى مثله ، ولم تسمع الآذان ، ولم يخطر على القلوب ، قال : فيحمل لنا مااشتهينا ليس يباع فيه شيء ، ولا يشترى ، وفي ذلك السوق يلقى أهل الجنة بعضهم بعضاً . قال : فيقبل الرجل ذو

المنزلة الرفيعة فيلقى من هو دونه — وما فيهم دنيء — فيروعه مايرى عليه من اللباس ، فما ينقضي آخر حديثه حتى يتمثل عليه أحسن منه ، وذلك لأنه لا ينبغي لأحد أن يحزن فيها ، ثم ننصرف إلى منازلنا فيتلقانا أزواجنا فيقلن : مرحباً وأهلاً بحبيبنا ، لقد جئت وإن بك من الجمال والطيب أفضل مما فارقتنا عليه ، فيقول : إنا جالسنا اليوم ربنا الجبار تبارك وتعالى ، وبحقنا أن ننقلب بمثل ما انقلبنا به » وقد رواه الترمذي في صفة الجنة من جامعه وقال : هذا حديث غريب . وروى الإمام أحمد عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه » قلنا : يارسول الله كلنا نكره الموت قال ﷺ : « ليس ذلك كراهية الموت ، ولكن المؤمن إذا حضر جاءه البشير من الله تعالى بماهو صائر إليه ، فليس شيء أحب إليه من أن يكون قد لقي الله تعالى فأحب الله لقاءه — قال — وإن الفاجر — أو الكافر — إذا حضر جاءه بما هو صائر إليه من الشر أو ما يلقى من الشر ، فكره لقاء الله فكره الله لقاءه » وهذا حديث صحيح وقد ورد في الصحيح من غير هذا الوجه .

١١ – بمناسبة قوله تعالى . ﴿ **ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين** ﴾ نقل ابن كثير أحاديث كثيرة في فصل الأذان والمؤذنين على اعتبار أنه وجد من قال : إنّ الآية في المؤذنين ، والصحيح أنها عامة في كل من دعا إلى خير ، ويدخل في ذلك المؤذنون ، ولدخولهم فيها نقل ابن كثير الأحاديث الكثيرة فيهم قال : (وروى ابن أبي حاتم عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أنه قال : « سهام المؤذنين عند الله تعالى يوم القيامة كسهام المجاهدين وهو بين الأذان والإقامة كالمتشحط في سبيل الله تعالى في دمه » قال : وقال ابن مسعود رضي الله عنه : لو كنت مؤذناً ما باليت أن لا أحج أو أعتمر ولا أجاهد ، قال : وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : لو كنت مؤذناً لكمل أمري ، وما باليت أن لا أنتصب لقيام الليل ، ولا لصيام النهار ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : « اللهم اغفر للمؤذنين » ثلاثاً ، قال : فقلت : يارسول الله ، تركتنا ونحن نجتلد على الأذان بالسيوف ، قال ﷺ : « كلا ياعمر إنه سيأتي على الناس زمان يتركون الأذان على ضعفائهم ، وتلك لحوم حرمها الله عز وجل على النار ، لحوم المؤذنين » قال : وقالت عائشة رضي الله تعالى عنها : ولهم هذه الآية ﴿ **ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين** ﴾ قالت : فهو المؤذن إذا قال : حي على الصلاة ، فقد دعا إلى الله وهكذا قال ابن عمر رضي الله عنهما وعكرمة ، إنها نزلت في المؤذنين ، وقد ذكر البغوي عن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه

أنه قال في قوله عز وجل : ﴿ **وعمل صالحاً** ﴾ يعني : صلاة ركعتين بين الأذان والإقامة . ثم أورد البغوي حديث عبد الله بن المغفل رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « بين كل أذانين صلاة ــ ثم قال في الثالثة ــ لمن شاء » وقد أخرجه الجماعة في كتبهم من حديث عبد الله بن بريدة عنه ، وحديث الثوري المروي عن أنس بن مالك رضي الله عنه ، قال الثوري : لا أراه إلا قد رفعه إلى النبي ﷺ « الدعاء لا يردّ بين الأذان والإقامة » ورواه أبو داود والترمذي والنسائي في اليوم والليلة كلهم من حديث الثوري به ، وقال الترمذي : هذا حديث حسن ، ورواه النسائي أيضاً من حديث سليمان التيمي عن قتادة عن أنس به ، والصحيح أن الآية عامة في المؤذنين وفي غيرهم ، فأما حال نزول هذه الآية فإنه لم يكن الأذان مشروعاً بالكلية لأنها مكية ، والأذان إنما شرع بالمدينة بعد الهجرة حين أريه عبد الله بن عبد ربه الأنصاري رضي الله عنه في منامه ، فقصّه على رسول الله ﷺ ، فأمره أن يلقيه على بلال رضي الله عنه فإنه أندى صوتاً كما هو مقرر في موضعه ، فالصحيح إذاً أنها عامة كما قال عبد الرزاق عن معمر عن الحسن البصري أنه تلا هذه الآية ﴿ **ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين** ﴾ فقال : هذا حبيب الله ، هذا ولي الله ، هذا صفوة الله ، هذا خيرة الله ، هذا أحب أهل الأرض إلى الله ، أجاب الله في دعوته ، ودعا الناس إلى ما أجاب الله فيه من دعوته ، وعمل صالحاً في إجابته ، وقال : إنني من المسلمين ، هذا خليفة الله) .

١٢ – بمناسبة قوله تعالى ﴿ **إن ربك لذو مغفرة وذو عقاب أليم** ﴾ قال ابن كثير : (روى ابن أبي حاتم ... عن سعيد بن المسيّب قال : نزلت هذه الآية ﴿ **إنّ ربك لذو مغفرة** ﴾ قال رسول الله ﷺ : « لولا عفو الله وتجاوزه ما هنأ أحداً العيش ، ولولا وعيده وعقابه لا تّكل كل أحد ») .

١٣ – وبمناسبة قوله تعالى : ﴿ **سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبيّن لهم أنه الحق** ﴾ قال صاحب الظلال : (إنه وعد الله لعباده ــ بني الإنسان ــ أن يطلعهم على شيء من خفايا هذا الكون ، ومن خفايا أنفسهم على السواء . وعدهم أن يريهم آياته في الآفاق وفي أنفسهم ، حتى يتبيّن لهم أنه الحق . هذا الدين . وهذا الكتاب . وهذا المنهج . وهذا القول الذي يقوله لهم . ومن أصدق من الله حديثاً ؟.

ولقد صدقهم الله وعده ، فكشف لهم عن آياته في الآفاق خلال القرون الأربعة عشر

التي تلت هذا الوعد ، وكشف لهم عن آياته في أنفسهم . ومايزال يكشف لهم في كل يوم عن جديد .

وينظر الإنسان فيرى البشر قد كشفوا كثيراً جداً منذ ذلك الحين . فقد تفتّحت لهم الآفاق . وتفتّحت لهم مغاليق النفوس بالقدر الذي شاءه الله .

لقد عرفوا أشياء كثيرة . لو أدركوا كيف عرفوها وشكروا لكان لهم فيها خير كثير .

عرفوا منذ ذلك الحين أن أرضهم التي كانوا يظنونها مركز الكون .. إن هي إلا ذرة صغيرة تابعة للشمس . وعرفوا أن الشمس كرة صغيرة منها في الكون مئات الملايين . وعرفوا طبيعة أرضهم وطبيعة شمسهم ــ وربما طبيعة كونهم ، إن صح ماعرفوه !.

وعرفوا الكثير عن مادة هذا الكون الذي يعيشون فيه . إن صح أن هناك مادة . عرفوا أن أساس بناء هذا الكون هو الذرة . وعرفوا أن الذرة تتحول إلى إشعاع . وعرفوا إذن أن الكون كله من إشعاع .. في صور شتى : هي التي تجعل منه هذه الأشكال والأحجام !.

وعرفوا الكثير عن كوكبهم الأرضي الصغير . عرفوا أنه كرة أو كالكرة . وعرفوا أنه يدور حول نفسه وحول الشمس . وعرفوا قاراته ومحيطاته وأنهاره . وكشفوا عن شيء من باطنه . وعرفوا الكثير من المخبوء في جوف هذا الكوكب من الأقوات . والمنثور في جوه من هذه الأقوات أيضاً !.

وعرفوا وحدة النواميس التي تربط كوكبهم بالكون الكبير ، وتصرف هذا الكون الكبير . ومنهم من اهتدى فارتقى من معرفة النواميس إلى معرفة خالق النواميس . ومنهم من انحرف فوقف عند ظاهر العلم لا يتعداه . ولكن البشرية بعد الضلال والشرود من جراء العلم ، قد أخذت عن طريق العلم تثوب ، وتعرف أنه الحق عن هذا الطريق .

ولم تكن فتوح العلم والمعرفة في أغوار النفس بأقل منها في جسم الكون . فقد عرفوا عن الجسم البشري وتركيبه وخصائصه وأسراره الشيء الكثير . عرفوا عن تكوينه وتركيبه ووظائفه وأمراضه ، وغذائه وتمثيله ، وعرفوا عن أسرار عمله وحركته ، ما يكشف عن خوارق لا يصنعها إلا الله .

وعرفوا عن النفس البشرية شيئاً .. إنه لايبلغ ماعرفوه عن الجسم ؛ لأن العناية

كانت متجهة بشدة إلى مادة هذا الإنسان وآلية جسمه أكثر مما كانت متجهة إلى عقله وروحه . ولكن أشياء قد عرفت تشير إلى فتوح ستجيء ..

ومايزال الإنسان في الطريق !.

ووعد الله مايزال قائماً : ﴿ **سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق** ﴾ .. والشطر الأخير من الوعد قد بانت طلائعه منذ مطلع هذا القرن بشكل ملحوظ . فموكب الإيمان يتجمع من فجاج شتى . وعن طريق العلم المادي وحده يفد كثيرون ! وهناك أفواج وأفواج تتجمع من بعيد . ذلك على الرغم من موجة الإلحاد الطاغية التي كادت تغمر هذا الكوكب في الماضي . ولكن هذه الموجة تنحسر الآن . تنحسر ــ على الرغم من جميع الظواهر المخالفة ــ وقد لا يتم تمام هذا القرن العشرين الذي نحن فيه ، حتى يتم انحسارها أو يكاد إن شاء الله) .

كلمة في سورة فصّلت ومجموعتها :

١ – بدأت سورة فصّلت بمقدّمة تنتهي بتسجيل موقف للكافرين هو : ﴿ **وقالوا قلوبنا في أكنة** .. ﴾ ثمّ سارت السورة تردّ على هذا القول ، وتفنّده مرّة بعد مرّة ، وفي ذلك يكمن سرّ السياق الخاص للسورة ، وبه تتجلّى وحدتها .

٢ – ومع أن للسورة وحدتها فإنّها قد فصّلت في محورها ، وفي امتدادات هذا المحور ، وبنت على السّور التي فصّلته .

٣ – ومع هذا وهذا فللسورة ارتباطها بمجموعتها ، فهي تكمّل مجموعتها وتتكامل معها .

لقد رأينا أن المجموعة الثالثة في قسم المثاني هي المجموعة التي تتألف من الزمر ، والمؤمن ، وفصّلت ، والملاحظ أن هذه المجموعة تكمّل بعضها ، وتتكامل مع بعضها .

ومن مظاهر وحدة المجموعة وحدة البدايات :

﴿ **تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم** ﴾ سورة الزمر

﴿ **حمٓ * تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم** ﴾ سورة المؤمن

﴿ **حمٓ * تنزيل من الرحمن الرحيم * كتاب فصّلت آياته** ﴾ سورة فصّلت .

ومن مظاهر تكاملها أنّك تجد كل سورة من السور الثلاث ذكرت أسماءً لله ، وكانت هذه السور مجلى لهذه الأسماء .

ومن مظاهر تكامل المجموعة أنّك تجد في سورة معنى تكمّله سورة أخرى :

فالآية الثانية في سورة الزمر هي : ﴿ **إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق** ... ﴾ .

والآية الرابعة في سورة المؤمن هي : ﴿ **مايجادل في آيات الله إلا الذين كفروا** .. ﴾

والآية الخامسة في سورة فصّلت هي : ﴿ **وقالوا قلوبنا في أكنّة مما تدعونا إليه** .. ﴾ لاحظ كيف تتكامل المعاني في السور الثلاث ، حتى لو أنك وضعت هذه الآيات بجانب بعضها لخرج معك معنى متكامل .

٤ - وهذه المجموعة تضيف صرحاً جديداً لموضوع التفصيل القرآني المتلاحم : جاءت سورة البقرة ، ثم جاءت تتمّة السبع الطوال لتضع الصرح الأول في تفصيلها ، ثمّ جاءت ثلاث مجموعات في قسم المئين ، لتضيف صروحاً ثلاثة أخرى في تفصيل سورة البقرة .

ثمّ جاء قسم المثاني ليضيف ست صروح أخرى ، ثمّ يأتي قسم المفصّل ليضع صروحاً أخرى في التفصيل ، فتكون آخر مجموعة فيه هي قمّة الهرم .

قاعدة الهرم هي سورة البقرة ، ثمّ يبنى الهرم بعد ذلك من مجموعات ، كل مجموعة أكبر من التي بعدها ، حتى نصل إلى القمة ، وفيما بين ذلك من الصلات مالا يحيط به إلا الله عز وجل .

كل مجموعة لاحقة تبنى على كل ماسبقها من مجموعات ، وكلّ سورة تفصّل في محور تبني على التفصيلات السابقة لهذا المحور ، بحيث تعمّق المعاني وتؤكّدها وتكمّلها في عمليات متلاحقة ، يتكامل بها بناء النفس البشرية ؛ لتؤدي دورها مع غيرها في سير منضبط إلى الله ، وفي صف واحد نحو تحقيق الأهداف .

٥ – لقد قلنا من قبل إن كلّ سورة لها محورها من سورة البقرة ، تفصّل في هذا المحور ، وفي امتداداته ، لاحظ الآن ما يلي :

بعد مقدّمة سورة البقرة جاء مقطع يبدأ بقوله تعالى : ﴿ **ياأيها الناس اعبدوا ربكم** ... ﴾ وينتهي بقوله تعالى : ﴿ **هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً ثمّ استوى إلى السماء فسواهنّ سبع سمٰوات** ﴾ وقد رأينا كيف أن محور سورة (فصّلت) هو ﴿ **ياأيها الناس اعبدوا ربكم** .. ﴾ ولقد جاء في سورة فصّلت قوله تعالى : ﴿ **قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين ... ثمّ استوى إلى السماء** .. ﴾ فلهذه الآيات صلة بآخر آية من المقطع الأول من القسم الأول من سورة البقرة ، وهذا يعرّفنا على طبيعة التفصيل القرآني ، ومن هذه الحيثية نجد أنفسنا أمام أشكال هندسية جديدة في الوحدة القرآنية ، فلو افترضنا أن سورة البقرة تشكل قاعدة ، أجزاؤها هي آياتها ، فإنّ الآيـات المتقاربة في معناها تلتقي خيوطها في نقطة واحدة لتأتي سورة فتفصّل ، ثمّ تأتي سورة أخرى فتفصل في تجمّع آخر ، وهكذا نجد أنفسنا أمام مئات الأشكال الهندسية التي تلتقي في نقاط، ثمّ تفترق لتتجمّع بعد ذلك في نقاط أخرى وهكذا ، ويربط بين ذلك كله شكل جامع .

٦ – ونلاحظ أنّ السور الثلاث لم تحدّثنا كثيراً عن الأحكام العملية ، بل كانت أكثر آياتها منصبة على البناء العقلي والقلبي للمسلم ؛ لأن ذلك هو الأساس الذي تقوم عليه الأحكام .

تأمّل الآن ما يلي :

كل سورة من السور الثلاث ذكّرت بالمعاني الرئيسية التي ينبغي أن يتذكّرها الإنسان ، والسور الثلاث بمجموعها ذكّرت بوحدة كلّية يحتاجها الإنسان ، فإذا عرفت أن هذا القرآن يتألف من كذا سورة ، ومن كذا مجموعة ، وأن سُوره منها القصير ، ومنها الطويل ، ومنها المتوسط ، وأن مجموعاته كذلك ــ أدركت لِمَ كان القرآن كذلك ، وكيف أن القرآن ذكر ومذكّر ، وفي ذلك مظهر من مظاهر الإعجاز .

٧ – وأنت عندما تدرس مجموعات القرآن فإنك تجد أنّ القرآن يعالج أدقّ مواضيع العقيدة بأنواع المعالجات التي تستأصل الباطل ، وتعمّق الحقّ ، وتستأصل جذور

الخطأ ، وتربي أعماق الفطرة ، ولاتبقي جانباً ــ عقلياً ، أو نفسياً ، أو قلبياً ، أو روحياً ــ من الإنسان إلا وتربيه تربية كاملة : ﴿ **قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين** ﴾ ومن هذا وغيره ندرك أهمية أن يكون للمسلم ورده اليومي من كتاب الله ، كما ندرك خطورة إهمال دراسة القرآن على حساب أي نوع من أنواع العلوم الإسلامية الأخرى ، كما ندرك ضرورة التركيز على تعلمه وتعليمه قال تعالى : ﴿ **ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلّمون الكتاب وبما كنتم تدرسون** ﴾ .

☆ ☆ ☆

المجموعة الرابعة

من القسم الثالث من أقسام القرآن
المسمَّى بقسم المثاني
وتشمل سور :
(الشورى ، والزخرف ، والدخان)

كلمة في المجموعة الرابعة :

هنـاك تشـابه واضح بين سورة (الشورى) وسورة (طـه) . تلحـظ هـذا التشـابه في بدايات السورتين ، وتلمحه في بدايات المقاطع : تأمّل بدايتي السورتين : ﴿ **طه * ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى * إلا تذكرة لمن يخشى * تنزيلاً ممن خلق الأرض والسموات العلى * الرحمٰن على العرش استوى * له ما في السموات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى** ﴾ .

قارن هذه البداية ببداية سورة الشورى : ﴿ **حمٓ عٓسٓقٓ * كذلك يوحي إليك وإلى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم * له ما في السموات وما في الأرض وهو العليّ العظيم * تكاد السموات يتفطّرن من فوقهنّ ...** ﴾ .

إنك تجد تشابهاً بين البدايتين :

ثمّ لاحظ أن كلمة (كذلك) تتكرّر في سورة طه : ﴿ **كذلك نقصّ عليك من أنباء ما قد سبق وقد آتيناك من لدنّا ذكراً** ﴾ (الآية : ٩٩) . ﴿ **وكذلك أنزلناه قرآناً عربياً وصرّفنا فيه من الوعيد لعلّهم يتّقون أو يحدث لهم ذكراً** ﴾ (الآية : ١١٣) .

وأنّ نفس الظاهرة تجدها في سورة الشورى : ﴿ **حمٓ عٓسٓقٓ * كذلك يوحي إليك وإلى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم** ﴾ ﴿ **وكذلك أوحينا إليك قرآناً عربياً لتنذر أمّ القرى ومن حولها** ﴾ (الآية : ٧) ﴿ **وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا** ﴾ (الآية : ٥٢) . من هذا التشابه بين سورتي طه والشورى نستنتج أن محور السورتين واحد ، وكما أنّ سورة (طه) بداية مجموعة ، فسورة الشورى بداية مجموعة .

....

وعند الكلام عن ﴿ **كٓهيعٓصٓ** ﴾ كنّا ذكرنا أنّ كلّ حرف منها إذا جاء في أوائل سورة فإنّه يكون علامة على بداية مجموعة ، أو على نهايتها ، تلك قاعدة استخرجناها استقراءً من خلال المعاني ، وقد كانت سورة طه وياسين وصاد منسجمة مع هذه القاعدة ، فكذلك سورة الشورى التي ورد في أوائلها الحرف (ع) .

فهذه علامة ثانية على أن سورة الشورى بداية مجموعة .

وإذا كانت سورة الشورى بداية مجموعة ، وإذا كان محورها هو محور سورة (طه) فإنّ محورها هو الآيات الأولى من سورة البقرة .

وبعد سورة الشورى تأتي سورتا الزخرف والدّخان ، والملاحظ أن بدايتيهما واحدة هي : ﴿ **حمٓ * والكتاب المبين** ﴾ . ولو أنك تأمّلت بداية سورة الزخرف فإنّك تجد تشابهاً كاملاً بينها وبين سورة يوسف مما يشير إلى أن مفتاحهما واحد ومحورهما واحد .

تأمّل بداية سورة يوسف : ﴿ **الٓر * تلك آيات الكتاب المبين * إنا أنزلنا قرآناً عربياً لعلكم تعقلون** ﴾ .

وتأمّل سورة الزخرف : ﴿ **حمٓ * والكتاب المبين * إنا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون** ﴾ إن التشابه واضح بين البدايتين ، مما يشير إلى وحدة المحور ، وكنا ذكرنا من قبل أن محور سورة يوسف هو قوله تعالى : ﴿ **وإن كنتم في ريب مما نزّلنا على عبدنا** ﴾ وإنّه لمحور سورة الزخرف ، ومحور سورة الدّخان كذلك ، بدليل أن سورة الدّخان تناقش الرّيب ﴿ **بل هم في شك يلعبون** ﴾ .

....

ضع الآن محور سورة الشورى ومحور سورتي الزخرف والدّخان بجانب بعضهما ، تجد معنى متكاملاً :

﴿ **الٓمٓ * ذلك الكتاب لاريب فيه هدى للمتقين** ﴾ .
﴿ **وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله ...** ﴾ .

بعد سورة الدخان تأتي سورتا الجاثية والأحقاف ، ولهما بداية واحدة ، هي بداية سورة الزمر نفسها بزيادة ﴿ **حمٓ** ﴾ : ﴿ **تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم** ﴾ . وهذا يشير إلى أن سورة الجاثية بداية مجموعة ، كما أن سورة الزمر بداية مجموعة .

....

بما مرّ حدّدنا بداية ونهاية المجموعة الرابعة من قسم المثاني ، وحدّدنا أن هذه المجموعة تتألف من ثلاثة سور هي :
الشورى والزخرف والدّخان .

☆ ☆ ☆

سورة الشورى

وهي السورة الثانية والأربعون بحسب الرسم القرآني
وهي السورة الأولى من المجموعة الرابعة من قسم المثاني
وآياتها ثلاث وخمسون آية
وهي مكية

وهي السورة الثالثة من آل (حمٓ)

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحَمْدُ لِلَّهِ، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ وَآلِهِ وَأَصْحَابِهِ

رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا، إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ العَلِيمُ

كلمة في سورة الشورى :

قلنا إنّ محور سورة (الشورى) هو محور سورة (طه) وإذن فهو الآيات الأولى من سورة البقرة : ﴿ **الٓمٓ * ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين * الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون * والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون * أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون** ﴾ .

ومن تأمّل الآيات الآتية من سورة الشورى أدرك صحة ما ذهبنا إليه : ﴿ **كذلك يوحي إليك وإلى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم** ﴾ (الآية : ٣) .

﴿ **وكذلك أوحينا إليك قرآناً عربياً لتنذر أم القرى ومن حولها** ﴾ (الآية : ٧) .

﴿ **شرع لكم من الدين ماوصّى به نوحاً والذي أوحينا إليك وماوصينا به إبراهيم وموسى وعيسى ..** ﴾ (الآية : ١٣) .

﴿ **وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب ...** ﴾ (الآية : ١٥) .

﴿ **الله الذي أنزل الكتاب بالحق والميزان ..** ﴾ (الآية : ١٧) .

﴿ **أم يقولون افترى على الله كذباً فإن يشأ الله يختم على قلبك ويمح الله الباطل ويحق الحقّ بكلماته ..** ﴾ (الآية : ٢٤) .

﴿ **والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون** ﴾ (الآية : ٣٨) .

﴿ **وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان** ﴾ (الآية : ٥٢) .

إنّ من تأمّل هذه الآيات ، وتأمّل الآيات الأولى من سورة البقرة لا يشك أن آيات سورة البقرة الأولى هي محور سورة الشورى .

تتألف سورة الشورى من ثلاثة مقاطع . المقطع الأول منها يبدأ بكلمة (كذلك) في قوله تعالى : ﴿ **حمٓ عٓسٓقٓ * كذلك يوحي إليك ...** ﴾ ، وينتهي بنهاية الآية السادسة . والمقطع الثاني يبدأ ـــ أيضاً ـــ بكلمة (وكذلك) في قوله تعالى : ﴿ **وكذلك أوحينا إليك قرآناً عربياً ..** ﴾ ، وينتهي بنهاية (الآية : ٥١) . والمقطع الثالث يبدأ ـــ أيضاً ـــ بكلمة (وكذلك) في قوله تعالى : ﴿ **وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ...** ﴾ ، وينتهي بنهاية (الآية : ٥٣) .

ومن بدايتي المقطعين ـــ الثاني والثالث ـــ بكلمتي (وكذلك) (وكذلك) ندرك أنهما معطوفان على بداية المقطع الأول المبدوء بكلمة (كذلك) . وهذا وحده يشعر بوحدة السورة .

ولعلّ أهم مالفت النظر إليه أن هذه السورة تتحدّث عن صفات جماعة المسلمين ، فمن توافرت فيه الخصائص التي تتحدّث عنها هذه السورة فهم جماعة المسلمين ، كائناً من كانوا . وهذا يجعلنا ننتبه كثيراً ونحن نقرأ هذه السورة أو نحاول فهمها وتفهيمها .

....

نقـــول :

١ – قال الألوسي في تقديمه لسورة الشورى : (وتسمى سورة « حم عسق» « وعسق » نزلت ـــ على ماروي عن ابن عباس ، وابن الزبير ـــ بمكة ، وأطلق غير واحد القول بمكيتها من غير استثناء . وفي البحر هي مكية إلا أربع آيات من قوله تعالى : ﴿ **قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى** ﴾ إلى آخر أربع آيات . وقال مقاتل : فيها مدني قوله تعالى : ﴿ **ذلك الذي يبشّر الله عباده** ﴾ إلى ﴿ **الصدور** ﴾ . واستثنى بعضهم قوله تعالى : ﴿ **أم يقولون افترى** ﴾ الخ ، قال الجلال السيوطي : ويدل له ماأخرجه الطبراني والحاكم في سبب نزولها ، فإنها نزلت في الأنصار ، وقوله سبحانه : ﴿ **ولو بسط الله الرزق** ﴾ الخ فإنها نزلت في أصحاب الصُّفَّة رضي الله تعالى عنهم ، واستثنى أيضاً ﴿ **والذين إذا أصابهم البغي** ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ **من سبيل** ﴾ حكاه ابن الفرس . وسيأتي ـــ إن شاء الله تعالى ـــ مايدل على استثناء غير ذلك على بعض الروايات ، وجوز أن يكون الإطلاق باعتبار الأغلب . وعدد آياتها ثلاث وخمسون في الكوفي ، وخمسون فيما عداه ، والخلاف في قوله تعالى : ﴿**حمٓ عٓسٓقٓ** ﴾ وقوله تعالى : ﴿ **كالأعلام** ﴾ كما فصّله الداني ، وغيره . ومناسبة أولها لآخر السورة قبلها اشتمال كل على ذكر القرآن ، وذب طعن الكفرة فيه ، وتسلية النبي ﷺ) .

٢ – ومن تقديم صاحب الظلال للسورة : (هذه السورة تعالج قضية العقيدة كسائر السور المكية ، ولكنها تركز بصفة خاصة على حقيقة الوحي والرسالة ، حتى ليصح أن يقال : إنها هي المحور الرئيسي الذي ترتبط به السورة كلها ، وتأتي سائر الموضوعات فيها تبعاً لتلك الحقيقة الرئيسية فيها .

هذا مع أن السورة تتوسع في الحديث عن حقيقة الوحدانية ، وتعرضها من جوانب متعددة ، كما أنها تتحدّث عن حقيقة القيامة والإيمان بها ، ويأتي ذكر الآخرة ومشاهدها في مواضع متعددة منها . وكذلك تتناول عرض صفات المؤمنين وأخلاقهم التي يمتازون بها . كما تلمّ بقضية الرزق ــ بسطه وقبضه ــ وصفة الإنسان في السراء والضراء .

ولكن حقيقة الوحي والرسالة ومايتصل بها ، تظل ــ مع ذلك ــ هي الحقيقة البارزة في محيط السورة ، والتي تطبعها وتظللها . وكأن سائر الموضوعات الأخرى مسوقة لتقوية تلك الحقيقة الأولى وتوكيدها) .

وبعد فمن وراء التركيز على حقيقة الوحي والرسالة في سياق السورة كله يبرز هدف خاص لعرضها على هذا النحو وفي هذا التتابع .

هذا الهدف هو تعيين القيادة الجديدة للمبشرين ممثلة في الرسالة الأخيرة ، ورسولها ، والأمة المسلمة التي تتبع نهجه الإلهي الثابت القويم .

وتبدأ أول إشارة من مطلع السورة ﴿ **كذلك يوحي إليك وإلى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم** ﴾ .. لتقرر أن الله هو الموحي بجميع الرسالات لجميع الرسل ، وأن الرسالة الأخيرة هي امتداد لأمر مقرر مطرد من قديم .

وتأتي الإشارة الثانية بعد قليل : ﴿ **وكذلك أوحينا إليك قرآناً عربياً لتنذر أم القرى ومن حولها** ﴾ .. لتقرر مركز القيادة الجديدة التي سترد الإشارة إليها فيما بعد .

وفي الإشارة الثالثة يقرر وحدة الرسالة بعد ما قرر في الإشارة الأولى وحدة المصدر : ﴿ **شرع لكم من الدين ما وصّىٰ به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولاتتفرّقوا فيه** ﴾ ..

وتستطرد هذه الإشارة إلى تقرير أن التفرق قد وقع ، مخالفاً لهذه التوصية ، ولم يقع عن جهل من أتباع أولئك الرسل الكرام ولكن عن علم ، وقع بغياً وظلماً وحسداً : ﴿ **وما تفرّقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم** ﴾ ..

ثم تستطرد كذلك إلى بيان حال الذين جاءوا من بعد أولئك الذين اختلفوا : ﴿ **وإن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم لفي شك منه مريب** ﴾ ..

وعند هذا الحدّ يتبيّن أن البشرية قد آلت إلى فوضى وارتياب ، ولم تعد لها قيادة

راشدة تقوم على نهج ثابت قويم ، فرسالة السماء التي تقود البشرية قد آلت إلى اختلاف بين أتباعها ، والذين جاءوا من بعدهم تلقوها في ريبة وفي شك لا تستقيم معهما قيادة راشدة . ومن ثم يعلن انتداب الرسالة الأخيرة وحاملها ــ ﷺ ــ لهذه القيادة : ﴿ **فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم الله ربنا وربكم** .. ﴾ الخ .. ومن ثم تجيء صفة الجماعة المؤمنة المُمَيِّزَة لها ، طبيعية في سياق هذه السورة ــ في الدرس الثاني ــ بوصفها الجماعة التي ستقوم على قيادة هذه البشرية ، على ذلك النهج الثابت القويم) .

☆ ☆ ☆

ولنبدأ عرض السورة :

المقطع الأول

ويمتد من بداية السورة حتى نهاية الآية (السادسة) وهذا هو :

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ عٓسٓقٓ ﴿٢﴾ كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣﴾ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٤﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ ۚ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٦﴾

التفسير :

﴿ **حمٓ * عٓسٓقٓ * كذلك** .. ﴾ أي : مثل ذلك الوحي ، أو : مثل ذلك الكتاب ﴿ **يوحي إليك وإلى الذين من قبلك** .. ﴾ أي : وإلى الرسل من قبلك ﴿ **الله العزيز** ﴾ أي : الغالب بقهره وانتقامه ﴿ **الحكيم** ﴾ في أقواله وأفعاله . قال النسفي : يعني أن ما تضمّنته هذه السورة من المعاني قد أوحى الله إليك مثله في غيرها من السور ، وأوحاه إلى من قبلك يعني إلى رسله . والمعنى : أن الله كرر هذه المعاني في القرآن ، وفي جميع الكتب السماوية ، لما فيها من التنبيه البليغ ، واللطف العظيم بعباده . عن ابن عباس . ـــ رضي الله عنهما ـــ : ليس من نبي صاحب كتاب إلا أوحي إليه بـ « حم عسق » (أي بمعانيها) أقول : ويحتمل أن يكون المعنى : أنّ المعاني التي تضمّنتها كلّ سورة مبدوءة بـ (حمٓ) ، وكل سورة في بدايتها حرف (عين) ، وكلّ سورة في بدايتها

حرف (سين) ، وكل سورة في بدايتها حرف (قاف) ، أن كل سورة من هذا القبيل معانيها مشتركة بين الرسالات السماوية كلها ، وهذا يفيد أنه إذا كان هناك معنى تنفرد به رسالة محمد ﷺ فإنّه موجود في غير هذه السور ، فإن من تأمّل هذه السور : سورة مريم ، والطاسينات ، وسورة يس ، وآل حم كلها ، و سورة قاف ، يجد أن معانيها ليست خاصّة بهذه الرسالة ، بل هي معانٍ مشتركة في رسالات الرسل . وإذا صحّ فهمنا هذا فإنّ انفراد هذه السورة من بين سور آل (حم) بـ (عٓسٓقٓ) ، يعطينا أكثر من مدلول ، ويؤدي أكثر من خدمة ، إنْ في الفهم ، أو في السياق ، وبعد أن بيّن الله عز وجل أنّ الذي أوحى إلى محمد ﷺ وإلى الرسل قبله هو الله العزيز الحكيم ، قال : ﴿ **له ما في السمٰوات وما في الأرض** ﴾ فالجميع عبيد له ، ومِلْك له ، تحت قهره وتصريفه ، ﴿ **وهو العلي العظيم** ﴾ قال ابن كثير : كقوله تعالى : ﴿ **وهو الكبير المتعال** ﴾ ﴿ **وهو العلي الكبير** ﴾ والآيات في هذا كثيرة . ﴿ **تكاد السمٰوات يتفطرن** ﴾ أي : يتشققن ﴿ **من فوقهن** ﴾ قال ابن كثير : أي فرقاً من العظمة . وقال النسفي : ومعناه يكدن يتفطرن من علوّ شأن الله وعظمته ﴿ **والملائكة يسبّحون بحمد ربهم** ﴾ تنزيهاً وخضوعاً وشكراً وعبودية لما يرون من عظمته ﴿ **ويستغفرون لمن في الأرض** ﴾ أي: للمؤمنين منهم كما مرّ في سورة غافر ، خوفاً عليهم من السخط ، قال النسفي : (أو يوحدون الله وينزّهونه عما لا يجوز عليه من الصفات ، حامدين له على ما أولاهم من ألطافه ، متعجبين مما رأوا من تعرض المشركين لسخط الله تعالى ، ويستغفرون لمؤمني أهل الأرض الذين تبرءوا من تلك الكلمة ، أو يطلبون إلى ربهم أن يحلم عن أهل الأرض ولا يعاجلهم بالعقاب) . ﴿ **ألا إن الله هو الغفور الرحيم** ﴾ هذا إعلام من الله عز وجل أنه يستجيب لدعاء الملائكة فيغفر للمؤمنين ويرحمهم . ﴿ **والذين اتّخذوا من دونه أولياء** ﴾ يعني المشركين الذين جعلوا له شركاء وأنداداً ﴿ **الله حفيظ عليهم** ﴾ أي: رقيب على أقوالهم وأعمالهم لا يفوته منها شيء ، فيجازيهم عليها . قال ابن كثير : أي شهيد على أعمالهم يحصيها ويعدّها عداً وسيجزيهم بها أوفر الجزاء ﴿ **وما أنت** ﴾ يا محمد ﴿ **عليهم بوكيل** ﴾ أي بموكّل عليهم ، ولا نفوِّض إليك أمرهم ، إنما أنت منذر فحسب ، تجري عليك وعليهم أقدار الله ، وتخضعون لمجرى قضائه وقهره .

كلمة في السياق :

هذه الآيات هي مقدمة السورة ، وهي المقطع الأول فيها ، وقد بيّن الله عزّ وجلّ في

هذا المقطع أن المعاني الموجودة في هذ ، السورة هي وحي الله لرسوله محمد ﷺ ولكل رسول سابق ، وقد عرّفنا الله عز وجل في هذا المقطع على ذاته وجلاله ، وعظمته وبعض أسمائه ، وعلى تسبيح الملائكة واستغفارهم لمن في الأرض ، ورقابته على المشركين ، وبذلك عرفنا بعض مضمون الرسالات السابقة ، وعرفنا مهمّة الرسول ﷺ ، وعرفنا حكمة الوحي . فاتصاف الله عز وجل بالعزة والحكمة يقتضي وحياً ، وكونه مالك السمٰوات والأرض ومافيهن يقتضي وحياً ، وكونه العلي العظيم يقتضي وحياً ، وكون الملائكة يسبّحون لمن في الأرض يقتضي وحياً ، وكون الإنسان ينحرف فيشرك يقتضي وحياً وإنذاراً ، وهذا كله يقتضي وجود رسول يوحى إليه .

هذه المقدمة للسورة صلتها واضحة بالآيات الأولى من مقدمة سورة البقرة : ﴿ **الٓمٓ * ذلك الكتاب لاريب فيه هدى للمتقين** ﴾ . حتى إنك لو ذكرت مقدمة سورة الشورى بعد هذه الآية لشعرت بالصلة الكاملة ﴿ **كذلك يوحي إليك وإلى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم** ﴾ . لاحظ تفسير ابن كثير لهذه الآية ، قال : (أي : كما أنزل إليك هذا القرآن كذلك أنزل الكتب والصحف على الأنبياء قبلك) إنك — من تفسير ابن كثير — تجد الربط الكامل بين مقدمة سورة البقرة وسورة الشورى ، وهو موضوع ستراه بشكل واضح في السورة إن شاء الله .

....

فائـدة :

بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **كذلك يوحي إليك وإلى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم** ﴾ ذكر ابن كثير بعض الروايات التي تصف ظاهرة الوحي قال : روى الإمام مالك رحمه الله عن عائشة رضي الله عنها قالت إن الحارث بن هشام سأل رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله كيف يأتيك الوحي ؟ فقال رسول الله ﷺ : « أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس ، وهو أشده عليّ فيفصم عني وقد وعيت ما قال ، وأحياناً يأتيني الملك رجلاً فيكلمني فأعي مايقول » قالت عائشة رضي الله عنها : فلقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه ، وإن جبينه صلى الله عليه وسلم ليتفصّد عرقاً . أخرجاه في الصحيحين ولفظه للبخاري . وقد رواه الطبراني عن عبد الله بن الإمام أحمد عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها عن الحارث بن هشام أنه سأل رسول الله ﷺ كيف

ينزل عليك الوحي ؟ فقال ﷺ : « في مثل صلصلة الجرس فيفصم عني وقد وعيت ما قال » وقال : « وهو أشدّه عليّ » قال : « وأحياناً يأتيني الملك فيتمثل لي فيكلمني فأعي ما يقول » . وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال : سألت رسول الله ﷺ فقلت : يا رسول الله هل تحس بالوحي ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « أسمع صلاصل ثم أسكت عند ذلك ، فما من مرة يوحى إليّ إلا ظننت أن نفسي تقبض » تفرد به أحمد .

ولننتقل إلى المقطع التالي في السورة :

المقطع الثاني

ويمتد من الآية (٧) إلى نهاية الآية (٥١) :

المجموعة الأولى

وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ﴿٧﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِىُّ وَهُوَ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٩﴾ وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾ فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا ۖ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ۚ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾ لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ

وَيَقْدِرُ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ
أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟
فِيهِ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ٱللَّهُ يَجْتَبِيٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِيٓ
إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ
وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟
ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾ فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ
وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ
بَيْنَكُمُ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ
ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾ وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ
لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾

المجموعة الثانية

الفقرة الأولى من المجموعة الثانية :

ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾
يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا
ٱلْحَقُّ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِي ٱلسَّاعَةِ لَفِي ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾

الفقرة الثانية من المجموعة الثانية :

ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ ﴿١٩﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ
حَرۡثَ ٱلۡأٓخِرَةِ نَزِدۡ لَهُۥ فِي حَرۡثِهِۦۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا وَمَا لَهُۥ
فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾ أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمۡ يَأۡذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ
وَلَوۡلَا كَلِمَةُ ٱلۡفَصۡلِ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٢١﴾ تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ
مُشۡفِقِينَ مِمَّا كَسَبُواْ وَهُوَ وَاقِعُۢ بِهِمۡۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي
رَوۡضَاتِ ٱلۡجَنَّاتِۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمۡۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ ﴿٢٢﴾ ذَٰلِكَ
ٱلَّذِي يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِۗ قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ
أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ وَمَن يَقۡتَرِفۡ حَسَنَةٗ نَّزِدۡ لَهُۥ فِيهَا حُسۡنًاۚ إِنَّ
ٱللَّهَ غَفُورٞ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗاۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخۡتِمۡ عَلَىٰ
قَلۡبِكَۗ وَيَمۡحُ ٱللَّهُ ٱلۡبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٤﴾

الفقرة الثالثة من المجموعة الثانية :

وَهُوَ ٱلَّذِي يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ وَيَعۡفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ ﴿٢٥﴾
وَيَسۡتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦۚ وَٱلۡكَٰفِرُونَ

لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن
يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾

الفقرة الرابعة من المجموعة الثانية :

وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾
وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ
إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن
كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا
نَصِيرٍ ﴿٣١﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ
ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾
أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾ وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا
مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٣٥﴾

المجموعة الثالثة

الفقرة الأولى من المجموعة الثالثة :

فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟

هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ
بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾
وَجَزَٰٓؤُا سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى اللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ الظَّٰلِمِينَ
﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُولَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا السَّبِيلُ
عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ۚ أُولَٰٓئِكَ لَهُم
عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿٤٣﴾

الفقرة الثانية من المجموعة الثالثة :

وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِىٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَتَرَى الظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ
يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾ وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ
الذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِىٍّ ۗ وَقَالَ الَّذِينَ ءَامَنُوٓا إِنَّ الْخَٰسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوٓا
أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ الظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿٤٥﴾ وَمَا كَانَ
لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾

الفقرة الثالثة من المجموعة الثالثة :

اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ اللَّهِ ۚ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ

وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴿٤٧﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ ۗ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنسَانَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾ لِّلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ ۚ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾

تفسير المجموعة الأولى من المقطع الثاني

﴿ **وكذلك** ﴾ قال ابن كثير : وكما أوحينا إلى الأنبياء قبلك ﴿ **أوحينا إليك قرآناً عربياً** ﴾ أي : واضحاً جلياً مبيناً بلسان العرب ﴿ **لتنذر أمّ القرى** ﴾ أي: مكة . قال ابن كثير : وسميت أمّ القرى لأنها أشرف من سائر البلاد لأدلة كثيرة مذكورة في مواضعها (وسنذكر بعضها والخلاف في أيهما أفضل هي أو المدينة في الفوائد) ﴿ **ومَنْ حولها** ﴾ أي : من سائر البلاد شرقاً وغرباً ، إذ العالم كله حولها وهي قبلته ﴿ **وتنذر يوم الجمع** ﴾ أي : يوم القيامة ، إذ يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد ﴿ **لا ريب فيه** ﴾ أي : لاشك في وقوعه ، وأنّه كائن لا محالة . ﴿ **فريق في الجنة وفريق في السعير** ﴾ أي : في النار ﴿ **ولو شاء الله لجعلهم أمة واحدة** ﴾ قال النسفي : أي : مؤمنين كلهم . وقال ابن كثير : أي : إما على الهداية . أو على الضلالة ، ولكنه تعالى فاوت بينهم ، فهدى من يشاء إلى الحق ، وأضل من يشاء عنه ، وله الحكمة والحجة البالغة ، ولهذا قال عز وجل : ﴿ **ولكن يدخل من يشاء في رحمته** ﴾ أي : يكرم من يشاء بالإسلام ﴿ **والظالمون** ﴾ أي : الكافرون ﴿ **ماهم من ولي** ﴾ أي : شافع

﴿ **ولا نصير** ﴾ أي: دافع . وإذ نفى الله عز وجل أن يكون للظالمين ولي أو نصير يوم القيامة ، يبيّن أن الكافرين قد اتخذوا من دونه أولياء ﴿ **أم اتخذوا من دونه أولياء** ﴾ أي: بل اتخذوا من دونه شركاء . وهو استفهام إنكاري ﴿ **فالله هو الولي** ﴾ أي: بالحق ، فهو الذي يجب أن يتولى وحده ، لا ولي سواه . قال النسفي : كأنه قيل بعد إنكار كل ولي سواه : إن أرادوا أولياء بحق فالله هو الولي بالحق الذي لا تنبغي العبادة إلا له وحده ، ﴿ **وهو يحيي الموتى وهو على كل شيء قدير** ﴾ فهو الحقيق بأن يتخذ ولياً دون من لا يقدر على شيء) وقد فهمنا من الآيات والسياق أنّ هناك فريقين ، وأن أحد الفريقين يتخذ من دون الله أولياء ، والآخر لا يتخذ ، ومن ثم يقرر الله عز وجل في الآية اللاحقة أنّه هو الحاكم في كل خلاف فقال : ﴿ **وما اختلفتم فيه من شيء** ﴾ قال ابن كثير : أي: مهما اختلفتم فيه من الأمور ـــ وهذا عام في كل الأشياء ـــ ﴿ **فحكمه إلى الله** ﴾ أي : هو الحاكم فيه بكتابه وسنة نبيه ﷺ . أقول : دلّ ذلك على أنّه لا شيء إلا ولله فيه الحكم الحق ﴿ **ذلكم** ﴾ أي: الحاكم في كل شيء ﴿ **الله ربي عليه توكلت** ﴾ أي: فوّضت كل أموري إليه ﴿ **وإليه أنيب** ﴾ أي: أرجع في جميع الأمور . ثمّ وصف الله عز وجل ذاته بما يدلّل به على أنّه وحده الحَكَم ، وأنّه وحده الذي يجب التوكل عليه والإنابة إليه . فقال : ﴿ **فاطر السمٰوات والأرض** ﴾ أي: خالقهما وما بينهما ﴿ **جعل لكم من أنفسكم** ﴾ أي: خلق لكم من جنسكم من الناس ﴿ **أزواجاً** ﴾ قال ابن كثير : أي: من جنسكم وشكلكم ، منّة عليكم وتفضلاً ، جعل من جنسكم ذكراً وأنثى ﴿ **ومن الأنعام أزواجاً** ﴾ أي: وخلق للأنعام من أنفسها أزواجاً ﴿ **يذرؤكم فيه** ﴾ أي: يكثركم بهذا التدبير ، وهو جعل الناس والأنعام أزواجاً حتى كان بين ذكورهم وإناثهم التوالد والتناسل . قال ابن كثير : أي: يخلقكم فيه ، أي: في ذلك الخلق على هذه الصفة . لايزال يذرؤكم فيه ذكوراً وإناثاً ، خلقاً من بعد خلق ، وجيلاً بعد جيل ، ونسلاً بعد نسل ، من الناس والأنعام ﴿ **ليس كمثله شيء** ﴾ قال ابن كثير : أي: ليس كخالق الأزواج كلها شيء ، لأنه الفرد الصمد ، الذي لا نظير له . وقال النسفي . وتقديره ليس مثله شيء ، وقيل : وتقديره ليس كهو شيء .. وقيل : المراد ليس كذاته شيء ﴿ **وهو السميع** ﴾ لجميع الموجودات ﴿ **البصير** ﴾ بجميع الموجودات . قال النسفي : وكأنّه ذكرهما لئلا يتوهم أنّه لا صفة له ، كما لا مثل له . ﴿ **له مقاليد السمٰوات والأرض** ﴾ أي: مفاتيح السمٰوات والأرض ، أي : هو مالك أمرهما وحافظهما ﴿ **يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر** ﴾ أي :

يوسّع على من يشاء ، ويضيّق على من يشاء ، وله الحكمة والعدل التام ﴿ **إنه بكل شىء عليم** ﴾ فهو يعطي بعلم ويمنع بعلم .

كلمة في السياق :

نلاحظ أنّ الله عز وجل قد بيّن لنا في هذه الآيات بعض حِكَم إنزال القرآن : منها إنذار الخلق . وكذلك الحكم في كل خلاف يقع بين الناس . وعرّفنا الله عزّ وجلّ على ذاته بما يدلّل على ذلك ، ويعلّل له . وقد ذكر لنا نموذجاً على الاختلاف بين الخلق في قضية الكفر والإيمان ، والشرك والتوحيد . وفي الآية اللاحقة يبيّن لنا أنّ ما شرعه في هذا الدين هو شرعه في رسالاته كلها .

....

﴿ **شرع لكم** ﴾ أي: بيّن وأظهر لكم ﴿ **من الدين ماوصّىٰ به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى** ﴾ أي : شرع لكم من الدين ، دين نوح ومحمد ومن بينهما من الأنبياء ــ عليهم الصلاة والسلام ــ . ثمّ فسّر الشرع الذي اشترك هؤلاء الأعلام من رسله فيه بقوله : ﴿ **أن أقيموا الدين** ﴾ أي : دين الإسلام ﴿ **ولا تتفرّقوا فيه** ﴾ أي: ولا تختلفوا في الدين . قال ابن كثير : أي: أوصى الله تعالى ــ جميع الأنبياء ــ عليهم السلام بالائتلاف والجماعة ، ونهاهم عن الافتراق والاختلاف . قال النسفي : قال علي ــ رضي الله عنه ــ: لاتتفرقوا ، فالجماعة رحمة ، والفرقة عذاب . أقول : هذا يدّل على أنّ هذه السورة تتحدّث عن جماعة المسلمين . ﴿ **كبر على المشركين ماتدعوهم إليه** ﴾ أي: عظم على المشركين وشقّ عليهم ماتدعوهم إليه ، من إقامة الإسلام ، والوحدة فيه وبه ﴿ **الله يجتبي إليه من يشاء** ﴾ قال النسفي : أي: يجتلب ويجمع إليه بالتوفيق والتسْديد من يشاء ﴿ **ويهدي إليه من ينيب** ﴾ أي: من يقبل على طاعته . قال ابن كثير : أي: هو الذي يقدّر الهداية لمن يستحقها ، ويكتب الضلالة على من آثرها على طريقة الرشد أقول : دلّت الآية على أن صفة الإنابة تجعل صاحبها مظنة الرشد والهداية .

كلمة في السياق :

لَخَّصَ الله ــ عز وجل ــ في هذه الآية مضمون شريعته في كل العصور ، وهي إقامة دينه ، والاجتماع على ذلك . فدين الله شريعة وجماعة . وسنرى في هذه السورة

مواصفات الجماعة . وإن غياب هذا المعنى عن المسلمين من أخطر مايواجههم ، ومايقعون فيه . وقد بينت الآية أن المشركين يشقّ عليهم ويعظم أن يقبلوا هذا الدين ، وأن يعملوا لإقامته ، وأن يجتمعوا على ذلك ، ومن تأمّل ماعليه أحزاب الضلالة رأى مصداق ذلك . ثم بعد أن بيّن موقف المشركين فقد بيّن حال أهل الكتاب الأوائل إذ تفرّقوا واختلفوا فحطمّوا أحد مظهري دين الله ، وهو الجماعة . وأن الأواخر منهم الذين ورثوا الكتاب شاكّون أصلاً في هذا الكتاب ، وبالتالي فلا إقامة لدين الحق ، ولا اجتماع عليه .

....

﴿ **وماتفرقوا** ﴾ قال النسفي : أي : أهل الكتاب بعد أنبيائهم ﴿ **إلا من بعد ماجاءهم العلم** ﴾ قال النسفي : إلا من بعد أن علموا أن الفرقة ضلال ، وأمر متوعدّ عليه على ألسنة الأنبياء ـــ عليهم السلام ـــ ﴿ **بغياً بينهم** ﴾ أي : حسداً وطلباً للرياسة ، والاستطالة بغير حق . قال ابن كثير : أي : إنما كان مخالفتهم للحق بعد بلوغه إليهم ، وقيام الحجة عليهم ، وماحملهم على ذلك إلا البغي والعناد والمشاقّة ﴿ **ولولا كلمة سبقت من ربك إلى أجل مسمّى** ﴾ هو يوم القيامة ﴿ **لقضي بينهم** ﴾ أي : فصل بينهم في الدنيا . قال النسفي : أي : لأهلكوا حين افترقوا ، لعظم مااقترفوا . وقال ابن كثير : أي : لولا الكلمة السابقة من الله تعالى ، بإنظار العباد بإقامة حسابهم إلى يوم المعاد ، لعجّل عليهم العقوبة في الدنيا سريعاً . أقول : الذي يستحق العذاب هم الخارجون على الجماعة أي الخارجون عن الحق والباغون على أهله ﴿ **وإن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم** ﴾ أي : من بعد جيل الخلاف ﴿ **لفي شك منه** ﴾قال النسفي : أي : من كتابهم لا يؤمنون به حقّ الإيمان ﴿ **مريب** ﴾ أي : موغل في الريبة . قال ابن كثير : (يعني الجيل المتأخر بعد القرن الأول ، المكذّب للحق ﴿ **لفي شك منه مريب** ﴾ أي : ليسوا على يقين من أمرهم وإيمانهم ، وإنّما هم مقلّدون لآبائهم وأسلافهم بلا دليل ولا برهان ، وهم في حيرة من أمرهم وشك مريب وشقاق بعيد) . ولشك أهل الكتاب وتفرقهم واختلافهم ، وأمام استكبار المشركين عن إقامة الإسلام والاجتماع عليه ، يأمر الله رسوله ﷺ بأوامر قال تعالى : ﴿ **فلذلك** ﴾ قال النسفي : فلأجل ذلك التفرق ، ولما حدث بسببه من تشعب الكفر شعباً . وقال ابن كثير : أي : فللذي أوحينا إليك من الدين الذي وصّينا به جميع المرسلين قبلك ، أصحاب الشرائع الكبار المتبعة كأولي العزم وغيرهم ﴿ **فادع واستقم كما أُمرت** ﴾ أي : فادع إلى دين الله والاجتماع عليه ، واستقم

على شريعة الله . وعلى الدعوة إليها ، كما أمرك الله ﴿ **ولا تتبع أهواءهم** ﴾ المختلفة الباطلة من الرغبة عن دين الله ، والتفرّق عنه ، والاجتماع على غيره . أو أهواءهم التي بسببها اختلفوا ، وبها وصلوا إلى باطل من القول وزور ﴿ **وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب** ﴾ أي : صدّقت بجميع الكتب المنزلة من السماء على الأنبياء ، لا نفرّق بين أحد منهم ﴿ **وأمرت لأعدل بينكم** ﴾ أي : في الحكم كما أمرني الله ﴿ **الله ربنا وربكم** ﴾ أي : كلّنا عبيده . قال ابن كثير : أي : هو المعبود لا إله غيره ، فنحن نقر بذلك اختياراً ، وأنتم وإن لم تفعلوا اختياراً فله يسجد من في العالمين طوعاً وإجباراً ﴿ **لنا أعمالنا ولكم أعمالكم** ﴾ أي : نحن برآء منكم ، وإنا لا نؤاخذ بأعمالكم ، وأنتم لا تؤاخذون بأعمالنا . ﴿ **لا حجّة بيننا وبينكم** ﴾ أي : لا مجادلة ؛ لأن الحق قد ظهر وصرتم محجوجين به ، فلا حاجة إلى المحاجّة ، ومعناه : لا إيراد حجة بيننا ، لأن المتحاجّيْن يورد هذا حجته وهذا حجته ﴿ **الله يجمع بيننا** ﴾ أي : يوم القيامة ﴿ **وإليه المصير** ﴾ أي : المرجع لفصل القضاء ، فيفصل بيننا وينتقم لنا منكم . قال ابن كثير : (اشتملت هذه الآية الكريمة على عشر كلمات مستقلات ، كل منها منفصلة عن التي قبلها ، حكم برأسها . قالوا : ولا نظير لها سوى آية الكرسي ، فإنّها أيضاً عشرة فصول كهذه) . ولأنّ الدعوة الصافية إلى الله تلقى استجابة ، ولأن الكافرين سيحاولون ثني المؤمنين عن هذه الاستجابة ، فقد قال الله عز وجل في الآية اللاحقة : ﴿ **والذين يحاجّون في الله من بعد ما استجيب له** ﴾ قال ابن كثير : أي : يجادلون المؤمنين المستجيبين لله ولرسوله ؛ ليصدوهم عمّا سلكوه من طريق الهدى ﴿ **حجتهم داحضة عند ربهم** ﴾ أي : باطلة عند الله ﴿ **وعليهم غضب** ﴾ من الله بكفرهم وصدهم عن سبيل الله ﴿ **ولهم عذاب شديد** ﴾ أي : يوم القيامة .

....

كلمة في السياق :

١ - بدأت المجموعة التي مرّت معنا بذكر الحكمة من إنزال القرآن ، وعرّفتنا على الله - عز وجل - ، وحدّدت لنا مضمون شريعته التي أنزلها في هذا القرآن ، وأنزلها من قبل ، وذكرت لنا موقف المشركين من هذا المضمون ، وما فعل أهل الكتاب الأوائل بهذا المضمون ، وما هي حال أهل الكتاب الأواخر ، ثمّ ذكرت ما ينبغي أن نقابل به هذه المواقف ، ثمّ ذكرت بطلان حجج كل من يقف ضدّ الدعوة إلى الله .

وإذا نظرنا إلى صلة هذه المعاني بالمقطع الأول من السورة ، فإننا نجد أن الصلة كاملة . لقد قرّر المقطع الأول أن الله عز وجل أوحى لرسوله محمد ﷺ وللرسل السابقين . وقد جاء في هذه المجموعة تحديد لمضمون الوحي ، وتلخيص لحكم إنزال القرآن . وكما أن الصلة واضحة بين هذه المجموعة وسياق السورة ، فالصلة واضحة مع المحور ﴿ **الٓمٓ * ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين** ﴾ فتقرير أن منزل الكتاب هو الله ــ عز وجل ــ، وتبيان حكم النزول ، وتبيان أن الذين يجادلون في آيات الله حجّتهم داحضة . كل هذه المعاني صلتها مباشرة بمحور السورة .

٢ - ذكر ــ فيما مرّ من السورة ــ التوحيد ، كما ذكر أن مضمون شريعة الله إقامة دين الله والاجتماع على ذلك ، وستأتي معنا مجموعتان : مجموعة موضوعها الرئيسي حيد ، ومجموعة موضوعها الرئيسي خصائص جماعة المسلمين ، فلنر المجموعتين . وهما الثانية والثالثة في المقطع الثاني . ونلاحظ أنّ المجموعة الآتية تتألف من فقرات واضحة المعالم . كل فقرة منها مبدوءة إما بلفظ الجلالة : ﴿**الله**﴾ أو بقوله تعالى : ﴿ **وهو** ﴾ . ومجموع فقراتها أربعة ، وأوائلها على الترتيب : ﴿ **الله الذي أنزل الكتاب** ﴾ .. ﴿ **الله لطيف بعباده** .. ﴾ ﴿ **وهو الذي يقبل التوبة عن عباده** ... ﴾ ﴿ **وهو الذي ينزّل الغيث من بعد ما قنطوا** ﴾ .

ومن ملاحظة بداية الفقرات نعلم أن الحديث عن الله ــ عزّ وجلّ ــ هو المضمون الرئيسي للمجموعة بفقراتها :

تفسير الفقرة الأولى من المجموعة الثانية :

﴿ **الله الذي أنزل الكتاب** ﴾ أي : جنس الكتاب ﴿ **بالحق** ﴾ أي : بالصدق ، يعني أن الكتب المنزلة من عنده على أنبيائه كلها صدق وحق ، وهو الذي أنزلها ﴿ **والميزان** ﴾ أي : وهو الذي أنزل الميزان من أجل العدل والإنصاف ، فكما هدى الإنسان للميزان ليقوم العدل والإنصاف في القضايا المادية ، فقد أنزل الكتاب ليقوم العدل والإنصاف في الحياة البشرية كلها ، ومن ثم فالعدل والإنصاف متلازمان مع هذا القرآن ، فكلّ نظرية بشرية للعدل بمعزل عن هذا القرآن لا يمكن أن يتحقق فيها العدل ؛ لأن بصر الإنسان محدود ، ومن ثم فلابد من تضخيم ، أو نسيان ، أو قصور ، أو تقصير ، أو غير ذلك مما يستحيل معه العدل في أي : نظرية بشرية للعدل ﴿ **وما يدريك**

لعل الساعة قريب ﴾ أي: لعل الساعة قريب منك ، وأنت لا تدري . قال ابن كثير : فيه ترغيب فيها وترهيب منها ، وتزهيد في الدنيا . قال النسفي : ووجه مناسبة اقتراب الساعة مع إنزال الكتب والميزان ، أن مع الساعة يأتي الحساب ووضع الموازين بالقسط ، فكأنه قيل : أمركم الله بالعدل والتسوية والعمل بالشرائع ، فاعملوا بالكتاب والعدل ، قبل أن يفاجئكم يوم حسابكم ووزن أعمالكم . ﴿ **يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها** ﴾ قال ابن كثير : أي: يقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين . وإنما يقولون ذلك تكذيباً واستبعاداً ، أو كفراً وعناداً ﴿ **والذين آمنوا مشفقون** ﴾ أي: خائفون ﴿ **منها** ﴾ أي: وجلون من وقوعها . ﴿ **ويعلمون أنها الحق** ﴾ أي: كائنة لا محالة فهم مستعدون لها ، عاملون من أجلها. ﴿ **إلا إنّ الذين يمارون في الساعة** ﴾ أي: يجادلون في وجودها ، ويدفعون وقوعها ﴿ **لفي ضلال بعيد** ﴾ عن الحق . أي: في جهل بيّن . قال ابن كثير : لأنّ الذي خلق السمٰوات والأرض قادر على إحياء الموتى بطريق الأولى والأحرى . وقال النسفي : لأن قيام الساعة غير مستبعد من قدرة الله تعالى ، وقد دلّ الكتاب والسّنة على وقوعها ، والعقول تشهد على أنّه لابدّ من دار جزاء .

كلمة في السياق :

بيّنت المجموعة الأولى من هذا المقطع أن مضمون رسالات الله هي ﴿ **أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه** ﴾ فمضمون رسالات الله كلها الإسلام والاجتماع عليه ، وقد جاءت هذه الفقرة لتبيّن أن الإسلام هو الحق وهو العدل ، وحضّت على إقامته من خلال التذكير بقرب الساعة ، فالصلة واضحة بين الفقرة وما سبقها ، وصلة الفقرة بالآيات الأولى من سورة البقرة كذلك واضحة : ﴿ **الٓمٓ * ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين * الذين يؤمنون بالغيب .. وبالآخرة هم يوقنون ..** ﴾ .

....

تفسير الفقرة الثانية من المجموعة الثانية :

﴿ **الله لطيف بعباده** ﴾ في إيصال المنافع ، وصرف البلاء ، فهو بَرٌّ بليغ البر بهم ، قد وصل برّه إلى جميعهم ، ومن مظاهر لطفه ﴿ **يرزق من يشاء** ﴾ أي : يوسّع رزقه على من يشاء ، إذا علم مصلحته فيه ﴿ **وهو القوي** ﴾ أي : الباهر القدرة ، الغالب على كل شيء ﴿ **العزيز** ﴾ المنيع الذي لايغلب . قال ابن كثير : أي : لايعجزه شيء . أقول : ومن لطفه بعباده أن يرسل لهم رسلاً ، وأن ينزّل عليهم كتباً ، ومن مظاهر رزقه أن يخصّ بعض عباده بالرسالة . ﴿ **من كان يريد حرث الآخرة** ﴾ أي : عمل الآخرة ﴿ **نزد له في حرثه** ﴾ بالتوفيق في عمله ، أو التضعيف في إحسانه ، أو بأن ينال به الدنيا والآخرة . قال ابن كثير : أي : نقوّيه ونعينه على ماهو بصدده ، ونكثر نماءه ونجزيه بالحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى مايشاء الله ﴿ **ومن كان يريد حرث الدنيا** ﴾ أي : من كان عمله للدنيا ، ولم يؤمن بالآخرة ﴿ **نؤته منها** ﴾ أي : نؤته شيئاً منها ، وهو رزقه الذي قسمه له لا مايريده ويبتغيه . قال ابن كثير : (أي : ومن كان إنما سعيه ليحصُل له شيء من الدنيا ، وليس له إلى الآخرة همّ البتة بالكلية حرمه الله الآخرة ، وأما الدنيا إن شاء أعطاه منها ، وإن لم يشأ لم يحصّل لا هذه ولا هذه ، وفاز الساعي بهذه النيّة بالصفقة الخاسرة في الدنيا والآخرة) ومن ثمّ قال تعالى عن هذا الطالب للدنيا : ﴿ **وماله في الآخرة من نصيب** ﴾ أي : هو محروم بالكلية من نعيمها بل هو معذّب فيها .

....

كلمة في السياق :

بيّنت الفقرة الأولى من المجموعة الثانية أن الحق والعدل كائنان في الكتاب الذي أنزله الله ، وبيّن مامرّ من الفقرة الثانية أنّه ــ عز وجلّ ــ هو اللطيف بعباده ، الرزاق القوي العزيز ، ومن ثم فعلى الإنسان أن يعمل للآخرة ، وألا يعمل للدنيا معرضاً عن الآخرة ، ظناً منه أنه بذلك يحصّل رزقاً ، أو اعتقاداً منه أن العمل للآخرة يمنع عنه رزقاً . كيف والله لطيف ، والله هو الرزاق ، والله قوي عزيز . وإذ بيّن الله ــ عزّ وجلّ ــ ميزة كتابه الذي فيه شرعه ، وبيّن ضرورة العمل به ، وخطأ الانحراف عنه ، فإنه فيما يأتي من الفقرة الثانية يناقش زعمين وقضيتين ، قضية السير في شرع غير شرعه ، وقضية اتهام رسول الله ﷺ بالكذب عليه ، وكل من القضيتين يبدأ مناقشتها بكلمة ﴿ **أم** ﴾ .

القضية الأولى :

﴿ **أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين مالم يأذن به الله** ﴾ قال ابن كثير : أي : هم لا يتّبعون ما شرع الله لك من الدين القويم ، بل يتّبعون ما شرع لهم شياطينهم من الجن والإنس ، من تحريم ما حرموا عليهم من البحيرة والسائبة والوصيلة والحام ، وتحليل أكل الميتة والدم والقمار ، إلى نحو ذلك من الضلالات والجهالات الباطلة ، التي كانوا قد اخترعوها في جاهليتهم من التحليل والتحريم ، والعبادات الباطلة ، والأموال الفاسدة . قال النسفي : وفي الكلام إضمار تقديره : أيقبلون ماشرع الله من الدين ، أم لهم آلهة شرعوا لهم من الدين مالم يأذن به ، أي : لم يأمر به ﴿ **ولولا كلمة الفصل** ﴾ أي : القضاء السابق بتأجيل الجزاء . أي : ولولا العِدَة بأنّ الفصل يكون يوم القيامة ﴿ **لقضي بينهم** ﴾ أي : بين الكافرين والمؤمنين ، أو لعجّلت لهم العقوبة قال ابن كثير : أي : لعوجلوا بالعقوبة لولا ماتقدم من الإنظار إلى يوم المعاد ﴿ **وإن الظالمين** ﴾ أي : المشركين ﴿ **لهم عذاب أليم** ﴾ في الآخرة وإن أُخر عنهم في دار الدنيا ، دلّ ذلك على أن المشركين المتّبعين غير شرع الله ظالمون . وبعد أنّ بيّنت الآية أن المشركين لهم عذاب أليم في الآخرة صوّر الله لنا حال هؤلاء يوم القيامة ﴿ **ترى الظالمين** ﴾ أي : المشركين في الآخرة ﴿ **مشفقين** ﴾ أي : خائفين ﴿ **مما كسبوا** ﴾ أي : من جزاء كفرهم في عرصات القيامة ﴿ **وهو واقع بهم** ﴾ أي : نازل بهم لا محالة ، أشفقوا أو لم يشفقوا ﴿ **والذين آمنوا وعملوا الصالحات** ﴾ وهم المقيمون شرع الله ﴿ **في روضات الجنات لهم ما يشاؤون عند ربهم** ﴾ قال ابن كثير : فأين هذا من هذا ؟ أي : أين من هو في العرصات في الذل والهوان ، والخوف المحقق عليه بظلمه ، ممن هو في روضات الجنات فيما يشاء من مآكل ومشارب وملابس ومساكن ومناظر ومناكح وملاذّ ، مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ﴿ **ذلك هو الفضل الكبير** ﴾ على العمل القليل ، الفوز العظيم والنّعمة التّامة السابغة الشاملة العامّة ﴿ **ذلك** ﴾ أي : ما ذكر من الفضل الكبير ﴿ **الذي يبشّر الله عباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات** ﴾ قال ابن كثير : أي : هذا حاصل لهم كائن لا محالة ، ببشارة الله تعالى لهم به ﴿ **قل لا أسألكم عليه** ﴾ أي : على الدعوة ، أو على التبليغ ، أو على هذا الإسلام الموصّل إلى مثل هذا الفضل ﴿ **أجراً إلا المودّة في القربىٰ** ﴾ أي : إلا أن تودّوا قرابتي ، أي : أهلي . أو إلا أن تعملوا بالطاعة التي تقرّبكم عند الله زلفى ، أو إلا أن تصلوا ما بيني وبينكم من

القرابة . فتسمعون وتستجيبون ، وسنرى تفصيل الأقوال في هذا الموضوع في الفوائد ـــ إن شاء الله تعالى ـــ . قال النسفي : وقيل القربى : التقرب إلى الله تعالى ، أي : إلا أن تحبوا الله ورسوله في تقرّبكم إليه بالطاعة والعمل الصالح ﴿ **ومن يقترف حسنة** ﴾ أي : يكتسب طاعة ﴿ **نزد له فيها حسناً** ﴾ أي : يضاعفها له أجراً وثواباً ﴿ **إن الله غفور** ﴾ أي : يغفر الكثير من السيئات ﴿ **شكور** ﴾ لمن أطاع ، يكثر له القليل من الحسنات ويضاعفه ، ويستر ويغفر له السيئات .

....

كلمة في السياق :

بيّن الله ـــ عزّ وجلّ ـــ في هذه الآيات عاقبة المشركين السائرين على غير شرعه ، وبيّن عاقبة السائرين على شرعه ، ويلاحظ التشابه بين نهاية هذه الآيات ونهاية الآيتين اللتين بدئت بهما هذه الفقرة :

﴿ **من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه** .. ﴾ . ﴿ **ومن يقترف حسنة نزد له فيها حسناً** ... ﴾ .

فالفقرة دعوة للسير على شريعة الله ، ودعوة لترك شريعة غير الله ، وبيان لعاقبة هؤلاء وهؤلاء . والآن يأتي عرض القضية الثانية في الفقرة :

فالفقرة كما قلنا دعوة للالتزام بكتاب الله . وإنما يحول دون ذلك السير وراء شرائع أخرى ، أو تكذيب الرسول ﷺ في إنزال الكتاب عليه ، وقد عولجت القضية الأولى فيما مرّ ، والآن يأتي دور القضية الثانية .

القضية الثانية :

﴿ **أم يقولون** ﴾ أي : بل أيقول هؤلاء الظالمون ﴿ **افترى على الله كذباً** ﴾ وهو استفهام فيه توبيخ . قال النسفي : كأنه قيل أيتمالكون أن ينسبوا مثله (أي : مثل محمد) ﷺ إلى الافتراء ، ثم إلى الافتراء على الله الذي هو أعظم الفرى وأفحشها ﴿ **فإن يشأ الله يختم على قلبك** ﴾ قال ابن كثير : أي : لو افتريت على الله كذباً ـــ كما يزعم هؤلاء الجاهلون ـــ يختم الله على قلبك أي : يطبع على قلبك ، ويسلبك ماكان آتاك

من القرآن ﴿ **ويمحو الله الباطل** ﴾ أي : الشرك ، وهو وعد مطلق من الله عز وجل ﴿ **ويحق الحق بكلماته** ﴾ أي: ويظهر الإسلام ويثبته بكلماته بما أنزل من كتابه على لسان نبيّه ــ عليه الصلاة والسلام ــ وقد فعل ــ جل جلاله ــ ويفعل . قال ابن كثير : أي: يحقّقه ويثبته ويبيّنه ويوضّحه بكلماته ، أي : بحججه وبراهينه . ﴿ **إنه عليم بذات الصدور** ﴾ أي: بما تكنّه الضمائر وتنطوي عليه السرائر ، وبهذا انتهت الفقرة الثانية من المجموعة الثانية من المقطع الثاني .

....

كلمة في السياق :

رأينا أنّ المجموعة الثانية تتألف من فقرات : الفقرتان الأولى والثانية تبدآن بلفظ الجلالة ﴿ **الله** ﴾ ، والفقرتان الثالثة والرابعة تبدآن بقوله تعالى : ﴿ **وهو** ﴾ .

وقد رأينا أن الفقرتين الأولى والثانية ذكرتا إنزال الله ــ عز وجل ــ الكتاب والميزان ، ووجوب العمل بالكتاب طلباً للآخرة ، وأزاحتا العلل القاطعة عن السير إلى الله ، وأنكرتا قضية السير وراء شرائع أخرى ، وقد فنّدت الآية الأخيرة أن يكون رسول الله ﷺ قد كذب على الله بأن بيّنت أن لو كان شيء من ذلك لعاقبه الله بالختم على القلب فكان كافراً ــ والعياذ بالله ــ ولم يكن سيد المؤمنين . كيف والله ــ عز وجل ــ يؤيّده وينصره وهو العالم بكل شيء ؟! . وبعد ذلك تأتي فقرة ثالثة في المجموعة الثانية تحضّ على التوبة ، وتبيّن من هم الذين يستجيبون لدعوة الله ــ عز وجل ــ وتعلّل لسنّة الله ــ عز وجل ــ في رزقه العباد على مانراه .

تفسير الفقرة الثالثة من المجموعة الثانية :

﴿ **وهو الذي يقبل التوبة عن عباده** ﴾ قال ابن كثير : يقول تعالى ممتناً على عباده بقبول توبتهم إليه إذا تابوا ورجعوا إليه ، أنه من كرمه وحلمه أنه يعفو ويصفح ويستر ويغفر ﴿ **ويعفو عن السيئات** ﴾ قال النسفي : هو مادون الشرك .. وقال ابن كثير : أي: يقبل التوبة في المستقبل ، ويعفو عن السيئات في الماضي ﴿ **ويعلم ما تفعلون** ﴾ أي: من التوبة والمعصية . قال ابن كثير : أي: هو عالم بجميع ما فعلتم وصنعتم وقلتم ، ومع هذا يتوب على من تاب إليه . أقول: ومجيء هذه الآية في هذا السياق يفيد مطالبة

بالسير في شريعة الله ، ومطالبة بالتوبة عن السير في غيرها أو في المعصية ﴿ **ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله** ﴾ في هذا النصّ اتجاهان ، أولهما : أنّ الله ــ تعالى ــ يستجيب دعاء المؤمنين العاملين فيعطيهم مطلوبهم ويزيدهم عليه ، وثانيهما : أنّ الذين اجتمع لهم الإيمان والعمل الصالح هم الذين يستجيبون الاستجابة الكاملة لخطاب الشارع ، والله ــ عز وجل ــ يكرمهم بالزيادة من فضله فلا يزالون في ترقٍّ . وقد رجّح ابن كثير القول الأول . ويبدو لي ــ والله أعلم ــ أن القول الثاني هو الأرجح ، فسياق السورة يفصّل في موضوع الاتّباع الكامل لشريعة الله ، والإقامة الكاملة لدين الله ، فمن اجتمع له الإيمان والعمل الصالح فهو المرشّح لكمال العمل بالشريعة ولإقامة دين الله ــ عز وجل ــ ومما يرجّح ماذهبنا إليه أنه قد جاء هذا بعد المنّ بقبول التوبة ، فكأن الآية تشير إلى أن المؤمنين العاملين هم التوّابون إلى الله ــ عز وجل ــ المستجيبون لأمره ﴿ **والكافرون لهم** ﴾ في الآخرة ﴿ **عذاب شديد** ﴾ أي : موجع مؤلم . وأيّ عذاب أشد من عذاب النار ؟! نعوذ بالله منها . ولمّا كانت الفقرة الثانية ذكرت بسط الله الرزق لمن يشاء ، فإنّ الآية تأتي معلّلة لحجب الله التوسعة في الرزق على كل الخلق ، وتأخير التعليل يشعر بوحدة المجموعة ، وليدخل الرزق الحسي والمعنوي في التعليل ، ولتكون الآية مقدمة للفقرة الرابعة كما سنرى .

﴿ **ولو بسط الله الرزق لعباده لَبَغَوْا في الأرض** ﴾ أي : لظلموا في الأرض لأن الغنى مبطرة مأشرة ، أو لَتَكَبّروا في الأرض ﴿ **ولكن ينزّل بقدر مايشاء إنّه بعباده خبير بصير** ﴾ . قال النسفي : أي : يعلم أحوالهم فيقدر لهم ماتقتضيه حكمته فيفقر ويغني ، ويمنع ويعطي ، ويقبض ويبسط ، ولو أغناهم جميعاً لَبَغَوْا ، ولو أفقرهم لهلكوا ، وماترى من البسط على من يبغي . ومن البغي بدون البسط فهو قليل ، ولاشك أن البغي مع الفقر أقل ومع البسط أكثر وأغلب .

وقال ابن كثير : أي : ولكن يرزقهم من الرزق مايختاره مما فيه صلاحهم وهو أعلم بذلك ، فيغني من يستحق الغنى ، ويفقر من يستحق الفقر ، كما جاء في الحديث المروي « إن من عبادي من لا يصلحه إلا الغنى ولو أفقرته لأفسدت عليه دينه ، وإن من عبادي من لا يصلحه إلا الفقر ولو أغنيته لأفسدت عليه دينه » .

....

تفسير الفقرة الرابعة في المجموعة الثانية :

﴿ **وهو الذي ينزل الغيث من بعد ما قنطوا** ﴾ فمن بعد يأس الناس من نزول المطر ينزّله عليهم في وقت حاجتهم وفقرهم إليه ﴿ **وينشر رحمته** ﴾ أي: بركات الغيث ومنافعه ، وما يحصل به الخصب قال ابن كثير : أي: يعم بها الوجود على أهل ذلك القطر وتلك الناحية ﴿ **وهو الولي** ﴾ أي: الذي يتولى عباده بإحسانه ﴿ **الحميد** ﴾أي: المحمود على ذلك ، يحمده أهل طاعته ، قال ابن كثير : أي: هو المتصرف لخلقه بما ينفعهم في دنياهم وأخراهم وهو المحمود في جميع ما يقدره ويفعله .

....

كلمة في السياق :

١ – جاء قوله تعالى ﴿ **وهو الذي ينزل الغيث من بعد ما قنطوا** ﴾ بعد قوله تعالى : ﴿ **ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض** ﴾ فهذه الآية تعليل لقبض المطر . وقبض المطر نموذج لقبض الرزق .

٢ – بدأت المجموعة الثانية بقوله تعالى : ﴿ **الله الذي أنزل الكتاب بالحق والميزان** .. ﴾ . ثم بعد نهاية الفقرة الأولى جاء قوله تعالى : ﴿ **الله لطيف بعباده يرزق من يشاء** .. ﴾ . ثم جاءت الفقرة الثالثة مبدوءة : ﴿ **وهو الذي يقبل التوبة عن عباده** .. ﴾ وفيها نموذج على لطف الله ثم جاءت الفقرة الرابعة مبدوءة بقوله تعالى : ﴿ **وهو الذي ينزل الغيث من بعد ما قنطوا** .. ﴾ وفي هذه البداية نموذج على لطف الله ــ عز وجل ــ .

وهكذا نجد أن الفقرة الثالثة والرابعة تخدمان في تبيان مظاهر من لطف الله ــ عز وجل ــ وذكر لطف الله ــ عز وجل ــ في سياق المجموعة دعوة لإقامة الكتاب والميزان دون خوف على رزق ، وبهذا نعلم أن في المجموعة الثانية دعوة لإقامة شريعة الله بذكر كل ما يساعد على ذلك ، وتفنيد كل ما يصدّ عن ذلك في سياق الحديث عن ــ الله عز وجل ــ . إذ كل الأمور منبثقة عن أصل الإيمان بالله ومعرفته ، ومن ثم تنتهي المجموعة ــ كما سنرى ــ بذكر نموذجين من آياته ــ عز وجل ــ الدالة عليه ، كل منهما مبدوء بقوله تعالى ﴿ **ومن آياته** ﴾ ..

١ - ﴿ **ومن آياته** ﴾ الدالة على عظمته وقدرته العظيمة ، وسلطانه القاهر ﴿ **خلق السموٰات والأرض** ﴾ مع عظمهما ﴿ **ومابثّ فيهما** ﴾ أي : وما ذرأ وفرّق في السموٰات والأرض ﴿ **من دابة** ﴾ قد يكون في ذلك إشارة إلى وجود حياة في كواكب أخرى غير الأرض ، وقد يكون المراد غير ذلك كما سنرى في الفوائد ﴿ **وهو على جمعهم إذا يشاء قدير** ﴾ أي : على جمع دواب الأرض والسماء . فإن كان المراد في الآية الإشارة إلى دوابّ في كواكب أخرى ، فالآية إذن تشير إلى إمكانية جمع بعضهم ببعض ، والمحاولات في عصرنا قائمة لاستكشاف الفضاء . وإن لم يكن الأمر كذلك فالآية تتحدّث عن قدرته ــ عز وجل ــ على جمعهم يوم القيامة . قال ابن كثير : أي : يوم القيامة يجمع الأولين والآخرين وسائر الخلائق في صعيد واحد ، يسمعهم الداعي وينفذهم البصر . فيحكم فيهم بحكمه العدل الحق . ﴿ **وما أصابكم من مصيبة** ﴾ من غمّ أو ألم أو مكروه أو قحط أو فقر أو شدة أو سجن أو غير ذلك ﴿ **فبما كسبت أيديكم** ﴾ أي : فبجناية كسبتموها عقوبة لكم . قال ابن كثير : أي : مهما أصابكم أيها الناس من المصائب فإنما هي عن سيئات تقدمت لكم ﴿ **ويعفو عن كثير** ﴾ أي : من السيئات ، فلا يجازيكم عليها بل يعفو عنها ﴿ **وماأنتم بمعجزين في الأرض** ﴾ أي : بفائتين الله ــ عز وجل ــ ﴿ **ومالكم من دون الله من ولي** ﴾ أي : متول بالرحمة ﴿ **ولا نصير** ﴾ أي : ناصر يدفع عنكم العذاب إذا حلّ بكم .

....

نقــل :

قال الألوسي : (وأخرج ابن المنذر وجماعة عن الحسن قال : لما نزلت هذه الآية ﴿ **وما أصابكم** ﴾ الخ ، قال ــ عليه الصلاة والسلام ــ : «والذي نفسي بيده مامن خدش عود ولااختلاج عرق ولانكبة حجر ولا عثرة قدم إلا بذنب ، ومايعفو الله ــ عز وجل ــ عنه أكثر» وأخرج ابن سعد عن أبي مليكة أن أسماء بنت أبي بكر الصديق ــ رضي الله تعالى عنهما ــ كانت تصدع فتضع يدها على رأسها وتقول : بذنبي وما يغفره الله تعالى أكثر . ورؤي على كف شريح قرحة فقيل : بم هذا ؟ فقال : بما كسبت يدي . وسئل عمران بن حصين عن مرضه فقال : إن أحبه إليّ أحبه إلى الله تعالى وهذا بما كسبت يدي .. والآية مخصوصة بأصحاب الذنوب من المسلمين وغيرهم فإن من لا ذنب له ــ كالأنبياء عليهم السلام ــ قد تصيبهم مصائب ، ففي الحديث «أشد الناس بلاء

الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل» ويكون ذلك لرفع درجاتهم أو لحكم أخرى خفيت علينا ، وأما الأطفال والمجانين فقيل : غير داخلين في الخطاب لأنه للمكلفين وبفرض دخولهم أخرجهم التخصيص بأصحاب الذنوب فما يصيبهم من المصائب فهو لِحِكَمٍ خفية ، وقيل : في مصائب الطفل رفع درجته ودرجة أبويه أو من يشفق عليه بحسن الصبر) .

كلمة في السياق :

في وقوع المصائب وفي كونها عقوبة على الذنوب دليل على أنّ الإنسان لا يعجز الله ــ عز وجل ــ، وفي ذلك دليل على قدرة الله على البعث ، كما أن في خلق السمٰوات والأرض دليلاً على ذلك ، وهذا درس في وجوب اتباع دين الله وإقامته خوفاً من عقوبته في الدنيا بالمصائب ، وخوفاً من عقوبته في الآخرة . وهكذا نجد أن الآيات الثلاث الأخيرة خدمت السياق في أكثر من جانب ، فكانت تعليلاً لحبس الرزق وحبس المطر ، وكانت تدليلاً على مجيء اليوم الآخر الذي يجازى فيه المنحرفون عن أمر الله ، ويكافأ فيه المقيمون لأمره، وكانت تحذيراً للمنحرفين عن أمر الله ، سواء أكان انحرافهم كبيراً أو صغيراً . ثمّ بعد هذه الآيات الثلاث تأتي آيات أخرى مبدوءة بقوله تعالى ﴿ **ومن آياته** ﴾ تذكّر الإنسان بأنه في قبضته ــ عز وجل ــ ، وتدل على كمال قدرته ، وتدل على أن الإنسان لا يعجزه ، وتدل على مظهر من مظاهر عقوبته على الذنب .

....

ب – ﴿ **ومن آياته الجوار** ﴾ أي : السفن الجاريات ﴿ **في البحر كالأعلام** ﴾ أي : كالجبال ﴿ **إن يشأ يسكن الريح فيظللن رواكد على ظهره** ﴾ أي : سائرات على مهل وكأنّهن ثوابت بالنسبة لإحساس الإنسان ﴿ **إن في ذلك لآيات لكل صبّار** ﴾ على بلائه ﴿ **شكور** ﴾ لنعمائه . أو صبار على طاعته ، شكور لنعمته . قال النسفي : أي لكل مؤمن مخلص، فالإيمان نصفان : نصف شكر ، ونصف صبر ﴿ **أو يوبقهن** ﴾ أي : يهلكهن . والمعنى : إن يشأ يسكن الريح فيركدن أو يعصفها فيغرقن بعصفها ﴿ **بما كسبوا** ﴾ من الذنوب ﴿ **ويعف عن كثير** ﴾ من الذنوب فلا يجازي عليها . ﴿ **ويعلم** ﴾ أي : لينتقم الله منهم وليعلم ﴿ **الذين يجادلون في آياتنا** ﴾ أي : في إبطالها ودفعها ﴿ **مالهم من محيص** ﴾ أي : مهرب من عذابه ، أي : لا محيد لهم عن بأسنا ونقمتنا ، فإنهم مقهورون بقدرتنا .

كلمة في السياق :

١ – من قوله تعالى ﴿ **أو يوبقهن بما كسبوا ويعف عن كثير** ﴾ نعلم صلة هذه الآيات بما قبلها في النموذج السابق أي في قوله تعالى : ﴿ **وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعف عن كثير** ﴾ فالآية هذه نموذج على قدرة الله ، وهي في الوقت نفسه مثال لما ذكر في النموذج الأول .

٢ – نلاحظ أنّ الله ـــ عزّ وجلّ ـــ ذكر أنّ من حكمة عقوباته الدنيوية أن يعلم الذين يجادلون في آيات الله أنهم لا مهرب لهم من عذاب الله ـــ عز وجل ـــ، وفي ذلك دعوة لهم للعودة إلى شريعة الله ، ولذلك صلته بالسياق .

٣ – نلاحظ أن المجموعة الأولى في المقطع الثاني انتهت بقوله تعالى :﴿ **والذين يحاجّون في الله من بعد ما استجيب له حجتهم داحضة عند ربهم وعليهم غضب ولهم عذاب شديد** ﴾ . وأن المجموعة الثانية في هذا المقطع انتهت بقوله تعالى : ﴿ **ويعلم الذين يجادلون في آياتنا ماهم من محيص** .. ﴾ . فالمجموعتان انتهتا بالكلام عن الذين يحاجّون ويجادلون ، ولذلك صلته بموضوع إقامة دين الله ، فالمجموعتان متكاملتان ، إذ النقطة الرئيسية في سياق المجموعة الثانية أن منزل الكتاب هو الله ـــ عز وجل ـــ ، وأن هذا الكتاب هو الصيغة الوحيدة للحق والعدل ، وأن على الإنسان أن يقيم شرع الله ـــ عز وجل ـــ ، وأن يترك شرع غيره . فإذا فعل حفّته رعاية الله في الدنيا والآخرة ، وأنّ الانحراف عن شرع الله جزاؤه عقوبات الله في الدنيا والآخرة . فإذا أردنا أن نقول كلمة نلخّص فيها السياق العام للمقطع الثاني نقول :

بدأ المقطع بذكر حكمة إنزال القرآن على رسول الله ﷺ ، ثم بين أن شريعة الله تتضمن معنيين : إقامة دين الله ، والاجتماع عليه .

ثم بيّن الله ـــ عز وجل ـــ موقف المشركين وأهل الكتاب من هذا المعنى ، ثم أمر الله رسوله ﷺ بالدعوة إلى الله والاستقامة على أمره ، ثمّ بيّن الله ـــ عزّ وجلّ ـــ ضياع وخسارة وعقوبة الصادّين عن دعوته . ثم جاءت المجموعة الثانية لتبيّن أن الحق والعدل هما صفتا هذا الكتاب ، ثم سار السياق كما رأينا بما يخدم قضية التطبيق الدقيق للقرآن الكريم .

والآن تأتي مجموعة ثالثة تتألف من ثلاث فقرات ، تبيّن الفقرة الأولى منها صفات

الذين يستأهلون رضوان الله ، وهم الذين يقيمون دين الله ، ولا يتفرّقون فيه .

٤ – وإذن فنحن الآن أمام موضوع من أهمّ الموضوعات التي يجب أن يعرفها كل مسلم ، وهو موضوع جماعة المسلمين ، ماهي صفاتها ؟ وما هي خصائصها ؟ إنّ الله عز وجلّ يعطينا الميزان الذي نتعرّف به على جماعة المسلمين لنلتزم بها ، ونتحقق بأخلاقياتها . ولقد قدمت السورة لذلك بأمور كثيرة :

﴿ **وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله** ﴾ ﴿ **أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه** ﴾

إنّ الجماعة التي تقيم دين الله ولا تتفرّق فيه هي التي تتحقّق بمواصفات معيّنة ، هي التي تذكرها الفقرة الأولى من المجموعة الثالثة ، وأي صفة من هذه الصفات لا تظهر في الجماعة تجعلها غير مرشحة لإقامة دين الله ، وتجعلها معرّضة للتفرق فيه . إن على المسلمين جميعاً أن يكونوا جماعة واحدة وهذا هو الطريق لذلك :

تفسير الفقرة الأولى من المجموعة الثالثة :

﴿ **فما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا** ﴾قال ابن كثير : أي : مهما حصلتم وجمعتم فلا تغتروا به فإنّما هو متاع الحياة الدنيا ، وهي دار دنيئة فانية زائلة لامحالة ﴿ **وما عند الله خير وأبقى** ﴾ وثواب الله تعالى خير من الدنيا وهو باق سرمدي ، فلا تقدّموا الفاني على الباقي ، لكن من هم الذين يستأهلون هذا الثواب ؟ ﴿ **للذين آمنوا** ﴾ بالغيب ﴿ **وعلى ربهم يتوكّلون** ﴾ فلا يتوكّلون على غيره ﴿ **والذين يجتنبون كبائر الإثم** ﴾ كالشرك وقذف المحصنات والفرار من الزحف ، وغير ذلك من الموبقات ﴿ **والفواحش** ﴾ أي : ماعظم قبحه وفحشه كالزنا واللواط ﴿ **وإذا ما غضبوا** ﴾في أمر دنيوي أو شخصي ﴿ **هم يغفرون** ﴾ أي : سجيتهم تقتضي الصفح والعفو عن النّاس ، وليس من سجيّتهم الانتقام من الناس إذا أساؤوا لأشخاصهم ﴿ **والذين استجابوا لربهم** ﴾ أي اتّبعوا رسله ، وأطاعوا أمره واجتنبوا زجره ، فأقاموا دينه واجتمعوا عليه ﴿ **وأقاموا الصلاة** ﴾ أي : وأتموا الصلوات الخمس . ﴿ **وأمرهم شورى بينهم** ﴾ قال ابن كثير : أي لا يبرمون أمراً حتى يتشاوروا فيه ؛ ليتساعدوا بآرائهم في مثل الحروب وما جرى مجراها . وقال النسفي : أي ذو شورى لا ينفردون برأي حتى يجتمعوا عليه ، وعن الحسن : ما تشاور قوم إلا هدوا لأرشد أمرهم ﴿ **ومما**

رزقناهم ينفقون ﴾ أي : يتصدّقون ﴿ **والذين إذا أصابهم البغي** ﴾ أي : الظلم ﴿ **هم ينتصرون** ﴾ قال ابن كثير : أي فيهم قوة الانتصار ممّن ظلمهم واعتدى عليهم ، ليسوا بالعاجزين ولا الأذلين ، بل يقدرون على الانتقام ممّن بغى عليهم ، وإن كانوا مع هذا إذا قدروا واعفوا . أقول : إلا إذا كان الحزم أو العلم أو الحكم عدم العفو ، وقال النسفي : أي هم ينتقمون ممن ظلمهم ، أي : يقتصرون في الانتصار على ما جعله الله تعالى لهم ، ولا يعتدون ، وكانوا يكرهون أن يذلوا أنفسهم فيجترىء عليهم الفساق . وإنما حمدوا على الانتصار ؛ لأن من انتصر وأخذ حقه ولم يجاوز في ذلك حد الله فلم يسرف في القتل ــ إن كان ولي دم ــ فهو مطيع لله وكل مطيع محمود . ثمّ بيّن تعالى حدّ الانتصار فقال ﴿ **وجزاء سيئة سيئة مثلها** ﴾ أي : يجب إذا قوبلت الإساءة أن تقابل بمثلها من غير زيادة ﴿ **فمن عفا وأصلح فأجره على الله** ﴾ أي : لا يضيع ذلك عنده كما صحّ ذلك في الحديث «وما زاد الله تعالى عبداً بعفو إلا عزًّا» وهذا في الخصومات الشخصية بين مسلم ومسلم أو مسلم ومعاهد ﴿ **إنه لا يحب الظالمين** ﴾ أي : المعتدين وهم المبتدئون بالسيئة ، وفسّر النسفي الظالمين هنا بقوله : الذين يبدأون الظلم ، أو الذين يجاوزون حدّ الانتصار . ﴿ **ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل** ﴾ أي : ليس عليهم جناح في الانتصار ممّن ظلمهم ، أي : ولمن أخذ حقه بعد ما ظلم فهؤلاء ما عليهم من سبيل للمعاقب ، ولا للمعاتب ، ولا للمعايب . فال النسفي : وفسّر السبيل بالتبعة والحجة . ﴿ **إنما السبيل** ﴾ أي : إنما الحرج والعنت والعيب والعقاب والعتاب ﴿ **على الذين يظلمون الناس** ﴾ أي : يبتدؤونهم بالظلم ﴿ **ويبغون في الأرض بغير الحق** ﴾ أي : يتكبرون فيها ويعلون ويفسدون بالباطل ﴿ **أولئك لهم عذاب أليم** ﴾ أي : شديد موجع يوم القيامة ، وقد فهم من الآيتين الأخيرتين ضمناً أن من خصائص المسلمين ألا يلوموا وألا يعاقبوا من انتصر بحق أو بعد ما ظُلم ﴿ **ولمن صبر وغفر** ﴾ قال ابن كثير : أي صبر على الأذىٰ وستر السيئة . وقال النسفي : ولمن صبر على الظلم والأذى وغفر ولم ينتصر ﴿ **إن ذلك** ﴾ أي : الصبر والغفران معه ﴿ **لمن عزم الأمور** ﴾ قال النسفي : أي من الأمور التي ندب إليها أو مما ينبغي أن يوجبه العاقل على نفسه ولا يترخّص في تركه . وقال ابن كثير : (قال سعيد بن جبير : يعني لمن حق الأمور التي أمر الله تعالى بها ، أي : لمن الأمور المشكورة والأفعال الحميدة التي عليها ثواب جزيل وثناء جميل) .

....

نقــول :

١ - قدّم صاحب الظلال للفقرة التي مرّت معنا بقوله : (وهنا في هذه الآيات يصور خصائص هذه الجماعة التي تطبعها وتميزها . ومع أن هذه الآيات مكية ، نزلت قبل قيام الدولة المسلمة في المدينة ، فإننا نجد فيها أن من صفة هذه الجماعة المسلمة : ﴿ **وأمرهم شورى بينهم** ﴾ .. مما يوحي بأن وضع الشورى أعمق في حياة المسلمين من مجرد أن تكون نظاماً سياسيّاً للدولة ، فهو طابع أساسي للجماعة كلها ، يقوم عليه أمرها كجماعة ، ثم يتسرب من الجماعة إلى الدولة ، بوصفها إفرازاً طبيعياً للجماعة . كذلك نجد من صفة هذه الجماعة : ﴿ **والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون** ﴾ . مع أن الأمر الذي كان صادراً للمسلمين في مكة هو أن يصبروا وألا يردوا العدوان بالعدوان ؛ إلى أن صدر لهم أمر آخر بعد الهجرة وأذن لهم في القتال ، وقيل لهم : ﴿ **أُذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير** ﴾ . وذكر هذه الصفة هنا في آيات مكية بصدد تصوير طابع الجماعة المسلمة يوحي بأنه صفة الانتصار من البغي صفة أساسية ثابتة ؛ وأن الأمر الأول بالكف والصبر كان أمراً استثنائياً لظروف معينة . وأنه لما كان المقام هنا مقام عرض الصفات الأساسية للجماعة المسلمة ذكر منها هذه الصفة الأساسية الثابتة ، ولو أن الآيات مكية ، ولم يكن قد أذن لهم بعد في الانتصار من العدوان .

وذكر هذه الصفات المميزة لطابع الجماعة المسلمة ، المختارة لقيادة البشرية وإخراجها من ظلام الجاهلية إلى نور الإسلام ، ذكرها في سورة مكية وقبل أن تكون القيادة العملية في يدها فعلاً ، جدير بالتأمل . فهي الصفات التي يجب أن تقوم أولاً ، وأن تتحقق في الجماعة لكي تصبح بها صالحة للقيادة العملية . ومن ثم ينبغي أن نتدبرها طويلاً .. ما هي ؟ ما حقيقتها ؟ وما قيمتها في حياة البشرية جميعاً ؟.

إنها الإيمان ، والتوكل ، واجتناب كبائر الإثم والفواحش ، والمغفرة عند الغضب ، والاستجابة لله ، وإقامة الصلاة ، والشورى الشاملة ، والإنفاق مما رزق الله ، والانتصار من البغي ، والعفو ، والإصلاح ، والصبر) .

٢ - وعند قوله تعالى : ﴿ **وأمرهم شورى بينهم** ﴾ قال الألوسي : (قد كانت الشورى بين النبي ﷺ وأصحابه فيما يتعلق بمصالح الحروب ، وكذا بين الصحابة ــ

رضي الله تعالى عنهم ــ بعده ــ عليه الصلاة والسلام ــ ، وكانت بينهم أيضاً في الأحكام كقتال أهل الرّدة وميراث الجد وعدد حَدّ الخمر وغير ذلك . والمراد بالأحكام مالم يكن لهم فيه نص شرعي فالشورى لا معنى لها ، وكيف يليق بالمسلم العدول عن حكم الله ــ عز وجل ــ إلى آراء الرجال والله سبحانه هو الحكيم الخبير . ويؤيد ما قلنا ماأخرجه الخطيب عن علي ــ كرم الله تعالى وجهه ــ قال : قلت يارسول الله الأمر ينزل بنا بعدك لم ينزل فيه قرآن ، ولم يسمع منك فيه شيء قال : اجمعوا له العابدين من أمتي واجعلوه بينكم شورى ولا تقضوه برأي واحد ، وينبغي أن يكون المستشار عاقلاً كما ينبغي أن يكون عابداً ، فقد أخرج الخطيب أيضاً عن أبي هريرة ــ مرفوعاً ــ : « استرشدوا العاقل ترشدوا ، ولاتعصوه فتندموا » . والشورى ــ على الوجه الذي ذكرناه ــ من جملة أسباب صلاح الأرض ، ففي الحديث «إذا كان أمراؤكم خياركم وأغنياؤكم أسخياءكم وأمركم شورى بينكم ، فظهر الأرض خير لكم من بطنها ، وإذا كان أمراؤكم شراركم وأغنياؤكم بخلاءكم وأمركم إلى نسائكم ، فبطن الأرض خير لكم من ظهرها » . وإذا لم تكن على ذلك الوجه كان إفساد الدين والدنيا أكثر من إصلاحها) .

وقال صاحب الظلال عند الآية نفسها : ﴿ **وأمرهم شورى بينهم** ﴾ :

والتعبير يجعل أمرهم كله شورى ؛ ليصبغ الحياة كلها بهذه الصبغة . وهو ــ كما قلنا ــ نص مكي ، كان قبل قيام الدولة الإسلامية . فهذا الطابع إذن أعم وأشمل من الدولة في حياة المسلمين . إنه طابع الجماعة الإسلامية في كل حالاتها ولو كانت الدولة بمعناها الخاص لم تقم فيها بعد .

والواقع أن الدولة في الإسلام ليست سوى إفراز طبيعي للجماعة وخصائصها الذاتية . والجماعة تتضمن الدولة وتنهض وإياها بتحقيق المنهج الإسلامي وهيمنته على الحياة الفردية والجماعية .

ومن ثم كان طابع الجماعة في الشورى مبكراً ، وكان مدلوله أوسع وأعمق من محيط الدولة وشؤون الحكم فيها . إنه طابع ذاتي للحياة الإسلامية ، وسمة مميزة للجماعة المختارة لقيادة البشرية ، وهي من ألزم صفات القيادة .

أما الشكل الذي تتم به الشورى فليس مصبوباً في قالب حديدي ، فهو متروك للصورة الملائمة لكل بيئة وزمان ؛ لتحقيق ذلك الطابع في حياة الجماعة الإسلامية . والنظم الإسلامية كلها ليست أشكالاً جامدة ، وليست نصوصاً حرفية ، إنما هي ــ

قبل كل شيء ـــ روح ينشأ عن استقرار حقيقة الإيمان في القلب ، وتكيف الشعور والسلوك بهذه الحقيقة . والبحث في أشكال الأنظمة الإسلامية دون الاهتمام بحقيقة الإيمان الكامنة وراءها لا يؤدي إلى شيء .. وليس هذا كلاماً عائماً غير مضبوط كما قد يبدو لأول وهلة لمن لا يعرف حقيقة الإيمان بالعقيدة الإسلامية . فهذه العقيدة ـــ في أصولها الاعتقادية البحتة ، وقبل أي التفات إلى الأنظمة فيها ـــ تحوي حقائق نفسية وعقلية هي في ذاتها شيء له وجود وفاعلية وأثر في الكيان البشري ، يهيىء لإفراز أشكال معينة من النظم وأوضاع معينة في الحياة البشرية ، ثم تجيء النصوص بعد ذلك مشيرة إلى هذه الأشكال والأوضاع ، لمجرد تنظيمها لا لخلقها وإنشائها . ولكي يقوم أيُّ شكل من أشكال النظم الإسلامية ، لابد قبلها من وجود مسلمين ، ومن وجود إيمان ذي فاعلية وأثر . وإلا فكل الأشكال التنظيمية لا تفي بالحاجة ، ولا تحقق نظاماً يصح وصفه بأنه إسلامي ..

ومتى وجد المسلمون حقاً ، ووجد الإيمان في قلوبهم بحقيقته ، نشأ النظام الإسلامي نشأة ذاتية ، وقامت صورة منه تناسب هؤلاء المسلمين وبيئتهم وأحوالهم كلها ، وتحقق المبادىء الإسلامية الكلية خير تحقيق) أ هـ .

٣ – وعند قوله تعالى ﴿ **والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون** ﴾ قال صاحب الظلال :

(وذكر هذه الصفة في القرآن المكي ذو دلالة خاصة كما سلف . فهي تقرير لصفة أساسية في الجماعة المسلمة ، صفة الانتصار من البغي ، وعدم الخضوع للظلم ، وهذا طبيعي بالنسبة لجماعة أخرجت للناس لتكون خير أمة لتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، وتهيمن على حياة البشرية بالحق والعدل ، وهي عزيزة بالله ﴿ **ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين** ﴾ .. فمن طبيعة هذه الجماعة ووظيفتها أن تنتصر من البغي ، وأن تدفع العدوان . وإذا كانت هناك فترة اقتضت ـــ لأسباب محلية في مكة ، ولمقتضيات تربوية في حياة المسلمين الأوائل من العرب خاصة ـــ أن يكفوا أيديهم ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة ، فذلك أمر عارض لا يتعلق بخصائص الجماعة الثابتة الأصلية .

ولقد كانت هناك أسباب خاصة لاختيار أسلوب المسالمة والصبر في العهد المكي .

منها أن إيذاء المسلمين الأوائل وفتنتهم عن دينهم لم تكن تصدر من هيئة مسيطرة على

الجماعة. فالوضع السياسي والاجتماعي في الجزيرة كان وضعاً قبلياً مخلخلاً . ومن ثم كان الذين يتولون إيذاء الفرد المسلم هم خاصة أهله إن كان ذا نسب ، ولم يكن أحد غير خاصة أهله يجرؤ على إيذائه ، ولم يقع إلا في الندرة أن وقع اعتداء جماعي على فرد مسلم أو على المسلمين كجماعة ، كما كان السادة يؤذون مواليهم إلى أن يشتريهم المسلمون ويعتقوهم فلا يجرؤ أحد على إيذائهم غالباً . ولم يكن الرسول ﷺ يحب أن تقع معركة في كل بيت بين الفرد المسلم من هذا البيت والذين لم يسلموا بعد . والمسالمة كانت أقرب إلى إلانة القلوب من المخاشنة .

ومنها أن البيئة العربية كانت بيئة نخوة تثور لصاحب الحق الذي يقع عليه الأذى . واحتمال المسلمين للأذى وصبرهم على عقيدتهم ، كان أقرب إلى استثارة هذه النخوة في صف الإسلام والمسلمين . وهذا ما حدث بالقياس إلى حادث الشِّعب وحصر بني هاشم فيه . فقد ثارت النخوة ضد هذا الحصار ، ومزقت العهد الذي حوته الصحيفة ، ونقضت هذا العهد الجائر .

ومنها أن البيئة العربية كانت بيئة حرب ومسارعة إلى السيف ، وأعصاب متوفزة لا تخضع لنظام . والتوازن في الشخصية الإسلامية كان يقتضي كبح جماح هذا التوافز الدائم ، وإخضاعها لهدف ، وتعويدها الصبر وضبط الأعصاب . مع إشعار النفوس باستعلاء العقيدة على كل نزوة وعلى كل مغنم . ومن ثم كانت الدعوة إلى الصبر على الأذى متفقة مع منهج التربية الذي يهدف إلى التوازن في الشخصية الإسلامية ، وتعليمها الصبر والثبات والمضي في الطريق .

فهذه الاعتبارات وأمثالها قد اقتضت سياسة المسالمة والصبر في مكة ، مع تقرير الطابع الأساسي الدائم للجماعة المسلمة : ﴿ **والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون** ﴾ ......) أ هـ .

....

كلمة في السياق :

بيّن الله ــ عز وجل ــ في الفقرة المارة أنّ متاع الدنيا قليل ، ثمّ بيّن أن متاع الآخرة خير وأبقى لمن توفرت فيه مجموعة صفات . وقد تبيّن لنا من مجموع ما ذكر في الفقرة أن الطريق إلى الدنيا والآخرة هو إقامة دين الله . والاجتماع عليه . وقد حددت المجموعة

مواصفات هؤلاء الذين يقيمون دين الله . ويجتمعون عليه . وبعد أنّ بيّن الله ــ عز وجل ــ ذلك ، فإنّه ــ جل جلاله ــ يبيّن في الفقرة الثانية وضع الظالمين .

تفسير الفقرة الثانية من المجموعة الثالثة :

﴿ **ومن يضلل الله فما له من ولي من بعده** ﴾ أي : فما له من أحد يلي هدايته من بعد إضلال الله إياه ، وما له من أحد يمنعه من عذاب الله في الدنيا وفي الآخرة ﴿ **وترى الظالمين** ﴾ يوم القيامة ﴿ **لما رأوا العذاب** ﴾ أي : حين يرون العذاب ﴿ **يقولون هل إلى مردٍّ** ﴾ أي : رجوع إلى الدنيا ﴿ **من سبيل** ﴾ أي : من طريق نفعله لنرجع ونؤمن وهيهات فلا عودة ولا رجوع ﴿ **وتراهم يُعْرَضُون عليها** ﴾ أي : على النار ﴿ **خاشعين من الذلّ** ﴾ أي : متضائلين متقاصرين ممّا يلحقهم من الذلّ ﴿ **ينظرون** ﴾ إلى النار ﴿ **من طرف خفي** ﴾ أي : ضعيف بمسارقة. قال ابن كثير : أي ينظرون إليها مسارقة خوفاً منها ، والذي يحذرون منه واقع بهم لا محالة ، وما هو أعظم في نفوسهم ، أجارنا الله من ذلك . ﴿ **وقال الذين آمنوا** ﴾ أي : يقولون يوم القيامة ﴿ **إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة** ﴾ قال ابن كثير : أي ذهب بهم إلى النار فعدموا لذّتهم في دار الأبد ، وخسروا أنفسهم ، وفُرِّقَ بينهم وبين أحبابهم وأصحابهم وأهاليهم وقراباتهم ، فخسروهم ﴿ **ألا إنّ الظالمين في عذاب مقيم** ﴾ أي : دائم سرمدي أبدي ، لا خروج لهم منه ولا محيد لهم عنه ﴿ **وما كان لهم من أولياء ينصرونهم من دون الله** ﴾ أي : ينقذونهم مما هم فيه من العذاب والنكال ﴿ **ومن يضلل الله فما له من سبيل** ﴾ أي : ليس له طريق إلى النجاة، أي : ليس له خلاص .

....

كلمة في السياق :

نلاحظ أن هذه الفقرة بدأت بقوله تعالى : ﴿ **ومن يضلل الله فما له من ولي من بعده** ﴾ وختمت بقوله تعالى : ﴿ **ومن يضلل الله فما له من سبيل** ﴾ ، لاحظ التشابه بين البداية والنهاية .

وبعد هذه الجولة الطويلة في المقطع ، وكلها إقناع بضرورة الاستجابة لدين الله وشرعه ، تأتي الآن فقرة تأمر بشكل مباشر بالاستجابة لشرع الله ودينه .

تفسير الفقرة الثالثة من المجموعة الثالثة :

جـ ـ ﴿ **استجيبوا لربكم** ﴾ أي : أجيبوه إلى كل مادعاكم إليه ﴿ **من قبل أن يأتي يوم** ﴾ أي : يوم القيامة ﴿ **لا مردّ له من الله** ﴾ أي : لا يردّه الله بعد ماحكم به ، أو لايقدر أحد على رده ﴿ **مالكم من ملجأ يومئذٍ ومالكم من نكير** ﴾ أي : إنكار ، أي : ليس لكم مخلص من العذاب ، ولاتقدروا أن تنكروا شيئاً ممّا اقترفتموه ودوّن في صحائفكم ، أو تستنكروا مايفعل بكم ﴿ **فإن أعرضوا** ﴾ عن الاستجابة لإقامة دين الله ، وعن ترك الافتراق فيه ﴿ **فما أرسلناك عليهم حفيظاً** ﴾ أي : رقيباً ﴿ **إن عليك إلا البلاغ** ﴾ أي : إلا أن تبلّغ ، أي : إنما كلّفناك أن تبلّغهم رسالة الله إليهم ﴿ **وإنا إذا أذقنا الإنسان منّا رحمة** ﴾ أي : نعمة وسعة ، وأمناً وصحة ، وأمثال ذلك ﴿ **فرح بها** ﴾ أي : بطر بذلك ﴿ **وإن تصبهم سيئة** ﴾ أي : بلاء : كالمرض والفقر والجدب والشدة والنقمة ، وغير ذلك ﴿ **بما قدّمت أيديهم** ﴾ أي : بسبب معاصيهم ﴿ **فإنّ الإنسان كفور** ﴾ أي : يذكر البلاء وينسى النعم ويغمطها . قال ابن كثير : أي يجحد ماتقدّم من النّعم ، ولايعرف إلا الساعة الراهنة ، فإن أصابته نعمة أشر وبطر ، وإن أصابته محنة يئس وقنط . ﴿ **لله ملك السمٰوات والأرض** ﴾ ودليل ذلك ﴿ **يخلق مايشاء** ﴾ وعلامة ذلك ﴿ **يهب لمن يشاء إناثاً** ﴾ أي : يرزقه البنات فقط ﴿ **ويهب لمن يشاء الذكور** ﴾ أي : يرزقه البنين فقط ﴿ **أو يزوجهم ذكراناً وإناثاً** ﴾ أي : ويعطي لمن يشاء من الناس الزوجين الذكر والأنثى ، أي : من هذا وهذا ﴿ **ويجعل من يشاء عقيماً** ﴾ أي : لا يولد له . قال ابن كثير : (فجعل الناس أربعة أقسام : منهم من يعطيه البنات ، ومنهم من يعطيه البنين ، ومنهم من يعطيه من النوعين ذكوراً وإناثاً ، ومنهم من يمنعه هذا وهذا فيجعله عقيماً لانسل له ولا ولد له ﴿ **إنه عليم** ﴾ أي : بمن يستحق كل قسم من هذه الأقسام ﴿ **قدير** ﴾ أي : على من يشاء من تفاوت الناس في ذلك ، وهذا المقام شبيه بقوله تبارك وتعالى عن عيسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ ﴿ **ولنجعله آية للناس** ﴾ أي : دلالة لهم على قدرته ـ تعالى وتقدس ـ حيث خلق الخلق على أربعة أقسام : فآدم ـ عليه الصلاة والسلام ـ مخلوق من تراب لا من ذكر ولا أنثى ، وحواء ـ عليها السلام ـ مخلوقة من ذكر بلا أنثى ، وسائر الخلق سوى عيسى ـ عليه السلام ـ من ذكر وأنثى ، وعيسى ـ عليه السلام ـ من أنثى بلا ذكر ، فتمت الدلالة بخلق عيسى ابن مريم ـ عليهما الصلاة والسلام ـ ولهذا قال تعالى : ﴿ **ولنجعله آية للناس** ﴾ فهذا المقام في

الآباء ، والمقام الأول في الأبناء وكل منهما أربعة أقسام فسبحان العليم القدير) . ﴿ **إنّه عليم** ﴾ بكل شيء ﴿ **قدير** ﴾ على كل شيء . قال النسفي مبيّناً صلة هذه الآية بما قبلها : (لما ذكر إذاقة الإنسان الرحمة وإصابته بضدها أتبع ذلك أن له تعالى الملك ، وأنه يقسم النعمة والبلاء كيف أراد ، ويهب لعباده من الأولاد مايشاء فيخص بعضاً بالإناث وبعضاً بالذكور ، وبعضاً بالصنفين جميعاً ، ويجعل البعض عقيماً ، والعقيم التي لاتلد ، وكذلك رجل عقيم إذا كان لايولد له ، وقدم الإناث أولاً على الذكور ؛ لأن سياق الكلام أنه فاعل لما يشاؤه لا مايشاؤه الإنسان ، فكان ذكر الإناث اللاتي من جملة ما لا يشاؤه الإنسان أهم ، والأهم واجب التقديم ، وليلي الجنس الذي كانت العرب تعدّه بلاء ، ذكر البلاء ، ولما أخّر الذكور ــ وهم أحقاء بالتقديم ــ تدارك تأخيرهم بتعريفهم لأن التعريف تنويه وتشهير ، ثم أعطى بعد ذلك كلا الجنسين حقه من التقديم والتأخير ، وعرّف أن تقديمهن لم يكن لتقدمهن ولكن لمقتضى آخر فقال : ﴿ **ذكراناً وإناثاً** ﴾) .

....

كلمة في السياق :

وإذ ذكر الله ــ عز وجل ــ في بداية المقطع الأول ، وفي أوائل المقطع الثاني أنّه أوحى إلى محمد ــ عليه الصلاة والسلام ــ والنبيّين من قبله ، فإنه الآن يذكر أنواع الوحي كنهاية للمقطعين السابقين ، وصلة وصل مع بداية المقطع الثاني المبدوء بقوله تعالى ﴿ **وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا** ﴾ فلنر الآية الأخيرة في المجموعة الثالثة وفي المقطع الثاني .

﴿ **وماكان لبشر** ﴾ أي : وماصحّ لأحد من البشر ﴿ **أن يكلّمه الله إلا وحياً** ﴾ أي : إلهاماً ، ومن ذلك رؤيا المنام ﴿ **أو من وراء حجاب** ﴾ أي : يسمع كلاماً من الله كما سمع موسى ــ عليه السلام ــ من غير أن يبصر السامع من يكلّمه ، وليس المراد بالحجاب حجاباً كالحجاب المعروف في حق الخلق ، بل هو حجاب يحجب به السامع عن رؤية الله في الدنيا ، ولا نخوض في شأنه ، قال ــ عليه الصلاة والسلام ــ : « حجابه النّور » ﴿ **أو يرسل رسولاً** ﴾ أي : ملكاً ﴿ **فيوحي** ﴾ أي : الملك إلى الرسول أو النبي

﴿ **بإذنه** ﴾ أي : بأمر الله ﴿ **ما يشاء** ﴾ الله من الوحي ﴿ **إنه** ﴾ أي : إن الله ﴿ **عَليٌّ** ﴾ قاهر فلا يمانع ﴿ **حكيم** ﴾ في أقواله وأفعاله ، فلا يعارض وبهذا انتهى المقطع .

....

كلمة في السياق :

إن ارتباط آيات المقطع ببعضها ، وارتباط مجموعاته ببعضها ، كل ذلك قد ذكرناه أثناء عرضنا لمجموعات المقطع وفقراته وآياته . ويبقى أن نرى هنا صلة المقطع بمحور السورة . إن محور السورة هو الآيات الأولى من مقدمة سورة البقرة ، وقد تعرض المقطع لإنزال هذا القرآن ، ولكونه من عند الله ، وذكر مواصفات أهل الآخرة : من إيمان وتوكل وصلاة وإنفاق . ولذلك صلاته بمقدمة سورة البقرة ، فلقد نال قوله تعالى : ﴿ **الٓمٓ * ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين** ﴾ تفصيلاً في سورة الشورى ، كما نال قوله تعالى : ﴿ **الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون** ﴾ تفصيلاً ، ونال قوله تعالى : ﴿ **والذين يؤمنون بما أنزل إليك وماأنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون** ﴾ تفصيلاً ، ونال قوله تعالى . ﴿ **أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون** ﴾ تفصيلاً ، ولكنه تفصيل ليس كطريقة البشر في التفصيل بل هو تفصيل معجز .

فأنت إذ تدرس السورة دراسة تفصيلية ، ترى أنّك قد خرجت من السورة وقد ازدادت قضايا الاهتداء بالكتاب والإيمان والعمل وغيرها وضوحاً ، فازددت تمسكاً وعملاً ، وزادتك بصيرة . وبهذا يكمل البناء شيئاً فشيئاً .

الفـــوائد :

١ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **لتنذر أمّ القرى ومن حولها** ﴾ قال ابن كثير : (وسميت مكة أمّ القرى ؛ لأنها أشرف من سائر البلاد لأدلة كثيرة مذكورة في مواضعها ، ومن أوجز ذلك وأدله مارواه الإما أحمد عن عبد الله بن عدي بن الحمراء الزهري أنه

سمع رسول الله ﷺ يقول وهو واقف بالحزورة في سوق مكة : « والله إنك لخير أرض الله وأحب أرض الله إليّ ، ولولا إني أُخرجت منك ماخرجت » هكذا رواية الترمذي والنسائي وابن ماجه من حديث الزهري به وقال الترمذي حسن صحيح) .

أقول : وهناك اتجاه عند المالكية يرى أن للمدينة فضلاً على غيرها ، وإنما ذكرناه هنا للإشارة إلى أنه لايوجد إجماع على ماقاله ابن كثير .

٢ - بمناسبة قوله تعالى ﴿ **والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون أنها الحق** ﴾ قال ابن كثير : (وقد روي من طرق تبلغ درجة التواتر في الصحاح والحسان ، والسنن والمسانيد ، وفي بعض ألفاظه أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ بصوت جهوري وهو في بعض أسفاره فناداه فقال : يامحمد ، فقال له رسول الله ﷺ نحواً من صوته « هاؤم » فقال له : متى الساعة ؟ فقال له رسول الله ﷺ « ويحك إنها كائنة فما أعددت لها ؟ » فقال : حب الله ورسوله ، فقال ﷺ : « أنت مع من أحببت » فقوله في الحديث : « المرء مع من أحب » هذا متواتر لامحالة والغرض ، أنه لم يجبه عن وقت الساعة بل أمره بالاستعداد لها) .

٣ ــ بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **أَمْ لهم شركاء شرعوا لهم من الدين مالم يأذن به الله** ﴾ قال ابن كثير : (وقد ثبت في الصحيح أن رسول الله ــ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ــ قال : « رأيت عمرو بن لحي بن قمعة يجر قُصْبه في النار » لأنه أول من سيّب السوائب ، وكان هذا الرجل أحد ملوك خزاعة ، وهو أول من فعل هذه الأشياء ، وهو الذي حمل قريشاً على عبادة الأصنام ، لعنه الله وقبحه) .

٤ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **قل لاأسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى** ﴾ قال ابن كثير : (أي قل يامحمد لهؤلاء المشركين من كفار قريش لاأسألكم على هذا البلاغ والنصح لكم مالاً تعطونيه ، وإنما أطلب منكم أن تكفوا شرّكم عني وتذروني أبلّغ رسالات ربي ، إن لم تنصروني فلا تؤذوني . بما بيني وبينكم من القرابة . روى البخاري عن ابن عباس ــ رضي الله عنهما ــ أنه سئل عن قوله تعالى : ﴿ **إلا المودة في القربى** ﴾ فقال سعيد ابن جبير : قربى آل محمد . فقال ابن عباس : عجلت (وفي رواية عجيب) إن النبي ﷺ لم يكن بطن من قريش إلا كان له فيهم قرابة . فقال : إلا أن تصلوا مابيني وبينكم من القرابة . انفرد به البخاري ، ورواه الإمام أحمد من طريق آخر به ، وهكذا روى عامر الشعبي والضحاك وعلي بن أبي طلحة والعوفي ويوسف بن

مهران وغير واحد عن ابن عباس ــ رضي الله عنهما ــ مثله ، وبه قال مجاهد وعكرمة وقتادة والسدي وأبو مالك وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغيرهم .

وروى الحافظ أبو القاسم الطبراني عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ــ رضي الله عنهما ــ قال : قال لهم رسول الله ﷺ : «لا أسألكم عليه أجراً إلا أن تودوني في نفسي لقرابتي منكم ، وتحفظوا القرابة بيني وبينكم» وروى الإمام أحمد عن مجاهد عن ابن عباس ــ رضي الله عنهما ــ أن النبي ﷺ قال : «لا أسألكم على ما آتيتكم من البينات والهدى أجراً إلا أن توادوا الله تعالى ، وأن تقربوا إليه بطاعته» وهكذا روى قتادة عن الحسن البصري مثله ، وهذا كأنه تفسير بقول ثان كأنه يقول : إلا المودة في القربى أي إلا أن تعملوا بالطاعة التي تقربكم عند الله زلفى . وقول ثالث وهو ما حكاه البخاري وغيره رواية عن سعيد ابن جبير ما معناه أنه قال : معنى ذلك أن تودوني في قرابتي أي تحسنوا إليهم وتبروهم . وقال السدي عن أبي الديلم قال : لما جيء بعلي بن الحسين رضي الله عنه أسيراً فأقيم على درج دمشق ، قام رجل من أهل الشام فقال : الحمد لله الذي قتلكم واستأصلكم ، وقطع قرن الفتنة . فقال له علي بن الحسين ــ رضي الله عنه ــ : أقرأت القرآن ؟ قال : نعم . قال : أقرأت آل حم ؟ قال : قرأت القرآن ولم أقرأ آل حم . قال : ما قرأت ﴿ **قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى** ﴾ قال : وإنكم لأنتم هم ؟ قال : نعم . وقال أبو إسحاق السبيعي : سألت عمرو بن شعيب عن قوله تبارك وتعالى ﴿ **قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى** ﴾ فقال قربى النبي ﷺ . رواهما ابن جرير . ثم روى ابن جرير ــ أيضاً ــ عن ابن عباس ــ رضي الله عنهما ــ قال : قالت الأنصار : فعلنا وفعلنا ، وكأنهم فخروا . فقال ابن عباس أو العباس رضي الله عنهما ــ شك عبد السلام ، وهو أحد رواة الحديث : لنا الفضل عليكم ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فأتاهم في مجالسهم فقال : «يا معشر الأنصار ألم تكونوا أذلة فأعزكم الله بي ؟» قالوا : بلى يارسول الله ! قال ﷺ : «ألم تكونوا ضلّالاً فهداكم الله بي ؟» قالوا : بلى يارسول الله ! قال : «أفلا تجيبوني» قالوا : ما نقول يارسول الله ؟ قال : «ألا تقولون ألم يخرجك قومك فآويناك ، أو لم يكذبوك فصدقناك ، أو لم يخذلوك فنصرناك» قال : فما زال ﷺ يقول حتى جثوا على الركب ، وقالوا : أموالنا في أيدينا لله ولرسوله قال فنزلت ﴿ **قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى** ﴾ وهكذا رواه ابن أبي حاتم بإسناده مثله أو قريباً منه وهو ضعيف . وفي الصحيحين في قسم غنائم حنين قريب من هذا السياق ، ولكن ليس فيه ذكر نزول هذه الآية ، وذكر

نزولها في المدينة فيه نظر ، لأن السورة مكية ، وليس يظهر بين هذه الآية وهذا السياق مناسبة والله أعلم . وروى ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس — رضي الله عنه — قال : لما نزلت هذه الآية ﴿ **قل لاأسألكم عليه أجراً إلا المودّة في القربى** ﴾ قالوا : يارسول الله من هؤلاء الذين أمر الله بمودتهم ؟ قال : « فاطمة وولدها رضي الله عنهما » وهذا إسناد ضعيف فيه مبهم لا يعرف عن شيخ شيعي مخترق وهو حسين الأشقر ولا يقبل خبره في هذا المحل ، وذكر نزول الآية في المدينة بعيد فإنها مكية ، ولم يكن إذ ذاك لفاطمة — رضي الله عنها — أولاد بالكلية ، فإنها لم تتزوج بعلي — رضي الله عنه — إلا بعد بدر من السنة الثانية من الهجرة . والحق تفسير هذه الآية بما فسرها به حبر الأمة وترجمان القرآن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما كما رواه عنه البخاري ، ولا ننكر الوصاة بأهل البيت ، والأمر بالإحسان إليهم ، واحترامهم وإكرامهم ، فإنهم من ذرية طاهرة ، من أشرف بيت وجد على وجه الأرض فخراً وحسباً ونسباً ، ولا سيما إذا كانوا متبعين للسنة النبوية الصحيحة الواضحة الجلية ، كما كان عليه سلفهم كالعباس وبنيه ، وعلي وأهل بيته وذريته رضي الله عنهم أجمعين .

وقد ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال في خطبته بغدير خم : «إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي ، وإنهما لم يفترقا حتى يردا عَليّ الحوض» وروى الإمام أحمد عن العباس بن عبد المطلب — رضي الله عنه — قال : قلت يارسول الله إن قريشاً إذا لقي بعضهم بعضاً لقوهم ببشرٍ حسن ، وإذا لقونا لقونا بوجوه لا نعرفها ، قال : فغضب النبي ﷺ غضباً شديداً وقال : «والذي نفسي بيده لا يدخل قلب الرجل الإيمان حتى يحبكم لله ولرسوله» . ثم روى الإمام أحمد عن عبد المطلب بن ربيعة قال : دخل العباس رضي الله عنه على رسول الله ﷺ فقال : إنا لنخرج فنرى قريشاً تحدث ، فإذا رأونا سكتوا ، فغضب رسول الله ﷺ ودر عرق بين عينيه ثم قال ﷺ : «والله لا يدخل قلب امرىء مسلم إيمان حتى يحبكم لله ولقرابتي» وروى البخاري عن ابن عمر – رضي الله عنهما – عن أبي بكر – هو الصديق – رضي الله عنه قال : ارقبوا محمداً ﷺ في أهل بيته . وفي الصحيح أن الصديق – رضي الله عنه – قال لعلي – رضي الله عنه – : والله لقرابة رسول الله ﷺ أحب إلي أن أصل من قرابتي . وقال عمر بن الخطاب للعباس – رضي الله عنهما – : والله لإسلامك يوم أسلمت كان أحب إلي من إسلام الخطاب لو أسلم ؛ لأن إسلامك كان أحب إلى رسول الله ﷺ من إسلام الخطاب . فحال الشيخين – رضي الله عنهما –هو الواجب على كل أحد أن يكون

كذلك ، ولهذا كانا أفضل المؤمنين بعد النبيين والمرسلين رضي الله عنهما وعن سائر الصحابة أجمعين وروى الإمام أحمد رحمه الله .. عن يزيد بن حيان قال : انطلقت أنا وحصين بن ميسرة وعمر بن مسلم إلى زيد بن أرقم رضي الله عنه ، فلما جلسنا إليه قال حصين : لقد لقيت يازيد خيراً كثيراً : رأيت رسول الله ﷺ وسمعت حديثه وغزوت معه وصليت معه ، لقد رأيت يازيد خيراً كثيراً ، حدِّثنا يازيد ماسمعت من رسول الله ﷺ فقال : ياابن أخي لقد كبر سني وقدم عهدي ونسيت بعض الذي كنت أعي من رسول الله ﷺ ، فما حدّثتكم فاقبلوه ومالا فلا تكلفونيه ، ثم قال رضي الله عنه : قام رسول الله ﷺ يوماً خطيباً فينا بماء يدعى خماً - بين مكة والمدينة - فحمد الله تعالى وأثنى عليه وذكر ووعظ ثم قال ﷺ : « أما بعد أيها الناس إنما أنا بشر يوشك أن يأتيني رسول ربي فأجيب ، وإني تارك فيكم الثقلين أولهما كتاب الله تعالى فيه الهدى والنور ، فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به » فحث على كتاب الله ورغّب فيه وقال ﷺ : « وأهل بيتي أذكركم الله في أهل بيتي ، أذكركم الله في أهل بيتي » فقال له حصين : ومن أهل بيته يازيد ؟ أليس نساؤه من أهل بيته ؟ قال نساؤه من أهل بيته ولكن أهل بيته من حرم عليه الصدقة بعده ، قال : ومن هم ؟ قال : هم آل علي وآل جعفر وآل العباس - رضي الله عنهم - ، قال : أكُل هؤلاء حرم عليه الصدقة ؟ قال : نعم . وهكذا رواه مسلم والنسائي من طرق يزيد بن حبان به وروى أبو عيسى الترمذي وعن زيد بن أرقم - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « إني تارك فيكم ماإن تمسكتم به لن تضلوا بعدي . أحدهما أعظم من الآخر : كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض ، والآخر عترتي أهل بيتي ولن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض فانظروا كيف تخلفوني فيهما » تفرد بروايته ثم قال : هذا حديث حسن غريب وروى الترمذي أيضاً عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال : رأيت رسول الله ﷺ في حجته يوم عرفة وهو على ناقته القصواء يخطب فسمعته يقول : « ياأيها الناس إني تركت فيكم ماإن أخذتم به لن تضلوا : كتاب الله وعترتي أهل بيتي » تفرد به الترمذي أيضاً وقال حسن غريب . وفي الباب عن أبي ذر وأبي سعيد وزيد بن أرقم وحذيفة بن أسيد رضي الله عنهم . وروى الترمذي أيضاً عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم : « أحبوا الله تعالى لما يغذوكم من نعمه ، وأحبوني بحب الله ، وأحبوا أهل بيتي بحبي » ثم قال حسن غريب إنما نعرفه من هذا الوجه) .

٥ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **الله لطيف بعباده** ﴾ قال النسفي : (وقيل هو من

لطف بالغوامض علمه ، وعظم عن الجرائم حلمه ، ومن ينشر المناقب ويستر المثالب ، أو يعفو عمن يهفو ، أو يعطي العبد فوق الكفاية ويكلفه الطاعة دون الطاقة) .

٦ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **وهو الذي يقبل التوبة عن عباده** ﴾ قال النسفي : (والتوبة أن يرجع عن القبيح والإخلال بالواجب بالندم عليهما ، والعزم على أن لا يعود ، وإن كان لعبد فيه حق لم يكن بد من التفصي [أي : الاستحلال] على طريقه . وقال علي - رضي الله عنه- : هو اسم يقع على ستة معان : على الماضي من الذنوب الندامة ، ولتضييع الفرائض الإعادة ، ورد المظالم ، وإذابة النفس في الطاعة كما ربيتها في المعصية ، وإذاقة النفس مرارة الطاعة كما أذقتها حلاوة المعصية ، والبكاء بدل كل ضحك ضحكته . وعن السدي : هو صدق العزيمة على ترك الذنوب ، والإنابة بالقلب إلى علام الغيوب . وعن غيره : هو أن لا يجد حلاوة الذنب في القلب عند ذكره . وعن سهل : هو الانتقال من الأحوال المذمومة إلى الأحوال المحمودة . وعن الجنيد : هو الإعراض عما دون الله) .

وقال ابن كثير : (وقد ثبت في صحيح مسلم عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « لله تعالى أشد فرحاً بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كانت راحلته بأرض فلاة فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه فأيس منها فأتى شجرة فاضطجع في ظلها قد أيس من راحلته ، فبينما هو كذلك إذ هو بها قائمة عنده فأخذ بخطامها ثم قال من شدة الفرح : اللهم أنت عبدي وأنا ربك ، أخطأ من شدة الفرح » وقد ثبت أيضاً في الصحيح من رواية عبد الله بن مسعود رضي الله عنه نحوه . وروى عبد الرزاق عن معمر عن الزهري في قوله تعالى ﴿ **وهو الذي يقبل التوبة عن عباده** ﴾ أن أبا هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لله أشد فرحاً بتوبة عبده من أحدكم يجد ضالته في المكان الذي يخاف أن يقتله فيه العطش » وقال همام بن الحارث : سئل ابن مسعود رضي الله عنه عن الرجل يفجر بالمرأة ثم يتزوجها ؟ قال : لابأس به (أي بالزواج) وقرأ ﴿ **وهو الذي يقبل التوبة عن عباده** ﴾ الآية . رواه ابن جرير وابن أبي حاتم) .

٧ - بمناسبة قوله تعالى . ﴿ **ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله** ﴾ قال ابن كثير : (قال السدي : يعني يستجيب لهم ، وكذا قال ابن جرير : معناه يستجيب لهم الدعاء لأنفسهم ولأصحابهم وإخوانهم ، وحكاه عن بعض

النحاة وأنه جعلها كقوله - عز وجل -: ﴿ **فاستجاب لهم ربهم** ﴾ ثم روى ابن أبي حاتم عن سلمة بن سيرة قال: خطبنا معاذ رضي الله عنه بالشام فقال: أنتم المؤمنون وأنتم أهل الجنة والله إني لأرجو أن يدخل الله تعالى من تسبون من فارس والروم الجنة، وذلك بأن أحدكم إذا عمل له - يعني أحدهم - عملاً قال: أحسنت رحمك الله، أحسنت بارك الله فيك، ثم قرأ ﴿ **ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله** ﴾. وحكى ابن جرير عن بعض أهل العربية أنه جعل قوله ﴿ **الذين يستمعون القول** ﴾ أي: هم الذين يستجيبون للحق، ويتبعونه كقوله تبارك وتعالى: ﴿ **إنما يستجيب الذين يسمعون . والموتى يبعثهم الله** ﴾ والمعنى الأول أظهر لقوله تعالى: ﴿ **ويزيدهم من فضله** ﴾ أي: يستجيب دعاءهم ويزيدهم فوق ذلك. ولهذا روى ابن أبي حاتم عن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم في قوله تعالى: ﴿ **ويزيدهم من فضله** ﴾ قال: «الشفاعة لمن وجبت له النار ممن صنع إليهم معروفاً في الدنيا» وقال قتادة عن إبراهيم النخعي في قوله عز وجل: ﴿ **ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات** ﴾ قال: يشفعون في إخوانهم ﴿ **ويزيدهم من فضله** ﴾ قال: يشفعون في إخوان إخوانهم.

٨ - بمناسبة قوله تعالى: ﴿ **وهو الذي ينزل الغيث من بعد ما قنطوا** ﴾ قال ابن كثير: (قال قتادة: ذكرنا أن رجلاً قال لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: ياأمير المؤمنين قحط المطر وقنط الناس. فقال عمر رضي الله عنه: مطرتم، ثم قرأ ﴿ **وهو الذي ينزل الغيث من بعد ما قنطوا وينشر رحمته وهو الولي الحميد** ﴾ أي: هو المتصرف لخلقه بما ينفعهم في دنياهم وأخراهم، وهو المحمود العاقبة في جميع ما يقدره ويفعله).

٩ - رأينا ما يحتمله قوله تعالى: ﴿ **ومن آياته خلق السموٰات والأرض وما بثّ فيهما من دآبة وهو على جمعهم إذا يشاء قدير** ﴾ وقلنا: إنه يحتمل أن يكون في الآية إشارة إلى وجود حياة في كواكب أخرى، وإشارة إلى اجتماع سكان أرضنا بسكان هذه الكواكب إلا أنه احتمال. ومن ثم فإننا نذكر هنا كيف فهم المفسرون القدامى هذه الآية. قال ابن كثير: (يقول تعالى: ﴿ **ومن آياته** ﴾ الدالة على عظمته وقدرته العظيمة وسلطانه القاهر ﴿ **خلق السموٰات والأرض وما بث فيهما** ﴾ أي: ذرأ فيهما، أي: في السموٰات والأرض ﴿ **من دابة** ﴾ وهذا يشمل الملائكة والإنس والجن وسائر

الحيوانات على اختلاف أشكالهم وألوانهم ، ولغاتهم وطباعهم وأجناسهم وأنواعهم ، وقد فرقهم في أرجاء السمٰوات والأرض ﴿ **وهو** ﴾ مع هذا كله ﴿ **على جمعهم إذا يشاء قدير** ﴾ أي : يوم القيامة يجمع الأولين والآخرين ، وسائر الخلائق في صعيد واحد يسمعهم الداعي وينفذهم البصر ، فيحكم فيهم بحكمه العدل الحق) .

وقال النسفي : (الدواب تكون في الأرض وحدها لكن يجوز أن ينسب الشيء إلى جميع المذكور ــ وإن كان ملتبساً ببعضه ــ كما يقال : بنو تميم فيهم شاعر مجيد وإنما هو في فخد من أفخاذهم ، ومنه قوله تعالى ﴿ **يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان** ﴾ وإنما يخرج من الملح ، ولا يبعد أن يخلق في السمٰوات حيوانات يمشون فيها مشى الأناسي على الأرض ، أو يكون للملائكة مشي مع الطيران ، فوصفوا بالدبيب كما وصف به الأناسي) .

أقول : في حالة اكتشاف حياة على ظهر كوكب آخر تكون الآية نصاً في ذلك ، وإلا ففي تأويلات ابن كثير والنسفي مايكفي لفهمها .

١٠ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير** ﴾ قال ابن كثير : وفي الحديث الصحيح « والذي نفسي بيده مايصيب المؤمن من نصب ولا وصب ولا هم ولا حزن إلا كفر الله عنه بها من خطاياه حتى الشوكة يشاكها ». وروى ابن جرير عن أيوب قال : قرأت في كتاب أبي قلابة نزلت ﴿ **فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره** * **ومن يعمل مثقال ذرة شرّاً يره** ﴾ وأبو بكر رضي الله عنه يأكل فأمسك وقال : يارسول الله إني أرى ماعملت من خير وشر ، فقال : « أرأيت مارأيت مما تكره ، فهو من مثاقيل ذر الشر وتدخل مثاقيل الخير حتى تعطاه يوم القيامة » قال : قال أبو إدريس : فإني أرى مصداقها في كتاب الله تعالى ﴿ **وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير** ﴾ ثم رواه من وجه آخر عن أبي قلابة عن أنس رضي الله عنه ، قال : والأول أصح وروى ابن أبي حاتم عن علي رضي الله عنه قال : ألا أخبركم بأفضل آية في كتاب الله عز وجل وحدثنا به رسول الله ﷺ ، قال : ﴿ **وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير** ﴾ وسأفسرها لك يا علي : ما أصابكم من مرض أو عقوبة أو بلاء في الدنيا فبما كسبت أيديكم ، والله تعالى أحلم من أن يثني عليه العقوبة في الآخرة ، وما عفا الله عنه في الدنيا فالله تعالى أكرم من أن يعود بعد عفوه » وكذا رواه الإمام أحمد عن أبي سخبلة قال علي قال : رضي الله عنه

فذكر نحوه مرفوعاً . ثم روى ابن أبي حاتم نحوه من وجه آخر موقوفاً عن أبي جحيفة قال : دخلت على علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقال : ألا أحدثكم بحديث ينبغي لكل مؤمن أن يعيه ؟ قال فسألناه فتلا هذه الآية ﴿ **وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير** ﴾ قال : « ماعاقب الله تعالى به في الدنيا فالله أحلم من أن يثني عليه العقوبة يوم القيامة ، وماعفا الله عنه في الدنيا فالله أكرم من أن يعود في عفوه يوم القيامة » وروى الإمام أحمد عن معاوية - هو ابن أبي سفيان رضي الله عنه - قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول « مامن شيء يصيب المؤمن في جسده يؤذيه إلا كفّر الله تعالى عنه به من سيئاته » وروى الإمام أحمد أيضاً عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « إذا كثرت ذنوب العبد ولم يكن له مايكفرها ابتلاه الله تعالى بالحزن ليكفرها » وروى ابن أبي حاتم عن الحسن - هو البصري - قال في قوله تبارك وتعالى : ﴿ **وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير** ﴾ قال : لما نزلت قال رسول الله ﷺ : « والذي نفس محمد بيده مامن خدش عود ولا اختلاج عرق ولا عثرة قدم إلا بذنب ومايعفو الله عنه أكثر » وروى أيضاً عن عمران بن حصين رضي الله عنه قال : دخل عليه بعض أصحابه وقد كان قد ابتلي في جسده فقال له بعضهم · إنا لنبأس لك لما نرى فيك . قال : فلا تبتئس بما ترى ، فإن ماترى بذنب ومايعفو الله عنه أكثر ثم تلا هذه الآية ﴿ **وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير** ﴾ وحدثنا جرير عن أبي البلاد قال : قلت للعلاء بن بدر ﴿ **وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم** ﴾ وقد ذهب بصري وأنا غلام ؟ قال : فبذنوب والديك . وعن الضحاك قال : مانعلم أحداً حفظ القرآن ثم نسيه إلا بذنب ثم قرأ الضحاك ﴿ **وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير** ﴾ ثم يقول الضحاك : وأي مصيبة أعظم من نسيان القرآن ؟!

١١ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **وإذا ما غضبوا هم يغفرون** ﴾ قال ابن كثير : (وقد ثبت في الصحيح « أن رسول الله ﷺ ماانتقم لنفسه قط إلا أن تنتهك حرمات الله » وفي حديث آخر كان يقول لأحدنا عند المعتبة : « ماله تربت يمينه » وروى ابن أبي حاتم عن إبراهيم قال : كان المؤمنون يكرهون أن يستذلوا وكانوا إذا قدروا عفوا) .

١٢ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **وأمرهم شورى بينهم** ﴾ قال ابن كثير : (أي : لا يبرمون أمراً حتى يتشاوروا فيه ليتساعدوا بآرائهم في مثل الحروب وماجرى مجراها كما

قال تبارك وتعالى : ﴿ **وشاورهم في الأمر** ﴾ الآية ولهذا كان ﷺ يشاورهم في الحروب ونحوها ليطيب بذلك قلوبهم ، وهكذا لما حضرت عمر بن الخطاب رضي الله عنه الوفاة حين طعن جعل الأمر بعده شورى في ستة نفر وهم : عثمان وعلي وطلحة والزبير وسعد وعبد الرحمن ابن عوف رضي الله عنهم ، فاجتمع رأي الصحابة كلهم على تقديم عثمان عليهم رضي الله عنهم) .

١٣ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون** ﴾ قال ابن كثير : (أي فيهم قوة الانتصار ممن ظلمهم واعتدى عليهم ، ليسوا بالعاجزين ولا الأذلين ، بل يقدرون على الانتقام ممن بغى عليهم ، وإن كانوا مع هذا إذا قدروا عفوا ، كما قال يوسف عليه الصلاة والسلام لإخوته : ﴿ **لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم** ﴾ مع قدرته على مؤاخذتهم ومقابلتهم على صنيعهم إليه ، وكما عفا رسول الله ﷺ عن أولئك النفر الثمانين الذين قصدوه عام الحديبية ، ونزلوا من جبل التنعيم فلما قدر عليهم مَنَّ عليهم مع قدرته على الانتقام ، وكذلك عفوه ﷺ عن غورث بن الحارث الذي أراد الفتك به ، حين اخترط سيفه وهو نائم ، فاستيقظ ﷺ وهو في يده مصلتا فانتهره فوضعه من يده ، وأخذ رسول الله ﷺ السيف في يده ودعا أصحابه ، ثم أعلمهم بما كان من أمره وأمر هذا الرجل وعفا عنه ، وكذلك عفا ﷺ عن لبيد بن الأعصم الذي سحره عليه السلام ، ومع هذا لم يعرض له ولا عاتبه مع قدرته عليه ، وكذلك عفوه ﷺ عن المرأة اليهودية - وهي زينب أخت مرحب اليهودي الخيبري الذي قتله محمود بن سلمة - التي سَمَّت الذراع يوم خيبر - فأخبره الذراع بذلك ، فدعاها فاعترفت فقال ﷺ « ما حملك على ذلك ؟ » قالت : أردت إن كنت نبياً لم يضرك ، وإن لم تكن نبياً استرحنا منك . فأطلقها عليه الصلاة والسلام ، ولكن لما مات منه بشر بن البراء رضي الله عنهما قتلها به والأحاديث والآثار في هذه كثيرة جداً والله سبحانه وتعالى أعلم) .

١٤ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون في الأرض بغير الحق** ﴾ قال ابن كثير : أي يبدأون الناس بالظلم كما جاء في الحديث الصحيح : « المستبان ما قالا فعلى البادىء مالم يعتد المظلوم » وروى أبو بكر بن أبي شيبة عن محمد بن واسع قال : قدمت مكة فإذا على الخندق قنطرة ، فأخذت فانطلق بي إلى مروان بن المهلب - وهو أمير البصرة - فقال : ما حاجتك ؟ قلت : ياأبا عبد الله حاجتي إن استطعت أن تكون كما كان أخو بني عدي ، قال : ومن أخو بني عدي ؟

قلت : العلاء بن زياد ، استعمل صديقاً له مَرَّة على عمل فكتب إليه : أما بعد ، فإن استطعت أن لاتبيت إلا وظهرك خفيف ، وبطنك خميص ، وكفك نقية من دماء المسلمين وأموالهم ، فإنك إذا فعلت ذلك لم يكن عليك سبيل ﴿ **إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون في الأرض بغير الحق أولئك لهم عذاب أليم** ﴾ فقال مروان : صدق والله ونصح ، ثم قال : حاجتك ياأبا عبد الله ؟ قلت : حاجتي أن تلحقني بأهلي ، قال : نعم . رواه بن أبي حاتم) .

١٥ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور** ﴾ قال ابن كثير : (وروى ابن أبي حاتم عن الفضيل بن عياض قال : إذا أتاك رجل يشكو إليك رجلاً ، فقل : ياأخي اعف عنه فإن العفو أقرب للتقوى ، فإن قال : لا يحتمل قلبي العفو ولكن أنتصر كما أمرني الله عز وجل ، فقل له : إن كنت تحسن أن تنتصر وإلا فارجع إلى باب العفو فإنه باب واسع ، فإنه من عفا وأصلح فأجره على الله ، وصاحب العفو ينام على فراشه بالليل ، وصاحب الانتصار يقلب الأمور . وروى الإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : إن رجلاً شتم أبا بكر رضي الله عنه ، والنبي ﷺ جالس فجعل النبي ﷺ يعجب ويتبسم ، فلما أكثر ردَّ عليه بعض قوله ، فغضب النبي ﷺ وقام ، فلحقه أبو بكر رضي الله عنه فقال : يارسول الله إنه كان يشتمني وأنت جالس فلما رددت عليه بعض قوله غضبت وقمت ، قال : « إنه كان معك ملك يردّ عنك ، فلما رددت عليه بعض قوله حضر الشيطان فلم أكن لأقعد مع الشيطان - ثم قال - ياأبا بكر ! ثلاث كلهن حق : مامن عبد ظلم بمظلمة فيغضي عنها لله إلا أعزه الله تعالى بها ونصره ، ومافتح رجل باب عطية يريد بها صلة إلا زاده بها كثرة ، ومافتح رجل باب مسألة يريد بها كثرة إلا زاده الله عز وجل بها قلة » وكذا رواه أبو داود عن سعيد بن المسيب مرسلاً ، وهذا الحديث في غاية الحسن في المعنى وهو مناسب للصديق رضي الله عنه) .

١٦ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **فما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا ...** ﴾ نقول : إنّ هذه السورة بيّنت أنّ مضمون كل رسالات الله هو : إقامة الدين والاجتماع عليه ﴿ **أنْ أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه** ﴾ وقد ذكر الله عز وجل في هذه السورة كل مايلزم لإقامة الدين وعدم التفرق فيه ، ومن ذلك : الخصائص التي ينبغي أن تتوافر في كل مسلم وفي جماعة المسلمين . فإذا توافرت هذه الخصائص قام الإسلام ، ووجد الاجتماع عليه ، ولم توجد التفرقة فيه . وللتذكير بهذه الخصائص نجملها فيما يلي :

١ - الإيمان ٢ - التوكل ٣ - اجتناب الكبائر ٤ - اجتناب الفواحش ٥ - كظم الغيظ ، وضبط الغضب ، ومغفرة الإساءة ٦ - الاستجابة لله عز وجل في كل شيء ٧ - إقامة الصلاة ٨ - الشورى والتحقق بها وممارستها عملياً في الصغير والكبير وعلى أي مستوى ٩ - الإنفاق في سبيل الله ١٠ - الانتصار عند البغي ١١ - عدم تجاوز العدل في الانتصار ١٢ - العفو عند المقدرة والصبر على الأذى . وقد تساءل ابن العربي : لم أثنى الله على المنتصرين إذا بُغي عليهم في مقام ، وحضّهم على الصبر والمغفرة في مقام . فذكر أن ذلك يختلف باختلاف الظالم . فإذا كان الظالم ليس من شيمته الظلم وأخطأ فهذا من الأفضل أن نتحمله ، وإلا فالأفضل أن نقتص منه ، ومن ثم فاعرف محل التخلق بما وردفي عن هذا وهذا في الآيات .

١٧ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **فإن الإنسان كفور** ﴾ قال ابن كثير : (كما قال رسول الله ﷺ للنساء : « يامعشر النساء تصدقن فإني رأيتكن أكثر أهل النار » فقالت امرأة : ولم يارسول الله؟ فقال ﷺ : « لأنكن تكثرن الشكاية وتكفرن العشير ، لو أحسنت إلى إحداهن الدهر ثم تركت يوما قالت مارأيت منك خيراً قط » وهذا حال أكثر النساء إلا من هداه الله تعالى وألهمه رشده ، وكان من الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، فالمؤمن كما قال ﷺ : « إن أصابته سرّاء شكر فكان خيراً له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن ») .

١٨ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **وما كان لبشر أن يكلِّمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولاً فيوحي بإذنه مايشاء** ﴾ قال ابن كثير : (هذه مقامات الوحي بالنسبة إلى جناب الله عز وجل وهو أنه تبارك وتعالى يقذف في روع النبي ﷺ شيئاً لا يتمارى فيه أنه من الله عز وجل ، كما جاء في صحيح ابن حبان عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إن روح القدس نفث في روعي أن نفساً لن تموت حتى تستكمل رزقها وأجلها فاتقوا الله وأجملوا في الطلب » وقوله تعالى ﴿ **أو من وراء حجاب** ﴾ كما كلّم موسى عليه الصلاة والسلام فإنه سأل الرؤية بعد التكليم فحجب عنها . وفي الصحيح أن رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - قال لجابر بن عبد الله - رضي الله عنهما - : « ما كلم الله أحداً إلا من وراء حجاب وإنه كلم أباك كفاحاً » كذا جاء الحديث ، وكان قد قتل يوم أحد ولكن هذا في عالم البرزخ ، والآية إنما هي في الدار الدنيا وقوله عز وجل ﴿ **أو يرسل رسولاً فيوحي بإذنه مايشاء** ﴾ كما ينزل جبريل - عليه الصلاة والسلام - وغيره من الملائكة على الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام -) .

المقطع الثالث والأخير

ويمتد من الآية (٥٢) إلى نهاية الآية (٥٣) وهو خاتمة السورة وهذا هو :

وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾

التفسير :

﴿ **وكذلك** ﴾ أي : وكما أوحينا إلى الرسل من قبلك ، أو كما وصفنا حالات الوحي ﴿ **أوحينا إليك** ﴾ أي : إيحاءً كذلك ﴿ **روحاً من أمرنا** ﴾ يعني القرآن ، قال النّسفي : يريد [أي بذكر الروح] ما أوحي إليه ، لأن الخلق يحيون به في دينهم كما يحيا الجسد بالروح ﴿ **ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان** ﴾ قبل الوحي ﴿ **ولكن جعلناه** ﴾ أي : القرآن ﴿ **نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا** ﴾ أي : ممن يستحقون الهداية لعلم الله بهم ﴿ **وإنك لتهدي** ﴾ أي : لتدعو ﴿ **إلى صراط مستقيم** ﴾ أي : الإسلام ﴿ **صراط الله** ﴾ فهو الصراط المستقيم ﴿ **الذي له ما في السموٰات وما في الأرض ألا إلى الله تصير الأمور** ﴾ أي : ترجع الأمور كلها إليه فيفصل في شأنها ويحكم فيها ، وهو وعيد بالجحيم ووعد بالنعيم وبهذا انتهت السورة .

قال صاحب الظلال : (وهكذا تنتهي السورة التي بدأت بالحديث عن الوحي ، وكان الوحي محورها الرئيسي . وقد عالجت قصة الوحي منذ النبوات الأولى ؛ لتقرر وحدة الدين ، ووحدة المنهج ، ووحدة الطريق ؛ ولتعلن القيادة الجديدة للبشرية ممثلة في رسالة محمد ﷺ وفي العصبة المؤمنة بهذه الرسالة ؛ ولتكل إلى هذه العصبة أمانه القيادة إلى صراط مستقيم ، صراط الله الذي له ما في السموٰات وما في الأرض ؛ ولتبين

خصائص هذه العصبة وطابعها المميز ، الذي تصلح به للقيادة ، وتحمل به هذه الأمانة . الأمانة التي تنزلت من السماء إلى الأرض عن ذلك الطريق العجيب العظيم) ..

....

كلمة في السياق :

إن صلة المقطع بالآية التي قبله مباشرة واضحة ، فالآية التي قبله ذكرت أنواع الوحي ، وهذا المقطع تحدّث عن الوحي الذي أنزل على محمد ﷺ . وصلة المقطع بالمقاطع السابقة عليه واضحة كذلك ، لاحظ بدايات المقاطع الثلاثة :

﴿ **كذلك يوحي إليك وإلى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم** ﴾ .

﴿ **وكذلك أوحينا إليك قرآناً عربياً** ﴾ .

﴿ **وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ..** ﴾ .

وإذا كان المقطع الأول قد تحدّث عن ظاهرة الوحي . وإذا كان المقطع الثاني قد ذكر حكمة إنزال القرآن . فإن المقطع الثالث قد ذكر بعض خصائص هذا القرآن ، وهو أنه روح تحيا به القلوب والأرواح والأنفس والمجتمعات والبشرية كلها ، كما ذكر هذا المقطع دليلاً على كون هذا القرآن من عند الله ، بكون محمد ﷺ قبل نزول هذا القرآن عليه ما كان يدري ما الكتاب ولا الإيمان ، وبكون محمد ﷺ بعد هذا القرآن أصبح هادياً إلى صراط الله عزّ وجلّ وهو الإسلام ، وبكون هذا القرآن نفسه نوراً يهدي به الله من يشاء إلى الحق الخالص الكامل .

ونلاحظ أن المقطع الأول ذكر ملك الله للسموات والأرض ، وكذلك المقطع الثاني ، وكذلك المقطع الثالث ﴿ **صراط الله الذي له ما في السموات وما في الأرض** ﴾ وكأن السورة بهذا تنادي البشر المملوكين لله . أن هذا صراط ربكم ومالككم فاتبعوه . ولنر صلة المقطع الأخير بمحور السورة :

تذكّر أنه قد جاء في محور السورة قوله تعالى : ﴿ **الٓمٓ * ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين * الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ..** ﴾ وتذكّر أنّه قد جاء في المقطع الأخير قوله تعالى ﴿ **وكذلك أوحينا إليك روحاً** ﴾ وقوله تعالى : ﴿ **ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان** ﴾ ولذلك صلاته بمحور السورة ، كما جاء في المقطع قوله

تعالى : ﴿ **ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا** ﴾ولذلك صلاته بقوله تعالى من مقدمة سورة البقرة ﴿ **هدى للمتقين** ﴾ ﴿ **أولئك على هدى من ربهم** ﴾ .

فالصلة واضحة بين المقطع ومحور السورة في سورة البقرة . فهي تفصّل وتوضّح وتشرح ما استكنّ هناك ، وكل ذلك ضمن السياق الخاصّ بها ..

قلنا من قبل إن هناك تشابهاً بين سورة (طه) وسورة (الشورى) ، وكان ذلك من العلامات التي دلتنا على محور سورة الشورى ، وكتأكيد لهذا نقول : إن من مظاهر التشابه بين السورتين ما ختمت به كل من السورتين ، فسورة (طه) ختمت بقوله تعالى ﴿ **فستعلمون من أصحاب الصراط السوي ومن اهتدى** ﴾ وسورة (الشورى) ختمت بقوله تعالى : ﴿ **وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم * صراط الله الذي له ما في السمٰوات وما في الأرض ألا إلى الله تصير الأمور** ﴾ .

فائــدة :

قال تعالى في سورة الروم ﴿ **وقال الذين أوتوا العلم والإيمان** ﴾ ومن هنا نفهم أن المسلم الكامل هو الذي اجتمع له علم صحيح وإيمان صادق . وقال تعالى في سورة الشورى : ﴿ **ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان** ﴾ دلّ ذلك على أن معرفة الكتاب ، ومعرفة الإيمان ، فضل من الله . ومن الجمع بين الآيتين نعلم أن المسلم مطالب بمعرفة الكتاب ، وبمعرفة الإيمان ، ومطالب بالعلم الواسع ، وبالتحقق بالإيمان ، وعلى المربين والدعاة أن يلاحظوا ذلك فيعلموا الكتاب ، ويعلّموا العلوم التي تخدم فهم الكتاب ، ويعلّموا الإيمان ويحققوا به ، ففي ذلك صلاح النفس وفلاحها في الدنيا والآخرة .

كلمة أخيرة في سورة الشورى :

رأينا أنّ سورة الشورى تتألف من ثلاثة مقاطع متشابهة البدايات ، ولو قلنا إنّ السورة تألفت من مقدمة ومقطع وخاتمة متشابهة البدايات والمعاني لم يكن ذلك بعيداً .

فكل من المقدمة والمقطع والخاتمة تحدّث عن إنزال القرآن ، وتحدث عن ملك الله للسمٰوات والأرض ، وفي ذكر هذين المعنيين في المقاطع الثلاثة إشارة إلى ارتباط الوحي

بموضوع الملك ، فالمالك الحق يأمر وينهى ويوجّه ويبيّن ، فكيف إذا كانت مصلحة خلقه ومصلحة ملكه في ذلك ، والله عز وجل منزّه أن يكون له مصلحة أو غرض أو منفعة في خلقه أو في أمره .

ونلاحظ أن المقطع الأول في السورة بدىء بقوله تعالى : ﴿ **حمٓ عٓسٓقٓ * كذلك يوحي إليك** ﴾ وأن المقطعين الآخرين بدئا بقوله تعالى : ﴿ **وكذلك** ﴾ مما يشير إلى أن بدايتي المقطعين الآخرين معطوفتان على بداية المقطع الأول ، وذلك مظهر من مظاهر وحدة السورة .

وفي هذه الكلمة الأخيرة عن السورة نحبّ أن نذكّر ببعض معانيها :

١ - إن من حِكَم إنزال القرآن الكبرى الإنذار بيوم القيامة ﴿ **وتنذر يوم الجمع لاريب فيه** ﴾ ومن ثم فعلينا أن نلاحظ هذا المعنى في التعليم والوعظ والتربية ؛ لأن القرآن ذكره وكأنه الحكمة الوحيدة . أقول هذا لأن الإنذار باليوم الآخر يكاد يكون معدوماً في تعليم العلماء وخطب الخطباء ، على حساب مواضيع أخرى لا ننكر أهميتها ، ولكن يجب أن نعطي كل قضية حجمها .

٢ - إن إقامة الإسلام وعدم التفرق فيه هو القاسم المشترك بين رسالات الله عز وجل ، ومن ثم فهو أهم شيء في هذا الدين ، فإقامة الإسلام والتجمع عليه ينبغي أن يكون شغلنا الشاغل ، والتعاون على تحقيق معنى إسلامي واجب ﴿ **وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان** ﴾ .

٣ - إنّه لا حقّ ولا عدل ولا حياة إلا بهذا الإسلام . فالإسلام وكتابه القرآن هو الصيغة الوحيدة للحق وللعدل ، وبه وحده تكون حياة الإنسان الحقيقية .

٤ - إنّ الإيمان والكتاب هما اللذان عليهما مدار السير ، وحول ذلك وفي ذلك ينبغي أن تبذل الجهود .

٥ - الخصائص المذكورة في السورة للجماعة المسلمة يجب أن نعطيها صيغتها العملية في حياتنا ، لأنه لاجماعة للمسلمين بدونها ، ولاإقامة للإسلام بدونها . هذه معانٍ في السورة علينا أن ننتبه إليها انتباهاً كبيراً لتأثير ذلك على الفهم العام للمسلم ، وعلى سلوكه وعلى تصوراته .

ونظن أن التصور العام عن السورة في سياقها الخاص والعام ، وفي صلتها بمحورها وكيفية تفصيلها لهذا المحور كل ذلك أصبح واضحاً . فلننتقل إلى سورة الزخرف والله المستعان وعليه الاتكال .

☆ ☆ ☆

سورة الزخرف

وهي السورة الثالثة والأربعون بحسب الرسم القرآني
وهي السورة الثانية من المجموعة الرابعة من قسم المثاني
وآياتها تسع وثمانون آية
وهي مكية

وهي السورة الرابعة من آل (حمٓ)

* * *

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

الحَمْدُ لِلّٰهِ، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى رَسُولِ اللهِ وَآلِهِ وَأَصْحَابِهِ

رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا، إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ

قال الألوسي في سورة الزخرف : (مكية كما روي عن ابن عباس ، وحكى ابن عطية إجماع أهل العلم على ذلك ولم ينقل استثناء ، وقال مقاتل : إلا قوله تعالى : ﴿ **واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا** ﴾ فإنها نزلت ببيت المقدس ، كذا في مجمع البيان ، وفي الإتقان : نزلت بالسماء ، وقيل : بالمدينة . وعدد آيها ثمانون في الشامي وتسع وثمانون في غيره ، ووجه مناسبة مفتتحها لمختتم ماقبلها ظاهر) .

وقال صاحب الظلال : (تعرض هذه السورة جانباً مما كانت الدعوة الإسلامية تلاقيه من مصاعب وعقبات ، ومن جدال واعتراضات . وتعرض معها كيف كان القرآن الكريم يعالجها في النفوس ، وكيف تقرر ــ في ثنايا علاجها ــ حقائقه وقيمه في مكان الخرافات والوثنيات والقيم الجاهلية الزائفة ، التي كانت قائمة في النفوس إذ ذاك ، ولايزال جانب منها قائماً في النفوس في كل زمان ومكان) .

كلمة في سورة الزخرف ومحورها :

قلنا عن سورة يوسف إن محورها هو قوله تعالى : ﴿ **وإن كنتم في ريب مما نزّلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين * فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين** ﴾ .

وقد رأينا أن سورة يوسف بدأت بقوله تعالى : ﴿ **آلر * تلك آيات الكتاب المبين * إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون * نحن نقصّ عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين .... لقد كان في يوسف وإخوته آيات ..** ﴾ .

وختمت بقوله تعالى : ﴿ **لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب * ما كان حديثاً يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقومٍ يؤمنون** ﴾ .

ومن البداية والنهاية في سورة يوسف تشعر أن التفصيل انصب على معانٍ بوجودها ينتفي الريب عن هذا القرآن ، ويظهر عجز البشر عن الإتيان بسورة من مثل هذا القرآن ، ومن ثم فالتفصيل للمحور كان لمعنى من معانيه ، أو لإثبات معنى مرتبط به ــ وهو تبيان خصائص مانزّل الله على عبده ــ بحيث ينتفي الريب ، ويثبت الإعجاز بشكل محس لذي العقل واللب .

لاحظ الصلة بين قوله وتعالى في محور سورة يوسف من سورة البقرة : ﴿ **وإن كنتم في ريب مما نزّلنا على عبدنا** ﴾ وبين ماذكره الله عز وجل في سورة يوسف : ﴿ **تلك آيات الكتاب المبين * إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون** ﴾ ..تجد أن التفصيل مركّز على معنى مستكن في المحور .

لاحظ الآن الصلة بين قوله تعالى : ﴿ **وإن كنتم في ريب مما نزّلنا على عبدنا ..** ﴾ وبين بداية سورة الزخرف ﴿ **حمٓ * والكتاب المبين * إنا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون * وإنه في أم الكتاب لدينا لعليٌّ حكيم** ﴾ فإنّك تلاحظ منذ الابتداء أن السورة تتحدث عن خصائص هذا القرآن المنزل على محمدٍ ﷺ بما ينفي الريب والشك ، كما تجد تشابهاً كاملاً بين بداية سورة الزخرف وبداية سورة يوسف بما يؤكد وحدة المحور .

....

تتألف سورة الزخرف من مقدمة هي ثلاث آيات :

﴿ **حمٓ * والكتاب المبين * إنا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون ..** ﴾ . ثم تأتي ثلاثة مقاطع كل مقطع مبدوء بقوله تعالى ﴿ **وإنه ..** ﴾ ، الأول : ﴿ **وإنه** ﴾ أي القرآن ﴿ **في أمّ الكتاب لدينا لعليٌّ حكيم** ﴾ والثاني : ﴿ **وإنه** ﴾ أي القرآن ﴿ **لذكر لك ولقومك وسوف تسألون ..** ﴾ الثالث ﴿ **وإنه** ﴾ أي القرآن ـــ على رأي الحسن البصري وسعيد بن جبير ـــ ﴿ **لعلم للساعة فلا تمترنَّ بها واتبعون هذا صراط مستقيم..** ﴾ .

إنك تجد من بدايات المقاطع هذه أنّ الكلام منصب على خصائص هذا القرآن ، وتجد فيها دعوة إلى الإيمان به ، والتسليم له ، والعمل به ، فضلاً عن نفي الريب عنه ، فالسورة تخدم ماخدمته سورة يوسف .

....

إن موضوع المحور لايستدعي تفصيلاً كبيراً . وإنما يستدعي تأكيداً لمضمونه ، وتدليلاً على كمال هذا القرآن وإعجازه ، وتبياناً لخصائصه وظواهره . وهذا الذي نجده في سورتي يوسف والزخرف .

وإذا كانت سورة الزخرف في سياقها العام تؤدي هذه الخدمة فإن لها سياقها الخاص الذي يؤدي خدمة أخرى . فكل آية وكل مجموعة تؤدي دورها على طريق الهداية .

وكل ذلك تجده في السورة على كماله وتمامه . وسنرى أثناء عرض السورة صلتها بمحورها ووحدة مضمونها .

....

مقدمة السورة ومقطعها الأول

ويمتدان من الآية (١) إلى نهاية (٤٣) وهذان هما :

المقدمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾

بداية المقطع

وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن
كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ﴿٥﴾ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِىٍّ فِى ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِىٍّ
إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٧﴾ فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾

المجموعة الأولى

وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٩﴾
ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾

قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ ۖ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ
كَٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ
إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ
﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ
وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُوا۟ هَٰذَا
سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ
عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ
ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ
رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن
يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ
أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ
ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ
شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ
﴿٣٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴿٣٨﴾
وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ

ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾
فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾
أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَـٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ
إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾

التفسـير :

﴿ **حمٓ** * **والكتاب المبين** ﴾ أي : البين الواضح الجلي المعاني والألفاظ ، لأنه نزل بلغة العرب التي هي أفصح اللغات ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ **إنا جعلناه** ﴾ أي : أنزلناه ﴿ **قرآناً عربياً** ﴾ أي : بلغة العرب فصيحاً بليغاً واضحاً ﴿ **لعلكم تعقلون** ﴾ أي : تفهمونه وتتدبرونه وتعملون به ، فالعقل الشرعي : فهم صحيح لكتاب الله ، وضبط للنفس عليه .

هذه هي مقدمة السورة وفيها قَسَمٌ ومقْسَم عليه . القسم بالكتاب ، والجواب في شأن الكتاب . والتناسب واضح بين القَسَم والمقْسَم عليه كالتناسب بين البيان والفصاحة والعقل . قال النسفي : (والمبين البيّن للذين أنزل عليهم ، لأنه بلغتهم وأساليبهم ، أو الواضح للمتدبرين ، أو الذي أبان طرق الهدى من طرق الضلالة ، وأبان كل ما تحتاج إليه الأمّة في أبواب الديانة) .

....

قال الألوسي : (واستدل المعتزلة بالآية الأخيرة على أن القرآن مخلوق ، وأطالوا الكلام في ذلك ، وأجيب بأنه إن دل على المخلوقية فلا يدل على أكثر من مخلوقية الكلام اللفظي ولا نزاع فيها ، وأنت تعلم أن الحنابلة ينازعون في ذلك ولهم عن الاستدلال أجوبة مذكورة في كتبهم) .

كلمة في السـياق :

أقسم الله عز وجل بالقرآن على أنه هو الذي جعله قرآناً عربياً من أجل أن يعقل الناس ، وصلة ذلك بمحور السورة وهو ﴿ **وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا** ﴾ واضحة ، فالله يقسم بالكتاب على أنه هو جاعل الكتاب على ماهو عليه من أجل أن يعقل الإنسان ، فلامحلّ للريب . وبعد أن وصفه بهذه المقدمة بالإبانة والفصاحة والتسديد للعقل ، يأتي المقطع الأول مبدوءاً بالحديث عن القرآن . ﴿ **وإنه في أمّ الكتاب لدينا لعليٌّ حكيم** ﴾ .

فالمقطع إذن استمرار للمقدمة فلنره : ﴿ **وإنه** ﴾ أي : القرآن ﴿ **في أمّ الكتاب** ﴾ أي: في اللوح المحفوظ ﴿ **لدينا** ﴾ أي: عندنا ﴿ **لعليٌّ** ﴾ أي: ذو مكانة عظيمة وشرف وفضل . قال النسفي : أي في أعلى طبقات البلاغة ، أو رفيع الشأن في الكتب لكونه معجزاً من بينها ﴿ **حكيم** ﴾ أي : ذو حكمة بالغة . قال ابن كثير : أي محكم بريء من اللبس والزيغ ، وهذا كله تنبيه على شرفه وفضله . أقول : وصف القرآن بالحكمة أوسع مدى بكثير من أيّ تعبير ، فكما أنّ الحكمة في هذا الكون لا يستطيع البشر الإحاطة بها ، فإن هذا القرآن لايستطيع البشر أن يحيطوا بكنه حكمته المتعددة الجوانب والظواهر والمظاهر ، وإنما يدركون بعضها .

قال صاحب الظلال : (فهذا القرآن «عليّ» .. «حكيم» .. وهما صفتان تخلعان عليه ظل الحياة العاقلة ، وإنه لكذلك ! وكأنما فيه روح ، روح ذات سمات وخصائص ، تتجاوب مع الأرواح التي تلامسها . وهو في علوة وفي حكمته يشرف على البشرية ويهديها ويقودها وفق طبيعته وخصائصه . وينشيء في مداركها وفي حياتها تلك القيم والتصورات والحقائق التي تنطبق عليها هاتان الصفتان : عليٌّ حكيم) .

....

كلمة في السياق :

وصفت بداية السورة القرآن بالإبانة والفصاحة والعلو والحكمة ، وفي ذلك كله تدليل على أن هذا القرآن من عند الله . فإذا أضيف لذلك أن هذا القرآن هو وحده الذي به يعقل الإنسان وبدونه لا يعقل ، فذلك دليل على أن ذاتاً عليا فوق الذوات كلها في العلم والإحاطة والحكمة هي التي أنزلته ، وكل ذلك مما ينفي الريب عنه ، ولذلك

كلمة في السياق :

دلّت هذه الآيات الأربع على أنّ كفّار هذه الأمّة قابلوا هذا القرآن بالاستهزاء ، وعلى أنّهم كانوا مسرفين في مواقفهم وأعمالهم ، وأنهم يستحقون عذاب الاستئصال ، إذ يكفرون بهذا القرآن الذي جعل الله فيه من الخصائص ما لا يحيط به البشر ، فهو العلي في كل شيء ، وهو الحكيم في كل شيء ، وهو المبين الفصيح ، ومع ذلك أعرضوا . ولما كان سبب هذا الموقف من القرآن ومن الوحي ومن الرسول ﷺ عقائدهم الفاسدة التي هي أصل الفساد ، والتي جاء القرآن مصحّحاً لها ، فإنّ السورة تبدأ مناقشتهم في هذه العقائد ، وتقيم الحجة عليهم ، وهو درس كبير في التربية والدعوة أن تكتشف العلّة الحقيقية للمواقف الخاطئة وتهدّمها وتحطّمها لتعالج المواقف المتفرعة عنها .

ونلاحظ فيما يأتي أن المقطع يناقش مجموعة قضايا ، ومن خلال هذه المناقشة نرى كل خصائص القرآن المذكورة في بداية السورة : بيان القرآن ، وفصاحته ، وعلوّه ، وحكمته . وسنعرض مابقي من المقطع على مجموعات .

....

تفسير المجموعة الأولى من المقطع الأول

﴿ **ولئن سألتهم** ﴾ أي: ولئن سألت – يامحمد – هؤلاء المسرفين المستهزئين المشركين الكافرين بهذا القرآن الشاكين فيه ﴿ **من خلق السمٰوات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم** ﴾ أي: ليعترفنّ بأنّ الخالق لذلك هو الله وحده لا شريك له ، وهم مع هذا يعبدون معه غيره من الأصنام والأنداد . وموقف هؤلاء المشركين أقلّ سوءاً من ملاحدة عصرنا الذين ينكرون وجود الخالق أصلاً ،مع أن ذلك يتنافى مع كل الحقائق العقلية والعلمية ، كما دلّلنا على ذلك بتوسع في كتابنا (الله جل جلاله) ، وبعد أن ذكر الله عز وجل جوابهم اعتمد هذا الجواب ثم ذكرهم بفعله بهم الذي يقتضي منهم شكراً . وهم لا يفعلون إلا كفراً قال تعالى : ﴿ **الذي جعل لكم الأرض مهداً** ﴾ أي: فراشاً صالحاً للحياة عليه ، والاطمئنان فيه ﴿ **وجعل لكم فيها سُبلاً** ﴾ أي: طرقاً ﴿ **لعلكم تهتدون** ﴾ أي: لكي تهتدوا في أسفاركم . قال ابن كثير : أي في سيركم من بلد إلى بلد ، وقطر إلى قطر وإقليم إلى إقليم ﴿ **والذي نزل من السماء ماءً بقدر** ﴾ قال ابن كثير : أي: بحسب الكفاية لزروعكم وثماركم وشربكم لأنفسكم ولأنعامكم . قال النسفي :

أي بمقدار يسلم معه العباد وتحتاج إليه البلاد ﴿ **فأنشرنا** ﴾ أي : فأحيينا ﴿ **به بلدة ميتاً** ﴾ أي : أرضاً ميتة لا نبات فيها . ثمّ نبّه تعالى بإحياء الأرض على إحياء الأجساد يوم المعاد بعد موتها فقال ﴿ **كذلك تخرجون** ﴾ وبهذا قامت الحجة عليهم في شأن التوحيد ، وفي شأن اليوم الآخر . ثم قال تعالى : ﴿ **والذي خلق الأزواج كلها** ﴾ قال ابن كثير : أي مما تنبت الأرض من سائر الأصناف من نبات وزروع وثمار وأزاهير وغير ذلك ومن الحيوانات على اختلاف أجناسها . أقول : وكذلك في عالم الذرة وغيره مما يكتشفه الإنسان شيئاً فشيئاً : ﴿ **وجعل لكم من الفلك** ﴾ أي : السفن ﴿ **والأنعام ما تركبون** ﴾ أي : ما تركبونه ، قال ابن كثير عن الأنعام : أي ذللها لكم وسخّرها ويسّرها ؛ لأكلكم لحومها ، وشربكم ألبانها ، وركوبكم ظهورها ؛ ولهذا قال عزّ وجلّ ﴿ **لتستووا على ظهوره** ﴾ قال ابن كثير : لتستووا متمكنّين مرتفعين على ظهوره أي : على ظهور هذا الجنس . قال النسفي : أي على ظهور ما تركبونه وهو الفلك والأنعام ﴿ **ثم تذكروا** ﴾ بقلوبكم ﴿ **نعْمة ربكم** ﴾ أي : فيما سخّر لكم ﴿ **إذا استويتم عليه وتقولوا** ﴾ بألسنتكم ﴿ **سبحان الذي سخر لنا هذا** ﴾ أي : ذلّل لنا هذا المركوب ﴿ **وما كنا له مقرنين** ﴾ أي : مطيقين ﴿ **وإنا إلى ربنا لمنقلبون** ﴾ أي : لراجعون في المعاد قال ابن كثير : (أي لصائرون إليه بعد مماتنا وإليه سيرنا الأكبر ، وهذا من باب التنبيه بسير الدنيا على سير الآخرة ، كما نبّه بالزاد الدنيوي على الزاد الأخروي .. وباللباس الدنيوي على الأخروي) .

....

نقــل :

قال صاحب الظلال عند قوله تعالى : ﴿ **الذي جعل لكم الأرض مهداً** ﴾ (وحقيقة جعل هذه الأرض مهداً للإنسان يدركها كل عقل في كل جيل بصورة من الصور . والذين تلقوا هذا القرآن أول مرة ربما أدركوها في رؤية هذه الأرض تحت أقدامهم ممهدة للسير ، وأمامهم ممهدة للزرع ، وفي عمومها ممهدة للحياة فيها والنماء . ونحن اليوم ندرك هذه الحقيقة في مساحة أعرض وفي صورة أعمق ، بقدر ما وصل إليه علمنا عن طبيعة هذه الأرض وتاريخها البعيد والقريب – لو صحت نظرياتنا في هذا وتقديراتنا – والذين يأتون بعدنا سيدركون من تلك الحقيقة مالم ندرك نحن ، وسيظل مدلول هذا النص يتسع ويعمق ، ويتكشّف عن آفاق وآماد كلما اتسعت المعرفة وتقدم العلم ، وانكشفت المجاهيل لهذا الإنسان .

ونحن اليوم ندرك من حقيقة جعل الأرض مهداً لهذا الجنس ــ يجد فيها سبله للحياة ــ أن هذا الكوكب مر في أطوار بعد أطوار ، حتى صار مهداً لبني الإنسان . وفي خلال هذه الأطوار تغير سطحه من صخر يابس صلد إلى تربة صالحة للزرع ، وتكوّن على سطحه الماء من اتحاد الأيدروجين والأكسوجين ، واتأد في دورانه حول نفسه فصار يومه بحيث يسمح باعتدال حرارته وصلاحيتها للحياة ، وصارت سرعته بحيث يسمح باستقرار الأشياء والأحياء على سطحه ، وعدم تناثرها وتطايرها في الفضاء .

ونعرف من هذه الحقيقة كذلك أن الله أودع هذا الكوكب من الخصائص خاصية الجاذبية ، فاحتفظ عن طريقها بطبقة من الهواء تسمح بالحياة ، ولو أفلت الهواء المحيط بهذا الكوكب من جاذبيته ماأمكن أن تقوم الحياة على سطحه ، كما لم تقم على سطح الكواكب الأخرى التي تضاءلت جاذبيتها ، فأفلت هواؤها كالقمر مثلاً . وهذه الجاذبية ذاتها قد جعلها الخالق متعادلة مع عوامل الدفع الناشيء من حركة الأرض ، فأمكن أن تحفظ الأشياء والأحياء من التطاير والتناثر ، وفي الوقت ذاته تسمح بحركة الإنسان والأحياء على سطح الأرض ، ولو زادت الجاذبية عن القدر المناسب للصقت الأشياء والأحياء بالأرض وتعذرت حركتها ، أو تعسرت من ناحية ، ولزاد ضغط الهواء عليها من ناحية أخرى فألصقها بالأرض إلصاقاً ، أو سحقها كما نسحق نحن الذباب والبعوض أحياناً بضربة تركز الضغط عليها دون أن تمسها أيدينا ، ولو خف هذا الضغط عما هو عليه لانفجر الصدر والشرايين انفجاراً .

ونعرف كذلك من حقيقة جعل الأرض مهداً وتذليل السبل فيها للحياة ، أن الخالق العزيز العليم قدّر فيها موافقات شتى تسمح مجتمعة بوجود هذا الإنسان وتيسير الحياة له ، ولو اختلت إحدى هذه الموافقات لتعذّرت هذه الحياة أو تعسّرت ، فمنها هذه الموافقات التي ذكرنا ، ومنها أنّه جعل كتلة الماء الضخمة التي تكونت على سطح الأرض من المحيطات والبحار كافية لامتصاص الغازات السامّة التي تنشأ من التفاعلات الكثيرة التي تتمّ على سطحها ، والاحتفاظ بجوها دائماً في حالة تسمح للأحياء بالحياة ، ومنها أنّه جعل من النبات أداة للموازنة بين الأكسجين الذي يستنشقه الأحياء ليعيشوا به ، والأكسجين الذي يزفره النبات في أثناء عمليات التمثيل التي يقوم بها ؛ ولولا هذه الموازنة لاختنق الأحياء بعد فترة من الزمان) أ هـ .

....

تفسير المجموعة الثانية من المقطع الأول

بما مرّ أقام الله عز وجل الحجّة على وجوب شكره . وبعد أن أقام الحجة على ذلك تأتي الآن فقرتان تحدثاننا عما قابلوا به هذا من الكفر ﴿ **وجعلوا له من عباده جزءاً** ﴾ قال النسفي : أي قالوا : الملائكة بنات الله فجعلوهم جزءاً له وبعضاً منه كما يكون الولد جزءاً لوالده . أقول : وهذه الآية تردّ كل مذهب يقول بجزئية المخلوقات للخالق . كأن يقول قائل : إن هذا الكون هو جزء الذات الإلهية ، أو إن الذات الإلهية تكثفت فكان هذا الكون ؛ لأن هذا كله يفيد الجزئية ، وهي كفر بنص هذه الآية . وهو موضوع سنتعرض له في الفوائد . ﴿ **إنّ الإنسان لكفور مبين** ﴾ قال النسفي : أي لجحود للنعمة ظاهر جحوده لأن نسبة الولد إليه كفر ، والكفر أصل الكفران كله . ﴿ **أم اتّخذ مما يخلق بنات وأصفاكم بالبنين** ﴾ قال النسفي : أي بل اتخذ ، والهمزة للإنكار تجهيلاً لهم وتعجيباً من شأنهم ، حيث ادعوا أنه اختار لنفسه المنزلة الأدنى ولهم الأعلى . قال ابن كثير : (وهذا إنكار عليهم غاية الإنكار) ثم ذكر تمام الإنكار فقال جلّت عظمته ﴿ **وإذا بشّر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلاً** ﴾ أي شبهاً قال النسفي : لأنه إذا جعل الملائكة جزءاً له وبعضاً منه فقد جعله منه جنسه ومماثلاً له ؛ لأن الولد لايكون إلا من جنس الوالد ﴿ **ظل وجهه مسوداً وهو كظيم** ﴾ يعني أنهم نسبوا إليه هذا الجنس ، ومن حالهم أنّ أحدهم إذا قيل له : قد ولدت لك بنت اغتم واربدّ وجهه غيظاً وتأسفاً وهو مملوء من الكرب . قال ابن كثير : أي إذا بشر أحد هؤلاء بما جعلوه لله من البنات يأنف من ذلك غاية الأنفة ، وتعلوه كآبة من سوء مابشّر به ، ويتوارى من القوم من خجله من ذلك . يقول تبارك وتعالى . فكيف تأنفون أنتم من ذلك وتنسبونه إلى الله عز وجل ؟ ثم قال سبحانه ﴿ **أو من يُنَشَّأ في الحلية** ﴾ أي : يتربّى في الزينة والنّعمة ﴿ **وهو في الخصام غير مبين** ﴾ أي : ليس عنده قوة إقامة الحجة كالرجل . فتحصّل من السياق أنهم قد جمعوا في كفرهم أنواعاً من الكفر ، وذلك أنّهم نسبوا إلى الله الولد ، ونسبوا إليه مايعترونه أقلّ النوعين الذكر والأنثى ، فأقاموه في أنفسهم المقام الأدنى ، وارتضوا له مالا يرتضون لأنفسهم ، وجعلوهم من الملائكة المكرمين ، فاستخفوا بهم إذ جعلوهم إناثاً . قال تعالى : ﴿ **وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً** ﴾ والملائكة مخلوقات نورانية لايوصفون بذكورة وأنوثة وخنوثة ، ثمّ هم عباد لله ، وكيف تجتمع العبودية لله ، مع الولاد ؟ قال تعالى منكراً عليهم وراداً ﴿ **أشهدوا**

خلقهم ﴾ قال النسفي : يعني أنّهم يقولون ذلك من غير أن يستند قولهم إلى علم ، فإنّ الله لم يضطرهم إلى علم ذلك ، ولا تطرقوا إليه باستدلال ، ولا أحاطوا به من خبر يوجب العلم ، ولم يشاهدوا خلقهم حتى يخبروا عن المشاهدة ﴿ **ستكتب شهادتهم** ﴾ التي شهدوا بها على أنوثة الملائكة وبنوّتهم ﴿ **ويُسألون** ﴾ عنها يوم القيامة قال ابن كثير : وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد ﴿ **وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم** ﴾ أي لو شاء الله منا أن نترك عبادة الملائكة لحال بيننا وبين ذلك ، قال ابن كثير : أي لو أراد الله لحال بيننا وبين عبادة هذه الأصنام التي هي على صور الملائكة التي هي بنات الله . ﴿ **ماهم بذلك من علم ..** ﴾ أي : بصحة ماقالوه واحتجوا به ﴿ **إن هم إلا يخرصون** ﴾ أي يكذبون ويتقوّلون . وفي الفوائد كلام حول عبادة الملائكة في عصرنا .

ملاحظات حول السياق :

١ ـ رأينا أن المجموعة الأولى من المقطع بدأت بقوله تعالى . ﴿ **ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض** ﴾ وأن المجموعة الثانية بدأت بقوله تعالى : ﴿ **وجعلوا له من عباده جزءاً ..** ﴾ وقد ذكر النسفي الصلة بين المجموعتين فقال : (أي ولئن سألتهم عن خالق السموات والأرض ليعترفنّ ، وقد جعلوا له مع ذلك الاعتراف من عباده جزءاً) .

٢ ـ نلاحظ أنّه قد مرّ معنا ردّ على دعوى الكافرين أن الملائكة بنات الله في قوله تعالى : ﴿ **أشهدوا خلقهم** ﴾ ، ثمّ تأتي بقية الردّ فهذه آية تقول : ﴿ **أم آتيناهم كتاباً من قبله فهم به مستمسكون** ﴾ فهل الحرف (أم) هنا آت كمعادل للهمزة هناك ؟ هذا أحد الاتجاهين يذكرهما النسفي في الآية ، وأيّاً ما كان الأمر فالآية تأتي استكمالاً للردّ عليهم ، وخلاصة الردّ : أنّ ادّعاءهم هذا لايقوم عليه دليل ، لا من المشاهدة الحسية ، ولا من الوحي السابق ثم يسير السياق في تبيان سبب ضلالتهم .

....

﴿ **أم آتيناهم كتاباً من قبله** ﴾ أي : من قبل القرآن أو من قبل قولهم هذا ، أي : من قبل شركهم ﴿ **فهم به مستمسكون** ﴾ أي : آخذون عاملون ، وإذ لم يكن الأمر كذلك فليس لهم في عبادتهم غير الله عز وجل برهان ولا دليل ولا حجة ﴿ **بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمّة** ﴾ أي : على دين ، فالأمة هنا من الأمّ وهو القصد . قال

النسفي : فالأمّة الطريقة التي تُؤَم أي تقصد ﴿ **وإنا على آثارهم** ﴾ أي: آثار الآباء ، أي وراءهم ﴿ **مهتدون** ﴾ وكذبوا فلا هداية لهم . وإنما هي دعوى منهم بلا دليل ، والآية تفيد أنّه ليس لهم مستند فيما هم فيه من الشرك سوىٰ تقليد الآباء والأجداد . قال النسفي في الآية : (أي بل لا حجة لهم يتمسكون بها لا من حيث العيان ولا من حيث العقل ، ولا من حيث السمع إلا قولهم : إنا وجدنا آباءنا على أمة .. فقلّدناهم) قال تعالى ﴿ **وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير** ﴾ أي: نبيّ ﴿ **إلا قال مترفوها** ﴾ قال النسفي : أي متنعموها وهم الذين أترفتهم النعمة أي أبطرتهم فلا يحبون إلا الشهوات والملاهي ويعافون مشاقّ الدين وتكاليفه ﴿ **إنا وجدنا آباءنا على أمّة وإنا على آثارهم مقتدون** ﴾ قال النسفي : وهذا تسلية للنبي ﷺ وبيان أن تقليد الآباء داء قديم ﴿**قال**﴾ أي: وأنت قل ﴿ **أو لو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم** ﴾ أي: أتتبعون آباءكم ولو جئتكم بدين أهدى من دين آبائكم ﴿ **قالوا إنّا بما أرسلتم به كافرون** ﴾ وإن جئتنا بما هو أهدى . قال ابن كثير : أي ولو علموا وتيقنوا صحة ماجئتهم به لما انقادوا لذلك ؛ لسوء قصدهم ومكابرتهم للحق وأهله . قال تعالى : ﴿ **فانتقمنا منهم** ﴾ أي: فعاقبناهم بما استحقوه على إصرارهم بأنواع من العذاب ، كما فصّله تبارك وتعالى في قصصهم ﴿ **فانظر كيف كان عاقبة المكذبين** ﴾ قال ابن كثير : أي كيف بادوا وهلكوا ، وكيف نَجَّى الله المؤمنين .

وبعد أن ذكر الله عز وجل أنّ علّة هؤلاء هو تقليد الآباء بغير حجة ولا دليل ولا برهان يذكر لنا – فيما يأتي – نموذجاً لموقف الإنسان الكامل المتحرر من التقليد الباطل للآباء ، وذلك في شخصية إبراهيم عليه السلام ﴿ **وإذ** ﴾ واذكر إذ ﴿ **قال إبراهيم لأبيه وقومه إنني براء** ﴾ أي : بريء ﴿ **ممّا تعبدون إلا الذي فطرني** ﴾ فإنني أعبده وحده ﴿ **فإنّه سيهدين** ﴾ أي: يثبتني على الهداية ﴿ **وجعلها** ﴾ أي: وجعل إبراهيم عليه السلام كلمة التوحيد ﴿ **كلمة باقية في عقبه** ﴾ أي: في ذريته فلايزال فيهم من يوحّد الله ويدعو إلى توحيده ﴿ **لعلهم يرجعون** ﴾ قال النسفي : أي لعلّ من أشرك منهم يرجع بدعاء من وحّد منهم ، والترجّي لإبراهيم .

....

قال صاحب الظلال :

ولقد كان لإبراهيم – عليه السلام – أكبر قسط في إقرار هذه الكلمة في الأرض ، وإبلاغها إلى الأجيال من بعده ، عن طريق ذريته وعقبه . ولقد قام بها من بنيه رسل ، كان منهم ثلاثة من أولي العزم : موسى وعيسى ومحمد خاتم الرسل – عليهم صلوات الله وسلامه – واليوم بعد عشرات القرون يقوم في الأرض أكثر من ألف مليون ، من أتباع الديانات الكبرى يدينون بكلمة التوحيد لأبيهم إبراهيم ، الذي جعل هذه الكلمة باقية في عقبه ، يضل منهم عنها من يضل ، ولكنها هي باقية لا تضيع ، ثابتة لا تتزعزع ، واضحة لا يتلبس بها الباطل ﴿ **لعلهم يرجعون** ﴾ يرجعون إلى الذي فطرهم فيعرفوه ويعبدوه ، ويرجعون إلى الحق الواحد فيدركوه ويلزموه .

ولقد عرفت البشرية كلمة التوحيد قبل إبراهيم ، ولكن هذه الكلمة لم تستقر في الأرض إلا من بعد إبراهيم . عرفتها على لسان نوح وهود وصالح وإدريس ، وغيره من الرسل الذين لم يتصل لهم عقب يقوم على هذه الكلمة ، ويعيش بها ولها . فلما عرفتها على لسان إبراهيم عليه السلام ظلت متصلة في أعقابه ، وقام عليها من بعده رسل متصلون لا ينقطعون ، حتى كان ابنه الأخير من نسل إسماعيل ، وأشبه أبنائه به : محمد ﷺ خاتم الرسل ، وقائل كلمة التوحيد في صورتها الأخيرة الكاملة الشاملة ، التي تجعل الحياة كلها تدور حول هذه الكلمة ، وتجعل لها أثراً في كل نشاط للإنسان وكل تصور .

فهذه هي قصة التوحيد منذ أبيهم إبراهيم الذي ينتسبون إليه ، وهذه هي كلمة التوحيد التي جعلها إبراهيم باقية في عقبه . هذه هي تأتي إلى هذا الجيل على لسان واحد من عقب إبراهيم . فكيف يستقبلها من ينتسبون إلى إبراهيم ، وملة إبراهيم .

لقد بعد بهم العهد ، ومتعهم الله جيلاً بعد جيل ، حتى طال عليهم العمر ، ونسوا ملة إبراهيم عليه السلام ، وأصبحت كلمة التوحيد فيهم غريبة منكرة ، واستقبلوا صاحبها أسوأ استقبال وقاسوا الرسالة السماوية بالمقاييس الأرضية ، فاختل في أيديهم كل ميزان :

﴿ **بل متعت هؤلاء وآباءهم حتى جاءهم الحق ورسول مبين * ولما جاءهم الحق قالوا : هذا سحر وإنا به كافرون * وقالوا : لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم** ﴾ (الزخرف : ٢٩ – ٣١) .

وبعد أن ذكر الله عز وجل النّموذج الكامل للموقف الحقّ من ضلال الآباء يعود السياق ليحدّثنا عن موقف المشركين من دعوة رسول الله ﷺ وعن أسباب اغترارهم . ﴿ **بل متّعت هؤلاء وآباءهم** ﴾ يعني أهل مكة ، وهم المخاطبون الأوائل بهذا القرآن ، وهم من عقب إبراهيم عليه السلام . أي : متّعهم الله بالمدّ في العمر والنّعمة ، فاغتروا بالمهلة وشغلوا بالتنعّم واتّباع الشهوات وطاعة الشيطان عن كلمة التوحيد ﴿ **حتى جاءهم الحق** ﴾ أي : القرآن ﴿ **ورسول مبين** ﴾ أي: واضح الرسالة بما معه من الآيات وهو محمد ﷺ الذي هو من نسل إبراهيم عليه السلام ، فلا عجب أن يحمل راية التوحيد ويدعو إليها بأمر الله ووحيه ، ولكنّهم بدلاً من أن يرجعوا إلى الحقّ كان موقفهم ﴿ **ولمّا جاءهم الحق** ﴾ أي: القرآن ﴿ **قالوا هذا سحر وإنا به كافرون** ﴾ قال ابن كثير : أي كابروه وعاندوه ودفعوه بالصدور والراح كفراً وحسداً وبغياً .

....

كلمة في السياق :

وهكذا استقر السياق على موقفهم من القرآن ﴿**قالوا هذا سحر وإنا به كافرون**﴾ . فلنلق نظرة على ما مر معنا من السورة وعلى صلة ذلك بالمحور .

بدأت السورة بقوله تعالى : ﴿ **حمٓ * والكتاب المبين * إنا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون * وإنه في أم الكتاب لدينا لعلي حكيم** ﴾ وهكذا بينت هذه الآيات بعض خصائص القرآن ، ثمّ جاء بعد ذلك ما يفهم منه ضمناً موقفهم من القرآن : ﴿ **أفنضرب عنكم الذكر صفحاً أن كنتم قوماً مسرفين * وكم أرسلنا من نبي في الأولين * وما يأتيهم من نبي إلا كانوا به يستهزؤون * فأهلكنا أشدّ منهم بطشاً ومضى مثل الأولين** ﴾ فعرفنا ضمناً أنّهم استهزؤوا بدعوة رسول الله ﷺ . وسار السياق حتى وصل إلى قوله تعالى : ﴿ **ولما جاءهم الحق قالوا هذا سحر وإنا به كافرون** ﴾ فعرفنا صراحة أنهم كفروا بهذا القرآن ، ثمّ يأتي بعد ذلك أنهم يعترضون على الله في إنزاله القرآن على محمد ﷺ ويرون أن غيره أحق بذلك منه – وهو موضوع سيأتي – .

وفي وسط الآيات التي مرّت ناقش الله عز وجل ما هم عليه من اعتقاد وعبادة ، وأقام عليهم الحجة وذكر علّة موقفهم وهي التقليد . ثم ذكر قصة إبراهيم عليه السلام في هذا السياق كنموذج على التحرر من التقليد الباطل ، فأتمّ بذلك معالجة الاعتقاد الضال

الذي هو أصل البلاء . وفي ذلك كله نرى كيف أن القرآن في غاية البيان والوضوح ، وفي غاية الفصاحة والبلاغة . وفي غاية العلو في إقامة الحجة ، وفي غاية الحكمة في معالجة الباطل وتقرير الحق . فالسورة نموذج كامل على اتصاف القرآن بالخصائص التي ذكرتها بداية السورة . ومن ثم يتقرّر أنّ هذا القرآن لا ريب فيه ، وأنّه من عند الله ، ومن ثم ندرك الصلة بين السورة ومحورها من سورة البقرة وهو : ﴿ **وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا** .. ﴾ : فالقرآن منزل من عند الله لاشك في ذلك ، والحجة قائمة ، ومع ذلك يكفرون ، وبدلاً من أن يؤمنوا بالله والرسول والقرآن فإنهم يعترضون على الله في إنزاله القرآن ، وهو المعنى الأول الذي ورد قوله تعالى : ﴿ **وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم** ﴾ . فلنر تتمة المقطع .

....

﴿ **وقالوا** ﴾ معترضين على الله الذي أنزل القرآن على محمد ﷺ ﴿ **لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين** ﴾ مكة والطائف ﴿ **عظيم** ﴾ أرادوا بالعظيم من كان ذا مال وجاه ، ولم يعرفوا أن العظيم من كان عند الله عظيماً ، قال ابن كثير : أي هلا كان إنزال هذا القرآن على رجل عظيم كبير في أعينهم من القريتين ؟ يعنون مكة والطائف) وبعد أن ذكر ابن كثير أسماء مرشحيهم لهذا المنصب - في زعمهم كما سنذكرها في الفوائد - قال : والظاهر أن مرادهم رجل كبير من أي البلدتين كان . قال الله تعالى وتبارك رداً عليهم ﴿ **أهم يقسمون رحمة ربك** ﴾أي : النبوة ، والاستفهام للإنكار المتلبس بالتجهيل والتعجيب من تحكمهم في اختيار من يصلح للنبوة . قال ابن كثير : أي ليس الأمر مردوداً إليهم بل إلى الله عز وجل ، والله أعلم حيث يجعل رسالاته . فإنه لا ينزلها إلا على أزكى الخلق قلباً ونفساً ، وأشرفهم بيتاً وأطهرهم أصلاً . ثم قال عز وجل مبيّناً أنّه قد فاوت بين خلقه فيما أعطاهم من الأموال والأرزاق والعقول والفهوم وغير ذلك من القوى الظاهرة والباطنة ، فقال : ﴿ **نحن قسمنا بينهم معيشتهم** ﴾ أي : مايعيشون به ، وهو أرزاقهم ﴿ **في الحياة الدنيا** ﴾ قال النسفي : أي لم نجعل قسمة الأدون إليهم وهو الرزق فكيف النبوة ؟. أو كما فضّلت البعض على البعض في الرزق فكذا أخصّ بالنّبوة من أشاء ﴿ **ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات** ﴾ أي : جعلنا البعض أغنياء وأقوياء وأسياداً والبعض غير ذلك . وجعلنا البعض أذكياء وعقلاء ، والبعض غير ذلك ، وهكذا . ثمّ بين الله عز وجل الحكمة في هذا التفاوت فقال

﴿ **ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً** ﴾ أي: ليُسخِّرَ بعضهم بعضاً في الأعمال ؛ لاحتياج هذا إلى هذا ، وهذا إلى هذا . وفي كتابنا (الإسلام) عند الكلام عن نظام الملكية في الإسلام تحدثنا عن حكمة ذلك في الحياة فليراجع . إنّ النّاس لو كانوا متساوين في كل شيء لتهدّمت المصالح والمنافع ؛ إذ الجميع في هذه الحالة صالحون للرئاسة ، والجميع صالحون للسيادة ، والجميع صالحون للقيادة ، فيصبح الجسم البشري مجموعة رؤوس . وكيف تقوم حياة الجسم البشري بلا قلب ولا أطراف ولا خدمات . وفي الحياة الاقتصادية لابد أن يوجد التفاوت الناشيء عن التفاوت في الخلقة : فهذا نشيط ، وهذا كسلان ، وهذا بصير في أمر التجارة ، وهذا لايدرك من أمورها شيئاً ، ولو أنك وزعت الأموال على الناس بالتساوي ثم تركتهم يعملون سنة لوجدت التفاوت قد عاد ، ولو أنك أرجعت الأمر إلى المساواة لتعطّل العمل ؛ إذ عندما نأخذ من النشيط لنعطي الكسلان ، يزداد الكسلان كسلاً ويترك النشيط العمل ، ومن ثم كانت سنة الله التفاوت ، ولكن شريعته عز وجل هي التي تعدِّل هذا التفاوت فلا يشتط ولا يزداد بحيث تصبح رؤوس الأموال بأيد قليلة ، فالنظام الاقتصادي في الإسلام لا يبقي أحداً في المجتمع إلا وهو في حالة طيّبة ، وبالإسلام لا تقوم في المجتمع علاقات ظالمة . كل هذا وغيره رتّبته الشريعة . ثم قال تعالى : ﴿ **ورحمة ربك خير مما يجمعون** ﴾ أي : النبوة ، أو دين الله ، وما يتبعه من الفوز في المآب خير مما يجمع هؤلاء من حطام الدنيا ، وفي ذلك توجيه للمسلم ألّا تميل عينه عن الحق بسبب رفاهية الكافرين ، ولا يعني هذا أنّ المجتمع الإسلامي لايكون في حالة رفاهية ، بل يعني أنه إذا وجدت الرفاهية في المجتمع الكافر فلا ينبغي أن تميل عين المسلم عن الحق من أجلها . وكذلك إذا وجد بعض المترفين في المجتمع الإسلامي .

قال ابن كثير : (أي رحمة الله بخلقه خير لهم مما بأيديهم من الأموال ومتاع الحياة الدنيا) وفي هذا الذي قاله ابن كثير إشارة إلى أنّ الإنسان عليه أن يعتمد على الله ويتّكل عليه ، وألّا يكون بما في يده أوثق منه ممّا في يد الله عز وجل . ولمّا قلّل الله عز وجل أمر الدنيا وحقّرها أردفه بما يقرّر حقارتها عنده فقال : ﴿ **ولولا أن يكون الناس أمّة واحدة** ﴾ قال النسفي : أي ولولا كراهة أن يجتمعوا على الكفر ويطبقوا عليه . وقال ابن كثير : أي لولا أن يعتقد كثير من الناس الجهلة أن إعطاءنا المال دليل على محبتنا لمن أعطيناه فيجتمعوا على الكفر لأجل المال ﴿ **لجعلنا** ﴾ لحقارة الدنيا عندنا ﴿ **لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفاً من فضة ومعارج** ﴾ أي: سلالم ودرجاً من فضة ﴿ **عليها**

يظهرون ﴾ أي: عليها يصعدون فيعلون السطوح . ﴿ **ولبيوتهم أبواباً** ﴾ أي: أغلاقاً على أبوابهم ﴿ **وسرراً عليها يتكئون** ﴾ أي: جميع ذلك يكون من فضة ﴿ **وزخرفاً** ﴾ أي وذهباً وزينةً . والمعنى : ولولا أن يصبح الناس كلهم كفاراً لجعلنا للكفار سقفاً ومصاعد وأبواباً وسرراً كلها من فضة ، وجعلنا لهم زخرفاً أي زينة من كل شيء . دلّ هذا على أنّ ممّا يفتن المسلم عن دينه رؤيته الكافرين في حالة اقتصادية أجود ، وهذا هو الذي نراه في عصرنا ؛ إذ فتن كثير من المسلمين عن الإسلام بسبب رؤيتهم مجتمعات كافرة في حالة اقتصادية جيدة ، بل أصبحوا يدعون إلى هذه الأنظمة الكافرة ويتبعونها من أجل الوصول إلى ماهم عليه ، وقد أخطأوا مرّتين : مرة إذ استبدلوا الحقّ بالباطل ، ومرة لتصورهم أن تطبيق الإسلام لا يوصل إلى الرّفاه أو إلى التقدّم المدني . كيف والله عزّ وجلّ وعد المتقين بأن يفتح عليهم بركات من السماء والأرض ، وفي كتابنا (الإسلام) بيان شافٍ لكل ما يتعلق بهذا الموضوع ، ولنا في الفوائد عودة عليه . ثم قال تعالى بعد أن بيّن حقارة الدنيا عنده حتى ليعطيها الكافرين ، لولا أن يفتتن المسلمون ﴿ **وإن كل ذلك** ﴾ أي: وما كلّ ذلك ﴿ **لمّا** ﴾ أي: إلا ﴿ **متاع الحياة الدنيا** ﴾ أي : إنّما ذلك من الدنيا الفانية الزائلة الحقيرة عند الله ﴿ **والآخرة عند ربك للمتقين** ﴾ أي : وثواب الآخرة عند الله لمن اتقى الله بفعل مأمر واجتناب مانهى . قال ابن كثير : أي وهي لهم خاصة لا يشاركهم فيها أحد .

....

نقــول :

١ – بمناسبة قوله تعالى – حكاية عن قول الكافرين –: ﴿ **وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم** ﴾ قال صاحب الظلال : (والله أعلم حيث يجعل رسالته ، وقد اختار لها من يعلم أنه لها أهل . ولعله – سبحانه – لم يشأ أن يجعل لهذه الرسالة سنداً من خارج طبيعتها ، ولا قوة من خارج حقيقتها ، فاختار رجلاً ميزته الكبرى .. الخلق .. وهو من طبيعة هذه الدعوة .. وسمته البارزة .. التجرد .. وهو من حقيقة هذه الدعوة .. ولم يختره زعيم قبيلة ، ولا رئيس عشيرة ، ولا صاحب جاه ، ولا صاحب ثراء . كي لا تلتبس قيمة واحدة من قيم هذه الأرض بهذه الدعوة النازلة من السماء . ولكي لا تزدان هذه الدعوة بحلية من حلي هذه الأرض ليست من حقيقتها في شيء . ولكي لا يكون هناك مؤثر مصاحب لها خارج عن ذاتها المجردة . ولكي

لا يدخلها طامع ولا يتنزه عنها متعفف) .

٢ - وفي تحليل طويل لردّ الله على هؤلاء يقول صاحب الظلال :

ولكن القوم الذين غلب عليهم المتاع ، والذين لم يدركوا طبيعة دعوة السماء . راحوا يعترضون ذلك الاعتراض :

﴿ لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ﴾ .

فرد عليهم القرآن مستنكراً هذا الاعتراض على رحمة الله ، التي يختار لها من عباده من يشاء ، وعلى خلطهم بين قيم الأرض وقيم السماء ، مبيّناً لهم حقيقة القيم التي يعتزون بها ، ووزنها الصحيح في ميزان الله :

﴿ أهم يقسمون رحمة ربك ؟! نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ، ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ، ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً ، ورحمة ربك خير مما يجمعون ﴾ .

أهم يقسمون رحمة ربك ؟ ياعجباً ! وما لهم هم ورحمة ربك ؟ وهم لا يملكون لأنفسهم شيئاً ، ولا يحققون لأنفسهم رزقاً ، حتى رزق هذه الأرض الزهيد نحن أعطيناهم إياه ، وقسمناه بينهم وفق حكمتنا وتقديرنا لعمران هذه الأرض ونمو هذه الحياة .

﴿ نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً ﴾ .

ورزق المعاش في الحياة الدنيا يتبع مواهب الأفراد ، وظروف الحياة ، وعلاقات المجتمع . وتختلف نسب التوزيع بين الأفراد والجماعات وفق تلك العوامل كلها . تختلف من بيئة لبيئة ، ومن عصر لعصر ، ومن مجتمع لمجتمع ، وفق نظمه وارتباطاته وظروفه العامة كلها . ولكن السمة البارزة الباقية فيه ، والتي لم تتخلف أبداً - حتى في المجتمعات المصطنعة المحكومة بمذاهب موجهة للإنتاج وللتوزيع - أنه متفاوت بين الأفراد .

وتختلف أسباب التفاوت ما تختلف بين أنواع المجتمعات وألوان النظم . ولكن سمة التفاوت في مقادير الرزق لا تتخلف أبداً . ولم يقع يوماً - حتى في المجتمعات المصطنعة المحكومة بمذاهب موجهة - أن تساوى جميع الأفراد في هذا الرزق أبداً **﴿ ورفعنا**

بعضهم فوق بعض درجات ﴾ ..

والحكمة في هذا التفاوت الملحوظ في جميع العصور ، وجميع البيئات ، وجميع المجتمعات .. هي :

﴿ **ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً** ﴾ ..

ليسخّر بعضكم بعضاً .. ودولاب الحياة حين يدور يسخّر بعض الناس لبعض حتما . وليس التسخير هو الاستعلاء .. استعلاء طبقة على طبقة ، أو استعلاء فرد على فرد .. كلا ! إن هذا معنى قريب ساذج ، لا يرتفع إلى مستوى القول الإلهي الخالد . كلا ! إن مدلول هذا القول أبقى من كل تغير أو تطور في أوضاع الجماعة البشرية ، وأبعد مدى من ظرف يذهب وظرف يجيء .. إن كل البشر مسخر بعضهم لبعض . ودولاب الحياة يدور بالجميع ، ويسخر بعضهم لبعض في كل وضع وفي كل ظرف . المقدر عليه في الرزق مسخر للمبسوط له في الرزق . والعكس كذلك صحيح . فهذا مسخّر ليجمع المال ، فيأكل منه ويرتزق ذاك . وكلاهما مسخر للآخر سواء بسواء . والتفاوت في الرزق هو الذي سخر هذا لذاك ، ويسخر ذاك لهذا في دورة الحياة .. العامل مسخر للمهندس ومسخر لصاحب العمل . والمهندس مسخر للعامل ولصاحب العمل . وصاحب العمل مسخر للمهندس وللعامل على السواء .. وكلهم مسخرون للخلافة في الأرض بهذا التفاوت في المواهب والاستعدادات ، والتفاوت في الأعمال والأرزاق ..

وأحسب أن كثيرين من دعاة المذاهب الموجهة يتخذون من هذه الآية موضع هجوم على الإسلام ونظمه الاجتماعية والاقتصادية . وأحسب أن بعض المسلمين يقفون يجمجمون أمام هذا النص ، كأنما يدفعون عن الإسلام تهمة تقرير الفوارق في الرزق بين الناس ، وتهمة تقرير أن الناس يتفاوتون في الرزق ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً !.

وأحسب أنه قد آن لأهل الإسلام أن يقفوا بإسلامهم مواجهة وصراحة موقف الاستعلاء المطلق ، لا موقف الدفاع أمام اتهام تافه ! إن الإسلام يقرر الحقائق الخالدة المركوزة في فطرة هذا الوجود ، الثابتة ثبات السماوات والأرض ونواميسها التي لا تختل ولا تتزعزع .

وطبيعة هذه الحياة البشرية قائمة على أساس التفاوت في مواهب الأفراد ، والتفاوت فيما يمكن أن يؤديه كل فرد من عمل ، والتفاوت في مدى إتقان هذا العمل . وهذا

التفاوت ضروري لتنوع الأدوار المطلوبة للخلافة في هذه الأرض . ولو كان جميع الناس نسخاً مكرورة ماأمكن أن تقوم الحياة في هذه الأرض بهذه الصورة . ولبقيت أعمال كثيرة جداً لا تجد لها مقابلاً من الكفايات ، ولا تجد من يقوم بها – والذي خلق الحياة وأراد لها البقاء والنمو ، خلق الكفايات والاستعدادات متفاوتة تفاوت الأدوار المطلوب أداؤها . وعن هذا التفاوت في الأدوار يتفاوت الرزق .. هذه هي القاعدة .. أما نسبة التفاوت في الرزق فقد تختلف من مجتمع إلى مجتمع ، ومن نظام إلى نظام . ولكنها لا تنفي القاعدة الفطرية المتناسقة مع طبيعة الحياة الضرورية لنمو الحياة . ومن ثم لم يستطع أصحاب المذاهب المصطنعة المتكلفة أن يساووا بين أجر العامل وأجر المهندس ، ولا بين أجر الجندي وأجر القائد . على شدة ما حاولوا أن يحققوا مذهبهم . وهزموا أمام الناموس الإلهي الذي تقرره هذه الآية من كلام الله . وهي تكشف عن سنة ثابتة من سنن الحياة .

ذلك شأن الرزق والمعاش في هذه الحياة الدنيا ، ووراء ذلك رحمة الله . ﴿ **ورحمة ربك خير مما يجمعون** ﴾ ..

والله يختار لها من يشاء ، ممن يعلم أنهم لها أهل . ولا علاقة بينها وبين عرض الحياة الدنيا ، ولا صلة لها بقيم هذه الدنيا . فهذه القيم عند الله زهيدة زهيدة . ومن ثم يشترك فيها الأبرار والفجار ، وينالها الصالحون والطالحون . بينما يختص برحمته المختارين .

وإن قيم هذه الأرض لمن الزهادة والرخص بحيث لو شاء الله لأغدقها إغداقاً على الكافرين به . ذلك إلا أن تكون فتنة للناس ، تصدهم عن الإيمان بالله .

﴿ **ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سُقُفاً من فضة ومعارج عليها يظهرون * ولبيوتهم أبواباً وسرراً عليها يتكئون * وزخرفاً وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا والآخرة عند ربك للمتقين** ﴾ .

فهكذا ، لولا أن يفتتن الناس – والله أعلم بضعفهم وتأثير عرض الدنيا في قلوبهم – لجعل لمن يكفر بالرحمن – صاحب الرحمة الكبيرة العميقة – بيوتاً سقفها من فضة ، وسلالمها من ذهب ، بيوتاً ذات أبواب كثيرة . قصوراً فيها سرر للاتكاء ، وفيها زخرف للزينة .. رمزاً لهوان هذه الفضة والذهب والزخرف والمتاع ، بحيث تبذل هكذا رخيصة لمن يكفر بالرحمن !.

﴿ **وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا** ﴾ ..

متاع زائل ، لايتجاوز حدود هذه الدنيا . ومتاع زهيد يليق بالحياة الدنيا ﴿ **والآخرة عند ربك للمتقين** ﴾ ..

وهؤلاء هم المكرمون عند الله بتقواهم ، فهو يدخر لهم ماهو أكرم وأبقى ، ويؤثرهم بما هو أقوم وأعلى ، ويميزهم على من يكفر بالرحمن ، ممن يبذل لهم من ذلك المتاع الرخيص ما يبذله للحيوان !.

وإن عرض الحياة الدنيا الذي ضرب الله له بعض الأمثال من المال والزينة والمتاع ليفتن الكثيرين . وأشد الفتنة حين يرونه في أيدي الفجار ، ويرون أيادي الأبرار منه خالية ، أو يرون هؤلاء في عسر أو مشقة أو ابتلاء ، وأولئك في قوة وثروة وسطوة واستعلاء . والله يعلم وقع هذه الفتنة في نفوس الناس . ولكنه يكشف لهم عن زهادة هذه القيم وهوانها عليه ، ويكشف لهم كذلك عن نفاسة مايدخره للأبرار الأتقياء عنده . والقلب المؤمن يطمئن لاختيار الله للأبرار وللفجار .

وأولئك الذين كانوا يعترضون على اختيار الله لرجل لم يؤت شيئاً من عرض هذه الحياة الدنيا ، ويقيسون الرجال بما يملكون من رياسة ، أو بما يملكون من مال . يرون من هذه الآيات هوان هذه الأعراض وزهادتها عند الله . وأنها مبذولة لشر خلق الله وأبغضهم عند الله . فهي لا تدل على قربى منه ولا تنبيء عن رضى ، ولا تشي باختيار .

وهكذا يضع القرآن الأمور في نصابها ، ويكشف عن سنن الله في توزيع الأرزاق في الدنيا والآخرة ، ويقرر حقيقة القيم كما هي عند الله ثابتة . وذلك في صدد الرد على المعترضين على رسالة محمد ﷺ واختياره . واطراح العظماء المتسلطين !.

وهكذا يرسي القواعد الأساسية والحقائق الكلية التي لا تضطرب ولا تتغير ، ولا تؤثر فيها تطورات الحياة ، واختلاف النظم ، وتعدد المذاهب ، وتنوع البيئات . فهناك سنن للحياة ثابتة ، تتحرك الحياة في مجالها ، ولكنها لاتخرج عن إطارها . والذين تشغلهم الظواهر المتغيرة عن تدبر الحقائق الثابتة ، لا يفطنون لهذا القانون الإلهي ، الذي يجمع بين الثبات والتغير في صلب الحياة وفي أطوار الحياة ، ويحسبون أن التطور والتغير يتناول حقائق الأشياء كما يتناول أشكالها . ويزعمون أن التطور المستمر يمتنع معه أن تكون هناك قواعد ثابتة لأمر من الأمور ، وينكرون أن يكون هناك قانون ثابت غير قانون التطور المستمر . فهذا هو القانون الوحيد الذي يؤمنون بثباته ! فأما نحن – أصحاب العقيدة الإسلامية – فنرى في واقع الحياة مصداق مايقرره الله من وجود الثبات والتغير

متلازمين في كل زاوية من زوايا الكون ، وفي كل جانب من جوانب الحياة . وأقرب ما بين أيدينا من هذا التلازم ثبات التفاوت في الرزق بين الناس ، وتغير نسب التفاوت وأسبابه في النظم والمجتمعات .. وهذا التلازم مطرد في غير هذا المثال) .

كلمة في السياق :

١ - رأينا أن اعتراض الكافرين على الله عز وجل في إنزاله القرآن على محمد ﷺ ، وعدم إنزاله على رجل عظيم ذي جاه ومال ، قد جاء بعد إقامة الحجة على الكافرين في عقائدهم التي هي سبب البلاء . فكأنهم بعد إقامة الحجة عليهم اقتنعوا ، ولكنهم لعدم تملك محمد ﷺ الجاه والمال لايرونه أهلاً لنزول القرآن عليه ، أو لا يرونه أهلاً للمتابعة . ومن ثمّ كان هذا البيان الذي رأيناه ، فالله عز وجل أعلم حيث يجعل رسالته . واعتراضهم على الله في اصطفائه محمداً ﷺ محض جهل ، فعطاء الدنيا لإنسان لايعني شيئاً ، وليس دليلاً على أن صاحبها صاحب فضل عند الله . وإذ بيّن الله عز وجل هذا كله ـــ ففنّد عقائد الكافرين ، وفنّد أقوالهم ـــ فإنه فيما سيأتي سيبين عاقبة العمى عن كتابه كما سنرى .

٢ - قلنا : إن محور سورة الزخرف من سورة البقرة هو قوله تعالى : ﴿ **وإن كنتم في ريب ممّا نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله** ﴾ والآيات المارة تشعر بأنهم عجزوا عن الإتيان بمثله ، وشعروا بأن هذا القرآن من عند الله ، ولكن كانوا يرون أن غير محمد ﷺ أحق به : ﴿ **وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم** ﴾ لاحظ الصلة بين ﴿ **نَزّلنا** ﴾ في المحور وقولهم ﴿ **نُزّل هذا القرآن** ﴾ وقد رد الله عز وجل اعتراضهم ، والملاحظ أنه عز وجل في المحور قال ﴿ **فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدّت للكافرين** ﴾ هناك وعظهم بعد إقامة الحجة ، وسنرى كذلك هنا أنه سيعظهم بعد إقامة الحجة .

....

﴿ **ومن يعش** ﴾ قال ابن كثير : أي يتعامى ويتغافل ويعرض ، وقال النسفي في معناها : ومن يتعام عن ذكره ، أو يعرف أنه الحق ويتجاهل ﴿ **عن ذكر الرحمن** ﴾ أي : عن القرآن . قال ابن كثير : والعشا في العين ضعف بصرها والمراد ههنا عشا البصيرة ﴿ **نقيّض له شيطاناً** ﴾ أي : نسلطه عليه ﴿ **فهو له قرين** ﴾ أي : فهو معه في

الدنيا والآخرة يحمله في الدنيا على المعاصي ، ويدخل معه النار يوم القيامة . قال النسفي : وفيه إشارة إلى أنّ من داوم عليه (أي : على الذكر) لم يقرنه الشيطان ﴿ **وإنهم** ﴾ إي وإن الشياطين ﴿ **ليصدونهم** ﴾ أي : يمنعون العاشين ﴿ **عن السبيل** ﴾ أي : عن سبيل الهدى ﴿ **ويحسبون** ﴾ أي : العاشون ﴿ **أنّهم مهتدون** ﴾ فهم ضالون ويظنون أنهم على الهدى كحال أكثر الخلق كل منهم يرى أن ماهو عليه عين الهداية وهيهات ﴿ **حتى إذا جاءنا** ﴾ أي : هذا العاشي ﴿ **قال** ﴾ لقرينه الشيطان ﴿ **ياليت بيني وبينك بُعْد المشرقين** ﴾ أي : المشرق والمغرب ، أي : ياليت بيني وبينك بُعْد المشرق من المغرب ، والمغرب من المشرق ﴿ **فبئس القرين** ﴾ الشيطان ﴿ **ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم أنكم في العذاب مشتركون** ﴾ أي : صحّ ظلمكم وكفركم ، وتبيّن ولم يبق لكم ولا لأحد شبهة في أنكم كنتم ظالمين ، ولن ينفعكم اشتراككم في العذاب ، أو كونكم مشتركين في العذاب كما كان عموم البلوى يطيّب القلب في الدنيا . قال ابن كثير : أي لا يغني عنكم اجتماعكم في النار واشتراككم في العذاب الأليم . وهكذا بيّن الله عز وجل عاقبة الغفلة والإعراض عن كتابه في الدنيا والآخرة .

كلمة في السياق :

قال تعالى في محور السورة من سورة البقرة : ﴿ **وإن كنتم في ريب ممّا نزَّلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين * فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النّار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين** ﴾ وقد عرضت السورة أنّ الله عز وجل هو منزل هذا القرآن ، وأقامت الحجة من خلال ذكر خصائص القرآن أنه لاشك فيه ، ورأينا كيف عالجت السورة مواقف الكافرين من هذا القرآن ، واستقر السياق على تبيان عقوبة العشا عنه في الدنيا والآخرة ، والآن يتوجه الخطاب لرسول الله ﷺ الذي أنزل عليه القرآن . ويستوعب هذا الخطاب بقية المقطع الأول وبداية المقطع الثاني .

....

﴿ **أفأنت تسمع الصمّ** ﴾ أي : الذين فقدوا سمع القبول . أي : الذين لا يستمعون للحق استماع قبول ففي آذانهم صمم عن سماع الحق ﴿ **أو تهدي العمي** ﴾ أي : الذين فقدوا البصر ، والمراد به بصر البصيرة ، ففي قلوبهم عمى لا يرون معه الحق ﴿ **ومن كان في ضلال مبين** ﴾ عن الحق فلا يعرفه ، ولايعرف طريقه ، ولا يهتدي إليه . قال ابن

كثير : (أي : ليس ذلك إليك إنما عليك البلاغ ، وليس عليك هداهم ، ولكنّ الله يهدي من يشاء ، ويضل من يشاء ، وهو الحكم العدل » ثم قال تعالى : ﴿ **فإمّا نذهبنّ بك** ﴾ أي : نتوفينّك قبل أن ننصرك عليهم ، ونشفي صدور المؤمنين منهم ﴿ **فإنّا منهم منتقمون** ﴾ أشدّ الانتقام في الدنيا والآخرة . قال ابن كثير : أي : لابد أن ننتقم منهم ونعاقبهم ولو ذهبت أنت ﴿ **أو نرينّك الذي وعدناهم** ﴾ من العذاب الدنيوي قبل أن نتوفاك ﴿ **فإنا عليهم مقتدرون** ﴾ أي : قادرون . أي : نحن قادرون على هذا وهذا ﴿ **فاستمسك** ﴾ أي : فتمسّك ﴿ **بالذي أوحي إليك** ﴾ وهو القرآن واعمل به ﴿ **إنك على صراط مستقيم** ﴾ أي : على الدين الذي لاعوج له . قال ابن كثير : (أي : خذ بالقرآن المنزل على قلبك ، فإنّه هو الحق ، ومايهدي إليه هو الحق ، المفضي إلى صراط الله المستقيم ، الموصل إلى جنات النعيم والخير الدائم المقيم) .

....

كلمة في السياق :

تلاحظ أن السورة بعد أن أقامت الحجة على الكافرين في أن هذا القرآن من عند الله ، وأنه لا ريب فيه ، وأقامت الحجة على الكافرين في عقائدهم ومواقفهم ، توجهت بالخطاب لرسول الله ﷺ ، وممّا تضمّنه الخطاب أن هؤلاء المعرضين عن كتاب الله صمٌّ وعمي ، ويستحقون العذاب ، سواء كان ذلك في حياة رسول الله ﷺ أو بعد مماته . ثم أصدر الله أمره لرسوله ﷺ بالاستمساك بهذا القرآن ، وكان ذلك هو الجسر الذي يعود السياق به للحديث عن هذا القرآن ، وخصائصه التي تقتضي الإيمان به ، وعدم الريب ، فقد رأينا أنّه بعد مقدّمة السورة جاء قوله تعالى : ﴿ **وإنه في أم الكتاب لدينا لعلي حكيم** ﴾ . والآن يأتي قوله تعالى : ﴿ **وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون** ﴾ .

وكان الجسر الذي وصل بين نهاية المقطع السابق وبداية المقطع الجديد هو قوله تعالى : ﴿ **فاستمسك بالذي أوحي إليك إنك على صراط مستقيم** ﴾ مما يدلّ على أن السياق الرئيسي للسورة هو الكلام عن القرآن ، مما يؤكد أن محور السورة هو ماذكرناه ﴿ **وإن كنتم في ريب ممّا نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله ..** ﴾ والآيات الأخيرة بيّنت أن على صاحب الدعوة في كل حال أن يستمسك بالوحي الذي أنزل عليه ، فالسورة تعالج الريب ، وتعالج الكفر ، وتوجّه صاحب الدعوة .

الفـوائد :

١ - بدأت السورة بقوله تعالى : ﴿ **حمٓ * والكتاب المبين * إنا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون** ﴾ فهل وصف الكتاب بالعربية تقرير لواقع ؟ أو أنّ في ذلك معنى زائداً وهو وصفه بالفصاحة والبيان ؟ وفي ذلك ثناء على اللغة العربية بأنها لغة الفصاحة والبيان . قال ابن كثير في معرض شرحه لكون الكتاب مبيناً : لأنه نزل بلغة العرب التي هي أفصح اللغات للتخاطب بين الناس . وكلام ابن كثير هذا يشير إلى أن وصف القرآن بالعربية فيه معنى زائد على تقرير الواقع ، وبالتالي فيه ثناء على هذه اللغة ، ولا يدرك أحد ميزات هذه اللغة على بقية اللغات إلا بدراسة مستفيضة لفقهها وأسرارها مقارنة ببقية اللغات .

٢ - عند قوله تعالى : ﴿ **وإنه في أم الكتاب لدينا لعليٌّ حكيم** ﴾ قال النسفي : وإن القرآن مثبت عند الله في اللوح المحفوظ ، دليله قوله ﴿ **بل هو قرآن مجيد * في لوح محفوظ** ﴾ وسمّي (أي : اللوح المحفوظ) أم الكتاب ؛ لأنّه الأصل الذي أثبتت فيه الكتب ، منه تنقل وتستنسخ .. (ووصف القرآن بالعلو) أي : في أعلى طبقات البلاغة .. وقال ابن كثير : وهذا كله تنبيه على شرفه وفضله كما قال تبارك وتعالى : ﴿ **إنه لقرآن كريم * في كتاب مكنون * لايمسّه إلا المطهرون * تنزيل من رب العالمين** ﴾ وقال تعالى : ﴿ **كلّا إنها تذكرة * فمن شاء ذكره * في صحف مكرمة * مرفوعة مطهرة * بأيدي سفرة * كرام بررة** ﴾ ولهذا استنبط العلماء رضي الله عنهم من هاتين الآيتين أن المحدث لا يمس المصحف ، كما ورد به الحديث - إن صح - لأن الملائكة يعظمون المصاحف المشتملة على القرآن في الملإ الأعلى ، فأهل الأرض بذلك أولى وأحرى ، لأنه تنزيل عليهم ، وخطابه متوجه إليهم ، فهم أحق أن يقابلوه بالإكرام والتعظيم ، والانقياد له بالقبول والتسليم ، لقوله تعالى : ﴿ **وإنه في أم الكتاب لدينا لعلي حكيم** ﴾ .

٣ - قلنا في كتابنا (جند الله ثقافة وأخلاقاً) : إن كل مفسّر للقرآن قد فسّر القرآن بثقافة عصره ؛ بل بثقافته من ثقافة عصره ، وبقدر قصور هذه الثقافة يقع الخطأ في التفسير ، والعلة في القصور البشري وليس في القرآن علة - حاشاه وهو الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ـــ وكنموذج لما ذكرناه ننقل ماذكره ابن كثير ـــ على جلالة قدره وثقوب بصره ـــ عند قوله تعالى في هذه السورة : ﴿ **الذي جعل لكم**

الأرض مهداً ﴾ (مع أنها مخلوقة على تيار الماء) وهو قول ظاهر الخطأ لكنها ثقافة عصره ، ولو كلّفنا الإنسان أن يحلّق فوق ثقافة عصره وهو بشر نكون قد كلفنا الإنسان فوق ما يطيقه . ومن هنا تظهر لك عظمة النص القرآني إذ تسع العصور ، وتسبق اكتشافات الإنسان .

٤ - إن الأعلم بخصائص القرآن هو منزل هذا القرآن ، ومن ثم إذا أردنا أن نأخذ تصوّراً عن خصائص القرآن فإن أقصر طريق هو أن نتتبّع ما وصف به الله كتابه ، وأن نفهمها حق الفهم . من ذلك أنّ القرآن أحسن الحديث ، وأنه متشابه ، وأنه مثانٍ ، وأنه مفصّل ، وأنّه محكم ، وأنّه مبين ، وأنه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وأن المستقبل يخدمه ولا ينقضه ولا يبطله ، وأنه عليٌّ ، وأنه حكيم ، وأنه ذكر ، وأنه علم للساعة ، وأنه اجتمع فيه الإحكام والتفصيل ، وأنه هدى ، وأنه بصائر للناس ، وغير ذلك ممّا قصه الله علينا من خصائص كتابه ، وفي كل خاصية من هذه الخواص نجد دليلاً على أن هذا القرآن من عند الله .

٥ ــ بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **لتستووا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه وتقولوا سبحان الذي سخّر لنا هذا وما كنا له مقرنين * وإنا إلى ربنا لمنقلبون** ﴾ عقد ابن كثير فصلاً تحت عنوان (ذكر الأحاديث الواردة عند ركوب الدابة) ننقل منه مايلي :

وروى الإمام أحمد عن علي بن ربيعة قال : رأيت عليّاً رضي الله عنه أتي بدابة فلما وضع رجله في الركاب قال : بسم الله ، فلما استوى عليها قال : الحمد لله ﴿ **سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين * وإنا إلى ربنا لمنقلبون** ﴾ ثم حمد الله ثلاثاً وكبّر ثلاثاً ، ثم قال : سبحانك لاإله إلا أنت قد ظلمت نفسي فاغفر لي ، ثم ضحك فقلت له : مم ضحكت ياأمير المؤمنين ؟ فقال علي رضي الله عنه : رأيت رسول الله ﷺ فعل مثل ما فعلت ، ثم ضحك فقلت : مم ضحكت يارسول الله : فقال صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم : « يعجب الرب تبارك وتعالى من عبده إذا قال : رب اغفر لي ويقول : علم عبدي أنه لا يغفر الذنوب غيري » وهكذا رواه أبو داود والترمذي والنسائي . وقال الترمذي : حسن صحيح .

وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : كان النبي ﷺ إذا ركب راحلته كبر ثلاثاً ثم قال : ﴿ **سبحان الله الذي سخّر لنا هذا وماكنا له مقرنين**

وإنا إلى ربنا لمنقلبون ﴾ ثم يقول : « اللهم إني أسألك في سفرى هذا البر والتقوى ، ومن العمل ماترضى ، اللهم هوّن علينا السفر واطوِ لنا البعيد ، اللهم أنت الصاحب في السفر والخليفة في الأهل ، اللهم اصحبنا في سفرنا واخلفنا في أهلنا » وكان صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم إذا رجع إلى أهله قال « آيبون تائبون إن شاء الله عابدون لربنا حامدون » وهكذا رواه مسلم وأبو داود و النسـائي. وروى الإمام أحمد عن أبي لاس الخزاعي قال : حملنا رسول الله ﷺ على إبل من إبل الصدقة إلى الحج فقلنا : يارسول الله ما نرى أن تحملنا هذه فقال ﷺ : « مامن بعير إلا في ذروته شيطان ، فاذكروا اسم الله عليها إذا ما ركبتموها كما آمركم ثم امتهنوها لأنفسكم فإنما يحمل الله عز وجل» أبو لاس اسمه محمد بن الأسود بن خلف .

(حديث آخر) في معناه روى أحمد عن أسامة بن زيد قال : أخبرني محمد بن حمزة أنه سمع أباه يقول سمعت رسول الله ﷺ يقول : «على ظهر كل بعير شيطان فإذا ركبتموها فسموا الله عز وجل ثم لاتقصروا عن حاجاتكم ») .

وذكر الألوسي بمناسبة الآية : (أخرج عبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر عن أبي مجلز قال : رأى الحسين بن علي رضي الله تعالى عنهما وكرّم وجههما رجلاً ركب دابة فقال : سبحان الذي سخر لنا هذا ، فقال : أو بذلك أمرت ؟ فقال : فكيف أقول ؟ قال : الحمد لله الذي هدانا للإسلام ، الحمد الله الذي مَنَّ علينا بمحمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، الحمد لله الذي جعلني في خير أمة أخرجت للناس ثمّ تقول : ﴿ **سبحان الذي سخر لنا هذا** ﴾ إلى ﴿ **مقرنين** ﴾ ... (وظاهر النظم الجليل أن تذكر النعمة والقول المذكور لايخصّان ركوب الأنعام بل يعمانها والفلك ، وذكر بعضهم أنه يقال إذا ركبت السفينة : ﴿ **بسم الله مجراها ومرساها**﴾.. إلى.. ﴿ **رحيم** ﴾ ويقال عند النزول منها « اللهم أنزلنا منزلاً مباركاً وأنت خير المنزلين ») .

٦ - هناك اتجاه لبعض غلاة الصوفية ، أن هذا الكون هو تكثفات الذات الإلهية . فالذات الإلهية تكثفت فكان هذا الكون ، يقولون : إن أول تكثف كان هو الذات المحمدية ، ومنه خلق هذا الكون ، وإنني أجزم أن هذا القول كفر بصريح القرآن ، وهو قوله تعالى : ﴿ **وجعلوا له من عباده جزءاً إن الإنسان لكفور مبين** ﴾ إذ إن قولهم ذاك يجعل محمداً ﷺ هو جزء الذات الإلهية ، ويجعل الكون كذلك ، تعالى الله عن ذلك ، ونعوذ بالله من الضلال ، وإن من أفظع طرق الضلال أن يقول الإنسان القول لمجرد

احتمال من احتمالات الفهم دون أن يحقق هذا القول ، ويفهمه على ضوء النصوص المحكمة . وإن هذا من الجهل العريض . لقد كان الصوفية الأوائل يقولون : إنه لتقع النكتة من كلام القوم في قلبي فلا أقبلها إلا بشاهدي عدل من الكتاب والسنة . ثم صار بعض الصوفية يسجلون مايقع في قلوبهم ويحملون النصوص عليه ، ولم يجعل الله لقلب عصمة إلا لقلب رسول أو نبي فليتق الله امرؤ في هذه الأمّة ولا يتكلّمن إلا بعلم وتحقيق وضمن حدود الشريعة .

٧ ــ بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **وقالوا لو شاء الرحمن ماعبدناهم ماهم بذلك من علم إن هم إلا يخرصون** ﴾ قال النسفي : (أي يكذبون ومعنى الآية عندنا أنهم أرادوا بالمشيئة الرضا ، وقالوا لو لم يرض بذلك لعجّل عقوبتنا أو لمنعنا عن عبادتها منع قهر واضطرار ، وإذ لم يفعل ذلك فقد رضي بذلك ، فردّ الله تعالى عليهم بقوله : ﴿ **ماهم بذلك من علم** ﴾ الآية ، أو قالوا هذا القول استهزاءً لاجدّاً واعتقاداً ، فأكذبهم الله تعالى فيه ، وجهّلهم حيث لم يقولوا عن اعتقاد كما قال مخبراً عنهم : ﴿ **أنطعم من لو يشاء الله أطعمه** ﴾ (يس : ٤٧) وهذا حق في الأصل ، ولكن لما قالوا ذلك استهزاءً كذّبهم الله بقوله : ﴿ **إن أنتم إلا في ضلال مبين** ﴾ (يس : ٤٧) وكذلك قال الله تعالى : ﴿ **قالوا نشهد إنك لرسول الله** ﴾ (المنافقون : ١) ثم قال : ﴿ **والله يشهد إن المنافقين لكاذبون** ﴾ (المنافقون : ١) لأنهم لم يقولوه عن اعتقاد وجعلوا المشيئة حجّة لهم فيما فعلوا باختيارهم وظنوا أن الله لايعاقبهم على شيء فعلوه بمشيئته ، وجعلوا أنفسهم معذورين في ذلك فرد الله عليهم .

٨ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم** ﴾ قال ابن كثير : (أي : هلا كان إنزال القرآن على رجل عظيم كبير في أعينهم من القريتين ؟ يعنون مكة والطائف . قاله ابن عباس رضي الله عنهما وعكرمة ومحمد بن كعب القرظي وقتادة والسدي وابن زيد ، وقد ذكر غير واحد - منهم قتادة - أنهم أرادوا بذلك الوليد بن المغيرة ، وعروة بن مسعود الثقفي ، وقال مالك عن زيد بن أسلم والضحاك والسدي : يعنون الوليد بن المغيرة ومسعود بن عروة الثقفي ، وعن مجاهد : يعنون عمير بن عمرو بن مسعود الثقفي ، وعنه أيضاً : أنهم يعنون عتبة بن ربيعة ، وعن ابن عباس رضي الله عنهما : جباراً من جبابرة قريش . وعنه رضي الله تعالى عنهما : أنهم يعنون الوليد بن المغيرة ، وحبيب بن عمرو بن عمير الثقفي ، وعن مجاهد : يعنون عتبة ابن ربيعة بمكة وابن عبديا ليل بالطائف ، وقال السدي عنوا بذلك الوليد بن المغيرة ،

وكنانة بن عبد عمرو بن عمير الثقفي ، والظاهر أن مرادهم رجل كبير من أي البلدتين كان) .

٩ – بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا** ﴾ قال ابن كثير : (أي : إنما ذلك من الدنيا الفانية الزائلة الحقيرة عند الله تعالى ، أي : يعجل لهم بحسناتهم التي يعملونها في الدنيا مآكل ومشارب ليوافوا الآخرة ، وليس لهم عند الله تبارك وتعالى حسنة يجزيهم بها ، كما ورد به الحديث الصحيح . وورد في حديث آخر : «لو أن الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى منها كافراً شربة ماء» أسنده البغوي عن سهل بن سعد رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم فذكروه ، ورواه الطبراني عن سهل بن سعد عن النبي ﷺ : «لو عدلت الدنيا عند الله جناح بعوضة ما أعطى كافراً منها شيئاً») .

١٠ – بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **والآخرة عند ربك للمتقين** ﴾ قال ابن كثير : (أي : هي لهم خاصة لا يشاركهم فيها أحد غيرهم ، ولهذا لما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لرسول الله ﷺ حين صعد إليه في تلك المشربة لما آلى ﷺ من نسائه ، فرآه على رمال حصير قد أثر بجنبه ، فابتدرت عيناه بالبكاء وقال : يارسول الله هذا كسرى وقيصر فيما هما فيه وأنت صفوة الله من خلقه ، وكان رسول الله ﷺ متكئاً فجلس وقال : «أو في شك أنت يا ابن الخطاب ؟» ثم قال ﷺ : «أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم في حياتهم الدنيا» وفي رواية : «أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة ؟» . وفي الصحيحين أيضاً وغيرهما أن رسول الله ﷺ قال : «لا تشربوا في آنية الذهب والفضة ولا تأكلوا في صحافهما فإنها لهم في الدنيا ولنا في الآخرة» وإنما خوّلهم الله تعالى في الدنيا لحقارتها ، كما روى الترمذي وابن ماجه من طريق أبي حازم عن سهل بن سعد قال : قال رسول الله ﷺ : «لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى منها كافراً شربة ماء أبداً» قال الترمذي : حسن صحيح) .

١١ – بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **حتى إذا جاءنا قال ياليت بيني وبينك بُعْد المشرقين فبئس القرين** ﴾ قال ابن كثير : (روى عبد الرزاق عن سعيد الجريري قال : بلغنا أن الكافر إذا بعث من قبره يوم القيامة شفع بيده شيطان فلم يفارقه حتى يصيرهما الله تبارك وتعالى إلى النار فذلك حين يقول : ﴿ **ياليت بيني وبينك بُعْد المشرقين فبئس القرين** ﴾) . وننبه على أن هذا أثر .

قال ابن كثير : (والمراد بالمشرقين ههنا هو ما بين المشرق والمغرب ، وإنما استعمل ههنا تغليباً كما يقال : القمران والعمران والأبوان قاله ابن جرير وغيره) أقول : إن المغرب في حقنا مشرق في حق آخرين ، فالمشرق والمغرب في حقنا هو مغرب ومشرق فى حق آخرين ، وهذا يعني أن بعد ما بين المشرق والمغرب في حقي هو بعد ما بين المشرق في حقي والمشرق في حق الآخر الذي تطلع عليه الشمس إذا غربت من عندي ، ومن ثم فالتعبير بلفظ المشرقين فيه إشارة خفية إلى ما ذكرناه ، وما قاله المفسرون فهم صحيح للنص ومطابق لاصطلاح العرب في الخطاب .

١٢ – بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **فإما نذهبنّ بك فإنا منهم منتقمون * أو نرينك الذي وعدناهم فإنا عليهم مقتدرون** ﴾ قال ابن كثير : (أي : نحن قادرون على هذا وعلى هذا ، ولم يقبض الله تعالى رسوله ﷺ حتى أقر عينه من أعدائه ، وحكّمه في نواصيهم ، وملكه ما تضمنته صياصيهم ، هذا معنى قول السدي ، واختاره ابن جرير وروى ابن جرير عن معمر قال : تلا قتادة : ﴿ **فإما نذهبن بك فإنا منهم منتقمون** ﴾ فقال : ذهب النبي ﷺ وبقيت النقمة ولم يُرِ الله تبارك وتعالى نبيه ﷺ في أمته شيئاً يكرهه حتى مضى ، ولم يكن نبي قط إلا وقد رأى العقوبة في أمته إلا نبيكم ﷺ ، قال : وذكر لنا أن رسول الله ﷺ أُري ما يصيب أمته من بعده فما رُؤي ضاحكاً منبسطاً حتى قبضه الله عز وجل وذكر من رواية سعيد بن أبي عروة عن قتادة نحوه ، ثم روى ابن جرير عن الحسن نحو ذلك أيضاً وفي الحديث : « النجوم أمنة للسماء فإذا ذهبت النجوم أتى السماء ما توعد ، وأنا أمنة لأصحابي فإذا ذهبت أتى أصحابي ما يوعدون ») .

ولننتقل إلى المقطع الثاني .

☆ ☆ ☆

المقطع الثاني

ويمتدّ من الآية (٤٤) إلى نهاية الآية (٦٠) وهذا هو :

وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن

رُسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ
بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم
بِـَٔايَـٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا
وَأَخَذْنَـٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ
بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ
يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَـٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَـٰذِهِ
ٱلْأَنْهَـٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَـٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ
وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ
مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّآ
ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَـٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَـٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْـَٔاخِرِينَ
﴿٥٦﴾ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوٓا۟ ءَأَٰلِهَتُنَا
خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ
أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَـٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَـٰٓئِكَةً
فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾

التفسير :

﴿ **وإنه** ﴾ أي : القرآن ﴿ **لذكر لك ولقومك** ﴾ أي : لشرف لك ولقومك ، قاله ابن

عباس ومجاهد وقتادة والسدي وابن زيد ، واختاره ابن جرير ولم يحك سواه .. قال ابن كثير : (ومعناه أنه شرف لهم من حيث إنه أنزل بلغتهم فهم أفهم الناس له ، فينبغي أن يكونوا أقوم الناس به وأعلمهم بمقتضاه . وهكذا كان خيارهم وصفوتهم من الخلّص من المهاجرين السابقين الأولين ومن شابههم وتابعهم) وقيل معناه : أي: لَتذكيرٌ لك ولقومك ، وتخصيصهم بالذكر لاينفي من سواهم ﴿ **وسوف تُسألون** ﴾ قال ابن كثير : أي : عن هذا القرآن . وكيف كنتم في العمل به والاستجابة له ، وقال النسفي : أي : وسوف تسألون عنه يوم القيامة ، وعن قيامكم بحقه وعن تعظيمكم له ، وعن شكركم هذه النعمة . ولنا في الفوائد عودة على هذه الآية ﴿ **واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يُعْبَدون** ﴾ قال ابن كثير : أي : جميع الرسل دعوا إلى ما دعوت الناس إليه من عبادة الله وحده لا شريك له ، ونهوا عن عبادة الأصنام والأنداد .. وقال النسفي : (ليس المراد بسؤال الرسل حقيقة السؤال ولكنه مجاز عن النظر في أديانهم والفحص عن مللهم ، هل جاءت عبادة الأوثان قط في ملة من ملل الأنبياء ، وكفاه نظراً وفحصاً نظره في كتاب الله المعجز المصدق لما بين يديه ، وإخبار الله فيه بأنهم يعبدون من دون الله مالم ينزل به سلطاناً ، وهذه الآية في نفسها كافية لا حاجة إلى غيرها ، وقيل إنه عليه الصلاة والسلام جمع له الأنبياء ليلة الإسراء فأمّهم وقيل له : سلهم . فلم يشكّ ولم يسأل ، وقيل : معناه : سل أمم من أرسلنا وهم أهل الكتابين أي: التوراة والإنجيل ، وإنما يخبرونه عن كتب الرسل فإذا سألهم فكأنه سأل الأنبياء ، ومعنى هذا السؤال التقريع لعبدة الأوثان أنهم على الباطل) .

كلمة في السياق :

١ - بدأ المقطع الثاني بهاتين الآيتين اللتين تلفتان النظر إلى بعض خصائص هذا القرآن في كونه شرفاً للأمة التي نزل عليها . وفي دعوته إذ دعا إلى ما دعا إليه كل رسول ، وهذا يقتضي ألا ترتاب فيه الأمة التي نزل عليها ، بل تحمله حق الحمل ، فكيف ترتاب فيه وقد تضمّن دعوة الرسل جميعاً ؟! كيف وهي ستسأل عنه يوم القيامة ؟!

٢ - للمفسرين قولان في تفسير كلمة (الذكر) : أنّه بمعنى الشرف ، وأنه بمعنى التذكير ، وفي كل من القولين ذكر خاصية من خواصه تقتضي الإيمان به وعدم الريب .

فمن المحال أن يكون كتاب فيه مثل هذا التذكير بالله ورسله واليوم الآخر والحق على مثل هذا الكمال ويكون بشري المصدر .

٣ - في تفسير القوم في الآية ثلاثة أقوال . فقول أنهم «قريش» بدليل إيراد الترمذي : في هذا المقام الحديث الذي رواه البخاري عن معاوية عن رسول الله ﷺ : «إن هذا الأمر في قريش لا ينازعهم فيه أحد إلا أكبه الله على وجهه ماأقاموا الدين» . وقول أنهم العرب ؛ لأنهم قومه عليه الصلاة والسلام ، ولسانه لسانهم . وقول أنهم الأمة أي : أمة الاستجابة . كما فسَّر ذلك النسفي فقال : ﴿ **وإنّه لذكر لك ولقومك** ﴾ (أي : ولأمتك) أي : كل من استجاب لهذا القرآن فقد ناله الشرف العظيم عند الله ، وأيّاً ماكان الأمر فإن الصلة مابين الآيتين والمحور واضحة ، ﴿ **وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا** ﴾ من هذا القرآن الذي هو شرف لكم يامعشر قريش أو يامعشر العرب أو ياأيها الناس . إذ يخاطبكم الله أو الذي هو تذكير لكم بالحق كله . والذي سوف تسألون عنه والذي مضمونه الحق الذي هو دعوة الرسل جميعاً ﴿ **فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين** .. ﴾ . فالصلة واضحة بين الآيتين ومحور السورة .

٤ - يلاحظ أن الله عز وجل يقص علينا بعد مقدمة المقطع الثاني من نبأ موسى وفرعون ، وصلة ذلك بقوله تعالى : ﴿ **واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا** .. ﴾ واضحة ، فالله عز وجل يقصّ علينا من نبأ هؤلاء المرسلين ليرينا أن دعوة الرسل السابقين جميعاً هي دعوة هذا القرآن في التوحيد . وفي ذلك دليل من خلال المضمون على أن هذا القرآن من عند الله .

....

﴿ **ولقد أرسلنا موسى بآياتنا** ﴾ الكثيرة ﴿ **إلى فرعون وملئه** ﴾ من الأمراء والوزراء والقادة والأتباع والعامة ﴿ **فقال** ﴾ موسى ﴿ **إني رسول رب العالمين** ﴾ أي : رسول الله إليكم ، ومن السياق نفهم أنهم طالبوه بإحضار البيّنة على دعواه ، وإبراز الآية ؛ بدليل قوله تعالى ﴿ **فلما جاءهم بآياتنا إذا هم منها يضحكون** ﴾ أي : يسخرون منها ويهزؤون بها ويسمّونها سحراً ﴿ **ومانريهم من آية إلا هي أكبر من أختها** ﴾ أي : أعظم من صاحبتها ، أي : أعظم من التي كانت قبلها في نقض العادة ، والمراد بهذا الكلام : أنهن جميعاً موصوفات بالكبر ﴿ **وأخذناهم بالعذاب** ﴾ كالطوفان

والجراد والقمل والضفادع والدم ونقص الزروع والأنفس والثمرات ﴿ **لعلهم يرجعون** ﴾ عن الكفر إلى الإيمان ، ومع ذلك لم يرجعوا . ﴿ **وقالوا** ﴾ في كل مرة سلط عليهم فيها عذاب ﴿ **ياأيها الساحر ادع لنا ربك بما عهد عندك** ﴾ أي : بعهده عندك من أن دعوتك مستجابة ، أو بعهده عندك وهو النبوة ، أو بما عهد عندك من كشف العذاب عمّن اهتدى ﴿ **إننا لمهتدون** ﴾ أي : مؤمنون به ، وفسّر ابن جرير الساحر بالعالم . قال ابن كثير : (وكان علماء زمانهم هم السحرة ، ولم يكن السحر في زمانهم مذموماً عندهم ، فليس هذا منهم على سبيل الانتقاص منهم ؛ لأن الحال حال ضرورة منهم إليه لاتناسب ذلك ، وإنما هو تعظيم في زعمهم ، ففي كل مرة يعدون موسى عليه السلام إن كشف عنهم هذا أن يؤمنوا به ويرسلوا معه بني إسرائيل ، وفي كل مرة ينكثون ماعاهدوا عليه ، هذا كقوله تبارك وتعالى : ﴿ **فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات فاستكبروا وكانوا قوماً مجرمين * ولما وقع عليهم الرجز قالوا ياموسى ادع لنا ربك بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ولنرسلن معك بني إسرائيل * فلما كشفنا عنهم الرجز إلى أجل هم بالغوه إذا هم ينكثون** ﴾ (الأعراف : ١٣٣ : ١٣٥) .

﴿ **فلما كشفنا عنهم العذاب إذا هم ينكثون** ﴾ أي : ينقضون العهد بالإيمان ولا يوفون به ﴿ **ونادى فرعون في قومه** ﴾ أي : نادى بنفسه عظماء القبط . أو أمر منادياً فنادى ، ويحتمل أنه عمّم تعميماً ، أو وزّع منشوراً ؛ إذ إن بعض أوراق البردي المكتشفة تذكر أن رعمسيس الثاني وزع منشوراً ــ عثر على بعض نسخه ــ يدعو فيه إلى ألوهيته ، ولكن هناك خلاف في أن رعمسيس الثاني هو فرعون موسى .

﴿ **قال يا قوم أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار** ﴾ المتفرعة من النيل ﴿ **تجري من تحتي** ﴾ أي : من تحت قصري أو بين يدي ، أو من تحت سيطرتي ، أي : في ملكي ﴿ **أفلا تبصرون** ﴾ أفلا ترون ماأنا فيه من العظمة والملك يعني : وموسى وأتباعه فقراء ضعفاء . وقال النسفي : أي : أفلا تبصرون قوتي وضعف موسى ، وغناي وفقره . وهكذا استدل الخاسر على أن الحق معه بوجود الجاه والغنى والرفاه ، وهي حجة الكافرين وشبهة الضالّين وفتنة القاصرين ، وقد ناقشها المقطع الأول كما رأينا مناقشة واسعة ﴿ **أم** ﴾ أي : بل ﴿ **أنا خير من هذا الذي هو مهين** ﴾ أي ضعيف حقير ﴿ **ولايكاد يبين** ﴾ يعني : لايكاد يفصح عن الكلام فهو عييّ فقير . ويحتمل أن

يكون أم بمعنى بل وهمزة الاستفهام فيكون المعنى : بل ثبت عندكم واستقر أني أنا خير من موسى الضعيف العييّ . قال ابن كثير : وعلى كل تقدير فإنما يعني فرعون - لعنه الله - بذلك أنه خير من موسى عليه الصلاة والسلام ، وقد كذب في قوله كذباً بيّناً واضحاً ، وسننقل في الفوائد ماقاله ابن كثير في إبطال كلام فرعون في حق موسى ﴿ **فلولا ألقي عليه أسورة من ذهب** ﴾ الأسورة : هي مايجعل في الأيدي من الحلي ﴿ **أو جاء معه الملائكة مقترنين** ﴾ يكتنفونه خدمة له ويشهدون بتصديقه قال ابن كثير : (نظر إلى الشكل الظاهر ولم يفهم السر المعنوي الذي هو أظهر مما نظر إليه لو كان يفهم) وقال النسفي : (أراد بإلقاء الأسورةعليه إلقاء مقاليد الملك إليه لأنهم كانوا إذا أرادوا تسويد الرجل سوّروه بسوار وطوّقوه بطوق ذهب) .

أقول : هذا الذي قاله النسفي يحتمل ، ويحتمل أنه أراد إنزال الأسورة عليه من باب المعجزات ، وإعطاء الله عز وجل له الغنى والجاه العريض ؛ بدليل اقتراحه إنزال الملائكة يمشون معه مقترناً بعضهم ببعض ليكونوا أعضاده وحاشيته وأنصاره وأعوانه ﴿ **فاستخفّ قومه فأطاعوه** ﴾ قال ابن كثير : أي: استخف عقولهم فدعاهم إلى الضلالة فاستجابوا له وقال النسفي : أي : استفزهم بالقول واستنزلهم وعمل فيهم كلامه فأطاعوه ﴿ **إنهم كانوا قوماً فاسقين** ﴾ أي: خارجين عن دين الله ﴿ **فلما آسفونا** ﴾ أي: أغضبونا وأسخطونا ﴿ **انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين** ﴾ قال النسفي : ومعناه أنهم أفرطوا في المعاصي فاستوجبوا أن نعجّل لهم عذابنا وانتقامنا وألّا نحلم عنهم ﴿ **فجلعناهم سلفاً** ﴾ أي: سالفين لمثل من عمل بعملهم ﴿ **ومثلاً للآخرين** ﴾ أي: عبرة لمن بعدهم . قال النسفي : (أي: وحديثاً عجيب الشأن سائراً مسير المثل يضرب بهم الأمثال ، ويقال مثلكم مثل قوم فرعون ﴿ **للآخرين** ﴾ لمن يجيء بعدهم ، ومعناه : فجعلناهم قدوة للآخرين من الكفار يقتدون بهم في استحقاق مثل عقابهم ونزوله بهم لإتيانهم بمثل أفعالهم ومثلاً يحدثون به) .

كلمة في السياق :

١ - دلت الآيات أن مضمون دعوة رسل الله السابقين هو التوحيد ، وأرتنا الآيات أنه مع كل الآيات كَفَر فرعون وقومه . وأنهم بذلك استحقوا العذاب ، وبهذا أدّت الآيات أكثر من خدمة للسياق والمحور ، فكانت نموذجاً على مضمون رسالات الله ،

وهذا هو المراد الرئيسي في سياقها بدليل سبقها بقوله تعالى : ﴿ **واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يُعبَدون** ﴾ . وكانت نموذجاً على ماورد في أول السورة : ﴿ **وكم أرسلنا من نبي في الأولين * وما يأتيهم من نبي إلا كانوا به يستهزؤون * فأهلكنا أشد منهم بطشاً ومضى مثل الأولين** ﴾ لاحظ الصلة بين هذه الآيات وماورد ههنا ﴿ **إذا هم منها يضحكون** ﴾ ، ﴿ **فجعلناهم سلفاً ومثلاً للآخرين** ﴾ ثم لاحظ صلة بداية المقطع الثاني ببداية المقطع الأول : ﴿ **وإنه في أمّ الكتاب لدينا لعلي حكيم ..** ﴾ ، ﴿ **وإنه لذكر لك ولقومك** ﴾ .

وهكذا تجد كيف تتجسّد في السورة الخصائص التي ذكرت عن القرآن في كونه مبيناً ، وكونه علياً ، وكونه حكيماً ، وكونه مذكراً .

وأما صلة القصة بمحور السورة فمن أكثر من جهة : ﴿ **وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا** ﴾ مع أن مضمونه هو مضمون رسالات الله ، ومع ملاحظة ماأصاب المكذبين بهذه الرسالات ﴿ **فأتوا بسورة من مثله ..** ﴾ .

٢ – وبعد قصة موسى عليه السلام وفرعون يأتي قوله تعالى : ﴿ **ولما ضُرب ابن مريم مثلاً إذا قومك منه يَصِدّون** ﴾ .

لاحظ صلة ذلك ببداية المقطع ﴿ **وإنه لذكر لك ولقومك** ﴾ .

ولاحظ صلة ذلك ببداية السورة ﴿ **أفنضرب عنكم الذكر صفحاً أن كنتم قوماً مسرفين** ﴾ وصلة ذلك في المحور ﴿ **وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا ..** ﴾ فلنر الآيات :

....

﴿ **ولما ضُرب ابن مريم مثلاً** ﴾ من قبل الكافرين في كونه عُبِد من دون الله ، وذلك دليل في زعم الكافرين أنه في النار بناء على ماورد في سورة الأنبياء أنهم ومايعبدون من دون الله حصب جهنم ، فهذا عيسى يعبد من دون الله . فاستدلوا بذلك على أن القرآن ليس مستقيم العبارة وأنه .. وأنه .. وأنه .. وبنوا عليه : مادام عيسى على رأي القرآن في النار ـــ وليس ذلك معقولاً ـــ فآلهتهم ليست في النار ، وبالتالي فالقرآن ليس صحيح المضمون . وسنرى في الفوائد عند ذكر سبب نزول هذه الآية ، منْ الذي ضرب هذا المثل من الكافرين ، وما قصة ذلك . والذي نذكره هنا هو أن المشركين بنوا على هذا

الموضوع الكثير ، ورتبوا عليه ضرورة الثبات على كفرهم وصدودهم عن الحق ، ومن ثم قال تعالى : ﴿ **إذا قومك منه** ﴾ أي : من هذا المثل ﴿ **يَصِدّون** ﴾ أي : يرتفع لهم جلبة وضجيج فرحاً وضحكاً . أو يصدون عن الحق ويعرضون عنه . ﴿ **وقالوا أ آلهتنا خير أم هو** ﴾ قال النسفي : يعنون أن آلهتنا عندك ليست بخير من عيسى ؛ فإذا كان عيسى من حصب النار كان أمر آلهتنا هيناً ، وأعاد ابن كثير الضمير (هو) على محمد ﷺ بمعنى أآلهتنا خير أم محمد تثبيتاً لأنفسهم على الشرك ، وإثارة لبعضهم بعضاً على البقاء وعلى ماهم عليه ﴿ **ماضربوه لك إلا جدلاً** ﴾ أي : ماضربوا لك هذا المثل إلا لأجل الجدل والغلبة في القول ، لا لطلب الميز بين الحق والباطل ، قال ابن كثير : أي : مراءً وهم يعلمون أنه ليس بوارد على الآية ؛ لأنها لما لايعقل ، وهي قوله تعالى : ﴿ **إنكم وماتعبدون من دون الله حصب جهنم** ﴾ ثم هي خطاب لقريش ، وهم إنما كانوا يعبدون الأصنام والأنداد ولم يكونوا يعبدون المسيح حتى يوردوه ، فتعيّن أن مقالتهم إنما كانت جدلاً منهم ليسوا يعتقدون صحتها ﴿ **بل هم قوم خصمون** ﴾ أي : لداد شداد الخصومة دأبهم اللجاج ﴿ **إن هو** ﴾ أي : ماعيسى ﴿ **إلا عبد** ﴾ كسائر العبيد ﴿ **أنعمنا عليه** ﴾ بالنبوة ﴿ **وجعلناه مثلاً لبني إسرائيل** ﴾ أي : وصيّرناه عبرة عجيبة كالمثل السائر لبني إسرائيل قال ابن كثير : أي دلالة وحجة وبرهاناً على قدرتنا على مانشاء . ثم قال تعالى : ﴿ **ولو نشاء** ﴾ لقدرتنا على عجائب الأمور ﴿ **لجعلنا منكم** ﴾ أي : لبدلّنا منكم يارجال ﴿ **ملائكة** ﴾ يخلفونكم ومن ثم قال : ﴿ **في الأرض يَخلُفون** ﴾ أي : كما يخلفكم أولادكم قال النسفي : أي : كما وَلَّدنا عيسى من أنثى من غير فحل لتعرفوا تميّزنا بالمقدرة الباهرة فلتعلموا أن الملائكة أجسام لاتتولد إلا من أجسام ، والقديم متعال عن ذلك . وهذا الذي ذكرناه في تفسير الآية . هو أحد اتجاهين ذكرهما النسفي ، وعلى هذا القول فالآية تدلّل على قدرة الله ، وعلى انفراده بالوحدانية ، وأن الملائكة وعيسى ليسوا إلا عبيداً لله . وعلى هذا فالآية تخدم السياق الخاص للمقطع الثاني ، وتخدم ماورد في المقطع الأول من كون الملائكة عبيداً لله . وأما القول الثاني في تفسير الآية فهو : ولو نشاء لجعلنا بدلكم ملائكة في الأرض يخلف بعضهم بعضاً ، وفي هذا تهديد لأهل الأرض بإهلاكهم وفيه تحذير لقريش من تماديها في مثل هذا الكفر ، وجرأتهم عليه . وبهذا ينتهي المقطع .

كلمة في السياق العام والمقطع :

١ - لاحظنا أنّ المقطع الثاني بدأ بقوله تعالى : ﴿ **وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون • واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يُعبدُون** ﴾ وجاءت بعد ذلك قصة موسى وفرعون كنموذج على أنّ رسالات الله كلها دعت إلى التوحيد ، ثم جاءت الآيات الأخيرة تناقش فكرة خاطئة تمسّك بها المشركون للبقاء على شركهم ، وتردّ عليها ، وتفنّدها ، وبهذا قامت الحجة في المقطع على أنّ هذا القرآن من عند الله ، إنْ من خلال خصائصه ، أو من خلال مضمونه .

٢ - نلاحظ أن المقطع الأول سار على الترتيب التالي :

ا - ذكر بعض خصائص القرآن . ب - ثم ذكر سنة الله في الإرسال وموقف الخلق من الرسل . جـ - ثم ناقش عقائد الكافرين . د - ثم توجّه إلى خطاب رسول الله ﷺ .

ونلاحظ أن المقطع الثاني سار على نفس الترتيب تقريباً ماعدا القسم الأخير :

ا - ذكر بعض خصائص القرآن . ب - ثم ذكر مضمون رسالة من رسالات الله عز وجل بما يخدم سياق المقطع ، وبما يكون نموذجاً لما ورد في الفقرة الثانية من المقطع الأول . جـ - ثم ناقش شبهة من شبه المشركين وردّها ، وختمت المناقشة بما يخدم قضية عبودية الملائكة التي تحدّث عنها المقطع الأول .

إذا اتضح هذا نستطيع الآن أن نقول عن صلة السورة في المحور :

إنّ محور السورة هو قوله تعالى : ﴿ **وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله** .. ﴾ وقد جاء هذا المحور في حيّز قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون • الذي جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناءً وأنزل من السماء ماءً فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون** ﴾ .

ومن ثم نلاحظ أن السورة تحدثت عن معرفة الله ، وعَمّا خلق الله للإنسان ، وعن التوحيد ، وعن نفي الشرك . وكل ذلك في سياق السورة الذي يخدم المحور مباشرة .

﴿ **وإن كنتم في ريب مما نزّلنا على عبدنا** ﴾ من هذا القرآن الذي من خصائصه

البيان والعلو والحكمة والتذكير، والذي مضمونه التوحيد، وتصحيح العقائد، والذي يصدق كل رسل الله فيما بعثوا به ﴿ **فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين * فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين** ﴾. والآن يأتي مقطع جديد تشبه بدايته بداية المقطعين السابقين على أحد أوجه تفسير الآية الأولى منه؛ ومن ثم اعتبرناه مقطعاً جديداً، أما على الوجهين الآخرين اللذين سنذكرهما، فإن ما أسميناه المقطع الثالث يكون استمراراً للمقطع الثاني، وتكون السورة على هذا مؤلفة من مقدمة ومقطعين، وسنرى تفصيل هذا كله إن شاء الله تعالى.

....

فـوائد :

١ - بمناسبة قوله تعالى: ﴿ **وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون** ﴾. يقول صاحب الظلال: (ونص هذه الآية هنا يحتمل أحد مدلولين:

أن هذا القرآن تذكير لك ولقومك تسألون عنه يوم القيامة، فلا حجة بعد التذكير. أو أن هذا القرآن يرفع ذكرك وذكر قومك. وهذا ما حدث فعلا.

فأما الرسول ﷺ فإن مئات الملايين من الشفاه تصلي وتسلم عليه، وتذكره ذكر المحب المشتاق آناء الليل وأطراف النهار منذ قرابة ألف وأربعمائة عام. ومئات الملايين من القلوب تخفق بذكره وحبه منذ ذلك التاريخ البعيد إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

وأما قومه فقد جاءهم هذا القرآن والدنيا لا تحس بهم، وإن أحسّت اعتبرتهم على هامش الحياة. وهو الذي جعل لهم دورهم الأكبر في تاريخ هذه البشرية. وهو الذي واجهوا به الدنيا فعرفتهم ودانت لهم طوال الفترة التي استمسكوا فيها به. فلما أن تخلّوا عنه أنكرتهم الأرض، واستصغرتهم الدنيا؛ وقذفت بهم في ذيل القافلة هناك، بعد أن كانوا قادة الموكب المرموقين!.

وإنها لتبعة ضخمة تسأل عنها الأمة التي اختارها الله لدينه، واختارها لقيادة القافلة البشرية الشاردة، إذا هي تخلّت عن الأمانة: ﴿ **وسوف تسألون** ﴾ ..).

أقول: في هذه الآية تذكير للعرب الذين هم الآن أكثر شعوب المسلمين تركاً

للإسلام وهجراً له . وجرأة عليه وعلى أهله . مع أنّه شرفهم ولولاه لم يشرفوا . وبدونه لايبقى لهم شيء إلا الاحتقار والازدراء من قبل الشعوب ، والعذاب والحساب في الآخرة ، والتسليط عليهم في الدنيا ، ومع كثرة الباحثين عن المجد للعرب بغير الإسلام ، والمدّعين بأنّهم راغبون في إعادة مجدهم بطرق غير إسلامية . فإن العرب يزدادون ذلة . وصدق عمر بن الخطاب : «نحن قوم أعزنا الله بالإسلام فمهما ابتغينا العزة بغير ما أعزنا به الله أذلنا الله» .

٢ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **فاستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوماً فاسقين** ﴾ .. قال صاحب الظلال : (واستخفاف الطغاة للجماهير أمر لا غرابة فيه ؛ فهم يعزلون الجماهير أولاً عن كل سبل المعرفة ، ويحجبون عنهم الحقائق حتى ينسوها ، ولا يعودوا يبحثون عنها ، ويلقون في روعهم مايشاءون من المؤثرات حتى تنطبع نفوسهم بهذه المؤثرات المصطنعة . ومن ثم يسهل استخفافهم بعد ذلك ، ويلين قيادهم ، فيذهبون بهم ذات اليمين وذات الشمال مطمئنين .

ولا يملك الطاغية أن يفعل بالجماهير هذه الفعلة إلا وهم فاسقون لا يستقيمون على طريق ، ولا يمسكون بحبل الله ، ولا يزنون بميزان الإيمان ، فأما المؤمنون فيصعب خداعهم واستخفافهم واللعب بهم كالريشة في مهب الريح . ومن هنا يعلل القرآن استجابة الجماهير لفرعون فيقول : ﴿ **فاستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوماً فاسقين** ﴾ ..) .

٣ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **فلما آسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين** ﴾ قال ابن كثير : (قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما : آسفونا : أسخطونا ، وقال الضحاك عنه : أغضبونا ، وهكذا قال ابن عباس أيضاً ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير ومحمد بن كعب القرظي وقتادة والسدي وغيرهم من المفسرين وروى ابن أبي حاتم عن عقبة بن عامر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «إذا رأيت الله تبارك وتعالى يعطي العبد ما يشاء وهو مقيم على معاصيه فإنما ذلك استدراج منه له» ثم تلا ﷺ قوله سبحانه : ﴿ **فلما آسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين** ﴾ وعن أبي طارق بن شهاب قال : كنت عند عبد الله رضي عنه فذكر عنده موت الفجأة فقال : تخفيف على المؤمن ، وحسرة على الكافر ثم قرأ رضي الله عنه ﴿ **فلما آسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين** ﴾ وقال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه وجدت النقمة مع الغفلة يعني : قوله

تبارك وتعالى ﴿ **فلما آسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين** ﴾ .) .

٤ - وبمناسبة قوله تعالى : ﴿ **ولما ضُرب ابنُ مريم مثلاً إذا قومك منه يصدون** ﴾ قال ابن كثير : (وكأن السبب في ذلك ماذكره محمد بن إسحاق في السيرة حيث قال : وجلس رسول الله ﷺ فيما بلغني يوماً مع الوليد بن المغيرة في المسجد فجاء النضر ابن الحارث حتى جلس معهم ، وفي المجلس غير واحد من رجال قريش ، فتكلم رسول الله ﷺ فعرض له النضر بن الحارث ، فكلّمه رسول الله ﷺ حتى أفحمه ثم تلا عليه وعليهم : ﴿ **إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون** ﴾ (الآيات من سورة الأنبياء) : ثم قام رسول الله ﷺ وأقبل عبد الله بن الزبعرى التميمي حتى جلس فقال الوليد بن المغيرة له : والله ما قام النضر بن الحارث لابن عبد المطلب وما قعد ، وقد زعم محمد أنا وما نعبد من آلهتنا هذه حصب جهنم ، فقال عبد الله بن الزبعرى : أما والله لو وجدته لخصمته ، سلوا محمداً أكل مايعبد من دون الله في جهنم مع من عبده ، فنحن نعبد الملائكة ، واليهود تعبد عزيراً ، والنصارى تعبد المسيح ابن مريم . فعجب الوليد ومن كان معه في المجلس من قول عبد الله بن الزبعرى ، ورأوا أنه قد احتج وخاصم فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال : « كل من أحب أن يعبد من دون الله فهو مع من عبده ، فإنهم إنما يعبدون الشيطان ومن أمرهم بعبادته » فأنزل الله عز وجل ﴿ **إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون** ﴾ (الأنبياء : ١٠١) أي : عيسى وعزير ومن عُبد معهما من الأحبار والرهبان الذين مضوا على طاعة الله عز وجل فاتخذهم من بعدهم من أهل الضلالة أرباباً من دون الله ، ونزل فيما يذكر من أنهم يعبدون الملائكة وأنهم بنات الله ﴿ **وقالوا اتخذ الرحمن ولداً سبحانه بل عباد مكرمون** ﴾ الآيات (الأنبياء:٢٦) ونزل فيما يذكر من أمر عيسى عليه الصلاة والسلام ، وأنه يعبد من دون الله ، وعجب الوليد ومن حضره من حجته وخصومته ﴿ **ولما ضرب ابن مريم مثلا إذا قومك منه يصدون** ﴾ أي : يصدون عن أمرك بذلك من قوله) .

المقطع الثالث

ويمتد من الآية (٦١) إلى نهاية الآية (٨٩) أي : إلى نهاية السورة وهذا هو :

وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ

ٱلشَّيْطَٰنُ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم
بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ
هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ
مِنۢ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٦٥﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن
تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا
ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ
عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ
وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٧١﴾ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾
لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ
﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ
﴿٧٦﴾ وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ
وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٨﴾ أَمْ أَبْرَمُوٓا۟ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا
لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ
وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾ سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا

يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾
وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَٰهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾ وَتَبَارَكَ
الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ
تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾ وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ
وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾
وَقِيلِهِ يَا رَبِّ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ ۚ فَسَوْفَ
يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾

التفسير :

﴿ **وإنه لعلم للساعة** ﴾ الضمير في ﴿ **وإنه** ﴾ مختلف فيه . فالحسن البصري وسعيد ابن جبير أعاداه على القرآن ، وابن إسحق يرى أنه يعود على عيسى ، ولكن من حيث إنه قد وجد فأحيا الموتى وأبرأ الأكمه والأبرص ، وغير ذلك من الأسقام . وقد استبعد ابن كثير هذين الاتجاهين ورجّح أن الضمير في عيسى عليه السلام ، وأن المراد بذلك نزوله قبل يوم القيامة . قال ابن كثير : ويؤيد هذا المعنى القراءة الأخرى ﴿ **وإنه لعلَم للساعة** ﴾ أي : أمارة ودليل على وقوع الساعة . قال مجاهد ﴿ **وإنه لعلم للساعة** ﴾ أي : آية للساعة خروج عيسى بن مريم عليه السلام قبل يوم القيامة ، وهكذا روي عن أبي هريرة وابن عباس وأبي العالية وأبي مالك وعكرمة والحسن وقتادة والضّحاك وغيرهم ، وقد تواترت الأحاديث عن رسول الله ﷺ أنه أخبر بنزول عيسى عليه السلام قبل يوم القيامة إماماً عادلاً وحكماً مقسطاً ﴿ **فلا تمترن بها** ﴾ أي : فلا تشكّن بها ، أو لا تشكّوا فيها ، إنها واقعة وكائنة لا محالة ﴿ **واتبعون** ﴾ قال النسفي : أي : واتبعوا هداي وشرعي ، أو رسولي ، أو هو أمر لرسول الله ﷺ أن يقوله ، وعلى هذا فالقائل إما الله عز وجل ، وإما رسول الله ﷺ بأمر الله . ﴿ **هذا صراط**

مستقيم ﴾ أي : هذا الذي أدعوكم إليه ﴿ **صراط مستقيم** ﴾ لاعوج فيه : لا في العقائد ، ولا في العبادات ، ولا في الشرائع ، ولا في الشعائر ، ولا في غير ذلك ﴿ **ولا يصدنّكم الشيطان** ﴾ أي : عن الإيمان بالساعة ، أو اتباع الحق ﴿ **إنه** ﴾ أي : الشيطان ﴿ **لكم عدو مبين** ﴾ أي : ظاهر العداوة ﴿ **ولما جاء عيسى بالبينات** ﴾ أي : بالمعجزات البيّنات الواضحات ﴿ **قال** ﴾ عيسى ﴿ **قد جئتكم بالحكمة** ﴾ أي : بالإنجيل أو بالنبوة ﴿ **ولأبيّن لكم بعض الذي تختلفون فيه** ﴾ قال ابن جرير : يعني من الأمور الدينية لا الدنيوية . قال ابن كثير : وهذا الذي قاله حسن جيد . ﴿ **فاتقوا الله** ﴾ أي : فيما أمركم به ﴿ **وأطيعون** ﴾ فيما جئتكم به ﴿ **إن الله هو ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم** ﴾ هذا تمام كلام عيسى عليه السلام أي : أنا وأنتم عبيد له ، فقراء إليه ، مشتركون في عبادته وحده لاشريك له . فاعبدوه وحده ، هذا صراط مستقيم . أي : عبادة الله وحده هي الصراط المستقيم ﴿ **فاختلف الأحزاب من بينهم** ﴾ أي : من بين النّصارى . قال ابن كثير : (أي : اختلفت الفرق وصاروا شيعاً فيه ، منهم من يقرّ بأنه عبد الله ورسوله وهو الحق ، ومنهم من يدّعي أنّه ولد الله ، ومنهم من يقول إنه الله ، تعالى عن قولهم علواً كبيراً) ولهذا قال تعالى : ﴿ **فويل للذين ظلموا من عذاب يوم أليم** ﴾ وهو يوم القيامة .

....

كلمة في السياق :

١ - رأينا أن أكثر المفسرين على أن الضمير في قوله تعالى ﴿ **وإنه لعلم للساعة** ﴾ في المسيح عليه السلام ، ورأينا أن هناك اثنين من كبار العلماء قالا : إن الضمير يعود على القرآن ، ولاشك أنّ القرآن فيه علم الساعة ، فقد تحدّث عن الساعة حديثاً عجيباً ، وعلى القراءة الثانية فإن نزوله كذلك عَلَمٌ على الساعة أي : أمارة من أماراتها . كيف والرسول ﷺ من علامات الساعة كما سنرى في سورة محمد ﷺ فعلى كلا القراءتين يمكن حمل الآية على القرآن ، بل على القراءة الأولى ﴿ **وإنه لعلم للساعة** ﴾ الأوْلى أن نحمله على القرآن ؛ لأن القرآن فيه علم الساعة حقاً ، ثم إن الخطاب توجّه بعد ذلك لهذه الأمة . ﴿ **فلا تمترن بها واتبعون هذا صراط مستقيم * ولا يصدنكم الشيطان إنه لكم عدو مبين** ﴾ فالأليق إذن أن يكون الحديث عن القرآن . أما أن السياق في المسيح عليه السلام فهذه قضية فيها نظر ؛ لأن الآية السابقة مباشرة على هذه الآية كانت حديثاً عن

الملائكة ﴿ **ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكة في الأرض يخلفون** ﴾ والحديث قبل ذلك عن المسيح كان في معرض الردّ على شبهة للكافرين نشأت بسبب فهم خاطىء لآية قرآنية ، ومن ثم فإننا نرجّح رأي الحسن البصري وسعيد بن حبير في أن الضمير يعود للقرآن فيكون سياق السورة على الشكل التالى :

بدأت السورة بمقدمة ، ثم بحديث عن القرآن : ﴿ **وإنه في أم الكتاب لدينا لعليٌّ حكيم .** ﴾ .

ثمّ انتهى مقطع وجاء مقطع مبتدئاً بالحديث عن القرآن : ﴿ **وإنّه لذكر لك ولقومك ..** ﴾ .

ثم انتهى مقطع وجاء مقطع مبتدئاً بالحديث عن القرآن : ﴿ **وإنه لعِلم للساعة فلا تمترن بها واتبعون هذا صراط مستقيم ..** ﴾ .

فالمقطع الأول بدأ بذكر خاصيتين للقرآن : العلو ، والحكمة .

والمقطع الثاني بدأ بذكر خاصية للقرآن وهي التذكير .

والمقطع الثالث بدأ بذكر خاصية للقرآن وهي كونه علماً للساعة ، ومن تأمل القرآن ورأى فيه الكلام الكثير عن الساعة ، ودقائق مايكون فيها وقبلها وبعدها . والتدليل عليها أيقن أن هذا القرآن من عند الله بلا شك ولا ريب . والآن فلنر سياق المقطع الثالث بعد أن رجحنا أن بدايته ماذكرناه .

٢ – بدأ المقطع بذكر أن القرآن علم للساعة أي بذكر خاصية من خواص القرآن ، ثم نهى عن الشك في الساعة ، وأمر باتباع القرآن ، ونهى أن يصدهم الشيطان عن هذا الاتّباع ، وجعل اتّباع القرآن هو الصراط المستقيم .

ثم بين أن الأمر بالاتباع والطاعة والعبادة هو دعوة عيسى عليه السلام ، وهو الصراط المستقيم . فالكلام عن عيسى عليه السلام بيان لكون دعوة القرآن هي دعوة الرسل جميعاً ؛ فكما أن المقطع الثاني ذكر خاصية من خواص القرآن فكذلك المقطع الثالث . وكما أن المقطع الثاني ذكر نموذجاً على كون دعوة الرسل واحدة بالكلام عن موسى عليه السلام . فإن المقطع الثالث ثنىّ بذكر نموذج على كون دعوة الرسل واحدة في الكلام عن عيسى عليه السلام ، وكما ذكر المقطع الثاني أن فرعون وقومه لم يقبلوا دعوة الله فعوقبوا بيَّن المقطع الثالث أن قوم عيسى اختلفوا فاستحقوا العقاب .

٣ – نلاحظ أن الانتقال من المقطع الثاني إلى الثالث كان في غاية الربط إلى درجة أن أكثر المفسرين اعتبروا أن بداية المقطع الثالث كانت استمراراً لنهاية المقطع الثاني .

٤ – نلاحظ أن المقطع الأول بدأ بقوله تعالى : ﴿ **وإنه في أم الكتاب لدينا لعلي حكيم** ﴾ ثمّ جاءت تتمة المقطع الأول فكانت نموذجاً على علو القرآن وحكمته . ونلاحظ أن المقطع الثاني بدأ بقوله تعالى : ﴿ **وإنه لذكر لك ولقومك** ﴾ وكان في المقطع تذكير . فهو نموذج على كون القرآن ذكراً ، ونلاحظ أن المقطع الثالث بدأ بقوله تعالى : ﴿ **وإنه لعِلم للساعة** ﴾ ونلاحظ أن الحديث عن الساعة يستغرق أكثره ، ومن ثم يأتي بعد الآيات السابقة مباشرة قوله تعالى : ﴿ **هل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة وهم لايشعرون** ﴾ ولو تذكرنا سورة يوسف فإننا نجد أن في خاتمتها هذه الآية ﴿ **أفأمنوا أن تأتيهم غاشية من عذاب الله أو تأتيهم الساعة بغتة وهم لايشعرون** ﴾ مما يشير إلى التشابه بين السورتين ويؤكد على وحدة محوريهما بالتالي ، فلنمض في التفسير ..

....

﴿ **هل ينظرون** ﴾ أي : هؤلاء المشركون المكذبون للرسل ﴿ **إلا الساعة أن تأتيهم بغتة** ﴾ أي : فجأة أي : هل ينظرون إلا إتيان الساعة فجأة ﴿ **وهم لايشعرون** ﴾ أي : وهم غافلون لاشتغالهم بأمور دنياهم قال ابن كثير : أي : فإنها كائنة لا محالة وواقعة ، وهؤلاء غافلون عنها غير مستعدين ، فإذا جاءت إنما تجيء وهم لا يشعرون بها ، فحينئذ يندمون كل الندم حيث لاينفعهم ولايدفع عنهم ﴿ **الأخلاء** ﴾ أي : الأصحاب والأصدقاء والرفقاء والمتعاشرون ﴿ **يومئذ** ﴾ أي : يوم القيامة ﴿ **بعضهم لبعض عدو إلا المتقين** ﴾ أي : المؤمنين . قال النسفي : أي : تتقطّع في ذلك اليوم كل خلة بين المتخالّين في غير ذات الله ، وتنقلب عداوة ومقتاً إلا خلة المتصادقين في الله ، فإنها الخلة الباقية ﴿ **ياعباد لاخوف عليكم اليوم ولاأنتم تحزنون** ﴾ هذه الآية حكاية لما ينادى به المتقون المتحابون في الله يومئذ ﴿ **الذين آمنوا** ﴾ أي : صدّقوا ﴿ **بآياتنا** ﴾ أي : القرآن ﴿ **وكانوا مسلمين** ﴾ لله أي : منقادين له .

....

كلمة في السياق :

في هذه الآيات ومابعدها يعطينا الله صورة عن الساعة ، وعما يكون فيها ، وصلة

ذلك بسياق المقطع واضحة . فلنر الآن صلة مامرّ كله ومايمرُّ بمحور السورة :

إنّ الربط بين السورة ومحورها - والله أعلم - على الشكل التالي :

﴿ **وإن كنتم في ريب مما نزّلنا على عبدنا** ﴾ من هذا القرآن الذي لاشكّ فيه لأنه مبين وعليٌّ وحكيم وذكر وعلم للساعة . فإن كنتم في ريب منه بعد هذا كله ﴿ **فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين * فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين * وبشّر الذين آمنوا وعملوا الصالحات** .. ﴾ وهذا السياق يحدّثنا أن المتقين وحدهم هم الذين لايعادي بعضهم بعضاً يوم القيامة . وهم الذين لاخوف عليهم ولاهم يحزنون ، وهم الذين آمنوا بالقرآن فلم يرتابوا وكانوا مسلمين أي : منقادين لآياته مستسلمين لله فيها ، وهاهي ذي سورة الزخرف تبشّرهم ، ثمّ تعود للحديث عن عذاب الكافرين .

....

﴿ **ادخلوا الجنة** ﴾ أي : يقال لهم ادخلوا الجنة ﴿ **أنتم وأزواجكم** ﴾ المؤمنات في الدنيا ﴿ **تحبرون** ﴾ أي : تسرون سروراً يظهر حباره ، أي : أثره على وجوهكم ، هذا تفسير النسفي . وفسّر ابن كثير الأزواج بالنظراء والله أعلم ﴿ **يطاف عليهم بِصحاف** ﴾ جمع صحفة . وهي نوع من أنواع أواني الطعام . ﴿ **من ذهب وأكواب** ﴾ من ذهب أيضاً والكوب نوع من أنواع آنية الشراب . قال النسفي : والكوب الكوز لاعروة له . وقال ابن كثير : وهي آنية الشراب أي : من ذهب لاخراطيم لها ولاعرى ﴿ **وفيها** ﴾ أي : وفي الجنة ﴿ **ماتشتهيه الأنفس وتلذُ الأعين** ﴾ قال ابن كثير : أي : طيب الطعم والريح وحسن المنظر ، وقال النسفي : وهذا حصر لأنواع النعم ؛ لأنها إما مشتهيات في القلوب أو مستلذة في العيون . ﴿ **وأنتم فيها** ﴾ أي : في الجنة ﴿ **خالدون** ﴾ أي : لاتخرجون منها ولاتبغون عنها حولاً ، ثم قيل لهم على وجه التفضل والامتنان ﴿ **وتلك الجنة التي أورثتموها بما كنتم تعملون** ﴾ قال ابن كثير : أي : أعمالكم الصالحة كانت سبباً لشمول رحمة الله إياكم ، فإنه لايُدخِل أحداً عمله الجنة ولكن برحمة الله وفضله ، وإنّما الدرجات ينال تفاوتها بحسب الأعمال الصالحات ﴿ **لكم فيها فاكهة كثيرة** ﴾ أي : من جميع الأنواع . ﴿ **منها تأكلون** ﴾ أي : مهما اخترتم وأردتم ﴿ **ومن** ﴾ في الآية للتبعيض . قال النسفي : (أي : لاتأكلون إلا بعضها وأعقابها باقية في شجرها . فهي مزيّنة بالثمار أبداً ..) وقال ابن كثير : (ولما ذكر الطعام

والشراب ذكر بعده الفاكهة لتتم النّعمة والغبطة) .

....

كلمة في السياق :

قصّ الله عز وجل علينا في الآيات السابقة ماأعدّه للمتقين المؤمنين المسلمين في الجنة يوم القيامة . بعد أن تقوم الساعة ، والآن يحدثنا عن حال أهل النار .

﴿ **إن المجرمين في عذاب جهنم خالدون** ﴾ أبداً ﴿ **لايفتّر عنهم** ﴾ أي : لا يخفف عنهم ساعة واحدة ولاينقص ﴿ **وهم فيه** ﴾ أي : في العذاب ﴿ **مبلسون** ﴾ أي : آيسون من الفرج متحيرّون قال ابن كثير : أي آيسون من كل خير ﴿ **وما ظلمناهم** ﴾ بالعذاب ﴿ **ولكن كانوا هم الظالمين** ﴾ قال ابن كثير : أي بأعمالهم السيئة بعد قيام الحجة عليهم ، وإرسال الرسل إليهم فكذّبوا وعصوا فجوزوا بذلك جزاءً وفاقاً ، وما ربك بظلام للعبيد ﴿ **ونادوا** ﴾ بعد أن أيسوا من فتور العذاب ﴿ **يا مالك** ﴾ هو خازن النار ﴿ **ليقض علينا ربك** ﴾ أي : ليمتنا أو ليقبض أرواحنا فيريحنا مما نحن فيه والمعنى : سل ربك أن يقضي علينا ﴿ **قال** ﴾ مالك ﴿ **إنكم ماكثون** ﴾ قال ابن عباس : مكث ألف سنة ثم قال : إنكم ماكثون رواه ابن أبي حاتم أي لا خروج لكم منها ، ولا محيد لكم عنها ثم ذكر سبب شقوتهم ، وهو مخالفتهم للحق ومعاندتهم له فقال ﴿ **لقد جئناكم** ﴾ أي : نحن الملائكة إذ هم رسل الله ومالكٌ منهم ﴿ **بالحق** ﴾ أي : بيّناه لكم ووضّحناه وفسّرناه ﴿ **ولكن أكثركم للحق كارهون** ﴾ قال النسفي : أي لاتقبلونه وتنفرون منه ، لأن مع الباطل الدِعَة ، ومع الحق التعب . قال ابن كثير : أي ولكن كانت سجاياكم لاتقبله ولاتُقبل عليه ، وإنما تنقاد للباطل وتعظّمه ، وتصدّ عن الحقّ وتأباه ، وتبغض أهله فعودوا على أنفسكم بالملامة ، واندموا حيث لاتنفعكم الندامة ..)

....

كلمة في السياق :

بدأ المقطع بالكلام عن القرآن بقوله : ﴿ **وإنه لعِلم للساعة فلا تمترن بها واتبعون هذا صراط مستقيم * ولايصدنكم الشيطان إنه لكم عدو مبين** ﴾ ثم حدثنا الله عز وجل عن عيسى بما يؤكد أن دعوته هي دعوة محمد ﷺ ، ثم خاطب الله المشركين

بقوله ﴿ **هل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة وهم لايشعرون** ... ﴾ .

ثم تحدّث عما يكون بعد الساعة للكافرين والمتقين :

ثم يعود الكلام لمواجهة المشركين : ﴿ **أم أبرموا أمراً فإنّا مبرمون** ... ﴾ ذكّرهم بما يكون في الساعة ، ثمّ أنذرهم أن كيدهم باطل ، وأن أعمالهم مكتوبة فلنر الآيات اللاحقة :

﴿ **أم أبرموا أمراً**﴾ أي : أم أحكم المشركون أمراً من كيدهم ومكرهم بمحمد ﷺ ﴿ **فإنا مبرمون** ﴾ كيدنا كما أبرموا كيدهم ، قال مجاهد : أرادوا كيد شَرٍّ فكدناهم . دلّ ذلك على أن المشركين كانوا يتحيّلون في رد الحق بالباطل بحيل ومكر يسلكونه ، فكادهم الله تعالى وردّ وبال كيدهم عليهم ﴿ **أم يحسبون أنّا لانسمع سرَّهم** ﴾ أي : حديث أنفسهم ﴿ **ونجواهم** ﴾ أي : مايتحدثونه فيما بينهم ويخفونه عن غيرهم ؛ إذ يكيدون لمحمد ﷺ ويأتمون ﴿ **بلى** ﴾ أي : نسمعها ونطّلع عليها ﴿ **ورسلُنا لديهم** ﴾ أي : الحفظة عندهم ﴿ **يكتبون** ﴾ ذلك قال ابن كثير : أي نحن نعلم ماهم عليه والملائكة أيضاً يكتبون أعمالهم صغيرها وكبيرها .

كلمة في السياق :

أنذر الله - في هذا المقطع - الكافرين بالساعة ، وحذّرهم أنّ عاقبة مكرهم ضدّ الإسلام عائدة عليهم ، وأنهم سيحاسبون على أعمالهم ، كما بشر المتقين . ونلاحظ بعد ذلك أن أمراً مباشراً لرسول الله ﷺ يتوجّه . وعندما ندرس الأمر وندرس ما بعده نجد أنّ له صلة بكل مامَرّ من السّورة . فكأن ما بقي من السورة هو خاتمتها التي تضيء على ماقبلها والتي هي محصلة لها ، فقد رأينا أن السورة حدّثتنا عن كون المشركين يعْتبرون أن الملائكة بنات الله ، كما ورد في المقطع الأول ، ورأينا أن المقطع الثاني حدثنا عن عبودية المسيح لله ، ورأينا أن المقطع الثالث حدثنا عن اختلاف النصارى في شأن المسيح ، وقد بيّن الله عز وجل الحق في هذه الشؤون كلها . والآن يأمر الله عز وجل رسوله ﷺ أن يعلن :

﴿ **قل** ﴾ يا محمد ﴿ **إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين** ﴾ قال ابن كثير : أي لو فرض هذا لعبدته على ذلك لأني عبد من عبيد الله ، مطيع لجميع ما يأمرني به ، ليس

عندي استكبار ولا إباء عن عبادته ، فلو فرض هذا لكان هذا ، ولكن هذا ممتنع في حقه تعالى . والشرط لايلزم منه الوقوع ولا الجواز أيضاً ... وقال السدي : أي ولو كان له ولد كنت أول من عبده بأن له ولداً ، ولكن لاولد له وهو اختيار ابن جرير ، وقال النسفي : ﴿**إن كان للرحمن ولد**﴾ وصح ذلك ببرهان ﴿ **فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ** ﴾ فأنا أول من يعظم ذلك الولد ، وأسبقكم إلى طاعته ، والانقياد إليه ، كما يعظم الرجل ولد الملك لتعظيم أبيه ، وهذا كلام وارد على سبيل الفرض ، والمراد نفي الولد وذلك أنه علّق العبادة بكينونة الولد وهي محال في نفسها ، فكان المعلق بها محالاً مثلها) .

ثم نزّه الله عز وجل ذاته عن اتخاذ الولد فقال ﴿ **سبحان رب السمٰوات والأرض رب العرش عما يصفون** ﴾ قال ابن كثير : أي تعالى وتقدس وتنزّه خالق الأشياء عن أن يكون له ولد ، فإنه فرد أحد صمد ، لا نظير له ولا كفء له ولا ولد له .. وقال النسفي : (أي هو رب السمٰوات والأرض والعرش فلا يكون جسماً ، إذ لو كان جسماً لم يقدر على خلقها ، وإذا لم يكن جسماً لايكون له ولد ؛ لأن التولد من صفة الأجسام) وبعد أن أمره الله أن يعلن هذا الإعلان وينزه الله هذا التنزيه بعد أن أقام عليهم الحجة في السورة أمر الله رسوله ﷺ الأمر الثاني ﴿ **فذرهم** ﴾ فدعهم ﴿ **يخوضوا** ﴾ في باطلهم وجهلهم وضلالهم . ﴿ **ويلعبوا** ﴾ في دنياهم ﴿ **حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون** ﴾ أي: يوم القيامة أي: فسوف يعلمون كيف يكون مصيرهم ومآلهم وحالهم في ذلك اليوم . قال النسفي : (وهذا دليل على أن مايقولونه من باب الجهل والخوض واللعب ..) .

كلمة في السياق :

بدأت السورة بمقدمة ثم بالمقطع الأول . وبدأ المقطع الأول بمقدمة حول القرآن ، ثم بين موقف الكافرين بشكل ضمني من هذا القرآن ، ثم جاء قوله تعالى ﴿ **ولئن سألتهم من خلق السمٰوات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم** ﴾ . وقلنا هناك إن السياق اتجه إلى معالجة أصل المشكلة ، وهي قضية العقيدة التي الأصل فيها معرفة الله ، ونفي الشرك ، وتأكيد التوحيد ، وتوضيح قضية اليوم الآخر ، وقد عالجها السياق كلها كما رأينا – وبعد المعالجة الطويلة يعود السياق الآن للتعريف بالله عز وجل ، وينتهي هذا – مرّة أخرى – بقوله تعالى ﴿ **ولئن سألتهم** ﴾ وكأن ماورد بين ﴿ **ولئن سألتهم** ﴾ في

أول السورة ﴿ **ولئن سألتهم** ﴾ في آخر السورة - كل ذلك يعالج أصل القضية ، قضية العقيدة الفاسدة التي تنبع عنها المواقف السيئة ..

﴿ **وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله** ﴾ قال ابن كثير : أي هو إله من في السماء ، وإله من في الأرض ، يعبده أهلها وكلهم خاضعون له أذلاء بين يديه ﴿ **وهو الحكيم** ﴾ في أقواله وأفعاله ﴿ **العليم** ﴾ بما كان ويكون ﴿ **وتبارك الذي له ملك السموات والأرض وما بينهما** ﴾ قال ابن كثير : أي هو خالقهما ومالكهما والمتصرف فيهما بلا مدافعة ولاممانعة ، فسبحانه وتعالى عن الولد (وتبارك) أي : استقر له السلامة من العيوب والنقائص ، لأنه الرب العلي العظيم المالك للأشياء الذي بيده أزمّة الأمور نقضاً وإبراماً ﴿ **وعنده علم الساعة** ﴾ أي : علم وقتها أي : لا يجليها لوقتها إلا هو ﴿ **وإليه ترجعون** ﴾ فيجازي كلّاً بعمله ، إن خيراً فخير وإن شراً فشر ﴿ **ولا يملك الذين يدعون** ﴾ أي : يدعونهم ﴿ **من دونه** ﴾ أي : من دون الله ، أي : لا يملك شركاؤهم وآلهتهم ﴿ **الشفاعة** ﴾ كما زعموا أنهم شفعاؤهم عند الله ، أي : لا يقدرون على الشفاعة لهم ﴿ **إلا من شهد بالحق** ﴾ أي : بكلمة التوحيد ﴿ **وهم يعلمون** ﴾ أن الله ربهم حقاً ويعتقدون ذلك فهؤلاء هم الذين يعطون الشفاعة . قال ابن كثير : (أي لكن من شهد بالحق على بصيرة وعلم فإنه تنفع شفاعته عنده بإذنه) ﴿ **ولئن سألتهم** ﴾ أي : المشركين ﴿ **من خلقهم ليقولن الله** ﴾ لا الأصنام ولا الملائكة . قال ابن كثير : أي هم يعترفون أنه الخالق للأشياء جميعها وحده لا شريك له في ذلك ، ومع هذا يعبدون معه غيره ممن لا يملك شيئاً ولا يقدر على شيء ، فهم في ذلك في غاية الجهل والسفاهة وسخافة العقل ، ولهذا قال تعالى ﴿ **فأنّى يؤفكون** ﴾ أي : فكيف ، أو من أين يصرفون عن التوحيد مع هذا الإقرار .

....

كلمة في السياق :

بعد أن عالجت السورة موضوع العقيدة - كما رأينا - وأقامت الحجة بعد الحجة على أن هذا القرآن من عند الله ، وأن محمداً رسول الله ﷺ ، تختتم السورة الآن بآيتين فيهما شكوى تعبّر عن حال رسول الله ﷺ كأثر عن عدم إيمان قومه ، وفيها توجيه من الله عز وجل مما يشير إلى أن هؤلاء المشركين دأبهم دأب السابقين من أشباههم الذين كذّبوا الرسل والذين ذكرتهم السورة في بداياتها .

﴿ **وقيله** ﴾ أي: وقال الرسول ﷺ لله شاكياً ﴿ **يارب إن هؤلاء قوم لايؤمنون** ﴾ قال قتادة : هو قول نبيّكم ﷺ يشكو قومه إلى ربه عز وجل قال تعالى ﴿ **فاصفح عنهم** ﴾ أي: عن المشركين أي فأعرض عن دعوتهم يائساً من إيمانهم وودّعهم وتاركهم ﴿ **وقل** ﴾ لهم ﴿ **سلام** ﴾ قال ابن كثير أي لا تجبهم بمثل مايخاطبونك به من الكلام السيء ، ولكن تألّفهم واصفح عنهم قولاً وفعلاً ﴿ **فسوف يعلمون** ﴾ قال ابن كثير : (هذا تهديد من الله تعالى لهم ، ولهذا أحلّ بهم بأسه الذي لا يردّ ، وأعلى دينه وكلمته ، وشرع بعد ذلك الجهاد والجلاد ، حتى دخل الناس في دين الله أفواجاً ، وانتشر الإسلام في المشارق والمغارب) أقول : وفي الآية تهديد بما سيرونه كذلك في اليوم الآخر . وبهذا انتهت السورة مرتبطاً أوّلها بآخرها ، محققاً سياقها مجموعة أمور بآن واحد كما سنرى في الكلمة الأخيرة عن السورة مفصّلة في محورها تفصيلاً زائداً على مافصله غيرها كما فلننقل الآن بعض الفوائد المتعلّقة بالمقطع الثالث .

فــوائد :

١ - رأينا أن أرجح الأقوال عند المفسرين في قوله تعالى : ﴿ **وإنه لعِلم للساعة فلا تمترن بها** ﴾ أن المراد بالضمير عيسى عليه السلام ، وأن نزوله في آخر الزمان علامة على الساعة ، وعلم عنها . ونحن وإن رجّحنا أن يكون الضمير عائداً على القرآن إلا أن ذلك لا ينفي أن يكون نزول عيسى في آخر الزمان علامة على قيام الساعة ، بل ذلك ثابت بأحاديث متواترة كما قال ابن كثير . وقد حقّق شيخنا الشيخ عبد الفتاح أبو غدة كتاب (التصريح بما تواتر في نزول المسيح) وهو مع تحقيقه لايبقي شبهة في تواتر نزول المسيح عليه السلام قبيل قيام الساعة .

وبمناسبة هذه الآية يقول صاحب الظلال : (وقد وردت أحاديث شتى عن نزول عيسى - عليه السلام - إلى الأرض قبيل الساعة وهو ماتشير إليه الآية : ﴿ **وإنه لعلم للساعة** ﴾ بمعنى أنه يُعلم بقرب مجيئها ، والقراءة الثانية ﴿ **وإنه لَعَلَم للساعة** ﴾ بمعنى أمارة وعلامة . وكلاهما قريب من قريب .

عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : «والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً مقسطاً ، فيكسر الصليب ، ويقتل الخنزير ، ويضع الجزية ، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد ، حتى تكون السجدة الواحدة خيراً من

الدنيا ومافيها » أخرجه مالك والشيخان وأبو داود .

وعن جابر – رضي الله عنه – قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة . فينزل عيسى ابن مريم ، فيقول أميرهم : تعال صل لنا . فيقول : لا . إن بعضكم على بعض أمراء تكرمة الله تعالى لهذه الأمة » . أخرجه مسلم . وهو غيب من الغيب الذي حدّثنا عنه الصادق الأمين وأشار إليه القرآن الكريم ، ومنكره بعد تواتره كافر بعد البيان أو قبله ، لمن كان يعيش في دار الإسلام على خلاف بين العلماء هل يكفر بعد البيان أو قبل البيان بحكم أنه يعيش على أرض الإسلام فلا يعذر بالجهل .

٢ – بمناسبة قوله تعالى على لسان المسيح عليه السلام : ﴿ **قال قد جئتكم بالحكمة ولأبيّن لكم بعض الذي تختلفون فيه** ﴾ قال الألوسي في قوله تعالى : ﴿ **بَعْضَ الذي تَختَلِفُونَ فيه** ﴾ وهو أمر الديانات ومايتعلق بالتكليف دون الأمور التي لم يتعبدوا بمعرفتها ، ككيفية نضد الأفلاك وأسباب اختلاف تشكلات القمر مثلاً ، فإن الأنبياء عليهم السلام لم يبعثوا لبيان مايختلف فيه من ذلك ، ومثلها مايتعلق بأمر الدنيا ككيفية الزراعة ومايصلح الزرع وما يفسده مثلاً . فإن الأنبياء عليهم السلام لم يبعثوا لبيانها أيضاً كما يشير إليه قوله ﷺ في قصة تأبير النخل « أنتم أعلم بأمور دنياكم ») .

وقال صاحب الظلال : (ولقد جاء المسيح فوجدهم شيعاً ونحلاً كثيرة ، أهمها أربع فرق أو طوائف :

طائفة الصدوقيين نسبة إلى « صدوق » وإليه وإلى أسرته ولاية الكهانة من عهد داود وسليمان عليهما السلام . وحسب الشريعة لابد أن يرجع نسبه إلى هارون أخي موسى . فقد كانت ذريته هي القائمة على الهيكل . وكانوا بحكم وظيفتهم واحترافهم متشددين في شكليات العبادة وطقوسها ، ينكرون « البدع » في الوقت الذي يترخصون في حياتهم الشخصية ويستمتعون بملاذّ الحياة ؛ ولا يعترفون بأن هناك قيامة !.

وطائفة الفريسيين ، وكانوا على شقاق مع الصدوقيين . ينكرون عليهم تشددهم في الطقوس والشكليات ، وجحدهم للبعث والحساب . والسمة الغالبة على الفريسيين هي الزهد والتصوف وإن كان في بعضهم اعتزاز وتعالٍ بالعلم والمعرفة . وكان المسيح – عليه السلام – ينكر عليهم هذه الخيلاء وشقشقة اللسان !.

وطائفة السامريين ، وكانوا خليطاً من اليهود والأشوريين ، وتدين بالكتب الخمسة في العهد القديم المعروفة بالكتب الموسوية ، وتنفي ما عداها مما أضيف إلى هذه الكتب في العهود المتأخرة ، مما يعتقد غيرهم بقداسته .

وطائفة الآسين أو الأسينيين . وكانوا متأثرين ببعض المذاهب الفلسفية ، وكانوا يعيشون في عزلة عن بقية طوائف اليهود ، ويأخذون أنفسهم بالشدة والتقشف ، كما يأخذون جماعتهم بالشدة في التنظيم .

وهناك غير هذه الطوائف نحل شتى فردية ، وبلبلة في الاعتقاد والتقاليد بين بني إسرائيل ، الراضخين لضغط الإمبراطورية الرومانية المستذلين المكبوتين ، الذين ينتظرون الخلاص على يد المخلص المنتظر من الجميع .

فلما أن جاء المسيح - عليه السلام - بالتوحيد الذي أعلنه : ﴿ **إن الله هو ربي وربكم فاعبدوه** ﴾ . وجاء معه بشريعة التسامح والتهذيب الروحي والعناية بالقلب البشري قبل الشكليات والطقوس ، حاربه المحترفون الذين يقومون على مجرد الأشكال والطقوس .

ومما يؤثر عنه - عليه السلام - في هذا قوله عن هؤلاء : «إنهم يحزمون الأوقار ، ويسومون الناس أن يحملوها على عواتقهم ، ولا يمدون إليها إصبعاً يزحزحونها ، وإنما يعملون عملهم كله لينظر الناس إليهم ! يعرضون عصائبهم ، ويطيلون أهداب ثيابهم ، ويستأثرون بالمتكأ الأول في الولائم ، والمجالس الأولى في المجامع ، ويبتغون التحيات في الأسواق ، وأن يقال لهم : سيدي . سيدي . حيث يذهبون !» .

أو يخاطب هؤلاء فيقول : «أيها القادة العميان الذين يحاسبون على البعوضة ويبتلعون الجمل . إنكم تتقون ظاهر الكأس والصحفة ، وهما في الباطن مترعان بالرجس والدعارة .. ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراءون . إنكم كالقبور المبيضة . خارجها طلاء جميل وداخلها عظام نخرة») . «عن كتاب عبقرية المسيح للعقاد» .

٣ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين** ﴾ قال ابن كثير : (أي : كل صداقة وصحابة لغير الله فإنها تنقلب يوم القيامة عداوة إلا ما كان لله عز وجل ، فإنه دائم بدوامه ، وهذا كما قال إبراهيم عليه الصلاة والسلام لقومه : ﴿ **إنما اتخذتم من دون الله أوثاناً مودّة بينكم في الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم**

بعض ويلعن بعضكم بعضاً ومأواكم النار ومالكم من ناصرين ﴾ (العنكبوت : ٢٥) .

وروى عبد الرزاق عن علي رضي الله عنه ﴿ **الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين** ﴾ قال : خليلان مؤمنان ، وخليلان كافران فتوفي أحد المؤمنين وبشر بالجنة فذكر خليله فقال : اللهم إن فلاناً خليلي كان يأمرني بطاعتك وطاعة رسولك ويأمرني بالخير وينهاني عن الشر ، وينبئني أني ملاقيك ، اللهم فلا تضله بعدي حتى تريه مثل ماأريتني . وترضى عنه كما رضيت عني ، فيقال له : اذهب ، فلو تعلم ماله عندي لضحكت كثيراً وبكيت قليلاً . قال : ثم يموت الآخر فتجتمع أرواحهما فيقال : لِيُثْنِ أحدكما على صاحبه ، فيقول كل واحد منهما لصاحبه : نعم الأخ ، ونعم الصاحب ، ونعم الخليل . وإذا مات أحد الكافرين وبشر بالنار ذكر خليله فيقول : اللهم إن خليلي فلاناً كان يأمرني بمعصيتك ومعصية رسولك . ويأمرني بالشر وينهاني عن الخير ويخبرني أني غير ملاقيك ؛ اللهم فلا تهده بعدي حتى تريه مثل ماأريتني وتسخط عليه كما سخطت عليّ ، قال : فيموت الكافر الآخر فيجمع بين أرواحهما . فيقال : لِيُثْنِ كل واحد منكما على صاحبه فيقول كل واحد منهما لصاحبه : بئس الأخ ، وبئس الصاحب ، وبئس الخليل . رواه ابن أبي حاتم . وقال ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد وقتادة : صارت كل خلة عداوة يوم القيامة إلا المتقين . وروى الحافظ ابن عساكر عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لو أن رجلين تحابا في الله أحدهما بالمشرق والآخر بالمغرب لجمع الله تعالى بينهما يوم القيامة يقول هذا الذي أحببته فيّ ») .

أقول : فليحاسب كل منا نفسه أن تكون له مودة وصداقة وصحبة لغير المتقين فضلاً عن أن يكون عنده لغيرهم ولاء وطاعة . ولنحرص على الإخاء في الله فإنّه من أعظم القربات إلى الله . ولنحذر أن نضيع إخاءً كسبناه ؛ فذلك العجز الكبير ، إن عقد الإخاء في الإسلام أبَدِي فلا تفرط فيه ، يقول الإمام علي رضي الله عنه : (أعجز الناس من عجز عن اكتساب الإخوان ، وأعجز منه من ضيّع من كسب منهم) .

٤ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **يطاف عليهم بصحاف من ذهب وأكواب وفيها ماتشتهيه الأنفس وتلذّ الأعين** ﴾ قال ابن كثير : (روى عبد الرزاق ... عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : « إن أدنى أهل الجنة منزلة وأسفلهم درجة

لرجل لايدخل الجنة بعده أحد ، يفسح له في بصره مسيرة مائة عام في قصور من ذهب ، وخيام من لؤلؤ ليس فيها موضع شبر إلا معمور يغدى عليه ويراح بسبعين ألف صحفة من ذهب ليس فيها صحفة إلا فيها لون ليس في الأخرى مثله ، شهوته في آخرها كشهوته في أولها ، لو نزل به جميع أهل الأرض لوسع عليهم مما أعطي لاينقص ذلك مما أوتي شيئاً ») .

٥ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **وتلك الجنة التي أورثتموها بما كنتم تعملون** ﴾ قال ابن كثير : (روى ابن أبي حاتم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «كل أهل النار يرى منزله من الجنة حسرة فيقول : ﴿ **لو أن الله هداني لكنت من المتقين** ﴾ وكل أهل الجنة يرى منزله من النار فيقول : ﴿ **وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله** ﴾ فيكون له شكراً» قال : وقال رسول الله ﷺ : «مامن أحد إلا وله منزل في الجنة ومنزل في النار فالكافر يرث المؤمن منزله من النار ، والمؤمن يرث الكافر منزله من الجنة وذلك قوله تعالى ﴿ **وتلك الجنة التي أورثتموها بما كنتم تعملون** ﴾) .

٦ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **لقد جئناكم بالحق ولكن أكثركم للحق كارهون * أم أبرموا أمراً فإنا مبرمون * أم يحسبون أنا لانسمع سرهم ونجواهم ؟ بلى ورسلنا لديهم يكتبون** ﴾ قال صاحب الظلال : (وكراهة الحق هي التي كانت تحول بينهم وبين اتباعه ، لاعدم إدراك أنه الحق ، ولا الشك في صدق الرسول الكريم ؛ فما عهدوا عليه كذباً قط على الناس ، فكيف يكذب على الله ويدعي عليه مايدعيه ؟.

والذين يحاربون الحق لايجهلون في الغالب أنه الحق ، ولكنهم يكرهونه ، لأنه يصادم أهواءهم ، ويقف في طريق شهواتهم ، وهم أضعف من أن يغالبوا أهواءهم وشهواتهم ؛ ولكنهم أجرأ على الحق وعلى دعاته ! فمن ضعفهم تجاه الأهواء والشهوات يستمدون القوة على الحق والاجتراء على الدعاة !.

لهذا يهددهم صاحب القوة والجبروت ، العليم بما يسرون ومايمكرون :

﴿ **أم أبرموا أمراً ؟ فإنا مبرمون * أم يحسبون أنا لانسمع سرهم ونجواهم ؟ بلى ورسلنا لديهم يكتبون** ﴾ ..

فإصرارهم على الباطل في وجه الحق يقابله أمر الله الجازم وإرادته بتمكين هذا الحق وتثبيته . وتدبيرهم ومكرهم في الظلام يقابله علم الله بالسر والنجوى . والعاقبة معروفة

حين يقف الخلق الضعاف القاصرون ، أمام الخالق العزيز العليم) .

٧ – في قوله تعالى : ﴿ **وَقِيلِهِ** ﴾ ثلاث قراءات : الرفع والنصب والجر ، وقراءة الرفع شاذة وقراءة حفص الجر ، وعلى قراءة الجر فهناك من أعربها على أنها معطوفة على كلمة الساعة من قوله تعالى ﴿ **وعنده علم الساعة** ﴾ فيكون التقدير : وعنده علم قيله يارب إن هؤلاء قوم لا يؤمنون ، وهناك اتجاه على أن الواو في . ﴿ **وقيله** ﴾ واو القسم فهي حرف جر ، وقد ضعّفه الألوسي واعتمده صاحب الظلال قال صاحب الظلال في الآيتين الأخيرتين من السورة :

(وفي ختام السورة يعظم من أمر اتجاه الرسول ﷺ لربه . يشكو إليه كفرهم وعدم إيمانهم . فيبرزه ويقسم به : ﴿ **وقيله . يارب إن هؤلاء قوم لا يؤمنون** ﴾ .

وهو تعبير خاص ذو دلالة وإيحاء بمدى عمق هذا القول ، ومدى الاستماع له . والعناية به والرعاية من الله سبحانه والاحتفال .

ويجيب عليه — في رعاية — بتوجيه الرسول ﷺ إلى الصفح والإعراض . وعدم الاحتفال والمبالاة . والشعور بالطمأنينة . ومواجهة الأمر بالسلام في القلب والسماحة والرضاء . وذلك مع التحذير الملفوف للمعرضين المعاندين ، مما ينتظرهم يوم ينكشف المستور : ﴿ **فاصفح عنهم ، وقل سلام . فسوف يعلمون** ﴾ ..) .

كلمة أخيرة في سورة الزخرف :

عرضنا سورة الزخرف على أنها مقدمة ومقاطع ثلاث ، المقدّمة هي : ﴿ **حمٓ * والكتاب المبين * إنا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون** ﴾ .

والمقاطع الثلاثة كل منها مبدوء بقوله تعالى ﴿ **وإنه** ﴾ : ﴿ **وإنه في أم الكتاب لدينا لعليٌّ حكيم** ... ﴾ ، ﴿ **وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون** ﴾ ، ﴿ **وإنه لعِلم للساعة فلا تمترنَّ بها واتبعون هذا صراط مستقيم** ﴾ .

وقد لاحظنا أن كلاً من المقاطع الثلاثة بدأ بمقدمة ، ثم جاء المقطع بعد ذلك متصلاً بهذه المقدمة . بدأ المقطع الأول بقوله تعالى . ﴿ **وإنه في أم الكتاب لدينا لعليٌّ حكيم * أفنضرب عنكم الذكر صفحاً أن كنتم قوماً مسرفين * وكم أرسلنا من نبيّ في الأولين * وما يأتيهم من نبي إلا كانوا به يستهزؤون * فأهلكنا أشد منهم بطشاً ومضى مثل**

الأولين ﴾ .

ثم بدأ المقطع الأول يناقش عقائدهم ويقيم الحجة عليها لأنها علة المواقف ، وناقش فيه أسباب موقفهم من القرآن . وبين أن علة هذه العقائد هي استمراريتهم على تقليد الآباء . وناقش مبدأ التقليد الفاسد ، وضرب مثلاً بإبراهيم عليه السلام في رفضه التقليد السيّء . ثم ناقش اعتراضهم على إنزال القرآن على محمد ﷺ وردّه ، وذكر عقوبة العمى عن كتاب الله عز وجل ، ثم وجّه توجيهات لرسول عليه الصلاة والسلام ، وكان من هذه التوجيهات أمره الاستمساك بوحي الله ، مبيناً له أنه على صراط مستقيم .

ثم جاء المقطع الثاني مبتدئاً بقوله تعالى : ﴿ **وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون * واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون** ﴾ . ثم عرض علينا قصة موسى وفرعون لنرى وحدة الرسالات وإجماعها على التوحيد ، وناقش تكأةً اتكأ عليها المشركون في تشبّثهم بشركهم بحجة بنوها على فهم خاطىء للقرآن .

ثم جاء المقطع الثالث مبتدئاً بقوله تعالى : ﴿ **وإنه لعِلم للساعة فلا تمترنّ بها واتبعون هذا صراط مستقيم * ولايصدنكم الشيطان إنه لكم عدو مبين** ﴾ .

ثم جاءت قصة عيسى تبين أن مضمون الدعوتين واحد : ثم جاء حديث عن الساعة وما لأهل الجنة وأهل النار . ثم جاء حديث عن كيد الكافرين للدعوة . ثم أمر الله رسوله ﷺ أن يفنّد أن يكون لله ولد كما ادعى النصارى أو ادعى بعض مشركي العرب إذ زعموا أن الملائكة بنات الله . ثم تحدث المقطع عن الله . وأقام الحجة عليهم بألسنتهم على أنه هو خالقهم . ثم ذكر المقطع شكوى الرسول ﷺ من عدم إيمانهم ، ثم جاء توجيه لرسول الله ﷺ بما ينبغي أن يفعله أمام عدم إيمانهم .

وقد جاءت نهاية المقطع تصل بدايته بنهايته ؛ إذ بداية المقطع تحدثت عن اتباع الرسول ﷺ ، كما تحدثت على لسان المسيح عليه السلام عن كون العبادة لله هي الصراط المستقيم ، وجاءت نهاية المقطع لتعمّق العبودية الخالصة لله من خلال الأسوة ، ومن خلال التذكير بصفات الله عز وجل .

ولنلاحظ الصلة بين بداية السورة ونهايتها : ﴿ **وكم أرسلنا من نبي في الأولين * وما يأتيهم من نبي إلا كانوا به يستهزؤون * فأهلكنا أشد منهم بطشاً ومضى مثل**

الأولين ﴾ في البداية ، ﴿ **وقيله يارب إن هؤلاء قوم لايؤمنون * فاصفح عنهم وقل سلام فسوف يعلمون** ﴾ في النهاية ، وقد رأينا أثناء عرض كل مقطع صلة ذلك المقطع بمحور السورة .

﴿ **وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين * فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين** ﴾ .

....

هذا ويمكن أن نوجّه السياق في السورة وجهة أخرى ، فالملاحظ أنه قد جاء بعد عدة آيات في السورة قوله تعالى ﴿ **ولئن سألتهم** .. ﴾ وقبل آيتين من آخرها جاء قوله تعالى ﴿ **ولئن سألتهم** ﴾ .

وقد اعتدنا في كثير من مقاطع السور أن نرى مقطعاً مبدوءاً ببداية ومنتهياً بنفس هذه البداية والمعنى هو الذي يحدد المسار ، وههنا يمكن أن تتصور السورة على الشكل التالي .

تبدأ السورة بمقدمة هي : ﴿ **حمٓ * والكتاب المبين * إنا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون * وإنه في أمّ الكتاب لدينا لعليٌّ حكيم * أفنضرب عنكم الذكر صفحاً أن كنتم قوماً مسرفين * وكم أرسلنا من نبي في الأولين * وما يأتيهم من نبي إلا كانوا به يستهزؤون * فأهلكنا أشد منهم بطشاً ومضى مثل الأولين** ﴾ .

وبعد المقدّمة يأتي قوله تعالى : ﴿ **ولئن سألتهم من خلق السمٰوات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم** ﴾ .

وسارت السورة مصححة للعقائد التي هي سبب المواقف الخاطئة من الوحي والرسل ، وتحدثت عن علة هذا كله أي : التقليد ، وتحدثت عن أمّة رفضت فعوقبت ، وتحدثت عن أمم اختلفت على أنبيائها فاستحقت عذاب الله في الآخرة ، ثم وعظت وذكّرت ، وأقامت الحجج حجة بعد حجة ، وانتهى الحديث بمثل مابدأ به . ﴿ **ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله فأنّىٰ يؤفكون** .. ﴾ فكانت السورة بهذا مقطعاً واحداً .

ثم جاءت الخاتمة تبين أنه بعد هذا البيان كله لايزال المشركون غير مؤمنين . ﴿ **وقيله يارب إن هؤلاء قوم لايؤمنون * فاصفح عنهم وقل سلام فسوف يعلمون** ﴾ .

ولو أننا تحدثنا عن سياق السورة على أنها مقدمة ومقطع واحد وخاتمة فإنّه يترتب على ذلك أن يوجه السياق توجيهاً جديداً . وهذا مظهر آخر من مظاهر الإعجاز في القرآن . أنك تجد للسورة الواحدة أكثر من توجيه للسياق ، وكل توجيه يعطيك معاني جديدة لا تتعارض ، ولكنها تتساند فتتزايد بذلك مدلولات السورة . إن هذه السورة تكاد تكون مظهراً كاملاً . لكون القرآن مبيناً وعليّاً وحكيماً ومذكّراً وواعظاً ، ولاشك أن القرآن فيه قدر مشترك من كل هذه الخصائص في كل سورة منه . ولكن تبقى سورة أو مقطع نموذجاً أعلى على وجود خاصية ما .

وسترى في الكلمة الأخيرة عن مجموعة (الشورى والزخرف والدخان) التكامل بين هذه السور التي تشكل مجموعة واحدة . ومن ثم فلن نتعرض لهذا الموضوع هنا .



سورة الدخان

وهـي السـورة الرابعـة والأربعـون بحسـب الرسـم القـرآني
وهي السورة الثالثة من المجموعة الرابعة من قسم المثاني
وآياتها تسـع وخمسـون آيـة
وهـي مكيـة

وهي السورة الخامسة من آل (حمٓ)

* * *

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحَمْدُ لِلَّهِ، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ وَآلِهِ وَأَصْحَابِهِ

رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا، إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ العَلِيمُ

بين يدي سورة الدخان :

١ - قدم ابن كثير لسورة الدخان بما يلي : (روى الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من قرأ حمّ الدخان في ليلة أصبح يستغفر له سبعون ألف ملك » ثم قال : غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه ، وعمرو بن أبي خثعم - وهو من رجال سنده - يضعف ، قال عنه البخاري : منكر الحديث ، ثم روى الترمذي عن هشام أبي المقدام عن الحسن عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من قرأ حمّ الدخان في ليلة الجمعة غفر له » ثم قال : غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه وهشام أبو المقدام يضعف والحسن لم يسمع من أبي هريرة رضي الله عنه كذا قال أيوب ويونس بن عبيد وعلي بن زيد رحمة الله عليهم أجمعين) .

٢ - وقال الألوسي عن سورة الدخان (ووجه مناسبتها لما قبلها أنه عز وجل ختم ما قبلها بالوعيد والتهديد وافتتح هذه بشيء من الإنذار الشديد وذكر سبحانه هناك قول الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم ﴿ **يارب إن هؤلاء قوم لايؤمنون** ﴾ وهنا نظيره فيما حكي عن أخيه موسى عليه الصلاة والسلام بقوله تعالى ﴿ **فدعا ربه أن هؤلاء قوم مجرمون** ﴾ وأيضاً ذكر فيما تقدم ﴿ **فاصفح عنهم وقل سلام** ﴾ وحكى سبحانه عن موسى عليه السلام ﴿ **إني عذت بربي وربكم أن ترجمون وإن لم تؤمنوا لي فاعتزلون** ﴾ وهو قريب من قريب إلى غير ذلك ، وهي إحدى النظائر التي كان يصلي بهن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم كما أخرج الطبراني عن ابن مسعود : الذاريات والطور . والنجم واقتربت . والرحمن ، والواقعة . ونون ، والحاقة . والمزمل ، ولا أقسم بيوم القيامة . وهل أتى على الإنسان ، والمرسلات . وعم يتساءلون ، والنازعات . وعبس ، وويل للمطففين . وإذا الشمس كورت ، والدخان . وورد بفضلها أخبار) .

٣ - وقال صاحب الظلال في تقديمه للسورة : (يشبه إيقاع هذه السورة المكية ، بفواصلها القصيرة ، وقافيتها المتقاربة ، وصورها العنيفة ، وظلالها الموحية .. يشبه أن يكون إيقاعها مطارق على أوتار القلب البشري المشدودة .

ويكاد سياق السورة أن يكون كله وحدة متماسكة ، ذات محور واحد ، تشد إليه خيوطها جميعاً . سواء في ذلك القصة ، ومشهد القيامة ، ومصارع الغابرين ، والمشهد الكوني ، والحديث المباشر عن قضية التوحيد والبعث والرسالة . فكلها وسائل

ومؤثرات لإيقاظ القلب البشري واستجاشته لاستقبال حقيقة الإيمان حية نابضة ، كما يبثها هذا القرآن في القلوب .

* * *

إنها سورة تهجم على القلب البشري من مطلعها إلى ختامها ، في إيقاع سريع متواصل . تهجم عليه بإيقاعها كما تهجم عليه بصورها وظلالها المتنوعة المتحدة في سمة العنف والتتابع . وتطوف به في عوالم شتى بين السماء والأرض ، والدنيا والآخرة ، والجحيم والجنة ، والماضي والحاضر ، والغيب والشهادة ، والموت والحياة ، وسنن الخلق ونواميس الوجود .. فهي ــ على قصرها نسبياً ــ رحلة ضخمة في عالم الغيب وعالم الشهود ...) .

....

كلمة في سورة الدخان ومحورها :

رأينا من قبل أن الطاسينات كلها قد فصّلت محوراً واحداً وهو قوله تعالى : ﴿ **تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وإنك لمن المرسلين** ﴾ كل سورة منها فصّلت فيها نوع تفصيل ، وذكرنا من قبل أن سورتي الزخرف والدخان تفصّلان في محور واحد . هو قوله تعالى : ﴿ **وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين * فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أُعدت للكافرين** ﴾ وقد دلنا على ذلك التشابه بين مطلع سورة يوسف ومطلع السورتين ، مما يدل على وحدة المحور ، كما دلنا على ذلك المضمون نفسه فلنلاحظ المعاني التالية :

١ – بدأت سورة يوسف بقوله تعالى . ﴿ **الّر * تلك آيات الكتاب المبين * إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون** ﴾ وبدأت سورة الزخرف بقوله تعالى . ﴿ **حمّ * والكتاب المبين * إنا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون** .. ﴾ . وجاءت سورة الدخان مبتدأة بقوله تعالى . ﴿ **حمّ * والكتاب المبين * إنا أنزلناه في ليلة مباركة إنا كنا منذرين** .. ﴾ . فالتشابه بين بداية السور الثلاث واضح ، مما نستأنس به أن المحور واحد ...

٢ – نلاحظ أنه بعد الآيات الأولى لسورة الدخان يأتي قوله تعالى : ﴿ **بل هم في**

شك يلعبون ﴾ وصلة ذلك بقوله تعالى . ﴿ **وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا ..** ﴾ لا تخفى .

٣ - نلاحظ أن سورة الزخرف استقرت على قوله تعالى : ﴿ **وقِيلِهِ يارب إن هؤلاء قوم لايؤمنون * فاصفح عنهم وقل سلام فسوف يعلمون ..** ﴾ . وفي سورة الدخان نلاحظ مجيء قوله تعالى . ﴿ **فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين * يغشى الناس هذا عذاب أليم * ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون ..** ﴾ لاحظ قوله تعالى في سورة الزخرف ﴿ **لا يؤمنون** ﴾ . وفي سورة الدخان : ﴿ **إنا مؤمنون** ﴾ بعد رؤية العذاب مما يشير إلى أن سورة الدخان استمرار لسورة الزخرف التي محورها ما رأيناه .

٤ - نلاحظ أن السورة تبدأ بالكلام عن القرآن ﴿ **حمٓ * والكتاب المبين** ﴾ وتنتهي بالكلام عن القرآن .. ﴿ **فإنّما يسّرناه بلسانك لعلهم يتذكرون * فارتقب إنهم مرتقبون..** ﴾ كما أن ذكر الشك والافتراء يتكرر فيها : ﴿ **بل هم في شك يلعبون** ﴾ ﴿ **إن هذا ما كنتم به تمترون** ﴾ . وهذا كله واضح الصلة بقوله تعالى : ﴿**وإن كنتم في ريب مما نزّلنا على عبدنا ..**﴾ .

بعد هذه الملاحظات العامة التي لها علاقة بمحور السورة نقول إن السورة تتألف من مقدمة ومقطع واحد . المقدمة هي :

﴿ **حمٓ * والكتاب المبين * إنا أنزلناه في ليلة مباركة إنا كنا منذرين * فيها يفرق كل أمر حكيم * أمراً من عندنا إنا كنا مرسلين * رحمة من ربك إنه هو السميع العليم * رب السموٰات والأرض ومابينهما إن كنتم موقنين * لاإله إلا هو يحيي ويميت ربكم ورب آبائكم الأولين * بل هم في شك يلعبون** ﴾ والمقطع يمتد حتى نهاية السورة ويلاحظ أنه يبدأ بقوله تعالى : ﴿ **فارتقب ...** ﴾ وتنتهي السورة بقوله تعالى : ﴿ **فارتقب** ﴾ ومن ثمّ فبداية المقطع شبيهة بنهايته ، والنهاية تدل على البداية .

﴿ **فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين ..** ﴾ .

﴿ **فارتقب إنهم مرتقبون ..** ﴾ . والصلة بين المقطع والمقدمة ، وصلة المقدمة والمقطع بالمحور ، كل ذلك سنراه أثناء عرض السورة .

مقدمة السورة

وتمتد من الآية (١) إلى نهاية الآية (٩) وهذه هي :

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ
﴿٣﴾ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٥﴾
رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦﴾ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ
إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٧﴾ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ
﴿٨﴾ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ يَلْعَبُونَ ﴿٩﴾

التفسير :

﴿ **حمٓ . والكتاب المبين** ﴾ أي : والقرآن الواضح الموضّح ﴿ **إنا أنزلناه في ليلة مباركة** ﴾ هذا جواب القسم . قال ابن كثير : يقول تعالى مخبراً عن القرآن العظيم أنه أنزله في ليلة مباركة وهي ليلة القدر .. وقال : ومن قال : إنها ليلة النصف من شعبان فقد أبعد النجعة ، وسننقل كلامه كاملاً في الفوائد إن شاء الله . قال النسفي : (والمباركة كثيرة الخير ؛ لما ينزل فيها من الخير والبركة ويستجاب من الدعاء ، ولو لم يوجد فيها إلا إنزال القرآن وحده لكفى به بركة) ﴿ **إنا كنا منذرين** ﴾ أي : أنزلناه ؛ لأن من شأننا الإنذار والتحذير من العقاب . قال ابن كثير : أي : معلّمين الناس ماينفعهم ويضرهم شرعاً ؛ لتقوم حجة الله على عبده ﴿ **فيها** ﴾ أي : في ليلة القدر ﴿ **يفرق** ﴾ أي : يفصل ويكتب ﴿ **كل أمر** ﴾ من أرزاق العباد وآجالهم وجميع أمورهم من هذه الليلة إلى ليلة القدر التي تجيء في السنة **المقبلة** ﴿ **حكيم** ﴾ أي : ذي حكمة أي : مفعول على ما تقتضيه الحكمة . وقال ابن كثير : أي : **محكم لا يغيّر**

ولايبدّل ، وقال : أي : في ليلة القدر يفصل من اللوح المحفوظ إلى الكتبة أمر السنَة ومايكون فيها من الآجال والأرزاق ، ومايكون فيها إلى آخرها . وقال النسفي : في الآيتين الأخيرتين : (هما جملتان مستأنفتان فسّر بهما جواب القسم كأنه قيل : أنزلناه ؛ لأن من شأننا الإنذار والتحذير من العقاب ، وكان إنزالنا إياه في هذه الليلة خصوصاً ؛ لأن إنزال القرآن من الأمور الحكيمة ، وهذه الليلة مفرق كل أمرٍ حكيم ﴿ **أمراً من عندنا** ﴾ أي : جميع مايكون ويقدّره الله تعالى ومايوحيه فبأمره وإذنه وعلمه . أي : الأمر الذي يفرق في ليلة القدر أمراً من عند الله ، وصف أمره في الآية السابقة بالحكمة ، ثم زاده في هذه الآية جزالة وفخامة ، بأن قال : أعني بهذا الأمر أمراً حاصلاً من عندنا كما اقتضاه علمنا وتدبيرنا ﴿ **إنا كنّا مرسلين** ﴾ أي : إنا أنزلنا القرآن ؛ لأن من شأننا وسنتنا إرسال الرسل بالكتب إلى عبادنا لأجل الرحمة عليهم . ومن ثم قال ﴿ **رحمة من ربك** ﴾ وقد وصف الرحمة بالإرسال إيذاناً بأن الربوبية تقتضي الرحمة على المربوبين ﴿ **إنه هو السميع** ﴾ لأقوال العباد ﴿ **العليم** ﴾ بأحوالهم ﴿ **رب السموٰات والأرض ومابينهما إن كنتم موقنين** ﴾ قال ابن كثير : أي : الذي أنزل القرآن هو رب السموٰات والأرض وخالقهما ومالكهما ومافيهما .. إن كنتم متحققين باليقين . قال النسفي في معنى ﴿ **إن كنتم موقنين** ﴾ : إنهم كانوا يقرون بأن للسموٰات والأرض رباً وخالقاً فقيل لهم : إن إرسال الرسل وإنزال الكتب رحمة من الرب ، ثم قيل : إن هذا الرب هو السميع العليم ، الذي أنتم مقرون به ومعترفون بأنه رب السموٰات والأرض ومابينهما ، إن كان إقراركم عن علم وإيقان . فآمنوا أنه أرسل رسلاً وأنزل كتباً . أقول : وهذا يفيد أن معرفة الله حق المعرفة تقتضي الجزم بأنه أرسل رسلاً وأنزل كتباً ﴿ **لا إله إلا هو يحيي ويميت ربكم ورب آبائكم الأولين** ﴾ ومن كان هذا شأنه فلا يترك عباده بلا هداية ولا توجيه ولا إنذار ولا رسل ..

نقـــل :

بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **رحمة من ربك إنه هو السميع العليم** ﴾ قال صاحب الظلال : (وماتتجلى رحمة الله بالبشر كما تتجلى في تنزيل هذا القرآن بهذا اليسر ، الذي يجعله سريع اللصوق بالقلب ، ويجعل الاستجابة له تتم كما تتم دورة الدم في العروق . وتحول الكائن البشري إلى إنسان كريم ، والمجتمع البشري إلى حلم جميل ، لولا أنه واقع تراه العيون !.

إن هذه العقيدة التي جاء بها القرآن ـــ في تكاملها وتناسقها ـــ جميلة في ذاتها جمالاً يُحب ويُعشق ؛ وتتعلق به القلوب ! فليس الأمر فيها أمر الكمال والدقة وأمر الخير والصلاح . فإن هذه السمات فيها تظل ترتفع وترتفع حتى يبلغ الكمال فيها مرتبة الجمال الحبيب الطليق . الجمال الذي يتناول الجزئيات كلها بأدق تفصيلاتها ، ثم يجمعها ، وينسقها ، ويربطها كلها بالأصل الكبير) .

كلمة في السياق :

نلاحظ مما مر أن الآيات بيّنت من خلال التعريف على الله وعلى أفعاله أنّ هذا القرآن كتابه . وأنه هو الذي أنزله ، وأن هذه قضية حتمية تقتضيها حكمة الله وتدبيره لشؤون هذا الكون ، وتقتضيها رحمته وألوهيته وربوبيته . إن هذا كله يقتضي إرسالاً وإنذاراً ، وهذا كله يؤكد أن هذا القرآن هو الذي أنزله على رسوله ﷺ ، وهذا يقتضي أن تكون هذه المسألة من المسلّمات والبديهيات . ولكن الواقع أن الكافرين في شك ، ومن ثم قال تعالى :

﴿ **بل هم في شك يلعبون** ﴾ . قال ابن كثير : يقول تعالى : بل هؤلاء المشركون في شك يلعبون . أي قد جاءهم الحق واليقين . وهم يشكّون فيه ويمترون ولا يصدقون به . أقول : وهذا يشير إلى أن أصل معرفتهم بالله غير صحيح . وأن هذه المعرفة عندهم لاتخرج عن كونها كلمة على اللسان ، وأن إقرارهم بوجود الله عز وجل وصفاته غير صادر عن علم وتيقّن ، بل قول مخلوط بغفلة وبهزؤ ولعب ينتج عن ذلك شك بالقرآن وغيره من أمور الإيمان ..

....

كلمة في السياق :

نلاحظ مما مر معنا في المقدمة . أنّ المقدمة أفهمتنا أن المعرفة الحقيقية لله تقتضي إيقاناً بالقرآن وبالرسول ؛ إلا أن الكافرين مع هذا كله يشكّون . والملاحظ أنّه لم يحدّد مضمون الشك مما يشير إلى أنه شك في كل القضايا الإيمانية : في الله وصفاته وأفعاله وفي القرآن والرسـول ، وأمام هذا الشك بعد هذا البيان لم يبق من فائدة ترجى من هؤلاء

الشاكّين . ومن ثمّ يأتي المقطع القادم مبدوءاً بقوله تعالى : ﴿ **فارتقب** .. ﴾ ومختوماً بقوله تعالى : ﴿ **فارتقب** ... ﴾ مما يشير إلى أنّ المستقبل وحده وفعل الله فيه هو وحده الذي يمكن أن يغيّر مواقفهم . مما يشير إلى أنّ من واجبات الداعية الارتقاب فإذا اتضح هذا فماهي صلة الآيات المارّة بالمحور ؟.

لو أنك دمجت بين معاني المقدمة وماورد في المحور فإنك ستجد الصلة ﴿ **وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا** ﴾ في ليلة القدر من هذا القرآن الذي إنزاله أثر حكمتنا ورحمتنا وأثر ألوهيتنا وربوبيّتنا ، وأثر سنتنا في الإرسال والإنذار ﴿ **فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين * فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين** ﴾ ولكنّهم مع هذا كله مرتابون شاكون في هذا القرآن وفي الرسول المنزل عليه ، فيا أيها الرسول ارتقب ماذا سنفعل بهم .

فالصلة بين المقدمة والمقطع الوحيد في السورة واضحة . والصلة بين المقدمة والمحور كذلك واضحة فلنر المقطع ..

المقطع الوحيد في السورة

ويمتد من الآية (١٠) إلى نهاية السورة أي: إلى نهاية الآية (٥٩) وهذا هو :

فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ
﴿١١﴾ رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ
رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴿١٤﴾ إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا
إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ﴿١٥﴾ يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا
قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْ أَدُّوٓا۟ إِلَىَّ عِبَادَ ٱللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ
أَمِينٌ ﴿١٨﴾ وَأَن لَّا تَعْلُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِنِّيٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٩﴾ وَإِنِّي عُذْتُ

بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ لِى فَٱعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ
هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾ فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا ۖ
إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾ كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ
كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ
﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا
بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِن فِرْعَوْنَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ
﴿٣١﴾ وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٢﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌا۟
مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ
﴿٣٥﴾ فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٦﴾ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ
أَهْلَكْنَٰهُمْ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا
لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ
مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا
مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾ إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ
﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ
ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ

ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ
أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَٰبِلِينَ
﴿٥٣﴾ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ
﴿٥٥﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾
فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ
يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾

التفسير :

﴿ **فارتقب** ﴾ أي: فانتظر ﴿ **يوم تأتي السماء بدخان مبين** ﴾ أي: ظاهر حاله لايشك أحد في أنّه دخان ﴿ **يغشى الناس** ﴾ أي: يشملهم ويلبسهم فيقولون: ﴿ **هذا عذاب أليم** ﴾ أي: مؤلم، ثم يدعون الله عز وجل ﴿ **ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون** ﴾ أي: سنؤمن إن كشفت عنا العذاب ﴿ **أنىٰ لهم الذكرى** ﴾ أي: كيف يتذكّرون ويتعظون ويفون بما وعدوا به من الإيمان عند كشف العذاب؟. ﴿ **وقد جاءهم رسول مبين * ثم تولوا عنه وقالوا مُعَلَّم مجنون** ﴾ أي: أنّىٰ لهم الادّكار وقد جاءهم ماهو أعظم وأدخل في وجوب الادّكار، من كشف الدخان، وهو ماظهر على رسول الله ﷺ من الآيات والبيّنات من الكتاب المعجز وغيره، فلم يذكروا وتولوا عنه وبهتوه بأنه قد علّمه غيره من البشر ونسبوه إلى الجنون. قال ابن كثير: يقول: كيف لهم بالذكر وقد أرسلنا إليهم رسولاً بيّن الرسالة والنذارة ومع هذا تولوا عنه وماوافقوه. بل كذبوه وقالوا معلم مجنون. ﴿ **إنا كاشفوا العذاب قليلاً** ﴾ أي: زماناً قليلاً ﴿ **إنكم عائدون** ﴾ أي: إلى الكفر الذي كنتم فيه، أو إلى العذاب ﴿ **يوم نبطش البطشة الكبرى** ﴾ أي: العظمى ﴿ **إنا منتقمون** ﴾ منهم على أفعالهم. وهل الدخان والبطشة مضتا على عهد رسول الله ﷺ؟ فالبطشة ماأصاب المشركين يوم بدر، والدخان ماأصابهم في سني القحط والجوع، حتى إن أحدهم كان ينظر إلى السماء

فيرى ما بينه وبينها كهيئة الدخان من الجهد ؟ أو أنهما سيأتيان ؟فيكون الدخان علامة من علامات الساعة ، والبطشة الكبرى يوم القيامة ؟ قولان للمفسرين على رأس القائلين بالأول ابن مسعود ، وعلى رأس القائلين بالثاني ابن عباس ، وقد رجّح ابن كثير قول ابن عباس وسننقل تحقيقه في الفوائد .

كلمة في السياق :

أمام الشك الذي عليه الكافرون واللعب الذي هو حالهم وشأنهم ودأبهم أمر الله رسوله ﷺ بالارتقاب ، وهو أمر لكل مسلم ، أن يرتقب أشراط الساعة والساعة . ومن السياق نفهم أنه حتى أشراط الساعة إذا ظهرت فإن هؤلاء لا يؤمنون بل يعدون بالإيمان . ثم إذا زالت الشدّة ينكصون ، مما يشير إلى أن هؤلاء لم يعد منهم ولا فيهم فائدة ولاأمل ، فالغفلة عندهم بلغت الغاية ، ومن ثم فليس أمام المسلم إلا أن ينتظر عذابهم في الدنيا وفي الآخرة . وبعد أن وضّح الله عز وجل هذا فإنه يذكر من نبأ موسى وفرعون وقومهما ممّا يشير إلى وحدة موقف الكافرين في كل عصر ، ويبشّر بالعاقبة رسوله ﷺ والمؤمنين فقال :

﴿ **ولقد فتنا قبلهم** ﴾ أي: قبل هؤلاء الكافرين . قال النسفي : أي فعلنا بهم فعل المختبر ليظهر منهم ما كان باطناً . ﴿ **قوم فرعون** ﴾ قال ابن كثير : يقول تعالى : ولقد اختبرنا قبل هؤلاء المشركين قوم فرعون وهم قبط مصر . ﴿ **وجاءهم رسول كريم** ﴾ على الله وعلى عباده المؤمنين ، أو كريم في نفسه ، حسيب ، نسيب ؛ لأن الله تعالى لم يبعث نبياً إلا من سراة قومه وكرامهم ، والمراد به موسى عليه السلام ﴿ **أن أدّوا إليّ عباد الله** ﴾ أي : قال موسى لفرعون وقومه : سلّموا إليّ عباد الله وهم بنوا إسرائيل ، يقول : أدوهم إليّ وأرسلوهم معي ﴿ **إني لكم رسول أمين** ﴾ في رسالتي غير متّهم . قال ابن كثير : أي: مأمون على ما أبلغكموه . ﴿ **وأن لا تعلوا على الله** ﴾ أي: لا تستكبروا على الله بالاستهانة برسوله ووحيه ، أو لا تستكبروا على نبي الله . قال ابن كثير : أي: لا تستكبروا عن اتّباع آياته والانقياد لحججه والإيمان ببراهينه ﴿ **إني آتيكم بسلطان مبين** ﴾ أي : بحجة واضحة تدل على أني نبي ، وهي ما أرسله الله تعالى به من الآيات البيّنات والأدلة القاطعات ﴿ **وإني عذت بربي وربكم أن ترجمون** ﴾أي أن تقتلوني رجماً بالحجارة ومعناه : أنّه عائذ بربه ، متّكل على أنّه يعصمه منهم ومن كيدهم

فهو غير مبالٍ بما كانوا يتوعدونه من الرجم والقتل ، وفسّر بعضهم الرجم بالشتم ، وفسّر ابن كثير الآية بقوله . (أي أعوذ بالله الذي خلقني وخلقكم من أن تصلوا إليّ بسوء من قول أوفعل) ﴿ **وإن لم تؤمنوا لي فاعتزلون** ﴾ قال ابن كثير : أي : لاتتعرضوا لي ودعوا الأمر بيني وبينكم مسالمة إلى أن يقضي الله بيننا . وقال النسفي : (أي : إن لم تؤمنوا لي فلا موالاة بيني وبين من لايؤمن ، فتنحوا عني ، أو فخلوني كفافاً لالي ولا علي ، ولا تتعرضوا لي بشركم وأذاكم ، فليس جزاء من دعاكم إلى مافيه فلاحُكم ذلك) . قال ابن كثير : فلما طال مقامه ﷺ بين أظهرهم ، وأقام حجج الله تعالى عليهم ومازادهم ذلك إلا كفراً وعناداً ، دعا ربه عليهم دعوة نفذت فيهم ﴿ **فدعا ربه أن هؤلاء قوم مجرمون** ﴾ أي : فدعا ربه شاكياً قومه . بأن هؤلاء قوم مجرمون فعند ذلك أمره الله تعالى . أن يخرج بني إسرائيل من بين أظهرهم من غير أمر فرعون ومشاورته واستئذانه ولهذا قال جل جلاله . ﴿ **فأسر بعبادي ليلاً** ﴾ أي : سر بعبادي بني إسرائيل في الليل ﴿ **إنكم متّبعون** ﴾ دبّر الله أن تتقدّموا ويتّبعكم فرعون وجنوده فينجيكم ويغرقهم ﴿ **واترك البحر رهواً** ﴾ أي : ساكناً قاراً على حاله وهيئته ، من انتصاب الماء ، وكون الطريق يبساً لايضربه بعصاه ولايغيّر منه شيئاً ؛ ليدخله القبط ، فإذا حصلوا فيه أطبقه الله عليهم . وقيل الرهو : الفجوة الواسعة : أي : اتركه مفتوحاً على حاله منفرجاً . ﴿ **إنهم جند مغرقون** ﴾ بعد خروجكم من البحر وقد كان ذلك ﴿ **كم تركوا من جنات** ﴾ أي : بساتين ﴿ **وعيون** ﴾ أي : آبار وأنهار ﴿ **وزروع** ﴾ من كل الأنواع ﴿ **ومقام كريم** ﴾ وهي المساكن الأنيقة والأماكن الحسنة ، وفسّر مجاهد وسعيد بن جبير المقام الكريم بالمنابر التي كانوا يخطبون عليها في الناس ، أي كثيراً جداً من هذه الأشياء تركوه ﴿ **ونَعْمة كانوا فيها فاكهين** ﴾ أي : متنعمين . قال ابن كثير : أي : عيشة كانوا يتفكهون فيها فيأكلون ماشاؤوا ويلبسون ماأحبوا مع الأموال والجاهات ، والحكم في البلاد ، فسلبوا ذلك جميعه في صبيحة واحدة ، وفارقوا الدنيا وصاروا إلى جهنم وبئس المصير .. ﴿ **كذلك** ﴾ أي : الأمر كذلك ﴿ **وأورثناها قوماً آخرين** ﴾ غيرهم . ﴿ **فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين ..** ﴾ أي : لم ينظروا إلى وقت آخر ، ولم يمهلوا . قال ابن كثير : أي : لم تكن لهم أعمال صالحة تصعد في أبواب السماء فتبكي على فقدهم ، ولا لهم في الأرض بقاع عبدوا الله تعالى فيها فقدتهم ، فلهذا استحقوا أن لايُنظروا ، ولا يُؤخروا لكفرهم وإجرامهم وعتوهم وعنادهم ، ولنا عودة في الفوائد على هذا المقام ﴿ **ولقد نجينا بني إسرائيل من**

العذاب المهين ﴾ أي: الاستخدام والاستعباد وقتل الأولاد . ﴿ **من فرعون إنه كان عالياً** ﴾ أي: مستكبراً جباراً عنيداً ﴿ **من المسرفين** ﴾ قال ابن كثير : أي: مسرف في أمره ، سخيف الرأي على نفسه ﴿ **ولقد اخترناهم** ﴾ أي: بني إسرائيل ﴿ **على علم** ﴾ أي: عالمين بمكان الخيرة ، وبأنهم أحقاء بأن يختاروا ﴿ **على العالمين** ﴾ قال النسفي : على عالمي زمانهم ، وقال ابن كثير : على من هم بين ظهريه . وقال قتادة : اختيروا على أهل زمانهم ذلك ﴿ **وآتيناهم من الآيات** ﴾ أي: الحجج والبراهين وخوارق العادات ، كفلق البحر وتظليل الغمام ، وإنزال المنّ والسلوى ، وغير ذلك ﴿ **ما فيه بلاء مبين** ﴾ أي: نعمة ظاهرة ، أو اختبار ظاهر لننظر كيف يعملون .

....

كلمة في السياق :

جاءت هذه الآيات كنموذج لفعل الله بالمكذبين ، وفعل الله برسله والمؤمنين ، وكمثل على أن دأب الكافرين في كل عصر : التكذيب والرفض والشك ، مهما كثرت الآيات ، وقامت الحجج وفي ذلك تسلية لرسول الله ﷺ وللمؤمنين ، وبشارة لهم وتعليم لهم بواقع الحال ، وبعد هذه الجولة عن السابقين يعود الكلام عن المشركين الذين يواجهون هذه الدعوة وتواجههم .

﴿ **إن هؤلاء** ﴾ أي: المشركين الكافرين بدعوة محمد ﷺ وبالقرآن ﴿ **ليقولون إن هي** ﴾ أي: ماهي ﴿ **إلا موتتنا الأولى** ﴾ وليس الأمر كما يقول محمد ﷺ أن هناك موتة تعقبها حياة ، فما ثم إلا الموتة الأولى والحياة الأولى . ﴿ **وما نحن بمنشرين** ﴾ أي بمبعوثين ﴿ **فأتوا بآبائنا إن كنتم صادقين** ﴾ احتجوا بآبائهم الماضين الذين ذهبوا فلم يرجعوا قال ابن كثير : (وهذه حجة باطلة ، وشبهة فاسدة ، فإن المعاد إنما هو يوم القيامة ، لافي الدار الدنيا ، بل بعد انقضائها وذهابها وفراغها ، يعيد الله العالمين خلقاً جديداً ، ويجعل الظالمين لنار جهنم وقوداً ، ثم قال تعالى متهدداً لهم ومتوعداً لهم بأسه الذي لا يردّ ، كما حلّ بأشباههم ونظرائهم من المشركين المنكرين للبعث كقوم تُبّع (وهم سبأ) حيث أهلكهم الله عز وجل ، وخرّب بلادهم ، وشرّدهم في البلاد ، ومزّقهم شذر مذر كما تقدّم ذلك في سورة سبأ..) . قال تعالى : ﴿ **أهم خير** ﴾ في القوة والمنعة ﴿ **أم قوم تُبّع** ﴾ الحميري . وسنذكر تحقيق ابن كثير عنه في الفوائد ..

﴿ **والذين من قبلهم أهلكناهم إنهم كانوا مجرمين** ﴾ أي: كافرين منكرين للبعث . دلّ هذا على أن إنكار المشركين للبعث يستحقون به الهلاك ، وفي ذلك إنذار لهم وتحذير . وبعد هذا الإنذار والتحذير يقيم الله عليهم الحجة في هذا الشأن بقوله . ﴿ **وما خلقنا السمٰوات والأرض وما بينهما لاعبين** ﴾ فعلى مقتضى قولهم أنه لا بعث ولا حساب فإن السمٰوات والأرض وما بينهما خلقت عبثاً قال النسفي : (ولو لم يكن بعث ولا حساب ولا ثواب كان خلق الخلق للفناء خاصة فيكون لعباً) وتعالى الله عن اللعب والعبث والباطل . قال تعالى : ﴿ **ما خلقناهما إلا بالحق** ﴾ أي: بالجدّ ضدّ اللعب ﴿ **ولكن أكثرهم لا يعلمون** ﴾ أنه خلق لذلك ، ومن ثم لا يؤمن بالبعث ، ولو أنه علم تنزيه الله عن العبث ، وعلم أن الله خالق السمٰوات والأرض بالحقّ ، لأيقن بالبعث والحساب ولكنّه لا يعلم ، وبعد أن قامت الحجة على أن يوم القيامة آت لأن ذلك مقتضى خلق السمٰوات والأرض بالحق ، يحدثنا الله عز وجل عن هذا اليوم . ﴿ **إن يوم الفصل** ﴾ بين المحق والمبطل أي: يوم القيامة . ﴿ **ميقاتهم أجمعين** ﴾ أي وقت موعدهم كلهم ، يوم يفصل الله تعالى فيه بين الخلائق . فيعذّب الكافرين ، ويثيب المؤمنين ﴿ **يوم لا يغني مولى** ﴾ أي: ولي ﴿ **عن مولى** ﴾ أي: عن ولي ﴿ **شيئاً** ﴾ أي: مهما كان قليلاً . قال ابن كثير : أي : لا ينفع قريب قريباً . ﴿ **ولا هم ينصرون** ﴾ أي : لا ينصر القريب قريبه ولا يأتيه نصر من الخارج ﴿ **إلا من رحم الله** ﴾ أي: لا يمنع من العذاب إلا من رحمه الله . قال ابن كثير : أي: لا ينفع يومئذ إلا رحمة الله عز وجل بخلقه ﴿ **إنه هو العزيز** ﴾ أي: الغالب على أعدائه ﴿ **الرحيم** ﴾ لأوليائه . ثم أخبر تعالى عمّا يُعذّب به الكافرين الجاحدين للقائه فقال : ﴿ **إنّ شجرة الزقوم طعام الأثيم** ﴾ أي: الآثم في قوله وفعله واعتقاده ، وهو الكافر ، أي: ليس له طعام غيرها ﴿ **كالمهل** ﴾ أي: كعكر الزيت ﴿ **يغلي في البطون كغلي الحميم** ﴾ أي: الماء الحار الذي انتهى غليانه أي: من حرارتها ورداءتها . ﴿ **خذوه** ﴾ أي: خذوا هذا الأثيم ، والخطاب للملائكة قال ابن كثير : وقد ورد أنه تعالى : إذا قال للزبانية : خذوه ابتدره سبعون ألفاً منهم ﴿ **فاعتلوه** ﴾ أي: فقودوه بعنف وغلظة قال ابن كثير : أي: سوقوه سحباً ودفعاً في ظهره ﴿ **إلى سواء الجحيم** ﴾ أي: وسطها ومعظمها ﴿ **ثم صبُّوا فوق رأسه من عذاب الحميم** ﴾ قال ابن كثير : وقد تقدّم أنّ الملك يضربه بمقمعة من حديد فتفتح دماغه ، ثم يصب الحميم على رأسه ، فينزل في بدنه ، فيسلت ما في بطنه من أمعائه حتى تمرق من كعبيه . أعاذنا الله تعالى من ذلك . ﴿ **ذق إنك أنت العزيز الكريم** ﴾ أي: قولوا له

ذلك على وجه التهكم والتوبيخ . أي : لست بعزيز ولا كريم ﴿ **إن هذا** ﴾ العذاب أو هذا الأمر هو ﴿ **ما كنتم به تمترون** ﴾ أي : تشكّون . وهكذا استقر السياق على هذا المعنى .

....

كلمة في السياق :

رأينا أن مقدمة السورة انتهت بقوله تعالى : ﴿ **بل هم في شك يلعبون** ﴾ ثم جاء المقطع وسار حتى وصل إلى قوله تعالى : ﴿ **إن هذا ما كنتم به تمترون** ﴾ فتبيّن لنا أن المقطع نقلنا من معنى إلى معنى ، حتى أرانا عاقبة الشاكين في نار جهنم . فلنر كيف كان تسلسل المعاني :

بدأ المقطع بأمر الله لرسوله ﷺ بالارتقاب لأشراط الساعة ، والساعة ليري كيف سيكون حال الكافرين الشاكّين . ثم عرض علينا قصة موسى وفرعون ، وفيها مجموعة قضايا ، منها استحقاق المكذبين للرسل العذاب الدنيوي ، ثم قصّ الله عز وجل علينا موقف هؤلاء الشاكين من اليوم الآخر ، فأنذرهم وحذرهم باستحقاقهم الهلاك لذلك . ثم أقام عليهم الحجة ، ثم حدّثنا عما يكون لهؤلاء الشاكين من عذاب يوم القيامة .

وبهذا عرفنا أن علة الشك إنكار اليوم الآخر ، وعرفنا أن الشاكين سينزل بهم العذاب قبيل يوم القيامة ، وسيعذبون يوم القيامة ، وأنهم في شكهم ليس لهم حجة ولا شبهة . هكذا سار السياق فما الصلة بين المحور وسياق المقطع ؟ يمكن أن نقدّر الصلة بين المحور وبين ما مرّ معنا من المقطع على الشكل التالي : ﴿ **وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين * فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أُعدت للكافرين** ﴾ واعلموا أن عاقبة المرتابين كذا وكذا مما مَرّ معنا ، وأنت أيها الرسول انتظر ماذا سيحل بهم نتيجة شكّهم . وبعد أن حدثنا الله عن عاقبة الكافرين ، يحدّثنا الله عز وجل عن المتقين المؤمنين الذين لا يشكّون . وإذا تذكرنا محور السورة وقول الله فيها : ﴿ **فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أُعدت للكافرين ..** ﴾ . وتذكّرنا أن ذلك يأتي بعده مباشرة قول الله تعالى ﴿ **وبشّر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات** ﴾ . فإننا نستطيع الربط بين الآيات القادمة والمحور وامتداداته .

﴿ **إن المتقين في مقام أمين** ﴾ أي في الآخرة وهو الجنة ، وقد أمِنُوا فيها من الموت والخروج ، ومن كل هَمٍّ وحزن ، وجزع وتعب ونصب ، ومن الشيطان وكيده ، وسائر الآفات والمصائب ، وسمّي المكان الذي فيه أمن بالأمين . لأنّه لا يخون صاحبه لأن المكان المخيف كأنما يخون صاحبه بما يلقي فيه من المكاره ﴿ **في جنّات وعيون** ﴾ وهذا في مقابلة ماأولئك فيه من شجرة الزقوم ، وشرب الحميم . ﴿ **يلبسون من سندس** ﴾ وهو رفيع الحرير كالقمصان ونحوها ﴿ **وإستبرق** ﴾ وهو مافيه بريق ، ولمعان من الحرير ﴿ **متقابلين** ﴾ أي : في مجالسهم . وهو أتم للأنس . قال ابن كثير : أي : على السرر لا يجلس أحد منهم وظهره إلى غيره ﴿ **كذلك** ﴾ أي : الأمر كذلك ﴿ **وزوجناهم بحور عين** ﴾ الحوراء : الشديدة سواد العين ، والشديدة بياضها والعيناء : هي الواسعة العين . قال ابن كثير : أي : هذا العطاء مع ما قد منحناهم من الزوجات الحسان الحور العين ﴿ **يدعون فيها** ﴾ أي : يطلبون في الجنة ﴿ **بكل فاكهة آمنين** ﴾ من الزوال والانقطاع وتولد الضرر من الإكثار . قال ابن كثير : أي مهما طلبوا من أنواع الثمار أُحضر لهم وهم آمنون من انقطاعه وامتناعه ، بل يحضر إليهم كلما أرادوا ﴿ **لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى** ﴾ أي : لا يذوقون في الجنة الموت البتة إلا الموتة الأولى ، أي : سوى الموتة الأولى التي ذاقوها في الدنيا . قال ابن كثير : ومعناه أنهم لا يذوقون فيها الموت أبداً ﴿ **ووقاهم عذاب الجحيم** ﴾ أي : مع هذا النعيم العظيم المقيم قد وقاهم وسلّمهم ونجّاهم وزحزحهم عن العذاب الأليم في دركات الجحيم فحصل لهم المطلوب ، ونجّاهم من المرهوب ؛ ولهذا قال عز وجل : ﴿ **فضلاً من ربك ذلك هو الفوز العظيم** ﴾ أي : إنما كان هذا بفضله عليهم ، وإحسانه إليهم . قال النسفي : تفضل منه لهم ؛ لأنّ العبد لايستحق على الله شيئاً .

....

كلمة في السياق :

لم يبق عندنا إلا آيتان في السورة هما ﴿ **فإنما يسّرناه بلسانك لعلهم يتذكرون** ﴾ ﴿ **فارتقب إنهم مرتقبون** ﴾ والملاحظ أن الانتقال تمّ مباشرة من الكلام عن عاقبة المتقين ، إلى الكلام عن القرآن الذي بدأت بالكلام عنه مقدمة السورة ، واستقرت على وجود الشك في قلوب الكافرين في شأنه ، ثمّ سار السياق على التسلسل الذي رأيناه

حتى وصلنا إلى هاتين الآيتين :

آية تتحدث عن حكمة إنزال القرآن ، وآية تكرر الأمر بالارتقاب ، ومجيء الآية التي تتحدث عن القرآن بعد تلك الجولة يشير إلى أن الموضوع الرئيسي في السورة هو الكلام عن القرآن ، وهذا يؤكد أن محور السورة هو ماذكرناه ﴿ **إن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا** .. ﴾ فلنر تفسير الآيتين الأخيرتين .

﴿ **فإنّما يسّرناه** ﴾ أي : القرآن قال النسفي : وقد جرى ذكره في أول السورة ﴿ **بلسانك** ﴾ قال ابن كثير : أي : إنّما يسّرنا هذا القرآن الذي أنزلناه سهلاً واضحاً بيناً جلياً بلسانك الذي هو أفصح اللغات وأجلاها وأحلاها وأعلاها ﴿ **لعلّهم يتذكرون** ﴾ أي : يتعظون . قال ابن كثير : أي : يتفهمون ويعملون ، ولما كان مع هذا الوضوح والبيان قد وجد في الناس من كفر وخالف وعاند قال الله تعالى لرسوله ﷺ مسلّياً له وواعداً له بالنصر ومتوعداً لمن كذّبه بالعطب والهلاك ﴿ **فارتقب** ﴾ أي : انتظر ﴿ **إنهم مرتقبون** ﴾ أي : منتظرون مايحل بك من الدوائر . قال ابن كثير : أي : فسيعملون لمن تكون النصرة والظفر وعلو الكلمة في الدنيا والآخرة ، فإنها لك يامحمد ولإخوانك من النبيين والمرسلين ومن اتّبعكم من المؤمنين . قال صاحب الظلال : (وهو ختام يلخص جو السورة وظلها . ويتناسق مع بدئها وخط سيرها . فقد بدأت بذكر الكتاب وتنزيله للإنذار والتذكير ، وورد في سياقها ماينتظر المكذبين ﴿ **يوم نبطش البطشة الكبرى إنا منتقمون** ﴾ .. فجاء هذا الختام يذكرهم بنعمة الله في تيسير هذا القرآن على لسان الرسول العربي الذي يفهمونه ويدركون معانيه . ويخوفهم العاقبة والمصير ، في تعبير ملفوف . ولكنه مخيف : ﴿ **فارتقب إنهم مرتقبون** ﴾) .

كلمة في السياق :

بدأ المقطع بالأمر بالارتقاب ، وانتهى بالأمر بالارتقاب كموقف مقابل للشك الذي عليه الكافرون ، والذين يستأهلون عليه العذاب في الدنيا والآخرة ، بينما أهل الإيمان يستحقون النصرة في الدنيا والآخرة ، وقد بيّنت السورة معاني تعمّق الإيمان بالقرآن ، وتنفي الشك عنه ، وتبيّن عاقبة الشك ، وتبيّن الموقف الإيماني المقابل للشك . وفي الكلمة الأخيرة عن السورة زيادة بيان عن سياق السورة فلنذكر بعض الفوائد التي لها علاقة بالسورة .

فـــوائد :

١ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **إنا أنزلناه في ليلة مباركة** ﴾ قال ابن كثير : (يقول تعالى مخبراً عن القرآن العظيم أنه أنزله في ليلة مباركة وهي ليلة القدر كما قال عز وجل ﴿ **إنا أنزلناه في ليلة القدر** ﴾ (القدر: ١) وكان ذلك في شهر رمضان كما قال تبارك وتعالى ﴿ **شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن** ﴾ (البقرة: ١٨٥) وقد ذكرنا الأحاديث الواردة في ذلك في سورة البقرة بما أغنى عن إعادته ، ومن قال : إنها ليلة النصف من شعبان كما روي عن عكرمة فقد أبعد النجعة ؛ فإن نصّ القرآن أنها في رمضان ، والحديث الذي رواه عبد الله ابن صالح عن عثمان بن محمد بن المغيرة بن الأخنس قال : إن رسول الله ﷺ قال : « تقطع الآجال من شعبان إلى شعبان حتى إن الرجل لينكح ويولد له وقد أخرج اسمه في الموتى » فهو حديث مرسل ومثله لا يعارض به النصوص) .

قال الألوسي : (ووصف الليلة بالبركة لما أن إنزال القرآن مستتبع للمنافع الدينية والدنيوية بأجمعها ، أو لما فيها من تنزل الملائكة والرحمة ، وإجابة الدعوة ، وفضيلة العبادة أو لما فيها من ذلك ، وتقدير الأرزاق ، وفصل الأقضية كالآجال وغيرها .

(والمراد بإنزاله في تلك الليلة إنزاله فيها جملة إلى السماء الدنيا من اللوح فالإنزال المنجم في ثلاث وعشرين سنة أو أقل كان من السماء الدنيا وروي هذا عن ابن جرير وغيره ، وذكر أن المحل الذي أنزل فيه من تلك السماء البيت المعمور وهو مسامت للكعبة بحيث لو نزل لنزل عليها) . أقول : بدأ الإنزال المنجم في رمضان كذلك .

٢ - ذكرنا أن هناك اتجاهين للمفسرين في أمر الدخان والبطشة الكبرى المذكورين في سورة الدخان . ورأينا أن ابن مسعود يرى أن الدخان قد مر . وأن البطشة الكبرى هي ما كان يوم بدر ، وأن ابن عباس يرى أن الدخان لم يأت ، وهو من علامات الساعة . وأن البطشة الكبرى هي يوم القيامة . ورأي ابن عباس هو الذي رجحه ابن كثير : فلنر تحقيق ابن كثير . قال عند قوله تعالى ﴿ **فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين** ﴾ .

(قال سليمان بن مهران الأعمش عن أبي الضحى مسلم بن صبيح عن مسروق قال : دخلنا المسجد - يعني مسجد الكوفة - عند أبواب كندة فإذا رجل يقصّ على

أصحابه ﴿ **يوم تأتي السماء بدخان مبين** ﴾ تدرون ماذا الدخان ؟ ذلك دخان يأتي يوم القيامة فيأخذ بأسماع المنافقين وأبصارهم ، ويأخذ المؤمنين منه شبه الزكام ، قال : فأتينا ابن مسعود رضي الله عنه فذكرنا ذلك له وكان مضطجعاً . ففزع فقعد وقال : إن الله عز وجل قال لنبيكم ﷺ ﴿ **قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين** ﴾ إن من العلم أن يقول الرجل لما لايعلم : الله أعلم ، سأحدثكم عن ذلك : إن قريشاً لما أبطأت عن الإسلام ، واستعصت على رسول الله ﷺ ، دعا عليهم بسنين كسني يوسف ، فأصابهم من الجهد والجوع حتى أكلوا العظام والميتة ، وجعلوا يرفعون أبصارهم إلى السماء فلا يرون إلا الدخان . وفي رواية فجعل الرجل ينظر إلى السماء فيرى ما بينه وبينها كهيئة الدخان من الجهد قال الله تعالى : ﴿ **فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين * يغشى الناس هذا عذاب أليم** ﴾ فأتى رسول الله ﷺ فقيل له : يارسول الله استسق الله لمضر فإنها قد هلكت ، فاستسقى ﷺ لهم فسقوا ، فنزلت ﴿ **إنا كاشفوا العذاب قليلاً إنكم عائدون** ﴾ قال ابن مسعود رضي الله عنه : فيكشف عنهم العذاب يوم القيامة ؟ فلما أصابهم الرفاهية عادوا إلى حالهم فأنزل الله عز وجل ﴿ **يوم نبطش البطشة الكبرى إنا منتقمون** ﴾ قال : يعني يوم بدر ، قال ابن مسعود رضي الله عنه : فقد مضى خمسة : الدخان والروم والقمر والبطشة واللزام ، وهذا الحديث مخرج في الصحيحين ورواه الإمام أحمد في مسنده ، وهو عند الترمذي والنسائي في تفسيرهما ، وعند ابن جرير وابن أبي حاتم من طرق متعددة عن الأعمش به ، وقد وافق ابن مسعود رضي الله عنه على تفسير الآية بهذا ــ وأن الدخان مضى ــ جماعة من السلف كمجاهد وأبي العالية وإبراهيم النخعي والضحاك وعطية العوفي وهو اختيار ابن جرير . وروى ابن أبي حاتم عن عبد الرحمن الأعرج في قوله عز وجل ﴿ **يوم تأتي السماء بدخان مبين** ﴾ قال : كان يوم فتح مكة ، وهذا القول غريب جداً بل منكر . وقال آخرون : لم يمض الدخان بعد ، بل هو من أمارات الساعة كما تقدم من حديث أبي سريحة حذيفة بن أسيد الغفاري رضي الله عنه قال : أشرف علينا رسول الله ﷺ من عرفة ، ونحن نتذاكر الساعة فقال ﷺ : «لاتقوم الساعة حتى تروا عشر آيات : طلوع الشمس من مغربها ، والدخان ، والدابة ، وخروج يأجوج ومأجوج ، وخروج عيسى ابن مريم ، والدجال ، وثلاثة خسوف : خسف بالمشرق ، وخسف بالمغرب ، وخسف بجزيرة العرب ، ونار تخرج من قعر عدن تسوق الناس – أو تحشر الناس – تبيت معهم حيث باتوا ، وتقيل معهم حيث قالوا» تفرد بإخراجه مسلم في صحيحه وفي الصحيحين أن

رسول الله ﷺ قال لابن صياد : « إني خبأت لك خبأ » قال : هو الدخ ؟ فقال ﷺ له : « اخسأ فلن تعدو قدرك » قال : وخبأ له رسول الله ﷺ ﴿ **فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين** ﴾ وهذا فيه إشعار بأنه من المنتظر المرتقب ، وابن صياد كاشف على طريقة الكهّان بلسان الجان ، وهم يقرظون العبارة ، ولهذا قال : هو الدخ يعني الدخان ، فعندها عرف رسول الله ﷺ مادته ، وأنها شيطانية ، فقال ﷺ « اخسأ فلن تعدو قدرك » ثم روى ابن جرير : عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه يقول قال رسول الله ﷺ « إن أول الآيات الدجال ، ونزول عيسى ابن مريم عليهما الصلاة والسلام ، ونار تخرج من قعر عدن تسوق الناس إلى المحشر ، تقيل معهم إذا قالوا ، والدخان » قال حذيفة رضي الله عنه : يارسول الله وما الدخان ؟ فتلا رسول الله ﷺ هذه الآية : ﴿ **فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين * يغشى الناس هذا عذاب أليم** ﴾ « يملأ ما بين المشرق والمغرب ، يمكث أربعين يوماً وليلة ، أما المؤمن فيصيبه منه كهيئة الزكمة ، وأما الكافر فيكون بمنزلة السكران يخرج من منخريه وأذنيه ودبره » وقال ابن جرير لو صح هذا الحدث لكان فاصلاً ، وإنما لم أشهد له بالصحة ، لأن محمد بن خلف العسقلاني حدثني أنه سأل روّاداً – أحد رواة الحديث – عن هذا الحديث هل سمعه من سفيان ؟ فقال له : لا ، قال : فقلت : أقرأته عليه ؟ قال : لا . قال : فقلت له ، أقُرِىء عليه وأنت حاضر ؟ فقال : لا ، فقلت : من أين جئت به ؟ فقال : جاءني به قوم فعرضوه علي وقالوا لي اسمعه منا فقرءوه عليّ ثم ذهبوا فحدثوا به عني أو كما قال ، وقد أجاد ابن جرير في هذا الحديث ههنا فإنه موضوع بهذا السند وروى ابن جرير عن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن ربكم أنذركم ثلاثاً : الدخان يأخذ المؤمن كالزكمة ، ويأخذ الكافر فينتفخ حتى يخرج من كل مسمع منه ، والثانية الدابة ، والثالثة الدجال » رواه الطبراني بإسناد جيد وروى ابن أبي حاتم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « يهيج الناس بالدخان ، فأماالمؤمن فيأخذه كالزكمة ، وأما الكافر فينفخه حتى يخرج من كل مسمع منه » .

وروى بن أبي حاتم عن علي رضي الله عنه قال : لم تمض آية الدخان بعد يأخذ المؤمن كهيئة الزكام ، وتنفخ الكافر حتى ينفد » وروى ابن جرير من حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال : يخرج الدخان فيأخذ المؤمن كهيئة الزكام ، ويدخل في مسامع الكافر والمنافق حتى يكون كالرأس الحنيذ أي : المشوي على الرضف ، وروى ابن جرير عن عبد الله ابن أبي مليكة قال : غدوت على ابن عباس رضي الله عنهما ذات يوم فقال :

ما نمت الليلة حتى أصبحت ، قلت : لم ؟ قالوا : طلع الكوكب ذو الذنب فخشيت أن يكون الدخان قد طرق فما نمت حتى أصبحت . وهكذا رواه ابن أبي حاتم عن أبيه ، وإسناده صحيح إلى ابن عباس رضي الله عنهما حبر الأمة وترجمان القرآن ، وهكذا قول من وافقه من الصحابة والتابعين رضي الله عنهم أجمعين مع الأحاديث المرفوعة من الصحاح والحسان وغيرهما ، التي أوردوها بما فيه مقنع ودلالة ظاهرة على أن الدخان من الآيات المنتظرة مع أنه ظاهر القرآن ، قال الله تبارك وتعالى ﴿ **فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين** ﴾ أي : بيّن واضح يراه كل أحد ، وعلى ما فسره به ابن مسعود رضي الله عنه إنما هو خيال رأوه في أعينهم من شدة الجوع والجهد وهكذا قوله تعالى ﴿ **يغشى الناس** ﴾ أي : يتغشاهم ويعميهم ، ولو كان أمراً خيالياً يخص أهل مكة المشركين لما قيل فيه ﴿ **يغشى الناس** ﴾ وقوله تعالى ﴿ **هذا عذاب أليم** ﴾ أي : يقال لهم ذلك تقريعاً وتوبيخاً كقوله عز وجل ﴿ **يوم يُدعُّون إلى نار جهنم دعّاً * هذه النار التي كنتم بها تكذبون** ﴾ (الطور : ١٣ ، ١٤) أو يقول بعضهم لبعض ذلك ، وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ **ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون** ﴾ أي : يقول الكافرون إذا عاينوا عذاب الله وعقابه سائلين رفعه وكشفه عنهم كقوله جلت عظمته : ﴿ **ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا ياليتنا نُرَدُّ ولا نكذّب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين** ﴾ (الأنعام : ٢٧) وكذا قوله جل وعلا : ﴿ **وأنذر الناس يوم يأتيهم العذاب فيقول الذين ظلموا ربنا أخّرنا إلى أجل قريب نجبْ دعوتك ونتبع الرسل أو لم تكونوا أقسمتم من قبل مالكم من زوال** ﴾ (إبراهيم : ٤٤) وهكذا قال جل وعلا ههنا : ﴿ **أنىٰ لهم الذكرى وقد جاءهم رسول مبين * ثم تولوا عنه وقالوا مُعَلّم مجنون** ﴾ يقول : كيف لهم بالتذكر وقد أرسلنا إليهم رسولاً بيّن الرسالة والنذارة ومع هذا تولّوا عنه وما وافقوه بل كذبوه ، وقالوا مُعَلّم مجنون ، وهذا كقوله جلت عظمته ﴿ **يومئذ يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى** ﴾ (الفجر : ٢٣) الآية كقوله عز وجل ﴿ **ولو ترى إذ فزعوا فلا فوت وأُخِذوا من مكان قريب * وقالوا آمنا به وأنى لهم التناوش من مكان بعيد** ﴾ (سبأ : ٥١ ، ٥٢) إلى آخر السورة) .

وقال ابن كثير في قوله تعالى : ﴿ **يوم نبطُش البطشة الكبرى إنا منتقمون** ﴾ : (فسر ذلك ابن مسعود رضي الله عنه بيوم بدر ، وهذا قول جماعة ممن وافق ابن مسعود رضي الله عنه على تفسيره الدخان بما تقدم ، وروى أيضاً عن ابن عباس رضي الله عنهما من رواية العوفي عنه وعن أبي بن كعب رضي الله عنه وهو محتمل ، والظاهر أن ذلك

يوم القيامة وإن كان يوم بدر يوم بطشة أيضاً ، روى ابن جرير عن عكرمة قال : قال ابن عباس رضي الله عنهما : قال ابن مسعود رضي الله عنه : البطشة الكبرى يوم بدر ، وأنا أقول هي يوم القيامة ، وهذا إسناد صحيح عنه ، وبه يقول الحسن البصري وعكرمة في أصح الروايتين عنه ، والله أعلم) .

٣ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين** ﴾ قال ابن كثير : (روى الحافظ أبو يعلى الموصلي في مسنده عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « مامن عبد إلا وله في السماء بابان : باب يخرج منه رزقه ، وباب يدخل منه عمله وكلامه ، فإذا مات فقداه وبكيا عليه » وتلا هذه الآية ﴿ **فما بكت عليهم السماء والأرض** ﴾ وذكر أنهم لم يكونوا عملوا على الأرض عملاً صالحاً يبكي عليهم ، ولم يصعد لهم إلى السماء من كلامهم ولا من عملهم كلام طيب ولاعمل صالح فتفقدهم فتبكي عليهم ، ورواه ابن أبي حاتم ، وروى ابن جرير عن شريح ابن عبيد الحضرمي قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً كما بدأ . ألا لا غربة على مؤمن . مامات مؤمن في غربة غابت عنه فيها بواكيه إلا بكت عليه السماء والأرض » ثم قرأ رسول الله ﷺ ﴿ **فما بكت عليهم السماء والأرض** ﴾ ثم قال « إنهما لا يبكيان على الكافر » وروى ابن أبي حاتم عن عباد بن عبد الله قال : سأل رجل علياً رضي الله عنه هل تبكي السماء والأرض على أحد ؟ فقال له : لقد سألتني عن شيء ما سألني عنه أحد قبلك ، إنه ليس من عبد إلا له مصلى في الأرض ، ومصعد عمله في السماء ، وإن آل فرعون لم يكن لهم عمل صالح في الأرض ، ولا عمل يصعد في السماء ثم قرأ علي رضي الله عنه ﴿ **فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين** ﴾ وروى ابن جرير عن سعيد بن جبير قال : أتى ابن عباس رضي الله عنهما رجل فقال : ياأبا العباس أرأيت قول الله تعالى : ﴿ **فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين** ﴾ فهل تبكي السماء والأرض على أحد ؟ قال رضي الله عنه : نعم إنه ليس أحد من الخلائق إلا وله باب في السماء منه ينزل رزقه ، وفيه يصعد عمله ، فإذا مات المؤمن فأغلق بابه من السماء الذي كان يصعد فيه عمله ، وينزل منه رزقه ففقده بكي عليه ، وإذا فقده مصلاه من الأرض التي كان يصلي فيها ، ويذكر الله عز وجل فيها بكت عليه ، وإن قوم فرعون لم تكن لهم في الأرض آثار صالحة ، ولم يكن يصعد إلى الله عز وجل منهم خير ، فلم تبك عليهم السماء والأرض » وروى العوفي عن ابن عباس رضي الله عنهما نحو هذا . وقال سفيان الثوري عن أبي يحيى القتات عن مجاهد

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : كان يقال : تبكي الأرض على المؤمن أربعين صباحاً ، وكذا قال مجاهد وسعيد بن جبير وغير واحد ، وقال مجاهد أيضاً : مامات مؤمن إلا بكت عليه السماء والأرض أربعين صباحاً قال : فقلت له : أتبكي الأرض ؟ فقال : أتعجب ! وما للأرض لاتبكي على عبد كان يعمرها بالركوع والسجود ؟ وما للسماء لاتبكي على عبد كان لتكبيره وتسبيحه فيها دوي كدوي النحل . وقال قتادة كانوا [أي: قوم فرعون] أهون على الله عز وجل من أن تبكي عليهم السماء والأرض) .

٤ – بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **أهم خير أم قوم تُبَّع** ﴾ قال ابن كثير : (قال تعالى متهدداً لهم ومتوعداً ومنذراً لهم بأسه الذي لايرد كما حل بأشباههم ونظرائهم من المشركين المنكرين للبعث كقوم تُبَّع وهم سبأ ، حيث أهلكهم الله عز وجل ، وخرّب بلادهم وشرّدهم في البلاد ، وفرقهم شذر مذر ، كما تقدم ذلك في سورة سبأ ، وهي مصدرة بإنكار المشركين للمعاد ، وكذلك ههنا شبههم بأولئك ، وقد كانوا عرباً من قحطان ، كما أن هؤلاء عرب من عدنان ، وقد كانت حمير ــ وهم سبأ ــ كلما ملك فيهم رجل سموه تبعاً ، كما يقال : كسرى لمن ملك الفرس ، وقيصر لمن ملك الروم ، وفرعون لمن ملك مصر كافراً ، والنجاشي لمن ملك الحبشة ، وغير ذلك من أعلام الأجناس . ولكن اتفق أن بعض تبابعتهم خرج من اليمن وسار في البلاد حتى وصل إلى سمرقند ، واشتد ملكه ، وعظم سلطانه وجيشه ، واتسعت مملكته وبلاده وكثرت رعاياه ، وهو الذي مَصَّر الحيرة ، فاتفق أنه مَرّ بالمدينة النبوية ــ وذلك في أيام الجاهلية ــ فأراد قتال أهلها فمانعوه وقاتلوه بالنهار ، وجعلوا يقرونه بالليل ، فاستحيا منهم وكفّ عنهم ، واستصحب معه حبرين من أحبار يهود كانا قد نصحاه وأخبراه أنه لا سبيل له على هذه البلدة ؛ فإنها مهاجر نبي يكون في آخر الزمان ، فرجع عنها وأخذهما معه إلى بلاد اليمن ، فلما اجتاز بمكة أراد هدم الكعبة ، فنهياه عن ذلك أيضاً وأخبراه بعظمة هذا البيت ، وأنه من بناء إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام ، وأنه سيكون له شأن عظيم على يدي ذلك النبي المبعوث في آخر الزمان ، فعظمها وطاف بها وكساها الملاء والوصائل والحبر ، ثم كر راجعاً إلى اليمن ، ودعا أهلها إلى التهوّد معه ، وكان إذ ذاك دين موسى عليه الصلاة والسلام ، فيه من يكون على الهداية قبل بعثة المسيح عليه الصلاة والسلام ، فتهود معه عامة أهل اليمن ، وقد ذكر القصة بطولها الإمام محمد بن إسحاق في كتابه السيرة ، وقد ترجمه الحافظ ابن عساكر في تاريخه ترجمة حافلة ، أورد فيها أشياء

كثيرة مما ذكرنا ومما لم نذكر ، وذكر أنه ملك دمشق وأنه كان إذا استعرض الخيل صفت له من دمشق إلى اليمن ، ثم ساق من طريق عبد الرزاق ... عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « ما أدري الحدود طهارة لأهلها أم لا ؟ ولا أدري ، أتبّع كان لعينا أم لا ؟ ولا أدري ذو القرنين نبياً كان أم ملكا ؟ » وقال غيره : « عزير أكان نبياً أم لا » وكذا رواه ابن أبي حاتم والدار قطني . تفرد به عبد الرزاق . ثم روى ابن عساكر عن ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً : « عزير لا أدري أنبيا كان أم لا ؟ ولا أدري ألعين تبعا أم لا ؟ » ثم أورد ما جاء في النهي عن سبه ولعنته كما سيأتي إن شاء الله تعالى ، وكأنه - والله أعلم - كان كافراً ثم أسلم ، وتابع دين الكليم على يدي من كان من أحبار اليهود في ذلك الزمان على الحق قبل بعثة المسيح عليه السلام ، وحج البيت في زمن الجرهميين ، وكساه الملاء والوصائل من الحرير والحبر ، ونحر عنده ستة آلاف بدنة ، وعظمه وأكرمه ثم عاد إلى اليمن . وقد ساق قصته بطولها الحافظ ابن عساكر من طرق متعددة مطولة مبسوطة عن أبي بن كعب وعبد الله بن سلام وعبد الله بن عباس رضي الله عنهم وكعب الأحبار ، وإليه المرجع في ذلك كله وإلى عبد الله بن سلام أيضاً ، وهو أثبت وأكبر وأعلم ، وكذا روى قصته وهب بن منبه ومحمد بن إسحاق في السيرة كما هو مشهور فيها . وقد اختلط على الحافظ ابن عساكر في بعض السياقات ترجمة تُبَّع هذا بترجمة آخر متأخر عنه بدهر طويل ، فإن تُبّعا هذا المشار إليه في القرآن أسلم قومه على يديه ، ثم لما توفي عادوا بعده إلى عبادة النيران والأصنام فعاقبهم الله تعالى ، كما ذكره في سورة سبأ . وقال سعيد بن جبير : كسا تُبَّع الكعبة ، وكان سعيد ينهى عن سبه ، وتبع هذا هو الأوسط واسمه أسعد أبو كريب بن ملكيكورب اليماني ، ذكروا أنه ملك على قومه ثلاثمائة سنة وستة وعشرين سنة ، ولم يكن في حمير أطول مدة منه ، وتوفي قبل مبعث رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم بنحو سبعمائة سنة . وذكروا أنه لما ذكر له الحبران من يهود المدينة أن هذه البلدة مهاجر نبي آخر الزمان اسمه أحمد ، قال في ذلك شعراً واستودعه عند أهل المدينة فكانوا يتوارثونه ويروونه خلفاً عن سلف ، وكان ممن يحفظه أبو أيوب خالد بن زيد الذي نزل رسول الله ﷺ في داره وهو :

شهدت على أحمد أنه ... رسول من الله باري النسم
فلو مدّ عمري إلى عمره ... لكنت وزيراً له وابن عم
وجاهدت بالسيف أعداءه ... وفرجت عن صدره كل غم

وذكر ابن أبي الدنيا أنه حُفر قبر بصنعاء في الإسلام فوجدوا فيه امرأتين صحيحتين وعند رأسيهما لوح من فضة مكتوب فيه بالذهب : هذا قبر حيي وليس ، ورُوي حي وتماضر ، ابنتي تبّع ماتتا وهما تشهدان أن لاإله إلا الله ولا تشركان به شيئاً ، وعلى ذلك مات الصالحون قبلهما . وقد ذكرنا في سورة سبأ شعر سبأ في ذلك أيضاً . قال قتادة : ذُكر لنا أن كعباً كان يقول في تُبّع : نعت الرجل الصالح ذم الله تعالى قومه ولم يذمه ، قال : وكانت عائشة رضي الله عنها تقول : لاتسبوا تبعاً فإنه كان رجلاً صالحاً . وروى ابن أبي حاتم عن أبي زرعة يعني عمر بن جابر الحضرمي قال : سمعت سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه يقول : قال رسول الله ﷺ : «لاتسبوا تبّعاً فإنه قد كان أسلم» ورواه الإمام أحمد في مسنده . وروى الطبراني عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : «لاتسبوا تُبّعاً فإنه قد أسلم» . وروى عبد الرزاق عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «ماأدري تبع نبياً كان أم غير نبي ؟» وتقدم بهذا السند من رواية ابن أبي حاتم كما أورده ابن عساكر : «لاأدري تُبّع كان لعيناً أم لا ؟» فالله أعلم . ورواه ابن عساكر من طريق .. عن عكرمة عن ابن عباس موقوفاً . وروى عبد الرزاق : عن عطاء بن أبي رباح : لاتسبوا تبعاً فإن رسول الله ﷺ نهى عن سبه ، والله تعالى أعلم) .

٥ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **ذق إنك أنت العزيز الكريم** ﴾ قال ابن كثير : (وقد قال الأموي في مغازيه عن عكرمة قال : لقي رسول الله ﷺ أبا جهل - لعنه الله - فقال : « إن الله تعالى أمرني أن أقول لك : ﴿ **أولى لك فأولى * ثم أولى لك فأولى** ﴾ قال : فنزع ثوبه من يده وقال : ماتستطيع لي أنت ولاصاحبك من شيء ، ولقد علمت أني أمنع أهل البطحاء وأنا العزيز الكريم ، قال فقتله الله تعالى يوم بدر وأذله وعيّره بكلمته وأنزل ﴿ **ذق إنك أنت العزيز الكريم** ﴾ .

٦ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **لايذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى** ﴾ قال ابن كثير : (كما ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال : «يؤتى بالموت في صورة كبش أملح فيوقف بين الجنة والنار ثم يذبح ثم يقال : ياأهل الجنة خلود فلا موت ، وياأهل النار خلود فلا موت» وقد تقدم الحديث في سورة مريم عليها الصلاة والسلام . وروى عبد الرزاق عن أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما قالا : قال رسول الله ﷺ : «يقال لأهل الجنة إن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبداً ، وإن لكم أن تعيشوا فلا

تموتوا أبداً ، وإن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبداً ، وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبداً » . رواه مسلم وروى أبو بكر ابن أبي داود السجستاني ... عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من اتقى الله دخل الجنة ينعم فيها ولا يبأس ، ويحيا فيها فلا يموت ، لاتبلى ثيابه ، ولا يفنى شبابه » وروى أبو القاسم الطبراني . عن جابر رضي الله عنه قال : سئل نبي الله ﷺ : أينام أهل الجنة ؟ فقال ﷺ : « النوم أخو الموت وأهل الجنة لاينامون » وهكذا رواه أبو بكر بن مردويه في تفسيره عن محمد بن المنكدر عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « النوم أخو الموت وأهل الجنة لاينامون » ، وروى أبو بكر البزار في مسنده عن سفيان عن محمد بن المنكدر عن جابر رضي الله عنه قال : قيل يارسول الله هل ينام أهل الجنة ؟ قال ﷺ : « لا ، النوم أخو الموت » ثم قال : لانعلم أحداً أسنده عن ابن المنكدر عن جابر رضي الله عنه إلا الثوري ولا عن الثوري إلا الفريابي ، هكذا قال ، وقد تقدم خلاف ذلك والله أعلم) .

٧ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **فضلاً من ربك ذلك هو الفوز العظيم** ﴾ قال ابن كثير : (أي : إنما كان هذا بفضله عليهم وإحسانه إليهم كما ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال : « اعملوا وسددوا وقاربوا واعلموا أن أحداً لن يدخله عمله الجنة » قالوا : ولاأنت يارسول الله ؟ قال ﷺ : « ولاأنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل » .

٨ ـــ عند قوله تعالى : ﴿ **إن شجرة الزقوم * طعام الأثيم** ﴾ قال النسفي : (لأن في كلام العرب خصوصاً في القرآن الذي هو معجز بفصاحته وغرابة نظمه وأساليبه من لطائف المعاني والدقائق مالا يستقل بأدائه لسان من فارسية وغيرها ..) وإنما نقلنا كلمة النسفي هنا لأن كلمته ذات دلالة في أن الترجمة للقرآن مستحيلة ، وإنما تترجم معاني القرآن من خلال فهم المترجم ، فكل ترجمة للقرآن إنما هي ترجمة لفهم المترجم لتفسير معاني القرآن . وشتان بين أي ترجمة مهما كانت وبين الأصل .

....

كلمة أخيرة في سورة الدخان ومجموعتها :

فصّلت سورة الدخان في المحور الذي فصّلت فيه سورة الزخرف ، إلا أن كلاً منهما فصّلت على طريقة خاصة بها :

فسورة الدخان دلّلت على أن هذا القرآن لاريب فيه من خلال التعريف على الله وصفاته وأفعاله ، إذ المعرفة الكاملة لهذا تدل حتماً على أن القرآن لاريب فيه ، وإذ كانت المسألة كذلك فإن المرتابين في هذا القرآن ناس مرضى مرضاً لا أمل في شفائه . ومع أن المسألة كذلك فقد نوقش هؤلاء المرتابون ، أما سورة الزخرف فقد دلّلت على أن هذا القرآن لا ريب فيه ، من خلال ذكر خصائص هذا القرآن ، وذكر مضمونه ، وأمّا سورة الشورى فقد فصّلت في الآيات الأولى من سورة البقرة ، والتي منها قوله تعالى ﴿ **الـمّ * ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين** ﴾ . وقد أكدت أن القرآن لا ريب فيه من خلال المضمون المشترك لرسالات الله ، ومن خلال ظهور آثار أسماء الله عز وجل فيه، وهذا مظهر من مظاهر التكامل بين سور المجموعة الرابعة من قسم المثاني .

ذكرت سورة الشورى أن مضمون رسالات الله هو إقامة دين الله ، وعدم التفرق فيه ، وذكرت خصائص الجماعة التي تستطيع إقامة دين الله والاجتماع عليه ، وفي الزخرف رأينا خصائص هذا القرآن الذي يعرض دين الله ومضمونه الأعلى الحكيم ، وكونه يشرّف حامليه، وأن فيه علم الساعة التي هي أعظم حدث يمرّ على هذا العالم .

وفي ذلك تربية لحملة الإسلام أن يقيموه ولا يتفرقوا فيه ، مع الاعتزاز به ، وعدم الالتفات عنه ، وعدم الاغترار بحال الكافرين ، وما هم عليه .

وتأتي سورة الدخان لتبين للمسلم الموقف السليم أمام شك الشاكين : ﴿**فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين**﴾ ، ﴿**فارتقب إنهم مرتقبون**﴾ .

فهذا مظهر ثان من مظاهر التكامل بين سور المجموعة الرابعة . ومن مظاهر التكامل في السور الثلاث أن كلاً من السور الثلاث ذكرت بعض خصائص القرآن ، فسورة الشورى تذكر من خصائص القرآن : أنه منذر ، وأنه الصيغة الوحيدة للحق والعدل ، وأنه روح يحيا به الإنسان . وسورة الزخرف تذكر من خصائص القرآن : أنه عليٌّ ، وأنه حكيم ، وأنه ذكر ، وأنه علم للساعة . وسورة الدخان تذكر من خصائص القرآن أنه مظهر من مظاهر رحمة الله عز وجل ، وهكذا نجد المجموعة تتكامل مع بعضها فتؤدي بمجموعها خدمة متكاملة في نواح متعددة . وما ذكرناه نموذج على التكامل بين المجموعة وإلا فالأمر أوسع مما ذكرناه .

☆ ☆ ☆

المجموعة الخامسة

من القسم الثالث من أقسام القرآن
المسمّى بقسم المثاني
وتشمل سور :
الجاثية ، والأحقاف ، ومحمد ،
والفتح ، والحجرات ،
وقٓ

كلمة في المجموعة الخامسة من قسم المثاني

تتألف هذه المجموعة من ست سور ، وبها ينتهي قسم المثاني ، وهي تفصّل ــ كالعادة ــ في محاور من سورة البقرة ، ابتداء من الآيات الأولى منها ، إلى آيات تأتي بعد ذلك ، ونستطيع أن نقول إن المجموعتين الثالثة والرابعة هما بمثابة أساس ومقدمات لهذه المجموعة ، وهذا يعطي هذه المجموعة أهمية خاصة ، لأن فيها كلاماً كثيراً عن الحركة الداخلية والخارجية للأمة الإسلامية .

فلنبدأ عرض سور المجموعة لنتحدث عند كل سورة منها عن محورها وصلاتها بما قبلها وبما بعدها ، وعن محلّها في مجموعتها .

☆ ☆ ☆

سورة الجاثية

وهي السورة الخامسة والأربعون بحسب الرسم القرآني
وهي السورة الأولى من المجموعة الخامسة من قسم المثاني
وآياتها سبع وثلاثون آية
وهي مكية

وهي السورة السادسة من آل (حمٓ)

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحَمْدُ لِلَّهِ، وَالصَّلاةُ وَالسَّلامُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ وَآلِهِ وَأَصْحَابِهِ

رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا، إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ العَلِيمُ

بين يدي السورة :

قال صاحب الظلال : (هذه السورة المكية تصور جانباً من استقبال المشركين للدعوة الإسلامية . وطريقتهم في مواجهة حججها وآياتها ، وتعنتهم في مواجهة حقائقها وقضاياها ، واتباعهم للهوى اتباعاً كاملاً في غير ما تحرج من حق واضح أو برهان ذي سلطان . كذلك تصور كيف كان القرآن يعالج قلوبهم الجامحة ، الشاردة مع الهوى ، المغلقة دون الهدى ؛ وهو يواجهها بآيات الله القاطعة العميقة التأثير والدلالة ، ويذكرهم عذابه ، ويصور لهم ثوابه ، ويقرر لهم سننه ، ويعرفهم بنواميسه الماضية في هذا الوجود . ومن خلال آيات السورة وتصويرها للقوم الذين واجهوا الدعوة في مكة ، نرى فريقاً من الناس مصرّاً على الضلالة ، مكابراً في الحق ، شديد العناد ، سيء الأدب في حق الله وحق كلامه ، ترسمه هذه الآيات ؛ وتواجهه بما تستحقه من الترذيل والتحذير والتهديد بعذاب الله المهين الأليم العظيم) .

وقال الألوسي في تقديمه لسورة الجاثية : (وتسمى سورة الشريعة ، وسورة الدهر ، كما حكاه الكرماني في العجائب لذكرهما فيها . وهي مكية . قال ابن عطية : بلا خلاف ، وذكر الماوردي : إلا ﴿**قل للذين آمنوا يغفروا**﴾ الآية فمدنية ، وحكى هذا الاستثناء في جمال القراء عن قتادة ، وسيأتي الكلام في ذلك إن شاء الله تعالى . وهي سبع وثلاثون آية في الكوفي ، وست وثلاثون في الباقية لاختلافهم في ﴿**حمٓ**﴾ هل هي آية مستقلة أو لا ؟ ومناسبة أولها لآخر ماقبلها في غاية الوضوح) .

كلمة في سورة الجاثية ومحورها :

نلاحظ من خلال التأمّل في سورة الجاثية أن محورها هو قوله تعالى من سورة البقرة : ﴿**الٓمٓ * ذلك الكتاب لاريب فيه هدى للمتقين * الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون * أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون * إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لايؤمنون * ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم**﴾ .

تبدأ سورة الجاثية بمقدمة هي : ﴿**حمٓ * تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم**﴾ .

ثم تأتي مجموعة تستمر حتى نهاية الآية (١١) إذ تستقر على قوله تعالى : ﴿ **هذا هدى والذين كفروا بآيات ربهم لهم عذاب من رجز أليم** ﴾ .

ثم تأتي مجموعة ثانية تستمر حتى نهاية الآية (٢٠) إذ تستقر على قوله تعالى : ﴿ **هذا بصائر للناس وهدى ورحمة لقوم يوقنون** ﴾ .

ويمكن أن تعتبر هاتان المجموعتان هما المقطع الأول في السورة ، ثم تسير السورة في المناقشة والعرض ، وبيان مواقف الكافرين وآرائهم وأحوالهم وتفنيدها ، والتذكير باليوم الآخر ومايكون فيه ، ويستغرق ذلك مجموعتين : مجموعة تبدأ بقوله تعالى : ﴿ **أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء مايحكمون** ﴾ وتستمر حتى نهاية الآية (٢٧) . إذ تستقر على قوله تعالى : ﴿ **ولله ملك السموٰات والأرض ويوم تقوم الساعة يومئذ يخسر المبطلون** ﴾ .

ومجموعة تبدأ بقوله تعالى : ﴿ **وترى كل أمة جاثية كل أمة تدعى إلى كتابها اليوم تجزون ماكنتم تعملون** ﴾ وتستمر حتى تستقر على قوله تعالى . ﴿ **فلله الحمد رب السموٰات ورب الأرض رب العالمين * وله الكبرياء في السموٰات والأرض وهو العزيز الحكيم** ﴾ الآية (٣٧) .

وهاتان المجموعتان تشكلان المقطع الثاني في السورة . ونلاحظ التشابه بين الآيتين اللتين استقرت عليهما المجموعتان اللتان تشكلان المقطع الأول ، كما نلاحظ التشابه بين الآيتين اللتين استقرت عليهما المجموعتان اللتان تشكلان المقطع الثاني .

ومن رؤيتنا للآيتين اللتين استقرت عليهما مجموعتا المقطع الأول . ﴿ **هذا** ﴾ أي : القرآن ﴿ **هدى** ﴾ ، ﴿ **هذا** ﴾ أي : القرآن ﴿ **بصائر للناس وهدى ورحمة لقوم يوقنون** ﴾ ندرك صلة السورة بالآية الأولى من مقدمة سورة البقرة .. ﴿ **الٓمٓ * ذلك الكتاب لاريب فيه هدى للمتقين ..** ﴾ .

ومن رؤيتنا لقوله تعالى في المقطع الثاني . ﴿ **أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله ..** ﴾ الآية (٢٣) ندرك صلة السورة بقوله تعالى من مقدمة سورة البقرة : ﴿ **إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لايؤمنون * ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم ..** ﴾ وندرك سبباً جديداً من أسباب الطبع

على القلوب كما سنرى . ومن ثم قلنا إن سورة الجاثية محورها الآيات السبع الأولى من سورة البقرة .

وههنا نستطيع أن نسجلّ ملاحظة هي : إن مقدمة سورة البقرة قد فصّلت فيها حتى الآن سور كثيرة : آل عمران .. ويونس .. والحجر .. وطه .. والأنبياء .. والعنكبوت . والروم . ولقمان .. والسجدة .. والصافات .. وصّ .. والزمر .. وغافر .. والشورى .. والجاثية .. ولكنّ كلاً من هذه السور فصّل بشكل يكمّل تفصيل الأخرى وإن كان الجميع يفصّلون في المقدمة ، وقد يكون تركيز سورة من هذه السور على آية من المقدمة ، فتكون هي محورها ، وقد تفصّل سورتان في آية واحدة ولكنّ كلاً منهما تفصل في حيثية معينة من المحور ، وهكذا يتنوّع التفصيل : تجد السورة التي تفصّل في الآية الأولى من مقدمة سورة البقرة كسورة يونس عليه السلام ، وتجد السورة التي تفصل في الآيات الخمسة الأولى من المقدمة كسورة آل عمران . ونجد السورة التي تفصّل في الآيتين التاليتين كالأنبياء من حيثية معينة ، وتجد السورة التي تفصل في نفس الآيتين ولكن من حيثية أخرى كسورة ص وسورة غافر ، وتجد السورة التي تفصل في الآيات السبع كالجاثية . وهكذا تجد الأنواع المتعددة للتفصيل لمقدمة سورة البقرة أو لبعضها بشكل عجيب .

فإذا انتقلت إلى الآيات التي تأتي بعد المقدمة مباشرة تجد الشيء نفسه . فتجد سورة النساء تفصل في كلمة التقوى ، وتجد سورة هود تفصل في كلمة العبادة ، وتجد سورة الحج تفصّل في التقوى والعبادة والتوحيد ، وتجد السور الثلاث تفصّل في آيتين فقط مما يأتي بعد المقدمة ، ثم تجد سورة الأحزاب تفصّل في الآيات السبع التي تأتي بعد المقدمة من سورة البقرة . وهكذا تجد إبداعاً في التفصيل والعرض لا يخطر على بال بشر .

فكما أن مرجع الأشياء كلها في هذا الكون - وما أكثرها - إلى حوالي مئة عنصر منها تتركب مجموعة الأشياء التي يبدو أن كلاً منها له ذاتيته المستقلة . وكما أن مجموع العناصر مرجعه إلى شيئين اثنين : إلكترونات وبروتونات ، تتكاثر في الذرة الواحدة فيحدث عنصر جديد . فإنك تجد في القرآن الشيء نفسه ، إذ تجد أن مجموعة سور القرآن تفصّل في معان موجودة في سورة واحدة ، ولكنه تفصيل مدهش عجيب يتركب من هذا كله (١١٤) سورة ، نستطيع أن نستخرج من هذه المئة والأربع عشرة

سورة ملايين المواضيع الكاملة المتكاملة المبينة لأي قضية من قضايا الوجود ﴿ **ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء** ﴾ حتى إنك لتجد الجواب عن ملايين المسائل في التشريع والسلوك والاعتقاد ، كلها في هذا القرآن وهذا بعض ما فيه .

فسورة البقرة تشبه الالكترونات والبروتونات . وسور القرآن تشبه العناصر التي تتألف منها المادة . والمواضيع التي تنبثق عنها تشبه مركبات هذا الكون التي لا تتناهى . وهذا مظهر من مظاهر الوحدة التي تدل على الواحد .

فكما سجلنا في كتابنا (الله جل جلاله) في ظاهرة الوحدة كيف أن في هذا الكون ما يدل على أن صانعه واحد ، فإننا نسجل هنا كيف أن القرآن تظهر فيه هذه الوحدة ، لكن الكون مخلوق ، وهذا القرآن كلام الله ..

فما يصدر عن الله تظهر فيه آثار صفاته وأسمائه ، ومن ذلك وحدانيته ، ومن خلال التأمل في القرآن الذي هو كلام الله الأزلي القديم ، ومن خلال التأمّل في هذا الكون الذي هو خلق الله عز وجل ندرك ظهور الله لخلقه ، وندرك بعض عظمة ربنا ، وندرك بعض عظمة هذا القرآن ، إنّ هذا القرآن أعظم من هذا الكون ، لأن الكون خلقه والقرآن كلماته .

نقول هذا بمناسبة الكلام عن سورة الجاثية ؛ لأن المجموعتين الأوليين في سورة الجاثية تحدثاننا عن الكون لتستقر كل منهما على ذكر خاصية من خواص هذا القرآن ، مما يشير إلى أن الله عز وجل أراد أن يلفت نظرنا إلى الصلة بين آياته في الكون ، وآياته في القرآن . فلنمر السورة .

☆ ☆ ☆

المقدمة

وتشمل الآيتين الأوليين من السورة وهاتان هما :



حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَـٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾

التفسير :

﴿ **حمٓ * تنزيل الكتاب من الله العزيز** ﴾ في انتقامه ﴿ **الحكيم** ﴾ في تدبيره وأقواله وأفعاله .

....

كلمة في السياق :

هذه مقدمة السورة ونلاحظ أنها هي نفس مقدمة سورة الزمر مع زيادة حمٓ ، وهي تشعرنا بموضوع السورة ، كما تشعرنا بأنها مظهر اسمي الله العزيز والحكيم من خلال عرض معانيها ، فالله عز وجل له العزة وله الحكمة ، وهذا القرآن مجلى أسمائه كلها . ومن ذلك : اسماه العزيز الحكيم ، وهذه السورة مجلى لظهور هذين الاسمين بشكل كامل ، ومن مظاهر عزّته أنه كلّف ، وأنّه يحاسب ، ومن مظاهر حكمته أنه خلق الكون على هذا الكمال ، وأنزل القرآن على مثل هذا الكمال ، فهو جلّ جلاله متصف بكمال العزة ، ومتصف بكمال الحكمة ، وسنرى في السورة هذا المعنى واضحاً ، وإذا كانت السورة تفصل في الآيات السبع الأولى لسورة البقرة التي بدايتها ﴿ **الٓمٓ * ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين** ﴾ فإن بداية السورة يظهر فيها منذ البداية صلتها بهذا التفصيل ، ولننتقل إلى المجموعة الأولى من المقطع الأول ..

....

المجموعة الأولى من المقطع الأول

وتمتد من الآية (٣) إلى نهاية الآية (١١) وهذه هي :

إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن
دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ
ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ
يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ
يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ
مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا
شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩﴾ مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِي
عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟ شَيْـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠﴾
هَٰذَا هُدًى وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿١١﴾

التفسير :

﴿ **إن في السموٰات والأرض لآيات** ﴾ أي : لدلالات على وجود الله وصفاته وأسمائه وأفعاله ﴿ **للمؤمنين** ﴾ أما غير المؤمنين فإنهم في عمى عن رؤية الآيات .

حددت هذه الآية أن المؤمنين وحدهم هم الذين يرون آيات الله في السموٰات والأرض ، أو في خلق السموٰات والأرض ، ثم قال تعالى . ﴿ **وفي خلقكم وما يبث** ﴾

أي: ينشر ويخلق ﴿ **من دابّة آيات لقوم يوقنون** ﴾ في كتابنا (الله جل جلاله) ذكرنا كيف أن أول الظواهر التي تدل على وجود الله ظاهرة حدوث الكون . وذكرنا هناك من الأدلة العقلية والعلمية على ذلك مايقطع دابر الشك . وذكرنا في الكتاب جملة من الظواهر ، منها ظاهرة الحياة ، ودلّلنا هناك على أن هذه الظاهرة المتمثلة في الإنسان وبقية الأحياء تدل على الله دلالة جازمة قاطعة ، فليراجع الكتاب ، وقد لفتت السورة النظر إلى ظاهرة الحدوث ، ثم ثنّت بذكر ظاهرة الحياة ، وبيّنت أن ظاهرة الحدوث تدرك بمجرد الإيمان ، إلا أن ظاهرة الحياة تحتاج إلى يقين ثم قال تعالى : ﴿ **واختلاف الليل والنهار وماأنزل الله من السماء** ﴾ أي: من السحاب ﴿ **من رزق** ﴾ أي: من مطر وسمّي المطر بالرزق لأنه سببه ﴿ **فأحيا به الأرض بعد موتها** ﴾ أي: بعد ما كانت هامدة لانبات فيها ولا شيء ﴿ **وتصريف الرياح** ﴾ قال ابن كثير : (أي: جنوباً وشمالاً ودبوراً وصباً ، برية وبحرية ، ليلية ونهارية ، ومنها ماهو للمطر ، ومنها ماهو للقاح ، ومنها ماهو غذاء للأرواح ، ومنها ماهو عقيم) ﴿ **آيات لقوم يعقلون** ﴾ دلّ ذلك على أن من كان له عقل عرف في اختلاف الليل والنهار ، وإنزال المطر وتصريف الرياح آيات تدل على الله ووجوده وأسمائه وصفاته .

وقد أشارت الآية إلى معان من الحكمة يستدل بها ذو العقل على الله وأسمائه وصفاته ووجوده . وقد لاحظنا أن الآية الأخيرة ذكرت العقل ، والتي قبلها ذكرت اليقين ، والأولى ذكرت الإيمان ، ونأخذ من ذلك أن هناك آيات في الكون تدرك بمجرد العقل يعبر بها الإنسان إلى الله ، وآيات لابد لإحساس القلب فيها من يقين ، وآيات لابد لإحساس القلب فيها من إيمان ، ثم قال تعالى ﴿ **تلك** ﴾ قال النسفي : إشارة إلى الآيات المتقدمة ، وقال ابن كثير : يعني : القرآن بما فيه من الحجج والبينات . أقول : الإشارة ترجع إلى نوعي الآيات الكونية والقرآنية بآن واحد . فههنا تتحد الآية القرآنية بالآية الكونية ﴿ **آيات الله** ﴾ أي: دلالاته وحججه في الكون والقرآن . ﴿ **نتلوها عليك بالحق** ﴾ قال ابن كثير : أي: متضمنة الحق من الحق ﴿ **فبأي حديث بعد الله وآياته يؤمنون** ﴾ أي : فإذا كانوا لا يؤمنون بالله ولا بآياته ، ولا ينقادون لها ، فبأي حديث بعد الله وآياته يؤمنون ، وإذ تبين أنّ هؤلاء الذين لايؤمنون لايمنعهم من الإيمان شبهة ولا حجة ــ بل الحجج كلها قائمة عليهم ــ فإن الله عز وجل يقول مهدداً لهم وواصفاً إياهم : ﴿ **ويل لكل أفاك** ﴾ أي: كذاب ﴿ **أثيم** ﴾ أي: مبالغ في اقتراف الآثام . ﴿ **يسمع** ﴾ هذا الكذاب الأثيم ﴿ **آيات الله تتلى عليه** ﴾ أي: تقرأ ﴿ **ثم يُصرُّ** ﴾ على

كفره وجحوده استكباراً وعناداً ، ومن ثم قال تعالى : ﴿ **مستكبراً كأن لم يسمعها** ﴾ أي : كأنه ما سمعها ﴿ **فبشره بعذاب أليم** ﴾ أي : فأخبره أن له عند الله تعالى يوم القيامة عذاباً أليماً موجعاً جزاءً على استكباره عن الإيمان بالآيات ، والإذعان لما تنطق به عن الحق ، مزدرياً لها ، معجباً بما عنده ﴿ **وإذا علم من آياتنا شيئاً اتخذها هزواً** ﴾ أي : وإذا بلغه شيء من آياتنا سخر منه ، قال ابن كثير : أي : إذا حفظ شيئاً من القرآن كفر به واتخذه سخرياً وهزواً ﴿ **أولئك لهم عذاب مهين** ﴾ أي : مذل في مقابلة ماستهانوا بالقرآن واستهزؤوا به . دلّ ذلك على أن المتصفين بالإثم والكذب ، والمعرضين عن آيات الله ، والمستهزئين بها هم الذين لايؤمنون ، فليس كفرهم أثراً عن موقف عقلي أو علمي ، بل كفرهم أثر عن اتصافهم بأمراض متراكمة تحول بينهم وبين الإيمان ، ويستحقون بذلك العذاب ، وقد فسّر الله عزّ وجلّ العذاب الحاصل لهؤلاء يوم المعاد فقال : ﴿ **من ورائهم جهنم** ﴾ أي : من قدامهم جهنم قال ابن كثير : أي: كل من اتصف بذلك سيصيرون إلى جهنم يوم القيامة ﴿ **ولا يغني عنهم ما كسبوا** ﴾ من الأموال والأولاد ﴿ **شيئاً** ﴾ أي: من عذاب الله ﴿ **ولا ما اتخذوا من دون الله** ﴾ من الأوثان والأنداد ﴿ **أولياء** ﴾ أي: آلهة ونصراء ﴿ **ولهم عذاب عظيم** ﴾ في جهنم . ثم قال تعالى : ﴿ **هذا هدى** ﴾ قال ابن كثير : يعني : القرآن ﴿ **والذين كفروا بآيات ربهم** ﴾ أي : بالقرآن ﴿ **لهم عذاب من رجز** ﴾ هو أشدّ العذاب ﴿ **أليم** ﴾ أي: مؤلم .

قال صاحب الظلال في الآية الأخيرة : (إن حقيقة هذا القرآن أنه هدى . هدى خالص مصفى . هدى ممحّض لايشوبه ضلال . فالذي يكفر بعد ذلك بالآيات ــ وهذه حقيقتها ــ يستحق ألم العذاب الذي يمثله توكيد معنى الشدة والإيلام . فالرجز هو العذاب الشديد . والعذاب الذي يهددون به هو عذاب من رجز أليم .. تكرار بعد تكرار وتوكيد بعد توكيد . يليق بمن يكفر بالهدى الخالص الممحض الصريح) .

وبهذا انتهت المجموعة الأولى من المقطع الأول .

كلمة في السياق :

١ – في الآيات الأولى من المجموعة أرانا الله عز وجل مظاهر حكمته . وفي الآيات الأخيرة التي فيها ﴿ **ويل لكل أفاك أثيم** ﴾ أرانا الله مظاهر عزته ، وفي ذلك تأكيد لما ذكرناه من أن القرآن مجلى أسماء الله كلها . وهذه السورة المصدّرة بذكر اسمين من أسمائه عز

وجل فيها مجلى لظهور هذين الاسمين بشكل كامل .

٢ ـــ بعد أن أرانا الله عزّ وجلّ مظاهر من آياته الكونية وآياته القرآنية ، وبيّن أنّ سبب الكفر هو الأمراض القلبية والسلوكية ، ذكر صفة من صفات كتابه ـــ وهو كونه ﴿ **هدى** ﴾ ـــ وبين عاقبة الكافرين به .

٣ – وصف الله عزّ وجلّ كتابه بأنه هدى بعد أن دلّل على ذاته وصفاته وأسمائه في المجموعة ، مما يشير إلى أن أظهر مافي القرآن من هداية هو دلالته على الله وصفاته وأسمائه .

٤ ـــ رأينا أن الكذب والإثم والكبر هي الأمراض الصارفة للإنسان عن الهداية ، ومن ثم فإنّ تحرر الإنسان منها هو البداية الصحيحة للاهتداء بكتاب الله .

٥ – لاحظ الصلة بين قوله تعالى : ﴿ **هذا هدى** ﴾ وبين قوله تعالى في المحور : ﴿ **ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين** ﴾ .

وبين قوله تعالى في السورة : ﴿ **لآيات للمؤمنين** ﴾ ، ﴿ **آيات لقوم يوقنون** ﴾ وبين قوله تعالى في المحور : ﴿ **الذين يؤمنون بالغيب ... وبالآخرة هم يوقنون ..** ﴾ .

وبين قوله تعالى في السورة : ﴿ **ويل لكل أفّاك أثيم ..** ﴾ ، ﴿ **ثم يصرّ مستكبراً كأن لم يسمعها فبشره بعذابٍ أليم** ﴾ وبين قوله تعالى في المحور : ﴿ **إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون * ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم** ﴾ .

فالصلة بين المجموعة وبين محور السورة واضحة ، وتفصيل السورة للمحور واضح . فالسورة فصلت في الأمراض التي تسبب ختم القلب ، وفصّلت في التدليل على أن هذا القرآن هدى ، وفصّلت في الطريق إلى الاهتداء وشروطه من عقل ويقين وإيمان .

ولننتقل الآن إلى المجموعة الثانية من المقطع الأول ، وهي تشبه المجموعة الأولى من حيث إنها تبدأ بجولة في هذا الكون ، ثم تستقر على الكلام عن القرآن ﴿ **هذا بصائر للناس ..** ﴾ .

....

المجموعة الثانية من المقطع الأول

وتمتد من الآية (١٢) إلى نهاية الآية (٢٠) وهذه هي :

ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ
وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا
مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ
لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِىَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ
وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ
ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ
﴿١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ۖ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ
بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾ ثُمَّ
جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾
إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ
ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾ هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾

التفسـير :

﴿ **الله الذي سخّر لكم البحر لتجري الفلك** ﴾ أي: السفن ﴿ **فيه بأمره** ﴾ أي: بإذنه ﴿ **ولتبتغوا من فضله** ﴾ أي: في المتاجر والمكاسب ، وبالغوص عن اللؤلؤ

والمرجان ، واستخراج اللحم الطري ﴿ **ولعلّكم تشكرون** ﴾ أي : على حصول المنافع المجلوبة إليكم من الأقاليم النائية والآفاق القاصية وغير ذلك . ﴿ **وسخر لكم ما في السمٰوات وما في الأرض** ﴾ أي : من الكواكب والشموس والأقمار ، والجبال والبحار والأنهار وجميع ماتنتفعون به ﴿ **جميعاً منه** ﴾ قال ابن كثير : أي : الجميع من فضله وإحسانه وامتنانه . أي : من عنده وحده لاشريك له في ذلك . قال النسفي : أي سخّر هذه الأشياء كائنة منه أي : حاصلة من عنده ﴿ **إنّ في ذلك لآيات** ﴾ أي : لدلالات على الله وصفاته وأسمائه ﴿ **لقوم يتفكّرون** ﴾ دلّ هذا على أن هذا النوع من الآيات يعرفه الإنسان بمجرد الفكر وفي كتابنا (الله جل جلاله) تحدثنا عن ظاهرة العناية في هذا الكون ، إذ إن كل مافيه وجد بشكل مالصالح الإنسان ، فمن تفكر في هذا المعنى آمن وشكر . وقد ذكرت هاتان الآيتان ظاهرة العناية ، وإذا كان استيعاب هذا المعنى يقتضي شكراً وإيماناً بالله واليوم الآخر بآن واحد ، فإن هذا لم يخلق عبثاً ، فإن الآيتين الآتيين تتحدثان عما ينبغي أن يقابل به المؤمنون الكافرين وعن سنة الله في الحساب .

﴿ **قل للذين آمنوا يغفروا للذين لايرجون أيام الله** ﴾ أي : لا يتوقعون وقائع الله بأعدائه ، أو للذين لا يؤمّلون الأوقات التي وقّتها الله تعالى لثواب المؤمنين ، ووعدهم الفوز فيها ، قل للمؤمنين أن يعفوا عن هؤلاء ويصفحوا . قال ابن كثير : (وكان هذا في ابتداء الإسلام ، أمروا أن يصبروا على أذى المشركين ، وأهل الكتاب ، ليكون ذلك كالتأليف لهم ، ثمّ لمّا أصروا على العناد شرع الله للمؤمنين الجلاد والجهاد) ثم بيّن الله عز وجل الحكمة في هذا الأمر فقال : ﴿ **ليجزي قوماً بما كانوا يكسبون** ﴾ قال ابن كثير : (أي إذا صفحوا عنهم في الدنيا فإن الله عز وجل يجازيهم بأعمالهم السيئة في الآخرة) وقال النسفي : هذا تعليل الأمر بالمغفرة ، أي : إنما أمروا بأن يغفروا ليوفيهم جزاء مغفرتهم يوم القيامة ، وتنكير ﴿ **قوماً** ﴾ على المدح لهم ، وكأنه قيل : ليجزي أيّما قوم قوماً مخصوصين بصبرهم على أذى أعدائهم ﴿ **بما كانوا يكسبون** ﴾ أي : من الإحسان . هكذا فسّرها النسفي . وقال ابن كثير : أي : إذا صفحوا عنهم في الدنيا فإن الله عز وجل يجازيهم بأعمالهم السيئة في الآخرة ولهذا قال تعالى : ﴿ **من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها** ﴾ أي : لها الثواب وعليها العقاب ﴿ **ثم إلى ربكم ترجعون** ﴾ فيجازيكم . قال ابن كثير : أي : تعودون إليه يوم القيامة فتعرضون بأعمالكم عليه ،

فيجزيكم بأعمالكم خيرها وشرها ، وإذ قرر الله عز وجل اقتضاء النعمة للشكر ، واقتضاء الشكر والكفر للحساب والعقاب ، وبعد أن أمر المؤمنين بالصفح عن الكافرين ، وهذا في سياق إنزال الكتاب ، فمن ثمّ يحدثنا الله عز وجل عن أن هذا الإنزال على محمد ﷺ ليس بدعاً ، وماتقابل به هذه الشريعة ليس جديداً ، ومايحدث من اختلاف عليها ليس غريباً قال تعالى: ﴿**ولقد آتينا بني إسرائيل الكتاب**﴾ أي: أي: التوراة ﴿ **والحكم** ﴾ أي: الحكمة والفقه ، أو فصل الخصومات بين الناس . ﴿ **والنبوة** ﴾ فكان الأنبياء فيهم كثيرين ﴿ **ورزقناهم من الطيبات** ﴾ أي: مما أحل الله لهم وأطاب من الأرزاق ﴿**وفضلناهم على العالمين**﴾ أي: على عالمي زمانهم ﴿**وآتيناهم بينات**﴾ أي: آيات ومعجزات ﴿ **من الأمر** ﴾ أي: من أمر الدين ﴿ **فما اختلفوا** ﴾ أي: فما وقع الخلاف بينهم في الدين ﴿ **إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم** ﴾ أي: إلا من بعد ما جاءهم ما هو موجب لزوال الخلاف وهو العلم ، وإنّما اختلفوا لبغي حدث بينهم ، أي: لعداوة هي أثر عن ظلم وحسد بينهم ﴿ **إن ربك يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون** ﴾ قال ابن كثير : أي: سيفصل الله بينهم بحكمه العدل ، وهذا فيه تحذير لهذه الأمّة أن تسلك مسلكهم ، وأن تقصد منهجهم ، ولهذا قال جل وعلا : ﴿ **ثم جعلناك** ﴾ بعد اختلاف أهل الكتاب ﴿ **على شريعة** ﴾ أي: على طريقة ومنهاج ﴿ **من الأمر** ﴾ أي: من أمر الدين ﴿ **فاتبعها** ﴾ أي: فاتبع شريعتك الثابتة بالحجج والدلائل ﴿ **ولا تتّبع أهواء الذين لا يعلمون** ﴾ أي: ولا تتبع ما لا حجة عليه من أهواء الجهال ودينهم المبني على هوى وبدعة ﴿ **إنهم** ﴾ أي: إن أهل الهوى والجهل ﴿ **لن يغنوا عنك من الله شيئاً** ﴾ أي: من العذاب ﴿ **وإن الظالمين بعضهم أولياء بعض** ﴾ للمشاركة فيما بينهم ﴿ **والله ولي المتقين** ﴾ وهم موالوه . قال النسفي : (وما أبين الفضل بين الولايتين) أي: ولاية الظالمين بعضهم لبعض ، وولاية الله للمتقين ، فكن أيها المسلم تقياً لتكون لله ولياً ، قال تعالى ﴿ **هذا** ﴾ أي: القرآن ﴿ **بصائر للناس** ﴾ أي: عيوناً لقلوبهم ترى فيها الأشياء على حقيقتها . قال النسفي : (جعل ما فيه من معالم الدين والشرائع بمنزلة البصائر في القلوب كما جعل روحاً وحياة) ثم قال تعالى مكملاً الحديث عن كتابه : ﴿ **وهدى** ﴾ أي: من الضلال ﴿ **ورحمة** ﴾ من العذاب ﴿ **لقوم يوقنون** ﴾ أي: لمن آمن وأيقن .

قال صاحب الظلال في الآية الأخيرة : (ووصف القرآن بأنه بصائر للناس يعمق معنى الهداية فيه والإنارة . فهو بذاته بصائر كاشفة كما أن البصائر تكشف لأصحابها عن

الأمور . وهو بذاته هدى . وهو بذاته رحمة .. ولكن هذا كله يتوقف على اليقين . يتوقف على الثقة التي لا يخامرها شك ، ولا يخالطها قلق . ولا تتسرب إليها ريبة . وحين يستيقن القلب ويستوثق يعرف طريقه ، فلا يتلجلج ولا يتلعثم ولا يحيد . وعندئذ يبدو له الطريق واضحاً ، والأفق منيراً . والغاية محددة ، والنهج مستقيماً . وعندئذ يصبح هذا القرآن له نوراً وهدى ورحمة بهذا اليقين ..)

وبهذا انتهت المجموعة الثانية والأخيرة من المقطع الأول .

كلمة في المجموعة الثانية ومقطعها :

١ - جاء قوله تعالى : ﴿ **ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها** ﴾ بعد الكلام عن موقف بني إسرائيل من شريعتهم . ثم جاء وصف القرآن بأنه بصائر وهدى ورحمة بعد ذلك ، مما يشير إلى أن اتباع القرآن هو الواجب ، وأن في هذا الاتباع الرؤية الصحيحة للأشياء ، وأن فيه الرحمة والهداية .

٢ - جاء قوله تعالى : ﴿ **هذا بصائر للناس وهدى ورحمة ..** ﴾بعد ذكر اختلافات بني إسرائيل ، مما يشير إلى أن هذه الأمة إذا اختلفت فمعتصمها كتاب الله ؛ فإنه الدليل وفيه الرحمة .

٣ ـ بدأت المجموعة بذكر ظاهرة العناية وبنت عليها ، ثم ذكرت ما أنزل الله على بني إسرائيل ، وكيف كان موقفهم منه ، ثم ذكرت ما أنزله الله على هذه الأمة ، وألزمت به ، ثم جاء وصف القرآن بما رأيناه ، مما يشير إلى أن القرآن هو الذي يعطينا الرؤية الواضحة في محل الإنسان في الكون ، وفي كل ما يختلف فيه الناس ، وفي كل ما ينبغي فعله ، وأن فيه الهدى في ذلك كله ، وأن فيه الرحمة لمن اتصف بصفة اليقين .

٤ - في محور السورة من سورة البقرة نجد قوله تعالى : ﴿ **الٓمٓ * ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين * الذين يؤمنون بالغيب .... وبالآخرة هم يوقنون** ﴾ وههنا نجد قوله تعالى : ﴿ **هذا بصائر للناس وهدى ورحمة لقوم يوقنون** ﴾ فالصلة بين الآية التي استقر عليها سياق المجموعة الثانية من السورة وبين المحور واضحة ، فالقرآن بصيرة وهدى ورحمة لمن اتصف باليقين في أمر الآخرة ، وغيرها من أركان الإيمان .

٥ - عرضت علينا المجموعة مظاهر من الحكمة ، ومظاهر من العزة ، فمن مظاهر

الحكمة : تسخير الله الكون والبحر للإنسان . ومن مظاهر العزة : مجازاة الإنسان ، والفصل بين المختلفين في الشريعة ، والمطالبة باتباع الشريعة ، وتولي الله لأهل التقوى ، وهذا يذكرنا بما قلناه من قبل أنّ السورة مظهر لاسمي الله العزيز الحكيم ، اللذين بدأت بهما السورة .

٦ - وهكذا نجد المقطع في مجموعتيه عمَّق موضوع كون القرآن هدى ، وذكر صفات من يهتدي به ، وشروط هذه الهداية ، وبيّن طبيعة الذين لا يهتدون . إنها طبيعة آثمة كاذبة مستكبرة باغية جاهلة متبّعة للهوى ، أما الطبيعة المهتدية فمن خصائصها الإيمان ، والعقل ، والفكر ، واليقين ، والاتباع ، والصدق ، والطاعة ، والإنصاف ، والعلم . ومن ثم يأتي المقطع الثاني مبتدئاً بموازنة بين أهل الإيمان والعمل الصالح ، وبين أهل الإثم . وكنا ذكرنا أن المقطع الثاني يتألف من مجموعتين . إلا أنه لتداخل معاني المجموعتين تعرض المقطع كله عرضاً واحداً فلنره :

....

المقطع الثاني من سورة الجاثية

ويمتد من الآية (٢١) إلى نهاية الآية (٣٧) أي : إلى نهاية السورة ، وهذا هو :

أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟
ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ أَفَرَءَيْتَ
مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ
بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾ وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا
ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا

يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئْتُواْ
بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ
ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٢٧﴾ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ
كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ
عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ
ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٠﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ
كَفَرُوٓاْ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا
قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِي مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا
ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ
يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٣﴾ وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَىٰكُمُ
ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٤﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ
ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٣٥﴾ فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ
وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾

التفسير :

﴿ **أم حسب** ﴾ أي: بل أحسب ﴿ **الذين اجترحوا السيئات** ﴾ أي: اكتسبوا المعاصي والكفر﴿ **أن نجعلهم** ﴾ أي: أن نصيّرهم ﴿ **كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم** ﴾ أي: نساويهم بهم في الدنيا والآخرة ﴿ **ساء مايحكمون** ﴾ قال ابن كثير . أي: ساء ما ظنوا بنا ، وبَعُد لنا أن نساوي بين الأبرار والفجار ، في الدار الآخرة ، وفي هذه الدار ، وقال النسفي : (أي: بئس مايقضون إذا حسبوا أنهم كالمؤمنين ، فليس من أقعد على بساط الموافقة ، كمن أقعد على مقام المخالفة ، بل نفرّق بينهم ، فنُعلي المؤمنين ونخزي الكافرين) ففي الآية إنكار أن يستوي المسيئون والمحسنون محياً وأن يستووا مماتاً ، لافتراق أحوالهم أحياءً ، حيث عاش هؤلاء على القيام بالطاعات ، وأولئك على اقتراف السيئات ، ومماتاً حيث مات هؤلاء على البشرى بالرحمة والكرامة ، وأولئك على اليأس من الرحمة والندامة ، وحيث عاش هؤلاء على برد اليقين ، وعاش هؤلاء على قلق المعذبين الشاكّين الحائرين ، وحيث عاش هؤلاء على الرعاية والرضا ، وعاش هؤلاء بالإمهال والاغترار والأخذ واليأس ﴿ **وخلق الله السموٰات والأرض بالحق** ﴾ أي : بالعدل ، هذا تعليل لعدم استواء الفجّار والأبرار ﴿ **ولتجزى كل نفس بما كسبت وهم لايظلمون** ﴾ ومن ثم لا يستوي الأبرار والفجار .

وبعد أن بيّن الله عز وجل عدم استواء الطرفين ، أهل الهدى وأهل الضلال يحدثنا عن الذين يتبعون أهواءهم والذين نهى الله عن اتباعهم في آخر المقطع السابق بقوله :

﴿ **ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولاتتّبع أهواء الذين لايعلمون** ﴾ فهنا يبيّن لنا أن من كان شأنه اتباع الهوى لا يهتدي : ﴿ **أفرأيت من اتخذ إلهه هواه** ﴾ قال ابن كثير : أي : إنما يأتمر بهواه ، فمهما رآه حسناً فعله ، ومهما رآه قبيحاً تركه ، وقال النسفي : أي: هو مطاوع لهوى النفس ، يتّبع ما تدعوه إليه ، فكأنه يعبده كما يعبد الرجل إلهه ﴿ **وأضلّه الله على علم** ﴾ أي: أضله الله لعلمه أنه يستحق ذلك ، أو أضله الله بعد بلوغ العلم إليه ، وقيام الحجة عليه ﴿ **وختم على سمعه** ﴾ . فلا يقبل وعظاً ﴿ **وقلبه** ﴾ فلا يعتقد حقاً ﴿ **وجعل على بصره غشاوة** ﴾ فلا يبصر عِبْرة ، فهو لايسمع ما ينفعه في أمر دينه ودنياه وآخرته ، ولا يعي شيئاً يهتدي به ، ولا يرى حجة يستضيء

بها ، ولهذا قال تعالى : ﴿ **فمن يهديه من بعد الله** ﴾ أي : من بعد إضلال الله إياه ﴿ **أفلا تذكرون** ﴾ فتتعظون ، فأصل الشر متابعة الهوى ، والخير كله في مخالفته .

....

كلمة في السياق :

رأينا قبلُ أن محور السورة هو الآيات السبع الأولى من سورة البقرة والتي فيها : ﴿ **إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لايؤمنون * ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم** ﴾ وقد رأينا في الآية التي مرَّت معنا أن سبب هذا الختم هو اتباع الهوى ، وقد رأينا كذلك في السورة من قبل سبب الضلال ، من إفك ، وإثم ، واستكبار ، فالسورة إذن تفصّل في أسباب عقوبة الله للكافرين ، إذ يختم على قلوبهم ، وعلى سمعهم ، وعلى أبصارهم ، وتحدّد للمؤمنين موقفهم منهم ﴿ **ولا تتبع أهواء الذين لايعلمون** .. ﴾ وتبين عدم استواء هؤلاء وهؤلاء في الدنيا والآخرة ، وتبيّن ما لهؤلاء وهؤلاء في الدنيا والآخرة . وبعد أن بيَّن الله عز وجل سبب ضلال الكفار – وهو اتباع الهوى – يعرض علينا شبهة من شبههم التي يتكئون عليها في كفرهم باليوم الآخر ، وذلك هو علّة أمراضهم .

﴿ **وقالوا ما هي** ﴾ أي : ما الحياة ﴿ **إلا حياتنا الدنيا** ﴾ التي نحن فيها ﴿ **نموت ونحيا** ﴾ أي :نموت نحن ونحيا ببقاء أولادنا ، أو يموت بعض ويحيا بعض ، أو نكون مواتاً نطفاً في الأصلاب ، ونحيا بعد ذلك ، أو يصيبنا الأمران : الموت والحياة ، يريدون أنّه لا حياة إلا الحياة الدنيا وأن الموت بعدها ، وليس وراء ذلك حياة . ويشبه هذا القول قول القائلين بالتناسخ ، إذ يقولون : إن الإنسان يموت ، ثم تجعل روحه في موات فيحيا به وهكذا دواليك ﴿ **وما يهلكنا إلا الدهر** ﴾ كانوا يزعمون أن مرور الأيام والليالي هو المؤثر في هلاك الأنفس ، وينكرون ملك الموت وقبضه الأرواح بإذن الله ، وكانوا يضيفون كلّ حادثة تحدث إلى الدهر والزمان ، لذلك ترى أشعارهم ناطقة بشكوى الزمان ﴿ **ما لهم بذلك من علم** ﴾ أي : ما يقولون ذلك عن علم ويقين ، ولكن عن ظنّ وتخمين ﴿ **إن هم إلا يظنون** ﴾ أي : يتوهمون ويتخيلون ﴿ **وإذا تتلى عليهم آياتنا بيّنات** ﴾ أي : إذا استدل عليهم وبيّن لهم الحق ، وأن الله تعالى قادر على إعادة الأبدان

بعد فنائها وتفرقها ببيان القرآن الذي ما بعده بيان .. ﴿ **ما كان حجتهم إلا أن قالوا ائتوا بآبائنا إن كنتم صادقين** ﴾ أي : أحيوهم إن كان ما تقولونه حقاً ، وهذه لغة الكافرين في كل زمان ، يرفضون الإيمان باليوم الآخر ؛ لأنه لم يجيء ميت فيخبرنا ، ونسوا أن كلام الرسول المعصوم ، والقرآن المعجز أقوى وأثبت من كلام أي إنسان ، حتى ولو عاد إلى الحياة من الموت ، لأنه من يدرينا ــ حتى لو عاد إلى الحياة ــ أنه صادق ، ولكنّ الرسول ﷺ قامت كل الأدلة على صدقه ، والقرآن قامت كل الأدلة على أنه من عند الله الذي لاأصدق منه ، وقد أخبرانا عن الآخرة ، ولكنه العمى ، وقد ردَّ الله عز وجل عليهم بقوله : ﴿ **قل الله يحييكم ثم يميتكم ثم يجمعكم إلى يوم القيامة لاريب فيه ..** ﴾ ومن كان قادراً على ذلك كله كان قادراً على الإتيان بآبائكم ضرورة ، فالذي قدر على البداءة قادر على الإعادة بطريق الأولى والأحرى ، ولكن سُنَّته أن يجمعكم إلى يوم القيامة ، وليست سنته أن يعيدكم في الدنيا ﴿ **ولكن أكثر الناس لايعلمون** ﴾ أي لايعرفون قدرة الله على البعث ، لإعراضهم عن التفكير في الدلائل ، فلهذا ينكرون المعاد ، ويستبعدون قيام الأجساد . وبعد أن دلّل الله عز وجل على اليوم الآخر بقدرته على البداءة ، يذكر دليلاً ثانياً على ذلك ، وهو مالكيته للأشياء كلها ، ومن كان كذلك فهو قادر على أن يفعل ما شاء ﴿ **ولله ملك السموٰات والأرض** ﴾ أي: ومن كان كذلك فهو القادر على كل شيء ، والحاكم في كل شيء ، ومن ثم فلابد من يوم آخر ، ثم عقّب على هذا المعنى واعظاً ﴿ **ويوم تقوم الساعة** ﴾ أي : القيامة ﴿ **يومئذ يخسر المبطلون** ﴾ وهم الكافرون بالله ، الجاحدون بما أنزله على رسله من الآيات البينات ، والدلائل الواضحات وبعد أن أقام الله عز وجل الحجة أنذر : ﴿ **وترى كل أمة جاثية** ﴾ أي: جالسة على الركب من الهول والشدة والعظمة . قال ابن كثير : (ويقال : إن هذا إذا جيء بجهنم فإنها تزفرزفرة لا يبقى أحد إلا جثا لركبتيه ﴿ **كل أمة تدعى إلى كتابها** ﴾ أي: إلى صحائف أعمالها فيقال لهم: ﴿ **اليوم تجزون ماكنتم تعملون** ﴾ . في الدنيا : قال ابن كثير : أي: تجازون بأعمالكم خيرها وشرها ﴿ **هذا كتابنا** ﴾ أي: الذى كتبته الملائكة عليكم ﴿ **ينطق عليكم بالحق** ﴾ أي: من غير زيادة ولا نقصان . أي: يشهد عليكم بما عملتم كاملاً قال ابن كثير : أي: يستحضر جميع أعمالكم من غير زيادة ولا نقص . ﴿ **إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون** ﴾ أي: نستكتب الملائكة أعمالكم .. قال النسفي : وليس ذلك بنقل من كتاب بل معناه نثبت

﴿ **فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيدخلهم ربهم في رحمته** ﴾ أي: في جنته ، وإنما يستحق ذلك من آمن قلبه وعملت جوارحه الأعمال الصالحة ، وهي الخالصة الموافقة للشرع ﴿ **ذلك هو الفوز المبين** ﴾ أي: البيّن الواضح ﴿ **وأما الذين كفروا** ﴾ فيقال لهم : ﴿ **أفلم تكن آياتي تتلى عليكم** ﴾ في الدنيا ﴿ **فاستكبرتم** ﴾ عن الإيمان بها ﴿ **وكنتم قوماً مجرمين** ﴾ أي: كافرين ﴿ **وإذا قيل** ﴾ لكم في الدنيا ﴿ **إن وعد الله** ﴾ بالجزاء ﴿ **حق والساعة لا ريب فيها** ﴾ أي: لاشك فيها ﴿ **قلتم ما ندري ما الساعة** ﴾ أي: ما ندري أي شيء هي الساعة أي: لا نعرفها ﴿ **إن نظن إلا ظناً** ﴾ أي: إن نتوهم وقوعها إلا توهماً مرجوحاً ﴿ **وما نحن بمستيقنين** ﴾ أي: بمتحققين ﴿ **وبَدا لهم** ﴾ أي: وظهر لهؤلاء الكفار ﴿ **سيئات ما عملوا** ﴾ أي: قبائح أعمالهم ، أو عقوبات أعمالهم السيئات ﴿ **وحاق بهم** ﴾ أي: ونزل بهم ﴿ **ما كانوا به يستهزؤون** ﴾ أي: من العذاب والنكال ، أي: وأحاط بهم ما استهزؤوا به من النكال والعذاب ، أو ونزل بهم جزاء استهزائهم ﴿ **وقيل اليوم ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا** ﴾ أي: نعاملكم معاملة الناسِ لكم في نار جهنم ، كما نسيتم لقاء يوم القيامة ، فلم تعملوا له ؛ لأنكم لم تصدقوا به . قال النسفي : أي: نترككم في العذاب كما تركتم عُدَّة لقاء يومكم ، وهي الطاعة ﴿ **ومأواكم النار** ﴾ أي: ومنزلكم النار ﴿ **وما لكم من ناصرين** ﴾ ينصرونكم من بأس الله ﴿ **ذلكم** ﴾ أي: العذاب ﴿ **بأنكم** ﴾ أي: بسبب أنكم ﴿ **اتخذتم آيات الله هزواً** ﴾ أي: إنما جازيناكم هذا الجزاء لأنكم اتخذتم حجج الله عليكم سخرياً ، تسخرون وتستهزؤون بها ﴿ **وغرّتكم الحياة الدنيا** ﴾ أي: خدعتكم فاطمأننتم إليها ﴿ **فاليوم لا يخرجون منها** ﴾ أي: من النار ﴿ **ولا هم يستعتبون** ﴾ أي: ولا يطلب منهم أن يعتبوا ربهم ، أي: يرضوه . قال ابن كثير : أي: لا يطلب منهم العتبى ، بل يعذبون بغير حساب ولا عتاب ، كما تدخل طائفة من المؤمنين الجنة بغير عذاب ولا حساب .

كلمة في السياق :

بدأ المقطع كما رأينا بقوله تعالى : ﴿ **أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون** ﴾ وسار المقطع حتى استقر على بيان الفارق بين الكافرين والمؤمنين في الآخرة ﴿ **فأما الذين آمنوا**

وعملوا الصالحات فيدخلهم ربهم في رحمته ذلك هو الفوز المبين * وأما الذين كفروا .. ﴾ وقد رأينا فيما بين ذلك الأسباب الكبرى لاستحقاق الكافرين العذاب ، وهي الاستهزاء بآيات الله ، والاغترار بالدنيا ، ولم يبق عندنا في المقطع والسورة إلا آيتان فلنرهما ثم نذكر محلهما في السياق :

﴿ **فلله الحمد رب السموٰات ورب الأرض رب العالمين** ﴾ قال النسفي : أي : فاحمدوا الله الذى هو ربكم ورب كل شيء من السموٰات والأرض والعالمين ، فإن مثل هذه الربوبية العامة توجب الحمد والثناء على كل مربوب ﴿ **وله الكبرياء** ﴾ أي : العظمة والمجد والسلطان ﴿ **في السموٰات والأرض وهو العزيز** ﴾ أي : في انتقامه الذي لا يغالب ولا يمانع ﴿ **الحكيم** ﴾ في أحكامه وأقواله وأفعاله وشرعه وقدره . قال النسفي في الآية : أي : وكبِّروه فقد ظهرت آثار كبريائه وعظمته في السموٰات والأرض .

كلمة في المقطع والسياق :

١ - نلاحظ أن السورة بدأت بذكر اسمي الله العزيز الحكيم ، وختمت بذكر اسمي الله العزيز الحكيم ، وكما رأينا ظهور آثار هذين الاسمين في معاني المقطع الأول . فإن المقطع الثاني كذلك ، تظهر فيه معاني الحكمة والعزة ، إنْ في عدم المساواة بين المؤمنين والكافرين ، أو في إقامة الحجج على الكافرين أو في ما أعده للمؤمنين والكافرين .

٢ - نلاحظ أن السورة ختمت بذكر استحقاق الله للحمد ، واتصافه بالكبرياء ، وحكمة ذلك أن السورة ذكرت ما خلق الله عز وجل ممّا هو لصالح الإنسان ، وذكرت عدل الله ، وذكرت إنزاله هذا القرآن وبعض خصائصه ، وذكرت ما أعدّ لأهل الجنة ، ولأهل النار ، وكل ذلك يقتضي من عباده حمداً ، ويدلّ على كبريائه وعظمته ومجده .

٣ - نلاحظ أن المقطع الثاني بنى على المقطع الأول ، فالمقطع الأول ذكر خصائص للقرآن ، وأقام الدليل عليها . وجاء المقطع الثاني ليبين نتائج الإيمان ، ونتائج الكفر ، وأسباب مواقف الكفر ، وبعضاً من هذه المواقف . وردٌ عليها ، وصلة ذلك بالمحور صلة واضحة . وفي الكلمة الأخيرة عن السورة زيادة بيان فلننقل الآن بعض الفوائد .

فوائد :

١ – عند قوله تعالى : ﴿ **وما أنزل الله من السماء من رزق فأحيا به الأرض بعد موتها** ﴾ قال صاحب الظلال : (والرزق قد يكون المقصود به هو الماء النازل من السماء . كما فهم منه القدماء . ولكن رزق السماء أوسع . فهذه الأشعة التي تنزل من السماء ليست أقل أثراً في إحياء الأرض من الماء ، بل إنها لهي التي ينشأ عنها الماء بإذن الله . فحرارة الشمس هي التي تبخر الماء من البحار ، فتتكاثف وتنزل أمطاراً ، وتجري عيونا وأنهاراً ؛ وتحيا بها الأرض بعد موتها . تحيا بالماء وتحيا بالحرارة والضياء سواءً؟)

٢ ــ وعند قوله تعالى : ﴿ **قل للذين آمنوا يغفروا للذين لايرجون أيام الله** ﴾ قال الألوسي : (أي يعفوا ويصفحوا عن الذين لايتوقعون وقائعه تعالى بأعدائه ونقمته فيهم ، فالرجاء مجاز عن التوقع ، وكذا الأيام مجاز عن الوقائع ، من قولهم : أيام العرب لوقائعها ، وهو مجاز مشهور ، وروي ذلك عن مجاهد . أو لايأملون الأوقات التي وقّتها الله تعالى لثواب المؤمنين ، ووعدهم الفوز فيها ، والآية قيل : نزلت قبل آية القتال ثم نسخت بها

وقال بعضهم : لانسخ ؛ لأن المراد هنا ترك النزاع في المحقرات والتجاوز عن بعض مايؤذي ويوحش . وحكى النحاس ، والمهدوي عن ابن عباس أنها نزلت في عمر رضي الله تعالى عنه شتمه مشرك بمكة قبل الهجرة فَهَمّ أن يبطش به ، فنزلت . وروي ذلك عن مقاتل ، وهذا ظاهر فى كونها مكية كأخواتها .

نعم قيل : إن النبي ﷺ وأصحابه نزلوا في غزوة بني المصطلق على بئر يقال له المريسيع ، فأرسل ابن أُبيّ غلامَه ليستقي فأبطأ عليه ، فلما أتاه قال له : ماحبسك ؟ قال : غلام عمر ، قعد على طرف البئر ، فما ترك أحداً يستقي حتى ملأ قرب النبى ﷺ وقرب أبي بكر رضى الله تعالى عنه ، فقال ابن أبي : مامثلنا ومثل هؤلاء إلا كما قيل سَمِّن كلبك يأكلْك ، فبلغ ذلك عمر رضي الله تعالى عنه فاشتمل سيفه يريد التوجه إليه فأنزل الله تعالى الآية ؛ وحكاه الإمام عن ابن عباس وهو يدل على أنها مدنية ، وكذا ماروي عن ميمون بن مهران قال : إن فنحاصاً اليهودي قال لما أنزل الله تعالى ﴿ **من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً** ﴾ : احتاج رب محمد ، فسمع بذلك عمر رضي الله عنه فاشتمل سيفه ، وخرج ، فبعث النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في طلبه حتى رده ونزلت الآية .

٣ - وعند قوله تعالى : ﴿ **ثمّ جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لايعلمون** ﴾ قال صاحب الظلال : (وهكذا يتمحض الأمر . فإما شريعة الله . وإما أهواء الذين لايعلمون .. وليس هنالك من فرض ثالث ، ولا طريق وسط بين الشريعة المستقيمة والأهواء المتقلبة ؛ ومايترك أحد شريعة الله إلا ليحكّم الأهواء ، فكل ما عداها هوى يهفو إليه الذين لا يعلمون !

والله ــ سبحانه ــ يحذر رسوله ﷺ أن يتّبع أهواء الذين لايعلمون ، فهم لا يغنون عنه من الله شيئاً . وهم يتولون بعضهم بعضاً . وهم لا يملكون أن يضروه شيئاً حين يتولى بعضهم بعضاً ، لأن الله هو مولاه ﴿ **إنهم لن يغنوا عنك من الله شيئاً وإن الظالمين بعضهم أولياء بعض والله ولي المتقين** ﴾ وإن هذه الآية مع التي قبلها لتعيّن سبيل صاحب الدعوة وتحدده ، وتغني في هذا عن كل قول وعن كل تعليق أو تفصيل : ﴿ **ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتّبعها ، ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون * إنهم لن يغنوا عنك من الله شيئاً ، وإن الظالمين بعضهم أولياء بعض ، والله ولي المتقين** ﴾ ..

إنها شريعة واحدة هي التي تستحق هذا الوصف ، وما عداها أهواء منبعها الجهل . وعلى صاحب الدعوة أن يتّبع الشريعة وحدها ، ويدع الأهواء كلها . وعليه ألا ينحرف عن شيء من الشريعة إلى شيء من الأهواء . فأصحاب هذه الأهواء أعجز من أن يغنوا عنه من الله صاحب الشريعة . وهم إلب عليه فبعضهم ولي لبعض . وهم يتساندون فيما بينهم ضد صاحب الشريعة فلا يجوز أن يأمل في بعضهم نصرة له ، أو جنوحاً عن الهوى الذي يربط بينهم برباطه . ولكنهم أضعف من أن يؤذوه . والله ولي المتقين . وأين ولاية من ولاية ؟ وأين ضعاف جهال مهازيل يتولى بعضهم بعضاً ؛ من صاحب شريعة يتولاه الله . ولي المتقين ؟)

٤ - وعند قوله تعالى : ﴿ **أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون** ﴾ قال الألوسي : يستنبط منها تباين حالي المؤمن العاصي والمؤمن الطائع ؛ ولهذا كان كثير من العباد يبكون عند تلاوتها حتى إنها تسمى مبكاة العابدين لذلك ، فقد أخرج عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد . والطبراني ، وجماعة عن أبي الضحى قال : قرأ تميم الداري سورة الجاثية فلما أتى على قوله تعالى : ﴿ **أم حسب الذين** ﴾ الآية ، لم يزل يكررها ويبكي حتى

أصبح وهو عند المقام . وأخرج ابن أبي شيبة عن بشير مولى الربيع بن خيثم أن الربيع كان يصلي فمرَّ بهذه الآية ﴿ **أم حسب الذين** ﴾ إلخ فلم يزل يرددها حتى أصبح ، وكان الفضيل ابن عياض يقول لنفسه إذا قرأها : ليت شعري من أي الفريقين أنت . وقال ابن عطية : إن لفظها يعطي أن اجتراح السيئات هو اجتراح الكفر لمعادلته بالإيمان ، ويحتمل أن تكون المعادلة بالاجتراح وعمل الصالحات ، ويكون الإيمان في الفريقين ، ولهذا بكى الخائفون عند تلاوتها . ورأيت كثيراً من المغرورين المستغرقين ليلهم ونهارهم بالفسق والفجور يقولون بلسان القال والحال : نحن يوم القيامة أفضل حالاً من كثير من العابدين ، وهذا منهم ـــ والعياذ بالله تعالى ـــ ضلال بعيد ، وغرور ما عليه مزيد ﴿ **سَاءَ مَايَحْكُمُونَ** ﴾ أي : ساء حكمهم هذا وهو الحكم بالتساوي) .

٥ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر** ﴾ قال ابن كثير : (أي : ما ثم إلا هذه الدار ، يموت قوم ويعيش آخرون ، وما ثم معاد ولا قيامة ، وهذا يقوله مشركو العرب المنكرون المعاد ، وتقوله الفلاسفة الإلهيون منهم ، وهم ينكرون البداءة والرجعة ، وتقوله الفلاسفة الدهرية المنكرون للصانع ، المعتقدون أن في كل ستة وثلاثين ألف سنة يعود كل شيء إلى ما كان عليه ، وزعموا أن هذا قد تكرر مرات لا تتناهى ، فكابروا العقول ، وكذبوا المنقول ؛ ولهذا قالوا ﴿ **وما يهلكنا إلا الدهر** ﴾ قال الله تعالى : ﴿ **وما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون** ﴾ أي يتوهّمون ويتخيلون . فأما الحديث الذي أخرجه صاحبا الصحيح وأبو داود والنسائي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « يقول تعالى : يؤذيني ابن آدم ، يسب الدهر وأنا الدهر ، بيدي الأمر أقلّب ليله ونهاره » وفي رواية : « لا تسبوا الدهر فإن الله تعالى هو الدهر » . وقد أورده ابن جرير بسياق غريب جدا فقال : عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « كان أهل الجاهلية يقولون : إنما يهلكنا الليل والنهار ، وهو الذي يهلكنا يميتنا ويحيينا فقال الله تعالى في كتابه : ﴿ **وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر** ﴾ ويسبون الدهر ، فقال الله عز وجل : يؤذيني ابن آدم ، يسب الدهر وأنا الدهر ، بيدى الأمر ، أقلب الليل والنهار » وكذا رواه ابن أبي حاتم ، ثم روي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « قال الله تعالى : يسبّ ابن آدم الدهر وأنا الدهر بيدي الليل والنهار » وأخرجه صاحبا الصحيح والنسائي ، وروى محمد بن إسحاق عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « يقول الله تعالى : استقرضت عبدي فلم

يعطني وسبني عبدي ، يقول : وادهراه وأنا الدهر » قال الشافعي وأبو عبيدة وغيرهما من الأئمة في تفسير قوله ﷺ « لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر » : كانت العرب في جاهليتها إذا أصابهم شدة أو بلاء أو نكبة قالوا : يا خيبة الدهر ، فيسندون تلك الأفعال إلى الدهر ، ويسبونه ، وإنما فاعلها هو الله تعالى ، فكأنهم إنما سبّوا الله عز وجل ، لأنه فاعل ذلك في الحقيقة ، فلهذا نهى عن سبّ الدهر بهذا الاعتبار ، لأن الله تعالى هو الدهر الذي يعنونه ويسندون إليه تلك الأفعال ، هذا أحسن ما قيل في تفسيره وهو المراد والله أعلم . وقد غلط ابن حزم ومن نحا نحوه من الظاهرية في عدّهم الدهر من الأسماء الحسنى أخذاً من هذا الحديث) .

٦ - في قوله تعالى : ﴿ **وترى كل أمة جاثية** ﴾ قال ابن كثير : (أي : على ركبها من الشدة والعظمة ، ويقال : إن هذا إذا جيء بجهنم فإنها تزفر زفرة لا يبقى أحد إلا جثا بركبتيه حتى إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام ، ويقول نفسي نفسي نفسي ، لا أسألك اليوم إلا نفسي ، وحتى إن عيسى عليه الصلاة والسلام ليقول : لا أسألك اليوم إلا نفسي ، لا أسألك مريم التي ولدتني . قال مجاهد وكعب الأحبار والحسن البصري ﴿ **كل أمة جاثية** ﴾ أي : على الركب . وقال عكرمة : جاثية متميزة على ناحيتها ، وليس على الركب والأولى أولى . روى ابن أبي حاتم بسنده أن رسول الله ﷺ قال : « كأني أراكم جاثين بالكوم دون جهنم » . وروى إسماعيل بن أبي رافع المديني عن محمد بن كعب عن أبي هريرة رضى الله عنه مرفوعاً في حديث الصور فيتميز الناس وتجثو الأمم وهي التي يقول الله تعالى : ﴿ **وترى كل أمة جاثية كل أمة تدعى إلى كتابها** ﴾ وهذا فيه جمع بين القولين ولا منافاة والله أعلم) .

٧ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **إنا كنا نَستنْسِخ ما كنتم تعملون** ﴾ قال ابن كثير : (أي : إنا كنا نأمر الحفظة أن تكتب أعمالكم عليكم . قال ابن عباس رضي الله عنهما وغيره : تكتب الملائكة أعمال العباد ، ثم تصعد بها إلى السماء ، فيقابلون الملائكة الذين في ديوان الأعمال على مابأيدي الكتبة ، مما قد أبرز لهم من اللوح المحفوظ في كل ليلة قدر مما كتبه الله في القدم على العباد قبل أن يخلقهم فلا يزيد حرفاً ولا ينقص حرفاً ثم قرأ ﴿ **إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون** ﴾) .

٨ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا** ﴾ قال ابن كثير : وقد ثبت في الصحيح أن الله تعالى يقول لبعض العبيد يوم القيامة : « ألم أزوجك ؟ ألم

أكرمك ؟ ألم أسَخّر لك الخيل والإبل وأذرك ترأس وتربع ؟ فيقول : بلى يارب ، فيقول : أفظننت أنك ملاقيّ ؟ فيقول : لا فيقول الله تعالى : فاليوم أنساك كما نسيتني ») .

٩ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **وله الكبرياء في السمٰوات والأرض** .. ﴾ قال ابن كثير : (وقد ورد في الحديث الصحيح : « يقول الله تعالى : العظمة إزاري ، والكبرياء ردائي فمن نازعني واحداً منهما أسكنته ناري » رواه مسلم عن أبي هريرة وأبي سعيد رضى الله عنهما عن رسول الله ﷺ بنحوه) .

كلمة أخيرة في سورة الجاثية :

١ - فصّلت السورة في الآيات السبع الأولى من سورة البقرة ، أي : في موضوع المتقين والكافرين ، فعرفنا كثيراً مما أجمل في أول سورة البقرة ، وعرفنا كثيراً عن بعض الأمور التي ذكرت هناك بشكل تقريري .

٢ - عرفنا بشكل دقيق أن ما سوى شريعة الله هو الهوى . جاء ذلك بعد ذكر اختلاف بني إسرائيل من بعد ما جاءهم العلم . مما يشير إلى أن كل خلاف في هذه الأمة سببه البغي ، وسببه اتباع الهوى ، وأن الحكم العدل هو في شريعة الله عز وجل ، وفي ذلك درس كبير لمسلمي عصرنا الذين اختلفوا كثيراً وأهملوا كثيراً .

٣ - عرفنا من السورة أن من خصائص هذا القرآن أنه بصائر للناس ، أي : أنه عيون لقلوبهم يرون بها الأشياء على حقائقها ، وبأحجامها ، وفي ذلك درس كبير للمسلم ألّا يرى شيئاً في هذا الوجود إلا بعين القرآن ، وإن الذي لا يرى الناس والأشياء والأمور وكل شيء بهذه العين أعمى . إن كثيرين من الناس لا يرون الأمور السياسية بهذه العين ، وإن كثيرين لا يرون الأمور الاقتصادية بهذه العين ، وإن كثيرين لا يرون الأمور الاجتماعية بهذه العين ، هؤلاء كلهم عميان على الحقيقة ، إن المسلم الحق هو الذي يرى الأشياء كلها بنور القرآن .

٤ - رأينا أن محور السورة هو الآيات السبع من أول سورة البقرة ، وقد رأينا أن التفصيل انصب على قضية الاهتداء بالقرآن والكفر به ، أكثر مما انصب على أي شيء آخر . ومن ثم فإن السورة بدأت بقوله تعالى : ﴿ **تنزيل الكتاب من الله العزيز**

الحكيم ﴾ ثم ختمت المجموعة الأولى منها بقوله تعالى : ﴿ **هذا هدى والذين كفروا بآيات ربهم لهم عذاب من رجز أليم** ﴾ ثم ختمت المجموعة الثانية بقوله تعالى : ﴿ **هذا بصائر للناس وهدى ورحمة لقوم يوقنون** ﴾ ورأينا في المجموعة الأولى : ﴿ **ويل لكل أفاك أثيم . يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصر مستكبراً كأن لم يسمعها فبشره بعذاب أليم وإذا علم من آياتنا شيئاً اتخذها هزواً أولئك لهم عذاب مهين** ﴾ ورأينا في المقطع الثاني : ﴿ **وأما الذين كفروا أفلم تكن آياتي تتلى عليكم فاستكبرتم وكنتم قوماً مجرمين** ﴾ ورأينا كذلك في المقطع الثاني ﴿ **ذلكم بأنكم اتخذتم آيات الله هزواً وغرتكم الحياة الدنيا ..** ﴾ .

٥ - مع أن السورة فصّلت في محورها كما رأينا ، إلا أن سياقها الخاص ووحدتها كانا على غاية من التسلسل والوحدة ، فبعد أن أوصلتنا المجموعة الأولى إلى حقيقة من خصائص القرآن ، ثم أوصلتنا المجموعة الثانية إلى خصائص أخرى ، وعرفتنا المجموعتان على المواقف الكافرة من هذا القرآن ، انصب الكلام في المقطع الثاني على بيان عدم المساواة بين أهل الإيمان وأهل الكفر ، وهكذا أدّت السورة دورها في السياق العام للقرآن الكريم ، كما أدّت دورها في محلّها من مجموعتها وكلّ ذلك ضمن سياقها الخاص بها .

☆ ☆ ☆

سورة الأحقاف

وهي السورة السادسة والأربعون بحسب الرسم القرآني
وهي السورة الثانية من المجموعة الخامسة من قسم المثاني
وآياتها خمس وثلاثون آية
وهي مكية

وهي السورة السابعة والأخيرة من آل (حمۤ)

* * *

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحَمْدُ لِلّهِ، وَالصَّلاةُ وَالسَّلامُ عَلَى رَسُولِ اللهِ وَآلِهِ وَأَصْحَابِهِ

رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا، إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ العَلِيمُ

كلمة في سورة الأحقاف ومحورها :

يلاحظ أن هناك شبهاً بين سورة الأحقاف وسورتي فصّلت وهود ؛ ففي سورة فصّلت يرد قوله تعالى : ﴿ **إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزَّل عليهم الملائكة ....** ﴾ (الآية : ٣٠) . وفي سورة الأحقاف يرد قوله تعالى ﴿ **إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ....** ﴾ (الآية : ١٣) .

وفي سورة فصّلت يرد قوله تعالى :﴿ **فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود * إذ جاءتهم الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم ألا تعبدوا إلا الله ....** ﴾ (الآيتان : ١٣ ، ١٤) وفي سورة الأحقاف يرد قوله تعالى : ﴿ **واذكر أخا عاد إذ أنذر قومه بالأحقاف وقد خلت النذر من بين يديه ومن خلفه ألا تعبدوا إلا الله .....** ﴾ (الآية : ٢١) .

وفي سورة فصّلت يرد قوله تعالى : ﴿ **قل أرأيتم إن كان من عند الله ثم كفرتم به من أضل ممن هو في شقاق بعيد .** ﴾ (الآية : ٥٢) وفي سورة الأحقاف يرد قوله تعالى : ﴿ **قل أرأيتم إن كان من عند الله وكفرتم به وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله فآمن واستكبرتم** ﴾ . (الآية : ١٠) .

وفي سورة هود يرد قوله تعالى : ﴿ **فاستقم كما أمرت** ﴾ (الآية : ١١٢) وترد فيها قصص مجموعة رسل منهم هود ، كلهم دعوا لعبادة الله وحده ، وذلك يشبه ما ورد في سورة الأحقاف .

ويرد في سورة هود قوله تعالى : ﴿ **أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات .** ﴾ (الآية : ١٣) ونجد في سورة الأحقاف قوله تعالى : ﴿ **أم يقولون افتراه قل إن افتريته فلا تملكون لي من الله شيئاً .** ﴾

وفي سورة هود يرد قوله تعالى : ﴿ **أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه ومن قبله كتاب موسى إماماً ورحمة أولئك يؤمنون به ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده فلا تك في مِرْية منه إنه الحق من ربك ولكنّ أكثر الناس لا يؤمنون** ﴾ (الآية : ١٧) .

وفي سورة الأحقاف نجد قوله تعالى : ﴿ **قل أرأيتم إن كان من عند الله وكفرتم به وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله فآمن واستكبرتم إن الله لا يهدي القوم الظالمين** *

وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيراً ماسبقونا إليه وإذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفك قديم * ومن قبله كتاب موسى إماماً ورحمة وهذا كتاب مصدق لساناً عربياً لينذر الذين ظلموا وبشرى للمحسنين . ﴾ (الآيات : ١٠ ـــ ١٢) .

وهذا كله يستأنس به على أن محور سورة الأحقاف هو نفسه محور سورتي هود وفصّلت ، ولقد رأينا أنّ محور سورتي هود وفصّلت هو قوله تعالى ﴿ **يا أيها الناس اعبدوا ربّكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون** ﴾ وههنا نجد قوله تعالى ﴿ **قل أرأيتم ما تدعون من دون الله أروني ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك في السمٰوات ائتوني بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم إن كنتم صادقين * ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون** ﴾ (الآيتان : ٤ ، ٥) .

فمحور السورة من سورة البقرة يدعو إلى عبادة الله وحده ، وسورة الأحقاف تناقش من يعبد غيره .

....

رأينا أن سورة الجاثية فصّلت في مقدمة سورة البقرة ، ويأتي بعد مقدّمة سورة البقرة المقطع الأول من القسم الأول منها ، وهو مقطع الطريقين الذي يبدأ بقوله تعالى : ﴿ **يا أيها الناس اعبدوا ربكم .** ﴾ والملاحظ أن سورة الأحقاف تفصّل في ست آيات في هذا المقطع أي إلى قوله تعالى ﴿ **وما يضلّ به إلا الفاسقين** ﴾

....

تتألف سورة الأحقاف من مقدمة ومقطعين :

المقدمة هي قوله تعالى : ﴿ **حمٓ * تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم * ما خلقنا السمٰوات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمّى والذين كفروا عما أنذروا معرضون** ﴾ ثمّ يأتي المقطع الأول وهو مبدوء بكلمة (قل) ومنته بقول تعالي ﴿ **وبما كنتم تفسقون** ﴾ ثمّ يأتي المقطع الثاني وهو مبدوء بكلمة (واذكر) ومنته بقوله تعالى ﴿ **فهل يهلك إلا القوم الفاسقون** ﴾

وسنرى وحدة السورة أثناء عرضها وصلتها بمحورها من سورة البقرة ، وقد ذكر

الألوسي وجه مناسبتها لماقبلها فقال : (ووجه اتصالها أنّه تعالى لما ختم السورة التي قبلها بذكر التوحيد ، وذمّ أهل الشرك والوعيد افتتح هذه بالتوحيد ، ثمّ بالتوبيخ لأهل الكفر من العبيد) ولنبدأ عرض السورة :

....

مقدمة السورة

وتمتد من الآية (١) إلي نهاية الآية (٣) وهذه هي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

حمٓ (١) تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (٢) مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ (٣)

التفسير :

﴿ **حمٓ** * **تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم** ﴾ ومن ثم فهو مجلى عزة الله وحكمته قال ابن كثير : (يخبر تعالى أنه أنزل الكتاب علي عبده ورسوله محمد صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلي يوم الدين . ووصف نفسه بالعزة التي لا ترام ، والحكمة في الأقوال والأفعال .)

﴿ **ما خلقنا السمٰوات والأرض وما بينهما إلا بالحق** ﴾ لا علي وجه العبث والباطل ﴿ **وأجل مسمى** ﴾ ينتهي إليه وهو يوم القيامة ، أي وإلى مدة معينة مضروبة لا تزيد ولا تنقص ، وهذا يقتضي إنزال وحي وإرسال رسل ؛ لتحدد للإنسان المسار الذي ينسجم به مع حكمة خلق الخلق ، ومع مقتضى العبودية لله العزيز . ومن ثم قال تعالى : ﴿ **والذين كفروا عَمَّا أُنذِروا** ﴾ أي : عما أنذروه من هول ذلك اليوم الذي لا بد

لكل مخلوق من انتهائه إليه ﴿ **معرضون** ﴾ أي : لاهون عما يُراد بهم ، أي لا يؤمنون به ولا يهتمّون بالاستعداد له . قال ابن كثير : (وقد أنزل الله تعالى إليهم كتاباً ، وأرسل إليهم رسولاً ، وهم معرضون عن ذلك كله ، أي وسيعلمون غِبّ ذلك .)

كلمة في السياق :

قلنا إن سورة الأحقاف تفصّل في المقطع الآتي بعد مقدمة سورة البقرة ، ولكنها قبل أن تنطلق لهذا التفصيل فإنّها تقدّم بذكر قضيتين تعرّضت لهما مقدمة سورة البقرة ، فهي تذكرّ بهما ، ثمّ تصل إلى تفصيل ما بعد المقدمة :

لقد ذكرت مقدّمة سورة الأحقاف بقوله تعالى من مقدمة سورة البقرة : ﴿ **الٓمٓ * ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين** ﴾ ، ﴿ **إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون** ﴾

فعرضت مقدمة سورة الأحقاف إلى أن القرآن من عند الله ، وعرضت لإعراض الكافرين عنه ، وها هي ذي تنطلق نحو مناقشة الذين يعبدون غير الله ، ثم تناقش الذين لا يؤمنون بالقرآن ، ثم تبشّر وتنذر ، ثم تتحدث عن الفاسقين ، ثمّ تذكّر وتعظ ، فتفصّل في سيرها وعلى طريقتها - كما قلنا - في ست آيات من المقطع الأول من القسم الأول من سورة البقرة فلنر المقطع الأول من سورة الأحقاف .

المقطع الأول

وتمتد من الآية (٤) إلى نهاية الآية (٢٠) وهذا هو

قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤﴾ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ

﴿٦﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا
سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ
هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ۖ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٨﴾
قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا
يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ
وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ
لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْ كَانَ خَيْرًا
مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ۚ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾ وَمِن قَبْلِهِۦ
كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ
ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ
عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟
يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ
كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ
رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا
تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ

ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنۡهُمۡ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمۡ فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَنَّةِۖ وَعۡدَ
ٱلصِّدۡقِ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِي قَالَ لِوَٰلِدَيۡهِ أُفّٖ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِيٓ أَنۡ
أُخۡرَجَ وَقَدۡ خَلَتِ ٱلۡقُرُونُ مِن قَبۡلِي وَهُمَا يَسۡتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيۡلَكَ ءَامِنۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ
حَقّٞ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ
فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ خَٰسِرِينَ ﴿١٨﴾ وَلِكُلّٖ
دَرَجَٰتٞ مِّمَّا عَمِلُواْۖ وَلِيُوَفِّيَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَيَوۡمَ يُعۡرَضُ
ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَذۡهَبۡتُمۡ طَيِّبَٰتِكُمۡ فِي حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنۡيَا وَٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِهَا فَٱلۡيَوۡمَ
تُجۡزَوۡنَ عَذَابَ ٱلۡهُونِ بِمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَبِمَا كُنتُمۡ
تَفۡسُقُونَ ﴿٢٠﴾

التفسير :

﴿ **قل** ﴾ يا محمد لهؤلاء الكافرين المعرضين ﴿ **أرأيتم** ﴾ أي : أخبروني ﴿ **ما تدعون من دون الله** ﴾ أي: أخبروني عن هؤلاء الذين تعبدونهم من دون الله من الأصنام والأنداد والشركاء﴿ **أروني ماذا خلقوا من الأرض** ﴾ أي : أرشدوني إلى المكان الذي استقلوا بخلقه من الأرض ، أي : أي شيء خلقوا فيها إن كانوا آلهة ﴿ **أم لهم شِرْك في السمٰوات** ﴾ أي : أم شاركوا في خلق السمٰوات فصار لهم شركة مع الله في الألوهية حتى عبدتموهم ؟؟ فإذا لم يكن هذا ولا هذا فكيف تعبدون معه غيره وتشركون به ؟ . من أرشدكم إلى هذا ومن دعاكم إليه ؟ أهو أمركم به ؟ أم هو شيء اقترحتموه من عند أنفسكم ، ومن ثم قال ﴿ **ائتوني بكتاب من قبل هذا** ﴾ أي : من قبل هذا القرآن أنزله الله يشهد بصحة ما أنتم عليه من عبادة غير الله﴿ **أو أثارة من علم** ﴾ أي : أو أدنى شيء

من علم أياً كان نوعه يشهد على أن هناك خالقاً مع الله . حتي يصح أن يعبد معه ، هاتوا دليلاً بيناً على هذا المسلك الذي سلكتموه من عقل أو نقل أو تجريب ﴿ **إن كنتم صادقين** ﴾ في دعواكم أن مع الله إلهاً آخر يُعْبَد قال ابن كثير : أي لا دليل لكم – لا نقلياً ولا عقلياً – على ذلك .

كلمة في السياق :

لم يذكر الله عز وجل في مقدمة السورة موضوع العبادة بل قال ﴿ **والذين كفروا عمّا أُنذروا معرضون** ﴾ بينما جاء النقاش هنا منصبّاً علىٰ عبادة غير الله ، مما يدل على أن علة الكفر عبادة غير الله ، وقد بين الله عز وجل في معرض نقض هذه العبادة أن العبادة لا تنبغي إلا للخالق ، وليس هناك من دليل علمي أو نقلي يثبت أن مع الله خالقاً ، بل الدليل العلمي والنقلي على أن الله وحده هو الخالق ، ومن ثم فإنه وحده يستحق العبادة ، فليعبده الإنسان . وإذا تذكرنا أن محور السورة يبدأ بقوله تعالي فى سورة البقرة ﴿ **يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون * الذي جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناءً وأنزل من السماء ماءً** ﴾ إذا تذكرنا هذا عرفنا أن السورة بدأت تناقش من لا يعبد الله ، وتقيم الحجة عليه ، وقد رأينا كيف أن الحجة كانت قاطعة ومعجزة ، ففي عصرنا ندرك أبعاد قوله تعالي ﴿ **أو أثارة من علم** ﴾ ففي ذلك تحدٍ كامل لكل كافر أن يستطيع أن يأتي بأدني دليل علمي على أن غير الله قد خلق ، فإذا كانت الكتب السماوية والعلم يشهدان أن الله هو الخالق ، وأنه يجب أن يُعبد وحده فكيف يفر الفارون من عبادته ، وههنا نحب أن نسجّل فكرة ، وهي أن الملحدين يدَّعون أنهم علميون وعقليون ، وكذبوا ؛ فالإلحاد شرك من نوع جديد . فبدلاً من أن يكون المشرك الوثني يعبد جزءاً من الكون ، فإن الملحدين خلعوا على مجموع الكون صفات الألوهية ، من خلق ورزق وحكمة ، وبدلاً من أن يعبدوا أجزاء في الكون ــ كما فعل الوثني ــ عبدوا شهواتهم ونزواتهم وأهواءهم وآراءهم الفاسدة ، ولنعد إلى التفسير :

فبعد أن أقام الله عز وجل الحجة على المشركين بهذا الشكل القاطع المعجز الذي رأيناه يبيّن في الآيتين التاليتين أنه لا أضل من هؤلاء :

﴿ **ومن أضل ممن يدعو** ﴾ أي : يعبده ﴿ **من دون الله** ﴾ من الأصنام والأنداد والشركاء ﴿ **من لا يستجيب له** ﴾ إن دعاه ﴿ **إلى يوم القيامة وهم** ﴾ مع عدم استجابتهم

﴿ **عن دعائهم** ﴾ أي: عبادتهم ﴿ **غافلون** ﴾ أي: لاأضل ممن يدعو من دون الله شركاء ، ويطلب منها مالا تستطيعه إلى يوم القيامة ، وهي غافلة عما يقول ، لا تسمع ولاتبصر ولاتبطش ، لأنها جماد حجارة صم ﴿ **وإذا حُشِر الناس** ﴾ يوم القيامة ﴿ **كانوا لهم أعداءً** ﴾ أي: كانت هذه الأصنام لعبدتها عدوة ﴿ **وكانوا** ﴾ أي: الأصنام ﴿ **بعبادتهم** ﴾ أي : بعبادة شركائهم ﴿ **كافرين** ﴾ أي : يقولون مادعوناهم إلى عبادتنا فسيخذلونهم أحوج مايكونون إليهم . قال النسفي : ومعنى الاستفهام في (من أضل) إنكار أن يكون في الضّلال كلهم أبلغ ضلالاً من عبدة الأوثان ، حيث يتركون دعاء السميع المجيب ، القادر على كل شيء ، ويدعون من دونه جماداً لا يستجيب لهم ، ولا قدرة له على استجابة أحد منهم ، مادامت الدنيا ، وإلى أن تقوم القيامة ، وإذا قامت القيامة وحشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا عليهم ضداً ، فليسوا في الدارين إلا على نكد ومضرة لاتتولاهم في الدنيا بالاستجابة ، وفي الآخرة تعاديهم وتجحد عبادتهم ، ولما أسند إليهم ما يسند إلى أولي العلم من الاستجابة والغفلة قيل (من) و (هم) ووصفهم بترك الاستجابة والغفلة فذلك على طريقة التهكم بها وبعبدتها ، ونحوه قوله تعالى ﴿ **إن تدعوهم لايسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم** ﴾ (فاطر: ١٤) .

قال صاحب الظلال :

(وإذا كان القرآن يندد بضلال من يدعون من دون الله آلهة لا يستجيبون لهم إلى يوم القيامة ، وكان هذا يعني المعبودات التاريخية التي عرفتها الجماعات البشرية عند نزول هذا القرآن ، فإن النص أوسع مدلولاً وأطول أمداً من ذلك الواقع التاريخي . فمن أضل ممن يدعو من دون الله أحداً في أي زمان وفي أي مكان ؟ وكل أحد ــ كائناً من كان ــ لايستجيب بشيء لمن يدعوه ، ولايملك أن يستجيب . وليس هناك إلا الله فعّال لما يريد .. إن الشرك ليس مقصوراً على صوره الساذجة التي عرفها المشركون القدامى . فكم من مشركين يشركون مع الله ذوي سلطان ، أو ذوي جاه أو ذوي مال ؛ ويرجون فيهم ، ويتوجهون إليهم بالدعاء . وكلهم أعجز من أن يستجيبوا لدعاتهم استجابة حقيقية . وكلهم لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً . ودعاؤهم شرك . والرجاء فيهم شرك . والخوف منهم شرك . ولكنه شرك خفي يزاوله الكثيرون وهم لا يشعرون .)

كلمة في السياق :

رأينا في مقدمة السورة قوله تعالى ﴿ **والذين كفروا عما أنذروا معرضون** ﴾ ثم جاء مباشرة بعد ذلك قوله تعالى : ﴿ **قل أرأيتم ما تدعون من دون الله** . ﴾ مما يشير إلى أن علة كفر هؤلاء هو الشرك ، وصلة ذلك في أوائل محور السورة واضحة ﴿ **فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون** ﴾ . وبعد أن فنّد الله عز وجل ما هم عليه ، وبيّن فظاعته ، تأتي الآن آيات تعرض موقفهم من الإنذار ، أي من الكتاب الذي أنذروا به ، وتردّ على هذا الموقف . والسؤال الآن : ماصلة ذلك بمحور السورة ؟ .

والجواب : إنه بعد الأمر بالعبادة ، والنهي عن الشرك في محور السورة ، جاء قوله تعالى : ﴿ **وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين** ﴾ وههنا يذكر الله عز وجل موقفهم من الكتاب ويقيم الحجة عليهم فيه .

....

﴿ **وإذا تتلى عليهم آياتنا بيّنات** ﴾ أي : واضحات مبيّنات قال ابن كثير : أي : تتلىٰ عليهم حال بيانها ووضوحها وجلائها ﴿ **قال الذين كفروا** ﴾ كبراً وعناداً ﴿ **للحق لما جاءهم** ﴾ أي للقرآن حين جاءهم . قال النسفي : بادهوه الجحود ساعة أتاهم ، وأول ما سمعوه ، من غير إجالة فكر ولا إعادة نظر ﴿ **هذا سحر مبين** ﴾ أي ظاهر أمره في البطلان لا شبهة فيه ﴿ **أم يقولون افتراه** ﴾ أي : بل يقولون إن محمداً ﷺ اختلقه وأضافه إلى الله كذباً ، والضمير للحق ، والمراد به الآيات أي : القرآن ، وصفوه بالسحر ، ثم وصفوه بأنه مكذوب على الله اختلقه محمد ﷺ من عند نفسه ، والصيغة تفيد أنهم استقروا على الرأي الأخير ، وأيّاً ما كان فإن مرجع الوصف الأول إلى الثاني ، ومن ثمّ ينصبّ الجواب غليه ، وإذا كانت هذه القضية هي الأصل الذي يرتكز عليه كل كفر ، فقد جاء الجواب عليها مفصلاً ، فأمر الله رسوله ﷺ أن يقول ثلاثة أقوال في الردّ عليها ، ومن ثم تتكرر كلمة (قل) ثلاث مرات في معرض الجواب :

الجواب الأول :

﴿ **قل إن افتريته فلا تملكون لي من الله شيئاً** ﴾ قال ابن كثير : أي لو كذبت عليه

وزعمت أنه أرسلني وليس كذلك ، لعاقبني أشد العقوبة ، ولم يقدر أحد من أهل الأرض ـــ لا أنتم ولا غيركم ـــ أن يجيرني منه . فكيف أفتريه وأتعرض لعقابه وأنا أعلم ذلك . ﴿ **هو أعلم بما تفيضون فيه** ﴾ أي : بما تسهبون فيه من القدح في وحي الله ، والطعن في آياته ، وتسميته سحراً تارة ، وفرية تارة أخرى ﴿ **كفى به شهيداً بيني وبينكم** ﴾ أي : يشهد لي بالصدق والبلاغ ، ويشهد عليكم بالجحود والإنكار . قال النسفي : ومعنى ذكر العلم والشهادة وعيد بجزاء إفاضتهم . وقال ابن كثير : هذا تهديد لهم ووعيد أكيد وترهيب شديد . أقول : أمره بأن يرد عليهم بأن الله عز وجل يغار أن يفترىٰ عليه ، ويعاقب على ذلك ، كما يغار أن يكذّب وحيه ورسوله ، ومن ثم ففعلُ الله عز وجل بالفريقين يدل على من هو صاحب الحق . وقد حكم الله لرسوله ﷺ فنصره وأيّده ، ونشر دينه ، وتوفاه وهو على أكمل حال ، وفي ذلك دليل صدقه في رسالته ، إذ لو ادعى الرسالة عن الله كذباً لغضب الله وعاقبه في الدنيا . ولا يقولن قائل : إن كثيرين تنتشر دعواتهم وهم غير مستقيمين ، فالكلام عمن يدّعي أنّه رسول الله ، فإن مثل هذا إن كان كاذباً يعاقبه الله في الدنيا . ثم ختم الله الآية بقوله : ﴿ **وهو الغفور الرحيم** ﴾ أي : هو على مغفرته ورحمته يعاقب من كذب عليه . وفي ختم الآية بذلك دعوة لهم إلى التوبة والإنابة ، وترغيب لهم بذلك . قال ابن كثير : أي ومع هذا كله إن رجعتم وتبتم تاب الله عليكم ، وعفا عنكم ، وغفر ورحم . هذا هو الجواب الأول على اتهام رسول الله ﷺ بأنه افترى القرآن على الله من عند نفسه . فلنر الجواب الثاني .

الجواب الثاني :

﴿ **قل ما كنت بدعاً من الرسل** ﴾ أي : ما كنت بديعاً من الرسل . قال النسفي : (والمعني لست بأول رسول فتنكروا نبوتي) وقال ابن كثير : أي لست بأول رسول طرق العالم ، بل قد جاءت الرسل من قبلي ، فما أنا بالأمر الذي لانظير له حتى تستنكروني ، وتستبعدون بعثتي إليكم ، فإنه قد أرسل الله جل وعلا قبلي جميع الأنبياء إلى الأمم .) فإذا كان هذا هو الشأن ، وكانت تظهر معي علامات النبوة وخصائصها فعلام تستنكرون الوحي الذي أنزله علي وأنا لا أدعي إلا العبودية له سبحانه ، ولا أدعي مقاماً فوق مقام البشر . ومن ثم أتّم الله الحجة ، آمراً رسوله ﷺ أن يقول ﴿ **وما أدري ما يفعل بي ولا بكم** ﴾ أي : وما أعلم ما يفعل الله بي وبكم فيما يستقبل من الزمان ، أي في الدنيا قال ابن كثير : (قال الحسن البصري : أما في الآخرة فمعاذ الله ،

أي ألا يعلم رسول الله ﷺ ما الله فاعل به . وقد علم أنه في الجنة ، ولكن قال لا أدري ما يفعل بي ولا بكم في الدنيا . أخرج كما أخرجت الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من قبلي ؟ أم أقتل كما قتلت الأنبياء من قبلي ؟ ولا أدري أيخسف بكم أو ترمون بالحجارة ؟ وهذا القول هو الذي عول عليه ابن جرير ، وأنه لا يجوز غيره ، ولا شك أن هذا هو اللائق به ﷺ فإنه بالنسبة إلى الآخرة جازم أنه يصير إلى الجنة هو ومن اتبعه ، وأما في الدنيا فلم يدر ما كان يؤول إليه أمره وأمر مشركي قريش إلى ماذا ؟ أيؤمنون أم يكفرون فيعذبون فيستأصلون بكفرهم) .

﴿ **إن أتبع إلا ما يوحي إلى** ﴾ أي : إنما أتّبع ما ينزله الله عليّ من الوحي ، فما أنا إلا عبد الله ، منفذ لأمره ، وذلك دليل على أنني صادق في دعوى الرسالة على الله ، ومن ثمّ فأنا أكثركم التزاماً بما أدعو إليه ﴿ **وما أنا إلا نذير مبين** ﴾ أي : مبين النذارة ، أمري ظاهر لكل ذي لب وعقل . أقام الله عليهم الحجة بأن رسوله صادق في هذه الآية بظهور خصائص الرسالة عليه ، ومن جملة ذلك التواضع والالتزام الكامل بما يدعو إليه ، والنذارة في أمر الآخرة .

والآن يأتي الجواب الثالث على زعمهم أن محمداً ﷺ افترى هذا القرآن .

الجواب الثالث :

﴿ **قل أرأيتم إن كان** ﴾ هذا القرآن ﴿ **من عند الله وكفرتم به** ﴾ قال ابن كثير : أي ما ظنكم أن الله صانع بكم إن كان هذا الكتاب الذي جئتكم به قد أنزله عليّ لأبلغكموه وقد كفرتم به وكذبتموه . ﴿ **وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله** ﴾ قال النسفي : أي مثله في المعنى ، وهو ما في التوراة من المعاني المطابقة لمعاني القرآن ، من التوحيد والوعد والوعيد وغير ذلك . ﴿ **فآمن** ﴾ قال ابن كثير : أي هذا الذي شهد بصدقه من بني إسرائيل لمعرفته بحقيّته ﴿ **واستكبرتم** ﴾ أنتم عن اتباعه . قال ابن كثير : (وهذا الشاهد اسم جنس يعمّ عبد الله بن سلام رضي الله عنه وغيره . فإن هذه الآية مكية .) وسنرى في الفوائد تحقيق ذلك ، ثم ختم الله الآية بقوله ﴿ **إن الله لا يهدي القوم الظالمين** ﴾ دلّت هذه الجملة على جواب الشرط (إن) والتقدير إن كان القرآن من عند الله ، وكفرتم به ، ألستم ظالمين ، وإذا كنتم ظالمين فإن الله عز وجل لا يهديكم لقيام الحجة عليكم ، واستكباركم عن الخضوع لها ، فأصبح معنى الآية كما قال النسفي : (والمعنى .. قل أخبروني إن اجتمع كون القرآن من عند الله مع كفركم به ، واجتمع

شهادة أعلم بني إسرائيل على نزول مثله فآمن به ، مع استكباركم عنه ، وعن الإيمان به ألستم أضل الناس وأظلمهم؟!) .

أقول : دلّل هذا الجواب على أن القرآن ليس مفترى ؛ بمطابقة معانيه لمعاني الكتب المنزلة من قبل ، يشهد على ذلك علماء بني إسرائيل المنصفون ، ولكن هذه الحجة جاءت في سياقٍ وَعْظي آمرٍ ناهٍ ، فاجتمع في الآية الأخيرة الحجّة والأمر والنّهي والإنكار والتبيان والوعظ بآن واحد ، لأنها مع كونها حجة جديدة ورداً جديداً ، فهي خاتمة للآيات التي ردت على اتهام رسول الله ﷺ بافترائه هذا القرآن .

كلمة في السياق :

بعد أن أقام الله عز وجل الحجة على الكافرين في أن هذا القرآن من عنده ، يعرض لنا موقفاً آخر من مواقفهم تجاه القرآن ، وهو موقف غاية في الكبر ، إذ يستدلون على أن هذا القرآن ليس فيه خير بسبق المستضعفين إليه ، وإيمانهم به ، ثم يستدرجهم الكبر إلى اتهام جديد لهذا القرآن . ومن خلال هذا العرض نرى كيف أن السورة تلاحق كل مايصرف عن العبادة لله التي توصّل إلى الاهتداء بكتاب الله ، فلنر شبهة الكافرين الجديدة :

﴿ **وقال الذين كفروا للذين آمنوا** ﴾ أي: عن الذين آمنوا فاللام هنا بمعنى عن ﴿ **لو كان** ﴾ أي: القرآن ﴿ **خيراً ما سبقونا إليه** ﴾ أي: ما سبقنا هؤلاء المستضعفون إليه . قال ابن كثير : يعنون بلالاً وعماراً وصهيباً وخباباً . رضي الله عنهم ، وأشباههم وأضرابهم من المستضعفين والعبيد والإماء ، وما ذاك إلا لأنهم يعتقدون أن لهم عند الله وجاهة ، وله بهم عناية ، وقد غلطوا في ذلك غلطاً فاحشاً ، وأخطأوا خطأً بيّناً ، كما قال تبارك وتعالى ﴿ **وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء مَنَّ الله عليهم من بيننا** ﴾ (الأنعام: ٥٣) أي: يتعجبون كيف اهتدى هؤلاء دوننا ، ولهذا قالوا ﴿ **لو كان خيراً ما سبقونا إليه** ﴾ وأمّا أهل السنّة والجماعة فيقولون في كل فعل وقول لم يثبت عن الصحابة رضي الله عنهم : (هو بدعة لأنه لو كان خيراً لسبقونا إليه ، لأنهم لم يتركوا خصلة من خصال الخير إلا وقد بادروا إليها) ثم قال تعالى عن هؤلاء المستكبرين ﴿ **وإذ لم يهتدوا به** ﴾ أي : بالقرآن ﴿ **فسيقولون هذا إفك قديم** ﴾ أي كذب متقادم أي كذب قديم ، أي مأثور عن الناس الأقدمين . فاجتمع لهم بذلك انتقاص القرآن وأهله ،

وهذا دأب رافضي هدى الله في كل زمان ومكان ، أنهم ينتقصون أهل الإيمان ، وينتقصون مضمون القرآن . مرضاً في العقل ، وعمى في القلب .

قال صاحب الظلال : (ولقد سارع إلى الإسلام وسبق إليه نفر من الفقراء والموالي في أول الأمر . فكان هذا مغمزاً في نظر الكبراء المستكبرين . وراحوا يقولون : لو كان هذا الدين خيراً ما كان هؤلاء أعرف منا به ، ولا أسبق منا إليه . فنحن في مكانتنا وسعة إدراكنا وحسن تقديرنا ، أعرف بالخير من هؤلاء .

والأمر ليس كذلك . فما كان يمنعهم عنه أنهم يشكون فيه أو يجهلون الحق الذي يقوم عليه . والخير الذي يحتويه . إنما كان هو الكبر عن الإذعان لمحمد ﷺ - كما كانوا يقولون - وفقدان المراكز الاجتماعية ، والمنافع الاقتصادية ، كما كان هو الاعتزاز الأجوف بالآباء والأجداد ، وما كان عليه الآباء والأجداد . فأما الذين سارعوا إلى الإسلام وسبقوا إليه فلم تكن في نفوسهم تلك الحواجز التي منعت الكبراء والأشراف .

إنه الهوى يتعاظم أهل الكبر أن يذعنوا للحق ، وأن يستمعوا لصوت الفطرة ، وأن يسلموا بالحجة . وهو الذي يملي عليهم العناد والإعراض ، واختلاق المعاذير ، والادعاء بالباطل على الحق وأهله . فهم لا يسلمون أبداً أنهم مخطئون ؛ وهم يجعلون من ذواتهم محوراً للحياة كلها يدورون حوله ويريدون أن يديروا حوله الحياة : ﴿ **إذ لم يهتدوا به فسيقولون : هذا إفك قديم .** ﴾

وقد ردّ الله عز وجل عليهم مبيناً أن الكتاب القديم الذي أنزله - وهو التوراة - لم يكن كذباً ، بل هو إمام ورحمة وهذا القرآن مصدق له ، ومن ثم فهو إمام ورحمة ، وبشير ونذير ، وليس كما زعموه ، والملاحظ أنهم ههنا لم يوجهوا تهمة الكذب إلى رسول الله ﷺ بل وجهوا الاتهام لمضمون القرآن ، فانصب الرّد على ذلك ، قال تعالى : ﴿ **ومن قبله كتاب موسى** ﴾ أي : التوراة ﴿ **إماماً ورحمة** ﴾ أي : قدوة يؤتم به في دين الله وشرائعه ، كما يؤتم بالإمام ، ورحمة لمن آمن به وعمل بما فيه ﴿ **وهذا** ﴾ أي : والقرآن ﴿ **كتاب مصدّق** ﴾ أي : لما بين يديه من الكتب ﴿ **لساناً عربياً** ﴾ أي : باللسان العربي ، وأما مضمونه فموجود في الكتب السابقة . قال ابن كثير : (أي : فصيحاً بيّناً واضحاً) ﴿ **لينذر الذين ظلموا** ﴾ أي : لينذر هذا القرآن العربي الكافرين ﴿ **وبشرى للمحسنين** ﴾ أي : وليبشر المؤمنين المطيعين . فكتاب اجتمع له التصديق للكتب السابقة ، والإعجاز والتبشير والإنذار ، ليس من الإفك القديم ، بل من الحق

القديم ، لأن الكتاب الذي يصدقه مَنْ قبله حق ، بدليل ما فيه من الهدى والرحمة .

كلمة في السياق :

بعد آية ﴿ **وإن كنتم في ريب مما نزّلنا على عبدنا** . ﴾ من المحور ، يأتي قوله تعالى ﴿ **فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين * وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات** . ﴾ وها هي ذي الآية التي مرّت معنا من سورة الأحقاف تقول : ﴿ **لينذر الذين ظلموا وبشرى للمحسنين** ﴾ وها هي ذي الآية اللاحقة تذكر الذين يستحقون البشارة من هم ؟ وماذا أعدّ لهم ؟ .

....

﴿ **إن الذين قالوا ربنا الله** ﴾ فاعترفوا لله بالربوبية ، وعلى أنفسهم بالعبودية ﴿ **ثم استقاموا** ﴾ على أمره وشريعته ﴿ **فلا خوف عليهم** ﴾ أي : فيما يستقبلونه أو في القيامة ﴿ **ولا هم يحزنون** ﴾ على ما خلّفوا أو عند الموت . ﴿ **أولئك أصحاب الجنة خالدين فيها جزاءً بما كانوا يعملون** ﴾ دلّ ذلك على أن أعمالهم التي وفقهم الله إليها هي سبب لنيل الرحمة لهم وسبوغها عليهم .

قال صاحب الظلال عند قوله تعالى : ﴿ **إن الذين قالوا ربنا الله ثمّ استقاموا** ﴾ :

وقوله :﴿ **ربنا الله** ﴾ . إنما هي منهج كامل للحياة ، يشمل كل نشاط فيها وكل اتجاه ، وكل حركة وكل خالجة ؛ ويقيم ميزاناً للتفكير والشعور ، وللناس والأشياء ، وللأعمال والأحداث ، وللروابط والوشائج في كل هذا الوجود .

﴿ **ربنا الله** ﴾ فله العبادة ، وإليه الاتجاه . ومنه الخشية وعليه الاعتماد .
﴿ **ربنا الله** ﴾ فلا حساب لأحد ولا لشيء سواه ، ولا خوف ولا تطلّع لمن عداه .
﴿ **ربنا الله** ﴾ فكل نشاط وكل تفكير وكل تقدير متجه إليه ، منظور فيه إلى رضاه.
﴿ **ربنا الله** ﴾ فلا احتكام إلا إليه ، ولا سلطان إلا لشريعته ، ولا اهتداء إلا بهداه .
﴿ **ربنا الله** ﴾ فكل من في الوجود وكل ما في الوجود مرتبط بنا ونحن نلتقي به في صلتنا بالله .

﴿ **ربنا الله** ﴾ منهج كامل على هذا النحو . لا كلمة تلفظها الشفاة ، ولا عقيدة سلبية بعيدة عن واقعيات الحياة .

﴿ **ثم استقاموا** ﴾ . وهذه أخرى . فالاستقامة والاطراد والثبات على هذا المنهج درجة بعد اتخاذ المنهج . استقامة النفس وطمأنينة القلب . استقامة المشاعر والخوالج ، فلا تتأرجح ولا تضطرب ولا تشك ولا ترتاب بفعل الجواذب والدوافع والمؤثرات . وهي عنيفة ومتنوعة وكثيرة . واستقامة العمل والسلوك على المنهج المختار . وفي الطريق مزالق وأشواك ومعوقات ، وفيه هواتف بالانحراف من هنا ومن هناك :

﴿ **ربنا الله** ﴾ . منهج .. والاستقامة عليه درجة بعد معرفته واختياره . والذين يقسم الله لهم المعرفة والاستقامة هم الصفوة المختارة . وهؤلاء ﴿ **فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون** ﴾ . وفيم الخوف وفيم الحزن . والمنهج واصل . والاستقامة عليه ضمان الوصول ؟) .

....

كلمة في السياق :

مر معنا أن من مواصفات القرآن ﴿ **لينذر الذين ظلموا وبشرى للمحسنين** ﴾ وقد جاء بعد هذه الآية آيتان . تبشران المؤمنين المستقيمين على أمر الله ، فكأنهما يعطياننا نموذجاً على ما في هذا القرآن من تبشير ، ودلتانا في الوقت نفسه على أن أصل الإحسان هو الاعتراف لله بالربوبية ، والاستقامة على أمره ، فخدمتا في تبيان الإحسان ، والآن تأتي آيتان هما نموذج على تبشير هذا القرآن لأهل الإحسان ، وفيهما نموذج على أنواع من الإحسان يأمر الله بها ، ويدعو إليها ، وبذلك تستكمل ذكر السورة أمهات مسائل العبادة لله ، التي توصّل إلى التقوى ، من اعتراف لله بالربوبية ، واستقامة على أمره ، وإحسان إلى الوالدين ، ودعاء لله عز وجل ، وإعلان الإسلام ، وغير ذلك من المعاني ، ثم تأتي آيات هي نموذج على الإنذار ، وعرض لمظاهر من الظلم الكافر وأسبابه . فالسورة كما تربي على العبادة والتقوى ، تطهّر من العصيان والفسوق ، وتعمّق خلال ذلك موضوع الإيمان بالقرآن ؛ لأنه الأساس .

﴿ **ووصينا الإنسان بوالديه إحساناً** ﴾ أي : ووصيناه أن يحسن لوالديه إحساناً .

قال ابن كثير : أي أمرناه بالإحسان إليهما والحنو عليهما ﴿ **حملته أمهُ كُرْهاً** ﴾ أي قاست بسببه في حال حمله مشقة وتعباً ، من وحم وغثيان وثقل وكرب ، إلى غير ذلك مما تنال الحوامل من التعب والمشقة ﴿ **ووضعته كُرْهاً** ﴾ أي : بمشقة أيضاً من الطلق وشدته ﴿ **وحمله وفِصَاله** ﴾ أي فطامه عن الرضاع ﴿ **ثلاثون شهراً** ﴾ وفي الآية معان فقهية سنراها في الفوائد ﴿ **حتى إذا بلغ أشده** ﴾ بأن اكتهل واستوفى السنّ التي تستحكم فيها قوته وعقله . قال النسفي : ذلك إذا أناف على الثلاثين وناطح الأربعين ، وعن قتادة ثلاث وثلاثون سنة ، ووجهه أن يكون ذلك أول الأشد وغايته الأربعون .

وقال ابن كثير : أي : قوي وشب وارتجل ﴿ **وبلغ أربعين سنة** ﴾ أي : تناهى عقله وكمل فهمه وحلمه ﴿ **قال رب أوزعني** ﴾ أي : ألهمني ﴿ **أن أشكر نعمتك التي أنعَمت عليَّ وعلى والديّ** ﴾ قال النسفي : المراد به نعمة التوحيد والإسلام ، وجمع بين شكري النعمة عليه وعلى والديه ؛ لأن النعمة عليهما نعمة عليه ﴿ **وأن أعمل صالحاً ترضاه** ﴾ أي : في المستقبل ﴿ **وأصلح لي في ذريتي** ﴾ أي : اجعل ذريتي موضعاً للصلاح ، ومظنة له ، وذريته : نسله وعقبه ﴿ **إني تبت إليك** ﴾ من كل ذنب ﴿ **وإني من المسلمين** ﴾ أي : المستسلمين المنقادين لأمرك . قال ابن كثير : وهذا فيه إرشاد لمن بلغ الأربعين أن يجدّد التوبة والإنابة إلى الله عز وجل ، ويعزم عليها ﴿ **أولئك الذين نتقبّل عنهم أحسن ما عملوا ونتجاوز عن سيئاتهم** ﴾ قال ابن كثير : أي المتصفون بما ذكرنا ، التائبون إلى الله ، المنيبون إليه ، المستدركون ما فات بالتوبة والاستغفار ، هم الذين نتقبّل عنهم أحسن ما عملوا ونتجاوز عن سيئاتهم ، فنغفر لهم الكثير من الزلل ، ونتقبلّ منهم اليسير من العمل ﴿ **في أصحاب الجنة** ﴾ وقال ابن كثير : أي هم في جملة أصحاب الجنة ، وهذا حكمهم عند الله ، كما وعد الله عز وجل من تاب إليه وأناب ، ولهذا قال تعالى ﴿ **وعد الصدق الذي كانوا يُوعَدون** ﴾ في الدنيا بالكتب ، وعلى لسان الرسل عليهم الصلاة والسلام . ثم لما ذكر الله تعالى حال الدّاعين للوالدين ، البارّين بهما ، أي المحسنين بأنواع الإحسان ، وما لهم عند الله من الفوز والنجاة ، عطف بحال الأشقياء الظالمين ، العاقين للوالدين فقال : ﴿ **والذي قال لوالديه أفٍ لكما** ﴾ التأفيف : صوت إذا صوّت به الإنسان عُلم أنّه منضجر ، ومعنى قول الفاجر الكافر : هذا التأفيف لكما خاصّة ، ولأجلكما دون غيركما ، فالفاجر أجرأ على والديه من كل الخلق ، وهو أقسى عليهما من دون الخلق ﴿ **أتعدانني أن أُخرج** ﴾ أي : أُبعث من الأرض ﴿ **وقد خلت القرون** ﴾ أي : مضت القرون ﴿ **من قبلي** ﴾ ولم يبعث منهم

أحد ﴿ **وهما يستغيثان الله** ﴾ أي: يقولان : الغياث بالله منك ومن قولك ، ويقولان له : ﴿ **ويلك آمِنْ** ﴾ بالله وبالبعث وهو دعاء عليه في الظاهر ، والمراد به الحث والتحريض على الإيمان ﴿ **إنّ وعد الله** ﴾ بالبعث ﴿ **حق** ﴾ أي: صدق ﴿ **فيقول** ﴾ لهما ﴿ **ما هذا** ﴾ القول ﴿ **إلا أساطير الأولين** ﴾ أي: إلا خرافاتهم وأباطيلهم . وقد كثر هذا النوع من الناس في عصرنا كثرة كبيرة ، وقال تعالى منذراً ومبيناً ﴿ **أولئك الذين حقّ عليهم القول** ﴾ أي : قول الله بملء جهنم من أمثالهم ﴿ **في أمم قد خلت من قبلهم** ﴾ أي: في جملة أمم قد مضت من قبلهم ﴿ **من الجن والإنس إنهم كانوا خاسرين** ﴾ قال ابن كثير : أي دخلوا في زمرة أشباههم وأضرابهم من الكافرين الخاسرين أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ﴿ **ولكلٍ درجات ممّا عملوا** ﴾ قال ابن كثير : أي: لكلٍ عذاب بحسب عمله ﴿ **وليوفيهم أعمالهم وهم لا يظلمون** ﴾ قال ابن كثير : أي: لا يظلمهم مثقال ذرة فما دونها ، وقد فهم النسفي أن الآية ترجع على كل من المؤمنين والكافرين ﴿ **ويوم يُعْرَض الذين كفروا على النار** ﴾ قال النسفي : عرضهم على النار تعذيبهم بها ﴿ **أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها** ﴾ أي: بالطيبات ، أي يقال لهم ذلك تقريعاً وتوبيخاً والمعنى : ما كتب لكم حظ من الطيبات إلا ما قد أصبتموه في دنياكم ، وقد ذهبتم به وأخذتموه فلم يبق لكم بعد استيفاء حظكم شيء منها ﴿ **فاليوم تجزون عذاب الهون** ﴾ أي: الهوان ، أي الذل ﴿ **بما كنتم تستكبرون** ﴾ أي: بسبب كبركم ﴿ **في الأرض بغير الحق وبما كنتم تفسقون** ﴾ أي: باستكباركم وفسقكم . قال ابن كثير : فجوزوا من جنس عملهم ، فكما متعوا أنفسهم واستكبروا عن اتّباع الحق ، وتعاطوا الفسق والمعاصي ، جازاهم الله تبارك وتعالى بعذاب الهون ، وهو الإهانة ، والخزي ، والآلام الموجعة ، والحسرات المتتابعة ، والمنازل في الدركات المفظعة ، أجارنا الله سبحانه وتعالى من ذلك كله وبهذا انتهى المقطع الأول .

كلمة في السياق :

١ - رأينا في الآيات الأخيرة نموذجين : نموذجاً للمحسنين الذين يستحقون البشرى ، ونموذجاً للظالمين الذين أنذرهم القرآن ، والكلام عن الإحسان فرع الكلام عن العبادة لله التي ذكرت في بداية محور السورة ؛ لأن رسول الله ﷺ فسّر الإحساس بقوله «أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك» وقد رأينا في الآيات أن الصفتين الجامعتين لأخلاق الكافرين هما : الاستكبار ، والفسوق . الاستكبار عن عبادة

الله ، والفسوق عن أمره ، فالسورة كما تعمّق معنى العبادة لله تحرر من الاستكبار عن هذه العبادة ، والفسوق عن أمر الله فلنتذكر مايلي :

كنا أسمينا المقطع الذي يأتي بعد مقدّمة سورة البقرة بمقطع الطريقين ، لأنه بيّن الطريق إلى التقوى ، وبيّن الطريق إلى الكفر والفسوق والنفاق :

إنه بعد آية ﴿ **وبشّر الذين آمنوا وعملوا الصالحات** ﴾ من المحور يأتي قوله تعالى : ﴿ **إن الله لايستحيي أن يضرب مثلاً ما بعوضة فما فوقها فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلاً يضل به كثيراً ويهدي به كثيراً وما يضل به إلا الفاسقين** ﴾ لاحظ استقرار الآية السادسة من المقطع على كلمة (الفاسقين) ولاحظ ختم المقطع الأول هنا بكلمة (تفسقون) ﴿ **فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تفسقون** ﴾ .

٢ – وإذا استكمل المقطع الأول الحجج ، وبشر وأنذر ، واستقر على موقف الكافرين من اليوم الآخر ، واستغراقهم في الدنيا وشهواتها ، وأنّ علة ذلك كله ، الكبر والفسوق ، فإن المقطع الثاني يأتي مذكّراً بقوم عاد ، ومنذراً أن يصيب الكافرين ما أصابهم ، كما يتحدّث عن إيمان نفر من الجن بمجرد سماعهم لهذا القرآن ، مما يشير إلى أن هؤلاء أولى بهم أن يؤمنوا ، ثم يقيم الحجة عليهم في موضوع اليوم الآخر ، وينذرهم النار ، ويختم المقطع بالأمر لرسول الله ﷺ أن يصبر ، وصلة ذلك في المحور ، وفي سياق السورة سنراه .

فوائد :

١ – بمناسبة قوله تعالى حكاية عن رسوله ﷺ : ﴿ **وما أدري ما يفعل بي ولا بكم** ﴾ قال ابن كثير : (فأما الحديث الذي رواه الإمام أحمد عن خارجة بن زيد بن ثابت عن أم العلاء وهي امرأة من نسائهم أخبرته – وكانت بايعت رسول الله ﷺ – قالت : طار لهم في السكنى حين اقترعت الأنصار على سكنى المهاجرين عثمان بن مظعون رضي الله عنه ، فاشتكى عثمان رضي الله عنه عندنا فمرضناه حتى إذا توفي أدرجناه في أثوابه ، فدخل علينا رسول الله ﷺ فقلت : رحمة الله عليك ـــ أبا السائب ـــ شهادتي عليك لقد أكرمك الله عز وجل . فقال رسول الله ﷺ : وما يدريك

أن الله تعالى أكرمه ؟ فقلت : بأبي أنت وأمي لاأدري ، فقال رسول الله ﷺ : « أما هو فقد جاءه اليقين من ربه وإني لأرجو له الخير ، والله ما أدري وأنا رسول الله ما يفعل بي » قالت : فقلت : والله لا أزكي أحداً بعده أبداً ، وأحزنني ذلك فنمت ، فرأيت لعثمان رضي الله عنه عيناً تجري فجئت إلى رسول الله ﷺ فأخبرته بذلك ، فقال رسول الله ﷺ : « ذاك عمله » فقد انفرد بإخراجه البخاري دون مسلم ، وفي لفظ له « ما أدري وأنا رسول الله ﷺ ما يفعل به » وهذا أشبه أن يكون هو المحفوظ بدليل قولها : فأحزنني ذلك ، وفي هذا وأمثاله دلالة على أنه لا يقطع لمعيَّن بالجنة إلا الذي نصّ الشارع على تعيينهم ، كالعشرة ، وابن سلام ، والعميصاء ، وبلال ، وسراقة ، وعبد الله بن عمرو ابن حرام ـــ والد جابر ـــ والقراء السبعين الذين قتلوا ببئر معونة ، وزيد بن حارثة ، وجعفر ، وابن رواحة ، وما أشبه هؤلاء رضي الله عنهم .) .

٢ ـــ بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله فآمن واستكبرتم** ﴾ قال ابن كثير : (وهذا الشاهد اسم جنس يعم عبد الله بن سلام رضي الله عنه وغيره ، فإن هذه الآية مكية نزلت قبل إسلام عبد الله بن سلام رضي الله عنه ، وهذه كقوله تبارك وتعالى : ﴿ **وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين** ﴾ (القصص : ٥٣) . وقال : ﴿ **إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجداً * ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولاً** ﴾ (الإسراء : ١٠٧ – ١٠٨) قال مسروق والشعبي : ليس بعبد الله بن سلام ؛ هذه الآية مكية ، وإسلام عبد الله بن سلام رضي الله عنه كان بالمدينة . رواه عنهما ابن جرير وابن أبي حاتم واختاره ابن جرير . وروى مالك عن عامر بن سعد عن أبيه قال : ما سمعت رسول الله ﷺ يقول لأحد يمشي على وجه الأرض إنه من أهل الجنة إلا لعبد الله بن سلام رضي الله عنه ، قال : وفيه نزلت ﴿ **وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله** ﴾ رواه البخاري ومسلم والنسائي) . وذهب كثيرون إلى هذا ، وعلى هذا الاتجاه فالآية مدنية .

٣ – بمناسبة قوله تعالى ﴿ **ووصينا الإنسان بوالديه إحساناً** ﴾ قال ابن كثير : (لما ذكر الله تعالى في الآية الأولى التوحيد له وإخلاص العبادة والاستقامة إليه عطف بالوصية بالوالدين كما هو مقرون في غير ما آية من القرآن ، كقوله عز وجل : ﴿ **وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً** ﴾ (الإسراء : ٢٣) وقال جل جلاله ﴿ **أن**

اشكر لي ولوالديك إلي المصير ﴾ (لقمان : ١٤) إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة . وقال عز وجل ههنا ﴿ **ووصينا الإنسان بوالديه إحساناً** ﴾ أمرناه بالإحسان إليهما ، والحنو عليهما ، وروى أبو داود الطيالسي عن سعد رضي الله عنه قال : قالت أم سعد لسعد : أليس قد أمر الله بطاعة الوالدين ؟ فلا آكل طعاماً ولا أشرب شراباً حتى تكفر بالله تعالى ، فامتنعت من الطعام والشراب حتى جعلوا يفتحون فاها بالعصا ونزلت هذه الآية ﴿ **ووصينا الإنسان والديه إحساناً** ﴾ ورواه مسلم وأهل السنن إلا ابن ماجه من حديث شعبة بإسناد نحوه وأطول منه) .

وقال صاحب الظلال عند قوله تعالى : ﴿ **ووصينا الإنسان بوالديه إحسانا** ﴾ .. (فهي وصية لجنس الإنسان كله ، قائمة على أساس إنسانيته ، بدون حاجة إلى أية صفة أخرى وراء كونه إنساناً . وهي وصية بالإحسان مطلقة من كل شرط ومن كل قيد ، فصفة الوالدية تقتضي هذا الإحسان بدون حاجة إلى أي صفة أخرى كذلك . وهي وصية صادرة من خالق الإنسان ، وربما كانت خاصة بهذا الجنس أيضا . فما يعرف في عالم الطير أو الحيوان أو الحشرات وما إليها أن صغارها مكلفة برعاية كبارها . والمشاهد الملحوظ هو فقط تكليف فطرة هذه الخلائق أن ترعى كبارها صغارها في بعض الأجناس . فهي وصية ربما كانت خاصة بجنس الإنسان . وتتكرر في القرآن الكريم وفي حديث الرسول - ﷺ - الوصية بالإحسان إلى الوالدين . ولا ترد وصية الوالدين بالأولاد إلا نادرة ، ولمناسبة حالات معينة . ذلك أن الفطرة وحدها تتكفل برعاية الوالدين للأولاد ، رعاية تلقائية مندفعة بذاتها لا تحتاج إلى مثير . وبالتضحية النبيلة الكاملة العجيبة التي كثيراً ما تصل إلى حد الموت - فضلاً على الألم - بدون تردد . ودون انتظار عوض ، ودون منّ ولا رغبة حتى في الشكران ! أما الجيل الناشىء فقلما يتلفت إلى الخلف .. قلما يتلفت إلى الجيل المضحي الواهب الفاني . لأنه بدوره مندفع إلى الأمام ، يطلب جيلاً ناشئاً منه يضحي له بدوره ويرعاه ! وهكذا تمضي الحياة ! .

والإسلام يجعل الأسرة هي اللبنة الأولى في بنائه ، والمحضن الذي تدرج فيه الفراخ الخضر وتكبر ؛ وتتلقى رصيدها من الحب والتعاون والتكافل والبناء . والطفل الذي يحرم من الأسرة ينشأ شاذاً غير طبيعي في كثير من جوانب حياته - مهما توافرت له وسائل الراحة والتربية فى غير محيط الأسرة - وأول ما يفقده في أي محضن آخر غير محضن الأسرة ، هو شعور الحب . فقد ثبت أن الطفل بفطرته يحب أن يستأثر وحده بأمه فترة العامين الأولين من حياته . ولا يطيق أن يشاركه فيها أحد . وفي المحاضن

الصناعية لا يمكن أن يتوفر هذا . إذ تقوم الحاضنة بحضانة عدة أطفال ، يتحاقدون فيما بينهم ، على الأم الصناعية المشتركة ، وتبذر في قلوبهم بذرة الحقد ولا تنمو بذرة الحب أبداً . كذلك يحتاج الطفل إلى سلطة واحدة ثابتة تشرف عليه فترة من حياته كي يتحقق له ثبات الشخصية . وهذا ما لا يتيسر إلا في محضن الأسرة الطبيعي . فأما في المحاضن الصناعية فلا تتوفر السلطة الشخصية الثابتة لتغير الحاضنات بالمناوبة على الأطفال . فتنشأ شخصياتهم مخلخلة ، ويحرمون ثبات الشخصية .. والتجارب في المحاضن تكشف في كل يوم عن حكمة أصيلة في جعل الأسرة هي اللبنة الأولى في بناء المجتمع السليم ، الذي يستهدف الإسلام إنشاءه على أساس الفطرة السليم .

ويصور القرآن هنا تلك التضحية النبيلة الكريمة الواهبة التي تتقدم بها الأمومة ، والتي لا يجزيها أبداً إحسان من الأولاد مهما أحسنوا القيام بوصية الله في الوالدين : ﴿ **حملته أمه كرهاً ، ووضعته كرهاً ، وحمله وفصاله ثلاثون شهراً** ﴾ .. وتركيب الألفاظ وجرسها يكاد يجسم العناء والجهد والضنى والكلال : ﴿ **حملته أمه كرهاً ووضعته كرهاً** ﴾ .. لكأنها آهة مجهد مكروب ينوء بعبء ويتنفس بجهد ، ويلهث بالأنفاس ! إنها صورة الحمل وبخاصة في أواخر أيامه ، وصورة الوضع وطلقه وآلامه ! ويتقدم علم الأجنة فإذا به يكشف لنا في عملية الحمل عن جسامة التضحية ونبلها في صورة حسية مؤثرة ..

إن البويضة بمجرد تلقيحها بالخلية المنوية تسعى للالتصاق بجدار الرحم . وهي مزودة بخاصية أكالة . تمزق جدار الرحم الذي تلتصق به وتأكله ؛ فيتوارد دم الأم إلى موضعها ، حيث تسبح هذه البويضة الملقحة دائماً في بركة من دم الأم الغني بكل ما في جسمها من خلاصات ؛ وتمتصه لتحيا به وتنمو . وهي دائمة الأكلان لجدار الرحم . دائمة الامتصاص لمادة الحياة . والأم المسكينة تأكل وتشرب وتهضم وتمتص ، لتصب هذا كله دماً نقياً غنياً لهذه البويضة الشرهة النهمة الأكول ! وفي فترة تكوين عظام الجنين يشتد امتصاصه للجير من دم الأم فتفتقر إلى الجير . ذلك أنها تعطي محلول عظامها في الدم ليقوم به هيكل هذا الصغير ! وهذا كله قليل من كثير ! ثم الوضع ، وهو عملية شاقة ، ممزقة ، ولكن آلامها الهائلة كلها لا تقف في وجه الفطرة ولا تنسي الأم حلاوة الثمرة . ثمرة التلبية للفطرة ، ومنح الحياة نبتة جديدة تعيش ، وتمتد .. بينما هي تذوي وتموت ! .

ثم الرضاع والرعاية . حيث تعطي الأم عصارة لحمها وعظمها في اللبن ، وعصارة قلبها وأعصابها في الرعاية . وهي مع هذا وذلك فرحة سعيدة رحيمة ودود . لا تمل أبدا ولا تكره تعب هذا الوليد . وأكبر ما تتطلع إليه من جزاء أن تراه يسلم وينمو . فهذا هو جزاؤها الحبيب الوحيد ! فأنى يبلغ الإنسان في جزاء هذه التضحية ، مهما يفعل وهو لا يفعل إلا القليل الزهيد ؟ وصدق رسول الله - ﷺ - وقد جاءه رجل كان في الطواف حاملاً أمه يطوف بها ، فسأله - ﷺ - : هل أديتُ حقها ؟ فأجابه : « لا ، ولا بزفرة واحدة » . رواه أبو بكر البزار بإسناده) .

٤ - بمناسبة قوله تعالى ﴿ **وحمله وفصاله ثلاثون شهراً** ﴾ قال ابن كثير : وقد استدل علي رضي الله عنه بهذه الآية مع التي في لقمان ﴿ **وفصاله في عامين** ﴾ (الآية : ١٤) وقوله تبارك وتعالى ﴿ **والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة** ﴾ (البقرة : ٢٣٣) على أن أقل مدة الحمل ستة أشهر ، وهو استنباط قوي صحيح ، ووافقه عليه عثمان وجماعة من الصحابة رضي الله عنهم ، قال محمد بن إسحاق بن يسار عن يزيد بن عبد الله ابن قسيط عن معمر بن عبد الله الجهني قال : تزوج رجل منا امرأة من جهينة فولدت له لتمام ستة أشهر ، فانطلق زوجها إلى عثمان رضي الله عنه فذكر ذلك له ، فبعث إليها ، فلما قامت لتلبس ثيابها بكت أختها فقالت وما يبكيك ؟ فوالله ما التبس بي أحد من خلق الله تعالى غيره قط فيقضي الله سبحانه وتعالى فيّ ما شاء ، فلما أتى بها عثمان رضي الله عنه أمر برجمها فبلغ ذلك علياً رضي الله عنه فأتاه فقال له : ما تصنع ؟ قال : ولدت تماماً لستة أشهر ، وهل يكون ذلك ؟ فقال له علي رضي الله عنه : أما تقرأ القرآن ؟ قال : بلى . قال : أما سمعت الله عز وجل يقول ﴿ **وحمله وفصاله ثلاثون شهراً** ﴾ وقال ﴿ **حولين كاملين** ﴾ فلم نجده بقي إلا ستة أشهر قال : فقال عثمان رضي الله عنه : والله ما فطنت بهذا ، عليّ بالمرأة فوجدوها قد فرغ منها قال : فقال معمر : فوالله ما الغراب بالغراب ، ولا البيضة بالبيضة ، بأشبه منه بأبيه ، فلما رآه أبوه قال : ابني والله لا أشك فيه ، قال : وابتلاه الله تعالى بهذه القرحة بوجهه الآكلة مازالت تأكله حتى مات رواه ابن أبي حاتم وقد أوردناه من وجه آخر عند قوله عز وجل ﴿ **فأنا أول العابدين** ﴾ (الزخرف : ٨١) . وروى ابن أبي حاتم عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : إذا وضعت المرأة لتسعة أشهر كفاه من الرضاع أحد وعشرون شهراً ، وإذا وضعته لسبعة أشهر كفاه من الرضاع ثلاثة وعشرون شهراً ، وإذا وضعته لستة أشهر فحولين كاملين ؛ لأن الله تعالى يقول ﴿ **وحمله وفصاله**

ثلاثون شهراً ﴾ .

٥ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **حتى إذا بلغ أشدّه وبلغ أربعين سنة** ﴾ قال ابن كثير : أي تناهى عقله ، وكمل فهمه وحلمه ، ويقال إنه لا يتغير غالباً عما يكون عليه ابن الأربعين ، روى أبو بكر بن عياش عن القاسم بن عبد الرحمن قال قلت لمسروق : متى يؤخذ الرجل بذنوبه ؟ قال : إذا بلغت الأربعين فخذ حذرك .

وروى الحافظ أبو يعلى الموصلي عن عثمان رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال « العبد المسلم إذا بلغ أربعين سنة خفف الله تعالى حسابه ، وإذا بلغ ستين سنة رزقه الله تعالى الإنابة إليه ، وإذا بلغ سبعين سنة أحبه أهل السماء ، وإذا بلغ ثمانين سنة ثبت الله تعالى حسناته ومحا سيئاته ، وإذا بلغ تسعين سنة غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر وشفّعه الله تعالى في أهل بيته ، وكتب في السماء أسير الله في أرضه » وقد روى هذا من غير هذا الوجه وهو في مسند الإمام أحمد .

٦ - بمناسبة قوله تعالى حكاية عن المؤمن الذى بلغ الأربعين ﴿ **أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والديّ وأن أعمل صالحاً ترضاه وأصلح لي في ذريتي إني تبت إليك وإني من المسلمين** ﴾ قال ابن كثير : (وقد روى أبو داود في سننه عن ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يعلمهم أن يقولوا في التشهد « اللهم ألّف بين قلوبنا ، وأصلح ذات بيننا ، واهدنا سبل السلام ، ونجنا من الظلمات إلى النور ، وجنبنا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، وبارك لنا في أسماعنا وأبصارنا وقلوبنا وأزواجنا وذرياتنا ، وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم ، واجعلنا شاكرين لنعمتك ، مثنين بها عليك قابليها ، وأتممها علينا ») .

٧ - بمناسبة قوله تعالى ﴿ **أولئك الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا ونتجاوز عن سيئاتهم في أصحاب الجنة وعد الصدق الذي كانوا يوعدون** ﴾ قال ابن كثير : (روى ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ عن الروح الأمين عليه الصلاة والسلام قال « يؤتى بحسنات العبد وسيئاته فيقتص بعضها ببعض ، فإن بقيت حسنة وسع الله تعالى له في الجنة » قال فدخلت على يزداد فحدث بمثل هذا قال : قلت : فإن ذهبت الحسنة قال ﴿ **أولئك الذين نتقبّل عنهم أحسن ما عملوا ونتجاوز عن سيئاتهم في أصحاب الجنة وعد الصدق الذي كانوا يوعدون** ﴾ وهكذا رواه ابن أبي حاتم عن المعتمر بن سليمان بإسناده مثله وزاد عن الروح الأمين . قال : قال الرب

جل جلاله : يؤتى بحسنات العبد وسيئاته فذكره ، وهو حديث غريب وإسناده جيد لا بأس به : وروى ابن أبي حاتم عن يوسف بن سعد عن محمد بن حاطب قال ونزل في داري حيث ظهر علي رضي الله عنه على أهل البصرة فقال لي يوماً : لقد شهدت أمير المؤمنين علياً رضي الله عنه وعنده عمار وصعصعة والأشتر ومحمد بن أبي بكر رضي الله عنهم فذكروا عثمان رضي الله عنه فنالوا منه فكان علي رضي الله عنه على السرير ومعه عود في يده فقال قائل منهم : إن عندكم من يفصل بينكم فسألوه فقال علي رضي الله عنه : كان عثمان رضي الله عنه من الذين قال الله تعالى ﴿ **أولئك الذين نتقبّل عنهم أحسن ما عملوا ونتجاوز عن سيئاتهم في أصحاب الجنة وعد الصدق الذي كانوا يوعدون** ﴾ قال : والله ، عثمان وأصحاب عثمان رضي الله عنهم قالها ثلاثاً ، قال يوسف : فقلت لمحمد بن حاطب : آلله لسمعت هذا من علي رضي الله عنه ؟ قال آلله لسمعت هذا من علي رضي الله عنه) .

٨ - بمناسبة قوله تعالى ﴿ **والذي قال لوالديه أفٍ لكما** ﴾ قال ابن كثير : (وهذا عام في كل من قال هذا ، ومن زعم أنها نزلت في عبد الرحمن بن أبي بكر رضي الله عنهما فقوله ضعيف ؛ لأن عبد الرحمن بن أبي بكر رضي الله عنهما أسلم بعد ذلك وحسن إسلامه وكان من خيار أهل زمانه ، وروى العوفي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنها نزلت في ابن لأبي بكر الصديق رضي الله عنهما ، وفي صحة هذا نظر والله تعالى أعلم . وقال ابن جريج عن مجاهد نزلت في عبد الله بن أبي بكر رضي الله عنهما ، قاله ابن جريج ، وقال : آخرون : عبد الرحمن بن أبي بكر رضي الله عنهما ، وهذا أيضا قول السدي ، وإنما هذا عام في كل من عقّ والديه وكذّب بالحق فقال لوالديه : أفٍّ لكما عقهما ، وروى ابن أبي حاتم عن إسماعيل بن أبي خالد أخبرني عبد الله بن المديني قال : إني لفي المسجد حين خطب مروان فقال : إن الله تعالى قد أرى أمير المؤمنين في يزيد رأياً حسناً ، وإن يستخلفه فقد استخلف أبو بكر عمر رضي الله عنهما فقال عبد الرحمن بن أبي بكر رضي الله عنهما : أهرقلية ؟ إن أبا بكر رضي الله عنه والله ما جعلها في أحد من ولده ، ولا أحد من أهل بيته ، ولا جعلها معاوية في ولده إلا رحمة وكرامة لولده ، فقال مروان : ألست الذي قال لوالديه أفّ لكما ؟ فقال عبد الرحمن رضي الله عنه : ألست ابن اللعين الذي لعن رسول الله ﷺ أباك قال : وسمعتهما عائشة رضي الله عنها فقالت : يامروان أنت القائل لعبد الرحمن رضي الله عنه كذا وكذا ؟ كذبت ما فيه نزلت ، ولكن نزلت في فلان بن فلان ، ثم انتحب مروان ، ثم نزل عن المنبر حتى أتى باب

حجرتها فجعل يكلمها حتى انصرف . وقد رواه البخارى بإسناد آخر ولفظ آخر فقال : عن يوسف بن ماهك قال : كان مروان على الحجاز ، استعمله معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما ، فخطب وجعل يذكر يزيد بن معاوية لكي يبايع له بعد أبيه فقال له عبد الرحمن بن أبي بكر رضي الله عنهما شيئاً ، فقال : خذوه فدخل بيت عائشة رضي الله عنها فلم يقدروا عليه فقال مروان إن هذا الذي أنزل فيه ﴿ **والذي قال لوالديه أفٍ لكما أتعدانني أن أخرج وقد خلت القرون من قبلي** ﴾ فقالت عائشة رضي الله عنها من وراء الحجاب : ما أنزل الله عز وجل فينا شيئاً من القرآن إلا أن الله تعالى أنزل عذري . (طريق أخرى) روى النسائى عن محمد بن زياد قال : لما بايع معاوية رضي الله عنه لابنه قال مروان : سنة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما فقال عبد الرحمن بن أبي بكر رضي الله عنهما : سنة هرقل وقيصر ، فقال مروان : هذا الذي أنزل الله تعالى فيه ﴿ **والذي قال لوالديه أفٍ لكما** ﴾ الآية فبلغ ذلك عائشة رضي الله عنهما فقالت : كذب مروان ، والله ما هو به ولو شئت أن أسمي الذي أنزلت فيه لسميته ولكن رسول الله ﷺ لعن أبا مروان ومروان في صلبه ، فمروان فضض من لعنة الله) .

٩ – بمناسبة قوله تعالى ﴿ **ويوم يعرض الذين كفروا على النار أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها** .. ﴾ قال ابن كثير: (تورع أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن كثير من طيبات المآكل والمشارب وتنزه عنهم. ويقول: إني أخاف أن أكون كالذين قال الله لهم – وبّخهم وقرعهم – ﴿ **أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها** ﴾ وقال أبو مجلز : ليفقدنّ أقوام حسنات كانت لهم في الدنيا فيقال لهم ﴿ **أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا** ﴾ .

☆ ☆ ☆

المقطع الثاني

ويستمر من الآية (٢١) إلى نهاية الآية (٣٥) وهذا هو :

وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾ قَالُوا

أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا
ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا
رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ
رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ۚ
كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا
لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن
شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ
أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾ فَلَوْلَا
نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةًۢ ۖ بَلْ ضَلُّوا۟ عَنْهُمْ ۚ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ
وَمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٨﴾ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ
فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ
إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ
طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ
وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ
وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ

ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ج
بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيْسَ
هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ج قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾
فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ج كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ
مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ ج بَلَٰغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٣٥﴾

التفسير :

﴿ **واذكر أخا عادٍ** ﴾ أي : هوداً ﴿ **إذ أنذر قومه بالأحقاف** ﴾ في جنوبي الجزيرة العربية وسنرى تحقيقه في الفوائد ﴿ **وقد خلت النذر** ﴾ جمع نذير بمعنى المنذر أو الإنذار ﴿ **من بين يديه ومن خلفه** ﴾ أي : من قبل هود ومن خلف هود قال ابن كثير : يعني وقد أرسل الله تعالى إلى من حول بلادهم في القرى مرسلين ومنذرين ﴿ **ألا تعبدوا إلا الله إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم** ﴾ قال النسفي : والمعنى : واذكر إنذار هود قومه عاقبة الشرك والعذاب العظيم ، وقد أنذر من تقدمه من الرسل ومن تأخر عنه مثل ذلك ﴿ **قالوا** ﴾ أي : قوم هود ﴿ **أجئتنا لتأفكنا** ﴾ أي : لتصرفنا ﴿ **عن آلهتنا** ﴾ أي : عن عبادتها ﴿ **فأتنا بما تعدنا** ﴾ من معاجلة العذاب على الشرك ﴿ **إن كنت من الصادقين** ﴾ في وعيدك . قال ابن كثير : استعجلوا عذاب الله وعقوبته استبعاداً منهم وقوعه .. ﴿ **قال إنما العلم** ﴾ بوقت مجيء العذاب ﴿ **عند الله** ﴾ ولا علم لي بالوقت الذي يكون فيه تعذيبكم . وقال ابن كثير : أي الله أعلم بكم إن كنتم مستحقين لتعجيل العذاب فسيفعل ذلك بكم ، وأما أنا فمن شأني أني أبلغكم ما أرسلت به ﴿ **وأبلّغكم ما أرسلت به** ﴾ أي : الذى هو شأني أن أبلّغكم ما أرسلت به من الإنذار والتخويف ﴿ **ولكني أراكم قوماً تجهلون** ﴾ أي : لا تعقلون ولا تفهمون . قال النسفي : أي ولكنكم جاهلون لا تعلمون أن الرسل بعثوا منذرين ، لا مقترحين ولا سائلين غير ما أذن لهم فيه ﴿ **فلما رأوه** ﴾ أي : العذاب ﴿ **عارضاً** ﴾

العارض هو السحاب الذي يعرض في أفق السماء ﴿ **مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا** ﴾ قال ابن كثير : أي لما رأوا العذاب مستقبلهم اعتقدوا أنه عارض ممطر ففرحوا واستبشروا به ، وقد كانوا ممحلين محتاجين إلى المطر . ﴿ **قال** ﴾ هود على رأي النسفي . ﴿ **بل هو ما استعجلتم به** ﴾ من العذاب أي هو العذاب الذي قلتم فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين ، ثم فسر العذاب بقوله ﴿ **ريح فيها عذاب أليم * تدمّر** ﴾ أي : تخرّب ﴿ **كل شيء** ﴾ من بلادهم مما من شأنه الخراب ﴿ **بأمر ربها** ﴾ أي : بإذن ربها أي رب الريح ﴿ **فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم** ﴾ أي : قد بادوا كلهم عن آخرهم ولم تبق لهم باقية . ﴿ **كذلك** ﴾ أي : مثل ذلك الجزاء ﴿ **نجزي المجرمين** ﴾ أي : من أجرم مثل جرمهم . قال ابن كثير : (أي هذا حكمنا فيمن كذّب رسلنا وخالف أمرنا) وهو تحذير لكل مجرم .

....

كلمة في السياق :

جاءت هذه القصة في سياق السورة التي تدعو إلى عبادة الله وحده ، فبينت أن رسول الله - هود عليه السلام - دعا إلى عبادة الله وحده ، فليس محمد ﷺ ببدع من الرسل ، ولا دعوته ببدع من دعوات الله ، كما جاءت في سياق الكلام عن الفسرق والاستكبار . فأنذرت عاقبة ذلك العذاب العاجل في الدنيا ، وبينت على لسان هود عليه السلام أن الجهل هو الذي يجرىء الإنسان على ردّ دعوة الرسل عليهم الصلاة والسلام ، ولما كان قوم محمد عليه الصلاة والسلام يعبدون غير الله ، ويردّون دعوته مع قيام الحجة عليهم ، فقد اتجه الخطاب إليهم ليحذّرهم الله عز وجل أن يصيبهم ما أصاب المجرمين السابقين . ﴿ **ولقد مكّناهم فيما إن** ﴾ أي : ما ﴿ **مكّناكم فيه** ﴾ قال ابن كثير : يقول تعالى : (ولقد مكنا الأمم السابقة في الدنيا من الأموال والأولاد ، وأعطيناهم منها ما لم نعطكم مثله ولا قريباً منه) ﴿ **وجعلنا لهم سمعاً وأبصاراً وأفئدة** ﴾ أي : آلات الإدراك والفهم ﴿ **فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء** ﴾ أي : أيّ شيء من الإغناء مهما كان قليلاً ﴿ **إذ كانوا يجحدون بآيات الله** ﴾ أي: ينكرونها وهذا تعليل لإهلاكهم ﴿ **وحاق بهم ما كانوا به يستهزؤون** ﴾ قال ابن كثير : (أي : وأحاط بهم العذاب والنكال الذي كانوا يكذّبون به ، ويستبعدون وقوعه . أي فاحذروا أيها المخاطبون أن تكونوا مثلهم فيصيبكم مثل ما أصابهم من العذاب في الدنيا والآخرة)

﴿ **ولقد أهلكنا ما حولكم** ﴾ يا أهل مكة ﴿ **من القرى** ﴾ نحو حجر ثمود ، وقرى قوم لوط . ﴿ **وصرّفنا الآيات** ﴾ أي : كرّرنا عليهم الحجج وأنواع العبر ﴿ **لعلهم يرجعون** ﴾ عن الطغيان إلى الإيمان فلم يرجعوا . قال ابن كثير : (وقد أهلك الله الأمم المكذّبة بالرسل ممّا حولها « أي : مكة » كعاد وكانوا بالأحقاف بحضر موت عند اليمن . وثمود وكانت منازلهم بينهم وبين الشام وكذلك سبأ وهم أهل اليمن ، ومدين وكانت في طريقهم وممّرهم إلى غزة ، وكذلك بحيرة قوم لوط كانوا يمرون بها أيضاً) ﴿ **فلولا** ﴾ أي : فهلّا ﴿ **نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قرباناً آلهة** ﴾ القربان : ما تقرّب به إلى الله . والمعنى : فهلّا نصرهم الذين اتخذوهم شفعاء متقرباً بهم إلى الله حيث قالوا : هؤلاء شفعاؤنا عند الله . قال ابن كثير : (أي : فهل نصروهم عند احتياجهم إليهم) . ﴿ **بل ضلوا عنهم** ﴾ أي : بل غابوا عن نصرتهم . قال ابن كثير : أي بل ذهبوا عنهم أحوج ما كانوا إليهم . ﴿ **وذلك إفكهم** ﴾ أي : كذبهم ﴿ **وما كانوا يفترون** ﴾ قال ابن كثير : أي وافتراؤهم في اتخاذهم إياهم آلهة وقد خابوا وخسروا في عبادتهم لها واعتمادهم عليها .

....

كلمة في السياق :

جاءت هذه الآيات تعليقاً علىٰ قصّة قوم هود ، وبناءً عليها فكانت هي والقصة بمثابة إنذار للكافرين الذين يرفضون دعوة الله وعبادته ، ويستكبرون عنها ويفسقون عن أمر الله ، وبعد هذه الصفحة من الإنذار يعرض الله علينا قصة نفر من الجن أسلموا بمجرد سماعهم للقرآن ، وخرجوا دعاة ، وفي ذلك درس في التلقّي الصحيح والسليم عن الله ورسوله ﷺ ، وفي ذلك تأنيب ضمني لقريش ، فإنه إذا كان الجن يقفون مثل هذا الموقف من القرآن فما بالهم هم؟ كما إن في ذلك إيناساً لرسول الله ﷺ ، إذ يريه الله ثمرات إنذاره أنها لا تضيع ، فإذا لم يستجب له قومه فإنه لا يعدم مستجيباً .

﴿**وإذ صَرَفنا إليك نفراً**﴾ أي : أملناهم إليك وأقبلنا بهم نحوك ، والنفر : دون العشرة ﴿ **من الجن** ﴾ قال النسفي : (جن نصيبين) وسنرى تحقيق ابن كثير حول هذا الموضوع ﴿ **يستمعون القرآن** ﴾ منه عليه الصلاة والسلام ﴿ **فلما حضروه** ﴾ أي : الرسول ﷺ أو القرآن . أي فلما كانوا منه بحيث يسمعون ﴿ **قالوا** ﴾ أي : قال

بعضهم لبعض ﴿ **أنصتوا** ﴾ أي : اسكتوا مستمعين قال ابن كثير : وهذا أدب منهم ﴿ **فلما قُضيَ** ﴾ أي : فلما فرغ النبي ﷺ من القراءة ﴿ **ولوا إلى قومهم منذرين** ﴾ إياهم ، أي : رجعوا إلى قومهم فأنذروهم ما سمعوه من رسول الله ﷺ ﴿ **قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى** ﴾ قال ابن كثير : (ولم يذكروا عيسى ؛ لأن عيسى عليه السلام أنزل عليه الإنجيل فيه مواعظ وترقيقات وقليل من التحليل والتحريم ، وهو في الحقيقة كالمتمم لشريعة التوراة ، فالعمدة هو التوراة ، فلهذا قالوا أنزل من بعد موسى ، وهكذا قال ورقة بن نوفل حين أخبره النبي ﷺ بقصة نزول جبريل عليه ، عليه الصلاة والسلام أول مرة فقال : بخ بخ هذا الناموس الذي كان يأتي موسى ياليتنى أكون فيها جذعاً) . ﴿ **مصدّقاً لما بين يديه** ﴾ أي : من الكتب المنزلة على الأنبياء قبله ﴿ **يهدي إلى الحق** ﴾ أي : إلى الله تعالى أو إلى الحق الذي هو ضدّ الباطل في الاعتقاد والإخبار ﴿ **وإلى طريق مستقيم** ﴾ في الأعمال ﴿ **يا قومنا أجيبوا داعي الله** ﴾ أي : محمداً ﷺ ﴿**وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم**﴾ أي : يغفر لكم ذنوبكم ﴿**ويجركم من عذاب أليم**﴾ أي : ويقيكم من العذاب الشديد الألم ﴿ **ومن لا يجب داعي الله فليس بمعجز في الأرض** ﴾ لأن الله لا ينجي منه مهرب ، بل قدرته شاملة ومحيطة ﴿ **وليس له من دونه أولياء** ﴾ أي لا يجيركم منه أحد ﴿ **أولئك في ضلال مبين** ﴾ قال ابن كثير : هذا مقام تهديد وترهيب ، فدعوا قومهم بالترغيب والترهيب ، ولهذا نجع في كثير منهم وجاؤوا إلى رسول الله ﷺ وفوداًوفوداً ...

كلمة في السياق :

في قصة عاد وما جاء بعدها ، وفي قصة وفد الجن ووعظهم . انصبّ الإنذار على عذاب الدنيا ، والآن يأتي وعظ وإنذار بعذاب الآخرة ، وبين يدي ذلك يقيم الله الحجة على مجيء اليوم الآخر .

....

﴿ **أو لم يروا أن الله الذي خلق السمٰوات والأرض ولم يَعْيَ بخلقهن** ﴾ أي : ولم يكرثه خلقهن ، بل قال لها : كوني فكانت بلا ممانعة ولا مخالفة بل طائعة مجيبة ﴿ **بقادر**

على أن يحيي الموتى ﴾ الجواب ﴿ **بلى إنه على كل شيء قدير** ﴾ فهو قادر على البعث وعلى غيره ﴿ **ويوم يعرض الذين كفروا على النار أليس هذا بالحق** ﴾ أي : يقال لهم ذلك ﴿ **قالوا بلى وربنا** ﴾ فهناك لا يسعهم إلا الاعتراف ﴿ **قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون** ﴾ أي : بسبب كفركم في الدنيا .

....

كلمة في السياق :

١ – ختم المقطع الأول بقوله تعالى : ﴿ **ويوم يعرض الذين كفروا على النّار أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تفسقون** ﴾ وقبل نهاية السورة بآية ورد قوله تعالى : ﴿ **ويوم يعرض الذين كفروا على النار أليس هذا بالحق قالوا بلى وربنا قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون** ﴾ فبعد جولة من الأمثلة والمذكرات والمواعظ يعود السياق ليستقر على الموقف الذي يناسب المواقف الظالمة .

٢ – جاء في المقطع الأول تبشير وإنذار ، وكان الإنذار هو المتأخر ، فجاء المقطع الثاني استمراراً للإنذار الوارد في نهاية المقطع الأول .

٣ – نلاحظ أن السورة بدأت بمقدمة هي : ﴿ **حمٓ * تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم * ما خلقنا السموٰات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمىً والذين كفروا عمّا أُنذروا معرضون** .. ﴾ ثم بدأت السورة تأمر رسول الله ﷺ الأوامر الداعية الموجهة : ﴿ **قل أرأيتم ما تدعون من دون الله** ... ﴾ ﴿ **قل إن افتريته فلا تملكون لي من الله شيئاً** ... ﴾ ﴿ **قل ما كنت بدعاً من الرسل** ... ﴾ ﴿ **قل أرأيتم إن كان من عند الله وكفرتم به وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله فآمن واستكبرتم** .. ﴾ ﴿ **واذكر أخا عاد** ... ﴾ وبعد هذه الأوامر كلها في إقامة الحجة والإنذار ، يصدر الأمر الأخير لرسول الله ﷺ بالصبر كموقف أخير .

....

﴿ **فاصبر كما صبر أولوا العزم** ﴾ أي : أولوا الجدّ والثبات والصبر ﴿ **من الرسل** ﴾ وهم المذكورون في سورتي الأحزاب والشورى : نوح ، وإبراهيم ، وموسى ، وعيسى

ابن مريم . وقد يحتمل أن يكون المراد بأولي العزم جميع الرسل فتكون (من) في **قوله** (من الرسل) لبيان الجنس ﴿ **ولا تستعجل لهم** ﴾ أي : لا تستعجل لهم حلول العقوبة بهم ﴿ **كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار** ﴾ أي: إنهم يستقصرون حينئذٍ مدّة لبثهم في الدنيا حتى ليحسبوها ساعة من نهار ﴿ **بلاغ** ﴾ **أي** : هذا بلاغ . أي : هذا الذي وعظتم به فيه كفاية في الموعظة ، أو هذا تبليغ من الرسول : ﴿ **فهل يُهلَك إلا القوم الفاسقون** ﴾ أي : لا يهلك على الله إلا هالك ، وهذا من عدله عز وجل أنه لا يعذب إلا من يستحق العذاب . قال النسفي : (أو المعنى : فلن يهلك بعذاب الله إلا القوم الفاسقون ، أي المشركون الخارجون عن الاتعاظ به والعمل بموجبه) .

....

قال صاحب الظلال في عرضه لهذه الآية : (ألا إنه لطريق شاق . طريق هذه الدعوة . وطريق مرير . حتى لتحتاج نفس كنفس محمد - ﷺ - في تجردها وانقطاعها للدعوة ، وفي ثباتها وصلابتها ، وفي صفائها وشفافيتها ، تحتاج إلى التوجيه الرباني بالصبر وعدم الاستعجال على خصوم الدعوة المتعنتين .

نعم . وإن مشقة هذا الطريق لتحتاج إلى مواساة ، وإن صعوبته لتحتاج إلى صبر . وإن مرارته لتحتاج إلى جرعة حلوة من رحيق العطف الإلهي المختوم . ﴿ **فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل ولا تستعجل لهم** ﴾ .. تشجيع وتصبير وتأسية وتسلية .. ثم تطمين : ﴿ **كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار** ﴾ .. إنه أمد قصير . ساعة من نهار . وإنها حياة خاطفة تلك التي يمكثونها قبيل الآخرة . وإنها لتافهة لا تترك وراءها من الوقع والأثر في النفوس إلا مثلما تتركه ساعة من نهار .. ثم يلاقون المصير المحتوم . ثم يلبثون في الأبد الذي يدوم . وما كانت تلك الساعة إلا بلاغاً قبل أن يحق الهلاك والعذاب الأليم : ﴿ **بلاغ . فهل يهلك إلا القوم الفاسقون** ﴾ .. لا . وما الله يريد ظلماً للعباد . لا . وليصبر الداعية على ما يلقاه . فما هي إلا ساعة من نهار ثم يكون ما يكون ..)

وبهذه الآية انتهت السورة .

☆ ☆ ☆

كلمة في السياق :

١ - نلاحظ أن السورة أمرت رسول الله ﷺ أن يقول وأن يذكّر وأن يصبر . فالقول فيه الحجة العقلية ، والتذكير فيه الإثارة العاطفية ، والصبر لابد منه لقطف ثمرات الأجر .

٢ - نلاحظ أن كلمة الفسوق هي التي انتهى بها المقطع الأول والثاني . ﴿ **بما كنتم تستكبرون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تفسقون** . ﴾ ﴿ **فهل يهلك إلا القوم الفاسقون** ﴾ مما يشير إلى أن من المواضيع الرئيسية للسورة موضوع الفسوق عن أمر الله . ولهذا صلته بقوله تعالى ﴿ **وما يضل به إلا الفاسقين** ﴾ من محور السورة في سورة البقرة .

فوائد :

١ - بمناسبة قوله تعالى ﴿ **واذكر أخا عاد إذ أنذر قومه بالأحقاف** ﴾ قال ابن كثير : (وهو هود عليه الصلاة والسلام بعثه الله عز وجل إلى عاد الأولى ، وكانوا يسكنون الأحقاف (جمع حقف) وهو الجبل من الرمل قاله ابن زيد ، وقال عكرمة : الأحقاف الجبل والغار ، وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : الأحقاف وادٍ بحضرموت يدعى برهوت تلقى فيه أرواح الكفار ، وقال قتادة : ذكر لنا أن عاداً كانوا حيّاً باليمن أهل رمل مشرفين على البحر بأرض يقال لها الشحر . روى ابن ماجه (باب إذا دعا فليبدأ بنفسه) . عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « يرحمنا الله وأخا عاد » .

٢ - بمناسبة الكلام عن عاد في سورة الأحقاف قال ابن كثير : (وقد ورد حديث في قصتهم وهو غريب جداً من غرائب الحديث . وأفراده :

روى الإمام أحمد : عن الحارث البكري قال خرجت أشكو العلاء بن الحضرمي إلى رسول الله ﷺ فمررت بالربذة فإذا عجوز من بني تميم منقطع بها فقالت لي : يا عبد الله إن لي إلى رسول الله حاجة فهل أنت مبلغي إليه ؟ قال : فحملتها فأتيت بها المدينة فإذا المسجد غاص بأهله ، وإذا راية سوداء تخفق ، وإذا بلال رضي الله عنه متقلداً السيف بين يدي رسول الله ﷺ فقلت : ما شأن الناس ؟ قالوا : يريد أن يبعث عمرو

ابن العاص وجهاً قال : فجلست ، فدخل منزله ـــ أو قال : رحله ـــ فاستأذنت عليه فأذن لي فدخلت فسلمت فقال ﷺ : « هل كان بينكم وبين تميم شيء ؟ » قلت : نعم وكانت لنا الدائرة عليهم ، ومررت بعجوز من بني تميم منقطع بها فسألتني أن أحملها إليك ، فها هي بالباب ، فأذن لها فدخلت فقلت : يا رسول الله إن رأيت أن تجعل بيننا وبين تميم حاجزاً فاجعل الدهناء ، فحميت العجوز واستوفزت ، وقالت : يارسول الله فإلى أين يضطر مضطرك ؟ قال : قلت : إن مثلي ما قال الأول : معزى حملت حتفها ، حملت هذه ولا أشعر أنها كانت لي خصماً أعوذ بالله ورسوله أن أكون كوافد عاد قال لي « وما وافد عاد ؟ » وهو أعلم بالحديث منه ، ولكن يستطعمه قلت : إن عاداً قحطوا فبعثوا وفداً لهم يقال له قيل ، فمرّ بمعاوية بن بكر فأقام عنده شهراً يسقيه الخمر وتغنيه جاريتان يقال لهما الجرادتان ، فلما مضى الشهر خرج إلى جبال مهرة فقال : اللهم إنك تعلم أني لم أجيء إلى مريض فأداويه ، ولا إلى أسير فأفاديه ، اللهم اسق عاداً ما كنت تسقيه ، فمرت به سحابات سود فنودي منها اختر فأومأ إلى سحابة منها سوداء ، فنودي منها خذها رمددا رماداً ، لا تبقي من عاد أحداً . قال فما بلغني أنه أرسل عليهم من الريح إلا قدر ما يجري في خاتمي هذا حتى هلكوا ، قال أبو وائل : وصدق ، وكانت المرأة والرجل إذا بعثوا وافداً لهم قالوا : لا تكن كوافد عاد . ورواه الترمذي والنسائي وابن ماجه وروى الإمام أحمد عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : ما رأيت رسول الله ﷺ مستجمعاً ضاحكاً حتى أرى منه لهواته إنما كان يبتسم وقالت : كان رسول الله ﷺ إذا رأى غيماً أو ريحاً عرف ذلك في وجهه قالت : يا رسول الله إن الناس إذا رأوا الغيم فرحوا رجاء أن يكون فيه المطر ، وأراك إذا رأيته عرفت في وجهك الكراهية ، فقال رسول الله ﷺ : « يا عائشة ما يؤمنني أن يكون فيه عذاب . قد عذب قوم بالريح وقد رأى قوم العذاب وقالوا : هذا عارض ممطرنا » وأخرجاه من حديث ابن وهب . (طريق أخرى) روى الإمام أحمد عن عائشة رضي الله عنها قالت : إن رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم كان إذا رأى ناشئاً في أفق من آفاق السماء ترك عمله وإن كان في صلاته ثم يقول « اللهم إني أعوذ بك من شر عاقبته » فإن كشفه الله تعالى حمد الله عز وجل وإن أمطرنا قال : « اللهم صيباً نافعاً » . (طريق أخرى) روى مسلم في صحيحه عن عطاء بن أبي رباح عن عائشة رضي الله عنها قالت كان رسول الله ﷺ إذا عصفت الريح قال « اللهم إني أسألك خيرها وخير ما فيها وخير ما أرسلت به ، وأعوذ بك من شرّها وشر ما فيها وشر ما أرسلت به » قالت وإذا تخيلت السماء تغير

لونه وخرج ودخل وأقبل وأدبر ، فإذا أمطرت سري عنه فعرفت ذلك عائشة رضي الله عنها فسألته فقال رسول الله ﷺ : « لعله يا عائشة كما قال قوم عاد : ﴿ **فلما رأوه عارضا مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا** ﴾» وروى الطبراني عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « ما فتح علي عاد من الريح إلا مثل موضع الخاتم ثم أرسلت عليهم من البدو إلى الحضر فلما رآها أهل الحضر قالوا : هذا عارض ممطرنا مستقبل أوديتنا وكان أهل البوادي فيها فألقي أهل البادية على أهل الحاضرة حتى هلكوا ، قال : عتت على خزانها حتى خرجت من خلال الأبواب والله سبحانه وتعالى أعلم » .

٣ – بمناسبة قوله تعالى ﴿ **وإذ صرفنا إليك نفراً من الجنّ يستمعون القرآن** ﴾ ذكر ابن كثير تحقيقاً حول مجيء الجنّ إلى رسول الله ﷺ هذا هو : روى الإمام أحمد عن الزبير ﴿ **وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن** ﴾ قال بنخلة ورسول الله ﷺ يصلي العشاء الآخرة ﴿ **كادوا يكونون عليه لبداً** ﴾ قال سفيان : ألبد بعضهم على بعض كاللبد بعضه على بعض تفرد به أحمد وسيأتي من رواية ابن جرير عن عكرمة عن ابن عباس أنهم سبعة من جن نصيبين وروى الإمام أحمد والإمام الشهير الحافظ أبو بكر البيهقي في كتابه (دلائل النبوة) : عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : ما قرأ رسول الله ﷺ على الجن ولا رآهم ، انطلق رسول الله ﷺ في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء ، وأرسلت عليهم الشهب ، فرجعت الشياطين إلى قومهم فقالوا : ما لكم ، فقالوا : حيل بيننا وبين خبر السماء ، وأرسلت علينا الشهب ، قالوا : ما حال بينكم وبين خبر السماء إلا شيء حدث ، فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها ، وانظروا ما هذا الذي حال بينكم وبين خبر السماء ، فانطلقوا يضربون مشارق الأرض ومغاربها ، يبتغون ما هذا الذي حال بينهم وبين خبر السماء ، فانصرف أولئك النفر الذين توجهوا نحو تهامة إلى رسول الله ﷺ وهو بنخلة عامداً إلى سوق عكاظ وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر ، فلما سمعوا القرآن استمعوا له فقالوا : هذا والله الذي حال بينكم وبين خبر السماء ، فهنالك حين رجعوا إلى قومهم قالوا ياقومنا : ﴿ **إنا سمعنا قرآناً عجباً * يهدي إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحداً** ﴾ (الجن : ١ ، ٢) وأنزل الله على نبيه ﷺ ﴿ **قل أوحي إلي أنه استمع نفر من الجن** ﴾ (الجن : ١) وإنما أوحي إليه قول الجن رواه البخاري عن مسدد بنحوه ، وأخرجه مسلم ورواه الترمذي والنسائي في التفسير وروى الإمام أحمد أيضاً عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما

قال : كان الجن يستمعون الوحي فيسمعون الكلمة فيزيدون فيها عشراً ، فيكون ما سمعوا حقاً وما زادوا باطلاً ، وكانت النجوم لا يرمى بها قبل ذلك ، فلما بعث رسول الله ﷺ كان أحدهم لا يأتي مقعده إلا رمي بشهاب يحرق ما أصاب ، فشكوا ذلك إلى إبليس فقال : ما هذا إلا من أمر قد حدث ، فبثّ جنوده فإذا بالنبي ﷺ بين جبلي نخلة ، فأتوه ، فأخبروه فقال : هذا الحدث الذي حدث في الأرض ، ورواه الترمذي والنسائي في كتابي التفسير من سننيهما ، وقال الترمذي حسن صحيح ، وهكذا رواه أيوب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما ، وكذا رواه العوفي عن ابن عباس رضي الله عنهما أيضاً بمثل هذا السياق بطوله وهكذا قال الحسن البصري : إنه ﷺ ما شعر بأمرهم حتى أنزل الله تعالى عليه بخبرهم وذكر محمد بن إسحاق عن محمد بن كعب القرظي قصة خروج النبي ﷺ إلى الطائف ودعائه إياهم إلى الله عز وجل ، وإبائهم عليه ، فذكر القصة بطولها وأورد ذلك الدعاء الحسن : « اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس يا أرحم الراحمين أنت أرحم الراحمين وأنت رب المستضعفين وأنت ربي إلى من تكلني ؟ إلى عدو بعيد يتجهمني ، أم إلى صديق قريب ملكته أمري ، إن لم يكن بك غضب عليّ فلا أبالي ، غير أن عافيتك أوسع لي ، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة ، أن ينزل بي غضبك ، أو يحل بي سخطك ، ولك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بك » قال فلما انصرف عنهم بات بنخلة فقرأ تلك الليلة من القرآن فاستمعه الجن من أهل نصيبين ، وهذا صحيح ولكن قوله إن الجن كان استماعهم تلك الليلة فيه نظر فإن الجن كان استماعهم في ابتداء الإيحاء كما دل عليه حديث ابن عباس رضي الله عنهما المذكور ، وخروجه ﷺ إلى الطائف كان بعد موت عمه ، وذلك قبل الهجرة بسنة أو سنتين كما قرره ابن إسحاق وغيره والله أعلم . قال أبو بكر بن أبي شيبة : عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : هبطوا على النبي ﷺ وهو يقرأ القرآن ببطن نخلة ، فلما سمعوه قالوا : أنصتوا قال : صه وكانوا تسعة أحدهم زوبعة فأنزل الله عز وجل ﴿ **وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما قضي ولّوا إلى قومهم منذرين** ﴾ إلى ﴿ **ضلال مبين** ﴾ فهذا مع الأول من رواية ابن عباس رضي الله عنهما يقتضي أن رسول الله ﷺ لم يشعر بحضورهم في هذه المرة ، وإنما استمعوا قراءته ، ثم رجعوا إلى قومهم ، ثم بعد ذلك وفدوا إليه أرسالاً ، قوماً بعد قوم ، وفوجاً بعد فوج ، كما ستأتي بذلك الأخبار في موضعها والآثار ، مما سنوردها ههنا إن شاء الله تعالى وبه الثقة فأما ما رواه البخاري ومسلم جميعاً عن معن بن عبد الرحمن قال : سمعت أبي يقول : سألت

مسروقاً من آذن النبي ﷺ ليلة استمعوا القرآن ؟ فقال حدثني أبوك – يعنى ابن مسعود رضي الله عنه – أنه آذنته بهم شجرة ، فيحتمل أن يكون هذا في المرة الأولى ، ويكون إثباتاً مقدماً على نفي ابن عباس رضي الله عنهما ، ويحتمل أن يكون في الأولى ولكن لم يشعر بهم حال استماعهم حتى آذنته بهم الشجرة ، أي : أعلمته باجتماعهم والله أعلم ، ويحتمل أن يكون هذا في بعض المرات المتأخرات والله أعلم ، روى الحافظ البيهقي : وهذا الذي حكاه ابن عباس رضي الله عنهما إنما هو أول ما سمعت الجن قراءة رسول الله ﷺ وعلمت حاله ، وفي ذلك الوقت لم يقرأ عليهم ولم يرهم ، ثم بعد ذلك أتاه داعي الجن فقرأ عليهم القرآن ودعاهم إلى الله عز وجل كما رواه عبد الله بن مسعود رضي الله عنه .

(ذكر الرواية عنه بذلك)

روى الإمام أحمد عن علقمة قال : قلت لعبد الله بن مسعود رضي الله عنه : هل صحب رسول الله ﷺ ليلة الجن منكم أحد ؟ فقال : ما صحبه منا أحد ولكنا فقدناه ذات ليلة بمكة فقلنا اغتيل ؟ استطير ؟ ما فعل ؟ قال : فبتنا بشر ليلة بات بها قوم ، فلما كان في وجه الصبح – أو قال في السحر – إذا نحن به يجيء من قبل حراء ، فقلنا يا رسول الله فذكروا له الذي كانوا فيه فقال « إنه أتاني داعي الجن فأتيتهم فقرأت عليهم » قال : فانطلق فأرانا آثارهم وآثار نيرانهم قال : قال الشعبي سألوه الزاد ، قال عامر سألوه بمكة وكانوا من جن الجزيرة فقال: « كل عظم ذكر اسم الله في أيديكم أوفر ما يكون لحماً ، وكل بعرة أو روثة علف لدوابكم – قال – فلا تستنجوا بهما فإنهما زاد إخوانكم من الجن » وهكذا رواه مسلم في صحيحه . وروى مسلم أيضاً : عن عامر قال سألت علقمة هل كان ابن مسعود رضي الله عنه شهد مع رسول الله ﷺ ليلة الجن ؟! قال : فقال علقمة أنا سألت ابن مسعود رضي الله عنه فقلت : هل شهد أحد منكم مع رسول الله ﷺ ليلة الجن ؟ قال : لا ، ولكنا كنا مع رسول الله ﷺ ذات ليلة ففقدناه فالتمسناه في الأودية والشعاب فقيل : استطير ؟ اغتيل ؟ قال : فبتنا بشر ليلة بات بها قوم فلما أصبحنا إذا هو جاء قبل حراء ، قال : فقلنا : يارسول الله فقدناك ، فطلبناك ، فلم نجدك ، فبتنا بشر ليلة بات بها قوم فقال : « أتاني داعي الجن فذهبت معهم فقرأت عليهم القرآن » قال : فانطلق بنا فأرانا آثارهم وآثار نيرانهم ، وسألوه الزاد فقال : « كل عظم ذكر اسم الله عليه يقع في أيديكم أوفر ما يكون لحماً ، وكل بعرة أو روثة علف لدوابكم » قال رسول الله ﷺ : « فلا تستنجوا بهما فإنهما طعام إخوانكم » . (طريق

أخرى) عن ابن مسعود رضي الله عنه عن الزهري عن عبيد الله قال : إن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « بت الليلة أقرأ على الجن واقفا بالحجون » . (طريق أخرى) فيها : إنه كان معه ليلة الجن ، روى ابن جرير رحمه الله عن أبي عثمان ابن شبة الخزاعي – وكان من أهل الشام – قال : إن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ لأصحابه وهو بمكة : « من أحب منكم أن يحضر أمر الجن الليلة فليفعل » فلم يحضر منهم أحد غيري قال : فانطلقنا حتى إذا كنا بأعلى مكة خطَّ لي برجله خطاً ثم أمرني أن أجلس فيه ، ثم انطلق حتى قام فافتتح القرآن فغشيته أسودة كثيرة حالت بيني وبينه حتى ما أسمع صوته ثم طفقوا يتقطعون مثل قطع السحاب ذاهبين حتى بقي منهم رهط ، ففرغ رسول الله ﷺ مع الفجر ، فانطلق فتبرز ثم أتاني فقال : « ما فعل الرهط ؟ » قلت : هم أولئك يا رسول الله ، فأعطاهم عظماً وروثاً زاداً ، ثم نهى أن يستطيب أحد بروث أو عظم . ورواه البيهقي في الدلائل ، وإسحاق بن راهويه ، والحافظ أبو نعيم . (طريق أخرى) روى أبو نعيم حدثنا عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : استتبعني رسول الله ﷺ فانطلقنا حتى أتينا مكان كذا وكذا فخطَّ لي خطاً فقال « كن بين ظهر هذه لا تخرج منها فإنك إن خرجت منها هلكت » فذكر الحديث بطوله وفيه غرابة شديدة (طريق أخرى) روى ابن جرير عن عبد الله بن عمرو بن غيلان الثقفي أنه قال لابن مسعود رضي الله عنه : حدثت أنك كنت مع رسول الله ﷺ ليلة وفد الجن قال : أجل ، قال : فكيف كان ؟ فذكر الحديث وذكر أن النبي ﷺ خطَّ عليه خطاً وقال « لا تبرح منها » فذكر مثل العجاجة السوداء فغشيت رسول الله ﷺ فذعر ثلاث مرات ، حتى إذا كان قريباً من الصبح أتاني النبي ﷺ فقال : « أنمت ! » فقلت : لا والله ولقد هممت مراراً أن أستغيث بالناس حتى سمعتك تهرعهم بعصاك تقول : « اجلسوا » فقال النبي ﷺ : « لو خرجت لم آمن أن يتخطفك بعضهم » ثم قال ﷺ : « هل رأيت شيئاً ؟ » قلت : نعم رأيت رجالاً سواداً مستثفرين ثياباً بياضاً قال ﷺ : « أولئك جن نصيبين سألوني المتاع ـــ والمتاع : الزاد ـــ فمتعتهم بكل عظم حائل أو بعرة أو روثة فقلت : يارسول الله ومايغني ذلك عنهم ؟ فقال رسول الله ﷺ : « إنهم لايجدون عظماً إلا وجدوا عليه لحمه يوم أكل . ولا روثا إلا وجدوا فيها حبها يوم أكلت ، فلا يستنقين أحد منكم إذا خرج من الخلاء بعظم ولا بعرة ولا روثة » . (طريق أخرى) روى الحافظ أبو بكر البيهقي عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : استتبعني رسول الله ﷺ فقال :

« إن نفراً من الجن خمسة عشر بني إخوة وبني عم يأتون الليلة أقرأ عليهم القرآن » فانطلقت معه إلى المكان الذي أراد فخطَّ لي خطاً وأجلسني فيه وقال لي : « لا تخرج من هذا » فبت فيه حتى أتاني رسول الله ﷺ مع السحر في يده عظم حائل وروثة وحَمّة فقال : « إذا ذهبت إلى الخلاء فلا تستنج بشيء من هؤلاء » قال : فلما أصبحت قلت لأعلمنّ حيث كان رسول الله ﷺ قال : فذهبت فرأيت موضع مبرك ستين بعيراً . (طريق أخرى) روى البيهقي عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : انطلقت مع رسول الله ﷺ ليلة الجن حتى أتى الحجون فخطَّ لي خطاً ثم تقدم إليهم فازدحموا عليه فقال سيد لهم يقال له وزدان : أنا أرحلهم عنك فقال : إني لن يجيرني من الله أحد . (طريق أخرى) روى الإمام أحمد : عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : لما كان ليلة الجن قال لي النبي ﷺ « أمعك ماء؟ » قلت : ليس معي ماء ولكن معي إداوة فيها نبيذ فقال النبي ﷺ « تمرة طيبة وماء طهور » ورواه أبو داود والترمذي وابن ماجه من حديث ابن زيد به (طريق أخرى) روى الإمام أحمد عن ابن عباس عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنهم قال : إنه كان مع رسول الله ﷺ ليلة الجن فقال رسول الله ﷺ : « يا عبد الله أمعك ماء؟ » قال معي نبيذ في إداوة قال ﷺ : « اصبب علي » فتوضأ فقال النبي ﷺ : « يا عبد الله شراب وطهور » تفرد به أحمد من هذا الوجه وقد أورده الدارقطني من طريق آخر عن ابن مسعود رضي الله عنه به . (طريق أخرى) روى الإمام أحمد عن عبد الله رضي الله عنه قال : كنت مع رسول الله ﷺ ليلة وفد الجن فلما انصرف تنفّس فقلت ما شأنك ؟ قال : « نعيت إلي نفسي يا ابن مسعود » هكذا رأيته في المسند مختصراً ، وقد رواه الحافظ أبو نعيم في كتابه (دلائل النبوة) فقال : عن ابن مسعود قال : كنت مع رسول الله ﷺ ليلة وفد الجن فتنفس ، فقلت : مالك يا رسول الله ؟ قال : نعيت إلي نفسي يا ابن مسعود » قلت : استخلف قال : « من ؟ » قلت : أبا بكر ، قال : فسكت ثم مضى ساعة فتنفّس ، فقلت : ما شأنك بأبي وأمي يا رسول الله ؟ قال : « نعيت إلي نفسي يا ابن مسعود » قلت : استخلف ، قال : « من ؟ » قلت : عمر فسكت ، ثم مضى ساعة ثم تنفّس ، فقلت : ما شأنك ؟ قال : « نعيت إلي نفسي » قلت : فاستخلف ، قال ﷺ : « من ؟ قلت : علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، قال ﷺ : « أما والذي نفسي بيده لئن أطاعوه ليدخلن الجنة أجمعين أكتعين » وهو حديث غريب جداً ، وأحرى به أن لا يكون محفوظاً ، وبتقدير صحته ، فالظاهر أن هذا بعد وفودهم إليه بالمدينة على ما سنورده إن شاء الله تعالى ، فإن في ذلك

الوقت كان في آخر الأمر لما فتحت مكة ودخل الناس والجان أيضاً في دين الله أفواجا نزلت سورة النصر ﴿ **إذا جاء نصر الله والفتح * ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجاً * فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً** ﴾ وهي السورة التي نعيت نفسه الكريمة فيها إليه، كما نص على ذلك ابن عباس رضي الله عنهما، ووافقه عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - عليه، وقد ورد في ذلك حديث سنورده إن شاء الله تعالى عند تفسيرها والله أعلم، وقد رواه أبو نعيم أيضاً عن الطبراني عن ابن مسعود رضي الله عنه فذكره وذكر فيه قصة الاستخلاف وهذا إسناد غريب وسياق عجيب (طريق أخرى) روى الإمام أحمد : عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ خطّ حوله فكان أحدهم مثل سواد النحل وقال « لا تبرح مكانك فأقرأهم كتاب الله » فلما رأى المرعى قال: كأنهم هؤلاء، وقال النبي ﷺ : « أمعك ماء؟ » قلت : لا ، قال : « أمعك نبيذ ؟ » قلت : نعم، فتوضأ به (طريق أخرى مرسلة) روى ابن أبي حاتم عن عكرمة في قوله تعالى ﴿ **وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن** ﴾ قال : هم اثنا عشر ألفاً جاؤوا من جزيرة الموصل فقال ﷺ لابن مسعود رضي الله عنه: « أنظرني حتى آتيك » وخطّ عليه خطّاً وقال « لا تبرح حتى آتيك » فلما خشيهم ابن مسعود رضي الله عنه كاد أن يذهب فذكر قول رسول الله ﷺ فلم يبرح، فقال له النبي ﷺ : « لو ذهبت ما التقينا إلى يوم القيامة » . (طريق أخرى مرسلة أيضاً) قال سعيد بن أبي عروبة عن قتادة في قوله تعالى ﴿ **وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن** ﴾ قال: ذكر لنا أنهم صرفوا إليه من نينوى وأن نبي الله ﷺ قال: « إني أمرت أن أقرأ على الجن فأيكم يتبعني ؟ » فأطرقوا ثم استتبعهم فأطرقوا، ثم استتبعهم الثالثة فقال رجل: يا رسول الله إن ذلك لذو ندبة فأتبعه ابن مسعود رضي الله عنه أخو هذيل، قال: فدخل النبي ﷺ شعباً يقال له شعب الحجون وخطّ عليه وخطّ على ابن مسعود رضي الله عنه خطّاً ليثبته بذلك، قال: فجعلت أهال وأرى أمثال النسور تمشي في دفوفها وسمعت لغطاً شديداً حتى خفت على نبي الله ﷺ ، ثم تلا القرآن فلما رجع رسول الله ﷺ قلت: يا رسول الله ما اللغط الذي سمعت؟ قال ﷺ : « اختصموا في قتيل فقضي بينهم بالحق » رواه ابن جرير وابن أبي حاتم، فهذه الطرق كلها تدل على أنه ﷺ ذهب إلى الجن قصداً فتلا عليهم القرآن ، ودعاهم إلى الله عز وجل ، وشرع الله تعالى لهم على لسانه ما هم محتاجون إليه في ذلك الوقت . وقد يحتمل أن أول مرة سمعوه يقرأ القرآن لم يشعر بهم كما قاله ابن عباس رضي الله عنهما . ثم بعد ذلك وفدوا إليه كما رواه ابن مسعود رضي الله

عنه ، وأما ابن مسعود رضي الله عنه فإنه لم يكن مع رسول الله ﷺ حال مخاطبته للجن ودعائه إياهم ، وإنما كان بعيداً منه ولم يخرج مع النبي ﷺ أحد سواه ، ومع هذا لم يشهد حال المخاطبة ، هذه طريقة البيهقي . وقد يحتمل أن يكون أول مرة خرج إليهم لم يكن معه ﷺ ابن مسعود رضي الله عنه ولا غيره ، كما هو ظاهر سياق الرواية الأولى من طريق الإمام أحمد وهي عند مسلم ، ثم بعد ذلك خرج معه ليلة أخرى – والله أعلم – كما روى ابن أبي حاتم في تفسير ﴿ **قل أوحي إليَّ** ﴾ من حديث ابن جريج قال : عبد العزيز بن عمر : أما الجن الذين لقوه بنخلة فَجنُّ نينوى ، وأما الجن الذين لقوه بمكة فَجِنُّ نصيبين ، وتأوله البيهقي على أنه يقول : فبتنا بشر ليلة بات بها قوم على غير ابن مسعود رضي الله عنه ممن لم يعلم بخروجه ﷺ إلى الجن ، وهو محتمل على بعد والله أعلم . وقد روى الحافظ أبو بكر البيهقي عن سعيد بن عمرو قال كان أبو هريرة رضي الله عنه يتبع رسول الله ﷺ بإداوة لوضوئه وحاجته فأدركه يوماً فقال : « من هذا ؟ » قال : أنا أبو هريرة قال ﷺ : « ائتني بأحجار أستنج بها ولا تأتني بعظم ولا روثة » فأتيته بأحجار في ثوبي فوضعتها إلى جنبه حتى إذا فرغ وقام اتبعته فقلت : يارسول الله ما بال العظم والروثة ؟ قال ﷺ : « أتاني وفد جن نصيبين فسألوني الزاد فدعوت الله تعالى لهم أن لا يمروا بروثة ولا عظم إلا وجدوه طعاماً » أخرجه البخاري في صحيحه ، فهذا يدل – مع ما تقدم – على أنهم وفدوا عليه بعد ذلك . وسنذكر إن شاء الله تعالى ما يدل على تكرار ذلك . وقد روي عن ابن عباس غير ما روي عنه أولاً من وجه جيد فروى ابن جرير عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى ﴿ **وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن** ﴾ الآية قال : كانوا سبعة نفر من أهل نصيبين فجعلهم رسول الله ﷺ رسلاً إلى قومهم . فهذا يدل على أنه قد روى القصتين . وروى ابن أبي حاتم عن ابن جريج عن مجاهد ﴿ **وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن** ﴾ الآية قال : كانوا سبعة نفر : ثلاثة من أهل حران ، وأربعة من أهل نصيبين ، وكانت أسماؤهم حسى وحسى ومنسى وساصر وناصر والأردوبيان والأحتم ، وذكر أبو حمزة الثمالي أن هذا الحي من الجن كان يقال لهم : بنو الشيصبان وكانوا أكثر الجن عدداً وأشرفهم نسباً ، وهم كانوا عامة جنود إبليس وروى سفيان الثوري عن ابن مسعود رضي الله عنه : كانوا تسعة ، أحدهم زوبعة أتوه في أصل نخلة ، وتقدم عنهم أنهم كانوا خمسة عشر ، وفي رواية أنهم كانوا على ستين راحلة ، وتقدم عنه أن اسم سيدهم وردان وقيل : كانوا ثلثمائة وتقدم عن عكرمة أنهم كانوا اثني عشر ألفاً . فلعل هذا الاختلاف دليل على تكرر وفادتهم عليه ﷺ ، ومما يدل

على ذلك ما رواه البخاري في صحيحه عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: ما سمعت عمر رضي الله عنه يقول لشيء قط إني لأظنه هكذا إلا كان كما يظن، بينما عمر بن الخطاب رضي الله عنه جالس إذ مَرّ به رجل جميل فقال: لقد أخطأ ظني أو أن هذا على دينه في الجاهلية، أو لقد كان كاهنهم، عليّ بالرجل، فدعي له فقال له ذلك فقال ما رأيت كاليوم استقبل به رجل مسلم، قال: فإني أعزم عليك إلا ما أخبرتني قال: كنت كاهنهم في الجاهلية، قال: فما أعجب ما جاءتك به جنيتك؟ قال: بينما أنا يوماً في السوق جاءتنى أعرف فيها الفزع فقالت:

ألم تر الجن وإبلاسها ويأسها من بعد إنكاسها ولحوقها بالقلاص وأحلاسها

قال عمر رضي الله عنه: صدق، بينما أنا نائم عند آلهتهم إذ جاء رجل بعجل فذبحه فصرخ به صارخ، لم أسمع صارخاً قط أشد صوتاً منه يقول: يا جليح أمر نجيح رجل فصيح يقول: لا إله إلا الله، قال: فوثب القوم فقلت: لا أبرح حتى أعلم ما وراء هذا ثم نادى: يا جليح أمر نجيح رجل فصيح يقول لا إله إلا الله، فقمت فما نشبنا أن قيل هذا نبي. هذا سياق البخاري، وقد رواه البيهقي، ثم قال: وظاهر هذه الرواية يوهم أن عمر رضي الله عنه بنفسه سمع الصارخ يصرخ من العجل الذي ذبح، وكذلك هو صريح في رواية ضعيفة عن عمر رضي الله عنه، وسائر الروايات تدل على أن هذا الكاهن هو الذي أخبر بذلك عن رؤيته وسماعه والله أعلم، وهذا الذي قاله البيهقي هو المتجه، وهذا الرجل هو سواد بن قارب، وقد ذكرت هذا مستقصى في سيرة عمر رضي الله عنه، فمن أراده فليأخذه من ثم، ولله الحمد والمنة. وقال البيهقي: حديث سواد بن قارب ويشبه أن يكون هذا هو الكاهن الذي لم يذكر اسمه في الحديث الصحيح، عن البراء رضي الله عنه قال: بينما عمر بن الخطاب رضي الله عنه يخطب الناس على منبر رسول الله ﷺ إذ قال: أيها الناس أفيكم سواد بن قارب؟ قال: فلم يجبه أحد تلك السنة، فلما كانت السنة المقبلة قال: أيها الناس أفيكم سواد بن قارب؟ قال فقلت: يا أمير المؤمنين وما سواد بن قارب؟ قال: فقال له عمر رضي الله عنه: إن سواد بن قارب كان بدء إسلامه شيئاً عجيباً، فبينما نحن كذلك إذ طلع سواد بن قارب. قال: فقال له عمر رضي الله عنه يا سواد حدثنا ببدء إسلامك كيف كان؟ قال سواد رضي الله عنه: فإني كنت نازلاً بالهند وكان لي رئي من الجن، قال: فبينا أنا ذات ليلة نائم إذ جاءني في منامي ذلك قال: قم، فافهم، واعقل، إن كنت تعقل قد بعث رسول من لؤي بن غالب ثم أنشأ

يقول .

عجبت للجن وتحساسها — وشدها العيس بأحلامها
تهوي إلى مكة تبغي الهدى — ما خيّر الجن كأنجاسها
فانهض إلى الصفوة من هاشم — واسم بعينيك إلى راسها

قال : ثم أنبهني فأفزعني وقال : ياسواد بن قارب إن الله عز وجل بعث نبياً فانهض إليه تهتد وترشد، فلما كان من الليلة الثانية أتاني فأنبهني ثم أنشأ يقول:

عجبت للجن وتطلابها — وشدها العيس بأقتابها
تهوي إلى مكة تبغي الهدى — ليس قداماها كأذنابها
فانهض إلى الصفوة من هاشم — واسم بعينيك إلى قابها

فلما كان في الليلة الثالثة أتاني فأنبهني ثم قال:

عجبت للجن وتخبارها — وشدها العيس بأكوارها
تهوي إلى مكة تبغي الهدى — ليس ذوو الشر كأخيارها
فانهض إلى الصفوة من هاشم — مامؤمنو الجن ككفارها

قال : فلما سمعته تكرر ليلة بعد ليلة وقع في قلبي حب الإسلام من أمر رسول الله ﷺ ماشاء الله، قال: فانطلقت إلى رحلي فشددته على راحلتي فما حللت نسعه ولا عقدت أخرى حتى أتيت رسول الله ﷺ ، فإذا هو بالمدينة – يعني مكة – والناس عليه كعرف الفرس، فلما رآني النبي ﷺ قال « مرحبا بك يا سواد بن قارب قد علمنا ماجاء بك » قال : قلت يارسول الله قد قلت شعراً فاسمعه مني ، قال ﷺ « قل يا سواد » فقلت :

أتاني رئي بعد ليل وهجعة — ولم يك فيما قد بلوت بكاذب
ثلاث ليال قوله كل ليلة — أتاك رسول من لؤي بن غالب
فشمّرت عن ساقي الإزار ووسطت — بي الدعالب الوجناء بين السباسب
فأشهد أن الله لارب غيره — وأنك مأمون على كل غائب
وأنك أدنى المرسلين وسيلة — إلى الله ياابن الأكرمين الأطايب
فمرنا بما يأتيك ياخير مرسَل — وإن كان فيما جاء شيب الذوائب
وكن لى شفيعاً يوم لاذو شفاعةٍ — سواك بمغنٍ عن سواد بن قارب

قال: فضحك النبي ﷺ حتى بدت نواجذه وقال لي: «أفلحت يا سواد»، فقال له عمر رضي الله عنه: هل يأتيك رئيك الآن؟ فقال: منذ قرأت القرآن لم يأتني، ونعم العوض كتاب الله عز وجل من الجن. ثم أسنده البيهقي من وجهين آخرين. ومما يدل على وفادتهم إليه ﷺ بعد ما هاجر إلى المدينة الحديث الذي رواه الحافظ أبو نعيم في كتاب (دلائل النبوة) عن عمرو بن غيلان الثقفي قال: أتيت عبد الله بن مسعود رضي الله عنه فقلت له: حُدِّثْتُ أنك كنت مع رسول الله ﷺ ليلة وفد الجن. قال: أجل، قلت: حدثني كيف كان شأنه! فقال: إن أهل الصفة أخذ كل رجل منهم رجل يعشيه وتركت فلم يأخذني أحد منهم، فمرَّ بي رسول الله ﷺ فقال: «من هذا؟» فقلت: أنا ابن مسعود، فقال ﷺ: «ماأخذك أحد يعشيك؟» فقلت: لا، قال ﷺ: «فانطلق لعلي أجد لك شيئاً» قال: فانطلقنا حتى أتى رسول الله ﷺ حجرة أم سلمة رضي الله عنها فتركني قائماً ودخل إلى أهله، ثم خرجت الجارية فقالت: يا ابن مسعود إن رسول الله ﷺ لم يجد لك عشاء فارجع إلى مضجعك. فرجعت إلى المسجد فجمعت حصباء المسجد فتوسدته والتففت بثوبي، فلم ألبث إلا قليلاً حتى جاءت الجارية فقالت: أجب رسول الله فأتبعتها وأنا أرجو العشاء، حتى إذا بلغت مقامي خرج رسول الله ﷺ وفي يده عسيب من نخل فعرض به على صدري فقال ﷺ: «أتنطلق أنت معي حيث انطلقت؟» قلت: ما شاء الله، فأعادها علي ثلاث مرات كل ذلك أقول: ما شاء الله، فانطلق وانطلقت معه حتى أتينا بقيع الغرقد، فخطَّ ﷺ بعصاه خطّاً ثم قال: «اجلس فيها ولا تبرح حتى آتيك» ثم انطلق يمشي وأنا أنظر إليه خلال النخل، حتى إذا كان من حيث لا أراه ثارت قبله العجاجة السوداء، ففرقت فقلت ألحق برسول الله ﷺ، فإني أظنّ أنّ هوازن مكروا برسول الله ﷺ ليقتلوه، فأسعى إلى البيوت فأستغيث الناس، فذكرت أنّ رسول الله ﷺ أوصاني أن لا أبرح مكاني الذي أنا فيه، فسمعت رسول الله ﷺ يقرعهم بعصاه ويقول «اجلسوا» فجلسوا حتى كاد ينشق عمود الصبح، ثم ثاروا وذهبوا فأتاني، رسول الله ﷺ فقال: «أنمت بعدي؟» فقلت: لا ولقد فزعت الفزعة الأولى حتى رأيت أن آتي البيوت فأستغيث الناس، حتى سمعتك تقرعهم بعصاك وكنت أظنها هوازن مكروا برسول الله ﷺ ليقتلوه، فقال: «لو أنك خرجت من هذه الحلقة ماأمنت عليك أن يختطفك بعضهم، فهل رأيت من شيء منهم؟» فقلت: رأيت رجالاً سوداً مستثفرين بثياب بيض؛ فقال رسول الله ﷺ: «أولئك وفد جنّ نصيبين أتوني فسألوني الزاد والمتاع فمتعتهم بكل عظم حائل،

أو روثة أو بعرة » قلت : فما يغني عنهم ذلك ؟ قال ﷺ : « إنهم لا يجدون عظماً إلا وجدوا عليه لحمه الذي كان عليه يوم أكل ، ولا روثة إلا وجدوا فيها حبها الذي كان فيها يوم أكلت ، فلا يستنقي أحد منكم بعظم ولا بعرة » وهذا إسناد غريب جداً، ولكن فيه رجل مبهم لم يسم، والله تعالى أعلم . وقد روى الحافظ أبو نعيم عن الزبير بن العوام رضي الله عنه قال : صلى بنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح في مسجد المدينة فلما انصرف قال « أيكم يتبعني إلى وفد الجن الليلة ؟ فأسكت القوم ثلاثاً فمرّ بي فأخذ بيدي فجعلت أمشي معه حتى حبست عنا جبال المدنية كلها وأفضينا إلى أرض برازا فإذا رجال طوال كأنهم الرماح، مستثفرين بثيابهم من بين أرجلهم ، فلما رأيتهم غشيتني رعدة شديدة، ثم ذكر نحو حديث ابن مسعود المتقدم وهذا حديث غريب والله أعلم .

ومما يتعلق بوفود الجنّ ما رواه أبو نعيم عن حصين بن عمر: أخبرني عبيد المكتب عن إبراهيم قال: خرج نفر من أصحاب عبد الله يريدون الحج، حتى إذا كانوا في بعض الطريق إذا هُمْ بحية تنثني على الطريق أبيض ينفح منه ريح المسك، فقلت لأصحابى : امضوا فلست ببارح حتى أنظر إلى ما يصير إليه أمر هذه الحية قال : فما لبثت أن ماتت فعمدت إلى خرقة بيضاء، فلففتها فيها ، ثم نحيتها عن الطريق ، فدفنتها وأدركت أصحابي في المتعشى . قال: فوالله إنا لقعود إذ أقبل أربع نسوة من قبل المغرب ، فقالت: واحدة منهنّ : أيكم دفن عمراً ؟ قلنا : ومن عمرو ؟ قالت : أيكم دفن الحية ؟ قال: فقلت : أنا ، قالت: أما والله لقد دفنت صواماً قواماً يأمر بما أنزل الله تعالى ، ولقد آمن بنبيكم وسمع صفته من السماء قبل أن يبعث بأربعمائة عام، قال الرجل: فحمدنا الله تعالى ثم قضينا حجتنا ثم مررت بعمر بن الخطاب رضي الله عنه بالمدينة فأنبأته بأمر الحية فقال: صدقت، سمعت رسول الله ﷺ يقول: « لقد آمن بي قبل أن أبعث بأربعمائة سنة » وهذا حديث غريب جداً، والله أعلم ، قال أبو نعيم : وقد روى الثوري عن أبي إسحاق عن الشعبي عن رجل من ثقيف بنحوه، وروى عبد الله بن أحمد الظهراني عن صفوان ابن المعطل – هو الذي نزل ودفن تلك الحية من بين الصحابة – وأنهم قالوا إنه آخر التسعة موتاً الذين أتوا رسول الله ﷺ يستمعون القرآن، وروى أبو نعيم عن معاذ بن معمر قال : كنت جالساً عند عثمان بن عفان رضي الله عنه فجاء رجل فقال: ياأمير المؤمنين إني كنت بفلاة من الأرض فذكر أنه رأى ثعبانين اقتتلا ، ثم قتل أحدهما الآخر ، قال: فذهبت إلى المعترك فوجدت حيات كثيرة مقتولة، وإذ ينفح من بعضها ريح المسك، فجعلت أشمها واحدة واحدة، حتى وجدت ذلك من حية صفراء رقيقة،

فلففتها في عمامتي ودفنتها ، فبينا أنا أمشي إذ ناداني مناد : ياعبد الله لقد هديت ، هذان حيان من الجن بنو شعيبان وبنوقيس التقوا فكان من القتلى ما رأيت ، واستشهد الذي دفنته ، وكان من الذين سمعوا الوحي من رسول الله ﷺ قال : فقال عثمان لذلك الرجل : إن كنت صادقاً فقد رأيت عجباً ، وإن كنت كاذباً فعليك كذبك) .

فهم بعضهم من النصوص التي ذكرت بمناسبة الكلام عن جنّ نصيبين أن كل عظم هو غذاء للجن إلى قيام الساعة، وكل روث هو علف لدوابهم ، والذي فهمته من النصوص أنّ ذلك كان معجزة لرسول الله ﷺ وكرامة لجنّ نصيبين فقط .

وقد تحدّث صاحب الظلال حديثاً مسهباً عن الجن بمناسبة ذكرهم في السورة فقال : (إن ذكر القرآن لحادث صرف نفر من الجن ليستمعوا القرآن من النبي - ﷺ - وحكاية ما قالوا وما فعلوا .. هذا وحده كافٍ بذاته لتقرير وجود الجن ، ولتقرير وقوع الحادث . ولتقرير أن الجن هؤلاء يستطيعون أن يسمعوا للقرآن بلفظه العربي المنطوق ، كما يلفظه رسول الله - ﷺ - ولتقرير أن الجن خلق قابلون للإيمان وللكفران ، مستعدون للهدى وللضلال .. وليس هنالك من حاجة إلى زيادة تثبيت أو توكيد لهذه الحقيقة ؛ فما يملك إنسان أن يزيد الحقيقة التي يقررها الله - سبحانه - ثبوتا . ولكنا نحاول إيضاح هذه الحقيقة في التصور الإنساني . إن هذا الكون من حولنا حافل بالأسرار ، حافل بالقوى والخلائق المجهولة لنا كنهاً وصفةً وأثراً . ونحن نعيش في أحضان هذه القوى والأسرار نعرف منها القليل ونجهل منها الكثير . وفي كل يوم نكشف بعض هذه الأسرار وندرك بعض هذه القوى ، ونتعرف إلى بعض هذه الخلائق . تارة بذواتها . وتارة بصفاتها . وتارة بمجرد آثارها في الوجود من حولنا . ونحن ما نزال في أول الطريق . طريق المعرفة لهذا الكون ، الذي نعيش نحن وآباؤنا وأجدادنا ، ويعيش أبناؤنا وأحفادنا ، على ذرة من ذراته الصغيرة الصغيرة . هذا الكوكب الأرضي الذي لا يبلغ أن يكون شيئاً يذكر في حجم الكون أو وزنه ! وما عرفناه اليوم - ونحن في أول الطريق - يعد بالقياس إلى معارف البشرية قبل خمسة قرون فقط عجائب أضخم من عجيبة الجن . ولو قال قائل للناس قبل خمسة قرون عن شيء من أسرار الذرة التي نتحدث عنها اليوم لظنوه مجنوناً ، أو لظنوه يتحدث عما هو أشد غرابة من الجن قطعاً !

ونحن نعرف ونكشف في حدود طاقتنا البشرية ، المعدّة للخلافة في هذه الأرض ، ووفق مقتضيات هذه الخلافة ، وفي دائرة ما سخّره الله لنا ليكشف لنا عن أسراره ، ولتكون لنا ذلولاً ، كيما نقوم بواجب الخلافة في الأرض .. ولا نتعدى معرفتنا وكشوفنا في طبيعتها وفي مداها .. مهما امتد بنا الأجل - ومهما سحر لنا من قوى الكون وكشف لنا من أسراره - لا تتعدى تلك الدائرة . دائرة ما نحتاجه للخلافة في هذه الأرض . وفق حكمة الله وتقديره . وسنكشف كثيراً ، وسنعرف كثيراً ، وستتفتح لنا عجائب من أسرار هذا الكون وطاقاته ، مما قد تعتبر أسرار الذرة بالقياس إليه لعبة أطفال ! ولكننا سنظل في حدود الدائرة المرسومة للبشر في المعرفة . وفي حدود قول الله - سبحانه - ﴿ **وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً** ﴾(الإسراء: ٨٥) . قليلاً بالقياس إلى ما في هذا الوجود من أسرار وغيوب لا يعلمها إلا خالقه وقيومه . وفي حدود تمثيله لعلمه غير المحدود ؛ ووسائل المعرفة البشرية المحدودة بقوله : ﴿ **ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله** ﴾(لقمان: ٢٧) . فليس لنا - والحالة هذه - أن نجزم بوجود شيء أو نفيه . وبتصوره أو عدم تصوره . من عالم الغيب المجهول ، ومن أسرار هذا الوجود وقواه، لمجرد أنه خارج عن مألوفنا العقلي أو تجاربنا المشهودة. ونحن لم ندرك بعد كل أسرار أجسامنا وأجهزتها وطاقاتها، فضلاً عن إدراك أسرار عقولنا وأرواحنا ! وقد تكون هنالك أسرار ليست داخلة في برنامج ما يكشف لنا عنه أصلاً. وأسرار ليست داخلة في برنامج ما يكشف لنا عن كنهه ، فلا يكشف لنا إلا عن صفته أو أثره أو مجرد وجوده ، لأن هذا لايفيدنا في وظيفة الخلافة في الأرض . فإذا كشف الله لنا عن القدر المقسوم لنا من هذه الأسرار والقوى . عن طريق كلامه - لا عن طريق تجاربنا ومعارفنا الصادرة من طاقتنا الموهوبة لنا من لدنه أيضاً - فسبيلنا في هذه الحالة أن نتلقّى هذه الهبة بالقبول والشكر والتسليم . نتلقاها كما هي فلا نزيد عليها ولاننقص منها . لأن المصدر الوحيد الذي نتلقى عنه مثل هذه المعرفة لم يمنحنا إلا هذا القدر بلا زيادة . وليس هنالك مصدر آخر نتلقى عنه مثل هذه الأسرار ! ومن هذا النص القرآني . ومن نصوص سورة الجن . والأرجح أنها تعبير عن الحادث نفسه . ومن النصوص الأخرى المتناثرة في القرآن عن الجن . ومن الآثار النبوية الصحيحة عن هذا الحادث . نستطيع أن ندرك بعض الحقائق عن الجن .. ولا زيادة .. هذه الحقائق تتلخص في أن هنالك خلقا اسمه الجن . مخلوق من النار . لقول إبليس في الحديث عن آدم : ﴿ **أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين** ﴾ (ص: ٧٦) .. وإبليس من

الجن لقول الله تعالى : ﴿ **إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه** ﴾ (الكهف : ٥٠) .. فأصله من أصل الجن . وأن هذا الخلق له خصائص غير خصائص البشر . منها خلقته من نار ، ومنها أنه يرى الناس ولا يراه الناس ، لقوله تعالى عن إبليس – وهو من الجن – : ﴿ **إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم** ﴾ (الأعراف : ٢٧) .. وأن له تجمعات معينة تشبه تجمعات البشر في قبائل وأجناس . للقول السابق : ﴿ **إنه يراكم هو وقبيله ..** ﴾ وأن له قدرة على الحياة في هذا الكوكب الأرضي – لا ندري أين – لقوله تعالى : لآدم وإبليس معاً : ﴿ **اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين** ﴾ (البقرة : ٣٦) .. والجن الذين سخروا لسليمان عليه السلام كانوا يقومون له بأعمال في الأرض تقتضي أن يكونوا مزودين بالقدرة على الحياة فيها . وأن له قدرة كذلك على الحياة خارج هذا الكوكب لقول الله تعالى حكاية عن الجن : ﴿ **وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرساً شديداً وشهباً * وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع ، فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا** ﴾ (الجن : ٨ – ٩) .. وأنه يملك التأثير في إدراك البشر وهو مأذون في توجيه الضالين منهم – غير عباد الله – للنصوص السابقة ، ولقوله تعالى في حكاية حوار إبليس اللعين : ﴿ **قال : فبعزتك لأغوينهم أجمعين * إلا عبادك منهم المخلصين** ﴾ (ص : ٨٣ – ٨٤) .. وغير هذا من النصوص المماثلة . ولكننا لا نعرف كيف يوسوس ويوجه وبأي أداة . وأنه يستطيع أن يسمع صوت الإنسان ويفهم لغته ، بدلالة استماع نفر من الجن للقرآن وفهمه والتأثر به . وأنه قابل للهدى وللضلال بدلالة قول هذا النفر في سورة الجن : ﴿ **وأنا منّا المسلمون ومنّا القاسطون . فمن أسلم فأولئك تحروا رشدا * وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا** ﴾ (الآية : ١٤ – ١٥) .. وبدليل ذهابهم إلى قومهم منذرين يدعونهم إلى الإيمان ، بعد ما وجدوه في نفوسهم ، وعلموا أن قومهم لم يجدوه بعد .

٤ – بمناسبة قوله تعالى عن الجن : ﴿ **فلما قضي ولّوا إلى قومهم منذرين** ﴾ قال ابن كثير : (وقد استدل بهذه الآية على أنه في الجن نُذرُ وليس فيهم رسل ولاشك أن الجن لم يبعث الله تعالى منهم رسولاً لقوله تعالى ﴿ **وما أرسلنا قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم من أهل القرى** ﴾ (يوسف : ١٠٩) وقال عز وجل ﴿ **وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق** ﴾ (الفرقان : ٢٠) وقال عن إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام ﴿ **وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب** ﴾ (الحديد : ٢٦) فكل نبي بعثه الله تعالى بعد إبراهيم فمن ذريته وسلالته فأما قوله تبارك وتعالى في

سورة الأنعام ﴿ **يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم** ﴾ (الأنعام: ١١٥) فالمراد من مجموع الجنسين، فيصدق على أحدهما وهو الإنس كقوله ﴿ **يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان** ﴾ (الرحمن: ٢٢) أي: أحدهما) .

٥ - بمناسبة قوله تعالى على لسان الجن عن القرآن . ﴿ **يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم** ﴾ قال ابن كثير : (فإن القرآن مشتمل على شيئين خبر وطلب ، فخبره صدق وطلبه عدل عدلاً كما قال تعالى ﴿ **وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً** ﴾ (الأنعام: ١١٥) وقال سبحانه وتعالى ﴿ **هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق** ﴾ (الصف: ٩) فالهدى هو العلم النافع ودين الحق هو العمل الصالح ، وهكذا قالت الجن ﴿ **يهدي إلى الحق** ﴾ في الاعتقادات ﴿ **وإلى طريق مستقيم** ﴾ أي: في العمليات) .

٦ - بمناسبة قوله تعالى على لسان الجن في قولهم لأقوامهم ﴿ **أجيبوا داعي الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم** ﴾ قال ابن كثير : (فيه دلالة على أنه تعالى أرسل محمداً ﷺ إلى الثقلين الجن والإنس ، حيث دعاهم إلى الله تعالى وقرأ عليهم السورة التي فيها خطاب الفريقين وتكليفهم ، ووعدهم ووعيدهم وهي سورة الرحمن ولهذا قال: ﴿ **أجيبوا داعي الله وآمنوا به** ﴾ .

٧ ـ بمناسبة قوله تعالى ﴿ **فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل** ﴾ قال ابن كثير : (وقد اختلفوا في تعداد أولي العزم على أقوال وأشهرها : أنهم: نوح وإبراهيم وموسى وعيسى وخاتم الأنبياء كلهم محمد ﷺ قد نص الله تعالى على أسمائهم من بين الأنبياء في آيتين من سورتي الأحزاب والشورى ، وقد يحتمل أن يكون المراد بأولي العزم جميع الرسل فتكون (من) في قوله من الرسل لبيان الجنس والله أعلم ، وقد روى ابن أبي حاتم عن مسروق قال : قالت لي عائشة رضي الله عنها : ظل رسول الله ﷺ صائماً ثم طواه، ثم ظل صائماً ثم طواه، ثم ظل صائماً ثم قال : « يا عائشة إن الدنيا لا تنبغي لمحمد ولا لآل محمد ، يا عائشة إن الله تعالى لم يرض من أولي العزم من الرسل إلا بالصبر على مكروهها والصبر عن محبوبها، ثم لم يرض مني إلا أن يكلفني ما كلفهم فقال ﴿ **فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل** ﴾ وإني والله لأصبرن كما صبروا جهدي ولا قوة إلا بالله » .

☆ ☆ ☆

كلمة أخيرة في سورة الأحقاف وزمرة آل حمّ :

سورة الأحقاف هي آخر سورة من زمرة آل حمّ ، وقد اشتركت آل حمّ كلها في كونها تحدثت عن القرآن الكريم ، وعن مظاهر من إعجازه ، وناقشت الكافرين فيه ، ودار تفصيلها بين مقدمة سورة البقرة ، والمقطع الأول منها ، ومن ثم فقد كانت كلها تبني إما في الأساس ، وإما في الطريق ، ومن ثم فإن دراستها تشكل جزءاً كبيراً من فقه الأساس ، وفقه الطريق ، وكانت سورة الأحقاف هي السورة السابعة فيها والأخيرة ، وقد فصّلت كما رأينا في الطريقين : طريق الإيمان ، وطريق الفسوق ، فعمّقت قضية الاهتداء بالقرآن ، وعمّقت قضية العبادة لله وحده ، وحذّرت وأنذرت ، وبشّرت ووعدت وأوعدت ، وناقشت وأقامت الحجة ، وخاطبت النفس والعقل ، وكان لها سياقها الخاص ، وأدت دورها في خدمة السياق القرآني العام ، وبيّنت في الطريق إلى التقوى والطريق إلى الفسوق ومن ثم فقد انتهت بقوله تعالى : ﴿ **فهل يهلك إلا القوم الفاسقون** ﴾ ، ولننتقل إلى سورة القتال وهي السورة الثالثة من المجموعة الخامسة في قسم المثاني .

☆ ☆ ☆



وهي السورة السابعة والأربعون بحسب الرسم القرآني

وهي السورة الثالثة من المجموعة الخامسة من قسم المثاني

وآياتها ثمان وثلاثون آية

وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحَمْدُ للهِ ، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى رَسُولِ اللهِ وَآلِهِ وَأَصْحَابِهِ

رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا ، إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ

بين يدي سورة محمد ﷺ :

قال الألوسي في تقديمه لهذه السورة : (وتسمى سورة القتال ، وهي مدنية عند الأكثرين ولم يذكروا استثناء ، وعن ابن عباس وقتادة أنها مدنية إلا قوله تعالى : ﴿ **وكأين من قرية** ﴾ إلى آخره ، فإنه صلى الله تعالى عليه وسلم لما خرج من مكة إلى الغار التفت إليه وقال : «أنت أحب بلاد الله تعالى إلى الله ، وأنت أحب بلاد الله تعالى إليّ ولولا أن أهلك أخرجوني منك لم أخرج منك» فأنزل الله تعالى ذلك فيكون مكياً بناء على أن ما نزل في طريق المدينة قبل أن يبلغها النبي ﷺ ـــ أعني ما نزل في سفر الهجرة ـــ من المكي اصطلاحاً ، كما يؤخذ من أثر أخرجه عثمان بن سعيد الدارمي بسنده إلى يحيىٰ بن سلام ، وعدة آيها أربعون في البصري ، وثمان وثلاثون في الكوفي ، وتسع بالتاء الفوقية وثلاثون فيما عداهما ، والخلاف في قوله تعالى : ﴿ **حتى تضع الحرب أوزارها** ﴾ وقوله تعالى : ﴿**لذّة للشاربين**﴾ ولا يخفى قوة ارتباط أولها بآخر السورة قبلها ، واتصاله وتلاحمه بحيث لو سقطت من البين البسملة لكان متصلاً واحداً لا تنافر فيه كالآية الواحدة ، آخذاً بعضه بعنق بعض ، وكان صلى الله تعالى عليه وسلم على ماأخرج الطبراني في الأوسط عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما يقرؤها في صلاة المغرب) .

وقال صاحب الظلال : (هذه السورة مدنية ، ولها اسم آخر . (وهو) سورة القتال . وهو اسم حقيقي لها . فالقتال هو موضوعها . والقتال هو العنصر البارز فيها . والقتال في صورها وظلالها . والقتال في جرسها وإيقاعها .

القتال موضوعها . فهي تبدأ ببيان حقيقة الذين كفروا وحقيقة الذين آمنوا في صيغة هجوم أدبي على الذين كفروا ، وتمجيد للذين آمنوا ، مع إيحاء بأن الله عدو للأولين وليٌّ للآخرين ، وأن هذه حقيقة ثابتة في تقدير الله سبحانه . فهو إذن إعلان حرب منه تعالى على أعدائه وأعداء دينه منذ اللفظ الأول في السورة : ﴿ **الذين كفروا وصدّوا عن سبيل الله أضل أعمالهم * والذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما نُزّل على محمد وهو الحق من ربهم كَفَّر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم * ذلك بأن الذين كفروا اتّبعوا الباطل وأن الذين آمنوا اتّبعوا الحق من ربهم كذلك يضرب الله للناس أمثالهم** ﴾ .

وعقب إعلان هذه الحرب من الله على الذين كفروا ، أمر صريح للذين آمنوا بخوض

الحرب ضدهم . في صيغة رنانة قوية ، مع بيان لحكم الأسرى بعد الإثخان في المعركة والتقتيل العنيف : ﴿ **فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشدّوا الوثاق فإما مَنًّا بعد وإما فداءً حتى تضع الحرب أوزارها** ﴾ .

ومع هذا الأمر بيان لحكمة القتال ، وتشجيع عليه ، وتكريم للاستشهاد فيه ، ووعد من الله بإكرام الشهداء ، وبالنصر لمن يخوض المعركة انتصاراً لله ، وبهلاك الكافرين وإحباط أعمالهم : ﴿ **ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلو بعضكم ببعض والذين قتلوا في سبيل الله فلن يضل أعمالهم * سيهديهم ويصلح بالهم * ويدخلهم الجنة عرفها لهم * يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم * والذين كفروا فتعساً لهم وأضل أعمالهم * ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل الله فأحبط أعمالهم** ﴾ .

ومعه كذلك تهديد عنيف للكافرين ، وإعلان لولاية الله ونصرته للمؤمنين ، وضياع الكافرين وخذلانهم وضعفهم وتركهم بلا ناصر ولا معين : ﴿ **أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ؟ دَمرَّ الله عليهم ، وللكافرين أمثالها * ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم** ﴾ . كذلك تهديد آخر للقرية التي أخرجت الرسول ﷺ : ﴿ **وكأيِّن من قرية هي أشدّ قوة من قريتك التي أخرجتك أهلكناهم فلا ناصر لهم** ﴾ .

ثم تمضي السورة بعد هذا الهجوم العنيف السافر في ألوان من الحديث حول الكفر والإيمان ، وحال المؤمنين وحال الكافرين في الدنيا والآخرة . فتفرق بين متاع المؤمن بالطيبات ، وتمتع الكافرين بلذائذ الأرض كالحيوان : ﴿ **إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم** ﴾ . كما تصف متاع المؤمنين في الجنة بشتى الأشربة الشهية من ماء غير آسن ، ولبن لم يتغير طعمه ، وخمر لذة للشاربين ، وعسل مصفى ، في وفر وفيض .. في صورة أنهار جارية .. ذلك مع شتى الثمرات ، ومع المغفرة والرضوان . ثم سؤال : أهؤلاء ﴿ **كمن هو خالد في النار وسقوا ماء حميما فقطّع أمعاءهم** ﴾ ؟ .

فإذا انقضت هذه الجولة الأولى في المعركة السافرة المباشرة بين المؤمنين والكافرين . أعقبها في السورة جولة مع المنافقين ، الذين كانوا هم واليهود بالمدينة يؤلفون خطرا على الجماعة الإسلامية الناشئة لا يقل عن خطر المشركين الذين يحاربونها من مكة وما حولها

من القبائل في تلك الفترة ، التي يبدو من الوقائع التي تشير إليها السورة أنها كانت بعد غزوة بدر ، وقبل غزوة الأحزاب وما تلاها من خضد شوكة اليهود ، وضعف مركز المنافقين (كما ذكرنا في تفسير سورة الأحزاب) .

والحديث عن المنافقين في هذه السورة يحمل ظلالها . ظلال الهجوم والقتال . منذ أول إشارة . فهو يصور تلهيهم عن حديث رسول الله ، وغيبة وعيهم واهتمامهم في مجلسه ، ويعقب عليه بما يدمغهم بالضلال والهوى : ﴿ **ومنهم من يستمع إليك حتى إذا خرجوا من عندك قالوا للذين أوتوا العلم : ماذا قال آنفا ؟ أولئك الذين طبع الله على قلوبهم واتبعوا أهواءهم** ﴾ .

ويهددهم بالساعة يوم لا يستطيعون الصحو ولا يملكون التذكر : ﴿ **فهل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة ؟ فقد جاء أشراطها . فأنىٰ لهم إذا جاءتهم ذكراهم ؟** ﴾ .

ثم يصور هلعهم وجبنهم وتهافتهم إذا ووجهوا بالقرآن يكلفهم القتال — وهم يتظاهرون بالإيمان — والفارق بينهم يومئذ وبين المؤمنين الصادقين : ﴿ **ويقول الذين آمنوا : لولا نزلت سورة ! فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين في قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشيّ عليه من الموت !** ﴾ .

ويحثهم على الطاعة والصدق والثبات . ويرذل اتجاهاتهم ، ويعلن عليهم الحرب والطرد واللعن : ﴿ **فأولى لهم * طاعة وقول معروف . فإذا عزم الأمر فلو صدقوا الله لكان خيراً لهم * فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطّعوا أرحامكم؟ * أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم** ﴾ .

ويفضحهم في توليهم للشيطان ، وفي تآمرهم مع اليهود ، ويهددهم بالعذاب عدا الموت بالفضيحة التي تكشف أشخاصهم فرداً فرداً في المجتمع الإسلامي ، الذي يدمجون أنفسهم فيه ، وهم ليسوا منه ، وهم يكيدون له : ﴿ **إن الذين ارتدوا على أدبارهم من بعد ما تبيَّن لهم الهدى ، الشيطان سوّل لهم وأملى لهم * ذلك بأنهم قالوا للذين كرهوا ما نزل الله : سنطيعكم في بعض الأمر . والله يعلم إسرارهم * فكيف إذا توفتهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم * ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه فأحبط أعمالهم * أم حسب الذين في قلوبهم مرض أن لن يخرج الله أضغانهم * ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم ، ولتعرفنَّهم في لحن القول . والله يعلم أعمالكم * ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم** ﴾ .

وفي الجولة الثالثة والأخيرة في السورة عودة إلى الذين كفروا من قريش ومن اليهود وهجوم عليهم : ﴿ **إن الذين كفروا وصدُّوا عن سبيل الله وشاقوا الرسول ــ من بعد ما تبيّن لهم الهدى ــ لن يضروا الله شيئاً وسيحبط أعمالهم** ﴾ .

وتحذير للذين آمنوا أن يصيبهم مثل ما أصاب أعداءهم : ﴿ **ياأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ، ولاتبطلوا أعمالكم * إن الذين كفروا وصدّوا عن سبيل الله ثم ماتوا وهم كفار ، فلن يغفر الله لهم** ﴾ ..

وتحضيض لهم على الثبات عند القتال : ﴿ **فلا تهنوا وتدعوا إلى السَلْم وأنتم الأعلون والله معكم ولن يتركم أعمالكم** ﴾ .

وتهوين من شأن الحياة الدنيا وأعراضها . وحضّ على البذل الذي يسره الله ، ولم يجعله استئصالاً للمال كله ، رأفة بهم ، وهو يعرف شح نفوسهم البشرية ، وتبرمها وضيقها لو أحفاهم في السؤال :

﴿ **إنما الحياة الدنيا لعب ولهو وإن تؤمنوا وتتقوا يؤتكم أجوركم ولايسألكم أموالكم * إن يسألكموها فَيُحْفِكم تبخلوا ويخرج أضغانكم** ﴾ .

وتختم السورة بما يشبه التهديد للمسلمين إن هم بخلوا بإنفاق المال ، وبالبذل في القتال : ﴿ **هاأنتم هؤلاء تُدْعَون لتنفقوا في سبيل الله فمنكم من يبخل ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه والله الغني وأنتم الفقراء وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لايكونوا أمثالكم** ﴾ ..

* * *

إنها معركة مستمرة من بدء السورة إلى ختامها ؛ يظللها جو القتال ، وتتسم بطابعه في كل فقراتها .

وجرس الفاصلة وإيقاعها منذ البدء كأنه القذائف الثقيلة : ﴿ **أعمالهم . بالهم . أمثالهم . أهواءهم . أمعاءهم ..** ﴾ . وحتى حين تخف فإنها تشبه تلويح السيوف في الهواء : ﴿ **أوزارها . أمثالها . أقفالها ..** ﴾ .

وهناك شدة في الصور كالشدة في جرس الألفاظ المعبرة عنها .. فالقتال أو القتل

يقول عنه : ﴿ **فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب** ﴾ .. والتقتيل والأسر يصوره بشدة : ﴿ **حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق** ﴾ .. والدعاء على الكافرين يجيء في لفظ قاس : ﴿ **فتعساً لهم وأضل أعمالهم** ﴾ .. وهلاك الغابرين يرسم في صورة مدوية ظلا ولفظا : ﴿ **دمّر الله عليهم وللكافرين أمثالها** ﴾ .. وصورة العذاب في النار تجيء في هذا المشهد : ﴿ **وسقوا ماءً حميماً فقطّع أمعاءهم** ﴾ .. وحالة الجبن والفزع عند المنافقين تجيء في مشهد كذلك عنيف : ﴿ **ينظرون إليك نظر المغشيّ عليه من الموت !** ﴾ .. حتى تحذير المؤمنين من التولي يجيء في تهديد نهائي حاسم : ﴿ **وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لايكونوا أمثالكم ..** ﴾ .

وهكذا يتناسق الموضوع والصور والظلال والإيقاع في سورة القتال ..) .

كلمة في سورة القتال ومحورها :

فصّلت سورة الأحقاف في الآيات الست التي تأتي بعد مقدمة سورة البقرة ، والتي تنتهي بقوله تعالى ﴿ **ومايضل به إلا الفاسقين** ﴾ وقد لاحظنا أنّ كلاً من مقطعيها ينتهي بكلمة الفسوق ﴿ **بما كنتم تفسقون** ﴾ ﴿ **فهل يهلك إلا القوم الفاسقون** ﴾ ..

بعد الآيات الست التي تأتي بعد مقدمة سورة البقرة يأتي قوله تعالى ﴿ **الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه** ﴾ وبعد سورة الأحقاف تأتي سورة القتال وهي مبدوءة بكلمة (الذين) . ﴿ **الذين كفروا وصدّوا عن سبيل الله أضل أعمالهم** ﴾ فكما كانت الآية (٢٧) في سورة البقرة شرحاً للفسوق فإن سورة القتال تشرح الفسوق ، وتشرح مايقابله ، وتبيّن لأهل الإيمان ماذا عليهم أن يفعلوا تجاه الفسوق وأهله .

وشرح الفسوق في سورة البقرة جاء امتداداً للآية السادسة من السورة نفسها ، ولذلك فإن الآيات الأولى من سورة القتال لها صلات كبيرة في كل من الآيتين السادسة والعشرين ، والسابعة والعشرين من سورة البقرة :

قال تعالى في سورة البقرة : ﴿ **إن الله لايستحيي أن يضرب مثلاً ما بعوضة فما فوقها فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم وأما الذين كفروا فيقولون ماذا**

أراد الله بهذا مثلاً يضل به كثيراً ويهدي به كثيراً ومايضل به إلا الفاسقين * الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ماأمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك هم الخاسرون ﴾ .

وقد بدأت سورة القتال بقوله تعالى : ﴿ **الذين كفروا وصدّوا عن سبيل الله أضل أعمالهم * والذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما نزِّل على محمد وهو الحق من ربهم كفَّر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم * ذلك بأن الذين كفروا اتبعوا الباطل وأن الذين آمنوا اتبعوا الحق من ربهم كذلك يضرب الله للناس أمثالهم** ﴾ .

لاحظ الاشتراك في المعاني بين آيتي سورة البقرة وهذه الآيات الثلاث من بداية سورة القتال ، لاحظ وجود كلمة (الضلال) في الجهتين ، ولاحظ ذكر الأمثال في الجهتين ، ولاحظ ورود كلمة (الحق) في الجهتين ، ولاحظ الصلة بين الصد عن سبيل الله في ابتداء سورة القتال ، وبين الإفساد في الأرض في سورة البقرة .

ثمّ لاحظ مايلي :

يرد في سورة القتال قوله تعالى : ﴿ **فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطِّعوا أرحامكم** ﴾ . لاحظ صلة ذلك بقوله تعالى ﴿ **الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ماأمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك هم الخاسرون** ﴾ .

يرد في سورة القتال قوله تعالى ﴿ **إن الذين ارتدوا على أدبارهم** ﴾ لاحظ صلة ذلك بقوله تعالى ﴿ **الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه** ﴾ فهذه الصلات الظاهرة بين ماذكرناه وبين آية سورة البقرة ترجّح أنّ هذه الآية هي محور السورة .

....

إذا صحّ أن هذه الآية هي محور سورة القتال ، فإن سورة القتال إذن تفصّل في محور سورة المائدة ، ومن ثم نجد تشابهاً بين آيات في سورة المائدة وآيات في سورة القتال :

ففي سورة المائدة يرد قوله تعالى : ﴿ **ياأيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه ...** ﴾ .

وفي سورة القتال يرد قوله تعالى : ﴿ **إن الذين ارتدوا على أدبارهم من بعد ماتبيّن**

هم الهدى .. ﴾ ويرد قوله تعالى ﴿ **وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لايكونوا أمثالكم** ﴾ .

وكنا ذكرنا من قبل أن سورة المائدة تحرّر من المعاني التي إذا وجدت لا يكون اهتداء بكتاب الله ولا إيمان ، فهي تكمّل عمل سورة النساء ؛ إذ تدل على الطريق : فواحدة تدل على الطريق ، وأخرى تحذّر من منعرجات الطريق ، وكما أن في سورتي النساء والمائدة من التكامل مارأيناه ، فإن بين سورتي الأحقاف والقتال من التكامل ما يشبه ذلك .

....

وأثناء الكلام عن سورة البقرة قلنا : إن قوله تعالى : ﴿ **الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ..** ﴾ دخل فيه الكافرون والمنافقون الذين تحدّثت عنهم مقدمة سورة البقرة ، وفي سورة القتال نجد كلاماً عن الكافرين ﴿ **الذين كفروا وصدّوا عن سبيل الله ...** ﴾ . ونجد كلاماً عن المنافقين : ﴿ **ومنهم من يستمع إليك حتى إذا خرجوا من عندك قالوا للذين أوتوا العلم ماذا قال آنفاً أولئك الذين طبع الله على قلوبهم واتبعوا أهواءهم** ﴾ .

ذكرنا من قبل أن السورة التي تفصّل محوراً من سورة البقرة تفصّل عادةً في هذا المحور ، وفي امتدادت معانيه في سورة البقرة ، أو في بعض امتدادات معانيه :

وإن من امتدادات معاني آية ﴿ **الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ..** ﴾ في سورة البقرة آيات القتال والإنفاق الأولى في سورة البقرة ﴿ **وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ..** ﴾ ﴿ **وأنفقوا في سبيل الله ولاتلقوا بأيديكم إلى التهلكة** ﴾ .

ولذلك نجد في سورة القتال : ﴿ **فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب ..** ﴾ ﴿ **هاأنتم هؤلاء تُدْعَون لتنفقوا في سبيل الله ..** ﴾ فالذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ، ويقطعون ماأمر الله به أن يوصل ، ويفسدون في الأرض ، لابدّ أن يقاتلوا ، ومن امتدادات المحور آيات القتال الثانية ﴿ **كتب عليكم القتال وهو كُرْهٌ لكم** ﴾ .. وسنرى كذلك صلة سورة القتال بذلك .

....

مقدمة السورة

وتمتدّ من الآية (١) إلى نهاية الآية (٦) وهذه هي :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۙ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ ﴿٣﴾ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ ۖ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾

التفسير :

﴿ **الذين كفروا** ﴾ بالله وآياته ﴿ **وصدّوا** ﴾ غيرهم ﴿ **عن سبيل الله** ﴾ أي : عن الإسلام ﴿ **أضل أعمالهم** ﴾ أي : أبطلها وأذهبها ولم يجعل لها ثواباً ولا جزاءً قال النسفي : (أي أبطلها وأحبطها ، وحقيقته : جعلها حثالة ضائعة ليس لها من يتقبّلها ويثيب عليها كالضالّة من الإبل ، وأعمالهم : ماعملوه في كفرهم من صلة الأرحام وإطعام الطعام ، أو ماعملوه من الكيد لرسول الله ﷺ والمؤمنين والصدّ عن سبيل الله ﴿ **والذين آمنوا وعملوا الصالحات** ﴾ آمنت قلوبهم وسرائرهم ، وانقادت لشرع الله

مقدمة السورة

وتمتدّ من الآية (١) إلى نهاية الآية (٦) وهذه هي :

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ
ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ
وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ
ٱتَّبَعُواْ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ ﴿٣﴾ فَإِذَا لَقِيتُمُ
ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ
وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن
لِّيَبْلُوَاْ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٤﴾
سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾

التفسير :

﴿ **الذين كفروا** ﴾ بالله وآياته ﴿ **وصدّوا** ﴾ غيرهم ﴿ **عن سبيل الله** ﴾ أي : عن الإسلام ﴿ **أضل أعمالهم** ﴾ أي : أبطلها وأذهبها ولم يجعل لها ثواباً ولا جزاءً قال النسفي : (أي أبطلها وأحبطها ، وحقيقته : جعلها حثالة ضائعة ليس لها من يتقبّلها ويثيب عليها كالضالّة من الإبل ، وأعمالهم : ماعملوه في كفرهم من صلة الأرحام وإطعام الطعام ، أو ماعملوه من الكيد لرسول الله ﷺ والمؤمنين والصدّ عن سبيل الله ﴿ **والذين آمنوا وعملوا الصالحات** ﴾ آمنت قلوبهم وسرائرهم ، وانقادت لشرع الله

جوارحهم وبواطنهم وظواهرهم ﴿ **وآمنوا بما نُزِّل على محمد** ﴾ قال ابن كثير : عطف خاص على عام ، وهو دليل على أنه شرط في صحة الإيمان بعد بعثته ﷺ قال النسفي : وهو القرآن ، وتخصيص الإيمان بالمنزل على رسوله ﷺ من بين ما يجب الإيمان به لتعظيم شأنه ﴿ **وهو** ﴾ أي : القرآن ﴿ **الحق من ربهم** ﴾ فلا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ﴿ **كفّر عنهم سيئاتهم** ﴾ أي : ستر بإيمانهم وعملهم الصالح ما كان منهم من الكفر والمعاصي لرجوعهم عنها وتوبتهم ﴿ **وأصلح بالهم** ﴾ أي : وأصلح حالهم وشأنهم بالتوفيق في أمور الدين ، وبالتسليط على الدنيا بما أعطاهم من النصرة والتأييد ﴿ **ذلك** ﴾ أي : إضلال أعمال أحد الفريقين ؛ وتكفير سيئات الثاني ﴿ **بأن الذين كفروا اتّبعوا الباطل** ﴾ قال ابن كثير : أي إنما أبطلنا أعمال الكفار وتجاوزنا عن سيئات الأبرار وأصلحنا شؤونهم ؛ لأن الذين كفروا اتّبعوا الباطل ، أي اختاروا الباطل على الحق ﴿ **وأن الذين آمنوا اتّبعوا الحقّ من ربهم** ﴾ وهو القرآن والمعنى : أنّ إضلال أعمال أحد الفريقين ، وتكفير سيئات الثاني ، وإصلاح باله كائن بسبب اتباع أولئك الباطل الذي لا حقيقة له ، واتباع هؤلاء الحق الذي هو القرآن ﴿ **كذلك** ﴾ أي : مثل ذلك الضرب ﴿ **يضرب الله** ﴾ أي : يبيّن الله ﴿ **للناس أمثالهم** ﴾ قال ابن كثير : أي يبين لهم مآل أعمالهم وما يصيرون إليه في معادهم ، أو إنما يضرب الله مثل الفريقين لأجل الناس ليعتبروا به . قال النسفي : وقد جعل اتّباع الباطل مثلاً لعمل الكافرين ، واتباع الحق مثلاً لعمل المؤمنين ، أو جعل الإضلال مثلاً لخيبة الكفار ، وتكفير السيئات مثلاً لفوز الأبرار .

كلمة في السياق :

في الآية التي سبقت محور السورة من سورة البقرة بيّن الله عز وجل أنّ هناك فريقين ﴿ **فأما الذين آمنوا فيعلمون أنّه الحق من ربهم** ﴾ ﴿ **وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلاً** ﴾ فهناك مؤمنون بأنّ القرآن حق ، وهناك كافرون ، ثم قال تعالى : ﴿ **يضل به كثيراً ويهدي به كثيراً** ﴾ فهناك ضالون ومهتدون ، ثم بيّن من هم هؤلاء الضالّون : ﴿ **وما يضل به إلا الفاسقين * الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك هم الخاسرون** ﴾ ومرجع صفات الفاسقين إلى الكفر والصدّ عن سبيل الله ، ومن ثم فإن الآيات الثلاث التي مرت معنا في سورة القتال ذكرت أن هناك فريقين : فريقاً كافراً صاداً عن سبيل

الله ، وفريقاً مؤمناً عاملاً بالإسلام ، مؤمناً بالقرآن الذي أنزله الله على محمد ﷺ ، وأن الكافرين يتّبعون الباطل ، وأن المؤمنين يتّبعون الحق من الله أي القرآن ، وأن سُنَّة الله أن يضل أعمال الكافرين ، وأن يكفّر سيئات المؤمنين ، ويصلح لهم ضمائرهم ، وأن في هذا وهذا مثلين للناس ليختاروا .

ومن ثم فإن الآيات الثلاث الأولى من سورة القتال هي عرض جديد لما تضمّنه محور السورة من سورة البقرة ، مع زيادة تفصيل في مكافأة كل من الفريقين ، فإذا استقر هذا فإن الآيات اللاحقة من المقدمة تأمر أهل الإيمان بقتال أهل الكفر والطغيان بعد أن بيّنت حالهم وحال المؤمنين ، وضربت لذلك الأمثال ، وكأن تبيان حال الفريقين جاء لتبيان حكمة الأمر بالقتال ، فما عليه المؤمنون من خير وحق ، وما عليه الكافرون من شر وباطل ، هو الموجب لفريضة قتال المؤمنين للكافرين ، ومن ثم فإننا نلاحظ أن الآيات اللاحقة تبدأ بقوله تعالى ﴿ **فإذا لقيتم** .. ﴾ فالابتداء بالفاء هنا إشارة إلى أن ما مر هو سبب الأمر بالقتال .

ملاحظة :

في الآية التي سبقت آية المحور من سورة البقرة ورد قوله تعالى ﴿ **إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلاً ما** .. ﴾ وورد قوله تعالى ﴿ **وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلاً** ﴾ .

وههنا ورد قوله تعالى : ﴿ **كذلك يضرب الله للناس أمثالهم** ﴾ لاحظ الاشتراك في كلمة (المثل) في مقدمة السورة هنا ، وفي الآية السابقة على آية المحور هناك .

....

﴿ **فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب** ﴾ أي : بسبب ما مَرّ ، فإذا لقيتم الذين كفروا في الحرب فاضربوا الرقاب ضرباً ، والمراد بضرب الرقاب القتل قال ابن كثير : أي : إذا واجهتموهم فاحصدوهم بالسيوف حصداً (وهو إرشاد للمؤمنين إلى ما يعتمدونه في حروبهم مع المشركين) ﴿ **حتى إذا أثخنتموهم** ﴾ أي : أكثرتم فيهم القتل ﴿ **فشدوا الوثاق** ﴾ أي : فالجأوا إلى الأسر والاعتقال ﴿ **فإما مَنًّا بعد** ﴾ أي : بعد أن تأسروهم ﴿ **وإما فداءً** ﴾ أي : وإما أن تقبلوا الفداء قال ابن كثير : ثم أنتم بعد

انقضاء الحرب وانفصال المعركة مخيّرون في أمرهم ، إن شئتم مَنَنْتم عليهم فأطلقتم أساراهم مجاناً ، وإن شئتم فاديتموهم بمال تأخذونه منهم وتشارطونهم عليه . أقول : وفي الآية اختلافات فقهية سنذكرها في الفوائد . ﴿ **حتى تضع الحرب أوزارها** ﴾ أي : أثقالها أي حتى تنتهي الحرب بينكم وبينهم بصورة من صور انتهاء الحرب الإسلامية ، كما سنذكر ذلك في الفوائد . ﴿ **ذلك** ﴾ أي : الأمر ذلك ﴿ **ولو يشاء الله لانتصر منهم** ﴾ أي : لانتقم منهم بغير قتال ببعض أسباب الهلاك كالخسف أو الرجفة ، أو غير ذلك ﴿ **ولكن ليبلو بعضكم ببعض** ﴾ أي : ولكن أمركم بالقتال ليبلو بعضكم ببعض ، أي : المؤمنين بالكافرين تمحيصاً للمؤمنين ، وتمحيقاً للكافرين . قال ابن كثير : (أي : ولكن شرع لكم الجهاد وقتال الأعداء ليختبركم ويبلو أخباركم ..) . وهذا يفيد أنّه لابدّ من بذل الجهد لنصرة الإسلام ، وفي الآية ردّ على القاعدين عن نصرة دين الله بحجة أنّ الله ينصر دينه ، ثم لما كان من شأن القتال أن يقتل كثير من المؤمنين قال تعالى ﴿ **والذين قُتلوا في سبيل الله فلن يضل أعمالهم** ﴾ قال ابن كثير : أي لن يذهبها بل يكثّرها وينمّيها ويضاعفها ، ومنهم من يجري عليه عمله طول برزخه . ﴿ **سيهديهم** ﴾ أي : إلى الجنة ﴿ **ويصلح بالهم** ﴾ قال ابن كثير : أي أمرهم وحالهم وقال النسفي : أي يرضي خصماءهم ، ويقبل أعمالهم ﴿ **ويدخلهم الجنة عرّفها لهم** ﴾ أي : عرّفهم مساكنهم فيها حتى لا يحتاجون أن يسألوا ، أو طيّبها لهم من العرف وهو طيب الرائحة .

....

كلمة في السياق :

١ - وهكذا قد عرّفتنا المقدمة على الأسباب التي من أجلها شرع الله الجهاد ، وبيّنت لنا الطريق العمليّ لذلك ، وهو الإثخان في القتل ، وعدم اللجوء إلى الأسر والاعتقال إلا بعد هذا الإثخان ، وأنه بعد الأسر والاعتقال يجوز للمسلمين المنَّ أو الفداء ، على خلافات بين الفقهاء سنراها في الفوائد . كما بيّن لنا تعالى حكمة عدم انتصاره المباشر من الكافرين أحياناً ، وذلك من أجل أن يختبر إيمان المؤمنين هل يجاهدون في سبيله أم لا ؟ ، وبيّن لنا بماذا يكافىء من يقتل في سبيله من هداية إلى الجنة ، وإصلاح بال ، فلا يقلقون على شيء في البرزخ ، أو يوم القيامة ، كما يدخلهم الجنة وقد طيبها لهم .

فالمقدمة إذن ذكرت خصائص الفريقين ، وذكرت فرضية القتال على المؤمنين ، وإذ كان هذا القتال ينبغي أن يكون خالصاً لوجه الله ، وفي سبيله ، فليقاتل المسلمون ، وليطمئنوا إلى نصر الله ، ومن ثم بدأ المقطع الأول بقوله تعالى ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبّت أقدامكم** ﴾ .

٢ - قلنا إنّ من امتدادات محور السورة في سورة البقرة قوله تعالى : ﴿ **وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولاتعتدوا إنّ الله لايحب المعتدين * واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشدّ من القتل** ﴾ .

لقد فسّرت آيات سورة القتال كثيراً من أوامر القتال في سورة البقرة فبينت أن الفتنة هي الصدّ عن سبيل الله ، وبيّنت كيف ينبغي أن نقاتل ، فعرّفتنا أن علينا أن نثحن أولاً في الأرض . وإذا صح ربطنا بين سورة القتال وآيات القتال الأولى في سورة البقرة ، فهذا يرجح التفسير الذي يفسّر قوله تعالى ﴿ **وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولاتعتدوا** ﴾ بأنّ كلّ الكافرين مقاتلون وعلينا أن نقاتلهم ، وأنّ الاعتداء في الآية لايراد به البدء في القتال ، وإنما يراد به تجاوز ما شرعه الله في القتال .

....

الفـوائد :

١ - بمناسبة قوله تعالى ﴿ **فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق فإما مَنًّا بعد وإما فداءً حتى تضع الحرب أوزارها** ﴾ قال ابن كثير : (والظاهر أن هذه الآية نزلت بعد وقعة بدر ؛ فإن الله سبحانه وتعالى عاتب المؤمنين على الاستكثار من الأسارى يومئذ ليأخذوا منهم الفداء ، والتقليل من القتل يومئذ فقال ﴿ **ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم * لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم** ﴾ ثم قد ادعى بعض العلماء أن هذه الآية المخيّرة بين مفاداة الأسير والمنّ عليه منسوخة بقوله تعالى ﴿ **فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم** ﴾ الآية ، رواه العوفي عن ابن عباس رضي الله عنهما ، وقال قتادة والضحاك والسدي وابن جريج وآخرون وهم الأكثرون : ليست بمنسوخة ، ثم قال بعضهم : إنما الإمام مخيّر بين المنّ على الأسير ، ومفاداته فقط ، ولا يجوز له قتله وقال آخرون منهم :

بل له أن يقتله إن شاء لحديث : قتل النبي ﷺ النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط من أسارى بدر وقال ثمامة بن أثال لرسول الله ﷺ حين قال له : « ما عندك يا ثمامة ؟ » فقال : إن تقتل تقتل ذا دم وإن تمنن تمنن على شاكر ، وإن كنت تريد المال فاسأل وتعط منه ماشئت . وزاد الشافعي رحمة الله عليه فقال : الإمام مخيّر بين قتله أو المن عليه أو مفاداته أو استرقاقه أيضاً ، وهذه المسألة محررة في علم الفروع . وقوله عز وجل ﴿ **حتى تضع الحرب أوزارها** ﴾ قال مجاهد : حتى ينزل عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام ، وكأنه أخذه من قوله ﷺ : « لاتزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق حتى يقاتل آخرهم الدجال » . وروى الإمام أحمد عن جبير بن نفير قال : إن سلمة بن نفيل أخبرهم أنه أتى رسول الله ﷺ فقال : إني سيبت الخيل ، وألقيت السلاح ، ووضعت الحرب أوزارها ، وقلت لا قتال ، فقال له النبي ﷺ « الآن جاء القتال لاتزال طائفة من أمتي ظاهرين على الناس يزيغ الله تعالى قلوب أقوام فيقاتلونهم ويرزقهم الله منهم حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك ، ألا إن عقد دار المؤمنين بالشام والخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة » وهكذا رواه النسائي من طريقين عن جبير بن نفير عن سلمة بن نفيل السكوني به وروى أبو القاسم البغوي عن النواس بن سمعان رضي الله عنه قال . لما فتح على رسول الله ﷺ فتح فقالوا : يارسول الله سيبت الخيل ، ووضعت السلاح ، ووضعت الحرب أوزارها قالوا : لا قتال ، قال : « كذبوا الآن جاء القتال لا يزال الله تعالى يزيغ قلوب قوم يقاتلونهم فيرزقهم منهم حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك ، وعقد دار المسلمين بالشام » وهكذا رواه الحافظ أبو يعلى الموصلي عن داود بن رشيد به ، والمحفوظ أنه من رواية سلمة بن نفيل كما تقدم ، وهذا يقوي القول بعدم النسخ كأنه شرع هذا الحكم في الحرب إلى أن لا يبقى حرب وقال قتادة : ﴿ **حتى تضع الحرب أوزارها** ﴾ حتى لايبقى شرك ، وهذا قوله تعالى ﴿ **وقاتلوهم حتى لاتكون فتنة ويكون الدين لله** ﴾ ثم قال بعضهم : حتى تضع الحرب أوزارها أي أوزار المحاربين ، وهم المشركون ، بأن يتوبوا إلى الله عز وجل ، وقيل أوزار أهلها بأن يبذلوا الوسع في طاعة الله تعالى) .

وبمناسبة قوله تعالى : ﴿ **فإذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق** ﴾ . قال صاحب الظلال : (والإثخان : شدة التقتيل ، حتى تتحطم قوة العدو وتتهاوى ، فلا تعود به قدرة على هجوم أو دفاع . وعندئذ ــ لا قبله ــ يؤسر من استأسر ويشد وثاقه . فأما والعدو مايزال قويا فالإثخان والتقتيل يكون الهدف لتحطيم ذلك الخطر .

وعلى هذا لا يكون هناك اختلاف ــ كما رأى معظم المفسرين ــ بين مدلول هذه الآية ، وبين مدلول آية الأنفال التي عاتب الله فيها الرسول ﷺ والمسلمين لاستكثارهم من الأسرى في غزوة بدر . والتقتيل كان أولى . وذلك حيث يقول تعالى : ﴿ **ماكان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض ، تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة ، والله عزيز حكيم * لولا كتاب من الله سَبق لمسّكم فيما أخذتم عذاب عظيم**﴾ . فالإثخان أولاً لتحطيم قوة العدو وكسر شوكته ؛ وبعد ذلك يكون الأسر . والحكمة ظاهرة ؛ لأن إزالة القوة المعتدية المعادية للإسلام هي الهدف الأول من القتال . وبخاصة حين كانت القوة العددية للأمة المسلمة قليلة محدودة . وكانت الكثرة للمشركين . وكان قتل محارب يساوي شيئا كبيراً في ميزان القوى حينذاك . والحكم مايزال ساريا في عمومه في كل زمان بالصورة التي تكفل تحطيم قوة العدو ، وتعجيزه عن الهجوم والدفاع) .

٢ – بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **والذين قتلوا في سبيل الله فلن يضل أعمالهم** ﴾ قال ابن كثير : (أي لن يذهبها ؛ بل يكثرها وينميها ويضاعفها ، ومنهم من يجري عليه عمله طول برزخه ، كما ورد بذلك الحديث الذي رواه الإمام أحمد في مسنده عن كثير بن مرة عن قيس الجذامي ــ رجل كانت له صحبة ــ قال: قال رسول الله ﷺ : « يعطى الشهيد ست خصال . عند أول قطرة من دمه تكفّر عنه كل خطيئة ، ويرى مقعده من الجنة ، ويزوج من الحور العين ، ويأمن من الفزع الأكبر ، ومن عذاب القبر ، ويحلى حلة الإيمان » تفرد به أحمد رحمه الله .

(حديث آخر) روى أحمد أيضاً عن المقدام بن معد يكرب الكندي رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن للشهيد عند الله ست خصال : أن يغفر له في أول دفقة من دمه ، ويرى مقعده من الجنة ، ويحلى حلة الإيمان ، ويزوج من الحور العين ، ويجار من عذاب القبر ، ويأمن من الفزع الأكبر ، ويوضع على رأسه تاج الوقار مرصّع بالدر والياقوت ، الياقوتة منه خير من الدنيا ومافيها ، ويزوج اثنتين وسبعين زوجة من الحور العين ، ويشفع في سبعين إنساناً من أقاربه » وقد أخرجه الترمذي وصححه وابن ماجه . وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما عن أبي قتادة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « يغفر للشهيد كل شيء إلا الديْن » وروى من حديث جماعة من الصحابة رضي الله عنهم ، وقال أبو الدرداء رضي الله عنه : قال رسول الله ﷺ : « يشفع الشهيد في سبعين من أهل بيته » ورواه أبو داود ، والأحاديث في فضل

الشهيد كثيرة جداً) .

٣ - وبمناسبة قوله تعالى عن الشهداء : ﴿ **سيهديهم ويصلح بالهم * ويدخلهم الجنة عرّفها لهم** ﴾ قال ابن كثير : (أي عرفهم بها وهداهم إليها قال مجاهد : يهتدي أهلها إلى بيوتهم ومساكنهم ، وحيث قسم الله لهم منها لا يخطئون كأنهم ساكنوها منذ خلقوا لا يستدلون عليها أحداً ، وروى مالك عن زيد بن أسلم نحو هذا ، وقال محمد بن كعب : يعرفون بيوتهم إذا دخلوا الجنة كما تعرفون بيوتكم إذا انصرفتم من الجمعة . وقال مقاتل بن حيان : بلغنا أن الملك الذي كان وكّل بحفظه عمله في الدنيا يمشي بين يديه في الجنة ، ويتبعه ابن آدم حتى يأتي أقصى منزل هو له فيعرفه كل شيء أعطاه الله تعالى في الجنة ، فإذا انتهى إلى أقصى منزلة في الجنة دخل إلى منزله وأزواجه وانصرف الملك عنه ، ذكره ابن أبي حاتم رحمه الله . وقد ورد الحديث الصحيح بذلك أيضا رواه البخاري عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «إذا خلص المؤمنون من النار حبسوا بقنطرة بين الجنة والنار يتقاضون مظالم كانت بينهم في الدنيا حتى إذا هذبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة ، والذي نفسي بيده إن أحدهم بمنزله في الجنة أهدى منه بمنزله الذي كان في الدنيا») .

☆ ☆ ☆

المقطع الأول

ويمتد من الآية (٧) إلى نهاية الآية (٣٢) وهذا هو :

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ
كَفَرُواْ فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَـٰلَهُمْ ﴿٨﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ
أَعْمَـٰلَهُمْ ﴿٩﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن
قَبْلِهِمْ ۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَـٰفِرِينَ أَمْثَـٰلُهَا ﴿١٠﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ
ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلْكَـٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ

ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ
كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن
قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن
رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم ﴿١٤﴾ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ
ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ
خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن
رَّبِّهِمْ ۖ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴿١٥﴾ وَمِنْهُم مَّن
يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ
أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟
زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم
بَغْتَةً ۖ فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا ۚ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴿١٨﴾ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ
إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ
﴿١٩﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ۚ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا
ٱلْقِتَالُ ۙ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ
ٱلْمَوْتِ ۖ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ۚ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ

لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ ﴿٢١﴾ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا
أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ ﴿٢٣﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ
الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴿٢٤﴾ إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ
لَهُمُ الْهُدَى ۙ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا
مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ ۖ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾ فَكَيْفَ إِذَا
تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا
أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴿٢٨﴾ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ
أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ ۚ
وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٠﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ
الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن
سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا
وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ ﴿٣٢﴾

التفسير :

﴿ **يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله** ﴾ أي: دينه ورسوله ﷺ ﴿ **ينصركم** ﴾ أي: على عدوكم ويفتح لكم ﴿ **ويثبت أقدامكم** ﴾ أي: في مواطن الحرب، أو على محجة الإسلام ﴿ **والذين كفروا فتعساً لهم** ﴾ التعس: العثور أي فعثوراً لهم ﴿ **وأضل أعمالهم** ﴾ أي: أحبطها وأضلها ﴿ **ذلك** ﴾ أي: التعس والضلال للكافرين ﴿ **بأنهم**

كرهوا ماأنزل الله ﴾ أي: بسبب كراهتهم القرآن قال ابن كثير: أي لا يريدونه ولا يحبونه ﴿ **فأحبط أعمالهم** ﴾ أي: أبطلها فلم يقبلها ﴿ **أفلم يسيروا** ﴾ أي: أفلم يسر هؤلاء الكفار ﴿ **في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم** ﴾ من الكافرين ﴿ **دمّر الله عليهم** ﴾ أي: أهلكهم هلاك استئصال أي عاقبهم بتكذيبهم وكفرهم ونجّى المؤمنين من بين أظهرهم ﴿ **وللكافرين أمثالها** ﴾ أي: أمثال تلك الهلكة ﴿ **ذلك** ﴾ أي: نصر المؤمنين وسوء عاقبة الكافرين ﴿ **بأن الله مولى الذين آمنوا** ﴾ أي: وليّهم وناصرهم ﴿ **وأنّ الكافرين لا مولى لهم** ﴾ أي لا ناصر لهم قال النسفي: فإن الله تعالى مولى العباد جميعاً من جهة الاختراع، ومالك التصرف فيهم، ومولى المؤمنين خاصة من جهة النصرة ..

كلمة في السياق :

بيّن الله عز وجل للمؤمنين أنّه ينصرهم إن نصروه، وبين ماذا يستحق منه الكافرون وسبب استحقاقهم، ثم لفت نظر الكافرين إلى انتقامه من الأمم السابقة، وذلك نوع من أنواع النصر للمؤمنين، وعلّل لذلك بأن سبب ما ينزل بالكافرين هو ولايته سبحانه وتعالى للمؤمنين، وأن الكافرين لا مولى لهم. وبعد أن بيّن الله عز وجل هذا النوع من أنواع النصرة للمؤمنين يحدّثنا الآن عن نوع آخر.

....

﴿ **إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار** ﴾ جزاءً على إيمانهم وعملهم الصالح ﴿ **والذين كفروا يتمتّعون** ﴾ أي: يتمتعون بمتاع الحياة الدنيا أياماً قلائل ﴿ **ويأكلون** ﴾ غافلين غير متفكرين في العاقبة ﴿ **كما تأكل الأنعام** ﴾ في معالفها ومسارحها غافلة عما هي بصدده من النّحر والذّبح ﴿ **والنار مثوى لهم** ﴾ أي منزلهم ومقامهم يوم القيامة جزاءً على أن لم يكن لهم همة إلا في متاع الدنيا، وطعامها وشرابها، ليس لهم همة إلا في ذلك وأمثاله ﴿ **وكأيّن من قرية** ﴾ أي: وكم من قرية، أي وكثير من القرى ﴿ **هي أشدّ قوة من قريتك التي أخرجتك** ﴾ أي: مكة، وأي وكم من قرية أشد قوة من قومك الذين أخرجوك ﴿ **أهلكناهم فلا ناصر لهم** ﴾ أي: فلم يكن لهم من ينصرهم ويدفع العذاب عنهم. قال ابن كثير: (وهذا تهديد شديد، ووعيد أكيد لأهل مكة في تكذيبهم لرسول الله ﷺ، وهو سيد الرسل،

وخاتم الأنبياء ، فإذا كان الله عز وجل قد أهلك الأمم الذين كذّبوا الرسل قبله بسببهم ، وقد كانوا أشدّ قوة من هؤلاء ، فما ظن هؤلاء أن يفعل الله بهم في الدنيا والأخرى ؟ فإن رُفع عن كثير منهم العقوبة في الدنيا لبركة وجود الرسول نبي الرحمة ، فإن العذاب يُوفّر على الكافرين به في معادهم) وفي ختم الآية يقول تعالى ﴿ **فلا ناصر لهم** ﴾ دليل على ما قلناه أن السياق يعرض علينا نماذج من نصر الله لأنبيائه وأوليائه ، ثم قال تعالى ﴿ **أفمن كان على بيّنة من ربه** ﴾ قال ابن كثير : أي على بصيرة ويقين في أمر الله ودينه ، بما أنزل الله في كتابه من الهدى والعلم ، وبما جبله الله عليه من الفطرة المستقيمة ﴿ **كمن زُيّن له سوء عمله** ﴾ من كفر وصدّ عن سبيل الله ﴿ **واتّبعوا أهواءهم** ﴾ أي : ليس هؤلاء كهؤلاء ، فليس المؤمن العامل كالكافر الفاجر العامل السوء المتبّع الهوى ﴿ **مَثَلُ الجنة** ﴾ أي : صفتهاالعجيبة الشأن ﴿ **التي وُعِد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن** ﴾ أي : غير متغيّر اللون والريح والطعم ﴿ **وأنهار من لبن لم يتغيّر طعمه** ﴾ كما تتغيّر ألبان الدنيا إلى الحموضة وغيرها قال ابن كثير : بل في غاية البياض والحلاوة والدسومة ﴿ **وأنهار من خمر لذّة** ﴾ أي : لذيذ ﴿ **للشاربين** ﴾ قال ابن كثير : أي : ليست كريهة الطعم والرائحة كخمر الدنيا ، بل حسنة المنظر والطعم والرائحة والفعل . قال النسفي : وما هو إلا التلذذ الخالص ليس معه ذهاب عقل ، ولا خمار ولا صداع ، ولا آفة من آفات الخمر ﴿ **وأنهار من عسل مصفّى** ﴾ أي : وهو في غاية الصفاء ، وحسن اللون والطعم والريح ، لم يخرج من بطون النحل فيخالطه الشمع وغيره ﴿ **ولهم فيها** ﴾ أي : في الجنة مع هذا كله ﴿ **من كل الثمرات ومغفرة من ربهم** ﴾ هذا مثل الجنة وأهلها فهل هذا ﴿ **كمن هو خالد في النار** ﴾ قال ابن كثير : أي أهؤلاء الذين ذكرنا منزلتهم في الجنة كمن هو خالد في النار ؟ ليس هؤلاء كهؤلاء ، وليس من هو في الدرجات كمن هو في الدركات ﴿ **وسُقُوا ماءً حميماً** ﴾ أي : حاراً شديد الحر لا يستطاع ﴿ **فقطّع أمعاءهم** ﴾ أي : قطع ما في بطونهم من الأمعاء والأحشاء عياذاً بالله تعالى من ذلك .

كلمة في السياق :

١ – مرّ معنا أكثر من نموذج على أنواع النصر للمؤمنين في الدنيا والآخرة ، وأكثر من نموذج على خسران الكافرين في الدنيا والآخرة ، فهناك النصر باستئصال الكافرين ،

والنصر بإدخال الكافرين النار ، هذا مع إنجاء المؤمنين ، وإدخالهم الجنة ، وهذا كله مع نصرة الله إياهم إن قاتلوا أعداءه .

٢ - وُصف الكافرون فيما مَرّ من السورة بأنهم متبعوا الهوى ، سيّئوا العمل ، لاهَمّ لهم إلا متاع الدنيا ، وأكل الشهوات ، وهم مع هذا كارهون للقرآن ، متبّعون للباطل ، صادُّون عن سبيل الله ، كافرون ، وفي ذلك كله تفصيل لمعنى الفسوق ، وتفصيل لقوله تعالى في المحور : ﴿ **الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك هم الخاسرون** ﴾ والسورة في سياقها الرئيسي تفصّل في هذا الشأن ، ولكنها خلال ذلك تؤدي خدمات أخرى ، إذ تبيّن أن هؤلاء يجب أن يقاتلوا ، وأنّ عاقبتهم الخذلان والخسران ، وأن النّصر في القتال لأهل الإيمان ، كما أن النصر في الدنيا والآخرة لهم .

٣ - في دعوة الله الكافرين للسير في الأرض ، والنظر في عاقبة المكذبين السابقين دعوة لأن يعلموا أنهم مغلوبون ؛ لأن ذلك جاء في أثر وعد الله المؤمنين بالنصر .

٤ - وبعد ما مَرّ يحدثنا الله عز وجل عن صنف من الكافرين هم المنافقون ، ثم يحدّثنا عن نوع آخر من أنواع نصرة المؤمنين ، وتثبيتهم في زيادتهم الهدى ، وإعطائهم التقوى .

﴿ **ومنهم** ﴾ أي : ومن الناس ، أو من الكافرين ﴿ **من يستمع إليك** ﴾ ممن يحضر مجلسك ، ويسمع قولك ﴿ **حتى إذا خرجوا من عندك قالوا للذين أوتوا العلم** ﴾ من الصحابة ﴿ **ماذا قال آنفاً** ﴾ أي : ماذا قال الساعة ؟ ﴿ **أولئك الذين طبع الله على قلوبهم** ﴾ فلا يعقلون ، ولا يفهمون ﴿ **واتبّعوا أهواءهم** ﴾ فلا فهم صحيح ، ولا قصد صحيح ، وليس لهم مقصد إلّا اتباع الهوى .

كلمة في السياق :

١ - ما صلة هذه الآية بسياق السورة ؟ هل لأن السورة تحدثنا عن الفاسقين ، جاء ذكر هؤلاء المنافقين في سياقها ، لأنهم نوع من الفاسقين ، أم لأن السورة تحدثنا عمن استحقوا أن يقاتلوا ، فجاءت الآية تذكّرنا أن هؤلاء ممن يستحقون القتال ؟ الظاهر أن ذلك كله مراد .

٢ - يلاحظ أن السورة تتحدث عن المؤمنين والكافرين بشكل متناوب، وقد حدثتنا الآية عن نوع من الكافرين هم المنافقون، ويعقب ذلك الآن حديث عن المؤمنين .

....

﴿ **والذين اهتدوا** ﴾ إلى الله بسلوك الطريق المؤدي إلى ذلك ﴿ **زادهم هدى** ﴾ أي: زادهم الله هدى كرماً منه، أي زادهم بصيرة وعلماً، أو زادهم انشراح صدر ﴿ **وآتاهم تقواهم** ﴾ أي: أعانهم عليها وحقّقهم بها .

كلمة في السياق :

بدأ المقطع بقوله تعالى ﴿ **ياأيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبّتْ أقدامكم** ﴾ وقد رأينا نماذج من نصرة الله للمؤمنين، وقد حدّثنا الله عز وجل في الآية المارّة عن نموذج من النصر، وهو تثبيت الإيمان الذي يعطيه الله عز وجل لمن اهتدى فالآيتان الأخيرتان تعمّقان فهم موضوع الإيمان والفسوق، وتعمّقان فهم موضوع الصراع بين أهل الإيمان والفسوق، وتبينان عمق الهوة بين الطرفين . ثمّ يذكرّ الله عزّ وجلّ الكافرين والمنافقين بالساعة :

....

﴿ **فهل ينظرون** ﴾ : أي فهل ينتظرون ﴿ **إلّا الساعة أن تأتيهم بغتة** ﴾ أي: فهل ينتظرون إلا إتيان الساعة فجأة وهم غافلون عنها ﴿ **فقد جاء أشراطها** ﴾ أي: علاماتها، أي أمارات اقترابها، ومن جملة ذلك مبعث رسول الله ﷺ وفي الفوائد تتمة الكلام عن هذا المقام ﴿ **فأنّى لهم إذا جاءتهم ذكراهم** ﴾ قال ابن كثير : (أي: فكيف للكافرين بالتذكر إذا جاءتهم القيامة حيث لا ينفعهم ذلك) .

كلمة في السياق :

بدأ المقطع بقوله تعالى ﴿ **ياأيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم** ﴾، ثم بيّن المقطع نماذج من نصرة الله أولياءه، وتثبيتهم، وذكّر الكافرين

والمنافقين ــ أي الفاسقين جميعاً ــ ووعظهم ، والآن يتوجّه الخطاب للقائد المكلّف بالقتال .

﴿ **فاعلم أنه** ﴾ أي : أن الشأن ﴿ **لا إله إلا الله واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات** ﴾ قال النسفي : والمعنى : فاثبت على ماأنت عليه من العلم بوحدانية الله ، وعلى التواضع وهضم النفس ، باستغفار ذنبك وذنوب من على دينك ﴿ **والله يعلم متقلّبكم** ﴾ في معايشكم ومتاجركم ﴿ **ومثواكم** ﴾ أي : ويعلم حيث تستقرون في منازلكم ، أو متقلّبكم في حياتكم ومثواكم في القبور ، أو متقلّبكم في أعمالكم ومثواكم في الجنة والنار ، ومثله حقيق بأن يتقى ويخشى وأن يستغفر ، واختار ابن كثير القول الأول قال : أي : يعلم تصرّفكم في نهاركم ومستقركم في ليلكم .

....

كلمة في السياق :

من السياق نعرف أن التوحيد الخالص والاستغفار للنفس وللمؤمنين هما من شروط النصر ، ومن أدب المسلم المجاهد ، وبدونهما لايكون جهاد في سبيل الله ، إذ لا جهاد تحت راية التوحيد ولا جهاد إلا إلا بجماعة ، ولا جماعة إلا برحمة ، ومن مظاهر الرحمة الاستغفار لبعضنا بعضاً ، ثم إن الأمر بالاستغفار في هذا السياق فيه إشعار بأن الذنب معوّق عن النّصر ، فبقدر مايوجد توحيد واستغفار يكون نصر الله قريباً ، ثم يحدثنا الله عز وجل عن طائفة تتحمّس للقتال حتى إذا افترض جبنت عنه .

....

﴿ **ويقول الذين آمنوا لولا نزّلت سورة** ﴾ فيها ذكر الجهاد ﴿ **فإذا أنزلت سورة محكمة** ﴾ أي : مبيّنة غير متشابهة لا تحتمل وجهاً إلا وجوب القتال ، أي مشتملة على حكم القتال بدليل ما يأتي ﴿ **وذُكر فيها القتال** ﴾ أي : أمر فيها بالجهاد ﴿ **رأيت الذين في قلوبهم مرض** ﴾ أي : نفاق ﴿ **ينظرون إليك نظر المغشيّ عليه من الموت** ﴾ من فزعهم ورعبهم ، وجبنهم من لقاء الأعداء ، أي تشخص أبصارهم جبناً وجزعاً كما ينظر من أصابته الغشية عند الموت قال تعالى مشجّعاً لهم ومرشداً ﴿ **فأولى لهم * طاعة وقول معروف** ﴾ قال ابن كثير : أي وكان الأولى بهم أن يسمعوا ويطيعوا ، أي في الحالة الراهنة ﴿ **فإذا عزم الأمر** ﴾ أي : جدّ الحال وحضر القتال ﴿ **فلو صدقوا الله** ﴾ في

الإيمان والطاعة ، وإخلاص النيّة ﴿ **لكان** ﴾ الصدق ﴿ **خيراً لهم** ﴾ عند الله من كراهة الجهاد وتركه .

كلمة في السياق :

دلّنا النص على أن من علامات النفاق خوف الجهاد ، والرغبة عنه ، والفرار من تكاليفه ، كما دلّنا على أن أدب المسلم استقبال الأمر بالجهاد بالطاعة والكلمة المستقيمة ، ثم بالمزاولة العملية له إذا جاء حينه ، مع الصدق مع الله في ذلك ، وهكذا عرفنا من سياق السورة : أن قتال أعداء الله واجب ، وعرفنا علّة ذلك وحكمته ، وعرفنا أن الله ناصرنا إن نصرناه ، وعرفنا أن من آداب القتال : الإثخان ، وإخلاص النية لله ، والتوحيد الخالص ، والاستغفار ، وتلقي أمر القتال بالطاعة ، والكلمة الطيبة ، والصدق مع الله إذا جاء ، وكل ذلك عرفناه من خلال عرض خصائص الإيمان ، ومواصفات الفسوق ، ومن السياق عرفنا أن وجود كفر وإيمان يقتضي قتالاً ، ومن ثم فرضه الله ، ثم تأتي آيتان تبينان ماذا يعني ترك القتال ؟ وماعقوبة ذلك ؟ ثمّ تأتي آية تحضّ على تدبّر القرآن ، ممّا يفهم منه أن تدبّر القرآن هو الطريق لوجود المقاتل :

....

﴿ **فهل عسيتم إن توليتم** ﴾ قال ابن كثير : أي : عن الجهاد ونكلتم عنه ﴿ **أن تفسدوا في الأرض وتقطّعوا أرحامكم** ﴾ قال ابن كثير : (أي أن تعودوا إلى ماكنتم فيه من الجاهلية الجهلاء ، تسفكون الدماء ، وتقطّعون الأرحام) . ﴿ **أولئك** ﴾أي : الذين يفعلون هذا ﴿ **الذين لعنهم الله** ﴾ أي : أبعدهم من رحمته ﴿ **فأصمّهم** ﴾ عن استماع الموعظة ﴿ **وأعمى أبصارهم** ﴾ عن إبصارهم طريق الهدى ﴿ **أفلا يتدبّرون القرآن** ﴾ فيعقلون أحكامه وحِكَمها فيفهمون ويعملون ﴿ **أم** ﴾ أي : بل ﴿ **على قلوب أقفالها** ﴾ قال النسفي : وهي أقفال الكفر التي استغلقت فلا تتفتح نحو الدين ، والختم هو الطبع . قال ابن كثير : أي بل على قلوب أقفالها ، فهي مطبقة لايخلص إليها شيء من معانيه .

كلمة في السياق :

١ - دلّت هذه الآيات على أن ترك الجهاد يؤدي إلى أن يصبح المسلمون مفسدين في الأرض ، مقطّعين لأرحامهم ، وأنهم يستحقون بذلك إثم المفسدين القاطعين ، من لعنة وعمى قلب ، وأن ذلك سببه عدم التدبّر في كتاب الله ، والأقفال على القلوب .

٢ ــ رأينا أن محور السورة هو قوله تعالى ﴿ **ومايضل به إلا الفاسقين * الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك هم الخاسرون** ﴾ وقد رأينا في الآيات الأخيرة أن ترك الجهاد يصل بنا إلى أن نكون من هؤلاء ، وأن علة ذلك إنْ كان هو عدم تدبّر كتاب الله ، أو وجود الأقفال على القلوب . ثمّ يأتي في السورة كلام عن المرتدين ، وعلّة ردّتهم مما يشير إلى أنّ الردّة أثر من آثار ترك الجهاد ، كما يشير إلى نوع آخر من أنواع الفسوق ، ويعطينا صورة من صور نقض الميثاق الوارد ذكره في محور السورة ﴿ **الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه** ﴾ .

﴿ **إنّ الذين ارتدوا على أدبارهم** ﴾ أي : من الإسلام إلى الجاهلية . قال ابن كثير : أي فارقوا ورجعوا إلى الكفر ﴿ **من بعد ما تبيَّن لهم الهدى** ﴾ أي : من بعد ما اتضّح الحق لهم وهو الإسلام ﴿ **الشيطان سَوَّل لهم** ﴾ أي : زيّن لهم ذلك وحسّنه ﴿ **وأملى لهم** ﴾ أي : مدّ لهم في الآمال والأماني فغرّهم وخدعهم ﴿ **ذلك** ﴾ أي : سبب ردّتهم ﴿ **بأنهم قالوا للذين كرهوا ما نزَّل الله** ﴾ أي : قالوا للكافرين الصادّين عن سبيل الله ﴿ **سنطيعكم في بعض الأمر** ﴾ فبقولهم هذا حكم الله عزّ وجلّ عليهم بالردة ، فكيف بمن قال لأئمة الكفر والضلال في عصرنا سنطيعكم في الأمر ؟ ﴿ **والله يعلم إسرارهم** ﴾ أي : ما يسرونه وما يخفونه ، فالله مطّلع عليه وعالم به ﴿ **فكيف إذا توفّتهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم** ﴾ أي : كيف حالهم وماذا يعملون وما حيلتهم إذا جاءتهم الملائكة لقبض أرواحهم ، وتعاصت الأرواح في أجسادهم ، واستخرجتها الملائكة بالعنف والقهر والضرب ﴿ **ذلك** ﴾ أي : الإهانة والتعذيب لهم عند قبض أرواحهم ﴿ **بأنهم** ﴾ أي : بسبب أنهم ﴿ **اتّبعوا ما أسخط الله** ﴾ في طاعة الكافرين ﴿ **وكرهوا رضوانه** ﴾ في السير في طاعة الله وموالاة المؤمنين ﴿ **فأحبط أعمالهم** ﴾ أي : أبطلها فلم يقبلها ولم تنفعهم بعد أن ارتدوا .

كلمة في السياق :

١ – في آيات القتال الثانية في سورة البقرة والتي تبدأ بقوله تعالى : ﴿ **كُتب عليكم القتال** ﴾ يرد قوله تعالى ﴿ **ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة** ﴾ وههنا يرد ذكر الردة وحبوط العمل ﴿ **إن الذين ارتدوا ...** ﴾ ﴿ **فأحبط أعمالهم** ﴾ مما يشير إلى أن من امتدادات معاني المحور آيات القتال الثانية ، وأن سورة القتال تفصّل في ذلك كله :

٢ – جاءت هذه الآيات بعد آيات الإعراض عن الجهاد الذي بسببه يترتب فساد في الأرض وتقطيع أرحام ، فأخذنا بذلك نموذجاً على مضمون من مضامين الفسوق في المجتمع الإسلامي وعِلَلَهُ : ﴿ **الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه** ﴾ كهؤلاء المرتدين . ﴿ **ويقطعون ماأمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض** ﴾ كهؤلاء الذين والوا الكافرين في الإفساد في الأرض .

٣ – بدأ المقطع بقوله تعالى : ﴿ **ياأيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم * والذين كفروا فتعساً لهم وأضل أعمالهم * ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل الله فأحبط أعمالهم** ﴾ .

جاءت بداية المقطع هذه في سياق أمر الله المؤمنين بالقتال ، مما يشير إلى أن الأصل هو القتال بين أولياء الله وأعدائه ، والآيات الأخيرة تعرض لنا نموذجاً حَكَم الله على أصحابه بالردة لأنهم قلبوا الأمر ، فبدلاً من أن يجاهدوا أعداء الله فقد أعطوهم الطاعة ، لاحظ أنه قد ورد في بداية المقطع قوله تعالى تعليلاً لتعس الكافرين ﴿ **ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل الله** ﴾ وفي الآيات الأخيرة ذكر الله عز وجل سبب الردة فقال ﴿ **ذلك بأنهم قالوا للذين كرهوا ما نزّل الله** ﴾ أي : للذين ذكرهم الله في بداية المقطع ﴿ **سنطيعكم في بعض الأمر** ﴾ وهذا باب من أبواب الردة ، ولجه الكثيرون في عصرنا ــ كما ذكرنا ذلك في مقدمة كتابنا جند الله ثقافة وأخلاقاً ــ فأعطوا الطاعة لأنواع من الكافرين .

٤ – بناءً على مامَرّ نستطيع أن نحدّد صلة الآيات الأخيرة بسياق السورة القريب وسياق المقطع فنقول : كأثر عن ترك الجهاد تنشأ قطيعة الأرحام ، والإفساد في الأرض ، وتقوم الردة . إذ مالم تكن حركة ضد أعداء الله ، فسيتحرك أعداء الله ليفتنوا المسلمين : ﴿ **ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا** ﴾ هذه

صلة الآيات بسياق السورة القريب .

وأما صلتها بسياق المقطع ، فإنها تتحدث عن وضع معكوس لايجوز ، فبدلاً من أن ينصر المسلم الله بمعاداة من يكره تنزيله ، نجد مسلمين يطيعون من يكره تنزيل الله ويوالونهم ، كهؤلاء المرتدين .

٥ ــ وبما ذكر في الآيات الأخيرة يكون المقطع قد أشار إلى خمسة أمراض تنشأ في المجتمع الإسلامي وعَلَّل لوجود كل :

١ ــ عدم الفقه للحق ﴿ **ومنهم من يستمعون إليك** .. ﴾ . ٢ ــ عدم التجاوب مع الجهاد ﴿ **رأيت الذين في قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشي عليه من الموت** ... ﴾ . ٣ ، ٤ ــ قطيعة الرحم ، والإفساد في الأرض كأثر عن ترك الجهاد ٥ -إعطاء الطاعة للكافرين ، وكل ذلك أثر عن أمراض القلب . ومن ثمّ تحدثنا الآيتان اللاحقتان عن مرضى القلوب وعن سُنّة الله في كشف أضغانهم وطريق ذلك .

﴿ **أم حسب الذين في قلوبهم مرض** ﴾ أي : نفاق ﴿ **أن لن يخرج الله أضغانهم** ﴾ أي : أحقادهم قال النسفي : والمعنى : أظَنَّ المنافقون أن الله تعالى لايبرز بغضهم وعداوتهم للمؤمنين ؟ وقال ابن كثير : (أي أيعتقد المنافقون أن الله لايكشف أمرهم لعبادة المؤمنين ؟ بل سيوضّح أمرهم ويجلّيه حتى يفهمهم ذوو البصائر ، وقد أنزل الله تعالى في ذلك سورة براءة ، فبيّن فيها فضائحهم ، ومايعتمدون من الأفعال الدالة على نفاقهم ، ولهذا كانت تسمّى الفاضحة ، والأضغان : جمع ضغن وهو مافي النفوس من الحسد والحقد للإسلام وأهله ، والقائمين بنصره ، ثمّ بيّن الله عزّ وجلّ طريق كشف المنافقين ، وهو إما سيماهم ، وإما لحن قولهم ﴿ **ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم** ﴾ أي : ولو نشاء لعرّفناكهم ودللناك عليهم فلعرفتهم كشفاً بعلاماتهم التي تظهر على سيما وجوههم كأثر من انعكاس ظلام قلوبهم ﴿ **ولتعرفنّهم في لحن القول والله يعلم أعمالكم** ﴾ أي : في نحوه وأسلوبه من فحوى كلامهم ، لأنهم لايقدرون على كتمان مافي أنفسهم . قال ابن كثير : (أي فيما يبدو من كلامهم الدالّ على مقاصدهم ، يفهم المتكلم من أي الحزبين هو بمعاني كلامه وفحواه ، وهو المراد من لحن القول) . أقول : لعل المراد بلحن القول فلتات اللسان ، فالإنسان يحرص أن يكون كلامه فصيحاً فيخطىء ويلحن ، وهؤلاء يحرصون على أن لاتُعبر ألسنتهم في قلوبهم فيخطئون ، فيظهر على ألسنتهم خلاف مايريدون مما يؤدي إلى انكشافهم ، وقد علّق الله عز وجل

كشفهم بسيماهم على مشيئته ، ولكنه جزم بتعريفهم من خلال فلتات ألسنتهم ، ومن ثم فإن الطريق المؤكّد لمعرفة النفاق هو فلتات الألسن .

كلمة في السياق :

جاء الكلام عن سنة الله في كشف أحقاد المنافقين ، وعن طريق ذلك بعد أن ذكر لنا أربعة نماذج من كلامهم ومواقفهم :

ا - ﴿ **قالوا للذين أوتوا العلم ماذا قال آنفاً** ﴾ سخرية وانصراف قلب أثناء كلام النبي .

ب - ﴿ **وذكر فيها القتال رأيت الذين في قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشي عليه من الموت** ﴾ .

جـ - ﴿ **فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطّعوا أرحامكم** ﴾ .

د - ﴿ **ذلك بأنهم قالوا للذين كرهوا ما نَزَّل الله سنطيعكم في بعض الأمر** ﴾ .

فالمنافق يدل عليه كلامه إذا حضر جلسة وعظ ، ويدل عليه كلامه إذا صدر أمر بجهاد ، ويدل عليه تركه للجهاد ، وإفساده في الأرض ، وقطيعة رحمه ، ويدل عليه إعطاؤه الطاعة للكافرين ، فمجيء الآيتين الأخيرتين كان بعد أن ذكر الله نماذج من لحن القول الذي به نعرف المنافقين . ثمّ تأتي آية تعرّفنا بنصّها على المؤمن الصادق ، وتعرفنا بمفهومها على المنافق ، هذه الآية تذكر أن الله يبتلي المسلمين بمواقف ومعان فيظهر كأثر عن ذلك المجاهد الصابر والمنافق الفاجر :

﴿ **ولنبلونّكم** ﴾ قال النسفي : بالقتال إعلاماً لا استعلاماً ، أو نعاملكم معاملة المختبر ليكون أبلغ في إظهار العدل ﴿ **حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين** ﴾ على الجهاد وآثاره ولأوائه ﴿ **ونبلو أخباركم** ﴾ قال النسفي : أي : أسراركم قال ابن كثير : وليس في تقدم علم الله تعالى بما هو كائن أنه سيكون شك ولا ريب ، فالمراد حتى نعلم وقوعه ولهذا يقول ابن عباس رضي الله عنه في مثل هذا : إلا لنعلم ، أي لنرى .

كلمة في السياق :

١ - بينت هذه الآية طريقاً يكشف الله عز وجل به المنافقين ، وهو الاختبارات

والابتلاءات التي يمحص بها الصف الإسلامي فيتميز بها المجاهد الصابر عن غيره ، نسأل الله عز وجل أن يجعلنا من أهل طاعته ، ومن هذا المعنى نعرف صلة الآية بسياق السورة القريب .

٢ - وأما صلتها بمقطعها فقد بدأ المقطع بقوله تعالى ﴿ **يأيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبّت أقدامكم** ﴾ فالمقطع بدأ بوعد الله بالنصر لمن نصره ، وفي هذه الآية يبين الله تعالى أن من سنته ابتلاء المؤمنين وامتحانهم ليتميّز المؤمن المجاهد الصابر ، وفي ذلك تعليل لما يحدث أحياناً من إبطاء النصر أو من تسليط العدو .

٣ - وأما صلة الآية بسياق السورة فإن الله عز وجل بعد أن ذكر في مقدمة السورة فريضة القتال قال ﴿ **ولو شاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلو بعضكم ببعض** ﴾ وهذه الآية جاءت لتبين حكمة الابتلاء ، وهي أن يظهر الله من هو المؤمن المجاهد الصادق في الظاهر والباطن .

٤ - في قوله تعالى ﴿ **ونبلو أخباركم** ﴾ معنى أبعد مما ذكرناه ونقلناه عن النسّفي في تفسيره الأخبار بالأسرار ، فالأخبار فيها معنى الأحاديث التي هي أثر عن عمل ، ففيها إشارة إلى أن من حكم الابتلاء إخراج القدوة ، وعلى هذا فحكمة الاختبار إظهار المجاهد المؤمن الصابر القدوة .

٥ - من نظرة شاملة نلقيها على مجموع السور التي فصّلت محور سورة القتال ، كالمائدة والرعد والأحزاب نجد أن هذه السور ـــ وإن فصّلت محوراً واحداً ـــ فإن كلا منها فصّلته بشكل جديد .

٦ - بدأ المقطع بقوله تعالى ﴿ **يأيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبّت أقدامكم** ﴾ وقد ذكر الله بعد ذلك نماذج على هذا النصر : نصرته المؤمنين بإنجائهم وإهلاك عدوهم ، ونصرة الله إيّاهم بإدخالهم الجنة ، ونصرة الله إياهم بزيادة هدايتهم ، وإعطائهم تقواهم ، وفي الآيات الأخيرة رأينا مظهراً آخر من مظاهر النصر ، وهو كشف الله لهم المنافقين ، وتحقيقهم بصفات ترفعهم عند الله ، وبعد هذا كله تأتي آية يختتم بها المقطع .

....

﴿ **إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله** ﴾ أي: عن دينه ودعوته ﴿ **وشاقوا الرسول** ﴾ أي: عادوه وعاندوه ﴿ **من بعد ماتبيّن لهم الهدى** ﴾ أي: من بعد ما ظهر لهم أنه الحق وعرفوا الرسول ﷺ ﴿ **لن يضروا الله شيئاً** ﴾ وإنما يضر من يفعل ذلك نفسه ويخسرها يوم معادها ﴿ **وسيحبط أعمالهم** ﴾ أي: سيبطلها قال ابن كثير: (فلا يثيبه على سالف ماتقدم من عمله الذي عقّبه بردته مثقال بعوضة من خير، بل يحبطه ويمحقه بالكلية، كما أن الحسنات يذهبن السيئات).

....

كلمة في السياق :

- ظاهر من كلام ابن كثير أنه يعتبر الآية الأخيرة في المرتدين، وهذا واضح من مجيء الآية في سياق الكلام عن المرتدين، ومن قوله تعالى فيها ﴿ **من بعد ماتبيّن لهم الهدى** ﴾ ومن ثم نفهم أنّ هناك نوعين من الكافرين: نوعاً ذكرهم الله عز وجل في بداية المقطع وهم الكفار الأصليون: ﴿ **والذين كفروا فتعساً لهم وأضل أعمالهم** ﴾، ونوعاً ذكرهم الله عز وجل في نهاية المقطع وهم المرتدون: ﴿ **إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل وشاقوا الرسول من بعد ماتَبيّن لهم الهدى لن يضروا الله شيئاً وسيحبط أعمالهم** ﴾. ويلاحظ أن الأوّلين أضل أعمالهم، وأن الآخرين أحبط أعمالهم.

وفي قوله تعالى ﴿ **لن يضروا الله شيئاً** ﴾ عن المرتدين وفي مجيء الكلام عنهم في سياق المقطع المبدوء بقوله تعالى ﴿ **ياأيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم** ﴾ مايشير أن الله ناصر جنده على الكافرين والمرتدين بآن واحد.

- يلاحظ أن الله عز وجل تحدث عن المرتدين بما تحدث به عن الكافرين الأصليين في أول السورة، فأول آية في السورة قال الله عز وجل فيها: ﴿ **الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله أضل أعمالهم** ﴾.

وههنا قال: ﴿ **إن الذين كفروا وصدّوا عن سبيل الله وشاقّوا الرسول من بعد ماتبيّن لهم الهدى لن يضروا الله شيئاً وسيحبط أعمالهم** ﴾.

ومن ثم نفهم أنه كما تجب محاربة الكافرين الذين ذكروا في أول السورة والإثخان فيهم، كذلك يجب قتال المرتدين؛ بل هم أولى لأنهم الأقرب. وبهذا انتهى المقطع

الأول في السورة ، مرتبطاً أوله بآخره ، ومرتبطاً أوله وآخره بمقدمة السورة وقد رأينا ذلك وقد بقي معنا من السورة مقطع واحد هو بمثابة الخاتمة للسورة .

فـوائد :

١ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **يأأيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم** ﴾ قال ابن كثير : (كقوله عز وجل ﴿ **ولينصرن الله من ينصره** ﴾ فإن الجزاء من جنس العمل ؛ ولهذا قال تعالى ﴿ **ويثبت أقدامكم** ﴾ كما جاء في الحديث « من بلّغ ذا سلطان حاجة من لا يستطيع إبلاغها ثبت الله تعالى قدميه على الصراط يوم القيامة ») .

٢ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **والذين كفروا فتعساً لهم وأضلّ أعمالهم** ﴾ قال ابن كثير : (عكس تثبيت الأقدام للمؤمنين الناصرين لله تعالى ولرسول الله ﷺ ، وقد ثبت في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال : « تعس عبد الدينار ، تعس عبد الدرهم ، تعس عبد القطيفة ، تعس وانتكس ، وإذا شيك فلا انتقش » أي فلا شفاه الله عز وجل») .

٣ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم** ﴾ قال ابن كثير : (ولهذا لما قام أبو سفيان صخر بن حرب رئيس المشركين يوم أحد حين سأل عن النبي ﷺ وعن أبي بكر وعمر رضي الله عنهما فلم يجب وقال : أما هؤلاء فقد هلكوا ، وأجابه عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال : كذبت يا عدو الله ، بل أبقى الله تعالى لك ما يسوؤك ، وإن الذين عددت لأحياء ، فقال أبو سفيان : يوم بيوم بدر والحرب سجال ، أما إنكم ستجدون مثلة لم آمر بها ولم تسؤني . ثم ذهب يرتجز ويقول « اعل هبل اعل هبل » فقال رسول الله ﷺ «ألا تجيبوه» ، فقالوا : يارسول الله ومانقول ؟ قال ﷺ قولوا « الله أعلى وأجل» ، ثم قال أبو سفيان : لنا العزى ولا عزى لكم . فقال رسول الله ﷺ «ألا تجيبوه» ؟ قالوا : وما نقول يارسول الله ؟ قال : قولوا « الله مولانا ولا مولى لكم») .

٤ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام** ﴾ قال ابن كثير : (أي في دنياهم يتمتعون بها ويأكلون منها كأكل الأنعام هضماً

وقضماً ، وليس لهم همة إلا في ذلك ولهذا ثبت في الصحيح «المؤمن يأكل في معى واحد ، والكافر يأكل في سبعة أمعاء») .

٥ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **وكأيّن من قرية هي أشد قوة من قريتك التي أخرجتك** ﴾ قال ابن كثير : (وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ لما خرج من مكة إلى الغار ، وأتاه فالتفت إلى مكة وقال «أنت أحب بلاد الله إلى الله ، وأنت أحب بلاد الله إليّ ، ولولا أن المشركين أخرجوني لم أخرج منك» فأعدى الأعداء من عدا على الله تعالى في حرمه ، أو قتل غير قاتله ، أو قتل بدخول الجاهلية فأنزل الله تعالى على نبيه ﷺ ﴿ **وكأين من قرية هي أشد قوة من قريتك التي أخرجتك أهلكناهم فلا ناصر لهم** ﴾) .

٦ - عند قوله تعالى : ﴿ **مثل الجنة التي وُعد المتقون** .. ﴾قال ابن كثير : (قال عكرمة ﴿ **مثل الجنة** ﴾ أي: نعتها ﴿ **فيها أنهار من ماء غير آسن** ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما والحسن وقتادة : يعني غير متغير ، وقال قتادة والضحاك وعطاء الخراساني غير متفق، والعرب تقول: أسن الماء، إذا تغير ريحه، وفي حديث مرفوع أو رده ابن أبي حاتم : غير آسن يعني الصافي الذي لا كدر فيه ، وروى ابن أبي حاتم عن مسروق قال : قال عبد الله رضي الله عنه : أنهار الجنة تفجر من جبل من مسك ﴿ **وأنهار من لبن لم يتغير طعمه** ﴾أي: بل في غاية البياض والحلاوة والدسومة وفي حديث مرفوع «لم يخرج من ضروع الماشية» ﴿ **وأنهار من خمر لذة للشاربين** ﴾ أي: ليست كريهة الطعم والرائحة كخمر الدنيا ، بل حسنة المنظر والطعم والرائحة والفعل ﴿ **لا فيها غول ولا هم عنها ينزفون** ﴾﴿ **لا يصدعون عنها ولا ينزفون** ﴾ ﴿ **بيضاء لذة للشاربين** ﴾ وفي حديث مرفوع «لم يعصرها الرجال بأقدامهم» ﴿ **وأنهار من عسل مصفّى** ﴾ أي: وهو في غاية الصفاء وحسن اللون والطعم والريح وفي حديث مرفوع «لم يخرج من بطون النحل» وروى الإمام أحمد عن حكيم بن معاوية عن أبيه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول «في الجنة بحر اللبن ، وبحر الماء ، وبحر العسل ، وبحر الخمر ، ثم تشقق الأنهار منها بعد» ورواه الترمذي في صفة الجنة ، وقال حسن صحيح . وروى أبو بكر بن مردويه عن أبي بكر بن عبد الله بن قيس عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ : «هذه الأنهار تشخب من جنة عدن في جوبة ، ثم تصدع بعد أنهاراً» ، وفي الصحيح : «إذا سألتم الله تعالى فاسألوه الفردوس فإنه أوسط الجنة ، وأعلى الجنة ، ومنه

تفجر أنهار الجنة ، وفوقه عرش الرحمن» . وروى الحافظ أبو القاسم الطبراني عن عاصم بن لقيط قال : إن لقيط بن عامر خرج وافداً إلى رسول الله ﷺ قلت يارسول الله فعلى ما نطلع من الجنة ؟ قال ﷺ «على أنهار عسل مصفى ، وأنهار من خمرما بها صداع ولا ندامة ، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه ، وماء غير آسن ، وفاكهة لعمر إلهك ما تعلمون وخير من مثله ، وأزواج مطهرة» قلت يارسول الله أَوَ لنا فيها أزواج مصلحات ؟ قال : «الصالحات للصالحين تلذونهن مثل لذاتكم في الدنيا ويلذونكم ، غير أن لا توالد» وروى أبو بكر عبد الله بن أبي الدنياعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : لعلكم تظنون أن أنهار الجنة تجري في أخدود في الأرض ، والله إنها لتجرى سائحة على وجه الأرض حافاتها قباب اللؤلؤ ، وطينها المسك الأذفر . وقد رواه أبو بكر ابن مردريه مرفوعاً . وقوله تعالى : ﴿ **ولهم فيها من كل الثمرات** ﴾ كقوله عز وجل ﴿ **يدعون فيها بكل فاكهة آمنين** ﴾ وقوله تبارك وتعالى ﴿ **فيهما من كل فاكهة زوجان** ﴾ وقوله سبحانه وتعالى ﴿ **ومغفرة من ربهم** ﴾ أي: مع ذلك كله) .

٧ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **فهل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة فقد جاء أشراطها** ﴾ قال ابن كثير : (أي أمارات اقترابها كقوله تبارك سبحانه وتعالى : ﴿**هذا نذير من النذر الأولى * أزفت الأزفة**﴾ وكقوله جلت عظمته : ﴿**اقتربت الساعة وانشق القمر**﴾ وكقوله تبارك وتعالى: ﴿ **أتى أمر الله فلا تستعجلوه** ﴾ وقوله جل وعلا ﴿ **اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون** ﴾ فبعثة رسول الله ﷺ من أشراط الساعة ، لأنه خاتم الرسل الذي أكمل الله تعالى به الدين ، وأقام به الحجة على العالمين . وقد أخبر ﷺ بأمارات الساعة وأشراطها ، وأبان عن ذلك وأوضحه بما لم يؤته نبي قبله كما هو مبسوط في موضعه . وقال الحسن البصري : بعثة محمد ﷺ من أشراط الساعة ، وهو كما قال ، ولهذا جاء في أسمائه ﷺ أنه نبي التوبة ، ونبي الملحمة ، والحاشر الذي يحشر الناس على قدميه ، والعاقب الذي ليس بعده نبي . وروى البخاري عن سهل بن سعد رضي الله عنه قال رأيت سول الله ﷺ قال بأصبعيه هكذا بالوسطى والتي تليها : «بعثت أنا والساعة كهاتين») .

٨ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات** ﴾ قال النسفي : (والمعنى فاثبت على ماأنت عليه من العلم بوحدانية الله ، وعلى التواضع وهضم النفس باستغفار ذنبك وذنوب من على دينك ، وفي شرح

التأويلات جاز أن يكون له ذنب فأمره بالاستغفار ، ولكننا لا نعلمه ، غير أن ذنب الأنبياء ترك الأفضل دون مباشرة القبيح ، وذنوبنا مباشرة القبائح من الصغائر والكبائر) .

وقال ابن كثير : (وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ كان يقول «اللهم اغفر لي خطيئتي ، وجهلي ، وإسرافي في أمري ، وماأنت أعلم به مني ، اللهم اغفر لي هزلي ، وجدي ، وخطئي ، وعمدي ، وكل ذلك عندي» . وفي الصحيح أنه كان يقول في آخر الصلاة «اللهم اغفر لي ماقدّمت وماأخّرت ، وماأسررت وماأعلنت ، وماأسرفت ، وماأنت أعلم به مني ، أنت إلهي لا إله إلا أنت» وفي الصحيح أنه قال : «ياأيها الناس توبوا إلى ربكم فإني أستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة» وروى الإمام أحمد عن عاصم الأحول قال : سمعت عبد الله بن سرخس قال : أتيت رسول الله ﷺ فأكلت معه من طعامه فقلت غفر الله لك يارسول الله ، فقال ﷺ «ولك» فقلت : أستغفر لك . فقال رسول الله ﷺ : «نعم ولكم» وقرأ ﴿ **واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات** ﴾ثم نظرت إلى بعض كتفه الأيمن ــ أو كتفه الأيسر شعبة الذي شك ــ فإذا هو كهيئة الجمع عليه الثآليل ، ورواه مسلم والترمذي والنسائي وابن جرير وابن أبي حاتم من طرق عن عاصم الأحول به ، وفي الحديث الآخر الذي رواه أبو يعلى عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال : «عليكم بلا إله إلا الله والاستغفار ، فأكثروا منهما فإن إبليس قال : إنما أهلكت الناس بالذنوب ، وأهلكوني بلا إله إلا الله والاستغفار ، فلما رأيت ذلك أهلكتهم بالأهواء فهم يحسبون أنهم مهتدون» وفي الأثر المروي «قال إبليس : وعزّتك وجلالك لا أزال أغويهم مادامت أرواحهم في أجسادهم . فقال الله عز وجل : وعزّتي وجلالي لاأزال أغفر لهم ماستغفروني» والأحاديث في فضل الاستغفار كثيرة جداً») .

٩ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطّعوا أرحامكم * أولئك الذين لعنهم الله فأصمَّهم وأعمى أبصارهم** ﴾ قال ابن كثير : (هذا نهي عن الإفساد في الأرض عموماً ، وعن قطع الأرحام خصوصاً بل قد أمر الله تعالى بالإصلاح في الأرض ، وصلة الأرحام هو الإحسان إلى الأقارب في المقال والأفعال وبذل الأموال ، وقد وردت الأحاديث الصحاح والحسان بذلك عن رسول الله ﷺ من طرق عديدة ووجوه كثيرة ، روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي

ﷺ قال : « خلق الله تعالى الخلق ، فلما فرغ منه قامت الرحم فأخذت بحقوي الرحمن عز وجل فقال : مه فقالت : هذا مقام العائذ بك من القطيعة فقال تعالى : ألا ترضين أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك ، قالت : بلى قال : فذاك لك » قال أبو هريرة رضي الله عنه : اقرءوا إن شئتم ﴿ **فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطّعوا أرحامكم** ﴾ ثم رواه البخاري من طريقين آخرين عن معاوية بن أبي مزرد قال : قال رسول الله ﷺ : « اقرءوا إن شئتم ﴿ **فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطّعوا أرحامكم** ﴾ . ورواه مسلم من حديث معاوية بن أبي مزرد به . وروى الإمام أحمد عن أبي بكرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « مامن ذنب أحرى أن يعجّل الله تعالى عقوبته في الدنيا مع مايدخر لصاحبه في الآخرة : من البغي وقطيعة الرحم » ورواه أبو داود والترمذي وابن ماجه وقال الترمذي : هذا حديث صحيح . وروى الإمام أحمد عن ثوبان رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : « من سرَّه النسأ في الأجل ، والزيادة في الرزق فليصل رحمه » تفرد به أحمد وله شاهد في الصحيح . وروى أحمد أيضاً عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : يارسول الله إن لي ذوى أرحام : أصل ويقطعون ، وأعفو ويظلمون ، وأحسن ويسيئون ، أفأكافئهم ؟ قال ﷺ : « لا إذن تتركون جميعاً ، ولكن جد بالفضل ، وصلهم فإنه لن يزال معَك ظهير من الله عز وجل ماكنت على ذلك » . تفرد به أحمد من هذا الوجه وله شاهد من وجه آخر . وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الرحم معلقة بالعرش ، وليس الواصل بالمكافىء ؛ ولكن الواصل الذي إذا قطعت رحمه وصلها » رواه البخاري . وروى أحمد عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « توضع الرحم يوم القيامة لها حجبة كحجبة المغزل تكلّم بلسان طلق ذلق فتقطع من قطعها ، وتصل من وصلها » . وروى الإمام أحمد عن عبد الله ابن عمرو رضي الله عنهما يبلغ به النبي ﷺ قال : « الراحمون يرحمهم الرحمٰن ، ارحموا أهل الأرض يرحمكم أهل السماء . والرحم شجنة من الرحمن ، من وصلها وصلته ، ومن قطعها بتته » وقد رواه أبو داود والترمذي وقال حسن صحيح . وروى الإمام أحمد عن إبراهيم بن عبد الله بن فارض أن أباه حدثه أنه دخل على عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه وهو مريض فقال له عبد الرحمن رضي الله عنه : وصلتك رحم ، إنّ رسول الله ﷺ قال : « قال الله عز وجل : أنا الرحمن خلقت الرحم وشققت لها اسماً من اسمي ، فمن يصلها أصله ومن

يقطعها فأبته ــ أو قال ــ من بتها أبته » تفرد به أحمد من هذا الوجه . ورواه أحمد أيضاً من حديث الزهري ورواه أبو داود والترمذي من رواية أبي سلمة عن أبيه ، والأحاديث في هذا كثيرة جداً . وروى الطهراني عن أبي عمر البصري عن سليمان قال : قال رسول الله ﷺ : « الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وماتناكر منها اختلف » وبه قال رسول الله ﷺ : « إذا ظهر القول ، وخزن العمل ، وائتلفت الألسنة ، وتباغضت القلوب ، وقطع كل ذي رحم رحمه ، فعند ذلك لعنهم الله وأصمهم وأعمى أبصارهم » والأحاديث في هذا كثيرة والله أعلم ») .

١٠ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها** ﴾ قال ابن كثير : (روى ابن جرير عن هشام بن عروة عن أبيه رضي الله عنه قال : تلا رسول الله ﷺ يوماً : ﴿ **أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها** ﴾ فقال شاب من أهل اليمن : بل عليها أقفالها حتى يكون الله تعالى يفتحها أو يفرجها ، فما زال الشاب في نفس عمر رضي الله عنه حتى ولي فاستعان به) .

١١ - وبمناسبة قوله تعالى عن المنافقين : ﴿ **ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم ولتعرفنهم في لحن القول** ﴾ قال ابن كثير : (أي فيما يبدو من كلامهم الدال على مقاصدهم يفهم المتكلم من أي الحزبين هو بمعاني كلامه وفحواه ، وهو المراد من لحن القول ، كما قال أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه : ماأسر أحد سريرة إلا أبداها الله على صفحات وجهه وفلتات لسانه . وفي الحديث « ماأسر أحد سريرة إلا كساه الله تعالى جلبابها إن خيراً فخير وإن شراً فشر » : وقد ورد في الحديث تعيين جماعة من المنافقين . روى الإمام أحمد : عن أبي مسعود عقبة بن عمرو رضي الله عنه قال : خطبنا رسول الله ﷺ خطبة فحمد الله تعالى وأثنى عليه ثم قال : « إن منكم منافقين ، فمن سميت فليقم ــ ثم قال ــ قم يافلان ، قم يافلان ، قم يافلان ــ حتى سمى ستة وثلاثين رجلاً ثم قال ــ إن فيكم أو منكم ــ منافقين فاتقوا الله » قال : فمرَّ عمر رضي الله عنه برجل ممن سمى مقنع قد كان يعرفه فقال : مالك ؟ فحدثه بما قال رسول الله ﷺ فقال : بعداً لك سائر اليوم) .

☆ ☆ ☆

المقطع الثاني

ويمتد من الآية (٣٣) إلى نهاية الآية (٣٨) أي إلى نهاية السورة وهذا هو :

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَـٰلَكُمْ ﴿٣٣﴾
إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ
﴿٣٤﴾ فَلَا تَهِنُواْ وَتَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ
أَعْمَـٰلَكُمْ ﴿٣٥﴾ إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۚ وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ يُؤْتِكُمْ
أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴿٣٦﴾ إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُواْ
وَيُخْرِجْ أَضْغَـٰنَكُمْ ﴿٣٧﴾ هَـٰٓأَنتُمْ هَـٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم
مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ وَإِن
تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَـٰلَكُم ﴿٣٨﴾

التفسـير :

﴿ **ياأيها الذين آمنوا أطيعوا الله** ﴾ بطاعة كتابه ﴿ **وأطيعوا الرسول** ﴾ بطاعة شخصه في حياته وطاعة سنته بعد وفاته عليه الصلاة والسلام ﴿ **ولا تبطلوا أعمالكم** ﴾ قال ابن كثير : أي بالردة ، وقال النسفي : (بالنفاق والرياء) والسياق يدل لكلام ابن كثير ، وإن كان النفاق والرياء مبطلين للعمل ﴿ **إن الذين كفروا وصدُّوا عن سبيل الله** ﴾ أي : عن دينه وشريعته ودعوته ﴿ **ثم ماتوا وهم كفار فلن يغفر الله لهم** ﴾ لأنه تعالى لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ..

....

كلمة في السياق :

١ ـ بعد أن أمر الله عز وجل المؤمنين بطاعة الله والرسول ﷺ وعدم إبطال العمل ، بيّن عاقبة الموت على الكفر ، والصدّ عن سبيل الله ، بأنه لايرافقه مغفرة أبداً فليحذر المسلم من الردة ، وإذا ارتد فليتب ، ومن ثم نعلم صلة الآيتين بما قبلهما مباشرة ، فبعد أن تحدث الله عز وجل عن الردة وأهلها ، والنفاق وأهله ، أمر الله عز وجل بطاعة الله ورسوله ، ونهى عن الردة ، وبين عاقبة الموت على الكفر بأنه لا مغفرة معه ، وذكر حبوط العمل من قبل .

٢ - بدأت السورة بذكر الكافرين والمؤمنين ، ثم أمرت المؤمنين بقتال الكافرين ووعدتهم بالنصر . ثم سارت حتى جاء المقطع الثاني مبتدئاً بالأمر بالطاعة لله والرسول ، والنهي عن الردة فصار تلخيص السورة :

قاتلوا الكافرين ، وانصروا الله ، وأطيعوا الله ورسوله ، ولا ترتدوا عن الإسلام ، وكل ذلك له صلة بموضوع القتال ، ومن ثم يأتي الآن بيان حول الحالة الوحيدة التي يجوز فيها الدعوة إلى السلم ، وهذه الحالة الوحيدة جاءت في صيغة تبيّن أن الأصل هو القتال بين الصف المسلم والكافر .

....

﴿ **فلا تهنوا** ﴾ أي: فلا تضعفوا ولا تذلوا للعدو قال ابن كثير : أي لا تضعفوا عن الأعداء ﴿ **وتدعوا إلى السَلْم** ﴾ أي: المسالمة والصلح . قال ابن كثير : أي المهادنة والمسالمة ووضع القتال بينكم وبين الكفار في حال قوتكم ، وكثرة عددكم وعُدَدكم ولهذا قال ﴿ **فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون** ﴾ قال ابن كثير : أي في حال علوكم على عدوكم ، فأما إذا كان الكفار فيهم قوة وكثرة بالنسبة إلى جميع المسلمين ، ورأى الإمام في المهادنة والمعاهدة مصلحة ، فله أن يفعل ذلك كما فعل رسول الله ﷺ حين صدّه كفار قريش عن مكة ، ودعوه إلى الصلح ، ووضع الحرب بينهم وبينه عشر سنين ، فأجابهم ﷺ إلى ذلك . قال الألوسي : (واستدل الكيّا بهذا النهي على منع مهادنة الكفار إلا عند الضرورة وعلى تحريم ترك الجهاد إلا عند العجز) ثم قال تعالى ﴿ **والله معكم** ﴾أي: بالنصرة قال ابن كثير : فيه بشارة عظيمة بالنصر والظفر على

الأعداء ﴿ **ولن يتركم أعمالكم** ﴾ أي : ولن ينقصكم أجر أعمالكم قال ابن كثير : أي ولن يحبطها ويبطلها ويسلبكم إياها ، بل يوفيكم ثوابها ، ولا ينقصكم منها شيئاً . أقول : أي لن يفعل بكم ما يفعله بالمرتدين من إحباط العمل .

....

ثمّ يأتي كلام متعدد جوانب الاتصال في السورة ، فمما يصرف عن القتال : الدنيا والاستغراقُ فيها ؛ ولذلك يأتي حديث عنها ، ومما يحتاجه القتال : الإنفاق ؛ ولذلك يأتي حديث عنه ، ومما له علاقة بالجهاد في سبيل الله : أن يحمل لواءه شعب ؛ ومن ثم يأتي حديث عن ذلك .

....

﴿ **إنما الحياة الدنيا لعب ولهو** ﴾ أي : حاصلها ذلك إلا ماكان منها لله فهي تنقضي في أسرع مدة ، وفي ذلك تحقير لأمر الدنيا ، وتهوين لشأنها ، ومجيء هذا المعنى في هذا السياق يفيد النهي عن أن تكون الدنيا سبباً في الكفر ، أو في الردة ، أو في ترك الجهاد . ثم قال تعالى ﴿ **وإن تؤمنوا** ﴾ بأركان الإيمان ﴿ **وتتقوا** ﴾ الله بفعل الأمر وترك النهي ﴿ **يؤتكم أجوركم** ﴾ أي : ثواب إيمانكم وتقواكم ﴿ **ولا يسألكم أموالكم** ﴾ أي : لا يسألكم إياها جميعاً ، بل غيضاً من فيض قال ابن كثير : (أي هو غني عنكم لا يطلب منكم شيئاً وإنما فرض عليكم الصدقات من الأموال مواساة لإخوانكم الفقراء؛ ليعود نفع ذلك عليكم ، ويرجع ثوابه إليكم) ثمّ بيّن حكمة ذلك فقال ﴿ **إن يسألكموها فيحفكم** ﴾ أي : فيستأصلها بالمطالبة بها كلها ﴿ **تبخلوا ويخرج** ﴾ الله بذلك أو البخل ﴿ **أضغانكم** ﴾ أي : أحقادكم ، وفي ذلك درس بليغ للذين يشتغلون في الجهاد ألّا يكلّفوا الناس الكثير من الأموال ، فإنّ عاقبة ذلك البخل والعداوة من الناس ، وفي ذلك درس آخر وهو أنه مما يمتحن به الإنسان ليعرف ما في قلبه من نفاق مطالبته بالكثير من المال ، وفي ذلك درس جديد في معرفة المنافق من لحن قوله ، وبعد أن يبيّن الله عز وجل سنته في قضية الإنفاق ، وأنه لا يطالب بما يستأصل الأموال ، أعلم أنّ المسلمين مدعوون للإنفاق ؛ لأن الجهاد يحتاج إلى مال ، فقال ﴿ **هاأنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا في سبيل الله** ﴾ قال النسفي : هي النفقة في الغزو أو الزكاة ﴿ **فمنكم من يبخل** ﴾ قال ابن كثير : أي لا يجيب إلى ذلك ﴿ **ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه** ﴾ قال ابن كثير : (أي إنما نقص نفسه من الأجر وإنّما يعود وبال ذلك عليه)

وقد فهم النسفي أنّ الآية تدليل على المعنى الذي ورد قبلها فقال : كأنه قيل : الدليل على أنه لو أحفاكم لبخلتم وكرهتم العطاء ؛ أنكم تدعون إلى ربع العشر فمنكم من يبخل . أقول : والظاهر أن الآية أوسع من أن يكون المراد بها الدعوة إلى الزكوات وحدها ، بدليل أنها آتية في سياق الجهاد ﴿ **والله الغني** ﴾ أي : عن كل ماسواه ، وكلّ شيء فقير إليه دائماً ﴿ **وأنتم الفقراء** ﴾ إليه . فوصفه بالغنى وصف لازم له ، ووصف الخلق بالفقر وصف لازم لهم لا ينفكون عنه ، قال النسفي : (أي إنّه لا يأمر بذلك لحاجته إليه ؛ لأنه غني عن الحاجات ، ولكن لحاجتكم وفقركم إلى الثواب) ثم قال تعالى ﴿ **وإن تتولوا** ﴾ قال النسفي : (أي وإن تعرضوا أيها العرب عن طاعته وطاعة رسوله ﷺ والإنفاق في سبيله . أقول : وإن تعرضوا أيها العرب عن الجهاد ولوازمه ﴿ **يستبدل قوماً غيركم** ﴾ يحملون هذا الدين ويقومون برفع لوائه ﴿ **ثم لا يكونوا أمثالكم** ﴾ بل أطوع لله منكم . وقد رأينا سنة الله هذه تتكرر خلال التاريخ ، فلا يتخلى شعب عن حمل هذا الإسلام حتى يحمله شعب آخر .

كلمة في السياق :

تحدثنا أثناء عرض المقطع الثاني عن سياق المقطع ، وصلة المقطع بما قبله ، وصلته بسياق السورة عامة ، ورأينا تحذير الله هذا الشعب العربي أن يتولى عن حمل دينه ، وإن صلة ذلك بمحور السورة واضحة ، فالله عز وجل يحذّر هذا الشعب أن يكون من الفاسقين ﴿ **الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه** ﴾ بالردة ﴿ **ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل** ﴾ بقطيعة الرحم وترك موالاة المؤمنين ﴿ **ويفسدون في الأرض** ﴾ بتطبيق شرع غير شرعه ، وللأسف فإن هذا الشعب فعل هذا كله فارتد ، وقطع الرحم ، وأفسد في الأرض ، لقد فعل هذا كله ونحن نرى هذا واضحاً ، ومن ثم فلابد من جهد لإعادة الأمر إلى نصابه ، ونرجو ألا يكون ذلك بعيداً ، ولنا عودة على السورة وسياقها ومحلها في الكلمة الأخيرة عنها فلننقل الآن بعض الفوائد .

فـــوائد :

١ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **ياأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولا تبطلوا أعمالكم** ﴾ قال ابن كثير : (وقد روى الإمام أحمد بن نصر المروزي في

كتاب الصلاة عن أبي العالية قال : كان أصحاب رسول الله ﷺ يرون أنه لا يضر مع لا إله إلا الله ذنب ، كما لا ينفع مع الشرك عمل فنزلت ﴿ **أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولا تبطلوا أعمالكم** ﴾ فخافوا أن يبطل الذنب العمل ، ثم روي من طريق عبد الله بن المبارك عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : كنا ــ معشر أصحاب رسول الله ﷺ ــ نرى أنه ليس شيء من الحسنات إلا مقبول حتى نزلت ﴿ **أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولا تبطلوا أعمالكم** ﴾ فقلنا : ماهذا الذي يبطل أعمالنا ؟ فقلنا : الكبائر الموجبات ، والفواحش حتى نزل قوله تعالى ﴿ **إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء** ﴾ فلما نزلت كففنا عن القول في ذلك ، فكنا نخاف على من أصاب الكبائر والفواحش ونرجو لمن لم يصبها) .

وعند هذه الآية قال الألوسي : (قيل : إن بني أسد أسلموا ، وقالوا لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : قد آثرناك وجئناك بنفوسنا وأهلنا كأنهم مَنّوا بذلك ، فنزلت فيهم هذه ، وقوله تعالى : ﴿ **يمُنُّون عليك أن أسلموا** ﴾ ومن هنا قيل المعنى : لا تبطلوا أعمالكم بالمنّ بالإسلام ، وعن ابن عباس : بالرياء والسمعة ، وعنه أيضاً : بالشك والنفاق ، وقيل : بالعجب ، فإنه يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب ، وقيل : المراد بالأعمال الصدقات أي تبطلوها بالمن والأذى ، وقيل : لا تبطلوا طاعاتكم بمعاصيكم ، أخرج عبد بن حميد ، وابن جرير ، عن قتادة أنه قال في الآية : من استطاع منكم أن لا يبطل عملاً صالحاً بعمل سوء فليفعل ولا قوة إلا بالله تعالى) .

أقول : قد استدلّ فقهاء الحنفية بقوله تعالى ﴿ **ولا تبطلوا أعمالكم** ﴾ على أنّه من دخل في شيء من العبادات المشروعة فعليه إتمامها ، ولا يصح له إبطالها ، فمن تلبّس بصلاة نافلة فقد وجب عليه الإتمام ، وإذا أبطلها فعليه قضاؤها ، ومن تلبّس بصوم نافلة فعليه الإتمام ، وإذا أفطر وجب عليه القضاء ، ومن تلبّس بحج نافلة ، فعليه الإتمام ، وإذا نقضه فعليه القضاء .

٢ ــ عند قوله تعالى ﴿ **وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثمّ لا يكونوا أمثالكم** ﴾ قال ابن كثير : (وروى ابن أبي حاتم وابن جرير عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : إن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية ﴿ **وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم** ﴾ قالوا : يارسول الله من هؤلاء الذين إن تولينا استبدل بنا ثم لا يكونوا أمثالنا ؟ قال : فضرب بيده على كتف سلمان الفارسي رضي الله عنه ثم قال : « هذا

وقومه ، ولو كان الدين عند الثريا لتناوله رجال من الفرس » تفرد به مسلم بن خالد الزنجي ورواه عنه غير واحد وقد تكلم فيه بعض الأئمة رحمة الله عليهم والله أعلم) .

أقول : في الآية معجزة غيبية ، فقد أخبرت عن غيب ، ووقع كما أخبرت به ، فقد تولى العرب عن حمل الإسلام أو ضعفوا ، فقيض الله لهذا الإسلام من يحمله ، فلا يكاد لواء الإسلام يميل حتى يرفعه شعب حتى عصرنا هذا .

كلمة أخيرة في سورة القتال :

١ – تحدّثت مقدمة سورة البقرة عن متقين وكافرين ومنافقين ، ثمّ جاء المقطع الأول من القسم الأول من أقسام سورة البقرة فسمّى الكافرين والمنافقين بالفاسقين ، ودمج الكلام عنهم بقوله تعالى : ﴿ **الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض** ﴾ ثمّ سار سياق سورة البقرة حتى وصل إلى فقرة تتحدث عن القتال والإنفاق ، ثم سار السياق حتى وصل إلى آيات تتحدث عن الإنفاق والقتال ، وجاءت سورة القتال لتفصِّل في ذلك كله ، فعرفنا فيها ضرورة القتال وحكمته .

٢ – يتألف قسم المثاني من خمس مجموعات : الأولى والخامسة فيها تفصّل في أعماق سورة البقرة زيادة على تفصيلها في الآيات الأولى ، أما الثلاث التي جاءت في الوسط فقد اقتصر تفصيلها على الآيات الأولى من سورة البقرة ، مما يشير إلى أهمية الوضوح ، وإقامة الحجة في الأساسيات ، ولقد تحدّثت سورة الأحزاب وسورة القتال عن القتال وهما تفصلان في محور واحد ، وكلاهما أشار إلى قتال المنافقين مع الكافرين ، ومن خلال ذلك نجد مظهراً من مظاهر التكامل بين مجموعات قسم المثاني ، ومظهراً من مظاهر الوحدة القرآنية .

٣ – سنرى أن التكامل كذلك حاصل بين سور المجموعة الخامسة من قسم المثاني فسور الجاثية ، والأحقاف ، والقتال هي المقدمات المتلاحقة لسور الفتح ، والحجرات ، وقاف .

٤ – رأينا كيف أن للسورة وحدتها وسياقها ، ويكفي هنا أن نذكر ما يدلّ على هذه الوحدة من خلال مثال واحد :

بدأت السورة بآيات أوصلت إلى قوله تعالى : ﴿ **فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب** .. ﴾ . ثمّ سارت حتى قاربت الختام فقالت : ﴿ **فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون** ﴾ . ثمّ استقرت على قوله تعالى : ﴿ **وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم** ﴾ فإن توليتم عن الجهاد ، وحمل راية الإسلام ، وقتال الكافرين والمنافقين ، فسيحمل الراية شعب آخر .

٥ - قلنا إن سورة القتال فصّلت في محورها ، وفي ارتباطاته وامتدادات معانيه ، ولو أننا جمعنا الآيات التي أصابها تفصيل من سورة البقرة ، وربطناها ببعضها ، ووقفنا عند كل آية منها ، لرأينا عجباً ، ولطال بنا المقام ، ونكتفي بضرب أمثلة :

ا - في الآية التي سبقت محور السورة ورد قوله تعالى : ﴿ **يضل به كثيراً ويهدي به كثيراً** ﴾ وقد رأينا في سورة البقرة نفسها من يستحق الإضلال ، وذكرت سورة القتال من يستحق الهداية فقالت ﴿ **والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم** ﴾ فعرفنا سراً من أسرار الهداية ، فالتقوى هبة من الله تكون مكافأة على الاهتداء ، والاهتداء يحتاج إلى جهد إيجابي ذكرته سورة العنكبوت ، وملخص ذلك أن الهداية تكون أثراً عن المجاهدة في ذات الله ﴿ **والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا** ﴾ والهداية يكافىء الله عليها بالتقوى ، من هذا المثال تدرك الصلات بين سور قسم المثاني ، وبين القسم وبقية القرآن .

ب - تحدّثت السورة عن الصدّ عن سبيل الله ، وعن الكفر والنفاق ، وعن الإفساد في الأرض وقطيعة الرحم ، وكل ذلك تفصيل مباشر للمحور .

جـ - لا يوقف الإفساد في الأرض إلا القتال : ﴿ **ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض** ﴾ ومن ثم كانت آيات القتال في سورة البقرة امتداداً لآية المحور ، وقد فصلت فيها :

فمن آيات القتال في سورة البقرة : ﴿ **وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم** ﴾ وفي سورة القتال قال تعالى ﴿ **فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب** ... ﴾ .

وفي آيات القتال في سورة البقرة ورد قوله تعالى : ﴿ **ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة** ﴾ . وفي سورة القتال قال تعالى : ﴿ **إن الذين**

ارتدوا عل أدبارهم .. ﴾ ﴿ ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه فأحبط أعمالهم ﴾ .

هذه أمثلة على تفصيل سورة القتال لمحورها وارتباطاته وامتدادات معانيه ، منها نعرف بعض أسرار الوحدة القرآنية .

٦ ـــ ومن السورة عرفنا أن الأمة الإسلامية لاتقف من الفسوق موقفاً سلبياً ؛ بل تقف منه موقفاً إيجابياً بالقتال وباستكمال أسباب النصر ، وأن سنة الله أن شعباً من شعوب العالم سيحمل لواء الجهاد أبداً ، وأن الشعب العربي هو الشعب الأصيل في التكليف ، فإذا تولى قيّض الله شعباً آخر .

وعرفنا من السورة أن الإثخان في الفاسقين سواء كان فسقهم أصلياً أو فسقهم بسبب الردة هو الطريق الرئيسي ، وأن كل فساد في المجتمع الإسلامي سببه ترك الجهاد وعدم الإثخان ، وفي ذلك تفصيل لطريقة استئصال الفسوق والسيطرة عليه داخلياً وخارجياً .

ومن السورة عرفنا أنه يمكن أن تكون هدنة مع الكافرين ولكن لا ننسى أن هذا يوجب علينا أن نسارع إلى الخلاص من القصور ، ويجب أن نضع في حسابنا دائماً أن إصلاح الداخل مقدمة للعمل الخارجي ، لأن حفظ رأس المال مقدم على الرغبة في الربح .

☆ ☆ ☆

سورة الفتح

وهي السورة الثامنة والأربعون بحسب الرسم القرآني
وهي السورة الرابعة من المجموعة الخامسة من قسم المثاني
وآياتها تسع وعشرون آية
وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحَمْدُ للهِ، وَالصَّلاةُ وَالسَّلامُ عَلَى رَسُولِ اللهِ وَآلِهِ وَأَصْحَابِهِ

رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا، إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ العَلِيمُ

بين يدي سورة الفتح :

قال الألوسي في تقديمه لسورة الفتح : (نزلت بالمدينة على ما روي عن ابن عباس ، وابن الزبير رضي الله تعالى عنهم ، والأخبار تدل على أنها نزلت في السفر لا في المدينة نفسها وهو الصحيح ، أخرج ابن أبي شيبة ، وأحمد ، والبخاري في تاريخه ، وأبو داود ، والنسائي ، وجماعة عن ابن مسعود قال : أقبلنا من الحديبية مع رسول الله ﷺ - أي : عام ست بعد الهجرة - وكان قد خرج إليها عليه الصلاة والسلام يوم الاثنين هلال ذي القعدة ، فأقام بها بضعة عشر يوماً ، وقيل : عشرين يوماً ، ثم قفل عليه الصلاة والسلام ، فبينما نحن نسير إذ أتاه الوحي ، وكان إذا أتاه اشتد عليه فسري عنه وبه من السرور ما شاء الله تعالى ، فأخبرنا أنه أنزل عليه ﴿ **إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً** ﴾ وفي حديث صحيح أخرجه أحمد ، وأبو داود ، وغيرهما عن مجمع بن جارية الأنصاري ما يدل على أنها نزلت بعد منصرفه ﷺ من الحديبية أيضاً ، وأن ذلك عند كراع الغميم فقرأها عليه الصلاة والسلام على الناس وهو على راحلته ، وفي رواية ابن سعد عنه مايدل على أنها بضجنان ، ونقل ذلك عن البقاعي ، وضجنان ــ بضاد معجمة وجيم ونونين بينهما ألف بزنة سكران كما في القاموس ــ جبل قرب مكة ، وهذا ونحوه قول بنزولها بين مكة والمدينة ، ومثل ذلك يعدّ مدنياً على المشهور ، وهو أن المدني ما نزل بعد الهجرة سواء نزل بالمدينة أم بمكة أم بسفر من الأسفار ، والمكي مانزل قبل الهجرة ، وأما على القول بأن المكي ما نزل ولو بعد الهجرة بمكة ويدخل فيها - كما قال الجلال السيوطي - نواحيها - كمنى وعرفات والحديبية بل بعضها على ما في الهداية ، وأكثرها على ما قال المحب الطبري من حرم مكة ؛ والمدني ما نزل بالمدينة ويدخل فيها - كما قال أيضاً - نواحيها كأحد . وبدر وسلع فلا ، بل يعدّ على القول بأنه نزل قرب مكة مكياً ، فالقول بأن السورة مدنية بلا خلاف فيه نظر ظاهر ، وهي تسع وعشرون آية بالإجماع ، ولا يخفى حسن وضعها هنا ، لأن الفتح بمعنى النصر مرتب على القتال ، وفي كل من ذكر المؤمنين المخلصين والمنافقين والمشركين ما فيه ، وقد ذكر أيضاً في الأولى الأمر بالاستغفار وذكر هنا وقوع المغفرة ، وذكرت الكلمة الطيبة هناك بلفظها الشريف ، وكنى عنها بكلمة التقوى بناء على أشهر الأقوال فيها ، وستعرفها إن شاء الله تعالى إلى غير ذلك والله أعلم .

أصحاب الثارات كانوا يتجمعون في ظلال هذه الحرمة ، ويلقى الرجل قاتل أبيه أو أخيه فلا يرفع في وجهه سيفاً ، ولا يصدّه عن البيت المحرم . ولكنهم خالفوا عن تقاليدهم الراسخة في هذا الشأن ؛ وصدوا رسول الله - ﷺ - والمسلمين معه طوال السنوات الست التي تلت الهجرة . حتى كان العام السادس الذي أري فيه رسول الله - ﷺ - هذه الرؤيا . وحدّث بها أصحابه - رضوان الله عليهم - فاستبشروا بها وفرحوا . ورواية ابن هشام لوقائع الحديبية هي أوفى مصدر نستند إليه في تصورها . وهي في جملتها تتفق مع رواية البخاري ورواية الإمام أحمد، ومع تلخيص ابن حزم في جوامع السيرة وغيرهم . قال ابن إسحاق : ثم أقام رسول الله - ﷺ - بالمدينة شهر رمضان ، وشوالاً (بعد غزوة بني المصطلق وما جاء في أعقابها من حديث الإفك) وخرج في ذي القعدة معتمراً لايريد حرباً . واستنفر العرب ومن حوله من أهل البوادي من الأعراب ؛ ليخرجوا معه وهو يخشى من قريش الذي صنعوا أن يعرضوا له بحرب ، أو يصدوه عن البيت . فأبطأ عليه كثير من الأعراب . وخرج رسول الله - ﷺ - بمن معه من المهاجرين والأنصار ، ومن لحق به من العرب ؛ وساق معه الهدي ، وأحرم بالعمرة ، ليأمن الناس من حربه ، وليعلم الناس أنه إنما خرج زائراً لهذا البيت ومعظّماً له . قال : وكان جابر بن عبد الله - فيما بلغني - يقول : كنا أصحاب الحديبية أربع عشرة مئة . قال الزهري : وخرج رسول الله - ﷺ - حتى إذا كان بعسفان[١] لقيه بشر بن سفيان الكعبي . فقال : يارسول الله ! هذه قريش قد سمعت بمسيرك ، فخرجوا معهم العوذ المطافيل [٢] ، قد لبسوا جلود النمور ؛ وقد نزلوا بذي طوى ، يعاهدون الله لاتدخلها عليهم أبدا . وهذا خالد بن الوليد في خيلهم ، قد قدموها إلى كراع الغميم[٣] . قال : فقال رسول الله - ﷺ - : « ياويح قريش ! لقد أكلتهم الحرب . ماذا عليهم لو خلوا بيني وبين سائر العرب ؟ فإن هم أصابوني كان ذلك الذي أرادوا ، وإن أظهرني الله عليهم دخلوا في الإسلام وافرين ، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة . فما تظن قريش ؟ فوالله لاأزال أجاهد على الذي بعثني الله به حتى يظهره الله ، أو تنفرد هذه السالفة[٤] . ثم قال : « من رجل يخرج بنا على طريق غير طريقهم التي هم

---

(١) عسفان : موضع بين مكة والمدينة على مرحلتين من مكة .

(٢) العوذة : التي لم تلد ، والمطافيل : ذوات الأطفال ، وهذا يقتضي أن يكون النص العوذ والمطافيل .

(٣) كراع الغميم : دار أمام عسفان بثمانية أميال .

(٤) السالفة : صفحة العنق ، يعني : أو أقتل . فإنها لاتنفرد إلا بالقتل .

بها ؟ » . قال ابن اسحاق : فحدثني عبد الله بن أبي بكر ، أن رجلاً من أسلم قال : أنا يارسول الله . قال : فسلك بهم طريقاً وعراً أجرل [١] بين شعاب . فلما خرجوا منه — وقد شق ذلك على المسلمين — وأفضوا إلى أرض سهلة عند منقطع الوادي ، قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — للناس : « قولوا نستغفر الله ونتوب إليه » . فقالوا ذلك . فقال : « والله إنها للحطة التي عرضت على بني إسرائيل ، فلم يقولوها » [٢] . قال ابن شهاب الزهري : فأمر رسول الله — صلى الله عليه وسلم — الناس فقال : « اسلكوا ذات اليمين » بين ظهري الحمض [٣] في طريق على ثنية المرار ، مهبط الحديبية [٤] من أسفل مكة ؛ قال : فسلك الجيش ذلك الطريق . فلما رأت خيل قريش قترة [٥] الجيش ، قد خالفوا عن طريقهم ، رجعوا راكضين إلى قريش . وخرج رسول الله — صلى الله عليه وسلم — حتى إذا سلك في ثنية المرار بركت ناقته . فقال الناس : خلأت الناقة [٦] . فقال : « ما خلأت . وما هو لها بخلق . ولكن حبسها حابس الفيل عن مكة . لا تدعوني قريش اليوم إلى خطة يسألونني فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها » — (وفي رواية البخاري : والذي نفسي بيده لا يسألوني خطة يعظمون فيها حرمات الله تعالى إلا أعطيتهم إياها) . ثم قال للناس : « انزلوا » قيل له : يارسول الله ، ما بالوادي ماء ينزل عليه . فأخرج سهما من كنانته فأعطاه رجلاً من أصحابه . فنزل في قليب [٧] من تلك القلب ، فغرزه في جوفه ، فجاش بالرواء .. فلما اطمأن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — أتاه بديل بن ورقاء الخزاعي ، في رجال من خزاعة ، فكلّموه ، وسألوه ما الذي جاء به ؟ فأخبرهم أنه لم يأت يريد حرباً ، وإنما جاء زائراً للبيت ، ومعظماً لحرمته . ثم قال لهم نحواً مما قال لبشر بن سفيان ؛ فرجعوا إلى قريش فقالوا : يامعشر قريش ، إنكم تعجلون على محمداً . إن محمدا لم يأت لقتال ، وإنما جاء زائراً لهذا البيت فاتهموهم وجبهوهم ، وقالوا : وإن كان جاء ولا يريد قتالاً . فوالله

---

(١) أجرل : كثير الحجارة .

(٢) يشير — صلى الله عليه وسلم — إلى ما جاء في القرآن الكريم : ﴿ وادخلوا الباب سجداً وقولوا حطة نغفر لكم خطاياكم وسنزيد المحسنين فبدّل الذين ظلموا قولاً غير الذي قيل لهم ... ﴾ .

(٣) الحمض : ما ملح من النبات وهو هنا اسم موضع .

(٤) قرية بينها وبين مكة مرحلة واحدة .

(٥) قترة الجيش : غباره .

(٦) خلأت : كما تقول للدابة حرنت . ولايقال خلأت إلا للناقة .

(٧) القليب : منخفض يحفظ بعض ماء المطر حين ينزل . .

لا يدخلها علينا عنوة أبداً ولا تحدّث بذلك عنا العرب . وكانت خزاعة عيبة نصح[١] رسول الله - ﷺ - مسلمها ومشركها ، لا يخفون عنه شيئاً كان بمكة . ثم بعثوا إليه مكرز ابن حفص بن الأخيف أخا بني عامر بن لؤي . فلما رآه رسول الله - ﷺ - مقبلاً قال : « هذا رجل غادر » . فلما انتهى إلى رسول الله - ﷺ - وكلمه ، قال له رسول الله - ﷺ - نحواً مما قال لبديل وأصحابه ؛ فرجع إلى قريش ، فأخبرهم بما قال له رسول الله - ﷺ - ثم بعثوا إليه الحليس بن علقمة أو ابن زبان . وكان يومئذ سيد الأحابيش[٢] ، وهو أحد بني الحارث بن عبد مناة بن كنانة . فلما رآه رسول الله - ﷺ - قال : « إن هذا من قوم يتألهون - يعني يتعبدون - فابعثوا الهدي في وجهه حتى يراه » . فلما رأى الهدي يسيل عليه من عرض الوادي في قلائده ، وقد أكل أوباره من طول الحبس عن محله ، رجع إلى قريش ، ولم يصل إلى رسول الله - ﷺ - إعظاماً لما رأى . فقال لهم ذلك . فقالوا له : اجلس فإنما أنت أعرابي لا علم لك! قال ابن إسحاق : فحدثني عبد الله بن أبي بكر أن الحليس غضب عند ذلك . وقال : يامعشر قريش، والله ما على هذا حالفناكم، ولا على هذا عاقدناكم. أيصدُّ عن بيت الله من جاء معظماً له؟ والذي نفس الحليس بيده لتخلن بين محمد وبين ما جاء له، أو لأنفرن بالأحابيش نفرة رجل واحد. قال: فقالوا له: مهْ. كف عنا ياحليس حتى نأخذ لأنفسنا ما نرضى به. قال الزهري: ثم بعثوا إلى رسول الله - ﷺ - عروة بن مسعود الثقفي فقال: يامعشر قريش، إني قد رأيت ما يلقى منكم من بعثتموه إلى محمد إذا جاءكم من التعنيف وسوء اللفظ. وقد عرفتم أنكم والد وأني ولد (وكان نسبه لأمه في بني عبد شمس) وقد سمعت بالذي نابكم، فجمعت من أطاعني من قومي، ثم جئتكم حتى آسيتكم بنفسي. قالوا: صدقت، ما أنت عندنا بمتَّهم.. فخرج حتى جاء رسول الله - ﷺ - فجلس بين يديه. ثم قال: يامحمد . أجمعت أوشاب الناس ، ثم جئت بهم إلى بيضتك لتفضها بهم[٣] ؟ إنها قريش قد خرجت معها العوذ المطافيل ، قد لبسوا جلود النمور ، يعاهدون الله لا تدخلها عليهم عنوة أبداً . وايم الله لكأني بهؤلاء قد انكشفوا عنك غداً. قال : وأبو بكر خلف رسول الله - ﷺ - قاعد. فزجره[٤] وقال: أنحن

(١) أي وعاء نصح . والمقصود أنهم ناصحون مخلصون . وقد دخلوا في عهد رسول الله - ﷺ - كما سيجيء .
(٢) الأحابيش جمع حُبْشي بضم الحاء وسكون الباء نسبة إلى مكان في البادية .
(٣) بيضة الرجل : أهله وقبيلته . وتفضها أي : تكسرها . وهي كناية عن تحطيمها .
(٤) في الرواية جملة نستبعد صدورها على لسان أبي بكر رضي الله عنه في أدبه وعفة لسانه .

نكشف عنه؟ قال: من هذا يا محمد؟ قال: «هذا ابن أبي قحافة». قال: أما والله لولا يد كانت لك عندي لكافأتك بها. ولكن هذه بها. قال: ثم جعل يتناول لحية رسول الله - ﷺ - وهو يكلمه. قال: والمغيرة بن شعبة واقف على رأس رسول الله - ﷺ - في الحديد. قال: فجعل يقرع يده إذا تناول لحية رسول الله - ﷺ - ويقول: اكفف يدك عن وجه رسول الله ﷺ قبل أن لا تصل إليك قال: فيقول عروة: ويحك! ما أفظّك وأغلظك! قال: فتبسم رسول الله - ﷺ - فقال له عروة: من هذا يا محمد؟ قال: «هذا ابن أخيك المغيرة بن شعبة». قال: أيْ غُدَر[1]. وهل غسلت سوأتك إلا بالأمس؟ قال ابن هشام: أراد عروة بقوله هذا أن المغيرة قبل إسلامه قتل ثلاثة عشر رجلاً من بني مالك من ثقيف؛ فتهايج الحيان من ثقيف: بنو مالك رهط المقتولين. والأحلاف رهط المغيرة. فودى عروة المقتولين ثلاث عشرة دية. وأصلح ذلك الأمر. قال ابن إسحاق: قال الزهري: فكلمه رسول الله - ﷺ - بنحو مما كلم أصحابه، وأخبره أنه لم يأت يريد حرباً. فقام من عند رسول الله - ﷺ - وقد رأى ما يصنع به أصحابه: لا يتوضأ إلا ابتدروا وضوءه، ولا يبصق بصاقاً إلا ابتدروه، ولا يسقط من شعره شيء إلا أخذوه. فرجع إلى قريش فقال: يامعشر قريش، إني جئت كسرى في ملكه، وقيصر في ملكه، والنجاشي في ملكه؛ وإني والله ما رأيت ملكاً في قوم قط مثل محمد في أصحابه؛ ولقد رأيت قوما لا يسلمونه لشيء أبداً. فروا رأيكم. قال ابن إسحاق: وحدثني بعض أهل العلم، أن رسول الله - ﷺ - دعا خراش بن أمية الخزاعي فبعثه إلى قريش بمكة، وحمله على بعير له يقال له: الثعلب. ليبلّغ أشرافهم عنه ما جاء له. فعقروا به جمل رسول الله - ﷺ - وأرادوا قتله، فمنعته الأحابيش، فخلوا سبيله حتى جاء رسول الله ﷺ. قال ابن إسحاق: وحدثني بعض من لا أتهم، عن عكرمة مولى ابن عباس (عن ابن عباس) أن قريشاً كانوا بعثوا أربعين رجلاً منهم - أو خمسين رجلاً - وأمروهم أن يطيفوا بعسكر رسول الله - ﷺ - ليصيبوا لهم من أصحابه أحداً. فأخذوا أخذاً، فأتي بهم رسول الله - ﷺ - فعفا عنهم، وخلى سبيلهم. وقد كانوا رموا في عسكر رسول الله - ﷺ - بالحجارة والنبل. ثم دعا عمرَ بن الخطاب ليبعثه إلى مكة فيبلّغ عنه أشراف قريش ما جاء له. فقال: يا رسول الله إني أخاف قريشاً على نفسي، وليس بمكة من

(١) أي: ياغادر.

بني عدي بن كعب أحد يمنعني . وقد عرفت قريش عداوتي إياها وغلظتي عليها . ولكنني أدلك على رجل أعزّ بها مني . عثمان بن عفان . فدعا رسول الله - ﷺ - عثمان بن عفان ، فبعثه إلى أبي سفيان وأشراف قريش يخبرهم أنه لم يأت لحرب ، وأنه إنما جاء زائراً لهذا البيت ومعظماً لحرمته . قال ابن إسحاق : فخرج عثمان إلى مكة ، فلقيه أبان بن سعيد بن العاص ، حين دخل مكة أو قبل أن يدخلها ؛ فحمله بين يديه ، ثم أجاره حتى بلّغ رسالة رسول الله - ﷺ - فانطلق عثمان حتى أتى أبا سفيان وعظماء قريش ، فبلّغهم عن رسول الله - ﷺ - ما أرسله به ؛ فقالوا لعثمان حين فرغ من رسالة رسول الله - ﷺ - إليهم : إن شئت أن تطوف بالبيت فطف . فقال : ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله - ﷺ - واحتبسته قريش عندها ، فبلغ رسول الله - ﷺ - والمسلمين أن عثمان بن عفان قد قتل . قال ابن إسحاق : فحدثني عبد الله بن أبي بكر ، أن رسول الله - ﷺ - قال : حين بلغه أن عثمان قد قتل - : « لا نبرح حتى نناجز القوم » . فدعا رسول الله - ﷺ - الناس إلى البيعة ، فكانت بيعة الرضوان تحت الشجرة . فكان الناس يقولون بايعهم رسول الله - ﷺ - على الموت . وكان جابر بن عبد الله يقول : إن رسول الله - ﷺ - لم يبايعنا على الموت ، ولكن بايعنا على ألا نفر . فبايع رسول الله - ﷺ - الناس ، ولم يتخلف عنه أحد من المسلمين حضرها إلا الجد بن قيس أخو بني سلمة .فكان جابر بن عبد الله يقول : والله لكأني أنظر إليه لاصقاً بإبط ناقته قد ضبأ إليها (أي : لصق بها) ، يستتر بها من الناس . ثم أتى رسول الله - ﷺ - أن الذي ذكر من أمر عثمان باطل . قال ابن هشام : وحدثني من أثق به ، عمن حدثه بإسناد له ، عن ابن أبي مليكة ، عن ابن عمر ، أن رسول الله - ﷺ - بايع لعثمان ، فضرب بإحدى يديه على الأخرى . قال ابن إسحاق : قال الزهري : ثم بعثت قريش سهيل بن عمرو أخا بني عامر بن لؤي إلى رسول الله - ﷺ - وقالوا له : إيت محمداً فصالحه ، ولا يكن في صلحه إلا أن يرجع عنا عامه هذا ، فوالله لا تحدث العرب عنا أنه دخلها علينا عنوة أبداً . فأتاه سهيل بن عمرو ، فلما رآه رسول الله - ﷺ - مقبلاً قال : قد أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا الرجل » . فلما انتهى سهيل بن عمرو إلى رسول الله - ﷺ - تكلم فأطال الكلام . وتراجعا . ثم جرى بينهما الصلح . فلما التأم الأمر ، ولم يبق إلا الكتاب وثب عمر بن الخطاب فأتى أبا بكر ، فقال : يا أبا بكر ، أليس برسول الله ؟ قال : بلى ! قال : أولسنا بالمسلمين ؟ قال : بلى ! قال : أوليسوا بالمشركين ؟ قال : بلى ! قال : فعلام نعطي

الدنية في ديننا ؟ قال أبو بكر : يا عمر ، الزم غرزه[١] ، فإني أشهد أنه رسول الله . قال عمر : وأنا أشهد أنه رسول الله . ثم أتى رسول الله – ﷺ – فقال : يا رسول الله ، ألست برسول الله ؟ قال : بلى ! قال : أولَسْنا بالمسلمين ؟ قال : بلى ! قال : أوليسوا بالمشركين ؟ قال بلى ! قال : فعلام نعطي الدنية في ديننا ؟ قال : « أنا عبد الله ورسوله ، لن أخالف أمره ، ولن يضيعني » . قال : فكان عمر يقول : مازلت أتصدق وأصوم وأصلي وأعتق من الذي صنعت يومئذ ، مخافة كلامي الذي تكلّمت به ، حتى رجوت أن يكون خيراً ! قال : ثم دعا رسول الله – ﷺ – علي بن أبي طالب – رضوان الله عليه – فقال : « اكتب باسم الله الرحمن الرحيم » قال : فقال سهيل : لا أعرف هذا ، ولكن اكتب باسمك اللهم . فقال رسول الله – ﷺ – « اكتب باسمك اللهم » فكتبها . ثم قال : « اكتب : هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو » . قال : فقال سهيل : لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك ؛ ولكن اكتب اسمك واسم أبيك . قال : فقال رسول الله – ﷺ – : « اكتب : هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله . سهيل بن عمرو . اصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين ، يأمن فيهن الناس ، ويكف بعضهم عن بعض ، على أنه من أتى محمداً من قريش بغير إذن وليه رده عليه ، ومن جاء قريشاً ممن مع محمد لم يردوه عليه ، وأن بيننا عيبة مكفوفة[٢] . وأنه لا إسلال ولا إغلال[٣] ، وأنه من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه ، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه – فتواثبت خزاعة فقالوا : نحن في عقد محمد وعهده ، وتواثبت بنو بكر فقالوا : نحن في عقد قريش وعهدهم – وأنك ترجع عنك عامك هذا فلا تدخل علينا مكة ، وأنه إذا كان عام قابل خرجنا عنها ، فدخلتها بأصحابك ، فأقمت بها ثلاثاً ، معك سلاح الراكب : السيوف في القرب ، لا تدخلها بغيرها . فبينا رسول الله – ﷺ – يكتب الكتاب هو وسهيل بن عمرو ، إذ جاء أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرسف في الحديد ، قد انفلت إلى رسول الله – ﷺ –، وقد كان أصحاب رسول الله – ﷺ – خرجوا وهم لا يشكون في الفتح لرؤيا رسول الله – ﷺ – فلما رأوا ما رأوا من الصلح والرجوع ، وما تحمل عليه رسول الله – ﷺ – دخل الناس من ذلك أمر عظيم حتى كادوا يهلكون . فلما رأى

---

(١) الزم غرزه : أي : التزم طريقه . وأصله وضع القدم في الركاب موضع قدمه .

(٢) أي : تكف عنا ونكف عنك . والأصل أن بيننا وعاء مقفلاً فاستعاره لهذا المعنى .

(٣) الإسلال : السرقة الخفية ، والإغلال : الخيانة .

سهيلٌ أبا جندل قام إليه فضرب وجهه وأخذ بتلبيبه ، ثم قال : يا محمد ، قد لجت(١) القضية بيني وبينك قبل أن يأتيك هذا . قال : « صدقت » فجعل ينتره بتلبيبة ويجره ليرده إلى قريش، وجعل أبو جندل يصرخ بأعلى صوته : يا معشر المسلمين ، أأرد إلى المشركين يفتنوني في ديني ؟ فزاد الناس إلى ما بهم . فقال رسول الله - ﷺ -: « يا أبا جندل ، اصبر واحتسب ، فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً ، إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحاً ، وأعطيناهم على ذلك وأعطونا عهد الله . وإنا لا نغدر بهم » . قال : فوثب عمر بن الخطاب مع أبي جندل يمشي إلى جنبه ، ويقول : اصبر يا أبا جندل ، فإنما هم المشركون ، وإنما دم أحدهم دم كلب . قال : ويدني قائم السيف منه . قال : يقول عمر : رجوت أن يأخذ السيف فيضرب أباه . قال : فضنَّ الرجل بأبيه ، ونفِذت القضية(٢) فلما فرغ من الكتاب أشهد على الصلح رجال من المسلمين ورجال من المشركين : أبو بكر الصديق ، وعمر بن الخطاب ، وعبد الرحمن بن عوف ، وعبد الله بن سهيل بن عمرو ، وسعد بن أبي وقاص ، ومحمود بن مسلمة ، ومكرز بن حفص (وهو يومئذ مشرك) وعلي بن أبي طالب ، وكتب ، وكان هو كاتب الصحيفة . قال الزهري : فلما فرغ من قضية الكتاب قال رسول الله - ﷺ - لأصحابه : « قوموا فانحروا ثم احلقوا » قال : فوالله ما قام منهم رجل ، حتى قال - ﷺ - ذلك ثلاث مرات ، فلما لم يقم منهم أحد دخل -ﷺ - على أم سلمة - رضي الله عنها - فذكر لها ما لقى من الناس . قالت (أم سلمة) - رضي الله عنها - : يا نبي الله ، أتحب ذلك ؟ اخرج ثم لا تكلّم أحداً منهم كلمة حتى تنحر بُدْنك ، وتدعوا حالقك فيحلقك . فخرج رسول الله - ﷺ - فلم يكلّم أحداً منهم حتى فعل ذلك ، نحر بدنه ، ودعا حالقه فحلقه . فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا ، وجعل بعضهم يحلق بعضاً ، حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً غماً . قال ابن إسحاق : فحدثني عبد الله بن أبي نجيح ، عن مجاهد ، عن ابن عباس . قال : حلق رجال يوم الحديبية وقصر آخرون . فقال : رسول الله - ﷺ - : « يرحم الله المحلّقين » . قالوا : والمقصرين يارسول الله ؟ قال :« يرحم الله المحلّقين » . قالوا : والمقصرين يارسول الله ؟ قال : « يرحم الله المحلّقين » . قالوا : والمقصرين يارسول الله ؟ قال :

(١) لجت القضية : انعقدت وانتهى أمرها .
(٢) روي عن أبي جندل أن الذي منعه حرصه على عهد رسول الله ﷺ لا الضن بأبيه ! .

« والمقصرين » . فقالوا : يارسول الله ، فلم ظاهرت الترحيم للمحلقين دون المقصرين ؟ قال : « لم يشكوا » .. قال الزهري في حديثه : ثم انصرف رسول الله ــ ﷺ ــ من وجهه ذلك قافلاً . حتى إذا كان بين مكة والمدينة نزلت سورة الفتح .

وروى الإمام أحمد – بإسناده – عن مجمع بن حارثة الأنصاري – رضي الله عنه – وكان أحد القراء الذين قرأوا القرآن . قال : شهدنا الحديبية ، فلما انصرفنا عنها إذا الناس ينفرون الأباعر ، فقال الناس بعضهم لبعض : ما للناس ؟ قالوا : أوحي إلى رسول الله – صلى الله عليه وآله وسلم – فخرجنا مع الناس نوجف فإذا رسول الله – ﷺ – على راحلته عند كراع الغميم ، فاجتمع الناس عليه فقرأ عليهم : « إنا فتحنا لك فتحا مبينا » .. قال : فقال رجل من أصحاب رسول الله – ﷺ – : أي رسول الله أو فتح هو ؟ قال – ﷺ – : « إي والذي نفس محمد بيده إنه لفتح » .. وروى الإمام أحمد – بإسناده – عن عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – قال : كنا مع رسول الله – ﷺ – في سفر . قال : فسألته عن شيء ثلاث مرات فلم يرد عليَّ . قال : فقلت ثكلتك أمك يا ابن الخطاب . ألححت – كررت – على رسول الله – ﷺ – ثلاث مرات ، فلم يرد عليك ! قال : فركبت راحلتي ، فحركت بعيري ، فتقدمت ، مخافة أن يكون نزل فيَّ شيء . قال : فإذا أنا بمناد ياعمر . قال : فرجعت وأنا أظن أنه نزل فيّ شيء . قال : فقال النبي – صلى الله عليه وسلم – : « نزل عليّ البارحة سورة هي أحب إليّ من الدنيا ومافيها : ﴿ **إنا فتحناً لك فتحاً مبيناً * ليغفر لك الله ماتقدم من ذنبك وما تأخر** ﴾ » .. ورواه البخاري والترمذي والنسائي من طرق عن مالك رحمه الله .. ولنبدأ عرض السورة :

المقطع الأول

ويمتد من الآية (١) إلى نهاية الآية (٧) وهذا هو :

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾ لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٧﴾﴾

التفسير :

﴿ **إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً** ﴾ أي : بيّناً ظاهراً . قال ابن كثير : والمراد به صلح الحديبية فإنه حصل بسببه خير جزيل ، وأمن الناس ، واجتمع بعضهم ببعض ، وتكلم المؤمن مع الكافر ، وانتشر العلم النافع والإيمان ﴿ **ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر** ﴾ أي : يسرنا لك هذا الفتح ليكون سبباً لغفران الذنب اللاحق والسابق ﴿ **ويتمّ نعمته عليك** ﴾ في الدنيا والآخرة بإعلاء دينك وفتح البلاد على يديك ﴿ **ويهديك صراطاً مستقيماً** ﴾ قال ابن كثير : أي بما يشرعه الله من الشرع العظيم ، والدين القويم . أقول : قد يكون المعنى : ويهديك صراطاً مستقيماً في المواقف ، كما هداك إليه في الأقوال والأفعال ﴿ **وينصرك الله نصراً عزيزاً** ﴾ أي : قوياً منيعاً لا ذلّ بعده .

☆ ☆ ☆

فائدة

جعل الله عزّ وجلّ صلح الحديبية فتحاً ظاهراً، ورتّب عليه غفران الذنب السابق واللاحق لرسول الله ﷺ، وإتمام النعمة على رسول الله ﷺ، والهداية إلى الصراط المستقيم والنصر، كل ذلك رتّبه على هذا الصلح فلماذا كان هذا؟ لقد أقدم رسول الله ﷺ على الصلح تعظيماً لحرمة بيت الله، فكافأه الله عز وجل بأن جعل هذا الصلح سبباً لمغفرة ذنبه السابق واللاحق، وسبباً لإتمام نعمته عليه بإظهار دينه وإعلائه فكان الصلح سبباً لانتشار الإسلام إذ حميت الدعوة إليه بلا عوائق، وأرسل الرسول ﷺ الرسل إلى الملوك، وتفرّغ لإنهاء سلطان اليهود في الجزيرة العربية، وقويت قاعدة الإسلام، كما كان سبباً لانتصارات مقبلة على اليهود وعلى قريش نفسها، فلم يكن فتح مكة إلا أثراً عن صلح الحديبية كما هو معروف تاريخياً، وهكذا كافأ الله رسوله ﷺ هذه المكافآت كلها ببركة تعظيمه لبيت الله، مع أن بيت الله كان تحت سلطان الكافرين. قال ابن كثير: ولما كان (أي: رسول الله ﷺ) أطوع خلق الله تعالى وأشدهم تعظيماً لأوامره ونواهيه، قال حين بركت به الناقة: «حبسها حابس الفيل»، ثم قال ﷺ: «والذي نفسي بيده لا يسألوني اليوم شيئاً يعظّمون به حرمات الله إلا أجبتهم إليها» فلما أطاع الله في ذلك وأجاب إلى الصلح قال الله تعالى له ﴿ **إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً * ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتمّ نعمته عليك ويهديك صراطاً مستقيماً * وينصرك الله نصراً عزيزاً** ﴾ قال ابن كثير: أي بسبب خضوعك لأمر الله عز وجل يرفعك الله وينصرك على أعدائك، كما جاء في الحديث الصحيح: «وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً، وماتواضع أحد لله عز وجل إلا رفعه الله تعالى» وعن عمر ابن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: (ماعاقبت أحداً عصى الله تعالى فيك بمثل أن تطيع الله تبارك وتعالى فيه) كان لهذا الصلح هذه الآثار المباركة، مع أن كل الصحابة لم يكونوا متحمّسين له، ولم يكونوا مرتاحين حين عقده، بدليل أن أحداً منهم لم يحلق عندما أمر رسول الله ﷺ بالتحلل حتى أبو بكر، وفي ذلك درس كبير لهذه الأمة في أن رعاية الله لرسوله ﷺ فوق كل رعاية، وأن العمل الذي يقصد فيه وجه الله وطاعته

يجعل الله فيه من الآثار المباركة مالا تخطر على بال ، مهما ظن الناس أن في هذا العمل انكساراً أو انحساراً أو تراجعاً أو ذلاً ، كما نظر عمر إلى المعاهدة على أنها إعطاء الدنية في دين الله عز وجل ، وفي تسمية الله المعاهدة فتحاً درس كبير للمسلمين في أن الفتح ليس فقط في العمل العسكري ، بل قد يكون في العمل السياسي ، حتى الذي ظاهره تراجع أو ذلة . ولنعد إلى التفسير .

☆ ☆ ☆

﴿ **هو الذي أنزل السكينة** ﴾ أي : الطمأنينة ﴿ **في قلوب المؤمنين** ﴾ قال ابن كثير : (وهم الصحابة رضي الله عنهم يوم الحديبية الذين استجابوا لله ولرسوله ﷺ وانقادوا لحكم الله ورسوله ، فلما اطمأنت قلوبهم بذلك واستقرت ، زادهم إيماناً مع إيمانهم ..) ومن ثم قال تعالى ﴿ **ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم** ﴾ أي : ليزدادوا يقيناً إلى يقينهم ﴿ **ولله جنود السموات والأرض** ﴾ منه الجند الحسي ومنه الجند الغيبي ، ومنه الجند المعنوي ، ومن جنوده السكينة التي ينزلها الله على من يشاء من عباده ﴿ **وكان الله عليماً** ﴾ يسخّر مايشاء فيما شاء ﴿ **حكيماً** ﴾ في أفعاله وأقواله وشرعه ، وفي هذه الآية منّة جديدة على رسول الله ﷺ إذ أنزل السكينة على المؤمنين في أكثر من موقف ، وفي أشدّ اللحظات حراجة ، ومن ذلك عندما أحسوا بهزة نفسية نتيجة المعاهدة ، ومع ذلك أطاعوا ونفّذوا ، ثم بيّن الله عز وجل حكمته في الفتح ، وفي إنزال السكينة وهي كما سجّلتها الآيتان اللاحقتان : ﴿ **ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها** ﴾ أي : ماكثين فيها أبداً ﴿ **ويكفّر عنهم سيئاتهم** ﴾ أي : خطاياهم وذنوبهم فلا يعاقبهم عليها ، بل يعفو ويصفح ، ويغفر ويستر ، ويرحم ويشكر ﴿ **وكان ذلك عند الله فوزاً عظيماً** ﴾ وأي فوز أعظم من الفوز بدخول الجنة والزحزحة من النار ﴿ **ويعذّب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات الظانّين بالله ظنّ السوء** ﴾ قال ابن كثير : (أي يتهمون الله تعالى في حكمه ، ويظنون بالرسول ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم أن يُقتلوا ويذهبوا بالكلية) وقال النسفي (والمراد ظنهم أن الله تعالى لا ينصر الرسول ﷺ والمؤمنين ولا يرجعهم إلى مكة ظافرين فاتحيها عنوة وقهراً) ولهذا قال تعالى ﴿ **عليهم دائرة السوء** ﴾ أي : مايظنونه ويتربصونه بالمؤمنين فهو حائق بهم

ودائر عليهم ، والسوء : الهلاك والدمار ﴿ **وغضب الله عليهم ولعنهم** ﴾ أي : أبعدهم من رحمته ﴿**وأعدّ لهم جهنّم وساءت مصيراً**﴾ أي : وساءت جهنم مصيراً ، ثم قال عز وجل مذكراً بقدرته على الانتقام من الأعداء – أعداء الإسلام – من الكفرة والمنافقين ﴿ **ولله جنود السمٰوات والأرض** ﴾ فيدفع كيد من عادى نبيه ﷺ والمؤمنين بما شاء منها ﴿ **وكان الله عزيزاً** ﴾ أي : غالباً فلا يرد بأسه ﴿ **حكيماً** ﴾ فيما يدبّر . ذكر جنده مرتين : المرة الأولى في معرض تأييده للمؤمنين ، ثم ذكرهم ههنا في معرض قدرته على الكافرين ، وبهذا انتهى المقطع الأول الذي هو بمثابة مدخل إلى السورة .

كلمة في السياق :

جاء المقطع الأول بمثابة مدخل ومقدمة للسورة ، فقد ذكر الله عز وجل فيه عنايته برسوله ﷺ ، وبالمؤمنين في أمر دنياهم وأخراهم ، وذكر فيه نصره لهم وهدايته إياهم ، وتحدّث فيه عن جنود السمٰوات والأرض التي تأتمر بأمره عز وجل ، وهي ملك له ، وذلك بين يدي المقطع الذي يبدأ بتبيان مهمات رسول الله ﷺ وواجبات المؤمنين تجاهه .

☆ ☆ ☆

فوائد

١ – قال الألوسي : (وقد خفي ما كان في الحديبية فتحاً على بعض الصحابة حتى بيّنه عليه الصلاة والسلام. أخرج البيهقي عن عروة قال : أقبل رسول الله ﷺ من الحديبية راجعاً فقال رجل من أصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : والله ماهذا بفتح ، ولقد صددنا عن البيت وصُدّ هديُنا ، وعكف رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بالحديبية ، ورد رجلين من المسلمين خرجا ، فبلغ رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ذلك فقال : « بئس الكلام هذا ؛ بل هو أعظم الفتح . لقد رضي المشركون أن يدفعوكم بالراح عن بلادهم ، ويسألونكم القضية ، ويرغبون إليكم في الأمان ، وقد كرهوا منكم ماكرهوا ، وقد أظفركم الله عليهم ، وردكم سالمين غانمين مأجورين فهذا أعظم الفتح ، أنسيتم يوم أحد إذ تُصْعِدون ولا تلوون على أحد وأنا أدعوكم في أخراكم ؟

أنسيتم يوم الأحزاب إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنون » قال المسلمون : صدق الله ورسوله هو أعظم الفتوح ، والله يا نبي الله مافكرنا فيما ذكرت ولأنت أعلم بالله وبالأمور منا) .

وقال صاحب الظلال مبيناً بعض مظاهر الفتح في صلح الحديبية : (فتكون بيعة الرضوان التي فاض منها الخير على الذين فازوا بها وسعدوا وكان هذا هو الفتح ؛ إلى جانب الفتح الآخر الذي تمثل في صلح الحديبية ، وما أعقبه من فتوح شتى في صور متعددة كان فتحاً في الدعوة . يقول الزهري : فما فتح في الإسلام فتح قبله كان أعظم منه . إنما كان القتال حيث التقى الناس . فلما كانت الهدنة ، ووضعت الحرب ، وأمن الناس بعضهم بعضاً ، والتقوا ؛ فتفاوضوا في الحديث والمنازعة ، ولم يكلّم أحد في الإسلام يعقل شيئاً إلا دخل فيه . ولقد دخل في تينك السنتين (بين صلح الحديبية وفتح مكة) مثل من كان في الإسلام قبل ذلك أو أكثر . قال ابن هشام : والدليل على قول الزهري أن رسول الله - ﷺ - خرج إلى الحديبية - في ألف وأربع مئة في قول جابر بن عبد الله - ثم خرج عام فتح مكة بعد ذلك بسنتين في عشرة آلاف . وكان ممن أسلم خالد بن الوليد وعمرو بن العاص. وكان فتحاً في الأرض . فقد أمن المسلمون شر قريش ، فاتجه رسول الله - ﷺ - إلى تخليص الجزيرة من بقايا الخطر اليهودي - بعد التخلص من بني قينقاع وبني النضير وبني قريظة - وكان هذا الخطر يتمثل في حصون خيبر القوية التي تهدد طريق الشام . وقد فتحها الله على المسلمين ، وغنموا منها غنائم ضخمة ، جعلها رسول الله - ﷺ - فيمن حضر الحديبية دون سواهم . وكان فتحا في الموقف بين المسلمين في المدينة وقريش في مكة وسائر المشركين حولها . يقول الأستاذ محمد عزة دروزة بحق في كتابه : « سيرة الرسول صور مقتبسة من القرآن الكريم) : ولا ريب في أن هذا الصلح الذي سماه القرآن بالفتح العظيم يستحق هذا الوصف كل الاستحقاق . بل إنه ليصح أن يعد من الأحداث الحاسمة العظمى في السيرة النبوية ، وفي تاريخ الإسلام وقوته وتوطده ، أو بالأحرى من أعظمها . فقد اعترفت قريش بالنبي والإسلام وقوتهما وكيانهما ، واعتبرت النبي والمسلمين أنداداً لها ، بل دفعتهم عنها بالتي هي أحسن ، في حين أنها غزت المدينة في سنتين مرتين ، وكانت الغزوة الأخيرة قبل سنة من هذه الزيارة ، وبحشد عظيم مؤلف منها ومن أحزابها لتستأصل شأفتهم ، وبعثت هذه الغزوة في نفوس المسلمين أشد الاضطراب والهلع ؛ لضعفهم وقلتهم إزاء الغزاة . ولهذا شأن عظيم في نفوس العرب ، الذين كانوا يرون في قريش الإمام والقدوة ، والذين كانوا

متأثرين بموقفهم الجحودي كل التأثر ، وإذا لوحظ أن الأعراب كانوا يقدرون أن النبي والمسلمين لن يعودوا سالمين من هذه الرحلة ، وأن المنافقين كانوا يظنون أسوأ الظنون . بدت لنا ناحية من نواحي خطورة هذا الفتح وبعد مداه . ولقد أثبتت الأحداث صدق إلهام النبي - ﷺ - فيما فعل ، وأيده فيه القرآن ، وأظهرت عظم الفوائد المادية والمعنوية والسياسية والحربية والدينية التي عادت على المسلمين منه . إذ قووا في عيون القبائل ، وبادر المتخلفون من الأعراب إلى الاعتذار ، وازداد صوت المنافقين في المدينة خفوتاً وشأنهم ضآلة ، وإذ صار العرب يفدون على النبي - ﷺ - من أنحاء قاصية ، وإذ تمكّن من خضد شوكة اليهود في خيبر وغيرها من قراهم المتناثرة على طريق الشام ، وإذ صار يستطيع أن يبعث بسراياه إلى أنحاء قاصية كنجد واليمن والبلقاء ، وإذ استطاع بعد سنتين أن يغزو مكة ويفتحها ، وكان في ذلك النهاية الحاسمة ، إذ جاء نصر الله والفتح ، ودخل الناس في دين الله أفواجاً .. ونحن نعود فنؤكد أنه كان هناك - إلى جانب هذا كله - فتح آخر . فتح في النفوس والقلوب ، تصوره بيعة الرضوان ، التي رضي عنها الله وعن أصحابها ذلك الرضى الذي وصفه القرآن . ورسم لهم على ضوئه تلك الصورة الوضيئة الكريمة في نهاية السورة : ﴿ **محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار..** ﴾ الخ . فهذا فتح في تاريخ الدعوات ، له حسابه ، وله دلالته ، وله آثاره بعد ذلك في التاريخ .

٢ - قدّم ابن كثير لسورة الفتح بقوله : (نزلت هذه السورة الكريمة لما رجع رسول الله ﷺ من الحديبية في ذي القعدة من سنة ست من الهجرة ، حين صدّه المشركون عن الوصول إلى المسجد الحرام فيقضي عمرته فيه ، وحالوا بينه وبين ذلك ، ثم مالوا إلى المصالحة والمهادنة ، وأن يرجع عامه هذا ثم يأتي من قابل ، فأجابهم إلى ذلك على تكره من جماعة من الصحابة ، منهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه - كما سيأتي تفصيله في موضعه من تفسير هذه السورة إن شاء الله تعالى - فلما نحر هديه حيث أحصر ورجع ، أنزل الله عز وجل هذه السورة فيما كان من أمره وأمرهم ، وجعل ذلك الصلح فتحاً ، باعتبار ما فيه من المصلحة ، وما آل الأمر إليه ، كما روى ابن مسعود رضي الله عنه وغيره أنه قال : إنكم تعدون الفتح فتح مكة ، ونحن نعد الفتح صلح الحديبية ، وقال الأعمش عن أبي سفيان عن جابر رضي الله عنه قال : ما كنا نعد الفتح إلا يوم الحديبية . وروى البخاري عن البراء رضي الله عنه قال : تعدون أنتم الفتح فتح مكة ، وقد كان فتح مكة فتحاً ، ونحن نعد الفتح بيعة الرضوان يوم الحديبية ؛ كنا مع

رسول الله ﷺ أربع عشرة مائة ، والحديبية بئر ، فنزحناها فلم نترك فيها قطرة ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فأتاها فجلس على شفيرها ، ثم دعا بإناء من ماء فتوضأ ثم تمضمض ودعا ثم صبه فيها ، فتركناها غير بعيد ثم إنها أصدرتنا ما شئنا نحن وركائبنا ..)

٣ - بمناسبة قوله تعالى ﴿ **ليغفر لك الله ما تقدّم من ذنبك وما تأخر** ﴾ قال ابن كثير : (وروى الإمام أحمد عن مجمع بن حارثة الأنصاري رضي الله عنه - وكان أحد القراء الذين قرأوا القرآن - قال : شهدنا الحديبية ، فلما انصرفنا عنها إذا الناس ينفرون الأباعر ، فقال الناس بعضهم لبعض : ماللناس ؟ قالوا أوحي إلى رسول الله ﷺ ، فخرجنا مع الناس نوجف ، فإذا رسول الله ﷺ على راحلته عند كراع الغميم ، فاجتمع الناس عليه فقرأ عليهم ﴿ **إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً** ﴾ قال : فقال رجل من أصحاب رسول الله ﷺ : أي رسول الله أو فتح هو ؟ قال ﷺ « إي والذي نفس محمد بيده إنه لفتح » قسمت خيبر على أهل الحديبية لم يدخل معهم فيها أحد إلا من شهد الحديبية ، فقسمها رسول الله ﷺ ثمانية عشر سهماً ، وكان الجيش ألفاً وخمسمائة منهم ثلثمائة فارس ، فأعطى الفارس سهمين ، وأعطى الراجل سهماً ، ورواه أبو داود في الجهاد وروى ابن جرير عن عبد الرحمن بن أبي علقمة قال : سمعت عبد الله بن مسعود رضي الله عنه يقول : لما أقبلنا من الحديبية عرسنا فنمنا ، فلم نستيقظ إلا والشمس قد طلعت ، فاستيقظنا ورسول الله ﷺ نائم قال : فقلنا : أيقظوه فاستيقظ رسول الله ﷺ فقال : « افعلوا ما كنتم تفعلون ، وكذلك يفعل من نام أو نسي » قال : وفقدنا ناقة رسول الله ﷺ ، فطلبناها فوجدناها قد تعلق خطامها بشجرة ، فأتيته بها فركبها ، فبينا نحن نسير إذ أتاه الوحي ، قال : وكان إذا أتاه الوحي اشتد عليه ، فلما سري عنه أخبرنا أنه أنزل عليه ﴿ **إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً** ﴾ وقد رواه أحمد وأبو داود والنسائي من غير وجه عن جامع بن شداد به وروى الإمام أحمد عن المغيرة بن شعبة قال : كان النبي ﷺ يصلي حتى ترم قدماه ، فقيل له أليس قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ فقال ﷺ : « أفلا أكون عبداً شكورا ؟ » أخرجاه وبقية الجماعة إلا أبا داود من حديث زياد به . وروى الإمام أحمد عن عائشة رضي الله عنها قالت : كان رسول الله ﷺ إذا صلى قام حتى تتفطر رجلاه ، فقالت له عائشة رضي الله عنها : يارسول الله أتصنع هذا وقد غفر لك الله ما تقدّم من ذنبك وما تأخّر ؟ فقال ﷺ : « يا عائشة أفلا أكون عبداً شكوراً » أخرجه مسلم في الصحيح من رواية عبد الله بن وهب به . وروى ابن أبي حاتم عن قتادة عن أنس قال : قام رسول الله ﷺ حتى تورّمت قدماه - أو قال

ساقاه - فقيل له أليس الله قد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ قال « أفلا أكون عبداً شكوراً » غريب من هذا الوجه . فقوله سبحانه : ﴿ **إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً** ﴾ أي : بيناً ظاهراً ، والمراد به صلح الحديبية ، فإنه حصل بسببه خير جزيل ، وآمن الناس واجتمع بعضهم ببعض ، وتكلم المؤمن مع الكافر ، وانتشر العلم النافع والإيمان ، وقوله تعالى ﴿ **ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر** ﴾ هذا من خصائصه ﷺ التي لا يشاركه فيها غيره ، وليس في حديث صحيح في ثواب الأعمال لغيره غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، وهذا فيه تشريف عظيم لرسول الله ﷺ ، وهو ﷺ فى جميع أموره على الطاعة والبر ، والاستقامة التي لم ينلها بشر سواه لا من الأولين ولا من الآخرين ، وهو ﷺ أكمل البشر على الإطلاق ، وسيدهم في الدنيا والآخرة ، ولما كان أطوع خلق الله تعالى وأشدهم تعظيماً لأوامره ونواهيه قال حين بركت به الناقة : « حبسها حابس الفيل » ، ثم قال ﷺ : « والذي نفسي بيده لا يسألوني اليوم شيئاً يعظمون به حرمات الله إلا أجبتهم إليها » فلما أطاع الله في ذلك وأجاب إلى الصلح قال الله تعالى له ﴿ **إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً * ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك** ﴾ أي : في الدنيا والآخرة) .

٤ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم** ﴾ قال ابن كثير : (وقد استدل بها البخاري وغيره من الأئمة على تفاضل الإيمان في القلوب) وقال الألوسي عند قوله تعالى : ﴿ **لِيَزْدَادُوا إيماناً مَعَ إيمانهمْ** ﴾ أي : يقيناً مع يقينهم برسوخ العقيدة واطمئنان النفوس عليها ، على أن الإيمان الثابت في الأزمنة نزل تجدد أزمانه منزلة تجدده وازدياده ، فاستعير له ذلك ورشح بكلمة مع ، وقيل : ازدياد الإيمان بازدياد مايؤمن به ، وروي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما : أن أول ما أتاهم به النبي ﷺ التوحيد ، ثم الصلاة والزكاة ، ثم الحج والجهاد ، فازدادوا إيماناً مع إيمانهم ، ومن قال : الأعمال من الإيمان قال بأنه نفسه - أي الإيمان المركب من ذلك وغيره - يزيد وينقص ، ولم يحتج في الآية إلى تأويل ، بل جعلها دليلاً له ، وتفصيل الكلام في هذا المقام أنه ذهب جمهور الأشاعرة والقلانسي والفقهاء والمحدثون والمعتزلة إلى أن الإيمان يزيد وينقص ، ونقل ذلك عن الشافعي ومالك ، وقال البخاري : لقيت أكثر من ألف رجل من العلماء بالأمصار فما رأيت أحداً منهم يختلف في أن الإيمان قول وعمل ، ويزيد وينقص ، واحتجوا على ذلك بالعقل والنقل ، أما الأول فلأنه لو لم تتفاوت حقيقة

الإيمان لكان إيمان آحاد الأمة المنهمكين في الفسق والمعاصي مساوياً لإيمان الأنبياء عليهم السلام مثلاً واللازم باطل فكذا الملزوم ، وأما الثاني فلكثرة النصوص في هذا المعنى ، منها الآية المذكورة ، ومنها ماروي عن ابن عمر رضي الله عنهما قلنا : يا رسول الله إن الإيمان يزيد وينقص ؟ قال : «نعم يزيد حتى يدخل صاحبه الجنة ، وينقص حتى يدخل صاحبه النار» ، ومنها ماروي عن عمر ، وجابر رضي الله تعالى عنهما مرفوعاً «لو وزن إيمان أبي بكر بإيمان هذه الأمة لرجح به» .

المقطع الثاني

ويمتد من الآية (٨) إلى نهاية السورة أي إلى نهاية الآية (٢٩) وهذا هو :

إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَـٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾

الفقرة الأولى

المجموعة الأولى من الفقرة الأولى

سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٢﴾ وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَـٰفِرِينَ سَعِيرًا

﴿١٣﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَكَانَ
ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾

المجموعة الثانية من الفقرة الأولى

سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن
يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ
تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾

المجموعة الثالثة من الفقرة الأولى

قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ
أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ
يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا
عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا
ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾

الفقرة الثانية

المجموعة الأولى من الفقرة الثانية

لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ

فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ
ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ
وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا
﴿٢٠﴾ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا
﴿٢١﴾ وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾
سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾

المجموعة الثانية من الفقرة الثانية

وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ
عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾ هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ
ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ
مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ
فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾
إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ
رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ
بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾

الفقرة الثالثة

لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّءْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾

التفسير :

﴿ **إنا أرسلناك شاهداً** ﴾ قال ابن كثير : أي على الخلق ، وقال النسفي : أي تشهد على أمتك يوم القيامة . أقول : وأمته كل الخلق لأنه مرسل إلى الثقلين جميعاً الإنس والجن ﴿ **ومبشّراً** ﴾ أي : للمؤمنين بالجنة ﴿ **ونذيراً** ﴾ أي : للكافرين من النار ﴿ **لتؤمنوا** ﴾ أيها الخلق جميعاً ﴿ **بالله ورسوله** ﴾ أي : لتصدقوا بالله وبأن محمداً رسول الله ﷺ ﴿ **وتعزّروه** ﴾ أي : وتقووه بالنصر ، أي : وتنصروه ﴿ **وتوقّروه** ﴾ من التوقير أي : وتعظموه وتحترموه وتجلّوه ﴿ **وتسبّحوه** ﴾ قال ابن كثير : أي تسبحون الله ﴿ **بكرةً وأصيلاً** ﴾ أي : أول النهار وآخره ، أي صلاة الفجر والصلوات

الأربع ، والنسفي يرى أن الضمائر كلها ترجع إلى الله ﴿ **وتعزروه وتوقّروه وتسبّحوه** ﴾ فتعزير الله تعزير دينه ورسوله ، وتوقير الله تعظيمه ، وتسبيحه تنزيهه ، قال : (ومن فرّق الضمائر فجعل الأوّلَيْن للنبي ﷺ فقد أبعد) ثم قال تعالى لرسوله ﷺ تشريفاً له وتكريماً وتعظيماً ﴿ **إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله** ﴾ أي : إن عقد الميثاق مع الرسول ﷺ كعقده مع الله من غير تفاوت بينهما ، وفي ذلك تشريف عظيم لرسول الله ﷺ إذ أقامه الله عز وجل هذا المقام ﴿ **يد الله فوق أيديهم** ﴾ قال ابن كثير : (أي هو حاضر معهم يسمع أقوالهم ويرى مكانهم ويعلم ضمائرهم وظواهرهم ، فهو تعالى هو المبايع بواسطة رسول الله ﷺ) ﴿ **فمن نكث** ﴾ أي : نقض العهد ولم يف بالبيعة ﴿ **فإنما ينكث على نفسه** ﴾ فلا يعود ضرر نكثه إلا عليه قال ابن كثير : أي إنما يعود وبال ذلك على الناكث والله غني عنه ﴿ **ومن أوفىٰ بما عاهد عليهُ الله فسيؤتيه أجراً عظيماً** ﴾ أي : ثواباً جزيلاً ، أي : الجنة .

فائدة

(قرأ الجمهور (عليهِ) بكسر الهاء كما هو الشائع ، وضمها حفص هنا ، قيل : وجه الضم إنها هاء هو وهي مضمومة فاستصحب ذلك كما في له وضربه ، ووجه الكسر رعاية الياء ، وكذا في إليه وفيه ، وكذا فيما إذا كان قبلها كسرة نحو به ، ومررت بغلامه لثقل الانتقال من الكسر إلى الضم ، وحسن الضم في الآية التوصل به إلى تفخيم لفظ الجلالة الملائم لتفخيم أمر العهد المشعر به الكلام ، وأيضاً إبقاء ما كان على ما كان ملائم للوفاء بالعهد وإبقائه وعدم نقضه) .

كلمة في السياق :

١ - جاء قوله تعالى ﴿ **إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً** ﴾ بين جملتين من المعاني ، كلها تفيد كرامة رسول الله ﷺ على الله ، فقد سبق ذلك المقطع الأول بمعانيه ، وجاء بعد ذلك أن بيعة رسول الله ﷺ هي بيعة لله ، وهذا كله يدفع لتحقيق الواجب نحو الله ، ونحو رسوله ﷺ من إيمان وتعزير وتوقير ..

٢ - في محور السورة ورد قوله تعالى ﴿ **فبعث الله النّبيين مبشّرين ومنذرين** ﴾ وههنا ذكر أن محمداً ﷺ شاهد وبشير ونذير ، وذكر مع ذلك ماذا يترتب على ذلك من واجبات نحو الله . ونحو رسوله ﷺ كأثر عن ذلك .

٣ - تأتي الآن فقرة تتألف من ثلاث مجموعات . وهي تتحدّث عن المخلفين كنموذج على طائفة لم تقم بحق الله وحق رسوله ﷺ ، ثم تأتي فقرة تتحدّث عمّن قام بحق ذلك ، ثمّ تأتي فقرة ثالثة ، فالمقطع الثاني يتألف من ثلاث فقرات سنراها .

٤ - في سورة الأحزاب ذكر الله عز وجل ﴿ **وزلزلوا زلزالاً شديداً** ﴾ ، وههنا يذكر الله عزّ وجلّ الفتح ، ولذلك صلاته بمحور السورة : ﴿ **وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب** ﴾ وهذا مظهر من مظاهر التكامل في مجموعات قسم المثاني .

٥ - إذا كانت سورة الفتح هي التي تبيّن كيف يتنزل نصر الله على العصبة المؤمنة فإنها في الوقت نفسه تذكر الصفات التي يجب أن تتوافر في العصبة المؤمنة ، كما تذكر لنا أنواعاً من الناس يسقطون بين يدي النصر ، وتبين لنا كيف ينبغي أن يعامل هؤلاء فيما بعد فلنلاحظ ذلك ونحن نقرأ تفسير السورة . ومما مرّ نعرف أن نقطة الانطلاق نحو النصر هي التعبئة الشاملة للمعركة الحاسمة والبيعة على القتال .

☆　☆　☆

الفقرة الأولى من المقطع الثاني

تفسير المجموعة الأولى من الفقرة الأولى

﴿ **سيقول لك** ﴾ إذا رجعت من الحديبية ﴿ **المخلفون من الأعراب** ﴾ هم الذين خلفوا عن الحديبية ﴿ **شغلتنا أموالنا وأهلونا** ﴾ اعتلّوا بالشغل بأهاليهم وأموالهم ، وأنه ليس لهم من يقوم بأشغالهم ﴿ **فاستغفر لنا** ﴾ أي : ليغفر الله لنا تخلّفنا عنك ﴿ **يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم** ﴾ هذا تكذيب من الله لهم في اعتذارهم ، فليس الذي خلّفهم ما يقولون ، وإنما هو الشك في الله والنفاق ، وطلبهم الاستغفار أيضاً ليس بصادر عن حقيقة . قال ابن كثير : (يقول تعالى مخبراً رسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم بما يعتذر به المخلفون من الأعراب الذين اختاروا المقام في أهليهم وشغلهم ، وتركوا

المسير مع رسول الله ﷺ فاعتذروا بشغلهم بذلك ، وسألوا أن يستغفر لهم رسول الله ﷺ ، وذلك قول منهم لا على سبيل الاعتقاد بل على وجه التقية والمصانعة ؛ ولهذا قال تعالى ﴿ **يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم قل فمن يملك لكم من الله شيئاً إن أراد بكم ضراً أو أراد بكم نفعاً ؟** ﴾) وقال النسفي عن هؤلاء : (هم الذين خلّفوا عن الحديبية وهم أعراب غفار ومزينة وجهينة وأسلم وأشجع والدئل ، وذلك أنه عليه الصلاة والسلام حين أراد المسير إلى مكة عام الحديبية معتمراً استنفر من حول المدينة من الأعراب وأهل البوادي ليخرجوا معه حذراً من قريش أن يعرضوا له بحرب ، أو يصدوه عن البيت ، وأحرم هو ﷺ وساق معه الهدي ليعلم أنه لا يريد حرباً ، فتثاقل كثير من الأعراب وقالوا : يذهب إلى قوم غزوه في عقر داره بالمدينة ، وقتلوا أصحابه فيقاتلهم ، وظنوا أنه يهلك فلا ينقلب إلى المدينة) قال تعالى مخاطباً هؤلاء المنافقين : ﴿ **قل فمن يملك لكم من الله شيئاً** ﴾ أي : فمن يمنعكم من مشيئة الله وقضائه ﴿ **إن أرادر بكم ضراً** ﴾ أي : ما يضركم من قتل أو هزيمة ﴿ **أو أراد بكم نفعاً** ﴾ من غنيمة وظفر أو غير ذلك قال ابن كثير : أي لا يقدر أحد أن يرد ما أراده الله فيكم تعالى وتقدس ، وهو العليم بسرائركم وضمائركم ، وإن صانعتمونا ونافقتمونا ، ولهذا قال تعالى ﴿ **بل كان الله بما تعملون خبيراً** ﴾ تخلفوا عن رسول الله ﷺ خوفاً من الضر ، ورغبة في النفع فبيّن الله عز وجل أن الضر بيده ، والنفع بيده في كل حال ، فلا ينفعهم بقاء إن أراد إضرارهم ، ولا يضرهم ذهاب إن أراد نفعهم . ثم بيّن الله عز وجل السبب الحقيقي لتخلفهم ، وأنه ليس ما أعتذروا به ، فقال ﴿ **بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبداً** ﴾ قال ابن كثير : أي لم يكن تخلفكم تخلف معذور ولا عاص ، بل تخلف نفاق .. اعتقدتم أنهم (أي : الرسول ﷺ وأصحابه) يقتلون وتستأصل شأفتهم وتستباد خضراؤهم ، ولا يرجع منهم مخبر ﴿ **وزُيّن ذلك في قلوبكم** ﴾ أي : وزين الشيطان لكم هذا المعنى ﴿ **وظننتم ظن السوء** ﴾ أي : اعتقدتم الاعتقاد الشرير السيء من علو الكفر وظهور الفساد ﴿ **وكنتم قوماً بوراً** ﴾ أي : فاسدين في أنفسكم وقلوبكم ونياتكم ، لا خير فيكم ، أو هلكى عند الله ، مستحقين لسخطه وعقابه ﴿ **ومن لم يؤمن بالله ورسوله** ﴾ أي : من لم يجتمع له الإيمان بالله والإيمان برسوله ﷺ ﴿ **فإنا أعتدنا للكافرين سعيراً** ﴾ أي : ناراً تسعر ، دلّ ذلك على أن هؤلاء كافرون وإن أظهروا خلاف ذلك . قال : ابن كثير في الآية : (أي من لم يخلص العمل في الظاهر والباطن لله تعالى ، فإن الله تعالى سيعذبه في السعير وإن أظهر للناس ما يعتقدون خلاف

ما هو عليه في نفس الأمر) ثم ختم الله عز وجل هذه المجموعة بقوله ﴿ **ولله ملك السموٰات والأرض** ﴾ فالخلق كلهم ملكه ، فعليهم أن لا يخرجوا عن أمره ، وعليهم أن ينصروا رسوله ﷺ ، ويجلوه ويؤمنوا به ، إذ الجميع مفتقرون لله ، ناصيتهم بيده ، وكل شيء فله ومنه ، وإذ كان هو المالك المطلق التصرف ﴿ **يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء** ﴾ أي : يغفر ويعذب بمشيئته وحكمته ، ومن مظاهر حكمته المغفرة للمؤمنين والتعذيب للكافرين ﴿ **وكان الله غفوراً رحيماً** ﴾ أي : لمن تاب إليه وأناب وخضع لديه ، وفي ذلك دعوة للخلق للعبودية الخالصة له ، والتوبة والإنابة إليه .

....

كلمة في السياق :

١ - ورد في هذه المجموعة قوله تعالى ﴿ **وظننتم ظنّ السوء وكنتم قوماً بوراً** ﴾ وقد جاء في المقطع الأول قوله تعالى ﴿ **ويعذب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات الظانين بالله ظنّ السوء عليهم دائرة السوء** ﴾ فما جاء في هذه المجموعة هو نموذج على ظن السوء الذي عليه المنافقون والذي ورد في المقطع الأول .

٢ - إن النصر يحتاج إلى تعبئة ، والتعبئة هي المحك الرئيسي لإيمان المؤمنين ، ونفاق المنافقين ، فمن أراد النصر بدون أن يدفع ثمنه فهو مخطىء .

٣ - في هذه المجموعة أرانا الله تعالى عز وجل موقف أهل النفاق من التعبئة والنفير ، إذا أحسّوا بالخطر ، وفي المجموعة التالية سنرى كيف أنهم يندفعون إذا شمّوا رائحة المكاسب والمغانم .

....

تفسير المجموعة الثانية من الفقرة الأولى

﴿ **سيقول المخلّفون** ﴾ الذين تخلفوا عن رسول الله ﷺ في عمرة الحديبية ﴿ **إذا انطلقتم إلى مغانم** ﴾ أي : إلى غنائم ، والمراد بذلك خروج المسلمين إلى خيبر ليخضعوها لكلمة الله ، وكان في ذلك غنائم محققة بوعد الله الذي سنراه في هذه السورة ، ومن ثم

قال تعالى ﴿ **لتأخذوها** ﴾ أي: لتأخذوا غنائمها ﴿ **ذرونا نتبعكم** ﴾ أي: دعونا نسير معكم، فهم الآن يسألون أن يخرجوا معهم إلى المغنم لثقتهم أن المغنم حاصل، ولكنهم يتخلفون عندما يظنون غير ذلك ﴿ **يريدون أن يبدّلوا كلام الله** ﴾ أي: يريدون بذهابهم إلى خيبر أن يغيّروا موعد الله لأهل الحديبية بمغانم خيبر وحدهم لا يشاركهم فيها غيرهم من الأعراب المتخلفين، فلا يقع غير ذلك شرعاً ولا قدراً، ثم قال تعالى لرسوله ﷺ أن لا يأذن لهم في ذلك قال تعالى ﴿ **قل لن تتّبعونا** ﴾ أي: إلى خيبر ﴿ **كذلكم قال الله من قبل** ﴾ أي: إن غنيمة خيبر لمن شهد الحديبية دون غيرهم. قال ابن كثير: أي وعد الله أهل الحديبية قبل سؤالكم الخروج معهم ﴿ **فسيقولون بل تحسدوننا** ﴾ أي: لم يأمركم الله به بل تحسدوننا أن نشارككم في الغنيمة فهم دائماً سيّئو الظن بالله ورسوله والمؤمنين. قال تعالى ﴿ **بل كانوا لا يفقهون إلا قليلاً** ﴾ أي ليس الأمر كما زعموا ولكن لا فهم لهم، وقد دلّت الآية على أن الذين يستحقون المغانم هم الذين يتحملون المغارم، وفي هذا درس كبير للمسلمين، فكثيراً ما دفعوا المغارم وأعطوا غيرهم المغانم، يدفعون الدم ويسمحون لغيرهم أن يقطف الثمرة.

كلمة في السياق:

عرضت لنا هذه المجموعة الوجه الثاني للمنافقين، وفي كل من المجموعتين الأولى والثانية رأينا أن المنافقين لا يؤمنون بالله ورسوله، ولا ينصرون رسول الله ﷺ، ولا يوقرونه ولا يعظمونه؛ ومن ثم فهم لا يحققون الحكمة التى من أجلها بعث الله رسوله ﷺ. وبعد أن عرض الله عز وجل هذين الوجهين للمنافقين وأرانا صورتهم، تأتي الآن مجموعة تفتح لهؤلاء المنافقين طريق التوبة، وتدلهم على ما يصححون به المسار.

....

تفسير المجموعة الثالثة من الفقرة الأولى

﴿ **قل للمخلّفين من الأعراب** ﴾ أي: الذين تخلّفوا عن الحديبية ﴿ **ستُدعون إلى قوم أولي بأس شديد** ﴾ قال النسفي: (يعنى بني حنيفة قوم مسيلمة وأهل الردة الذين حاربهم أبو بكر رضي الله عنه؛ لأن مشركي العرب والمرتدين هم الذين لا يقبل منهم إلا

الإسلام أو السيف) . وقد وصف الله هؤلاء بقوله ﴿ **تقاتلونهم أو يسلمون** ﴾ فدلّ ذلك على أن المراد بهؤلاء هم العرب ؛ لأن العرب وحدهم لا يقبل منهم إلا الإسلام أو السيف ، ففي الآية إخبار عن غيب وقع بعد ذلك ، ثم قال تعالى ﴿ **فإن تطيعوا** ﴾ أي : تستجيبوا وتنفروا في الجهاد ، وتؤدوا الذي عليكم فيه ﴿ **يؤتكم الله أجراً حسناً** ﴾ هو الجنة . قال النسفي : وفي الآية دلالة على صحة خلافة الشيخين حيث وعدهم الثواب على طاعة الداعي عند دعوته بقوله ﴿ **فإن تطيعوا** ﴾ من دعاكم إلى قتاله ﴿ **يؤتكم الله أجراً حسناً** ﴾ فوجب أن يكون الداعي مفترض الطاعة ، ثم قال تعالى ﴿ **وإن تتولوا كما توليتم من قبل** ﴾ يعني : زمن الحديبية حيث دعيتم فتخلفتم ﴿ **يعذبكم عذاباً أليماً** ﴾أي : في الآخرة ، ثم ذكر الله تعالى الأعذار التي تبيح ترك الجهاد ، فمنها لازم : كالعمى والعرج ، وعارض : كالمرض الذي يطرأ أياماً ثم يزول ، فصاحبه في حال مرضه ملحق بذوي الأعذار اللازمة حتى يبرأ ، أما إذا كان مريضاً مرضاً لا يبرأ فهو من أصحاب الأعذار اللازمة . وقد ذكر الله عز وجل الأعذار التي يباح بها ترك الجهاد في هذا السياق للبيان بأن هؤلاء لا يطالبون بالاستجابة لدعوة الجهاد فقال تعالى ﴿ **ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج** ﴾ قال النسفي : نفى الحرج عن ذوي العاهات في التخلف عن الغزو ﴿ **ومن يطع الله ورسوله** ﴾ في الجهاد وغيره ﴿ **يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار ومن يتول** ﴾ أي : يعرض عن الطاعة فينكل عن الجهاد وغيره ، ويقبل على المعاش على حساب الطاعة ﴿ **يعذبه عذاباً أليماً** ﴾ قال ابن كثير : في الدنيا بالمذلة ، وفي الآخرة بالنار ، وبهذا انتهت الفقرة الأولى من المقطع الثاني .

....

كلمة في السياق :

١ - تحدثت هذه الفقرة في مجموعاتها الثلاث عن المنافقين ، وفتحت الطريق العملي هم من أجل أن يتوبوا ، وهو الجهاد الشاق الذي لا طمع فيه ، فالتخلف عن التعبئة نفاق ، والخلاص من النفاق يحتاج إلى مشاركة في تعبئة ، وصلة ذلك بفاتحة المقطع واضحة ﴿ **لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه ..** ﴾ .

٢ - جاء في المقطع الأول قوله تعالى ﴿ **ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات ..** ﴾

وختمت هذه الفقرة بقوله تعالى : ﴿ **ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات** .. ﴾فدلّ ذلك على أن دخول الجنة منوط بالطاعة في أمر الجهاد وغيره .

٣ – عرضت علينا الفقرة التي مرّت معنا صفات نموذج من الناس لم يؤمن برسول الله ﷺ ولم ينصره ولم ينصر دين الله ، والآن تأتي فقرة تحدّثنا عن نموذج آخر ، نموذج حقّق قول الله تعالى عز وجل : ﴿ **لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزّروه وتوقّروه وتسبّحوه بكرة وأصيلاً** ﴾ .

٤ – ورد في فواتح هذا المقطع قوله تعالى ﴿ **إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله** .. ﴾ وها هي هذه الفقرة تبدأ بقوله تعالى : ﴿ **لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة** .. ﴾ .

☆ ☆ ☆

الفقرة الثانية من المقطع الثاني

تفسير المجموعة الأولى من الفقرة الثانية :

﴿ **لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة** ﴾ هي بيعة الرضوان وسميت بذلك لهذه الآية. قال ابن كثير : يخبر الله تعالى عن رضاه عن المؤمنين الذين بايعوا رسول الله ﷺ تحت الشجرة ، وقد تقدم ذكر عدتهم ، وأنهم كانوا ألفاً وأربعمائة ، وأن الشجرة كانت سمرة بأرض الحديبية ﴿ **فعلم ما في قلوبهم** ﴾ قال النسفي : من الإخلاص وصدق الضمائر فيما بايعوا عليه وقال ابن كثير : من الصدق والوفاء والسمع والطاعة ﴿ **فأنزل السكينة عليهم** ﴾ قال ابن كثير : وهي الطمأنينة ﴿ **وأثابهم فتحاً قريباً** ﴾ أي : فكافأهم على الخير الذي في قلوبهم بالسكينة في قلوبهم ، والفتح والنصر القريب في الدنيا ، وفسر ابن كثير الفتح القريب بقوله : وهو ما أجرى الله عز وجل على أيديهم من الصلح بينهم وبين أعدائهم ، وما حصل بذلك من الخير العام المستمر المتّصل بفتح خيبر وفتح مكة ، ثم فتح سائر البلاد والأقاليم عليهم ، وما حصل لهم من العز والنصر والرفعة في الدنيا والآخرة ، ولهذا قال تعالى ﴿ **ومغانم كثيرة يأخذونها** ﴾ قال النسفي (هي مغانم خيبر ، وكانت أرضاً ذات عقار وأموال فقسّمها عليهم) ويفهم من كلام ابن كثير السابق أنها أعمّ من ذلك ﴿ **وكان الله عزيزاً** ﴾ أي :

منيعاً فلا يغلب ﴿ **حكيماً** ﴾ فيما يحكم فلا يعارض ﴿ **وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها** ﴾ قال النسفي : هي ما أصابوه مع النبي ﷺ وبعده إلى يوم القيامة ، وقال ابن كثير : يعني : فتح خيبر ﴿**فعجّل لكم هذه**﴾ قال الألوسي : « فكأنه قيل : فعجّل لكم هذه المغانم ، وعجّل لكم مغانم أخرى وهي مغانم هوازن في غزوة حنين ﴿ **وكَفّ أيدي الناس عنكم** ﴾ قال ابن كثير : أي : لم ينلكم سوء مما كان أعداؤكم أضمروه لكم من المحاربة والقتال ، وكذلك كفّ أيدي الناس عنكم ، الذين خلفتموهم وراء ظهوركم عن عيالكم وحريمكم ﴿ **ولتكون** ﴾ أي : هذه الكفّة ﴿ **آية للمؤمنين** ﴾ في كل زمان ومكان ، أي عبرة يعرفون بها أنهم من الله عز وجل بمكان ، وأنه ضامن نصرتهم والفتح عليهم . قال ابن كثير : أي يعتبرون بذلك ، فإن الله تعالى حافظهم وناصرهم على سائر الأعداء مع قلة عددهم ، وليعلموا بصنيع الله هذا بهم أنه العالم بعواقب الأمور ، وأن الخيرة فيما يختاره لعباده المؤمنين وإن كرهوه في الظاهر ﴿ **ويهديكم صراطاً مستقيماً** ﴾ قال ابن كثير : أي بسبب انقيادكم لأمره ، واتباعكم طاعته ، وموافقتكم رسوله ﷺ ، وقال النسفي : (ويزيدكم بصيرة ويقيناً وثقة بفضل الله) ﴿ **وأخرى لم تقدروا عليها** ﴾ أي : ووعدكم مغانم أخرى لم تقدروا عليها حتى الآن ، أو لم تكونوا لتقدروا عليها لولا توفيق الله عز وجل ، ومن ثم قال ﴿ **قد أحاط الله بها** ﴾ قال النسفي : أي قدر عليها واستولى وأظهركم عليها ﴿ **وكان الله على كل شيء قديراً** ﴾ أي : قادراً ، وقد اختلف المفسرون في هذه الغنيمة ما المراد بها ، فاختار ابن جرير أنها فتح مكة ، وقال ابن أبي ليلى والحسن البصري : هي فارس والروم ، وقال مجاهد : هي كل فتح وغنيمة إلى يوم القيامة ، وقال ابن عباس : هذه الفتوح التي تفتح إلى اليوم ، قال ابن كثير في الآية : (أي وغنيمة أخرى وفتحاً آخر معيناً لم تكونوا تقدرون عليها قد يسرها الله عليكم ، وأحاط بها لكم . فإنه تعالى يرزق عباده المتقين له من حيث لا يحتسبون) ثم قال تعالى ﴿ **ولو قاتلكم الذين كفروا لولّوا الأدبار** ﴾ أي : لغلبوا وانهزموا ﴿ **ثم لايجدون ولياً** ﴾ يلي أمرهم ﴿ **ولانصيراً** ﴾ ينصرهم . قال ابن كثير في الآية : يقول عز وجل مبشراً لعباده المؤمنين بأنه لو ناجزهم المشركون لَنصَرَ الله رسوله وعباده المؤمنين عليهم ، ولانهزم جيش الكفر فارّاً مُدْبراً لا يجدون ولياً ولا نصيراً ، لأنهم محاربون لله ولرسوله ولحزبه المؤمنين ﴿ **سُنَّة الله التي قد خلت** ﴾ أي : مضت ﴿ **من قبل ولن تجد لسُنَّة الله تبديلاً** ﴾ أي : تغييراً قال ابن كثير : أي هذه سنة الله وعادته في خلقه ، ما تقابل الكفر والإيمان في موطن فَيْصلٍ إلا نصر الله الإيمان على الكفر ، فرفع الحق ،

ووضع الباطل، كما فعل تعالى يوم بدر بأوليائه المؤمنين، نصرهم على أعدائه من المشركين، مع قلة عدة المسلمين وعددهم، وكثرة المشركين وعددهم.

....

كلمة في السياق :

١ - نلاحظ أن الفقرة الأولى في هذا المقطع ختمت بقوله تعالى ﴿ **ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار ومن يتول يعذبه عذاباً أليماً** ﴾ ثم جاء بعد ذلك مباشرة قوله تعالى ﴿ **لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة** .. ﴾ فالفقرة الثانية تحدثنا عن نموذج لهؤلاء المطيعين لله ورسوله ﷺ المستحقين للجنات.

٢ - بدأ المقطع الثاني بقوله تعالى ﴿ **إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً * لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه وتسبحوه بكرة وأصيلاً * إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليهُ الله فسيؤتيه أجراً عظيماً** ﴾ وقد جاءت الفقرة الأولى فأرتنا النموذج المنافق الذي لم يعط الرسالة حقها وإنْ ادعى أنه مع المؤمنين، ثم جاءت الفقرة الثانية فحدّثتنا عن النموذج القائم بحق الرسالة من إيمان ونصرة وتعظيم، من خلال الكلام عن الذين بايعوا بيعة الرضوان، فكانوا نموذجاً حقاً للمبايعين الصادقين، وأرانا الله عز وجل ماذا أثابهم في الدنيا على هذا :

١ - إنزال السكينة عليهم

٢ - الفتح القريب

٣ - المغانم الكثيرة التي منها المعجّل، وهو ما سيعطيه إياهم في خيبر، ومنها ما بعد ذلك

٤ - كف أيدي الناس عنهم، فلم يؤذوا في أنفسهم ولم يؤذ أهلوهم في المدينة المنورة.

٥ - الهداية إلى الصراط المستقيم، وفي ذلك بشارة لهم أنهم سيوفقون إلى العمل بالإسلام حتى يموتوا عليه.

٦ - الغنائم التي لم تكن تخطر بباهم أنهم يقدرون عليها مما سيفتحه الله عليهم فيما بعد من فارس والروم وغيرهما.

٧ - البشارة لهم في كل معركة أنهم منصورون، وفي ذلك تزكية لهم بأنهم يستحقون

النصر الرباني ، لتوفر شروط ذلك فيهم ، وهذا كله ببركات هذه البيعة الصادقة لرسول الله ﷺ إيماناً به ، وقياماً بحق نصرته ، وتوقيراً له ، أي تحقيقاً لما يطالب الله به عباده من قيام بحق رسالته .

٣ - نلاحظ أنه قد مَرّ معنا في المقطع الأول قوله تعالى ﴿ **هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم** .. ﴾ وأنه قد جاء في هذه الفقرة قوله تعالى ﴿ **لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم** ﴾ لاحظ ورود كلمة (السكينة) في الآيتين ، فكأن الفقرة تفصّل في تبيان الوقت الذي أنزلت فيه السكينة التي تحدث عنها المقطع الأول ، وهو عقب البيعة لرسول الله ﷺ على عدم الفرار ، أو على الموت في سبيل الله ، وذلك موقف أحوج مايكون فيه الإنسان للطمأنينة ؛ إذ يقرر أن يموت ، وهذا أول مظهر من مظاهر صلة الفقرة هذه بالمقطع الأول . كما نلاحظ أن المقطع الأول ورد فيه قوله تعالى لرسوله ﷺ ﴿ **إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً** .. ﴾ كما ورد فيه ﴿ **ويهديك صراطاً مستقيماً** .. ﴾ ونلاحظ أنه قد ورد في هذه الفقرة قوله تعالى ﴿ **وأثابهم فتحاً قريباً** ﴾ ، ﴿ **ويهديكم صراطاً مستقيماً** ﴾ مما يشير إلى أن بعض ما أكرم الله به رسوله ﷺ - مما نصت عليه أوائل السورة - قد أشرك الله فيه المؤمنين .

تفسير المجموعة الثانية من الفقرة الثانية :

﴿ **وهو الذي كَفَّ أيديهم** ﴾ أي : أيدي أهل مكة ﴿ **عنكم وأيديكم عنهم** ﴾ أي : عن أهل مكة يعني قضى بينهم وبينكم المكافّة والمحاجزة بعدما خَوَّلكم الظفر عليهم والغلبة ، وذلك يوم الحديبية ﴿ **ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم** ﴾ أي : أقدركم وسلّطكم ﴿ **وكان الله بما تعملون بصيراً** ﴾ قال ابن كثير : (هذا امتنان من الله تعالى على عباده المؤمنين حين كف أيدي المشركين عنهم ، فلم يصل إليهم منهم سوء ، وكفَّ أيدي المؤمنين عن المشركين ، فلم يقاتلوهم عند المسجد الحرام ، بل صان كلاً من الفريقين ، وأوجد بينهم صلحاً فيه خيرة للمؤمنين ، وعاقبته لهم في الدنيا والآخرة) .

﴿ **هم الذين كفروا** ﴾ أي : هم الكفار الذين استغرقهم الكفر ﴿ **وصدّوكم عن المَسجد الحرام** ﴾ أي : منعوكم عن العمرة لله في المسجد الحرام ﴿ **والهدي** ﴾ هو ما يهدى إلى الكعبة من الأنعام ﴿ **معكوفاً** ﴾ أي : محبوساً ﴿ **أن يبلغ محله** ﴾ أي :

مكانه الذي يحل فيه نحره. قال ابن كثير : أي وصدّوا الهدي أن يصل إلى محله وهذا من بغيهم وعنادهم ، وكان الهدي سبعين بدنة كما سيأتي بيانه ﴿ **ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات** ﴾ بمكة أي: بين أظهر أهلها ممن يكتم إيمانه ويخفيه منهم ، خيفة على أنفسهم من قومهم ، ومن ثم قال تعالى ﴿ **لم تعلموهم أن تطؤوهم فتصيبكم منهم مَعَرَّة** ﴾ أي: إثم وغرامة. قال النسفي : أي إثم وشدة .. وهو الكفارة إذا قتله خطأً. وسوء قالة المشركين أنهم فعلوا بأهل دينهم مثل ما فعلوا بنا من غير تمييز ، والإثم إذا قصد ﴿ **بغير علم** ﴾ يعني أن تطؤوهم غير عالمين بهم. قال النسفي : والوطء عبارة عن الإيقاع والإبادة والمعنى: أنه كان بمكة قوم من المسلمين مختلطون بالمشركين غير متميزين منهم، فقيل: ولولا كراهة أن تهلكوا ناساً مؤمنين بين ظهراني المشركين وأنتم غير عارفين بهم فيصيبكم بإهلاكهم مكروه ومشقة لما كفَّ أيديكم عنهم). وباختصار : أي لولا هؤلاء لسلطناكم عليهم فقتلتموهم ، وأبدتم خضراءهم ، ولكن بين أفنائهم من المؤمنين والمؤمنات أقوام لا تعرفونهم حالة القتل ، فكففنا أيديكم عنهم ﴿ **ليدخل الله في رحمته من يشاء** ﴾ قال ابن كثير : أي يؤخر عقوبتهم ليخلص من بين أظهرهم المؤمنين ، وليرجع كثير منهم إلى الإسلام . وقال النسفي : وقوله ﴿ **ليدخل الله في رحمته من يشاء** ﴾ تعليل لما دلّت عليه الآية وسيقت له من كف الأيدي عن أهل مكة والمنع عن قتلهم صوناً من بين أظهرهم من المؤمنين كأنه قال : كان الكف ومنع التعذيب ليدخل الله في رحمته أي في توفيقه لزيادة الخير والطاعة مؤمنيهم ، أو ليدخل في الإسلام من رغب فيه من مشركيهم). ﴿ **لو تزيلوا** ﴾ أي: لو تميّز الكافرون من المؤمنين الذين بين أظهرهم. قال النسفي : أي: لو تفرقوا وتميز المسلمون من الكافرين ﴿ **لعذّبنا الذين كفروا منهم** ﴾ أي: من أهل مكة ﴿ **عذاباً أليماً** ﴾ قال ابن كثير : أي لسلّطناكم عليهم ، فلقتلموهم قتلاً ذريعاً ﴿ **إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية** ﴾ أي: الأنفة ﴿ **حمية الجاهلية** ﴾ أي: أنفتها التي هي أثر الجهل ، وكانت حميتهم أنهم لم يقروا أنه رسول الله ﷺ ، ولم يقروا ببسم الله الرحم الرحيم . وحالوا بينهم وبين البيت ﴿ **فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين** ﴾ المراد بالسكينة هنا الطمأنينة والوقار والحلم ، وهو ما قابلوا به حمية المشركين في المواقف التي رأيناها ﴿ **وألزمهم كلمة التقوى** ﴾ أي: كلمة التوحيد التي هي عماد التقوى ، والتي تجعل صاحبها لا يتحرك إلا أثراً عنها ﴿ **وكانوا** ﴾ أي: المؤمنون ﴿ **أحق بها** ﴾ من غيرهم ﴿ **وأهلها** ﴾ بتأهيل الله إياهم ﴿ **وكان الله بكل شيء عليماً** ﴾ فيجري الأمور على مصالحها ، أي هو عليم بمن

يستحق الخير ممن يستحق الشر .

كلمة في السياق :

١ - منَّ الله على المؤمنين في المجموعة الأولى بأن كفّ أيدي الناس عنهم ، وبيّن في هذه المجموعة أن الكفّ كان من الطرفين ، وذلك لحكمة هي عصمة دم المؤمنين الذين يكتمون إيمانهم بمكة ، فالمسلمون كفُّوا أيديهم مع إقدار الله إياهم على استئصال الكافرين من أجل هؤلاء ، وكان من أثر ذلك كف أيدي الكافرين عن المسلمين ، فكانت المصلحة كاملة فيما حدث ، وذلك كله من مظاهر تأييد الله لأهل الإيمان والإسلام ، فالمجموعة فصلت في معنى موجود في المجموعة السابقة عليها ، كما أوضحت معنى عاماً نراه في السورة كلها ، وهو رعاية الله لأهل الإيمان ، وفعله من أجلهم .

٢ - رأينا في المجموعة كيف أن الكافرين لا يؤمنون بالله ورسوله ﷺ ولا يوقرون رسول الله ﷺ ، ولا يعظمونه ولا ينصرونه ، فالمجموعة إذن ترينا نموذجاً آخر من الناس الذين لا يؤدون حق الله في إقامة حقوق رسوله ﷺ وهم الكافرون ، وذلك يدلنا على صلة المجموعة في مقدمة المقطع .

٣ - رأينا في المجموعة قوله تعالى ﴿ **فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها** ﴾ فهذا موطن آخر من مواطن إنزال السكينة على المؤمنين التي تحدث عنها المقطع الأول من السورة، وهي مرحلة المفاوضات، وما أعقبها من هزة عنيفة في الأنفس، فمنّ الله على المؤمنين بتجاوز ذلك كله، بفضل استقرار كلمة التوحيد في قلوبهم، وتحققهم بمعناها ومقتضاها، وحملهم إياها حق الحمل، وهذا يشير إلى أن المسلمين قاموا بحق الرسالة حق القيام، وبسبب هذا كان الله يوفقهم في المواقف كلها ويعصمهم .

☆ ☆ ☆

تفسير الفقرة الثالثة من المقطع الثاني

﴿ **لقد صدق الله رسوله الرؤيا** ﴾ أي: صدقه في رؤياه ولم يكذبه ﴿ **بالحق** ﴾ قال النسفي: أي صدقه فيما رأى وفي كونه وحصوله صدقاً ملتبساً بالحق، أي بالحكمة البالغة، وذلك ما فيه من الابتلاء والتمييز بين المؤمن الخالص وبين من في قلبه مرض ﴿ **لتدخُلُنَّ المسجد الحرام إن شاء الله** ﴾ قال ابن كثير: هذا لتحقيق الخبر وتوكيده، وليس هذا من باب الاستثناء في شيء ﴿ **آمنين** ﴾ أي: في حال دخولكم ﴿ **محلّقين رؤوسكم ومقصّرين** ﴾ أي: منكم من يحلق جميع شعره، ومنكم من يقصره ﴿ **لا تخافون** ﴾ قال ابن كثير: فأثبت لهم الأمن حال الدخول، ونفى عنهم الخوف حال استقرارهم في البلد لا يخافون من أحد، وهذا كان في عمرة القضاء في ذي القعدة سنة سبع ﴿ **فعلم ما لم تعلموا** ﴾ قال ابن كثير: أي فعلم الله عز وجل من الخيرة والمصلحة في صرفكم عن مكة ودخولكم إليها عامكم ذلك ما لم تعلموا أنتم ﴿ **فجعل من دون ذلك** ﴾ أي: قبل دخولكم الذي وعدتم به في رؤيا النبي ﷺ ﴿ **فتحاً قريباً** ﴾ قال ابن كثير: وهو الصلح الذي كان بينكم وبين أعدائكم من المشركين، وقال النسفي: وهو فتح خيبر لتستروح إليه قلوب المؤمنين إلى أن يتيسر الفتح الموعود، وقد كان ذلك كله، فهذه الآية من معجزات القرآن، وقصة الرؤيا التي ذكرتها الآية كما قال ابن كثير: (كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قد رأى في المنام أنه دخل مكة، وطاف بالبيت، فأخبر أصحابه بذلك وهو بالمدينة، فلما ساروا عام الحديبية لم يشك جماعة منهم أن هذه الرؤيا تتفسر هذا العام، فلما وقع من قضية الصلح ورجعوا عامهم ذلك على أن يعودوا من قابل، وقع في نفس بعض الصحابة رضي الله عنهم من ذلك شيء، حتى سأل عمر بن الخطاب رضي الله عنه في ذلك فقال له فيما قال: أفلم تكن تخبرنا أنا سنأتي البيت ونطوف به؟ قال: «بلى أفأخبرتك أنك تأتيه عامك هذا؟» قال: لا، قال النبي ﷺ: «فإنك آتيه ومطوف به» وبهذا أجاب الصديق رضي الله عنه أيضاً حذو القذة بالقذة

كلمة في السياق:

جاءت هذه الآية بعد قوله تعالى ﴿ **وكان الله بكل شيء عليماً** ﴾ فكان فيها تدليل على إحاطة علم الله، ومن ثم ورد فيها قوله تعالى ﴿ **فعلم ما لم تعلموا** ﴾ وفي هذا

السياق الذي يرى فيه الإنسان بشكل قطعي من خلال السورة إحاطة علم الله ، ورعاية الله لرسوله ﷺ وللمؤمنين ، ويرى فيه علم الله المحيط بالزمان والمكان وكل شيء، ويرى فيه صنع الله لرسوله ﷺ : يقول تعالى :

﴿ **هو الذي أرسل رسوله بالهدى** ﴾ قال النسفي : بالتوحيد ﴿ **ودين الحق** ﴾ قال النسفي : أي الإسلام وقال ابن كثير : أي بالعلم النافع والعمل الصالح . فإن الشريعة تشتمل على شيئين : علم وعمل ، فالعلم الشرعي صحيح ، والعمل الشرعي مقبول ، فإخباراتها حق وإنشاءاتها عدل ﴿ **ليظهره على الدين كله** ﴾ قال ابن كثير : أي على أهل جميع الأديان في سائر أهل الأرض من عرب وعجم، وصليبيين ومشركين ﴿ **وكفى بالله شهيداً** ﴾ على أن ما وعد به كائن ، وقد كان ذلك ، وسيكون كما سنرى في الفوائد .

....

كلمة في السياق :

١ - جاءت هذه البشارة بعد مقدمات كثيرة في السورة تناسب هذه البشارة ، وذلك درس عظيم من دورس هذه السورة ، فإن الأمل بنصر الله وانتصار الإسلام يدفع المسلم إلى أقصى حدود العمل ، ويفجّر طاقاته في بذل الجهد ، على خلاف ما لو لم يكن هناك أمل . وهذا موضوع غاب عن كثير من العلماء والربانيين ، فأصبح كلامهم كله يأساً يعتقدونه ، ويربون المسلمين عليه، فأي جهل هذا ، وأي هلاك ! قال عليه الصلاة والسلام: « من قال هلك المسلمون فهو أهلكهم » .

٢ - رأينا صلة الآية السابقة بما قبلها مباشرة ، وأما صلتها بمقدمة مقطعها فواضحة : فقد بدأ المقطع بقوله سبحانه ﴿ **إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً ..** ﴾ وتأتي هذه الآية لتصف مضمون الرسالة ، وتبشر بانتصار هذا الدين .

٣ - وأما صلتها بالمقطع الأول فواضحة كذلك ، فالسورة بدأت بقوله تعالى ﴿ **إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً** ﴾ ومن حادثة الحديبية التي هي نموذج على النصر تنتقل السورة من معنى إلى معنى يؤكّد التوفيق المتلاحق لأهل هذا الدين حتى تستقر السورة على البشارة العظيمة بالانتصار العام الشامل لهذا الدين ، وبعد هذا كله تأتي آية هي خاتمة السورة ، تتحدث عن خصائص هذه الأمة ، وعن خصائص الرسول ﷺ وأصحابه .

﴿ **محمد رسول الله** ﴾ هذا هو وصفه أنه رسول الله ﴿ **والذين معه** ﴾ أي: أصحابه ﴿ **أشداء على الكفار رحماء بينهم** ﴾ قال ابن كثير : (وهذه صفة المؤمنين أن يكون أحدهم شديداً عنيفاً على الكفار ، رحيماً براً بالأخيار ، غضوباً عبوساً في وجه الكافر ، ضحوكاً بشوشاً في وجه أخيه المؤمن)، وقال النسفي : (وبلغ من تشددهم على الكفار أنهم كانوا يتحرزون من ثيابهم أن تلزق بثيابهم ، ومن أبدانهم أن تمس أبدانهم ، وبلغ من ترحمهم فيما بينهم أنه كان لا يرى مؤمن مؤمناً إلا صافحه وعانقه). ﴿ **تراهم ركّعاً سجداً** ﴾ أي: راكعين ساجدين ﴿ **يبتغون فضلاً من الله ورضواناً** ﴾ قال ابن كثير : وصفهم بكثرة العمل ، وكثرة الصلاة ، وهي خير الأعمال ، ووصفهم بالإخلاص فيها لله عز وجل ، والاحتساب عند الله جزيل الثواب وهو الجنة المشتملة على فضل الله عز وجل، وهو سعة الرزق عليهم، ورضاه تعالى عنهم، وهو أكبر من الاحتساب ﴿ **سيماهم** ﴾ أي: علامتهم ﴿ **في وجوههم من أثر السجود** ﴾ قال ابن عباس: يعني السمت الحسن ، وقال مجاهد وغيره: يعني الخشوع والتواضع ، وقال السدي : الصلاة تحسّن وجوههم ﴿ **ذلك مثلهم في التوراة** ﴾ أي: ذلك المذكور هو صفتهم في التوراة ﴿ **ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه** ﴾ أي: فراخه ﴿ **فآزره** ﴾ أي: فقوّاه وشدّه ﴿ **فاستغلظ** ﴾ أي: شبّ وطال ، فانتقل من الرّقة إلى الغلظ ﴿ **فاستوى على سوقه** ﴾ أي: فاستقام على قصبه، والسوق جمع ساق ﴿ **يعجب الزّراع** ﴾ أي يتعجبون من قوته قال ابن كثير : (أي فكذلك أصحاب رسول الله ﷺ آزروه وأيدوه ونصروه ، فهم معه كالشطء مع الزرع) وقال النسفي : وهذا مثل ضربه الله تعالى لبدء الإسلام ، وترقيه في الزيادة إلى أن قوي واستحكم ، لأن النبى ﷺ قام وحده ثم قوّاه الله تعالى بمن آمن معه، كما يقوى الطاقة الأولى من الزرع ما يحتفّ بها مما يتولد منها حتى يعجب الزّراع ﴿ **ليغيظ بهم الكفّار** ﴾ قال ابن كثير : (ومن هذه الآية انتزع الإمام مالك رحمة الله عليه- في رواية عنه- بتكفير الروافض الذين يبغضون الصحابة رضي الله عنهم، قال: لأنهم يغيظونهم ،ومن غاظ الصحابة رضي الله عنهم فهو كافر لهذه الآية ، ووافقه طائفة من العلماء رضي الله عنهم على ذلك ، والأحاديث في فضل الصحابة رضي الله عنهم والنهي عن التعرض بمساويهم كثيرة ، ويكفيهم ثناء الله عليهم ورضاه عنهم) ﴿ **وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة** ﴾ لذنوبهم ﴿ **وأجراً عظيماً** ﴾ أي : ثواباً جزيلاً ورزقاً كريماً قال ابن كثير : (ووعد الله حق وصدق لا يخلف ولا يبدّل ، وكل من اقتفى أثر الصحابة رضي الله

عنهم فهو في حكمهم، ولهم الفضل والسبق والكمال الذي لا يلحقهم فيه أحد من هذه الأمة). وقال النسفي : (هذه الآية ترد قول الروافض أنهم كفروا بعد وفاة النبي ﷺ إذ الوعد لهم بالمغفرة والأجر العظيم إنما يكون أن لو ثبتوا على ما كانوا عليه في حياته).

كلمة في السياق :

١ - ما صلة هذه الآية بما قبلها ؟ في الآية التي قبلها كان الحديث عن ظهور الإسلام على الدين كله، وفي هذه الآية كان حديث عن كيفية هذا الظهور ﴿ **كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى** .. ﴾ فالآية تبيّن كيفية نمو هذا الإسلام، كما تبين الآية خصائص الذين سيقومون بهذا الدور، من رحمة بالمؤمنين، وشدة على الكافرين، وركوع وسجود، وإخلاص وإيمان وعمل صالح .

٢ - وأما صلة الآية الأخيرة بمقطعها فإن بداية المقطع هي : ﴿ **إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً * لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزّروه وتوقّروه وتسبّحوه بكرة وأصيلاً** ﴾ والآية الأخيرة تذكر خصائص رسول الله ﷺ والمستجبين له، كما تذكر البشارة برسول الله ﷺ وأمته في التوراة والإنجيل، فرسالته عليه الصلاة والسلام ممهد لها من قبل في رسالات الله .

٣ - وأما صلة الآية بالمقطع الأول فهي أن المقطع الأول تحدّث عن فعل الله برسوله ﷺ وبالمؤمنين، وما أعد الله للمؤمنين من جنات . والآية الأخيرة تحدثنا عن رسول الله ﷺ والمؤمنين، وعن وعد الله لهم بالمغفرة والأجر العظيم .

٤ - وأما صلة الآية بالمحور ﴿ **حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب** ﴾ فمن حيث إنها تصف حال الرسول ﷺ ومن معه، وتصف الحال التي بها ينالون النصر .

فوائد

١ - بمناسبة قوله تعالى ﴿ **إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله** ﴾ قال ابن كثير : (روى عبد الملك بن هشام النحوي عن الشعبي قال : إن أول من بايع رسول الله ﷺ بيعة الرضوان أبو سنان الأسدي، وروى أبو بكر عبد الله بن الزبير الحميدى عن

الشعبي قال دعا رسول الله ﷺ إلى البيعة فكان أول من انتهى إليه أبو سنان الأسدي فقال : ابسط يدك أبايعك ، فقال النبي ﷺ « علام تبايعني ؟ » فقال أبو سنان رضي الله عنه : على ما في نفسك ، هذا أبو سنان بن وهب الأسدي رضي الله عنه . وروى البخاري عن نافع رضي الله عنه قال : إن الناس يتحدثون أن ابن عمر رضي الله عنهما أسلم قبل عمر ، وليس كذلك ، ولكن عمر رضي الله عنه يوم الحديبية أرسل عبد الله إلى فرس له عند رجل من الأنصار أن يأتي به ليقاتل عليه ، ورسول الله ﷺ يبايع عند الشجرة ، وعمر رضي الله عنه لا يدري بذلك ، فبايعه عبد الله رضي الله عنه ثم ذهب إلى الفرس فجاء به إلى عمر رضي الله عنه وعمر رضي الله عنه يستلئم للقتال ، فأخبره أن رسول الله ﷺ يبايع تحت الشجرة ، فانطلق فذهب معه حتى بايع رسول الله ﷺ ، وهي التي يتحدث الناس أن ابن عمر أسلم قبل عمر رضي الله عنهما . وروى البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : إن الناس كانوا مع رسول الله ﷺ قد تفرقوا في ظلال الشجر ، فإذا الناس محدقون بالنبي ﷺ فقال – يعني عمر رضي الله عنه – يا عبد الله انظر ما شأن الناس قد أحدقوا برسول الله ﷺ ، فوجدهم يبايعون فبايع ثم رجع إلى عمر رضي الله عنه فخرج فبايع . وقد أسنده البيهقي ، وقال الليث عن أبي الزبير عن جابر رضي الله عنه قال : كنا يوم الحديبية ألفاً وأربعمائة فبايعناه ، وعمر رضي الله عنه آخذ بيده تحت الشجرة وهي سمرة ، وقال : بايعناه على أن لا نفر ، ولم نبايعه على الموت . رواه مسلم عن قتيبة عنه . وروى مسلم عن معقل بن يسار رضي الله عنه قال : لقد رأيتني يوم الشجرة والنبي ﷺ يبايع الناس ، وأنا رافع غصناً من أغصانها عن رأسه ، ونحن أربع عشرة مائة قال : ولم نبايعه على الموت ، ولكن بايعناه على أن لا نفر . وروى البخاري عن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه قال : بايعت رسول الله ﷺ تحت الشجرة قال يزيد : قلت : يا أبا سلمة ، على أي شيء كنتم تبايعون يومئذ ؟ قال : على الموت ، وروى البخاري أيضاً عن سلمة رضي الله عنه قال : بايعت رسول الله ﷺ يوم الحديبية ثم تنحيت فقال ﷺ « يا سلمة ، ألا تبايع ؟ » قلت : قد بايعت ، قال ﷺ : « أقبل فبايع » فدنوت فبايعته ، قلت : علام بايعته يا سلمة ؟ قال : على الموت . وأخرجه مسلم من وجه آخر ، وكذا روى البخاري عن عباد بن تميم أنهم بايعوه على الموت . وروى البيهقي عن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه قال : قدمت الحديبية مع رسول الله ﷺ ونحن أربع عشرة مائة ، وعليها خمسون شاة لا ترويها ، فقعد رسول الله ﷺ على جباها – يعني الركى – فإما دعا وإما بصق فيها

فجاشت فسقينا واستقينا ، قال : ثم إن رسول الله ﷺ دعا إلى البيعة في أصل الشجرة ، فبايعته أول الناس ، ثم بايع وبايع حتى إذا كان في وسط الناس قال ﷺ : « بايعني يا سلمة » قال : قلت يا رسول الله قد بايعتك في أول الناس قال ﷺ « وأيضاً » قال ورآني رسول الله ﷺ عزلاً فأعطاني جحفة أو درقة ، ثم بايع حتى إذا كان في آخر الناس قال ﷺ : « ألا تبايع يا سلمة ؟ » قال : قلت : يا رسول الله قد بايعتك في أول الناس وأوسطهم ، قال ﷺ : « وأيضاً » فبايعته الثالثة فقال رسول الله ﷺ : « يا سلمة أين جحفتك أو درقتك التي أعطيتك ؟ » قال : قلت يا رسول الله لقيني عامر عزلاً فأعطيتها إياه ، فضحك رسول الله ﷺ ثم قال : « إنك كالذي قال الأول اللهم ابغني حبيباً هو أحب إليّ من نفسي » قال : ثم إن المشركين من أهل مكة راسلونا في الصلح حتى مشى بعضنا في بعض فاصطلحنا ، قال : وكنت خادماً لطلحة بن عبيد الله رضي الله عنه أسقي فرسه وأجنبه ، وآكل من طعامه ، وتركت أهلي ومالي مهاجراً إلى الله ورسوله ، فلما اصطلحنا نحن وأهل مكة ، واختلط بعضنا في بعض ، أتيت شجرة فكشحت شوكها ، ثم اضطجعت في أصلها في ظلها ، فأتاني أربعة من مشركي أهل مكة ، فجعلوا يقعون في رسول الله ﷺ فأبغضتهم وتحولت إلى شجرة أخرى ، فعلقوا سلاحهم واضطجعوا ، فبينما هم كذلك إذ نادى مناد من أسفل الوادي : يا للمهاجرين قتل ابن زنيم ، فاخترطت سيفي فشددت على أولئك الأربعة وهم رقود ، فأخذت سلاحهم وجعلته ضغثاً في يدي ، ثم قلت : والذي كرم وجه محمد ﷺ لا يرفع أحد منكم رأسه إلا ضربت الذي فيه عيناه ، قال : ثم جئت بهم أسوقهم إلى رسول الله ﷺ قال : وجاء عمي عامر برجل من العبلات يقال له مكرز من المشركين يقوده ، حتى وقفنا بهم على رسول الله ﷺ في سبعين من المشركين ، فنظر إليهم رسول الله ﷺ وقال : « دعوهم يكن لهم بدء الفجور وثناؤه » فعفا عنهم رسول الله ﷺ ، وأنزل الله عز وجل ﴿ **وهو الذي كفَّ أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم** ﴾ الآية . وهكذا رواه مسلم وثبت في الصحيحين عن سعيد بن المسيب قال : كان أبي ممن بايع رسول الله ﷺ تحت الشجرة ، قال فانطلقنا من قابل حاجين فخفي علينا مكانها ، فإن كان بينت لكم فأنتم أعلم ، وروى أبو بكر الحميدي عن جابر رضي الله عنه قال : لما دعا رسول الله ﷺ الناس إلى البيعة وجدنا رجلاً منا يقال له الجد بن قيس مختبئاً تحت إبط بعيره رواه مسلم ، وروى الحميدي أيضاً حدثنا سفيان عن عمرو أنه سمع جابراً رضي الله عنه قال : كنا يوم الحديبية ألفاً وأربعمائة فقال لنا رسول

الله ﷺ : « أنتم خير أهل الأرض اليوم » قال جابر رضي الله عنه : لو كنت أبصر لأريتكم موضع الشجرة ، قال سفيان : إنهم اختلفوا في موضعها . أخرجاه من حديث سفيان ، وروى الإمام أحمد عن جابر رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال « لا يدخل النار أحد ممن بايع تحت الشجرة » وروى ابن أبي حاتم عن جابر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « يدخل من بايع تحت الشجرة كلهم الجنة إلا صاحب الجمل الأحمر » قال : فانطلقنا نبتدره فإذا رجل قد أضل بعيره ، فقلنا : تعال فبايع قال : لأن أصيب بعيري أحب إلى من أن أبايع . وروى عبد الله بن أحمد عن جابر رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال « من يصعد الثنية ثنية المرار فإنه يحط عنه ما حط عن بني إسرائيل » فكان أول من صعد خيل بني الخزرج، ثم تبادر الناس بعد، فقال النبي ﷺ : « كلكم مغفور له إلا صاحب الجمل الأحمر » فقلنا : تعال يستغفر لك رسول الله ﷺ فقال : والله لأن أجد ضالتي أحب إلى من أن يستغفر لي صاحبكم ، فإذا هو رجل ينشد ضالة ، رواه مسلم. وقال ابن جريج أخبرني أبو الزبير أنه سمع جابراً رضي الله عنه يقول : أخبرتني أم مبشر أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول عند حفصة رضي الله عنها « لا يدخل النار – إن شاء الله تعالى – من أصحاب النسجرة الذين بايعوا تحتها أحد » قالت : بلى يا رسول الله، فانتهرها، فقالت حفصة رضي الله عنها ﴿**وإن منكم إلا واردها**﴾ فقال النبي ﷺ : قد قال تعالى ﴿ **ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثياً** ﴾ (مريم: ٧٢) رواه مسلم ، وفيه أيضا عن جابر رضي الله عنه قال : إن عبداً لحاطب بن أبي بلتعة جاء يشكو حاطباً، فقال : يا رسول الله ليدخلن حاطب النار فقال رسول الله ﷺ : « كذبت لا يدخلها، فإنه قد شهد بدراً والحديبية » ولهذا قال تعالى في الثناء عليهم ﴿ **إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليهُ اللهَ فسيؤتيه أجراً عظيماً** ﴾ كما قال عز وجل في الآية الأخرى ﴿ **لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً** ﴾ وقال ابن كثير : (وذكر ابن لهيعة عن أبي الأسود عن عروة بن الزبير رضي الله عنهما قريباً من هذا السياق، وزاد في سياقه أن قريشاً بعثوا – وعندهم عثمان رضي الله عنه – سهيل بن عمرو، وحويطب بن عبد العزى، ومكرز بن حفص إلى رسول الله ﷺ، فبينما هم عندهم إذ وقع كلام بين بعض المسلمين وبعض المشركين ، وتراموا بالنبل والحجارة وصاح الفريقان كلاهما، وارتهن كل من الفريقين مَنْ عنده من الرسل ، ونادى منادي

رسول الله ﷺ : ألا إن روح القدس قد نزل على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأمر بالبيعة فاخرجوا على اسم الله تعالى فبايعوا ، فسار المسلمون إلى رسول الله ﷺ وهو تحت الشجرة ، فبايعوه على أن لا يفروا أبداً ، فأرعب ذلك المشركين ، وأرسلوا من كان عندهم من المسلمين ، ودعوا إلى الموادعة والصلح) .

٢ - وبمناسبة قوله تعالى : ﴿ **لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة** ﴾ قال الألوسي عن هذه البيعة : (استوجبت رضا الله تعالى الذي لا يعادله شيء ، ويستتبع ما لا يكاد يخطر على بال ، ويكفي فيما ترتب على ذلك ما أخرجه أحمد عن جابر . ومسلم عن أم بشر عنه عن النبي ﷺ قال : « لا يدخل النار أحد ممن بايع تحت الشجرة » وقد قال عليه الصلاة والسلام ذلك عند حفصة فقالت : بلى يا رسول الله فانتهرها فقالت : ﴿ **وإن منكم إلا واردها** ﴾ (مريم : ٧١) فقال عليه الصلاة والسلام قد قال الله تعالى : ﴿ **ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثياً** ﴾ (مريم : ٧٢) وصح برواية الشيخين وغيرهما في أولئك المؤمنين من حديث جابر أنه ﷺ قال لهم : « أنتم خير أهل الأرض » فينبغي لكل من يدّعي الإسلام حبهم ، وتعظيمهم ، والرضا عنهم ، وإن كان غير ذلك لايضرهم بعد رضا الله تعالى عنهم ، وعثمان منهم ؛ بل كانت يد رسول الله ﷺ له رضي الله تعالى عنه — كما قال أنس — خيراً من أيديهم لأنفسهم) .

٣ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم** ﴾ قال ابن كثير : (وروى الإمام أحمد عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : لما كان يوم الحديبية هبط على رسول الله ﷺ وأصحابه ثمانون رجلاً من أهل مكة بالسلاح من قبل جبل التنعيم يريدون غرة رسول الله ﷺ ، فدعا عليهم فأخذوا ، قال عفان : فعفا عنهم ونزلت هذه الآية ﴿ **وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم** ﴾ ورواه مسلم وأبو داود في سننه ، والترمذي والنسائي في التفسير من سننيهما . وروى أحمد أيضاً عن عبد الله بن مغفل رضي الله عنهما قال : كنا مع رسول الله ﷺ في أصل الشجرة التى قال الله تعالى في القرآن ، وكان يقع من أغصان تلك الشجرة على ظهر رسول الله ﷺ وعلي بن أبي طالب رضي الله عنه وسهيل بن عمرو بين يديه فقال رسول الله ﷺ لعلي رضي الله عنه : « اكتب بسم الله الرحمن الرحيم » فأخذ سهيل بيده وقال ما نعرف الرحمن الرحيمَ ، اكتب في قضيتنا ما نعرف فقال : اكتب باسمك اللهم - وكتب : هذا ما صالح عليه محمد رسول الله أهل مكة . فأمسك سهيل بن عمرو بيده وقال : لقد

ظلمناك إن كنت رسوله اكتب في قضيتنا ما نعرف فقال : « اكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله » فبينا نحن كذلك إذ خرج علينا ثلاثون شاباً عليهم السلاح فثاروا في وجوهنا ، فدعا عليهم رسول الله ﷺ فأخذ بأسماعهم فقمنا إليهم فأخذناهم فقال رسول الله ﷺ : هل جئتم في عهد أحد ؟ أو هل جعل لكم أحد أماناً ؟ . فقالوا : لا ، فخلى سبيلهم فأنزل الله تعالى ﴿ **وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم** ﴾ الآية ورواه النسائي .

٤ - وبمناسبة قوله تعالى : ﴿ **ولو قاتلكم الذين كفروا لولوا الأدبار ثم لايجدون ولياً ولا نصيراً * سنة الله التي قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً** ﴾ .. قال صاحب الظلال : (وهكذا يربط نصرهم وهزيمة الكفار بسننه الكونية الثابتة التي لاتتبدل . فأية سكينة ؟ وأية ثقة ؟ وأي تثبيت يجده أولئك المؤمنون في أنفسهم وهم يسمعون من الله أن نصرهم وهزيمة أعدائهم سنة من سننه الجارية في هذا الوجود ؟ وهي سنة دائمة لاتتبدل . ولكنها قد تتأخر إلى أجل . ولأسباب قد تتعلق باستواء المؤمنين على طريقهم ، واستقامتهم الاستقامة التي يعرفها الله لهم . أو تتعلق بتهيئة الجو الذي يولد فيه النصر للمؤمنين والهزيمة للكافرين ، لتكون له قيمته وأثره . أو لغير هذا ولذلك مما يعلمه الله . ولكن السنة لاتتخلف . والله أصدق القائلين : ﴿ **ولن تجد لسنة الله تبديلا** ﴾) .

٥ - بمناسبة قوله تعالى ﴿ **إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحميّة حميّة الجاهلية فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها** ﴾ قال ابن كثير : (وقوله عز وجل ﴿ **إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية** ﴾ وذلك حين أبوا أن يكتبوا بسم الله الرحمن الرحيم ، وأبوا أن يكتبوا هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله ﴿ **فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وألزمهم كلمة التقوى** ﴾ وهي قول لاإله إلا الله كما قال ابن جرير وعبد الله بن الإمام أحمد عن الطفيل - يعني ابن أُبيّ بن كعب - عن أبيه رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : ﴿ **وألزمهم كلمة التقوى** ﴾ قال : « لاإله إلا الله » وكذا رواه الترمذي عن الحسن بن قزعة وقال غريب لانعرفه إلا من حديثه ، وسألت أبا زرعة عنه فلم يعرفه إلا من هذا الوجه ، وروى ابن أبي حاتم عن سعيد بن المسيب أن أبا هريرة رضي الله عنه خبره أن رسول الله ﷺ قال « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ، فمن قال لا إله إلا الله فقد عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه على الله عز وجل » وأنزل

الله عز وجل في كتابه وذكر قوماً فقال ﴿ **إنهم كانوا إذا قيل لهم لاإله إلا الله يستكبرون** ﴾ (الصافات : ٣٥) وقال جل ثناؤه ﴿ **وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها** ﴾ وهي لاإله إلا الله محمد رسول الله فاستكبروا عنها، واستكبر عنها المشركون يوم الحديبية فكاتبهم رسول الله ﷺ على قضية المدة، وكذا رواه بهذه الزيادات ابن جرير من حديث الزهري ، والظاهر أنها مدرجة من كلام الزهري والله أعلم . وقال مجاهد : كلمة التقوى : الإخلاص ، وقال عطاء بن أبي رباح : هي لاإله إلا الله وحده لاشريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ، وعن المِسْوَر ﴿ **وألزمهم كلمة التقوى** ﴾ قال : لاإله إلا الله وحده لا شريك له . وروى الثوري عن علي رضي الله عنه ﴿ **وألزمهم كلمة التقوى** ﴾ قال : لاإله إلا الله والله أكبر ، وكذا قال ابن عمر رضي الله عنهما ، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما قوله تعالى ﴿ **وألزمهم كلمة التقوى** ﴾ قال : يقول شهادة أن لاإله إلا الله وهي رأس كل تقوى ، وقال سعيد بن جبير ﴿ **وألزمهم كلمة التقوى** ﴾ قال : لاإله إلا الله والجهاد في سبيله . وقال عطاء الخراساني : هي لاإله إلا الله محمد رسول الله . وقال عبد الله بن المبارك عن معمر عن الزهري ﴿ **وألزمهم كلمة التقوى** ﴾ قال : بسم الله الرحمن الرحيم ، وقال قتادة ﴿ **وألزمهم كلمة التقوى** ﴾ قال : لاإله إلا الله ﴿ **وكانوا أحق بها وأهلها** ﴾ وكان المسلمون أحق بها وكانوا أهلها) .

٦ – مما أعقب صلح الحديبية ماذكره ابن كثير : (ثم جاءه نسوة مؤمنات فأنزل الله عز وجل ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات** ﴾ حتى بلغ ﴿ **بِعِصَم الكوافر** ﴾ فطلّق عمر رضي الله عنه يومئذ امرأتين كانتا له في الشرك فتزوج إحداهما معاوية بن أبي سفيان ، والأخرى صفوان بن أمية ، ثم رجع النبي ﷺ إلى المدينة فجاءه أبو بصير من قريش وهو مسلم، فأرسلوا في طلبه رجلين فقالوا : العهد الذي جعلت لنا فدفعه إلى الرجلين ، فخرجا به حتى إذا بلغا ذا الحليفة فنزلوا يأكلون من تمر لهم، فقال أبو بصير لأحد الرجلين: والله إني لأرى سيفك هذا يا فلان جيداً ، فاستله الآخر فقال : أجل والله إنه لجيد لقد جربت منه ثم جربت، فقال أبو بصير : أرني أنظر إليه فأمكنه منه ، فضربه حتى برد وفرَّ الآخر حتى أتى المدينة فدخل المسجد يعدو فقال رسول الله ﷺ حين رآه « لقد رأى هذا ذعراً » فلما انتهى إلى النبي ﷺ قال : قُتل والله صاحبي وإني لمقتول ، فجاء أبو بصير فقال : يارسول الله قد والله أوفى الله ذمتك ، قد رددتني إليهم ثم نجاني الله تعالى منهم فقال النبي ﷺ : « ويل أمه مسعر

حرب لو كان معه أحد » فلما سمع بذلك عرف أنه سيرده إليهم ، فخرج حتى أتى سيف البحر قال : وتفلت منهم أبو جندل بن سهيل فلحق بأبي بصير ، فجعل لا يخرج من قريش رجل قد أسلم إلا لحق بأبي بصير حتى اجتمعت منهم عصابة ، فوالله ما يسمعون بعير خرجت لقريش إلى الشام إلا اعترضوا لها فقتلوهم وأخذوا أموالهم فأرسلت قريش إلى النبي ﷺ تناشده الله والرحم لما أرسل إليهم ، فمن أتاه منهم فهو آمن فأرسل النبي ﷺ إليهم ، وأنزل الله عز وجل ﴿ **وهو الذي كفَّ أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة** ﴾ حتى بلغ ﴿ **حمية الجاهلية** ﴾ وكانت حميتهم أنهم لم يقروا أنه رسول الله ، ولم يقروا باسم الله الرحمن الرحيم ، وحالوا بينهم وبين البيت وهكذا ساقه البخاري) .

٧ ــ قال ابن كثير راوياً عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه : (ياأيها الناس اتهموا الرأي فلقد رأيتني يوم أبي جندل ولو أقدر على أن أرد على رسول الله ﷺ أمره لرددته ، وفي رواية فنزلت سورة الفتح فدعا رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقرأها عليه) وروى ابن كثير : (وقال الإمام أحمد عن أنس رضي الله عنه قال : إن قريشاً صالحوا النبي ﷺ وفيهم سهيل بن عمرو فقال النبي ﷺ لعلي رضي الله عنه : « اكتب بسم الله الرحمن الرحيم » فقال سهيل : لا ندري ما بسم الله الرحمن الرحيم ولكن اكتب باسمك اللهم ، فقال ﷺ : « اكتب من محمد رسول الله » قال : لو نعلم أنك رسول الله لاتبعناك ، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك ، فقال النبي ﷺ : « اكتب من محمد بن عبد الله » واشترطوا على النبي ﷺ أن من جاء منكم لا نرده عليكم ومن جاءكم منا رددتموه علينا ، فقال يا رسول الله أنكتب هذا ؟ قال ﷺ : « نعم إنه من ذهب منا إليهم فأبعده الله » رواه مسلم . وروى أحمد أيضاً عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال : لما خرجت الحرورية اعتزلوا فقلت لهم : إن رسول الله ﷺ يوم الحديبية صالح المشركين فقال لعلي رضي الله عنه : « اكتب يا علي هذا ما صالح عليه محمد رسول الله » قالوا : لو نعلم أنك رسول الله ماقاتلناك فقال رسول الله ﷺ : « امح يا علي اللهم إنك تعلم أني رسولك ، امح يا علي واكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله ، والله لرسول الله خير من علي وقد محا نفسه ولم يكن محوه ذلك يمحوه من النبوة أخرجت من هذه » قالوا : نعم ، ورواه أبو داود ، وروى الإمام أحمد عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : نحر رسول الله ﷺ يوم الحديبية سبعين بدنة فيها جمل لأبي جهل ، فلما صدّت عن البيت حنت كما تحن إلى أولادها) .

٨ - بمناسبة قوله تعالى ﴿ **لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلّقين رؤوسكم ومقصرين لاتخافون** ﴾ قال ابن كثير : (وهذا كان في عمرة القضاء في ذي القعدة سنة سبع ، فإن النبي صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم لما رجع من الحديبية في ذي القعدة رجع إلى المدينة فأقام بها ذي الحجة والمحرم وخرج في صفر إلى خيبر ففتحها الله عليه ، بعضها عنوة وبعضها صلحاً - وهي إقليم عظيم كثير النخل والزروع - فاستخدم من فيها من اليهود عليها على الشطر وقسمها بين أهل الحديبية وحدهم ، ولم يشهدها أحد غيرهم إلا الذين قدموا من الحبشة : جعفر ابن أبي طالب وأصحابه ، وأبو موسى الأشعري وأصحابه رضي الله عنهم ، ولم يغب منهم أحد . قال ابن زيد : إلا أبا دجانة سماك بن خرشة - كما هو مقرر في موضعه - ثم رجع إلى المدينة . فلما كان ذي القعدة من سنة سبع خرج ﷺ إلى مكة معتمراً هو وأهل الحديبية فأحرم من ذي الحليفة وساق معه الهدي ، قيل : كان ستين بدنة فلبى وسار أصحابه يلبون ، فلما كان ﷺ قريباً من مر الظهران بعث محمد بن سلمة بالخيل والسلاح أمامه ، فلما رآه المشركون رعبوا رعباً شديداً ، وظنوا أن رسول الله ﷺ يغزوهم ، وأنه قد نكث العهد الذي بينهم وبينه من وضع القتال عشر سنين ، فذهبوا فأخبروا أهل مكة ، فلما جاء رسول الله ﷺ فنزل بمر الظهران حيث ينظر إلى أنصاب الحرم ، بعث السلاح من القسي والنبل والرماح إلى بطن يأجج ، وسار إلى مكة بالسيوف مغمدة في قربها كما شارطهم عليه ، فلما كان في أثناء الطريق بعثت قريش مكرز بن حفص فقال يا محمد ماعرفناك تنقض العهد؟، فقال ﷺ : « وما ذاك ؟ » قال : دخلت علينا بالسلاح والقسي والرماح. فقال عليه الصلاة والسلام: « لم يكن ذلك وقد بعثنا به إلى يأجج» فقال: بهذا عرفناك بالبر والوفاء، وخرجت رءوس الكفار من مكة لئلا ينظروا إلى رسول الله ﷺ وإلى أصحابه رضي الله عنهم غيظاً وحنقاً ، وأما بقية أهل مكة من الرجال والنساء والولدان فجلسوا في الطريق وعلى البيوت ينظرون إلى رسول الله ﷺ وأصحابه، فدخلها عليه الصلاة والسلام وبين يديه أصحابه يلبون، والهدي قد بعثه إلى ذي طوى، وهو راكب ناقته القصواء التي كان راكبها يوم الحديبية ، وعبد الله بن رواحة الأنصارى آخذ زمام ناقة رسول الله ﷺ يقودها وهو يقول :

باسم الذي محمد رسوله ... باسم الذي لادين إلا دينه
اليوم نضربكم على تأويله ... كما ضربناكم على تنزيله

حرب لو كان معه أحد » فلما سمع بذلك عرف أنه سيرده إليهم ، فخرج حتى أتى سيف البحر قال : وتفلت منهم أبو جندل بن سهيل فلحق بأبي بصير ، فجعل لايخرج من قريش رجل قد أسلم إلا لحق بأبي بصير حتى اجتمعت منهم عصابة ، فوالله مايسمعون بعير خرجت لقريش إلى الشام إلا اعترضوا لها فقتلوهم وأخذوا أموالهم فأرسلت قريش إلى النبي ﷺ تناشده الله والرحم لما أرسل إليهم ، فمن أتاه منهم فهو آمن فأرسل النبي ﷺ إليهم ، وأنزل الله عز وجل ﴿ **وهو الذي كفَّ أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة** ﴾ حتى بلغ ﴿ **حمية الجاهلية** ﴾ وكانت حميتهم أنهم لم يقروا أنه رسول الله ، ولم يقروا باسم الله الرحمن الرحيم ، وحالوا بينهم وبين البيت وهكذا ساقه البخاري) .

٧ ـــ قال ابن كثير راوياً عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه : (ياأيها الناس اتهموا الرأي فلقد رأيتني يوم أبي جندل ولو أقدر على أن أرد على رسول الله ﷺ أمره لرددته ، وفي رواية فنزلت سورة الفتح فدعا رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقرأها عليه) وروى ابن كثير : (وقال الإمام أحمد عن أنس رضي الله عنه قال : إن قريشاً صالحوا النبي ﷺ وفيهم سهيل بن عمرو فقال النبي ﷺ لعلي رضي الله عنه : « اكتب بسم الله الرحمن الرحيم » فقال سهيل : لاندري مابسم الله الرحمن الرحيم ولكن اكتب باسمك اللهم ، فقال ﷺ : « اكتب من محمد رسول الله » قال : لو نعلم أنك رسول الله لاتبعناك ، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك ، فقال النبي ﷺ : « اكتب من محمد بن عبد الله » واشترطوا على النبي ﷺ أن من جاء منكم لانرده عليكم ومن جاءكم منا رددتموه علينا ، فقال يا رسول الله أنكتب هذا ؟ قال ﷺ : « نعم إنه من ذهب منا إليهم فأبعده الله » رواه مسلم . وروى أحمد أيضاً عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال : لما خرجت الحرورية اعتزلوا فقلت لهم : إن رسول الله ﷺ يوم الحديبية صالح المشركين فقال لعلي رضي الله عنه : « اكتب يا علي هذا ماصالح عليه محمد رسول الله » قالوا : لو نعلم أنك رسول الله ماقاتلناك فقال رسول الله ﷺ : « امح يا علي اللهم إنك تعلم أني رسولك ، امح يا علي واكتب هذا ماصالح عليه محمد بن عبد الله ، والله لرسول الله خير من علي وقد محا نفسه ولم يكن محوه ذلك يمحوه من النبوة أخرجت من هذه » قالوا : نعم ، ورواه أبو داود ، وروى الإمام أحمد عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : نحر رسول الله ﷺ يوم الحديبية سبعين بدنة فيها جمل لأبي جهل ، فلما صدّت عن البيت حنت كما تحن إلى أولادها) .

٨ - بمناسبة قوله تعالى ﴿ **لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلّقين رؤوسكم ومقصرين لاتخافون** ﴾ قال ابن كثير: (وهذا كان في عمرة القضاء في ذي القعدة سنة سبع ، فإن النبي صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم لما رجع من الحديبية في ذي القعدة رجع إلى المدينة فأقام بها ذي الحجة والمحرم وخرج في صفر إلى خيبر ففتحها الله عليه ، بعضها عنوة وبعضها صلحاً - وهي إقليم عظيم كثير النخل والزروع - فاستخدم من فيها من اليهود عليها على الشطر وقسمها بين أهل الحديبية وحدهم ، ولم يشهدها أحد غيرهم إلا الذين قدموا من الحبشة : جعفر ابن أبي طالب وأصحابه ، وأبو موسى الأشعري وأصحابه رضي الله عنهم ، ولم يغب منهم أحد . قال ابن زيد : إلا أبا دجانة سماك بن خرشة - كما هو مقرر في موضعه - ثم رجع إلى المدينة . فلما كان ذي القعدة من سنة سبع خرج ﷺ إلى مكة معتمراً هو وأهل الحديبية فأحرم من ذي الحليفة وساق معه الهدي ، قيل : كان ستين بدنة فلبى وسار أصحابه يلبون ، فلما كان ﷺ قريباً من مر الظهران بعث محمد بن سلمة بالخيل والسلاح أمامه ، فلما رآه المشركون رعبوا رعباً شديداً ، وظنوا أن رسول الله ﷺ يغزوهم ، وأنه قد نكث العهد الذي بينهم وبينه من وضع القتال عشر سنين ، فذهبوا فأخبروا أهل مكة ، فلما جاء رسول الله ﷺ فنزل بمر الظهران حيث ينظر إلى أنصاب الحرم ، بعث السلاح من القسي والنبل والرماح إلى بطن يأجج ، وسار إلى مكة بالسيوف مغمدة في قربها كما شارطهم عليه ، فلما كان في أثناء الطريق بعثت قريش مكرز بن حفص فقال يا محمد ماعرفناك تنقض العهد؟، فقال ﷺ : « وما ذاك ؟ » قال : دخلت علينا بالسلاح والقسي والرماح . فقال عليه الصلاة والسلام: « لم يكن ذلك وقد بعثنا به إلى يأجج » فقال: بهذا عرفناك بالبر والوفاء، وخرجت رءوس الكفار من مكة لئلا ينظروا إلى رسول الله ﷺ وإلى أصحابه رضي الله عنهم غيظاً وحنقاً ، وأما بقية أهل مكة من الرجال والنساء والولدان فجلسوا في الطريق وعلى البيوت ينظرون إلى رسول الله ﷺ وأصحابه، فدخلها عليه الصلاة والسلام وبين يديه أصحابه يلبون، والهدي قد بعثه إلى ذي طوى، وهو راكب ناقته القصواء التي كان راكبها يوم الحديبية ، وعبد الله بن رواحة الأنصارى آخذ زمام ناقة رسول الله ﷺ يقودها وهو يقول :

باسم الذي محمد رسوله   باسم الذي لادين إلا دينه
اليوم نضربكم على تأويله   كما ضربناكم على تنزيله

ويذهل الخليل عن خليله قد أنزل الرحمن في تنزيله
خلوا بني الكفار عن سبيله ضرباً وتنزيل الهام عن مقيله
في صحف تتلى على رسوله بأن خير القتل في سبيله
يارب إني مؤمن بقيله

فهذا مجموع من روايات متفرقة .

(وروى الإمام أحمد عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : إن رسول الله ﷺ لما نزل مَرّ الظهران في عمرته بلغ أصحاب رسول الله ﷺ أن قريشاً تقول : مايتباعثون من العجف ، فقال أصحابه : لو انتحرنا من ظهرنا فأكلنا من لحمه ، وحسونا من مرقه أصبحنا غداً حين ندخل على القوم وبنا جمامة ، قال ﷺ : « لا تفعلوا ولكن اجمعوا لي من أزوادكم » فجمعوا له وبسطوا الأنطاع فأكلوا حتى تركوا ، وحشا كل واحد منهم في جرابه ، ثم أقبل رسول الله ﷺ حتى دخل المسجد وقعدت قريش نحو الحجر ، فاضطبع ﷺ بردائه ثم قال : « لا يرى القوم فيكم غميزة » فاستلم الركن، ثم رمل حتى إذا تغيب بالركن اليماني مشى إلى الركن الأسود ، فقالت قريش : ما ترضون بالمشي أما إنكم لتنقزون نقز الظباء ، ففعل ذلك ثلاثة أشواط فكانت سُنّة ، قال أبو الطفيل : فأخبرني ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ فعل ذلك في حجة الوداع . وروى أحمد عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قدم رسول الله ﷺ وأصحابه مكة وقد وهنتهم حمى يثرب ، ولقوا منها سوءاً ، فقال المشركون : إنه يقدم عليكم قوم قد وهنتهم حمى يثرب ، ولقوا منها شراً ، وجلس المشركون من الناحية التي تلي الحجر ، فأطلع الله تعالى نبيه ﷺ على ماقالوا ، فأمر رسول الله ﷺ أصحابه أن يرملوا الأشواط الثلاثة؛ ليرى المشركون جلدهم ، قال : فرملوا ثلاثة أشواط ، وأمرهم أن يمشوا بين الركنين حيث لا يراهم المشركون ، ولم يمنع النبي ﷺ أن يرملوا الأشواط كلها إلا إبقاءً عليهم ، فقال المشركون : هؤلاء الذين زعمتم أن الحمى قد وهنتهم ، هؤلاء أجلد من كذا وكذا . أخرجاه في الصحيحين) . وفي لفظ قدم النبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم صبيحة رابعة يعني من ذي القعدة فقال المشركون إنه يقدم عليكم وفد قد وهنتهم حمى يثرب فأمرهم النبي ﷺ أن يرملوا الأشواط الثلاثة ، ولم يمنعه أن يأمرهم أن يرملوا الأشواط كلها إلا إبقاءً عليهم ، قال البخاري وزاد ابن سلمة — يعني حماد بن سلمة — عن أيوب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : لما قدم النبي ﷺ لعامه الذي استأمن قال : « ارملوا ليري المشركين قوتهم والمشركون

من قبل قعيقعان، وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال إنما سعى النبي ﷺ بالبيت وبالصفا والمروة ليرى المشركون قوته . ورواه في مواضع أخر ومسلم والنسائي من طرق عن سفيان بن عيينة به . وورى أيضاً عن إسماعيل بن أبي خالد أنه سمع ابن أبي أوفى يقول : لما اعتمر رسول الله ﷺ سترناه من غلمان المشركين ومنهم أن يؤذوا رسول الله ﷺ انفرد به البخاري دون مسلم ، وروى البخاري أيضاً : عن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : إن رسول الله ﷺ خرج معتمراً فحال كفار قريش بينه وبين البيت ، فنحر هديه ، وحلق رأسه بالحديبية ، وقاضاهم على أن يعتمر العام المقبل ، ولا يحمل سلاحاً عليهم إلا سيوفاً ، ولا يقيم بها إلا ماأحبوا . فاعتمر ﷺ من العام المقبل فدخلها كما كان صالحهم ، فلما أن أقام بها ثلاثاً أمروه أن يخرج فخرج ﷺ ، وهو في صحيح مسلم أيضاً . وروى البخاري عن البراء رضي الله عنه قال : اعتمر النبي ﷺ في ذي القعدة ،فأبى أهل مكة أن يدعوه يدخل مكة حتى قاضاهم على أن يقيموا بها ثلاثة أيام ، فلما كتبوا الكتاب كتبوا : هذا ماقاضى عليه محمد رسول الله ، قالوا : لانقرّ بهذا ولو نعلم أنك رسول الله مامنعناك شيئاً ، ولكن اكتب محمد بن عبد الله قال ﷺ « أنا رسول الله وأنا محمد بن عبد الله » ثم قال ﷺ لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه « امح رسول الله » قال رضي الله عنه : لا والله لا أمحوك أبداً ، فأخذ رسول الله ﷺ الكتاب وليس يحسن يكتب ، فكتب « هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله أن لا يدخل مكة بالسلاح إلا بالسيف في القراب، وأن لا يخرج من أهلها بأحد أراد أن يتبعه ، وأن لا يمنع من أصحابه أحداً إن أراد أن يقيم بها » فلما دخلها ومضى الأجل أتوا علياً فقالوا : قل لصاحبك اخرج عنا فقد مضى الأجل ، فخرج النبي ﷺ فتبعته ابنة حمزة رضي الله عنه ، تنادي : ياعم ياعم ، فتناولها علي رضي الله عنه فأخذ بيدها وقال لفاطمة رضي الله عنها : دونك ابنة عمك فحملتها ، فاختصم فيها علي وزيد وجعفر رضي الله عنهم ، فقال علي رضي الله عنه : أنا أخذتها وهي ابنة عمي ، وقال جعفر رضي الله عنه : ابنة عمي وخالتها تحتي ، وقال زيد رضي الله عنه : ابنة أخي فقضى بها النبي ﷺ لخالتها وقال : « الخالة بمنزلة الأم » وقال لعلي رضي الله عنه : « أنت مني وأنا منك » وقال لجعفر رضي الله عنه « أشبهت خُلُقي وخَلْقي » وقال ﷺ لزيد رضي الله عنه : « أنت أخونا ومولانا » قال علي رضي الله عنه : ألا تتزوج ابنة حمزة رضي الله عنه ؟ قال ﷺ « إنها ابنة أخي من الرضاعة » تفرد به من هذا الوجه .

٩ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره**

على الدين كله وكفى بالله شهيداً ﴾ قال صاحب الظلال : (فلقد ظهر دين الحق ، لا في الجزيرة وحدها ، بل ظهر في المعمور من الأرض كلها قبل مضي نصف قرن من الزمان . ظهر في إمبراطورية كسرى كلها ، وفي قسم كبير من إمبراطورية قيصر ، وظهر في الهند وفي الصين ، ثم في جنوب آسيا في الملايو وغيرها ، وفي جزر الهند الشرقية (أندونسيا) .. وكان هذا هو معظم المعمور من الأرض في القرن السادس ومنتصف القرن السابع الميلادي . وما يزال دين الحق ظاهراً على الدين كله - حتى بعد انحساره السياسي عن جزء كبير من الأرض التي فتحها ، وبخاصة في أوربا وجزر البحر الأبيض . وانحسار قوة أهله في الأرض كلها بالقياس إلى القوى التي ظهرت في الشرق والغرب في هذا الزمان . أجل ما يزال دين الحق ظاهراً على الدين كله ، من حيث هو دين . فهو الدين القوي بذاته ، القوي بطبيعته ، الزاحف بلا سيف ولا مدفع من أهله ! لما في طبيعته من استقامة مع الفطرة ومع نواميس الوجود الأصيلة ؛ ولما فيه من تلبية بسيطة عميقة لحاجات العقل والروح ، وحاجات العمران والتقدم ، وحاجات البيئات المتنوعة ، من ساكني الأكواخ إلى سكان ناطحات السحاب ! وما من صاحب دين غير الإسلام ينظر في الإسلام نظرة مجردة من التعصب والهوى حتى يقر باستقامة هذا الدين وقوته الكامنة ، وقدرته على قيادة البشرية قيادة رشيدة ، وتلبية حاجاتها النامية المتطورة في يسر واستقامة .. ﴿ **وكفى بالله شهيداً** ﴾ .. فوعد الله قد تحقق في الصور السياسية الظاهرة قبل مضي قرن من الزمان بعد البعثة المحمدية . ووعد الله ما يزال متحققاً في الصورة الموضوعية الثابتة ؛ وما يزال هذا الدين ظاهراً على الدين كله في حقيقته . بل إنه هو الدين الوحيد الباقي قادراً على العمل والقيادة ، وفي جميع الأحوال . ولعل أهل هذا الدين هم وحدهم الذين لا يدركون هذه الحقيقة اليوم ! فغير أهله يدركونها ويخشونها ، ويحسبون لها في سياساتهم كل حساب !) .

أقول : لقد جاءت نصوص كثيرة تدلّ على انتصار سياسي عالمي للإسلام ستصبح فيه أزِمَّة العالم كله بيد المسلمين ، ولقد نقلنا بعض هذه النصوص في تفسير سورة براءة ، وهذا الانتصار كائن قبل نزول المسيح عليه السّلام بزمن كثير ، كما يبدو - والله أعلم - والتحقيق الواسع لهذا الموضوع سيكون في كتابنا (الأساس في السنة وفقهها) وما يجري الآن في العالم يدل على أننا أصبحنا قريبين من مرحلة تشبه مرحلة المدّ الأول ، وفي الحديث الشريف « أمتي كالمطر لا يدرى أوله خير أم آخره » .

١٠ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم** ﴾ قال ابن كثير : (كما قال عز وجل ﴿ **فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين** ﴾ (التوبة : ٥٤) وهذه صفة المؤمنين أنْ يكون أحدهم شديداً عنيفاً على الكفار ، رحيماً برّاً بالأخيار ، غضوباً عبوساً في وجه الكافر ، ضحوكاً بشوشاً في وجه أخيه المؤمن كما قال تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة** ﴾ (التوبة : ١٢٣) وقال النبي ﷺ : « مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر » وقال ﷺ « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً » وشبك ﷺ بين أصابعه ، كلا الحديثين في الصحيح .

أقول : في سورة المائدة ذكرت مواصفات الجماعة التي تقف في وجه الردة وتستأهل الغلبة والنصر ، ومجيء آية ﴿ **محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار** ... ﴾ في سياق سورة الفتح يشعر بأن ما ذكرته هذه الآية هو مواصفات الجماعة التي تستأهل الرعاية والنصرة والغلبة ، فلنتدبر الآية ، وليحاول المسلم أن يأخذ حظّه مما ورد فيها ، ولتحاول الطائفة القائمة بالحق أن تأخذ بحظها من ذلك الإيمان ، والعمل الصالح ، والوحدة والتلاحم والتفاني ، ووضاءة الوجوه من العبادة ، والركوع والسجود ، والرحمة بالمؤمنين ، والشدّة على الكافرين .

ومجيء هذه الآية بعد قوله تعالى ﴿ **هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله** ... ﴾ يشعر أن وجود مَنْ هذا شأنهم هو الطريق إلى انتصار الإسلام ، ولقد تحقق أصحاب رسول الله ﷺ بما ورد في الآية ، وعلى أتباعه - عليه الصلاة والسلام - أن يفعلوا ليكون لهم شرف المعيّة له ﷺ ، فلئن فاتتهم معيّة الجسد فلا تفوتهم معيّة الاقتداء والتحقيق والتخلق ، وإن في الآية لرداً على من أغفلوا الصراع مع الكفر وتناسوه .

....

١١ - بمناسبة قوله تعالى ﴿ **سيماهم في وجوههم من أثر السجود** ﴾ قال ابن كثير : (قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما : سيماهم في وجوههم

يعني السمت الحسن ، وقال مجاهد وغير واحد : يعني الخشوع والتواضع . وروى ابن أبي حاتم عن مجاهد ﴿ **سيماهم في وجوههم من أثر السجود** ﴾ قال : الخشوع ، قلت : ما كنت أراه إلا هذا الأثر في الوجه ، فقال : ربما كان بين عيني من هو أقسى قلباً من فرعون . وقال السدي : الصلاة تحسّن وجوههم ، وقال بعض السلف : من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار ، وقد أسنده ابن ماجه في سننه عن أبي سفيان عن جابر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار » والصحيح أنه موقوف . وقال بعضهم : إن للحسنة نوراً في القلب وضياءً في الوجه وسعة في الرزق ومحبة في قلوب الناس . وقال أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه : ما أسر أحد سريرة إلا أبداها الله تعالى على صفحات وجهه وفلتات لسانه » والغرض أن الشيء الكامن في النفس يظهر على صفحات الوجه ، فالمؤمن إذا كانت سريرته صحيحة مع الله تعالى أصلح الله عز وجل ظاهره للناس ، كما روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال : من أصلح سريرته أصلح الله تعالى علانيته . وروى أبو القاسم الطبراني عن جندب بن سفيان البجلي رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: « ما أسر أحد سريرة إلا ألبسه الله تعالى رداءها، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر » العزرمي – وهو من رجال السند – متروك. وروى الإمام أحمد عن أبي سعيد رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال : « لو أنّ أحدكم يعمل في صخرة صماء ليس لها باب ولا كوة ، لخرج عمله للناس كائناً ما كان » . وروى الإمام أحمد عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال : « إن الهدي الصالح والسمت الصالح والاقتصاد جزء من خمسة وعشرين جزءاً من النبوة » ورواه أبو داود. فالصحابة رضي الله عنهم خلصت نياتهم ، وحسنت أعمالهم ، فكل من نظر إليهم أعجبوه في سمتهم وهديهم . وقال مالك رضي الله عنه: بلغني أن النصارى كانوا إذا رأوا الصحابة رضي الله عنهم الذين فتحوا الشام يقولون : والله لهؤلاء خير من الحواريين فيما بلغنا ، وصدقوا في ذلك فإن هذه الأمة معظمة في الكتب المتقدمة وأعظمها وأفضلها أصحاب رسول الله ﷺ) .

١٢ – بمناسبة قوله تعالى عن الصحابة ﴿ **وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجراً عظيماً** ﴾ روى ابن كثير : (قال مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال . قال رسول الله ﷺ : « لاتسبوا أصحابي ، فوالذي نفسي بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً ما أدرك مد أحدهم ولا نصيفه ») .

١٣ – قال الله عز وجل واصفاً رسوله والمؤمنين ﴿ **محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً سيماهم في وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم في التوراة** ﴾ فدلّ هذا على أن الرسول ﷺ وأمته موصوفون في التوراة بهذه الصفات ، ولكن أين التوراة الحقيقية ؟ إن التوراة الحالية محرّفة متناقضة ، تدل على نفسها بنفسها أنها ليست التوراة التي أنزلت على موسى عليه السلام ، كما برهنا على ذلك في كتابنا (من أجل خطوة إلى الأمام) ومع أن التوراة الحالية كذلك فلازال فيها بقايا من البشارات برسولنا عليه الصلاة والسلام ذكرناها في كتابنا (الرّسول ﷺ) ، ولأن التوراة الحالية تمزج ما هو من سيرة موسى عليه السلام ، بما هو وحي ، بما هو حكاية . وبما أن هذه الأسفار كتبت بعد مئات السنين من وفاة موسى عليه السلام ، وبما أنها حصيلة دمج لمجموعة روايات – كما نقلنا ذلك في هذا التفسير – فإننا لا نطمع أن نجد شيئاً على أصله فيها . ولقد تتبّعنا عبارات هذه الأسفار فوجدنا في بعضها ما يشير إلى بعض ما ذكره القرآن هنا ، ولكن بشكل مفرق من مثل (أقيم لهم نبياً من وسط إخوتهم مثلك وأجعل كلامي في فمه ..) تثنية ١٨ (يجلب الربّ عليك أمّة من بعيد من أقصاء الأرض كما يطير النّسر ، أمة لا تفهم لسانها ، أمة جافية الوجه لا تهاب الشيخ ولا تحن إلى الولد) تثنية ٢٨ (تهلّلوا أيها الأمم شعبه ؛ لأنه ينتقم بدم عبيده ، ويرد نقمة على أضراره ، ويصفح عن أرضه عن شعبه) تثنية ٣٢ وهذا الأخير يشبه ﴿ **أشداء على الكفار رحماء بينهم** ﴾ .

١٤ – قال تعالى ﴿ **ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزّراع ليغيظ بهم الكفار** ﴾ وقد فتّشت في ما يسمى بالأناجيل الحالية والتي هي مجموعة روايات متناقضة ، والتي تقيم الحجة بمضمونها على نفسها ، أنها ليست ذات ما بشر به المسيح ، فرأيت النص التالي يمكن أن يكون أصل ما أشار إليه القرآن : في الإصحاح الثالث عشر من إنجيل متى على لسان المسيح عليه السلام : (قدّم لهم مثلاً آخر قائلاً : يشبه ملكوت السموٰات حبّة خردل أخذها إنسان وزرعها في حقله ، وهي أصغر جميع البذور ؛ ولكن متى نمت فهي أكبر البقول ، وتصير شجرة حتى إن طيور السماء تأتي وتأوي في أغصانها) .

كلمة أخيرة في سورة الفتح :

بدأت السورة بمقدمة سمّت صلح الحديبية فتحاً مبيناً ، وذكرت حكمة الله في هذا

الفتح ، وأنها إرادة الله برسوله : المغفرة وإتمام النعمة والهداية والنصر ، ثم ذكرت إنزال السكينة على المؤمنين قبل الصلح وبعده ، وأن حكمة ذلك زيادة الإيمان في قلوبهم من أجل أن تكون النتيجة إدخال المؤمنين الجنة ، وتعذيب الكافرين في النار . وهكذا قدّمت السورة هذه المعاني الإجمالية ليعرف منذ البداية أن ما حدث يوم الحديبية كان فتحاً ، وأن عاقبته بالنسبة لرسول الله ﷺ وبالنسبة للمؤمنين هي الخير كله . وبعد هذه المقدمة يعرض الله عز وجل المسألة من بدايتها : فالبداية أن الله أرسل محمداً ﷺ وجعل مهمته الشهادة على الخلق ، والتبشير والإنذار ، وأن على الخلق أن يؤمنوا بالله ورسوله ، وأن ينصروا رسوله ﷺ ، وأن يعظموه ، وأن ينزهوا الله عز وجل ، وأن بيعة رسول الله ﷺ إنما هي بيعة لله عز وجل ، فماذا كان موقف الناس من هذه المعاني قبيل صلح الحديبية وأثناءه : أما المنافقون فقد تخلفوا عن رسول الله ﷺ منذ البداية ، وأمّا المؤمنون الصادقون فساروا معه ، ولما اقتضى الأمر بيعة على الموت أو عدم الفرار بايعوا مطمئنين ، فكافأهم الله بإنزال السكينة ، وفتح خيبر ، وغير ذلك . ومن جملة ذلك تحقيق رؤيا رسول الله ﷺ بالطواف حول البيت في عام لاحق ، وأما الكافرون والمنافقون فكانت مواقفهم خلال ذلك في غاية الجهل والتناقض ، ثم بشر الله عز وجل بإظهار دينه على الأديان كلها ، ثم ذكر خصائص رسوله ﷺ والمؤمنين الذين يستأهلون هذا النصر ، ويستأهلون معه المغفرة والجنة .

....

هذه أمهات من المعاني في السورة عرض الله عز وجل لنا فيها صلح الحديبية ، وما رتّبه عليه وأسماه فتحاً ، فأعطى بذلك المسلمين درساً خالداً من دروس القرآن ، وكلها خوالد . فالقرآن الكريم يسجل لنا كل ما هو خالد تحتاجه الأمة الإسلامية أفراداً وجماعة في سيرها خلال العصور ، ومن ثم تجده سجّل كثيراً من مواقف السيرة التي من هذا النوع في الحرب أو في السلم ، فسجَّل لنا مواقف متعددة في قضايا الجهاد من خلال عرضه لغزوات رسول الله ﷺ وحروبه الرئيسية ، وسجل لنا ههنا موقفاً ترتب عليه معاهدة وصلح ، وهو موقف قد تحتاجه الأمة الإسلامية في سيرها الطويل كثيراً ، والملاحظ أن سورة القتال السابقة على سورة الفتح ذكرت شيئاً عن المسالمة والمصالحة ، وأنها جائزة في بعض الحالات ، وقد جاءت سورة الفتح لتعرض علينا نموذجاً على أن الهدنة والصلح قد يترتب عليهما من المنافع والمصالح للمسلمين أضعافاً مضاعفة ، بل قد

لايكون في لحظة من اللحظات أية مصالح في الحرب . من هذه الصلة بين سورة القتال والفتح نعرف كيف أن السور في القسم الواحد يكمّل بعضها بعضاً ، سنحاول تفصيل هذا الموضوع في الكلام عن قسم المثاني بعد أن ننتهي من عرضه .

....

ومن خلال عرض ما مر فصلت السورة في قضايا تتعلّق بالإيمان والتقوى وأخلاق الجماعة المؤمنة ، وفصّلت في الكفر وأخلاقه ودوافع أهله ، وفصّلت في النفاق وأخلاق أهله ودوافعهم ، وفصّلت في كيفية تعامل الجماعة المسلمة مع المنافقين ، وفصّلت في سنن الله في عملية الصراع بين الكفر والإيمان ، وفيما ينبغي أن يلاحظه المسلمون في عملية الصراع ، ومن أهم ذلك حماية أرواح المؤمنين المخالطين للكافرين ، كما فصّلت في خصائص الجماعة الإسلامية في تعاطفها مع بعضها وفي شدتها على الكافرين ، وفي إقبالها على الله بالعبادة ، وإخلاصها له في النية ، كما فصّلت فيما تقتضيه عملية الإيمان من نصرة لرسول الله ﷺ وتعظيمه .

ومما ينبغي أن نتذكره أنه لا يكفي أن يقول قائل آمنت بالله ورسوله ، بل لابد أن يرافق ذلك نصرة لرسول الله ﷺ بنصرة شخصه في حياته ، ونصرة شريعته ودينه ، وأن يرافق ذلك توقير وتعظيم لشخص رسول الله ﷺ في حياته وبعد مماته ، وأن يرافق ذلك تنزيه لله عز وجل ، وأن يضم المسلمين فيما بينهم صف واحد يمتاز بالرحمة فيما بينه ، والشدة على العدو الكافر ، ويمتاز بالصلاة والعبادة ، والترقّي والإيمان والعمل الصالح ، والصراع المتواصل لنشر الإسلام حتى يعمّ الإسلام العالم .

....

وقد رأينا صلة سورة الفتح بمحور السورة من البقرة وكيف أنها تفصله وتضرب الأمثال على تحققه؛ فقد جاء في المحور ﴿**فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين**﴾ وههنا ذكر ما يترتب على ذلك من إيمان ونصرة وتوقير وتعظيم وتسبيح وبيعة . وفي المحور ذكر ﴿ **فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم** ﴾ وههنا ذكر كيفية الهداية ، وذكر بعض أسبابها ﴿ **ويهديك صراطاً مستقيماً** ﴾ ﴿ **ويهديكم صراطاً مستقيماً** ﴾ ومن السياق نعلم أن هذه الهداية هي أثر الحركة الجهادية المخلصة ، وأثر الطاعة الراشدة، والمحور ذكر أن النصر يكون بعد البأساء والضراء والزلزال ، وكان فتح الحديبية بعد ذلك كله .

والمحور ذكر ﴿ **حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله** ﴾ والسورة فصّلت في صفات الرسول ﷺ والمؤمنين الذين إذا قالوا ذلك كان الجواب : ﴿ **ألا إن نصر الله قريب** ﴾ .

☆ ☆ ☆

سورة الحجرات

وهي السورة التاسعة والأربعون بحسب الرسم القرآني
وهي السورة الخامسة من المجموعة الخامسة من قسم
المثاني ، وآياتها ثماني عشرة آية
وهي مدنية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلحَمْدُ لِلَّهِ، وَٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ عَلَىٰ رَسُولِ ٱللَّهِ وَآلِهِ وَأَصْحَابِهِ

رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا، إِنَّكَ أَنْتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ

نَقُول :

قال الألوسي في تقديمه لسورة الحجرات : (مدنية كما قال الحسن ، وقتادة ، وعكرمة ، وغيرهم ، وفي مجمع البيان عن ابن عباس إلا آية وهي قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى** ﴾ ولعل من يعتبر ما أخرجه الحاكم في مستدركه ، والبيهقي في الدلائل ، والبزار في مسنده من طريق الأعمش عن علقمة عن عبد الله قال : ما كان ﴿ **يا أيها الذين آمنوا** ﴾ أنزل ، فبالمدينة ، وما كان ﴿ **يا أيها الناس** ﴾ فبمكة يقول بمكية . ما استثني ، والحق أن هذا ليس بمطرد . وذكر الخفاجي أنها في قول شاذ مكية ، وهي ثماني عشرة آية بالإجماع ، ولا يخفى تواخيها مع ما قبلها لكونهما مدنيتين ومشتملتين على أحكام ، وتلك فيها قتال الكفار ، وهذه فيها قتال البغاة ، وتلك ختمت بالذين آمنوا ، وهذه افتتحت بالذين آمنوا ، وتلك تضمنت تشريفات له صلى الله تعالى عليه وسلم خصوصاً مطلعها وهذه أيضاً في مطلعها أنواع من التشريف له عليه الصلاة والسلام ، وفي البحر مناسبتها لآخر ما قبلها ظاهر ، لأنه عز وجل ذكر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وأصحابه، ثم قال سبحانه ﴿ **وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات** ﴾ الخ فربما صدر من المؤمن عامل الصالحات بعض الشيء مما ينبغي أن ينهى عنه فقال جل وعلا تعليماً للمؤمنين وتهذيباً لهم ﴿ **بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ يَأَيُّها الّذين آمَنوا لَا تُقدمُوا بَيْنَ يَدَي اللهِ وَرَسُوله** ﴾ .

وقال صاحب الظلال :(هذه السورة ، التي لا تتجاوز ثماني عشرة آية ، سورة جليلة ضخمة ، تتضمن حقائق كبيرة من حقائق العقيدة والشريعة ، ومن حقائق الوجود والإنسانية . حقائق تفتح للقلب وللعقل آفاقا عالية وآمادا بعيدة ؛ وتثير في النفس والذهن خواطر عميقة ومعاني كبيرة ؛ وتشمل من مناهج التكوين والتنظيم ، وقواعد التربية والتهذيب ، ومبادىء التشريع والتوجيه ، ما يتجاوز حجمها وعدد آياتها مئات المرات ! وأول ما يبرز للنظر عند مطالعة السورة ، هو أنها تكاد تستقل بوضع معالم كاملة . لعالم رفيع كريم نظيف سليم ؛ متضمنة القواعد والأصول والمبادىء والمناهج التي يقوم عليها هذا العالم ، والتي تكفل قيامه أولاً ، وصيانته أخيراً .. عالم يصدر عن الله ، ويتجه إلى الله ، ويليق أن ينتسب إلى الله .. عالم نقي القلب ، نظيف المشاعر ، عف اللسان ، وقبل ذلك عف السريرة .. عالم له أدب مع الله ، وأدب مع رسوله ، وأدب مع نفسه ، وأدب مع غيره . أدب في هواجس ضميره ، وفي حركات

جوارحه . وفي الوقت ذاته له شرائعه المنظمة لأوضاعه ، وله نظمه التي تكفل صيانته . وهي شرائع ونظم تقوم على ذلك الأدب ، وتنبثق منه ، وتتسق معه ؛ فيتوافى باطن هذا العالم وظاهره ، وتتلاقى شرائعه ومشاعره ، وتتوازن دوافعه وزواجره ؛ وتتناسق أحاسيسه وخطاه ، وهو يتجه ويتحرك إلى الله .. ومن ثم لا يوكل قيام هذا العالم الرفيع الكريم النظيف السليم وصيانته ، لمجرد أدب الضمير ونظافة الشعور ؛ ولا يوكل كذلك لمجرد التشريع والتنظيم . بل يلتقي هذا بذلك في انسجام وتناسق . كذلك لا يوكل لشعور الفرد وجهده ، كما لا يترك لنظم الدولة وإجراءاتها . بل يلتقي فيه الأفراد بالدولة ، والدولة بالأفراد ؛ وتتلاقى واجباتهما ونشاطهما في تعاون واتساق .) .

كلمة في سورة الحجرات ومحورها :

جاء المقطع الثاني من سورة الفتح ليحدد مهمات الرسول ، وواجبات المرسل إليهم ، ولذلك فقد بدأ بقوله تعالى : ﴿ **إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً * لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزّروه وتوقّروه وتسبّحوه بكرة وأصيلاً** ﴾ (الفتح : ٨) وقد جالت سورة الفتح جولات في واجبات المرسل إليهم ، وهذه سورة الحجرات تكمّل ، ولذلك فإنها تبدأ بقوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تقدّموا بين يدي الله ورسوله** ﴾ ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ..** ﴾ ﴿ **واعلموا أن فيكم رسول الله لو يطيعكم في كثير من الأمر لَعَنتُّم ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزيّنه في قلوبكم وكرّه إليكم الكفر والفسوق والعصيان** ﴾ فسورة الحجرات تكمّل سورة الفتح في تبيان واجبات المرسل إليهم .

تنتهي سورة الفتح بقوله تعالى ﴿ **محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفّار رحماء بينهم ...** ﴾ (الآية : ٢٩) وتأتي سورة الحجرات لتذكر أدب العلاقة بين المؤمنين ورسولهم ، وبين المؤمنين مع بعضهم ﴿ **إن جاءكم فاسق بنبأ فتبيّنوا ...** ﴾ ﴿ **إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم** ﴾ ﴿ **لا يسخر قوم من قوم ...** ﴾ ﴿ **اجتنبوا كثيراً من الظن ...** ﴾ وهذا مظهر آخر من مظاهر تكامل سورة الحجرات مع سورة الفتح . وعلى ذلك فسورة الحجرات تتكامل مع مجموعتها وتكمّلها . فسورة الجاثية عمّقت معنى الاهتداء بكتاب الله ، وسورة الأحقاف عمّقت معنى التوحيد ، وسورة القتال بيّنت أن الأصل هو القتال بين أهل الفسوق وأهل الإيمان ،

وسورة الفتح بيّنت أن معارك المسلمين منصورة ، وسورة الحجرات بيّنت أدب السير ، وأدب الجماعة المسلمة في حركتها نحو الهدف ، وستأتي سورة (قاف) لتعظ وتذكّر باليوم الآخر ، فذلك هو الهدف ؛ وذلك هو الذي يضبط المسار .

ولأن سورة الحجرات مع سورة الفتح في مجموعة واحدة فإنّ محورها من سورة البقرة يأتي بعد محورها عادة ، أو يكون المحور متحداً ، وبالتّأمّل لسورة الحجرات وسورة براءة ندرك أن بينهما صلة : لقد ختمت سورة براءة بقوله تعالى : ﴿ **لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم** ﴾ (الآية : ١٢٨) وهذه سورة الحجرات تقول : ﴿ **واعلموا أن فيكم رسول الله لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتم** ﴾ ولقد جاء في سورة براءة قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين** ﴾ (الآية : ١١٩) وجاء في سورة الحجرات تفسير للصادقين : ﴿ **إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون** ﴾ وجاء في سورة براءة قوله تعالى : ﴿ **الأعراب أشدّ كفراً ونفاقاً** ... ﴾ (الآية : ٩٧) وورد في سورة الحجرات قوله تعالى : ﴿ **قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا** ... ﴾ .

ومن قبل قلنا إن سورة الأنفال وبراءة لهما حكم السورة الواحدة ذات المحور الواحد ، وقد بدأت سورة الأنفال بقوله تعالى ﴿ **يسألونك .. فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم** ﴾ وقد جاء في سورة الحجرات قوله تعالى : ﴿ **وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله** ﴾ .

هذه الصلات بين سورة الحجرات وبين سورتي الأنفال وبراءة ترشح أن يكون محور سورة الحجرات هو محور سورتي الأنفال وبراءة، وعلى هذا فإن محور سورة الحجرات هو الآيات الثلاث : ﴿ **كُتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وَعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون** ﴾

﴿ يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير وصدّ عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله والفتنة أكبر من القتل ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا ومن يرتددْ منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأوْلئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ ﴿ إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمت الله والله غفور رحيم ﴾ (الآيات ٢١٦ – ٢١٨) .

ومما يجعلنا نستأنس أن هذه الآيات هي محور سورة الحجرات أنها جاءت بعد محور سورة الفتح وفيما بينها وبين سورة الحجرات صلات : فقد جاء في هذه الآيات قوله تعالى : **﴿ أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون ﴾** ولذلك صلاته بقوله تعالى : **﴿ فأولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة ﴾** وقد جاء في هذه الآيات قوله تعالى : **﴿ أولئك يرجون رحمة الله والله غفور رحيم ﴾** ولذلك صلاته بقوله تعالى : **﴿ إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون ﴾** ويكثر ورود اسمي الله الغفور الرحيم في السورة ، وهما الاسمان اللذان ختمت بهما الآيات الثلاث : **﴿ ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيراً لهم والله غفور رحيم ﴾ ﴿ أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه واتقوا الله إن الله تواب رحيم ﴾ ﴿ وإن تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم من أعمالكم شيئاً إن الله غفور رحيم ﴾** .

فإذا صح أن محور سورة الحجرات هو هذه الآيات الثلاث فإن هذا يفيد أن سورة الحجرات تحدّد للصف المجاهد آدابه وسلوكه وأخلاقياته ، وآفاق قتاله الإنساني ، ولأمر ما جاء في هذه السورة قوله تعالى : **﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ﴾** .

ولقد جاءت آيات المحور في سياق قوله تعالى : **﴿ يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السّلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان ﴾** ومن ثم فسورة الحجرات تحدّد معاني من الإسلام يجب الدخول فيها ، ومجاهل من طريق الشيطان لا يجوز للمسلم أن يقربها ، فهي دستور المجاهد ، ومن ثم فهي دستور المسلم الحق .

تتألف السورة من مقطع واحد ذي فقرات واضحة المعالم وسنعرضها فقرة فقرة .

☆ ☆ ☆

الفقرة الأولى

وتتألف من آية واحدة وهذه هي :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١)

التفسير :

﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله** ﴾ قال ابن كثير : (أي لا تسرعوا في الأشياء بين يديه أي قبله ، بل كونوا تبعاً له في جميع الأمور ، حتى يدخل في عموم هذا الأدب الشرعي حديث معاذ رضي الله عنه حيث قال له النبي ﷺ حين بعثه إلى اليمن « بم تحكم ؟ » قال : بكتاب الله تعالى ، قال ﷺ : « فإن لم تجد ؟ » قال : بسنة رسول الله ﷺ . قال ﷺ : « فإن لم تجد؟ » قال رضي الله عنه : أجتهد رأيي ، فضرب في صدره وقال : « الحمد لله الذي وفّق رسولَ رسولِ الله ﷺ لما يرضي رسول الله ﷺ » . وقد رواه أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجه، والغرض منه أنه أخّر رأيه ونظره واجتهاده إلى ما بعد الكتاب والسنة ، ولو قدّمه قبل البحث عنهما لكان من باب التقديم بين يدي الله ورسوله . قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله

عنهما ﴿ **لا تقدموا بين يدي الله ورسوله** ﴾ لا تقولوا خلاف الكتاب والسنة ، وقال العوفي عنه : نهوا أن يتكلموا بين يدي كلامه ، وقال مجاهد لا تفتاتوا على رسول الله ﷺ بشيء حتى يقضي الله تعالى على لسانه ، وقال الضحاك : لا تقضوا أمراً دون الله ورسوله من شرائع دينكم . وقال سفيان الثوري ﴿ **لا تقدموا بين يدي الله ورسوله** ﴾ بقول ولا فعل ، وقال الحسن البصري ﴿ **لا تقدموا بين يدي الله ورسوله** ﴾ قال لا تدعوا قبل الإمام ، وقال قتادة : ذكر لنا أن ناساً كانوا يقولون : لو أنزل في كذا وكذا لو صح كذا وكذا فكره الله تعالى ذلك وتقدم فيه) .

أقول : وهناك قراءة صحيحة بفتح التاء والمعنى لا تتقدموا بين يدي الله ورسوله أي كونوا دائماً وراء الكتاب والسنة ، ولا تتقدّموا أمام الكتاب والسنة بقول أو رأي أو فعل ، ثم تستتبعوا الكتاب والسنة لذلك ، بل استنطقوا الكتاب والسنة في كل شيء وسيروا على هدى ذلك ، والخلاصة أن الآية تنهى نهياً جازماً عن التقدم على الكتاب والسنة بشيء ، وعن الإقدام على أمر من الأمور دون معرفة هدي الكتاب والسنة فيه ﴿ **واتقوا الله** ﴾ فيما تفعلون وتتركون ، وفيما أمر الله ونهى ﴿ **إن الله سميع** ﴾ لما تقولون ﴿ **عليم** ﴾ بما تعملون وحق مثله أن يتقىٰ ، وألا يتقدم عليه وعلى رسوله ﷺ بأمر ، فصار معنى الآية : يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله في أي شأن من الشؤون قولاً أو فعلاً ، واتقوا الله أن تفعلوا شيئاً من ذلك إن الله سميع عليم .

كلمة في السياق :

١ - قلنا إن محور سورة الحجرات هي الآية التي ذكرت فريضة القتال ، والآيتان بعدها ، ومن هذا نقول : إن من آداب المعركة الالتزام بالكتاب والسنة والتقوى ، وهذا يرشح للالتزام بأوامر القيادة الراشدة .

٢ - جاءت آية القتال في سياق الأمر بالدخول في الإسلام كله ، وعدم اتباع خطوات الشيطان ، وقد ظهر أثر ذلك في هذه السورة ، فمن أول مظاهر الإسلام الاستسلام لله ولرسوله ﷺ ، والسير وراء الكتاب والسنة ، ومن أول مظاهر اتباع خطوات الشيطان متابعة الهوى في معصية الله ورسوله .

٣ - قلنا : إن محور السورة يبدأ بقوله تعالى : ﴿ **كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم والله**

يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾(البقرة : ٢١٦) والصلة واضحة بين آية المحور وآية السورة ؛ فهناك أشياء يكرهها الإنسان وفيها الخير ؛ ولذلك يأمر بها الله ، وهناك أشياء يحبها الإنسان وفيها الشر ولذلك فإن الله ينهى عنها ، وعلى الإنسان أن يلتزم بالأمر والنهي ، وأن يستسلم، ولقد ختمت آية المحور بقوله تعالى ﴿ **والله يعلم وأنتم لا تعلمون** ﴾ وختمت الآية الأولى في السورة بقوله تعالى ﴿ **إن الله سميع عليم** ﴾ .

٤ - جاء قوله تعالى ﴿ **لا تقدّموا بين يدي الله ورسوله** ﴾ بعد سورة الفتح التي سجّلت صلح الحديبية الذي خفيت حكمته على الجميع ماعدا رسوله ﷺ ، فكان التقديم لهذا النهي بتلك الحادثة بمثابة البرهان والدليل والحجة عليها .

٥ - وقد جاء في سورة الفتح قوله تعالى : ﴿ **إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً لتؤمنوا بالله ورسوله** .. ﴾ وجاء هذا النهي ههنا ليبين لنا أدب الإيمان بالله وبالرسول ﷺ وهو عدم التقدّم عليهما بشيء .

☆ ☆ ☆

الفقرة الثانية

وتمتد من الآية (٢) إلى نهاية الآية (٥) وهذه هي :

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَـٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ۚ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُواْ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾

التفسير :

﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي** ﴾ قال النسفي : أي إذا نطق ونطقتم فعليكم أن لا تبلغوا بأصواتكم وراء الحد الذي يبلغه بصوته، وأن تغضوا منها بحيث يكون كلامه عالياً لكلامكم، وجهره باهراً لجهركم، حتى تكون مزيته عليكم لائحة، وسابقته لديكم واضحة) ﴿ **ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض** ﴾ أي : لاتجهروا له جهراً مثل جهر بعضكم لبعض . قال النسفي : (أي إذا كلمتموه وهو صامت فإياكم والعدول عما نهيتم عنه من رفع الصوت ، بل عليكم أن لا تبلغوا به الجهر الدائر بينكم، وأن تتعمدوا في مخاطبته القول اللين المقرب من الهمس الذي يضاد الجهر، أو لا تقولوا له : يا محمد، يا أحمد، وخاطبوه بالنبوة والسكينة والتعظيم) وقال النسفي : (لم ينهوا عن الجهر مطلقاً حتى لا يسوغ لهم إلا أن يكلموه بالمخافتة ، وإنما نهوا عن جهر مخصوص، أعني : الجهر المنعوت بمماثلة ما قد اعتادوه منه فيما بينهم وهو الخلو من مراعاة أبهة النبوة وجلالة مقدارها) وقال ابن كثير :(نهى من الجهر له بالقول كما يجهر الرجل لمخاطبه ممن عداه، بل يخاطبه بسكينة ووقار وتعظيم) قال ابن كثير : (يكره رفع الصوت عند قبره ﷺ كما كان يكره في حياته عليه الصلاة والسلام؛ لأنه محترم حياً وفي قبره ﷺ دائماً) ثم قال تعالى معللاً للنهي عن رفع الصوت أو الجهر له بالقول كجهر البعض للبعض ﴿ **أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون** ﴾ أي: انتهوا عمّا نهيتم عنه ، خشية حبوط أعمالكم وأنتم لا تشعرون بذلك ، قال ابن كثير : (أي إنما نهيناكم عن رفع الصوت عنده خشية أن يغضب من ذلك ؛ فيغضب الله تعالى لغضبه ؛ فيحبط عمل من أغضبه وهو لا يدري) وقال الألوسي (وقال أبو حيان : إن كانت الآية بمن يفعل ذلك استخفافاً فذلك كفر يحبط معه العمل حقيقة ، وإن كانت للمؤمن الذي يفعله غلبة وجرياً على عادته فإنما يحبط عمله البر في توقير النبي ﷺ ، وغض الصوت عنده أن لو فعل ذلك كأنه قيل : مخافة أن تحبط الأعمال التي هي معدة أن تعملوها فتؤجروا عليها ، ولا يخفى ما في الشق الثاني من التكلف البارد ، ثم إن من الجهر ما لم يتناوله النهي بالاتفاق وهو ما كان منهم في حرب ، أو مجادلة معاند ، أو إرهاب عدو ، أو ما أشبه ذلك مما لا يتخيل منه تأذٍ أو استهانة ، ففي الحديث أنه عليه الصلاة والسلام قال للعباس بن عبد المطلب لما ولّى المسلمون يوم حنين : « ناد أصحاب السمرة » فنادى بأعلى صوته أين أصحاب السمرة ، وكان رجلاً صيتاً) .

ثمّ ندب الله تعالى إلى خفض الصوت وحث على ذلك وأرشد إليه ، ورغّب فيه ، فقال ﴿ **إن الذين يغضّون أصواتهم** ﴾ أي : يخفضون أصواتهم ﴿ **عند رسول الله** ﴾ أي : في مجلسه تعظيماً له عليه الصلاة والسلام ﴿ **أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى** ﴾ قال ابن كثير : أي : أخلصها لها وجعلها أهلاً ومحلاً وقال النسفي : والمعنى : أخلصها للتقوى من قولهم : امتحن الذهب وفتنه إذا أذابه فخلّص إبريزه من خبثه ونقّاه ، وحقيقته عاملها معاملة المختبر فوجدها مخلصة ﴿ **لهم مغفرة وأجر عظيم** ﴾ مكافأة لهم على أدبهم والصيغة تدلّ - كما قال النسفي - على غاية الاعتداد والارتضاء بفعل الخافضين أصواتهم ، وفيها تعريض لعظيم ما ارتكب الرافعون أصواتهم ﴿ **إن الذين ينادونك** ﴾ يا محمد ﴿ **من وراء الحجرات** ﴾ وهي بيوت نسائه عليه الصلاة والسلام فعل أجلاف الناس ﴿ **أكثرهم لا يعقلون** ﴾ إذ لو كان فيهم عقل ما تصرّفوا هذا التصرف ، وسنرى في الفوائد أسباب نزول الآيات قال النسفي : (وورود الآية على النمط الذي وردت عليه فيه ما لا يخفى من إجلال محل رسول الله ﷺ ، منها التسجيل على الصائحين به بالسفة والجهل ، ومنها إيقاع لفظ الحجرات كناية عن موضع خلوته ومقيله مع بعض نسائه ، ومنها التعريف باللام دون الإضافة ، ولو تأمل متأمل من أول السورة إلى آخر هذه الآية لوجدها كذلك ، فتأمل كيف ابتدأ بإيجاب أن تكون الأمور التي تنتمي إلى الله ورسوله متقدمة على الأمور كلها من غير تقييد ، ثم أردف ذلك النهي عما هو من جنس التقديم من رفع الصوت والجهر ، كأن الأول بساط للثاني ، ثم أثنى على الغاضين أصواتهم ليدل على عظيم موقعه عند الله ، ثم عقبه بما هو أطم وهجنته أتم من الصياح برسول الله ﷺ في حال خلوته من وراء الجدر ، كما يصاح بأهون الناس قدراً لينبه على فظاعة ما جسروا عليه ، لأن من رفع الله قدره عن أن يجهر له بالقول كان صنيع هؤلاء من المنكر الذي بلغ في التفاحش مبلغاً) ثم أرشد تعالى إلى الأدب في ذلك فقال ﴿ **ولو أنهم صبروا** ﴾ قال النسفي : الصبر حبس النفس عن أن تنازع إلى هواها ﴿ **حتى تخرج إليهم** ﴾ قال النسفي : (أفاد أنه لو خرج ولم يكن خروجه إليهم ولأجلهم للزمهم أن يصبروا إلى أن يعلموا أن خروجه إليهم) ﴿ **لكان خيراً لهم** ﴾ أي : لكان الصبر خيراً لهم في دينهم قال ابن كثير : أي : (لكان لهم في ذلك الخيرة والمصلحة في الدنيا والآخرة) ثم قال جل ثناؤه داعياً لهم إلى التوبة والإنابة ﴿ **والله غفور رحيم** ﴾ أي : بليغ الغفران والرحمة واسعهما فلن يضيق غفرانه ورحمته عن هؤلاء إن تابوا وأنابوا .

كلمة في السياق :

١ – ذكرت الفقرة الأولى في السورة أدباً من آداب المعاملة مع الله ورسوله ﷺ ، وذكرت الفقرة الثانية أدباً آخر من آداب المعاملة مع رسول الله ﷺ ، فالصلة واضحة بين الفقرة الأولى والثانية .

٢ – جاء في سورة الفتح قوله تعالى : ﴿ **إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه** ... ﴾ وهذه الفقرة حدّثتنا عن كيفية توقير رسول الله ﷺ وتعظيمه .

٣ – الآية الثانية في محور السورة من سورة البقرة هي قوله تعالى : ﴿ **يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه** ... ﴾ وقد جاء في تلك الآية قوله تعالى : ﴿ **ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة** ﴾ لاحظ ورود كلمة ﴿ **حبطت أعمالهم** ﴾ في المحور ، وورود قوله تعالى في الفقرة ﴿ **أن تحبط أعمالكم** ﴾ . إن الصراع مع أعداء الله قد يوصل بعض الناس إلى إساءة الأدب مع رسول الله ﷺ ، كأن يقول القائل ولماذا نحمّل أنفسنا كل هذه المشاقّ من أجل دين رسول الله ﷺ ؟ فجاءت هذه الفقرة تعرّفنا على خطورة إساءة الأدب معه عليه الصلاة والسلام حياً وميتاً .

٤ ـ إن محور السورة آت في سياق الأمر بالدخول في الإسلام ، والنهي عن اتباع خطوات الشيطان ، ومن مبادىء الإسلام الأدب مع رسول الله ﷺ ، ومن خطوات الشيطان إساءة الأدب معه عليه الصلاة والسلام .

٥ – قلنا إن السورة مرتبطة بمحور له صلة بموضوع القتال ، والقتال يصبغ أصحابه بنوع من القسوة التي تصل إلى الجلافة والفظاظة ؛ ولذلك أدّب الله المسلمين ، وأدّب المجاهدين في أن يتعاملوا مع قائدهم رسول الله ﷺ بكامل الأدب ، وهذا يرشح أن على المسلمين عامّة ، وعلى المجاهدين خاصة أن يتعاملوا مع قياداتهم الرّاشدة بمثل هذا .

☆ ☆ ☆

الفقرة الثالثة

وتمتد من الآية (٦) إلى الآية (١٠) وهذه هي :

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَـٰلَةٍ
فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَـٰدِمِينَ ﴿٦﴾ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى
كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ
وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضْلًا
مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٨﴾ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ
فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَـٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ
تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ
ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ
لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾

التفسير

﴿ **يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ** ﴾ أي : بخبر ﴿ **فتبينوا** ﴾ أي : فتوثقوا فيه وتطلبوا بيان الأمر وانكشاف الحقيقة ، ولا تعتمدوا قول الفاسق ، لأن من لا يتحامى جنس الفسوق لا يتحامى الكذب الذي هو نوع منه ، قال النسفي : (وفي الآية دلالة على قبول خبر الواحد العدل ؛ لأنا لو توقفنا في خبره لسوينا بينه وبين الفاسق ، ولخلا التخصيص به عن الفائدة) وقال ابن كثير : (يأمر الله تعالى بالتثبت في خبر الفاسق ليحتاط له لئلا يحكم بقوله فيكون في نفس الأمر كاذباً أو مخطئاً ، فيكون الحاكم

بقوله قد اقتفى وراءه وقد نهى الله عز وجل عن اتباع سبيل المفسدين ، ومن هاهنا امتنع طوائف من العلماء من قبول رواية مجهول الحال ، لاحتمال فسقه في نفس الأمر ، وقبلها آخرون ؛ لأنا إنما أمرنا بالتثبت عند خبر الفاسق وهذا ليس بمحقق الفسق لأنه مجهول الحال) قال الألوسي : (والظاهر أن المراد به هنا المسلم المخل بشيء من أحكام الشرع أو المروءة بناء على مقابلته بالعدل، وقد اعتبر في العدالة عدم الإخلال بالمروءة ، والمشهور الاقتصار في تعريفه على الإخلال بشيء من أحكام الشرع فلا تغفل) ثم بين تعالى الحكمة في الأمر بالتثبت في خبر الفاسق فقال : ﴿ **أن تصيبوا** ﴾ أي: لئلا تصيبوا ﴿ **قوماً بجهالة** ﴾ يعني : جاهلين بحقيقة الأمر وكنه القصة ﴿ **فتصبحوا** ﴾ أي: فتصيروا ﴿ **على ما فعلتم نادمين** ﴾ قال النسفي : الندم : ضرب من الغم ، وهو أن تغتم على ما وقع منك تتمنى أنه لم يقع ، وهو غم يصحب الإنسان صحبة لها دوام ﴿ **واعلموا أن فيكم رسول الله** ﴾ قال ابن كثير : (أي اعلموا أنّ بين أظهركم رسول الله ﷺ فعظّموه ووقّروه وتأدّبوا معه وانقادوا لأمره ؛ فإنه أعلم بمصالحكم ، وأشفق عليكم منكم ، ورأيه فيكم أتم من رأيكم لأنفسكم) ثم بين تعالى أن رأيهم في كثير من الأمور ليس لصالحهم فقال ﴿ **لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتم** ﴾ أي: لو أطاعكم في جميع ما تختارونه لأدى ذلك إلى عنتكم وحرجكم ﴿ **ولكنّ الله حبّب إليكم الإيمان وزيّنه في قلوبكم** ﴾ أي: حبّبه إلى نفوسكم وحسّنه في قلوبكم ﴿ **وكرّه** ﴾ أي: وبغّض ﴿ **إليكم الكفر** ﴾ وهو الجحود ﴿ **والفسوق** ﴾ وهو الخروج عن أمر الله تعالى ، قال النسفي : وهو الخروج عن محبة الإيمان بركوب الكبائر ﴿ **والعصيان** ﴾ وهي جميع المعاصي ، قال النسفي : وهو ترك الانقياد لما أمر به الشارع ، وقال الألوسي: الامتناع عن الانقياد ﴿ **أولئك** ﴾ أي: المتصفون بما مرّ ﴿ **هم الراشدون** ﴾ أي: الذين قد آتاهم الله رشدهم ، قال النسفي : (يعني أصابوا طريق الحق ولم يميلوا عن الاستقامة ، والرشد : الاستقامة على طريق الحق مع تصلب فيه من الرشادة وهي الصخرة) ﴿ **فضلاً من الله ونعمة** ﴾ قال ابن كثير : أي هذا العطاء الذي منحكموه هو فضل منه عليكم ونعمة من لدنه ﴿ **والله عليم حكيم** ﴾ أي: عليم بمن يستحق الهداية ممن يستحق الغواية ، حكيم في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره ﴿ **وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما** ﴾ أمر تعالى بالإصلاح بين الفئتين المقتتلتين من المؤمنين، وسمّاهم مؤمنين مع الاقتتال ﴿ **فإن بغت إحداهما على الأخرى** ﴾ قال النسفي : بالاستكالة والظلم وإباء الصلح ﴿ **فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله** ﴾ أي:

حتى ترجع إلى أمر الله ورسوله ﷺ وتسمع للحق وتطيعه ، وأمر الله هو المذكور في كتابه من الصلح ، وزوال الشحناء ، قال النسفي : وحكم الفئة الباغية وجوب قتالها ما قاتلت ، فإذا كفّت وقبضت عن الحرب أيديها تركت ﴿ **فإن فاءت** ﴾ أي : رجعت عن البغي إلى أمر الله ﴿ **فأصلحوا بينهما بالعدل** ﴾ أي : بالإنصاف ﴿ **وأقسطوا** ﴾ قال ابن كثير : أي واعدلوا بينهما فيما كان أصاب بعضهم بالقسط أي بالعدل ، وقال النسفي : وهو أمر باستعمال القسط على طريق العموم بعد ما أمر به في إصلاح ذات البين ﴿ **إن الله يحب المقسطين** ﴾ أي : العادلين ﴿ **إنما المؤمنون إخوة** ﴾ قال النسفي : (هذا تقرير لما ألزمه الله من تولّي الإصلاح بين من وقعت بينهم المشاقة من المؤمنين ، وبيان أن الإيمان قد عقد بين أهله من السبب القريب والنسب اللاصق ما إن لم يفضل الإخوة لم ينقص عنها ، ثم قد جرت العادة على أنه إذا نشب مثل ذلك بين الأخوين ولادا لزم السائر أن يتناهضوا في رفعه وإزاحته بالصلح بينهما فالإخوة في الدين أحق بذلك) ﴿ **فأصلحوا بين أخويكم** ﴾ يعني : الفئتين المقتتلتين ﴿ **واتقوا الله** ﴾ أي : في جميع أموركم فالتقوى تحمل على التواصل والائتلاف ﴿ **لعلكم ترحمون** ﴾ دلّ ذلك على أن رحمة الله ينالها الأتقياء ، قال ابن كثير : وهذا تحقيق منه تعالى للرحمة لمن اتّقاه .

نقول :

١ - قال الألوسي : (ثم اعلم أن الفاسق قسمان : فاسق غير متأوّل وهو ظاهر ولا خلاف في أنه لا يقبل خبره ، وفاسق متأول كالجبري والقدري ، ويقال له المبتدع بدعة واضحة ، فمن الأصوليين من رد شهادته وروايته للآية ، ومنهم الشافعي ، والقاضي ، ومنهم من قبلهما ، أما الشهادة فلأن ردها لتهمة الكذب والفسق من حيث الاعتقاد لا يدل عليه ، بل هو أمارة الصدق ؛ لأن موقعه فيه تعمقه في الدين ، والكذب حرام في كل الأديان لاسيما عند من يقول بكفر الكاذب أو خروجه من الإيمان وذلك يصدّه عنه ، إلا من يدين بتصديق المدعي المتحلي بحليته كالخطابية وكذا من اعتقد بحجية الإلهام ، وقد قال عليه الصلاة والسلام : « نحن نحكم بالظاهر » وأما الرواية فلأن من احترز عن الكذب على غير الرسول ﷺ فاحترازه من الكذب عليه ﷺ أولى ، إلا من يعتقد حل وضع الأحاديث ترغيباً أو ترهيباً كالكرامية ، أو ترويجاً لمذهبه كابن الراوندي ، وأصحابنا الحنفية قبلوا شهادتهم لما مر دون روايتهم إذا دعوا الناس إلى هواهم ، وعلى هذا جمهور أئمة الفقه والحديث ؛ لأن الدعوة إلى ذلك داعية إلى التّقول ، فلا يؤتمنون على الرواية ولا كذلك الشهادة . ورجح ما ذهب إليه الشافعي والقاضي بأن الآية

تقتضيه، والعمل بها أولى من العمل بالحديث لتواترها وخصوصها، والعام يحتمل التخصيص، ولأنها لم تخصص إذ كل فاسق مردود، والحديث خص منه خبر الكافر. وأجيب بأن مفهومها أن الفسق هو المقتضي للتثبت فيراد به ما هو أمارة الكذب لا ما هو أمارة الصدق فافهم، وليس من الفسق نحو اللعب بالشطرنج من مجتهد يحله أو مقلد له صوبنا أو خطأنا، لوجوب العمل بموجب الظن ولا تفسيق بالواجب، وحد الشافعي - عليه الرحمة - شارب النبيذ، ليس لأنه فاسق، بل لزجره لظهور التحريم عنده، ولذا قال: أحدّه وأقبل شهادته، وكذا الحد في شهادة الزنا لعدم تمام النصاب لا يدل على الفسق بخلافه في مقام القذف فليحفظ).

٢ - قال الألوسي: (والخطاب في قوله تعالى: ﴿ **فأصلحوا بينهما** ﴾ على ما في البحر لمن له الأمر وروي ذلك عن ابن عباس وهو للوجوب، فيجب الإصلاح، ويجب قتال الباغية ما قاتلت، وإذا كفّت وقبضت عن الحرب تركت، وجاء في حديث رواه الحاكم وغيره حكمها إذا تولت، قال عليه الصلاة والسلام: « يا ابن أم عبد، هل تدري كيف حكم الله فيمن بغى من هذه الأمة؟ قال: الله تعالى ورسوله أعلم، قال: لا يجهز على جريحها، ولا يقتل أسيرها، ولا يطلب هاربها، ولا يقسّم فيؤها » وذكروا أن الفئتين من المسلمين إذا اقتتلا على سبيل البغي منهما جميعا فالواجب أن يمشى بينهما بما يصلح ذات البين، ويثمر المكافة والموادعة، فإن لم يتحاجزا ولم يصطلحا وأقاما على البغي صير إلى مقاتلتهما، وأنهما إذا التحم بينهما القتال لشبهة دخلت عليهما - وكلتاهما عند أنفسهما محقة - فالواجب إزالة الشبهة بالحجج النيرة، والبراهين القاطعة، وإطلاعهما على مراشد الحق، فإن ركبتا متن اللجاج، ولم تعملا على شاكلة ما هديتا إليه ونصحتا به من اتباع الحق بعد وضوحه، فقد لحقتا باللتين اقتتلا على سبيل البغي منهما جميعاً، والتصدي لإزالة الشبهة في الفئة الباغية - إن كانت لازمٌ قبل المقاتلة، وقيل: الخطاب لمن يتأتى منه الإصلاح ومقاتلة الباغي، فمتى تحقق البغي من طائفة كان حكم إعانة المبغي عليه حكم الجهاد، فقد أخرج الحاكم وصححه، والبيهقي عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أنه قال: ما وجدت في نفسي من شيء ما وجدت في نفسي من هذه الآية يعني: ﴿ **وإن طائفتان** ﴾ إلخ إني لم أقاتل هذه الفئة الباغية كما أمرني الله تعالى - يعني بها معاوية ومن معه الباغين - على علي كرم الله تعالى وجهه، وصرح بعض الحنابلة بأن قتال الباغين أفضل من الجهاد؛ احتجاجاً بأن علياً كرم الله تعالى وجهه اشتغل في زمان خلافته بقتالهم دون الجهاد، والحق أن ذلك ليس على إطلاقه؛ بل

إذا خشي من ترك قتالهم مفسدة عظيمة دفعها أعظم من مصلحة الجهاد ، وظاهر الآية أن الباغي مؤمن لجعل الطائفتين الباغية والمبغي عليها من المؤمنين) .

٣ - وقال صاحب الظلال عند قوله تعالى ﴿ **إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم** ﴾ : (ومما يترتب على هذه الأخوة أن يكون الحب والسلام والتعاون والوحدة هي الأصل في الجماعة المسلمة . وأن يكون الخلاف أو القتال هو الاستثناء الذي يجب أن يرد إلى الأصل فور وقوعه ؛ وأن يستباح في سبيل تقريره قتال المؤمنين الآخرين للبغاة من إخوانهم ليردوهم إلى الصف ، وليزيلوا هذا الخروج على الأصل والقاعدة . وهو إجراء صارم وحازم كذلك . ومن مقتضيات هذه القاعدة كذلك ألا يجهز على جريح في معارك التحكيم هذه ، وألا يقتل أسير ، وألا يتعقب مدبر ترك المعركة وألقى السلاح ، ولاتؤخذ أموال البغاة غنيمة ؛ لأن الغرض من قتالهم ليس هو القضاء عليهم ، وإنما هو ردهم إلى الصف ، وضمهم إلى لواء الأخوة الإسلامية . والأصل في نظام الأمة المسلمة أن يكون للمسلمين في أنحاء الأرض إمامة واحدة ، وأنه إذا بويع لإمام ، وجب قتل الثاني واعتباره ومن معه فئة باغية يقاتلها المؤمنون مع الإمام . وعلى هذه الأصل قام الإمام علي - رضي الله عنه - بقتال البغاة في وقعة الجمل وفي وقعة صفين ؛ وقام معه بقتالهم أجلاء الصحابة رضوان الله عليهم ، وقد تخلّف بعضهم عن المعركة منهم سعد ومحمد بن مسلمة وأسامة بن زيد وابن عمر - رضي الله عنهم - إما لأنهم لم يتبينوا وجه الحق في الموقف في حينه فاعتبروها فتنة . وإما لأنهم كما يقول الإمام الجصاص : (ربما رأوا الإمام مكتفياً بمن معه مستغنياً عنهم بأصحابه فاستجازوا القعود عنه لذلك) . والاحتمال الأول أرجح ، تدل عليه بعض أقوالهم المروية . كما يدل عليه ما روي عن ابن عمر - رضي الله عنهما - في ندمه فيما بعد على أنه لم يقاتل مع الإمام . ومع قيام هذا الأصل فإن النص القرآني يمكن إعماله في جميع الحالات - بما في ذلك الحالات الاستثنائية التي يقوم فيها إمامان أو أكثر في أقطار متفرقة متباعدة من بلاد المسلمين ، وهي حالة ضرورة واستثناء من القاعدة - فواجب المسلمين أن يحاربوا البغاة مع الإمام الواحد إذا خرج هؤلاء البغاة عليه ، أو إذا بغت طائفة في إمامته دون خروج عليه . وواجب المسلمين كذلك أن يقاتلوا البغاة إذا تمثلوا في إحدى الإمامات المتعددة في حالات التعدد الاستثنائية . بتجمعهم ضد الفئة الباغية حتى تفيء إلى أمر الله . وهكذا يعمل النص القرآني في جميع الظروف والأحوال . وواضح أن هذا النظام - نظام التحكيم وقتال الفئة الباغية حتى تفيء إلى أمر الله - نظام له السبق من

حيث الزمن على كل محاولات البشرية في هذا الطريق . وله الكمال والبراءة من العيب والنقص الواضحين في كل محاولات البشرية البائسة القاصرة التي حاولتها في كل تجاربها الكسيحة ! وله بعد هذا وذاك صفة النظافة والأمانة والعدل المطلق ، لأن الاحتكام فيه إلى أمرالله الذي لا يشوبه غرض ولا هوى ، ولا يتعلق به نقص أو قصور .. ولكن البشرية البائسة تظلع وتعرج ، وتكبو وتتعثر . وأمامها الطريق الواضح الممهّد المستقيم !) .

كلمة في السياق :

١ — الآية الثالثة من آيات المحور هي قوله تعالى : ﴿ **إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله والله غفور رحيم** ﴾ في هذه الآية ذكر الله عز وجل صفات من يرجون رحمته ، وقد ختمت الفقرة التي مرّت معنا بقوله تعالى ﴿ **إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون** ﴾ هناك ذكر من يرجو رحمته وههنا ذكر من يستحقّ رحمته .

٢ — جاءت آيات المحور في سياق الأمر بالدخول في الإسلام كله ، والنهي عن اتباع خطوات الشيطان ، وجاءت هذه الفقرة لتذكر بعض أحكام الإسلام لتُلْتزم ، وبعض خطوات الشيطان لتُجتَنب .

٣ — آيات المحور تتحدّث عن القتال ، وبعض أحكامه ، وفي هذه الفقرة ذكرت الأسباب التي يمكن أن تؤدي إلى اقتتال المؤمنين ، وماذا علينا أن نفعل إذا وجد اقتتال بين المؤمنين .

٤ — تحدّثت سورة الفتح عن صفة الرسول ﷺ وأصحابه : ﴿ **محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم ..** ﴾ (الآية : ٢٩) وجاءت هذه الفقرة والفقرتان بعدها لتتحدَّث عما به تدوم الألفة وتستحق الرحمة وعما ينافي أخلاقية أهل الإيمان في علاقاتهم ببعضهم .

٥ — تعتمد الحرب — إلى حد كبير — على دقّة المعلومات ، وسلامة القرار ، والأناة في التعامل ، وكلّ هذه المعاني تضمّنتها الفقرة ، وهذا مظهر من مظاهر ارتباط السورة بمحورها .

٦ – لا جيش بلا انضباط وطاعة ، ولا نجاح في معركة إلا في انضباط وطاعة ، والجيش الإسلامي يحتاج إلى إيمان وتقوى وطاعة ، وقد جمع هذا كله قوله تعالى ﴿ **حَبَّبَ إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم وكرّه إليكم الكفر والفسوق والعصيان** ﴾ والآن لنعرض بالتفصيل للصلات بين معاني الفقرة :

١ – ما الصلة بين قوله تعالى ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين** ﴾ وبين قوله تعالى ﴿ **واعلموا أن فيكم رسول الله لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتم** ﴾؟ الصلات متعدّدة :

أ – إنّ رسول الله ﷺ لا يبني على خبر الفاسق ، بينما يوجد ناس يبنون عليه ، فلو أن رسول الله ﷺ أطاعهم في مثل ذلك لترتب على ذلك وجود أنواع من الحرج والعنت ، وفي ذلك توجيه للمسلمين في عدم البناء على خبر الفاسق .

ب – وقوله تعالى ﴿ **واعلموا أن فيكم رسول الله لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتم** ﴾ أعطى معنى زائداً على مجرد البناء على خبر الفاسق ، وهو أنه ليس كل اقتراح يتقدم به فرد فيه مصلحة للأمة ، بل كثير من الأمور لو أطاع فيها رسول الله ﷺ الأفراد لترتب على ذلك حرج ، وفي ذلك توجيه للأفراد أن يعرفوا حدود اقتراحاتهم ، وهذا شيء تعاني منه الجماعات الإسلامية في كل عصر ، إذ نرى إنساناً متحمساً أو غير متحمس يقترح الاقتراح ، ويقف عنده ، ولو أخذت الجماعة المسلمة به لترتّب على ذلك عنت كبير ، ومن ثم أدّب الله عز وجل المسلمين على الخضوع لرأي رسول الله ﷺ إذا رفض اقتراحاً ، ومن ثم جاء بعد قوله تعالى ﴿ **لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتم** ﴾ ﴿ **ولكنّ الله حبّب إليكم الإيمان وزيّنه في قلوبكم وكرّه إليكم الكفر والفسوق والعصيان أولئك هم الراشدون** ﴾ فالقسم الأخير من الآية يشير إلى أن الراشدين من أبناء الأمة المسلمة يخضعون لأمر رسول الله ﷺ ولقراره ، ولو خالف ذلك اقتراحاتهم ورغباتهم ؛ لأن الخضوع هو الذي يتفق مع الإيمان ، ولأن غيره كفر وفسوق وعصيان ، ومع تقرير هذا المعني فقد قرر هذا الجزء من الآية حقيقة هي : أن الله عز وجل – فضلاً منه ونعمة – يحبب الإيمان ويزينه في قلوب المؤمنين ، ويكرّه الكفر والفسوق والعصيان ، وبهذا نعرف الصلات بين المعاني التي وجدت في الآيات الثلاث الأولى من الفقرة .

٢ – وما الصلة بين ما ورد في الآيات الثلاث الأولى وبين قوله تعالى بعد ذلك

﴿ **وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا** ... ﴾ ؟ الظاهر أن خبر الفاسق له علاقة بهذا الموضوع ، ففي كثير من الأحيان يكون لخبر الفاسق دور في اقتتال المؤمنين ، ولذلك فقد سبق الكلام عنه ليحذر ، ثم من الملاحظ أن الآيتين الأخيرتين جاءتا بعد قوله تعالى ﴿ **ولكن الله حَبّبَ إليكم الإيمان وزيّنه في قلوبكم وكرّه إليكم الكفر والفسوق والعصيان أولئك هم الراشدون فضلاً من الله ونعمة والله عليم حكيم** ﴾ فكان بمثابة التمهيد للإصلاح ولقبوله .

٣ - نلاحظ أن الله عز وجل عندما ذكر الحكمة في عدم الأخذ بقول الفاسق قال ﴿ **أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين** ﴾ وفي الآية الأخيرة قال ﴿ **إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم** ﴾ وهذا يؤكد أنّ لذكر خبر الفاسق صلة بذكر الخصومة والاقتتال بين المؤمنين. وما الصلة بين الفقرة الثالثة والفقرتين الأولى والثانية ؟ إن الصلات بين هذه الفقرات متعدّدة ، ومن أظهر الصلات أن الفقرات الثلاث تتحدّث عن الأدب مع رسول الله ﷺ وتوقيره وتعظيمه . ولذلك صلته بما ورد في سورة الفتح ﴿ **وتوقّروه** ﴾ .

٤ - نلاحظ أن الفقرة الثالثة انتهت بقوله تعالى ﴿ **إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون** ﴾ ونلاحظ أنه بعد هذه الآية تأتي فقرتان تربيان على كل ما يعمّق الأخوة الإيمانية وتبعدان عن كل ما يجرحها أو يعكرها .

☆ ☆ ☆

الفقرتان الرابعة والخامسة

وتشملان الآيتين (١١) و (١٢) وهاتان هما :

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَـٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَـٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ

ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿١١﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾

التفسير :

﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم** ﴾ أي: لا يستهزىء رجال من رجال بدليل ما يأتي ، والمراد بذلك النهي عن احتقارهم واستصغارهم ، وهذا حرام قال ابن كثير : (فإنه قد يكون المحتقَر أعظم قدراً عند الله تعالى ، وأحب إليه من الساخر منه المحتقِر له) ﴿ **عسى أن يكونوا خيراً منهم** ﴾ هذه علة النهي . قال النسفي : (والمعنى : وجوب أن يعتقد كل واحد أن المسخور منه ربما كان عند الله خيراً من الساخر ، إذ لا اطلاع للناس إلا على الظواهر ، ولا علم لهم بالسرائر ، والذي يوزن عند الله خلوص الضمائر ، فينبغي ألا يجترىء أحد على الاستهزاء بمن تقتحمه عينه إذا رآه رثّ الحال ، أو ذا عاهة في بدنه أو غير لبيق في محادثته ، فلعله أخلص ضميراً ، أو أنقى قلباً ممن هو على ضد صفته ، فيظلم نفسه بتحقير من وقّره الله) وكما يحرم هذا في حق الرجال يحرم في حق النساء ، كما يحرم في حق النساء مع الرجال والرجال مع النساء ﴿ **ولا نساء من نساء عسى أن يكنّ خيراً منهنّ** ﴾ هذا هوالأدب الأول في الفقرة الرابعة وهو ألا يسخر مؤمن من مؤمن ، ثم ذكر الله عز وجل الأدب الثاني : ﴿ **ولا تلمزوا أنفسكم** ﴾ أي: لا يطعن بعضكم على بعض . قال النسفي : (أي لا تطعنوا أهل دينكم ، واللمز : الطعن والضرب باللسان ... ، والمؤمنون كنفس واحدة ، فإذا عاب المؤمن مؤمناً فكأنما عاب نفسه ، وقيل معناه : لا تفعلوا ماتُلمَّزون به ؛ لأن من فعل ما استحق به اللمز فقد لمز نفسه حقيقة) ثم ذكر الله عز وجل الأدب الثالث في هذه الفقرة فقال : ﴿ **ولا تنابزوا بالألقاب** ﴾ التنابز بالألقاب التداعي بها . قال النسفي : (والتلقيب المنهي عنه هو مايتداخل المدعو به كراهة لكونه تقصيراً به وذماً له ، فأما ما يحبه فلا بأس به) ﴿ **بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان** ﴾ أي: بئس الصفة والاسم الفسوق بعد ما دخلتم في الإسلام وعقلتموه ، أي بئس أن تستبدلوا اسم الإيمان بأن كان

اسم أحدكم مؤمناً باسم الفسوق ، بأن يصبح الواحد منكم اسمه فاسق بفعله ما يسمى به فاسقاً ، دل ذلك على أن هذه الأشياء الثلاثة التي ذكرتها الآية تجعل صاحبها فاسقاً ، وهي الاستهزاء والطعن والتنابز بالألقاب جداً أو هزلاً ، ثم قال تعالى ﴿ **ومن لم يتب** ﴾ عما نهي عنه ﴿ **فأولئك هم الظالمون** ﴾ دلّ ذلك على أن الثلاثة المذكورة فسوق عن أمر الله ، وظلم للخلق ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم** ﴾ قال ابن كثير : (يقول تعالى ناهياً عباده المؤمنين عن كثير من الظن وهو التهمة والتخوّن للأهل والأقارب والناس في غير محله ، لأن بعض ذلك يكون إثماً محضاً ، فليتجنب كثير منه احتياطاً) قال النسفي : (والمأمور باجتنابه بعض الظن وذلك البعض موصوف بالكثرة) قال الزجاج : (هو ظنك بأهل الخير سوءاً فأما أهل الفسق ، فلنا أن نظن فيهم مثل الذي ظهر منهم) وقد يكون المعنى : احترزوا من الكثير من الظن ليقع المتحرز عن البعض الذي فيه إثم ، والإثم الذنب الذي يستحق صاحبه العقاب ﴿ **ولا تجسَّسوا** ﴾ أي : لا تتبعوا عورات المسلمين ومعايبهم ، يقال : تجسّس الأمر إذا تطلبه وبحث عنه قال ابن كثير : ﴿ **ولا تجسَّسوا** ﴾ أي : على بعضكم بعضاً ﴿ **ولا يغتب بعضكم بعضاً** ﴾ فيه نهي عن الغيبة وقد فسرها رسول الله ﷺ بقوله : « ذكرك أخاك بما يكره » قال النسفي : الغيبة الذكر بالعيب في ظهر الغيب .. ﴿ **أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً** ﴾ قال النسفي : وهذا تمثيل وتصوير لما يناله المغتاب من عرض المغتاب على أفحش وجه .. قال ابن كثير : (أي كما تكرهون هذا طبعاً فاكرهوا ذاك شرعاً فإن عقوبته أشد من هذا) وهذا من التنفير عنها والتحذير منها ، ولم يقتصر النص على تمثيل الاغتياب بأكل لحم الأخ حتى جعل ميتاً ، وعن قتادة : كما تكره إن وجدت جيفة مدودة أن تأكل منها كذلك فاكره لحم أخيك وهو حي) ولما قررهم بأن أحداً منهم لا يحب أكل جيفة أخيه عقّب ذلك بقوله ﴿ **فكرهتموه** ﴾ قال النسفي : (أي فتحققت كراهتكم له باستقامة العقل ، فيتحقق أن تكرهوا ما هو نظيره من الغيبة باستقامة الدين) أقول : ما أندر في الناس من لا يغتاب نسأل الله العافية .

قال الألوسي : (وما أحسن ما جاء الترتيب في هذه الآية أعني قوله تعالى: ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن** ﴾ الخ كما قال أبو حيان وفصّله بقوله : جاء الأمر أولاً باجتناب الطريق التي لا تؤدي إلى العلم وهو الظن ، ثم نهى ثانياً عن طلب تحقيق ذلك الظن ليصير علماً بقوله سبحانه ﴿ **ولا تجسّسوا** ﴾ ثم نهى ثالثاً عن ذكر ذلك إذا علم ، فهذه أمور ثلاثة مترتبة : ظن ، فعلم بالتجسس ، فاغتياب) ﴿ **واتقوا الله** ﴾ أي :

فيما أمركم به ونهاكم عنه فراقبوه في ذلك ﴿ **إن الله تواب** ﴾ أي البليغ في قبول التوبة على من تاب إليه ﴿ **رحيم** ﴾ لمن رجع إليه واعتمد عليه. قال النسفي : (أي) واتقوا الله بترك ماأمرتم باجتنابه والندم على ماوجد منكم منه ، فإنكم إن اتقيتم تقبل الله توبتكم ،وأنعم عليكم بثواب المتقين التائبين .

....

قال الألوسي : (وقال ابن حجر عليه الرحمة : إنه تعالى ختم كلاً من الآيتين بذكر التوبة رحمة بعباده وتعطفاً عليهم ، لكن لما بدئت الأولى بالنهي ختمت بالنفي في ﴿ **ومن لم يتب** ﴾ لتقاربهما ؛ ولما بدئت الثانية بالأمر في ﴿ **اجتنبوا** ﴾ ختمت به في ﴿ **واتقوا الله** ﴾ الخ وكان حكمة ذكر التهديد الشديد في الأولى فقط بقوله تعالى ﴿ **ومن لم يتب** ﴾ الخ أن ما فيها أفحش؛ لأنه إيذاء في الحضرة بالسخرية أو اللمز أو النبز بخلافه في الآية الثانية فإنه أمر خفي؛ إذ كل من الظن والتجسس والغيبة يقتضي الإخفاء وعدم العلم به غالباً . انتهى ، فلا تغفل) .

ملاحظة :

قوله تعالى ﴿ **ولا يغتب بعضكم بعضاً** ﴾ فيه نهي عن أن يغتاب المؤمنون بعضهم بعضاً ، وبهذه المناسبة تبحث ـــ عادة ـــ غيبة الكافر ؛ ولذلك قال الألوسي عند شرحه لهذه الآية : وسئل الغزالي عن غيبة الكافر فقال : هي في حق المسلم محذورة لثلاث علل : الإيذاء ؛ وتنقيص خلق الله تعالى ، وتضييع الوقت بما لا يعني . والأولى تقتضي التحريم ، والثانية الكراهة ، والثالثة خلاف الأولى . وأما الذمي فكالمسلم فيما يرجع إلى المنع عن الإيذاء، لأن الشرع عصم عرضه ودمه وماله . وقد روى ابن حبان في صحيحه أن النبي ﷺ قال : « من سَمّع يهودياً أو نصرانياً فله النار » ومعني سمّعه أسمعه ما يؤذيه، ولا كلام بعد هذا في الحرمة . وأما الحربي فغيبته ليست بحرام على الأولى، وتكره على الثانية، وخلاف الأولى على الثالثة ، وأما المبتدع فإن كفر فكالحربي ، وإلا فكالمسلم ؛ وأما ذكره ببدعته فليس مكروهاً)

كلمة في السياق :

١ - جاءت هاتان الآيتان بعد قوله ﴿ **إنما المؤمنون إخوة ...** ﴾ لتحرما على المسلمين كل ما يؤدي إلى خدش ، أو إضعاف ، أو إزالة هذه الأخوة ، ومما يؤكد

ارتباط هاتين الآيتين بما قبلهما مباشرة مجيء قوله تعالى فيهما ﴿ **أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً** ﴾ فمجيء كلمة الأخ هنا، ومجيء كلمة الإخاء قبل ذلك يؤكد أن تعميق معنى الإخاء الإسلامي بتحريم ما يخدشه هو سرّ السياق .

٢ - جاءت هاتان الآيتان في سورة الحجرات التي تفصّل في محور آيات القتال الثانية في سورة البقرة ، فذكرتا ستة من خوارم الأخوة : الاستهزاء ، الطعن ، التنابز بالألقاب ، سوء الظن ، التجسس ، الغيبة ، وكلّها أمور تنتشر عادة في أي تجمّع بشري ، وخاصة بين العسكريين ، ولذلك فقد طهّر الله الصف الإسلامي منها ، وطهّر الصف الجهادي من أرجاسها .

٣ - وإذ كان محور سورة الحجرات آتياً في سياق الدخول في الإسلام كله ، وترك اتباع خطوات الشيطان ، فقد جاءت الآيتان تبيّنان أحكاماً إسلامية ، وتذكران بعض خطوات الشيطان لتجتنب .

٤ - ختمت سورة الفتح بآية جاء فيها : ﴿ **محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم ... ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه** ﴾ وإن مما يتنافى مع التراحم وجود هذه الأخلاق التي ذكرتها الآيتان ، وإن مما يضعف نمو الأمة الإسلامية وجود هذه الأخلاق .

٥ - وبعد أن حذّرنا الله عز وجل من أخلاق تتنافى مع مبدأ الإخاء الإسلامي فإنّه يذكّرنا بمبدأ الإخاء الإنساني في آية تقرّر وحدة أصل البشرية ، وفي ذلك ترسيخ لترك الأخلاق التي نهت عنها الآيتان .

....

الفقرة السادسة

وتتألف من آية واحدة هي الآية (١٣) وهذه هي :

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾

التفسير :

﴿ **يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى** ﴾ أي : من آدم وحواء . قال النسفي : فلا معنى للتفاخر والتفاضل في النسب ﴿ **وجعلناكم شعوباً وقبائل** ﴾ الشعب : أعم من القبيلة ، والقبيلة : أعم من الفصيلة والعشيرة كما سنرى ﴿ **لتعارفوا** ﴾ قال النسفي : أي إنما رتّبكم على شعوب وقبائل ليعرف بعضكم نسب بعض ،فلا يعتزى إلى غير آبائه ، لا أن تتفاخروا بالآباء والأجداد ، وتدّعوا التفاضل في الأنساب ، قال الألوسي : أي جعلناكم كذلك ليعرف بعضكم بعضاً ، فتصلوا الأرحام ، وتبينوا الأنساب والتوارث ، لا لتفاخروا بالآباء والقبائل ... وقال ابن جني (أي لتعرفوا ما أنتم محتاجون إليه) ثم بين الله تعالى الخصلة التي يفضل بها الإنسان غيره ، ويكتسب الشرف والكرم عند الله فقال ﴿ **إن أكرمكم عند الله أتقاكم** ﴾ قال ابن كثير : أي إنما تتفاضلون عند الله تعالى بالتقوى لا بالأحساب وقال : يقول تعالى مخبراً للناس أنّه خلقهم من نفس واحدة وجعل منها زوجها وهما آدم وحواء، وجعلهم شعوباً وهي أعم من القبائل ، وبعد القبائل مراتب أخر كالفصائل والعشائر والعمائر والأفخاذ وغير ذلك، وقيل : المراد بالشعوب بطون العجم ، وبالقبائل بطون العرب ، كما أن الأسباط بطون بني إسرائيل ... فجميع الناس في الشرف بالنسبة الطينية إلى آدم وحواء عليهم السلام سواء ، وإنما يتفاضلون بالأمور الدينية ، وهي طاعة الله ، ومتابعة رسوله ﷺ ؛ ولهذا قال تعالى بعد النهي عن الغيبة واحتقار بعض الناس بعضاً منبهاً على تساويهم في البشرية : ﴿ **يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم** ﴾ أي : بكرم القلوب وتقواها ﴿ **خبير** ﴾ بهمّ النفوس في هواها قال ابن كثير : أي عليم بكم خبير بأموركم فيهدي من يشاء ، ويضل من يشاء ، ويرحم من يشاء، ويعذب من يشاء ، ويفضّل من يشاء على من يشاء وهو الحكيم العليم الخبير في ذلك كله .

....

قال صاحب الظلال في عرضه لهذه الآية : (يا أيها الناس . يا أيها المختلفون أجناساً وألوانا ، المتفرقون شعوباً وقبائل . إنكم من أصل واحد . فلا تختلفوا ولا تفرقوا ولا

تتخاصموا ولا تذهبوا بدداً . يا أيها الناس . والذي يناديكم هذا النداء هو الذي خلقكم .. من ذكر وأنثى . وهو يطلعكم على الغاية من جعلكم شعوباً وقبائل . إنها ليست التناحر والخصام . إنما هي التعارف والوئام . فأما اختلاف الألسنة والألوان ، واختلاف الطباع والأخلاق ، واختلاف المواهب والاستعدادات ، فتنوع لا يقتضي النزاع والشقاق ، بل يقتضي التعاون للنهوض بجميع التكاليف والوفاء بجميع الحاجات . وليس للون والجنس واللغة والوطن وسائر هذه المعاني من حساب في ميزان الله ، إنما هنالك ميزان وحد تتحدد به القيم ، ويعرف به فضل الناس : ﴿ **إن أكرمكم عند الله أتقاكم** ﴾ .. والكريم حقاً هو الكريم عند الله . وهو يزنكم عن علم وعن خبرة بالقيم والموازين : ﴿ **إن الله عليم خبير** ﴾ وهكذا تسقط جميع الفوارق ، وتسقط جميع القيم ، ويرتفع ميزان واحد بقيمة واحدة . وإلى هذا الميزان يتحاكم البشر ، وإلى هذه القيمة يرجع اختلاف البشر في الميزان . وهكذا تتوارى جميع أسباب النزاع والخصومات في الأرض ، وترخص جميع القيم التي يتكالب عليها الناس . ويظهر سبب ضخم واضح للألفة والتعاون : ألوهية الله للجميع ، وخلقهم من أصل واحد . كما يرتفع لواء واحد يتسابق الجميع ليقفوا تحته : لواء التقوى في ظل الله . وهذا هو اللواء الذي رفعه الإسلام لينقذ البشرية من عقابيل العصبية للجنس ، والعصبية للأرض ، والعصبية للقبيلة ، والعصبية للبيت ، وكلها من الجاهلية وإليها ، تتزيا بشتى الأزياء ، وتسمى بشتى الأسماء . وكلها جاهلية عارية من الإسلام ! وقد حارب الإسلام هذه العصبية الجاهلية في كل صورها وأشكالها ؛ ليقيم نظامه الإنساني العالمي في ظل راية واحدة : راية الله .. لا راية الوطنية . ولا راية القومية . ولا راية البيت . ولا راية الجنس . فكلها رايات زائفة لا يعرفها الإسلام .)

....

كلمة في السياق :

١ - جاءت هذه الآية بعد الآيتين اللتين نهتا عن السخرية والاستهزاء والطعن واللمز وسوء الظن والغيبة ؛ لتقرر أن الله عز وجل جعل الناس شعوباً وقبائل ليتعارفوا ، لا ليتفاخروا ، ولا لينظر بعضهم إلى بعض باحتقار وازدراء ، ولا ليطعن بعضهم بعض ، فالصلة بينها وبين ما قبلها واضحة .

٢ - ومجيء هذه الآية في سياق السورة التي تفصّل في موضوع أخلاقيات المجاهدين معجزة مستقلة ، يعرف ذلك كل ذي بصر بما جرى في القرون الأخيرة ، حيث نمت فكرة القوميات ، فبالغت فيها أقوام حتى قطعت أواصر الدين ، وبالغت فيها أمم فأصبحت تنظر إلى غيرها من الشعوب باحتقار ، وبالغت فيها أمم حتى قاتلت من سواها لتكون لها العزة والقتال في الإسلام ليس لمثل هذا ، فأن تكون الإنسانية شعوباً فهذا لا ينبغي أن يؤدي إلى قتال ، وإنما للقتال أسبابه الأخرى .

٣ - جاء محور سورة الحجرات مسبوقاً بقوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان** ﴾ ومسبوقاً بقوله تعالى : ﴿ **كان الناس أمّة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين** ﴾ وقد ظهرت آثار ذلك في سورة الحجرات ، لأنّه كما قلنا : السورة تفصّل في محورها ، وفي ارتباطاته ، وامتدادات معانيه ، ولذلك فقد قرّرت آية سورة الحجرات قاعدة إسلامية لا يكون المسلم مسلماً إذا لم يسلّم بها ، كما أكّدت وحدة الإنسانية في الأصل ، وأعطتنا الميزان الوحيد الذي على أساسه يكون التفاضل عند الله ﴿ **إن أكرمكم عند الله أتقاكم** ﴾ ولننتقل إلى الفقرة السابعة .

الفقرة السابعة

وتمتد من الآية (١٤) إلى نهاية الآية (١٨) أي : إلى نهاية السورة وهذه هي :

قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى
قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ
رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟
بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ
بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾
يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ

هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾

كلمة في السياق :

١ - عماد التقوى الإيمان ، ولقد قال تعالى في سورة الفتح ﴿ **وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها** ﴾ (الآية : ٢٦) ولقد كان الخطاب في سورة الحجرات منصباً في الغالب لأهل الإيمان ، وجاء في سورة الحجرات قوله تعالى ﴿ **حَبّب إليكم الإيمان** ﴾ وبين تعالى في آية ﴿ **يا أيها الناس** ﴾ أن الأكرم عند الله هو الأتقى ﴿ **إن أكرمكم عند الله أتقاكم** ﴾ وإذا كان للإيمان هذا الوزن عند الله فسيوجد من يدّعون ــ وخاصة في البيئات التي يغلب عليها الجهل ــ وسيوجد من يمنّون على أهل الإسلام بالاستجابة ، فجاءت الفقرة الأخيرة في سورة الحجرات لتنقض الدعاوى ، وتردّ التطاول والمنّ ، ولتعطي الميزان الحقيقي للإيمان .

٢ - الآية الثالثة من آيات محور سورة الحجرات هي قوله تعالى : ﴿ **إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله والله غفور رحيم** ﴾ ولقد جاءت هذه الفقرة من سورة الحجرات لتؤكد أن الإيمان الحقيقي هو ما اجتمع لصاحبه يقين وجهاد بالمال والنفس ، فالفقرة تفصّل في مضمون الإيمان الحقيقي ، وتردّ الدعاوى فيه .

٣ - جاءت آيات المحور في سياق الأمر بالدخول في الإسلام كله ، وقد يعلن الإنسان الدخول في الإسلام ، ولا زال بين قلبه وبين حقيقة الإسلام بُعْد ، فجاءت هذه الآيات لتقول للداخلين في الإسلام : لاتمنّوا على رسول الله ﷺ بدخولكم في الإسلام ، ولتبين أن عليهم أن يرتقوا إلى مقام الإيمان ، ولتبين لهم حقيقة الإيمان .

٤ ــ والحديث عن الأعراب في سورة الحجرات مكمّل للحديث عن الأعراب في سورة الفتح ، وهذا مظهر من مظاهر التكامل بين سور المجموعة في هذا القسم ، كما أن الحديث عن الأعراب هنا مكمّل للحديث عن الأعراب في سورة براءة التي فصّلت في المحور نفسه الذي فصّلت فيه سورة الحجرات .

التفسير :

﴿ **قالت الأعراب آمنا** ﴾ قال ابن كثير : يقول تعالى منكراً على الأعراب الذين أول ما دخلوا في الإسلام ادّعوا لأنفسهم مقام الإيمان ، ولم يتمكن الإيمان في قلوبهم بعد ﴿ **قل لم تؤمنوا** ﴾ أي: لم تصلوا إلى مقام الإيمان الحقيقي ﴿ **ولكن قولوا أسلمنا** ﴾ أي: دخلنا في الإسلام، وخرجنا من أن نكون حرباً للمؤمنين بإظهار الشهادتين ﴿ **ولَمَّا يدخل الإيمان في قلوبكم** ﴾ قال ابن كثير : (أي لم تصلوا إلى حقيقة الإيمان بعد ، فدلّ هذا على أن هؤلاء الأعراب المذكورين في هذه الآية ليسوا بمنافقين ، وإنما هم مسلمون لم يستحكم الإيمان في قلوبهم ، فادعوا لأنفسهم مقاماً أعلى مما وصلوا إليه ، فأُدّبوا في ذلك ..) وقال : إنهم ادعوا لأنفسهم مقام الإيمان ولم يحصل لهم بعد ، فأُدّبوا وأُعْلموا أن ذلك لم يصلوا إليه بعد .. ثم قال تعالى : ﴿ **وإن تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم من أعمالكم شيئاً** ﴾ أي: لا ينقصكم من أجوركم شيئاً ﴿ **إن الله غفور** ﴾ يستر الذنوب ﴿ **رحيم** ﴾ بهدايتهم للتوبة عن العيوب ، وبعد أن ردّ الله عز وجل على هؤلاء دعواهم الإيمان عرّف الإيمان الحقيقي من خلال وصفه للمؤمنين الصادقين فقال : ﴿ **إنما المؤمنون** ﴾ قال ابن كثير : أي إنما المؤمنون الكمّل ﴿ **الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا** ﴾ أي : لم يشكّوا ولا تزلزلوا ؛ بل يثبتون على حالة واحدة وهي التصديق المخلص . قال النسفي : (والمعنى : أنهم آمنوا ثم لم يقع في نفوسهم شك فيما آمنوا فيه ، ولا اتّهام لما صدقوه ...) واستعمال حرف العطف (ثم) في هذا المقام يشعر أن الإيمان في قلوبهم مستقر في الأزمنة المتراخية المتطاولة مع كونه غضاً جديداً ﴿ **وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله** ﴾ قال ابن كثير : أي وبذلوا مهجهم ونفائس أموالهم في طاعة الله ورضوانه ﴿ **أولئك هم الصادقون** ﴾ أي : الذين إيمانهم إيمان صدق وحق .

قال صاحب الظلال في هذه الآية : (فالإيمان تصديق القلب بالله وبرسوله . التصديق الذي لا يرد عليه شك ولا ارتياب . التصديق المطمئن الثابت المستيقن الذي لا يتزعزع ولا يضطرب ، ولا تهجس فيه الهواجس ، ولا يتلجلج فيه القلب والشعور . والذي ينبثق منه الجهاد بالمال والنفس في سبيل الله . فالقلب متى تذوّق حلاوة هذا الإيمان ، واطمأن إليه وثبت عليه ، لابد مندفع لتحقيق حقيقته في خارج القلب . وفي واقع الحياة . في دنيا الناس . يريد أن يوحد بين ما يستشعره في باطنه من حقيقة الإيمان ، وما يحيط به في ظاهره من مجريات الأمور وواقع الحياة . ولا يطيق الصبر على

المفارقة بين الصورة الإيمانية التي في حسه ، والصورة الواقعية من حوله ؛ لأن هذه المفارقة تؤذيه وتصدمه في كل لحظة . ومن هنا كان هذا الانطلاق إلى الجهاد في سبيل الله بالمال والنفس . فهو انطلاق ذاتي من نفس المؤمن . يريد به أن يحقق الصورة الوضيئة التي في قلبه ؛ ليراها ممثلة في واقع الحياة والناس . والخصومة بين المؤمن وبين الحياة الجاهلية من حوله خصومة ذاتية ناشئة من عدم استطاعته حياة مزدوجة بين تصوره الإيماني ، وواقعه العملي . وعدم استطاعته كذلك التنازل عن تصوره الإيماني الكامل الجميل المستقيم في سبيل واقعه العملي الناقص الشائن المنحرف . فلابد من حرب بينه وبين الجاهلية من حوله ، حتى تنثني هذه الجاهلية إلى التصور الإيماني والحياة الإيمانية . ﴿ **أولئك هم الصادقون** ﴾ . الصادقون في عقيدتهم . الصادقون حين يقولون : إنهم مؤمنون . فإذا لم تتحقق تلك المشاعر في القلب ، ولم تتحقق آثارها في واقع الحياة ، فالإيمان لا يتحقق . والصدق في العقيدة وفي ادعائها لا يكون) .

وبتطبيقنا هذا الميزان الذي ورد في الآية على كل من يقول إنه مسلم نجد أن كثيرين ممن يدّعون الإيمان تشبه دعواهم دعوة الأعراب ، ويبدو أن كثيرين من الناس حتى بعد ذكر ميزان الإيمان سيجادلون وسيدّعون ، وسيبررون تركهم للجهاد بالمال والنفس ، مع رغبتهم بالاحتفاظ باسم الصلاح والصدق والإيمان ، ومن ثم جاء بعد ذلك قوله تعالى ﴿ **قل أتعلّمون الله بدينكم** ﴾» قال النسفي : أي أتخبرونه بتصديق قلوبكم ، وقال ابن كثير : أي أتخبرونه بما في ضمائركم ﴿ **والله يعلم ما في السموٰات وما في الأرض** ﴾ أي : لا يخفى عليه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر ﴿ **والله بكل شيء عليم** ﴾ ومن ذلك علمه بالإيمان والإخلاص وغير ذلك ، ثم بيّن تعالى أن من جملة ما يفعله هؤلاء الذين يدَّعون مقاماً لم يصلوا إليه أنهم يمنّون على رسول الله ﷺ بدخولهم في الإسلام ، مما يشير إلى أنّ المنّ بالدخول في الإسلام يرافق عدم تمكن الإيمان ﴿ **يمنّون عليك** ﴾ أي : يمنّ هؤلاء الأعراب عليك ﴿ **أن أسلموا** ﴾ أي : بأن أسلموا ، أي : بإسلامهم . قال النسفي : والمنّ : ذكر الأيادي تعريضاً للشكر ، يقول الله تعالى رداً عليهم ﴿ **قل لا تمنّوا عليّ إسلامكم** ﴾ فإنّ نفع ذلك إنما يعود عليكم ، ولله المنة عليكم فيه ﴿ **بل الله يمنّ عليكم أن هداكم للإيمان** ﴾ أي : بل لله المنّة عليكم بأن - أو لأن - هداكم للإيمان ﴿ **إن كنتم صادقين** ﴾ أي في ادّعائكم الإيمان بالله فلله المنة عليكم ، ثم كرر تعالى بهذه المناسبة الإخبار بعلمه بجميع الكائنات وبصره بأعمال المخلوقات ، ومن ذلك صدق الصادقين فقال ﴿ **إن الله يعلم غيب السموٰات**

والأرض ﴾ ومن ذلك نياتكم ﴿ **والله بصير بما تعملون** ﴾ فليس غائباً عليه عملكم . قال النسفي : (يعني أنه تعالى يعلم كل مستتر في العالم ، ويبصر كل عمل تعملونه في سركم وعلانيتكم ، لا يخفى عليه منه شيء ، فكيف يخفى عليه ما في ضمائركم ، وهو علّام الغيوب ؟) .

كلمة في السياق :

١ - رأينا أنه بعد أن قرر الله عز وجل أن التفاضل عند الله في التقوى جاءت الفقرة الأخيرة ، مما يشير إلى أنه بعد أن تقررت هذه القاعدة في المجتمع الإسلامي سيوجد ناس يدّعون الفضل في مقاماتها ، وقد قطع الله عز وجل الطريق على هؤلاء بأن بيّن ميزان الإيمان ، وأعطانا علامة على فساد دعوى الإيمان ، وهي وجود المنّ بدخول الإسلام من قِبَل هؤلاء المدّعين . فهذا مظهر صلة الفقرة الأخيرة بما قبلها مباشرة .

٢ - من الربط بين الفقرة ومحور السورة وارتباطاته وامتداداته نعلم أن الجهاد الإسلامي يحتاج إلى إيمان قلبي يقيني ، وأنّه لا يصح أن يرافقه المنّ على الله ورسوله والمؤمنين ، كما أنّه لا ينبغي أن ترافقه دعاوى التحقق بمقامات الإسلام دون التحقق بها .

....

الفوائد :

١ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون** ﴾ قال ابن كثير : (وقد روي أنها نزلت في الشيخين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما وروى البخاري عن ابن عمر عن ابن أبي مليكة قال : كاد الخيّران أن يهلكا أبو بكر وعمر رضي الله عنهما رفعا أصواتهما عند النبي ﷺ حين قدم ركب بني تميم ، فأشار أحدهما بالأقرع بن حابس رضي الله عنه أخي بني مجاشع ، وأشار الآخر برجل آخر قال نافع : لا أحفظ اسمه ، فقال أبو بكر لعمر رضي الله : عنهما ما أردتَ إلا خلافي ، قال : ما أردت خلافك ، فارتفعت أصواتهما في ذلك ، فأنزل الله تعالى ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول**

كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون ﴾ قال ابن الزبير رضي الله عنهما : مما كان عمر رضي الله عنه يسمع رسول الله ﷺ بعد هذه الآية حتى يستفهمه، ولم يذكر ذلك عن أبيه - يعني أبا بكر رضي الله عنه - انفرد به دون مسلم . ثم روى البخاري عن ابن جريج حدثني ابن أبي مليكة أن عبد الله ابن الزبير رضي الله عنهما أخبره أنه قدم ركب من بني تميم على النبي ﷺ فقال أبو بكر رضي الله عنه أمّر القعقاع بن معبد، وقال عمر رضي الله عنه بل أمّر الأقرع بن حابس فقال أبو بكر رضي الله عنه : ما أردت إلا خلافي ، فقال عمر رضي الله عنه : ما أردت خلافك ، فتماريا حتى ارتفعت أصواتهما فنزلت في ذلك : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله** ﴾ حتى انقضت الآية ﴿ **ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم** ﴾ الآية وهكذا رواه ههنا منفرداً به أيضاً . وروى الحافظ أبو بكر البزار في مسنده عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال لما نزلت هذه الآية : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي** ﴾ قلت : يا رسول الله والله لأكلمك إلا كأخي السرار . وروى البخاري عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي ﷺ افتقد ثابت بن قيس رضي الله عنه فقال رجل : يا رسول الله أنا أعلم لك علمه ، فأتاه فوجده في بيته منكساً رأسه ، فقال له : ما شأنك ؟ فقال : شر ؛ كان يرفع صوته فوق صوت النبي ﷺ ، فقد حبط عمله فهو من أهل النار ، فأتى الرجل النبي ﷺ فأخبره أنه قال كذا وكذا ، قال موسى : فرجع إليه المرة الآخرة ببشارة عظيمة فقال : « اذهب إليه فقل له إنك لست من أهل النار ولكنك من أهل الجنة » تفرد به البخاري من هذا الوجه ..) وقال ابن كثير : (وقد روينا عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه سمع صوت رجلين في مسجد النبي ﷺ قد ارتفعت أصواتهما فجاء فقال : أتدريان أين أنتما ؟ ثم قال : من أين أنتما ؟ قالا من أهل الطائف ، فقال : لو كنتما من أهل المدينة لأوجعتكما ضرباً) وقال ابن كثير بمناسبة قوله تعالى ﴿ **أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون** ﴾ (كما جاء في الصحيح « إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله تعالى لا يلقي لها بالاً يكتب له بها الجنة ، وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله تعالى لا يلقي لها بالاً يهوي بها في النار أبعد ما بين السماء والأرض ») .

٢ - بمناسبة قوله تعالى ﴿ **إن الذين يغضّون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى** ﴾ قال الألوسي : (واستدل العلماء بالآية على المنع من رفع الصوت عند قبره الشريف ﷺ ، وعند قراءة حديثه عليه الصلاة والسلام ؛ لأن حرمته

ميتاً كحرمته حياً . وذكر أبو حيان كراهة الرفع أيضاً بحضرة العالم ، وغير بعيد حرمته بقصد الإيذاء والاستهانة لمن يحرم إيذاؤه والاستهانة به مطلقاً ؛ لكن للحرمة مراتب متفاوتة كما لا يخفى) .

٣ - بمناسبة قوله تعالى ﴿ **أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى** ﴾ قال ابن كثير : (وقد روى الإمام أحمد في كتاب (الزهد) عن مجاهد قال: كُتب إلى عمر : يا أمير المؤمنين رجل لا يشتهي المعصية ولا يعمل بها أفضل ، أم رجل يشتهي المعصية ولا يعمل بها ؟ فكتب عمر رضي الله عنه : إن الذين يشتهون المعصية ولا يعملون بها ﴿ **أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر عظيم** ﴾) .. أقول وقد دلت الآية على أن القلوب تفتن ، فمنها ما يسقط ، ومنها ما ينجح ، ويشهد لذلك الحديث الصحيح : « تعرض الفتن على القلوب عوداً عوداً ، فأي قلب أشربها نكتت فيه نكتة سوداء ، وأي قلب أنكرها نكتت فيه نكتة بيضاء حتى تصير على قلبين : على أبيض مثل الصفا ، فلا تضره فتنة ما دامت السموٰات والأرض ، والآخر أسود مرباد كالكوز مجخياً لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً إلا ما أشرب من هواه » رواه مسلم ، وقد دلّت الآية على أن من علامات نجاح القلب أدب الإنسان مع رسول الله ﷺ وتعظيمه .

٤ - في سبب نزول قوله تعالى ﴿ **إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون** ﴾ قال ابن كثير : (وقد ذكر أنها نزلت في الأقرع بن حابس التميمي رضي الله عنه فيما أورده غير واحد ، روى الإمام أحمد عن الأقرع بن حابس رضي الله عنه أنه نادى رسول الله ﷺ فقال : يا محمد ، يا محمد ، وفي رواية يا رسول الله ، فلم يجبه ، فقال : يا رسول الله إن حمدي لزيْن وإن ذمي لشيْن ، فقال : « ذاك الله عز وجل » وروى ابن جرير عن البراء في قوله تبارك وتعالى ﴿ **إن الذين ينادونك من وراء الحجرات** ﴾ قال : جاء رجل إلى رسول الله ، ﷺ فقال : يا محمد إن حمدي زين وذمي شيْن ، فقال ﷺ : « ذاك الله عز وجل » وهكذا ذكره الحسن البصري وقتادة مرسلاً . وقال سفيان الثوري عن حبيب بن أبي عمرة قال : كان بشر بن غالب ولبيد بن عطارد أو بشر بن عطارد ولبيد بن غالب وهما عند الحجاج جالسان فقال بشر بن غالب للبيد بن عطارد نزلت في قومك بني تميم ﴿ **إن الذين ينادونك من وراء الحجرات** ﴾ قال : فذكرت ذلك لسعيد ابن جبير فقال : أما إنه لو علم بآخر الآية أجابه ﴿ **يمنون عليك أن أسلموا** ﴾ قالوا أسلمنا ولم يقاتلك بنو أسد ، وروى ابن أبي

حاتم عن زيد بن أرقم رضي الله عنه قال : اجتمع أناس من العرب فقالوا : انطلقوا بنا إلى هذا الرجل فإن يك نبياً فنحن أسعد الناس به ، وإن يك ملكاً نعش بجناحه ، قال فأتيت رسول الله ﷺ فأخبرته بما قالوا ، فجاءوا إلى حجرة النبي ﷺ فجعلوا ينادونه وهو في حجرته : يا محمد ، يا محمد ، فأنزل الله تعالى ﴿ **إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون** ﴾ قال : فأخذ رسول الله ﷺ بأذني فمدها فجعل يقول « لقد صدق الله تعالى قولك يا زيد لقد صدق الله قولك يا زيد » ورواه ابن جرير) .

٥ - في سبب نزول قوله تعالى ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا** ﴾ قال ابن كثير : وقد ذكر كثير من المفسرين أن هذه الآية نزلت في الوليد بن عقبة بن أبي معيط حين بعثه رسول الله ﷺ على صدقات بني المصطلق وقد روي ذلك من طرق ، ومن أحسنها ماورواه الإمام أحمد في مسنده من رواية ملك بني المصطلق وهو الحارث بن أبي ضرار والد جويرية بنت الحارث أم المؤمنين رضي الله عنها . روى الإمام أحمد عن الحارث بن أبي ضرار الخزاعي رضي الله عنه قال : قدمت على رسول الله ﷺ فدعاني إلى الإسلام فدخلت فيه وأقررت به . ودعاني إلى الزكاة فأقررت بها وقلت : يارسول الله أرجع إليهم فأدعوهم إلى الإسلام وأداء الزكاة ، فمن استجاب لي جمعت زكاته ، وترسل إلي يا رسول الله رسولاً إبّان كذا وكذا ليأتيك بما جمعت من الزكاة ، فلما جمع الحارث الزكاة ممن استجاب له وبلغ الإبان الذي أراد رسول الله ﷺ أن يبعث إليه ، احتبس عليه الرسول ولم يأته ، وظن الحارث أنه قد حدث فيه سخطة من الله تعالى ورسوله ، فدعا بسروات قومه فقال لهم : إن رسول الله ﷺ كان وقّت لي وقتاً يرسل إلي رسوله ليقبض ما كان عندي من الزكاة ، وليس من رسول الله الخلف ، ولا أرى حبس رسوله إلا من سخطة ، فانطلقوا بنا نأتي رسول الله ﷺ ، وبعث رسول الله ﷺ الوليد بن عقبة إلى الحارث ليقبض ما كان عنده مما جمع من الزكاة ، فلما أن سار الوليد حتى بلغ بعض الطريق فَرَق (أي : خاف) فرجع حتى أتي رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله إن الحارث قد منعني الزكاة وأراد قتلي ، فغضب رسول الله ﷺ وبعث البعث إلى الحارث رضي الله عنه ، وأقبل الحارث بأصحابه حتى إذا استقبل البعث وفصل عن المدينة لقيهم الحارث فقالوا : هذا الحارث ، فلما غشيهم قال لهم : إلى من بعثتم ؟ قالوا إليك . قال ولم ؟ قالوا : إن رسول الله ﷺ بعث إليك الوليد بن عقبة فزعم أنك منعته الزكاة ، وأردت قتله . قال رضي الله عنه : لا والذي بعث محمداً ﷺ بالحق ، مارأيته بتة ، ولاأتاني ، فلما دخل الحارث على رسول الله ﷺ قال :

« منعت الزكاة وأردت قتل رسولي ؟ » قال : لا والذي بعثك بالحق ما رأيته ، ولا أتاني وما أقبلت إلا حين احتبس عليَّ رسول رسول الله ﷺ خشيت أن يكون كانت سخطة من الله تعالى ورسوله ، قال فنزلت الحجرات ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ** ﴾ إلى قوله ﴿ **حكيم** ﴾ .

٦ - في سورة البقرة ورد قوله تعالى ﴿ **ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم ...** ﴾ (البقرة: ٢١٧) وقال تعالى في سورة الحجرات : ﴿ **لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون** ﴾ ومن ذكر حبوط العمل في الآيتين ندرك أن سوء الأدب مع رسول الله ﷺ يقارب الردة إن لم يكن بقصد ، وأما إن كان بقصد فهو الردة عينها .

٧ - بمناسبة قوله تعالى ﴿ **ولكن الله حَبّب إليكم الإيمان وزيّنه في قلوبكم** ﴾ قال ابن كثير : (روى الإمام أحمد عن أنس رضي الله عنه قال كان رسول الله ﷺ يقول « الإسلام علانية والإيمان في القلب » قال : ثم يشير بيده إلى صدره ثلاث مرات ثم يقول : « التقوى ههنا التقوى ههنا ») . (وروى الإمام أحمد عن أبي رفاعة الزرقي عن أبيه قال : لما كان يوم أحد ، وانكفأ المشركون ، قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « استووا حتى أثني على ربي عز وجل » فصاروا خلفه صفوفا فقال ﷺ : « اللهم لك الحمد كله ، اللهم لا قابض لما بسطت ، ولا باسط لما قبضت ، ولا هادي لمن أضللت ، ولا مضل لمن هديت ، ولا معطي لما منعت ، ولا مانع لما أعطيت ، ولا مقرب لما باعدت ، ولا مباعد لما قربت ، اللهم ابسط علينا من بركاتك ورحمتك وفضلك ورزقك ، اللهم إني أسألك النعيم المقيم الذي لا يحول ولا يزول ، اللهم إني أسألك النعيم يوم العيلة والأمن يوم الخوف ، اللهم إني عائذ بك من شر ما أعطيتنا ومن شر ما منعتنا ، اللهم حبب إلينا الإيمان وزينه في قلوبنا ، وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان واجعلنا من الراشدين ، اللهم توفنا مسلمين وأحينا مسلمين وألحقنا بالصالحين ، غير خزايا ولا مفتونين ، اللهم قاتل الكفرة الذين يكذبون رسلك ويصدون عن سبيلك واجعل عليهم رجزك وعذابك ، اللهم قاتل الكفرة الذين أوتوا الكتاب إله الحق » ورواه النسائي في اليوم والليلة عن عبيد بن رفاعة عن أبيه به .. وفي الحديث المرفوع . « من سرَّته حسنته وساءته سيئته فهو مؤمن » .

٨ – بمناسبة قوله تعالى ﴿ **وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما** ﴾ قال ابن كثير : (وبهذا استدل البخاري وغيره على أنه لا يخرج عن الإيمان بالمعصية وإن عظمت ، لا كما يقوله الخوارج ومن تابعهم من المعتزلة ونحوهم ، وهكذا ثبت في صحيح البخاري من حديث الحسن عن أبي بكر رضي الله عنه قال : إن رسول الله ﷺ خطب يوماً ومعه على المنبر الحسن بن علي رضي الله عنهما ، فجعل ينظر إليه مرة وإلى الناس أخرى ويقول : إن ابني هذا سيد ، ولعل الله تعالى أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين . فكان كما قال ﷺ أصلح الله ـــ تعالى ـــ به بين أهل الشام وأهل العراق بعد الحروب الطويلة والواقعات المهولة) . وقال ابن كثير : (كما ثبت في الصحيح عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : « انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً » قلت : يارسول الله هذا نصرته مظلوماً ، فكيف أنصره ظالماً ؟ قال ﷺ : « تمنعه من الظلم فذاك نصرك إياه » . وروى الإمام أحمد عن معتمر قال : سمعت أبي يحدث أن أنساً رضي الله عنه قال : قيل للنبي ﷺ : لو أتيت عبد الله بن أُبي ، فانطلق إليه النبي ﷺ وركب حماراً ، وانطلق المسلمون يمشون – وهي أرض سبخة – فلما انطلق النبي ﷺ إليه قال : « إليك عني فوالله لقد آذاني ريح حمارك » فقال رجل من الأنصار : والله لحمار رسول الله ﷺ أطيب ريحاً منك ، قال فغضب لعبد الله رجال من قومه ، فغضب لكل واحد منهما أصحابه ، قال : فكان بينهم ضرب بالجريد والأيدي والنعال ، فبلغنا أنه أنزلت فيهم ﴿ **وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما** ﴾ ورواه البخاري في الصلح عن مسدد ومسلم في المغازي وذكر سعيد بن جبير أن الأوس والخزرج كان بينهما قتال بالسعف والنعال ، فأنزل الله تعالى هذه الآية فأمر بالصلح بينهما . وقال السدي : كان رجل من الأنصار يقال له عمران كانت له امرأة تدعى أم زيد ، وأن المرأة أرادت أن تزور أهلها فحبسها زوجها وجعلها في علية له لا يدخل عليها أحد من أهلها ، وأن المرأة بعثت إلى أهلها ، فجاء قومها وأنزلوها لينطلقوا بها ، وأن الرجل كان قد خرج فاستعان أهل الرجل فجاء بنو عمه ليحولوا بين المرأة وبين أهلها فتدافعوا واجتلدوا بالنعال ، فنزلت فيهم هذه الآية فبعث إليهم رسول الله ﷺ وأصلح بينهم وفاءوا إلى أمر الله تعالى) .

٩ – بمناسبة قوله تعالى ﴿ **فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين** ﴾ روى ابن كثير :(روى ابن أبي حاتم عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال : إن رسول الله ﷺ قال : « إن المقسطين في الدنيا على منابر من لؤلؤ بين يدي

الرحمن عز وجل بما أقسطوا في الدنيا » ورواه النسائي بإسناد جيد قوي ، رجاله على شرط الصحيح . عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال : « المقسطون عند الله تعالى يوم القيامة على منابر من نور عن يمين العرش الذين يعدلون في حكمهم وأهاليهم وما ولوا» ورواه مسلم والنسائي من حديث سفيان بن عيينة به).

١٠ - بمناسبة قوله تعالى ﴿ **إنما المؤمنون إخوة** ﴾ قال ابن كثير : (أي الجميع إخوة في الدين، كما قال رسول الله ﷺ : « المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه » وفي الصحيح « والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه » وفي الصحيح أيضاً « إذا دعا المسلم لأخيه بظهر الغيب قال الملك : آمين ولك بمثله » والأحاديث في هذا كثيرة . وفي الصحيح « مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتواصلهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر » وفي الصحيح أيضاً « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً » وشبك بين أصابعه ﷺ . وروى أحمد عن أبي حازم قال : سمعت سهيل بن سعد الساعدي رضي الله عنه يحدث عن رسول الله ﷺ قال : «إن المؤمن من أهل الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد ، يألم المؤمن لأهل الإيمان كما يألم الجسد لما في الرأس » تفرد به أحمد ولا بأس بإسناده) .

أقول : واستعمال لفظة (إنما) التي تفيد الحصر يفهم منه أنه لا أخوة حقيقية إلا بين أهل الإيمان ، وأنه لا أخوة بين غيرهم .

١١ - بمناسبة قوله تعالى ﴿ **لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ...** ﴾قال ابن كثير : كما ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال « الكبر بطر الحق وغمص الناس - ويروى - وغمط الناس » .

١٢ - في سبب نزول قوله تعالى ﴿ **ولا تنابزوا بالألقاب** ﴾ قال ابن كثير : (روى الإمام أحمد عن أبي جبيرة بن الضحاك قال : فينا نزلت في بني سلمة ﴿ **ولا تنابزوا بالألقاب** ﴾ قال : قدم رسول الله ﷺ المدينة وليس فينا رجل إلا وله اسمان أو ثلاثة ، فكان إذا دعا أحداً منهم باسم من تلك الأسماء قالوا : يا رسول الله إنه يغضب من هذا فنزلت ﴿ **ولا تنابزوا بالألقاب** ﴾ ورواه أبو داود .

١٣ - بمناسبة قوله تعالى ﴿ **اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم ولا تجسسوا** ﴾ قال ابن كثير : (وروينا عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال : ولا تظنن بكلمة خرجت من أخيك المؤمن إلا خيراً وأنت تجد لها في الخير محملاً .

وروى أبو عبد الله بن ماجه عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال رأيت النبي ﷺ يطوف بالكعبة ، ويقول : « ما أطيبك وأطيب ريحك ، ما أعظمك وأعظم حرمتك ، والذي نفس محمد بيده لحرمة المؤمن أعظم عند الله تعالى حرمة منك ، ماله ودمه وأن يُظن به إلا خيراً » تفرد به ابن ماجه من هذا الوجه ، وروى مالك عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « إياكم والظن ، فإن الظن أكذب الحديث ، ولاتجسسوا ولا تحسسوا ولا تنافسوا ولا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخوانا » رواه البخاري . وروى سفيان بن عيينة عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « لا تقاطعوا ولا تدابروا ولا تباغضوا ولا تحاسدوا وكونوا عباد الله إخوانا ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاثة أيام » رواه مسلم والترمذي وصححه من حديث سفيان بن عيينة به . وروى الطبراني عن حارثة بن النعمان رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ثلاث لازمات لأمتي : الطيرة والحسد وسوء الظن » فقال رجل : وما يذهبن يا رسول الله ممن هن فيه ؟ قال ﷺ : « إذا حسدت فاستغفر الله ، وإذا ظننت فلا تحقق ، وإذا تطيرت فامض » وروى أبو داود عن زيد رضي الله عنه قال : أتي ابن مسعود رضي الله عنه برجل فقيل له : هذا فلان تقطر لحيته خمراً ، فقال عبد الله رضي الله عنه : إنا قد نهينا عن التجسس ، ولكن إن يظهر لنا شيء نأخذ به . سماه ابن أبي حاتم في روايته الوليد بن عقبة بن أبي معيط . وروى الإمام أحمد عن دجين كاتب عقبة قال : قلت : إن لنا جيراناً يشربون الخمر وأنا داع لهم الشرط فيأخذونهم قال : لا تفعل ولكن عظهم وتهددهم ، قال : ففعل فلم ينتهوا . قال : فجاءه دجين فقال : إني قد نهيتهم فلم ينتهوا ، وإني داع لهم الشرط فتأخذهم ، فقال له عقبة : ويحك لاتفعل ، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول « من ستر عورة مؤمن فكأنما استحيا موءودة من قبرها » ورواه أبو داود والنسائي من حديث الليث بن سعد به بنحوه ، وروى سفيان الثوري عن معاوية رضي الله عنه قال سمعت النبي ﷺ يقول : « إنك إن اتبعت عورات الناس . أفسدتهم أو كدت أن تفسدهم » فقال أبو الدرداء رضي الله عنه : كلمة سمعها معاوية رضي الله عنه من رسول الله ﷺ نفعه الله تعالى بها ، ورواه أبو داود منفرداً به من حديث الثوري به . وروى أبو داود أيضاً عن جبير بن نفير وكثّير بن مرة وعمرو بن الأسود والمقدام بن معد يكرب وأبي أمامة رضي الله عنهم عن النبي ﷺ قال « إن الأمير إذا ابتغى الريبة في الناس أفسدهم » ﴿ **ولا تجسسوا** ﴾ أي : على بعضكم بعضاً والتجسس غالباً يطلق في الشر ، ومنه الجاسوس . وأما التحسس فيكون غالباً في الخير كما

قال عز وجل إخباراً عن يعقوب أنه قال ﴿ **يا بني اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا من روح الله** ﴾ وقد يستعمل كل منهما في الشر كما ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال « لا تجسسوا ولا تحسسوا ولا تباغضوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخوانا » وقال الأوزاعي : التجسس البحث عن الشيء . والتحسس الاستماع إلى حديث القوم وهم له كارهون أو يتسمَّع على أبوابهم . والتدابر : الصرم رواه ابن أبي حاتم عنه) .

قال صاحب الظلال عند قوله تعالى ﴿ **ولا تجسسوا** ﴾ .. (والتجسس قد يكون هو الحركة التالية للظن ؛ وقد يكون حركة ابتدائية لكشف العورات ، والاطلاع على السوءات . والقرآن يقاوم هذا العمل الدنيء من الناحية الأخلاقية ، لتطهير القلب من مثل هذا الاتجاه اللئيم لتتبع عورات الآخرين وكشف سوءاتهم . وتمشياً مع أهدافه في نظافة الأخلاق والقلوب . ولكن الأمر أبعد من هذا أثراً . فهو مبدأ من مبادىء الإسلام الرئيسية في نظامه الاجتماعي ، وفي إجراءاته التشريعية والتنفيذية . إن للناس حرياتهم وحرماتهم وكراماتهم التي لا يجوز أن تنتهك في صورة من الصور ، ولا أن تمس بحال من الأحوال . ففي المجتمع الإسلامي الرفيع الكريم يعيش الناس آمنين على أنفسهم ، آمنين على بيوتهم ، آمنين على أسرارهم ، آمنين على عوراتهم . ولا يوجد مبرر - مهما يكن - لانتهاك حرمات الأنفس والبيوت والأسرار والعورات . حتى ذريعة تتبع الجريمة وتحقيقها لا تصلح في النظام الإسلامي ذريعة للتجسس على الناس . فالناس على ظواهرهم ، وليس لأحد أن يتعقب بواطنهم . وليس لأحد أن يأخذهم إلا بما يظهر منهم من مخالفات وجرائم . وليس لأحد أن يظن أو يتوقع ـــ أو حتى يعرف ـــ أنهم يزاولون في الخفاء مخالفة ما ، فيتجسس عليهم ليضبطهم ! وكل ما له عليهم أن يأخذهم بالجريمة عند وقوعها وانكشافها ، مع الضمانات الأخرى التي ينص عليها بالنسبة لكل جريمة . قال سفيان الثوري عن راشد بن سعد عن معاوية بن أبي سفيان ، قال : سمعت النبي ﷺ يقول : « إنك إن اتبعت عورات الناس أفسدتهم أو كدت أن تفسدهم » فقال أبو الدرداء - رضي الله عنه -: كلمة سمعها معاوية - رضي الله عنه - من رسول الله - ﷺ - نفعه الله تعالى بها . فهكذا أخذ النص طريقه في النظام العملي للمجتمع الإسلامي ! ولم يعد مجرد تهذيب للضمير وتنظيف للقلب ، بل صار سياجاً حول حرمات الناس وحقوقهم وحرياتهم ، فلا تمس من قريب أو بعيد ، تحت أي ذريعة أو ستار . فأين هذا المدى البعيد ؟ وأين هذا الأفق السامق ؟ وأين ما يتعاجب به أشد الأمم

ديمقراطية وحرية وحفظاً لحقوق الإنسان بعد ألف وأربعمائة عام ؟) .

أقول : يرى الكثيرون من المشتغلين بالسياسة أن أجهزة المخابرات شيء لابد منه للدولة الحديثة ، فماذا تفعل الدولة الإسلامية في هذا العصر ؟ والجواب : إن رصد العدو لا يدخل في النهي عن التجسس ، فقد كان رسول الله ﷺ يبعث الأرصاد والعيون على قريش ، وإنما المنهي عنه التجسس على المسلمين ، والذي يغني عن أجهزة المخابرات في الدولة الإسلامية وعي المسلم ، وتلاحمه مع إمامه وحكومته ، وإخباره لها إذا أحس بخيانة أو خطر على الأمن ، كما ينوب عن ذلك بعض الإجراءات الاحتراسية ، وجهاز أمني مقيد بضوابط الشرع لاحرج في وجوده .

١٤ - وبمناسبة قوله تعالى ﴿ **ولا يغتب بعضكم بعضاً** ﴾ قال ابن كثير : (وقوله تعالى ﴿ **ولا يغتب بعضكم بعضاً** ﴾ فيه نهي عن الغيبة وقد فسرها الشارع كما جاء في الحديث الذي رواه أبو داود عن أبي هريرة قال : قيل يا رسول الله ما الغيبة ؟ قال ﷺ « ذكرك أخاك بما يكره » قيل : أفرأيت إن كان في أخي ما أقول ؟ قال ﷺ « إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته ، وإن لم يكن فيه ماتقول فقد بهته » ورواه الترمذي وقال حسن صحيح ، ورواه ابن جرير . وهكذا قال ابن عمر رضي الله عنهما ومسروق وقتادة وأبو إسحق ومعاوية بن قرة . وروى أبو داود عن عائشة رضي الله عنها قالت : قلت للنبي ﷺ حسبك من صفية كذا وكذا . قال غير مسدد : تعني قصيرة ، فقال ﷺ : « لقد مت كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته » قالت : وحكيت له إنساناً فقال ﷺ : « ما أحب أني حكيت إنسانا وإن لي كذا وكذا » ورواه الترمذي . والغيبة محرمة بالإجماع ، ولا يستثنى من ذلك إلا مارجحته مصلحة كما في الجرح والتعديل ، والنصيحة كقوله ﷺ لما استأذن عليه ذلك الرجل الفاجر : « ائذنوا له بئس أخو العشيرة » وكقوله ﷺ لفاطمة بنت قيس رضي الله عنها وقد خطبها معاوية وأبو الجهم : « أما معاوية فصعلوك ، وأما أبو الجهم فلا يضع عصاه عن عاتقه » وكذا ما جرى مجرى ذلك ، ثم بقيتها على التحريم الشديد ، وقد ورد فيها الزجر الأكيد؛ ولهذا شبهها تبارك وتعالى بأكل اللحم من الإنسان الميت ، كما قال عز وجل ﴿ **أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه** ﴾ أي : كما تكرهون هذا طبعاً ، فاكرهوا ذاك شرعاً ، فإن عقوبته أشد من هذا ، وهذا من التنفير عنها والتحذير منه كما قال ﷺ في العائد في هبته « كالكلب يقيء ثم يرجع في قيئه » وقد قال : «ليس لنا مثل السوء» وثبت في

الصحاح والحسان والمسانيد من غير وجه أنه ﷺ قال في خطبة حجة الوداع : « إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام ، كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا » وروى أبو داود عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « كل المسلم على المسلم حرام ماله وعرضه ودمه ، حسب امرىء من الشر أن يحقر أخاه المسلم » ورواه الترمذي وقال : حسن غريب وعن الأعمش عن سعيد بن عبيد الله بن جريج عن أبي بردة البلوي قال : قال رسول الله ﷺ « « يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه ، لا تغتابوا المسلمين ، ولاتتبعوا عوراتهم . فإنه من يتبع عوراتهم يتبع الله عورته ، ومن يتبع الله عورته يفضحه في بيته » . ونظر ابن عمر يوماً إلى الكعبة فقال ما أعظمك وأعظم حرمتك ، وللمؤمن أعظم حرمة عند الله منك . روى أبو داود عن المسور أن النبي ﷺ قال « من أكل برجل مسلم أكلة فإن الله يطعمه مثلها في جهنم ، ومن كسا ثوباً برجل مسلم فإن الله يكسوه مثله في جهنم ، ومن قام برجل مقام سمعة ورياء فإن الله تعالى يقوم به مقام سمعة ورياء يوم القيامة » تفرد به أبو داود . وحدثنا ابن مصفى عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : « لما عرج بي مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون وجوههم وصدورهم ، قلت : من هؤلاء يا جبريل؟ قال : هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون في أعراضم » تفرد به أبو داود وهكذا رواه الإمام أحمد ..

وروى الحافظ أبو يعلى عن عم لأبي هريرة : أن ماعزاً جاء إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله إني قد زنيت ، فأعرض عنه حتى قالها أربعاً ، فلما كان في الخامسة قال « زنيت ؟ » قال : نعم قال « وتدري ما الزنا ؟ » قال : نعم أتيت منها حراماً ما يأتي الرجل من امرأته حلال، قال : « ما تريد إلى هذا القول ؟ » قال : أريد أن تطهرني قال : فقال رسول الله ﷺ : « أدخلت ذلك منك في ذلك منها كما يغيب الميل في المكحلة والعصا في البئر ؟ » قال : نعم يا رسول الله قال فأمر برجمه فرجم فسمع النبي ﷺ رجلين يقول أحدهما لصاحبه : ألم تر إلى هذا الذي ستر الله عليه فلم تدعه نفسه حتى رجم رجم الكلب ، ثم سار النبي ﷺ حتى مر بجيفة حمار فقال : « أين فلان وفلان ؟ انزلا فكلا من جيفة هذا الحمار . قالا : غفر الله لك يا رسول الله وهل يؤكل هذا ؟ قال ﷺ : فما نلتما من أخيكما آنفاً أشد أكلاً منه ، والذي نفسي بيده إنه الآن لفي أنهار الجنة ينغمس فيها » إسناد صحيح .

وقال ابن كثير : (قال الجمهور من العلماء طريق المغتاب للناس في توبته أن يقلع عن ذلك ويعزم على أن لا يعود ، وهل يشترط الندم على ما فات ؟ فيه نزاع ، وأن يتحلل من الذي اغتابه وقال آخرون لا يشترط أن يتحلله ؛ فإنه إذا أعلمه بذلك ربما تأذى أشد مما إذا لم يعلم بما كان منه ، فطريقه إذاً أن يثني عليه بما فيه في المجالس التي كان يذمه فيها ، وأن يرد عنه الغيبة بحسبه وطاقته لتكون تلك بتلك ، كما روى الإمام أحمد عن سهل بن معاذ بن أنس الجهني عن أبيه رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال « من حمى مؤمنا من منافق يغتابه بعث الله تعالى إليه ملكاً يحمي لحمه يوم القيامة من نار جهنم ، ومن رمى مؤمناً بشيء يريد سبه حبسه الله تعالى على جسر جهنم حتى يخرج مما قال » وكذا رواه أبو داود من حديث عبد الله بن المبارك به بنحوه . وروى أبو داود أيضاً عن جابر بن عبد الله وأبي طلحة بن سهل الأنصاري رضي الله عنهما يقولان : قال رسول الله ﷺ : « ما من امرىء يخذل امرأً مسلماً في موضع تنتهك فيه حرمته وينتقص فيه من عرضه إلا خذله الله تعالى في مواطن يحب فيها نصرته ، وما من امرىء ينصر امرأً مسلماً في موضع ينتقص فيه من حرمته إلا نصره الله عز وجل في مواطن يحب فيها نصرته » تفرد به أبو داود).

١٥ - بمناسبة قوله تعالى ﴿ **يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم** ﴾ قال ابن كثير : وقد وردت الأحاديث بذلك عن رسول الله ﷺ ، روى البخاري عن أبي هريرة قال : سئل رسول الله ﷺ أي الناس أكرم ؟ قال : « أكرمهم عند الله أتقاهم » قالوا : ليس عن هذا نسألك قال : « فأكرم الناس يوسف نبي الله ، ابن نبي الله ، ابن نبي الله ابن خليل الله » قالوا : ليس عن هذا نسألك قال : « فعن معادن العرب تسألوني ؟ » قالوا : نعم قال : « فخياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام إذا فقهوا » وقد رواه البخاري في غير موضع من طرق عن عبدة بن سليمان ، ورواه النسائي في التفسير من حديث عبيد الله وهو ابن عمر العمري به . (حديث آخر) ، روى مسلم رحمه الله عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم » ورواه ابن ماجه (حديث آخر) روى الإمام أحمد عن أبي ذر رضي الله عنه قال : إن النبي ﷺ قال له : « انظر فإنك لست بخير من أحمر ولا أسود إلا أن تفضله بتقوى الله » تفرد به أحمد رحمه الله (حديث آخر) وروى الحافظ أبو القاسم الطبراني عن حبيب بن خراش العصري رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول

« المسلمون أخوة لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى » (حديث آخر) روى أبو بكر البزار في مسنده عن حذيفة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « كلكم بنو آدم وآدم خلق من تراب ، ولينتهين قوم يفخرون بآبائهم أو ليكونن أهون على الله تعالى من الجعلان » . ثم قال : لا نعرفه عن حذيفة إلا من هذا الوجه (حديث آخر) روى ابن أبي حاتم عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : طاف رسول الله ﷺ يوم فتح مكة على ناقته القصواء يستلم الأركان بمحجن في يده ، فما وجد لها مناخاً في المسجد حتى نزل ﷺ على أيدي الرجال فخرج بها إلى بطن المسيل فأنيخت ، ثم إن رسول الله ﷺ خطبهم على راحلته فحمد الله تعالى وأثنى عليه بما هو له أهل ، ثم قال : « يا أيها الناس إن الله تعالى قد أذهب عنكم عيبة الجاهلية ، وتعظمها بآبائها ، فالناس رجلان : رجل برّ تقي كريم على الله تعالى . ورجل فاجر شقي هين على الله تعالى ، إن الله عز وجل يقول **﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير ﴾** ثم قال ﷺ : « أقول قولي هذا واستغفر الله لي ولكم » هكذا رواه عبد بن حميد (حديث آخر) روى الإمام أحمد ، عن عقبة بن عامر رضي الله عنهما ، قال : إن رسول الله ﷺ قال : « إن أنسابكم هذه ليست بمنسبة على أحد ، كلكم بنو آدم طف الصاع لم تمنعوه ، ليس لأحد على أحد فضل إلا بدين وتقوى ، وكفى بالرجل أن يكون بذياً بخيلاً فاحشاً » وقد رواه ابن جرير عن ابن لهيعة به ولفظه : « الناس لآدم وحواء طف الصاع لم يملوه . إن الله لا يسألكم عن أحسابكم ولا عن أنسابكم يوم القيامة ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم » . وليس هو في شيء من الكتب الستة من هذا الوجه (حديث آخر) روى الإمام أحمد عن درة بنت أبي لهب رضي الله عنها قالت : قام رجل إلى النبي ﷺ وهو على المنبر فقال : يا رسول الله ، أي الناس خير ؟ قال ﷺ « خير الناس أقراهم وأتقاهم لله عز وجل ، وآمرهم بالمعروف وأنهاهم عن المنكر وأوصلهم للرحم » (حديث آخر) روى الإمام أحمد عن عائشة رضي الله عنها قالت : ما أعجب رسول الله ﷺ شيء من الدنيا ولا أعجبه أحد قط إلا ذو تقى . تفرد به أحمد) .

وبمناسبة الآية المذكورة قال النسفي : (الشعب الطبقة الأولى من الطبقات الست التي عليها العرب : وهي الشعب ، والقبيلة ، والعمارة ، والبطن ، والفخذ ، والفصيلة . فالشعب يجمع القبائل ، والقبيلة تجمع العمائر ، والعمارة تجمع البطون ، والبطن تجمع الأفخاذ ، والفخذ تجمع الفصائل . خزيمة الشعب ، وكنانة قبيلة ، وقريش عمارة ،

وقصي بطن ، وهاشم فخذ ، والعباس فصيلة ، وسميت الشعوب ؛ لأن القبائل تشعبت منها) .

وبمناسبة هذه الآية أقول : لقد حددت الآية الحكمة من خلق الله عز وجل الناس شعوباً وقبائل بأنها التعارف ، وهذا يقرر واقعاً أن هناك شعوباً وقبائل ، ويلغي أن يكون لشعب فضل عند الله بسبب كونه شعب كذا أو قبيلة كذا ، وإنما الفضل عند الله ميزانه التقوى ، فالناس يتفاوتون عند الله بقدر تفاوتهم في تقواهم ، ولا تنفي الآية أن يكون لشعب ميزة أو خصائص ، ولكن هذه الميزة والخصائص بسبب من استعداد هذا الشعب للتقوى ، والتزامه بها ، فالله عز وجل قال عن بني إسرائيل ﴿ **ولقد اخترناهم على علم على العالمين** ﴾ (الدخان : ٣٢) أي : على عالمي زمانهم ؛ وذلك بسبب استعدادهم الأعلى في زمانهم للتقوى ، وبسبب من كونهم أكثر الناس التزاماً بما أنزل عليهم في زمانهم ، والله عز وجل اختار العرب - وقريش من العرب - لحمل رسالته الأخيرة الخاتمة بسبب استعدادهم الأعلى لذلك ، فشرّفهم بالرسالة فقال تعالى : ﴿ **وإنه لذكر لك ولقومك** ﴾ (الزخرف : ٤٤) وبسبب علمه تعالى أنهم أكثر الناس التزاماً بهذه الرسالة ، وقدرة على حملها ، ومن ثم حذّرهم في حال توليهم أنّه سيستبدل لحمل رسالته غيرهم ﴿ **وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم** ﴾ (محمد : ٣٨) وبهذه المناسبة نحب أن نسجل بعض المعاني التي لها علاقة بحكمة اختيار العرب لحمل الرسالة ، وحكمة اختصاص قريش بين العرب بالخلافة .

إن الشعب العربي يملك طاقة نفسية هائلة ، هذه الطاقة النفسية الهائلة إن أحسن تهذيبها وتوجيهها فعلت الكثير ، وإلا كانت أداة دمار وتدمير ، تحطم بعضها . فهي تشبه ماء السيل إن أحسن حبسه ووضعه وراء السدود أمكن الاستفادة منه ، وإلا كان أداة دمار ، هذه الطاقة النفسية الضخمة عند العرب التي لم يهذبها إلا الإسلام ، وعندما هذّبها فعلت ما فعلت . قد تكون هذه الطاقة النفسية الهائلة فيها سر اختيار الله للعرب لحمل رسالته ، وقد تكون الحكمة في جانب آخر ، فكل الشعوب عندها استعداد للتفاعل مع الإسلام ، ولكن قد يكون العرب ساعة نزول القرآن عليهم هم أكثر الشعوب استعداداً للتفاعل الكامل الأعلى بكل جانب من جوانب الإسلام ، فاختارهم الله لرسالته لعلمه بذلك ﴿ **الله أعلم حيث يجعل رسالته** ﴾ (الأنعام : ١٢٤) وقريش هي أكثر العرب استعداداً لحمل هذا الدين والتفاعل معه ؛ ومن ثم نلاحظ أن أرقى الخلق في الإسلام بعد رسول الله ﷺ كانوا من قريش : أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وأبو عبيدة

وعبد الرحمن بن عوف وسعيد بن زيد وطلحة والزبير ... وقد يكون لهذا المعنى جعل الله الخلافة في قريش ؛ لأن القرشي يمتلك من الخصائص ما يجعله أكثر الخلق استعداداً لحمل هذا الدين وفهمه والتفاعل معه ، ولكن هذا شيء ، والفخر والاستعلاء على الخلق واحتقارهم وازدراءهم شيء آخر .

والخلاصة : أن الكرامة عند الله بالتقوى ، وعليها مدار التفاضل بين الأفراد والشعوب ، وقد يصطفي الله تعالى فرداً أو شعباً لحكمة مرتبطة بالتقوى ، وذلك شرف لأصحابه ، وعلى الآخرين أن يعترفوا به ، دون أن يترتب على ذلك فخر دنيوي أو كبر قلبي ، وهذا شيء وأن الشعوب والقبائل وجدت كذلك لتتعارف شيء آخر .

١٦ – بمناسبة قوله تعالى ﴿ **قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم** ﴾ قال ابن كثير : (وقد استفيد من هذه الآية الكريمة أن الإيمان أخص من الإسلام كما هو مذهب أهل السنة والجماعة ، ويدل عليه حديث جبريل عليه الصلاة والسلام حين سأل عن الإسلام ، ثم عن الإيمان ، ثم عن الإحسان ، فترقى من الأعم إلى الأخص ، ثم للأخص منه . وروى الإمام أحمد عن عامر بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه رضي الله عنهما قال أعطى رسول الله ﷺ رجالاً ولم يعط رجلاً منهم شيئاً ، فقال سعد رضي الله عنه : يا رسول الله أعطيت فلاناً وفلاناً ولم تعط فلاناً شيئاً وهو مؤمن فقال ﷺ : « أو مسلم » . حتى أعادها سعد رضي الله عنه ثلاثاً والنبي ﷺ يقول : « أو مسلم ؟ » ثم قال النبي ﷺ : « إني لأعطي رجالاً وأدع من هو أحب إليّ منهم فلم أعطه شيئاً مخافة أن يكبوا في النار على وجوههم » أخرجاه في الصحيحين من حديث الزهري به . فقد فرق النبي ﷺ بين المؤمن والمسلم ، فدل على أن الإيمان أخص من الإسلام . ودل ذلك على أن ذاك الرجل كان مسلماً ليس منافقاً ؛ لأنه تركه من العطاء ووكله إلى ماهو فيه من الإسلام ، فدل هذا على أن هؤلاء الأعراب المذكورين في هذه الآية ليسوا بمنافقين ، وإنما هم مسلمون لم يستحكم الإيمان في قلوبهم فادعوا لأنفسهم مقاماً أعلى مما وصلوا إليه ، فأدبوا في ذلك ، وهذا معنى قول ابن عباس رضي الله عنهما وإبراهيم النخعي وقتادة واختاره ابن جرير) .

وبمناسبة هذه الآية نقول : إن الإسلام الكامل هو الإيمان الكامل ولا فرق ، لأن الإيمان الكامل يدخل فيه تصديق القلب وتصديق الجوارح بالعمل ، والإسلام الكامل يدخل فيه إسلام القلب لله بالإيمان وإسلام الجوارح بالعمل ، ومن ثم نلاحظ أن قوله

تعالى في سورة الذاريات ﴿ **فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين** ﴾ (الآية : ٣٠ ، ٣١) قد جعل الإيمان هو عين الإسلام . أما إذا أريد بالإسلام عمل الجوارح ، وبالإيمان تصديق القلب ، فعندئذ يكون الإسلام شيئاً والإيمان شيئاً آخر ، كما ورد في حديث جبريل .. قال «أخْبرني عن الإسلام ؟ فقال رسول الله ﷺ : الإسلام أن تَشهد أن لا إله إلا الله وأن محمّداً رسول الله ، وتقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً ... قال فأخْبرني عن الإيمان قال : أن تؤمن بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر خيره وشرّه .. » ففي هذا الحديث الإسلام شيء والإيمان شيء آخر ، وإن كان بينهما ارتباط في الواقع والحقيقة ، وآية الحجرات أشارت إلى هذا التمايز بين الإسلام والإيمان ، وبينت في الوقت نفسه أن الطريق إلى الإيمان القلبي هو عمل الجوارح ، إذ قالت ﴿ **ولما يدخل الإيمان في قلوبكم** ﴾ وهذا أصل كبير في التربية الإسلامية ؛ فالقلب البشري يموت أو تسيطر عليه الغفلة ، وطريق إحيائه العمل بالإسلام من ذكر وقراءة قرآن ، وصلاة وإنفاق وصوم وحج ، وغير ذلك من أعمال الإسلام ، وبذلك ينتقل القلب من طور إلى طور آخر ، حتى يصل إلى الإيمان الكامل ، وإذا تأملت هذا الحديث تصل إلى هذه النتيجة : « القلوب أربعة : قلب أجرد فيه مثل السراج يزهر ، وقلب أغلف مربوط عليه غلافه ، وقلب منكوس ، وقلب مصفح ، فأما القلب الأجرد فقلب المؤمن ، وأما القلب المنكوس فقلب المنافق ، عرف ثمّ أنكر ، وأما القلب المصفح فقلب فيه إيمان ونفاق ، فمثل الإيمان فيه كمثل البقلة يمدها الماء الطيب ، ومثل النفاق كمثل القرحة يمدها القيح والدّم ، فأي المدتين غلبت على الأخرى غلبت عليه » أخرجه أحمد وجودّ إسناده ابن كثير . إذا أدركت هذه المعاني كلها تدرك معنى قوله تعالى ﴿ **ولما يدخل الإيمان في قلوبكم** ﴾ فالإيمان لم يدخل بعد وهو على وشك الدخول إذا استمر العمل بالإسلام .

١٧ ــ بمناسبة قوله تعالى ﴿ **إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون** ﴾ قال ابن كثير (وروى الإمام أحمد .. عن أبي سعيد رضي الله عنه قال : إن النبي ﷺ قال : « المؤمنون في الدنيا على ثلاثة أجزاء : الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله ، والذي يأمنه الناس على أموالهم وأنفسهم ، والذي إذا أشرف على طمع تركه لله عز وجل) .

١٨ – بمناسبة قوله تعالى ﴿ **يمنون عليك أن أسلموا قل لا تمنُّوا عليَّ إسلامكم** ﴾ قال ابن كثير : (روى الحافظ أبو بكر البزار عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : جاءت بنو أسد إلى رسول الله ﷺ فقالوا يا رسول الله أسلمنا وقاتلتك العرب ولم نقاتلك ، فقال رسول الله ﷺ : «إن فقههم قليل ، وإن الشيطان ينطق على ألسنتهم» ونزلت هذه الآية ﴿ **يمنّون عليك أن أسلموا قل لا تمنوا عليّ إسلامكم بل الله يمنّ عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين** ﴾ ثم قال : لا نعلمه يروى إلا من هذا الوجه ، ولا نعلم روى أبو عون محمد بن عبيد الله عن سعيد ابن جبير غير هذا الحديث .

كلمة أخيرة حول سورة الحجرات :

سورة الحجرات سورة الآداب الإسلامية ، فقد وجهت المسلم نحو مجموعة كبيرة من الآداب : ١ – عدم التقدم بين يدي الكتاب والسنة برأي أو قول أو فعل. ٢ – خفض الصوت عند رسول الله ﷺ . ٣ – معاملة الرسول ﷺ بكمال الأدب ، وعدم رفع حجاب الكلفة معه . ٤ – عدم نداء رسول الله ﷺ إن كان في بيته وانتظاره حتى يخرج . ٥ – امتحان خبر الفاسق وعدم التسرع في البناء عليه . ٦ – عدم فرض الرأي على رسول الله ﷺ . ٧ – الإصلاح بين المؤمنين . ٨ – رد الباغي عن ظلمه ولو بالقتال إن أصر على الظلم . ٩ – العدل في الإصلاح . ١٠ – إعطاء المؤمنين الإخاء . ١١ – ترك السخرية بأهل الإيمان . ١٢ – ترك طعن أهل الإيمان . ١٣ – ترك التنابز بالألقاب . ١٤ – اجتناب الظن السيء بأهل الخير بدون مبرر . ١٥ – ترك التجسس وخاصة على أهل الحق لأهل الباطل. ١٦ – ترك الغيبة الكامل. ١٧ – ترك التفاخر في الأحساب والأنساب والقوميات . ١٨ – النهي عن ادعاء الإيمان . ١٩ – الصدق مع الله بتحقيق الإيمان وإقامة الجهاد . ٢٠ – عدم المن بالدخول في الإسلام، ورؤية المن لله ورسوله ﷺ في ذلك .

فالسورة التي عرضت هذه الآداب كلها هي سورة الآداب ، ومن ثم فإن دراستها ودراسة حيثيات هذه الآداب مهمة جداً .

ومن الملاحظات الرئيسية التي نلاحظها في سورة الحجرات أنها علّمتنا أصول التعامل في دوائر ثلاث : دائرة التعامل مع القيادة العليا للمسلمين متمثلة في رسول الله ﷺ ،

ودائرة التعامل مع أبناء هذه الأمة المسلمة ، ودائرة التعامل مع البشرية كلها ، كما أنها حددت في الوقت نفسه للقيادة جوانب ينبغي أن تلتزمها ، ولاشك أن هذه الدروس دروس ينبغي أن تلتزم وتطبق في كل عصر ، فيأخذ ورّاث النبوة حظّهم من التطبيق ، ويأخذ المؤمنون حظهم من التطبيق في التأدب مع رسول الله ﷺ : مع شخصه ، ومع سنته ، وفي الكلام عنه ، ومع وراثه عليه الصلاة والسلام ، كما يأخذ المؤمنون حظهم من التطبيق في التعامل مع بعضهم بعضاً .

إن هذا القرآن الذي دلّ الإنسان على طريق الهدى دلّه من جملة ما دله على الطريق الذي يكون به المسلم هو الإنسان الأعلى في هذا الوجود ، تطلعات وأخلاقاً وقيماً ومبادىء وأهدافاً ، وكما ربّاه على الكمال في الأخلاق الفردية ، ربّاه على الكمال في الأخلاق الجماعية ، بحيث يكون عضواً كاملاً في أمة كاملة ، كما ربّىٰ هذه الأمة على الكمال في كل شيء ، وعندما نجد في عصرنا روح الفردية عند بعض المسلمين عاتية ، وعندما نرى عجز بعض المسلمين عن التعامل مع بعضهم الآخر ، وعندما نرى تطلعات المسلم قاصرة وأهدافه غامضة ، وتفاعله مع الإسلام جزئياً ، وعندما لا نرى المسلمين جميعاً أمة واحدة تتحرك حركة واحدة ، وتتجه اتجاهاً واحداً ، عندما لا نرى هذا كله ندرك البعد الكبير بين ما كلّفنا به وبين واقعنا .

وقد حاولنا خلال عرضنا للسورة أن نذكر وحدتها ، وأن نذكر صلتها بما قبلها ، وأن نبيّن الروابط التي تربطها مع محورها . وقد يكون من المناسب قبل الانتقال إلى سورة (قاف) أن نعيد إلى الأذهان بعض مظاهر الارتباط ، بين سورة الحجرات وسورة الفتح ، لنبقى متذكرين الصلات الخاصة التي تربط بين سور هذه المجموعة .

إننا لا نبالغ إذا قلنا إن سورة الحجرات قد ذكرت الطريق العملي لتحقيق المعاني الواردة في سورة الفتح ، فقد ورد في سورة الفتح ﴿ **محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم** ﴾ (الآية : ٢٩) وسورة الحجرات توجه المؤمنين في الطريق لتحقيق ذلك ، فتنهاهم عن الغيبة والتجسس ، واللمز والتنابز بالألقاب ، لأن هذه المعاني كلها تتنافىٰ مع التراحم . وسورة الفتح تعرضت لقصة الحديبية التي حدث فيها نوع من الاعتراض الصامت على رسول الله ﷺ لتوقيعه الصلح ، وتأتي سورة

الحجرات لتقول في بدايتها ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تقدّموا بين يدي الله ورسوله** ... ﴾ وسورة الفتح تعرضت لموضوع توقير رسول الله ﷺ ، وتأتي سورة الحجرات لتنهى عن رفع الصوت ﴿ **لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي** ... ﴾ وسورة الفتح بشَّرت بانتصار عالمي للإسلام ، وهذا يقتضي أن تكون قضية الإخاء الإسلامي واضحة ، وقضية الصلة بين الشعوب واضحة ، ومن ثم نجد في سورة الحجرات ﴿ **إنما المؤمنون أخوة** ... ﴾ ونجد ﴿ **يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا** ... ﴾ وسورة الفتح بيّنت أن الجهاد والمشاركة فيه ميزان من موازين الإيمان ، وتأتي سورة الحجرات لتعرّف الإيمان ، وتذكر الجهاد كجزء منه ﴿ **إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون** ﴾ وفيما ذكرناه كفاية لتوضيح هذه القضية ، ونخرج من ذلك بوضوح كامل لموضوع تكامل سور المجموعة الواحدة ، ولموضوع أن كل مجموعة تفصّل في سورة البقرة إنما تضيف معاني جديدة .

☆ ☆ ☆

سورة ق

وهي السورة الخمسون بحسب الرسم القرآني
وهي السورة السادسة من المجموعة الخامسة من قسم
المثاني ، وآياتها خمس وأربعون آية
وهي مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وآله وأصحابه

ربنا تقبل منا، إنك أنت السميع العليم

كلمة في سورة (قٓ) ومحورها :

يرجّح ابن كثير أن قسم المفصّل يبدأ بسورة (قٓ) ويفند كل قول آخر ، وهذا كلامه : (هذه السورة هي أول الحزب المفصّل على الصحيح ، وقيل من الحجرات . وأما ما يقوله العوام إنه من (عمّ) فلا أصل له ، ولم يقله أحد من العلماء رضي الله عنهم المعتبرين فيما نعلم . والدليل على أن هذه السورة هي أول المفصّل مارواه أبو داود في سننه (باب تحزيب القرآن) ثم قال : قال عبد الله بن سعيد : حدثنيه أوس بن حذيفة ثم اتفقا قال : قدمنا على رسول الله ﷺ في وفد ثقيف قال : فنزلت الأحلاف على المغيرة بن شعبة رضي الله عنه وأنزل رسول الله ﷺ بني مالك في قبة له قال مسدد – وكان في الوفد الذين قدموا على رسول الله ﷺ من ثقيف – قال : كان رسول الله ﷺ كل ليلة يأتينا بعد العشاء يحدثنا قال أبو سعيد : قائما على رجليه حتى يراوح بين رجليه من طول القيام فأكثر ما يحدثنا ﷺ ما لقي من قومه قريش، ثم يقول ﷺ « لا أساء وكنا مستضعفين مستذلين » قال مسدد بمكة « فلما خرجنا إلى المدينة كانت الحرب سجالاً بيننا وبينهم ، ندال عليهم ويدالون علينا » فلما كانت ليلة أبطأ عنا ﷺ عن الوقت الذي كان يأتينا فيه فقلنا : لقد أبطأت علينا الليلة قال ﷺ : « إنه طرأ علي حزبي من القرآن فكرهت أن أجيء حتى أتمه » قال أوس : سألت أصحاب رسول الله ﷺ كيف يحزّبون القرآن فقالوا : ثلاث وخمس، وسبع، وتسع، وإحدى عشرة، وثلاث عشرة ، وحزب المفصّل وحده ، ورواه ابن ماجه عن أبي بكر بن أبي شيبة ورواه الإمام أحمد ، إذا علم هذا فإذا عددت ثمانياً وأربعين سورة فالتي بعدها سورة ق . بيانه : (ثلاث) البقرة وآل عمران والنساء (وخمس) المائدة والأنعام والأعراف والأنفال وبراءة (وسبع) يونس وهود ويوسف والرعد وإبراهيم والحجر والنحل (وتسع) سبحان والكهف ومريم وطه والأنبياء والحج والمؤمنون والنور والفرقان (وأحد عشرة) الشعراء والنمل والقصص والعنكبوت والروم ولقمان والٓمٓ السجدة والأحزاب وسبأ وفاطر ويس (وثلاث عشرة) الصافات وصٓ والزمر وغافر وحمٓ السجدة وحمٓ عسق والزخرف والدخان والجاثية والأحقاف والقتال والفتح والحجرات ، ثم بعد ذلك الحزب المفصّل كما قاله الصحابة رضي الله عنهم ، فتعيّن أن أوله سورة ق، وهو الذي قلناه ولله الحمد والمنّة) .

أقول : الذي أذهب إليه في هذا الموضوع أن سورة الذاريات هي بداية قسم

المفصّل ، وأن سورة (ق) ينتهي بها قسم المثاني ، والذي دعاني إلى هذا القول استقرائي لمعاني القرآن وأسلوبه ، فقد رأينا في سورة الصافات أنها كانت بداية لمجموعة ، وهي مبدوءة بقسم مباشر ﴿ **والصافات** ﴾ فهي تشبه سورة ﴿ **والذاريات** ﴾ ومن ثم قلنا : إن سورة الذاريات بداية مجموعة ، وبداية قسم ، وسنرى في المفصّل بشكل واضح أنه حيث جاء القسم بشكل مباشر فذلك علامة على بداية مجموعة ﴿ **لا أقسم بيوم القيامة** ﴾ ﴿ **والمرسلات عرفاً** ... ﴾ ﴿ **والنازعات غرقاً** ... ﴾ ﴿ **والسماء**... ﴾ ﴿ **والفجر** ... ﴾ ﴿ **والتين** ... ﴾ ﴿ **والعصر** ... ﴾ فهذا أول شيء دعانا إلى اعتبار الذاريات هي بداية قسم المفصّل ، ثم لاحظنا من قبل أن سورة الشورى مبدوءة بقوله تعالى ﴿ **حمٓ عٓسٓقٓ** ﴾ مما يشير إلى أن سورة (قٓ) مشدودة إلى هذا القسم الذي فيه سورة الشورى ، فهي ألصق بقسم المثاني ، وهذا معنى ثان دعانا إلى هذا القول وهو أنّ سورة (قٓ) هي نهاية قسم المثاني ، وليست بداية قسم المفصّل . ومن كلام العرب (قلت لها قفي فقالت قاف) أي وقفت فعبّر بالحرف عن الكلمة ، وهذا البيت مشهور عند العرب ، والوقوف يتضمن معنى نهاية السير ، ولا نستبعد أن يكون ختم قسم المثاني بحرف (قاف) يتضمن إشارة إلى أن سورة (قٓ) نهاية سير قسم المثاني ، وهذا معنى آخر نستأنس به على أن سورة(قٓ)نهاية قسم ، وقد ذكر ابن كثير أن أحد الأقوال الضعيفة في(قٓ)أنه إشارة إلى كلمة وهو قول مردود ، ولذلك فقد استأنست به استئناساً قال ابن كثير : (وقيل المراد قضي الأمر والله، وأن قوله جل ثناؤه ﴿ **قٓ** ﴾ دلت على المحذوف من بقية الكلمة كقول الشاعر * قلت لها قفي فقالت ق * وفي هذا التفسير نظر لأن الحذف في الكلام إنما يكون إذا دل دليل عليه ، ومن أين يفهم هذا من ذكر هذا الحرف ؟) . وقد استأنست استئناساً بأصل الفكرة أن يكون في الحرف قاف إشارة إلى معنى الوقوف ، خاصة والعرب استعملته في ذلك . وأهم من كل ما ذكرته في الاستدلال على أن سورة (قٓ) هي نهاية قسم المثاني، وليست بداية قسم المفصّل هو معناها ومحلها وصلتها بما قبلها ، وتفصيلها لمحور يأتي في أعماق سورة البقرة بينما تفصّل سورة الذاريات في مقدمة سورة البقرة بشكل واضح كما سنرى ، مما يؤكد أن سورة الذاريات بداية قسم ، وأن سورة (قٓ) نهاية قسم .

فإذا اتضحت هذه المعاني وعرفنا كما ذكرنا من قبل وكما سنذكر في ابتداء الكلام عن المفصّل أنّ القضية اجتهادية ، بدليل كثرة الأقوال فيها ، مما يشير إلى أن ما ورد في الموضوع ليس حاسماً فإن ما ذهبنا إليه له وجهه ، مع ملاحظة أن الدليل الوحيد الذي

ذكره ابن كثير يمكن أن يوجّه لصالح ما ذهبنا إليه ، فمن المعلوم أن عثمان رضي الله عنه لم يذكر هو والصحابة الذين نسخوا المصحف (بسم الله الرحمن الرحيم) بين سورة الأنفال وسورة براءة لمظنة أنهما سورة واحدة ، وقد رأينا في أول التفسير ما ذكره ابن كثير في تفسير السبع الطوال عن سعيد بن جبير قال : (هي السبع الطوال البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنعام والأعراف ويونس) فلم يذكر هنا الأنفال ولا براءة مع أن براءة أطول من سورة يونس ، كل ذلك يجعلنا نتصوّر أن الأثر الذي استدل به ابن كثير في الاستشهاد على أن سورة (قٓ) بداية قسم المفصّل يمكن أن يكون لصالحنا ، فإذا اعتبرنا أن سورة الأنفال وبراءة في تقييم بعض الصحابة سورة واحدة فهذا يعني أن سورة (قٓ) هي نهاية قسم المثاني ، وأن سورة الذاريات هي بداية قسم المفصّل . إن ابن كثير جعل الأنفال وبراءة سورتين ، وجعل سورة يونس في ورد اليوم الثالث ، فاحتمال أن تكون سورة يونس من ورد اليوم الثاني ، وبراءة والأنفال سورة واحدة احتمال قائم ، وهو لصالح ما اجتهدنا إليه ، هذا ونحب أن نلفت نظر القارىء إلى أن ذكر أسماء السور في اليوم الأول والثاني والثالث .... هو من فعل ابن كثير وليس مذكوراً في نص الأثر ، فالأثر اكتفى بالقول : ثلاث وخمس وسبع ، فلمّا فصّلها ابن كثير خرجت معه سورة (قٓ) على أنها بداية المفصّل ، أما إذا نظرنا إلى واقع الأمر في عصر الصحابة من احتمال بعضهم كون الأنفال وبراءة سورة واحدة ، ومن عدم عدّ بعضهم الأنفال وبراءة في السبع الطِولَ ، فكل ذلك يجعلنا نقول إن الأثر يحتمل أن يكون لصالح قولنا ، فإذا أضفنا إلى هذه المعاني التي استأنسنا بها لقولنا فإن الراجح أن يكون قولنا هو الصحيح ، والله أعلم .

وهذا قول أضيفه إلى مجموعة أقوال في قضية خلافية ، وفي ظني أن له وجهه الأقوى ، وليس هناك نص عن الصحابة أنّ بداية المفصّل هو الحجرات أو قاف ، وإنما المنقول عنهم هو ما ذكرناه ، وهو محتمل لما ذهبنا إليه ، ولما ذهب إليه ابن كثير ، وهو ليس نصاً في الموضوع ، وإلا لقطع الخلاف ، والخلاف لم ينقطع من قبل .

....

إن سورة (قٓ) وهي خاتمة قسم المثاني تجد فيها من كل مجموعة من مجموعات قسم المثاني روحاً ونفساً وأثراً وصلات وروابط وهذه أمثلة :

– جاء في سورة سبأ من المجموعة الأولى من قسم المثاني قوله تعالى : ﴿ **إن في ذلك**

وإلينا المصير ﴾ .

....

وسنرى أثناء عرضنا للسورة صلاتها بمحورها . ولننقل ههنا بعض ما قالوه فيها : قال الألوسي في تقديمه لهذه السورة : (وهي مكية وأطلق الجمهور ذلك ، وفي التحرير عن ابن عباس وقتادة أنها مكية إلا قوله تعالى : ﴿ **ولقد خلقنا السموٰات والأرض** ﴾ الآية فهي مدنية نزلت في اليهود ، وآيها خمس وأربعون بالإجماع ، ولما أشار سبحانه في آخر السورة السابقة إلى أن إيمان أولئك الأعراب لم يكن إيماناً حقاً ، ويتضمن ذلك إنكار النبوة وإنكار البعث ؛ افتتح عز وجل هذه السورة بما يتعلق بذلك ، وكان ﷺ كثيراً ما يقرؤها في صلاة الفجر كما في حديث مسلم وغيره عن جابر بن سمرة ، وفي رواية ابن ماجه وغيره عن قطبة بن مالك أنه عليه الصلاة والسلام كان يقرؤها في الركعة الأولى من صلاة الفجر . وأخرج أحمد ، ومسلم ، وأبو داود ، وابن ماجه ، والترمذي ، والنسائي عن أبي واقد الليثي أنه ﷺ كان يقرأ في العيد بقاف واقتربت ، وأخرج أبو داود ، والبيهقي ، وابن ماجه ، وابن أبي شيبة عن أم هشام ابنة حارثة قالت : « ماأخذت ﴿ **قٓ والقرآن المجيد** ﴾ إلا من فيّ رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، كان يقرأ بها في كل جمعة على المنبر إذا خطب الناس » وفي حديث ابن مردويه عن أبي العلاء رضي الله تعالى عنه مرفوعاً « تعلموا قٓ والقرآن المجيد » وكل ذلك يدل على أنها من أعظم السور) .

وقال صاحب الظلال في تقديمه لسورة (قاف) : (كان رسول الله - ﷺ - يخطب بهذه السورة في العيد والجمعة ــ فيجعلها هي موضوع خطبته ومادتها ــ وفي الجماعات الحافلة .. وإن لها لشأنا .. إنها سورة .. ، شديدة الوقع بحقائقها ، شديدة الإيقاع ببنائها التعبيري ، وصورها وظلالها وجرس فواصلها . تأخذ على النفس أقطارها ، وتلاحقها في خطراتها وحركاتها ، وتتعقبها في سرها وجهرها ، وفي باطنها وظاهرها . تتعقبها برقابة الله ، التي لا تدعها لحظة واحدة من المولد ، إلى الممات ، إلى البعث ، إلى الحشر ، إلى الحساب . وهي رقابة شديدة دقيقة رهيبة . تطبق على هذا المخلوق الإنساني الضعيف إطباقاً كاملاً شاملاً . فهو في القبضة التي لا تغفل عنه أبداً ، ولا تغفل من أمره دقيقاً ولا جليلاً ، ولا تفارقه كثيراً ولا قليلاً . كل نَفَس معدود . وكل هاجسة معلومة . وكل لفظ مكتوب . وكل حركة محسوبة . والرقابة الكاملة

الرهيبة مضروبة على وساوس القلب ، كما هي مضروبة على حركة الجوارح . ولا حجاب ولا ستار دون هذه الرقابة النافذة ، المطلعة على السر والنجوى اطلاعها على العمل والحركة . في كل وقت وفي كل حال . وكل هذه حقائق معلومة . ولكنها تعرض في الأسلوب الذي يبديها وكأنها جديدة ، تروع الحس روعة المفاجأة ، وتهز النفس هزاً ، وترجها رجاً ، وتثير فيها رعشة الخوف ، وروعة الإعجاب ، ورجفة الصحو من الغفلة على الأمر المهول الرهيب ! وذلك كله إلى صور الحياة ؛ وصور الموت ، وصور البلى ، وصور البعث ، وصور الحشر . وإلى إرهاص الساعة في النفس وتوقعها في الحس . وإلى الحقائق الكونية المتجلية في السماء والأرض ، وفي الماء والنبت ، وفي الثمر والطلع .. ﴿ **تبصرة وذكرى لكل عبد منيب** ﴾ .. وإنه ليصعب في مثل هذه السورة التلخيص والتعريف ، وحكاية الحقائق والمعاني والصور والظلال ، في غير أسلوبها القرآني الذي وردت فيه ؛ وفي غير عبارتها القرآنية التي تشع بذاتها تلك الحقائق والمعاني والصور والظلال ، إشعاعاً مباشرا للحس والضمير) .

....

وبعد فإن السورة تتألف من مقدمة وثلاث فقرات : المقدمة تعرض علينا موقفاً للكافرين ، والفقرات الثلاث تردّ على هذا الموقف :

....

أما المقدمة فهي قوله تعالى : ﴿ **قٓ والقرآن المجيد * بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم فقال الكافرون هذا شيء عجيب * أئذا متنا وكنا تراباً ذلك رجع بعيد** ﴾ ثم تأتي فقرات ثلاث : الأولى منها مبدوءة بكلمة (قد) والأخريان مبدوءتان بكلمة (ولقد) وكل من الفقرات الثلاث يرد على موقف الكافرين الذي ذكرته المقدمة : ﴿ **قد علمنا ما تنقص الأرض منهم** ﴾ (الآية : ٤) ﴿ **ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه** ﴾ (الآية : ١٦) ﴿ **ولقد خلقنا السموٰت والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسّنا من لغوب** ﴾ (الآية : ٣٨) .

....

ولنبدأ عرض السورة .

مقدمة السورة

وتمتدّ من الآية (١) إلى نهاية الآية (٣) وهذه هي مع البسملة :

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ﴿١﴾ بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ﴿٣﴾

التفسير :

﴿ **قٓ** ﴾ قال ابن كثير : حرف من أحرف الهجاء المذكورة في أوئل السورة كقوله تعالى ﴿ **صٓ** ﴾ و ﴿ **نٓ** ﴾ و ﴿ **الٓمٓ** ﴾ و ﴿ **حمٓ** ﴾ و ﴿ **طسٓ** ﴾ ونحو ذلك قاله مجاهد وغيره ﴿ **والقرآن المجيد** ﴾ أي : الكريم العظيم ، قال النسفي : والمجيد ذو المجد والشرف على غيره من الكتب ، ومن أحاط علماً بمعانيه وعمل بما فيه مجد عند الله وعند الناس . قال ابن كثير : واختلفوا في جواب القسم ما هو ؟ فحكى ابن جرير عن بعض النحاة أنه قوله تعالى : ﴿ **قد علمنا ما تنقص الأرض منهم وعندنا كتاب حفيظ** ﴾ وفي هذا نظر ، بل الجواب هو مضمون الكلام بعد القسم ، وهو إثبات النبوة ، وإثبات المعاد ، وتقريره وتحقيقه ، وهذا كثير في أقسام القرآن كما تقدم في قوله ﴿ **صٓ والقرآن ذي الذكر * بل الذين كفروا في عزّة وشقاق** ﴾ وهكذا قال ههنا ﴿ **ق والقرآن المجيد * بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم فقال الكافرون هذا شيء عجيب** ﴾ . ﴿ **بل عجبوا** ﴾ أي : بل عجب الكافرون ﴿ **أن جاءهم منذر منهم** ﴾ قال ابن كثير : أي تعجّبوا من إرسال رسول إليهم من البشر وقال النسفي : (أي : محمد ﷺ) وفي النّص كما قال النسفي : إنكار لتعجبهم مما ليس بعجب وهو أن ينذرهم بالخوف رجل منهم قد عرفوا عدالته وأمانته، ومن كان كذلك لم يكن إلا ناصحاً لقومه، خائفاً أن ينالهم مكروه ، وإذا علم أن مخوفاً أظلهم لزمه أن ينذرهم فكيف بما هو غاية المخاوف ؟ ثم بيّن تعالى محل عجبهم بقوله ﴿ **فقال الكافرون هذا شيء عجيب * أئذا متنا وكنا تراباً** ﴾ هذا إخبار من الله عز وجل عن تعجبهم من المعاد ، واستبعادهم لوقوعه، يقولون : أئذا

متنا وبلينا وتقطّعت الأوصال منا، وصرنا تراباً، كيف يمكن الرجوع بعد ذلك إلى هذه البنية والتركيب؟! ﴿ **ذلك رجع بعيد** ﴾ أي: مستبعد مستنكر، أي: بعيد من الوهم والعادة وقال ابن كثير: أي بعيد الوقوع، والمعنى أنهم يعتقدون استحالته وعدم إمكانه.

كلمة في السياق:

١ - جاءت مقدمة السورة لتعرض علينا موقف الكافرين من النذير ومن البعث وستأتي بقية السورة في فقراتها الثلاث لتردّ على ذلك.

٢ - قلنا إن محور السورة هو قوله تعالى: ﴿ **لله ما في السموٰات وما في الأرض وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله على كل شيء قدير** ﴾ (الآية: ٢٨٤) هذه الآية تذكر الحساب وهو ما أنذر به الله عز وجل عباده بواسطة رسوله، وقد ذكرت مقدمة سورة (قاف) تعجّب الكافرين من إرسال النذير، ومن نذارته بالبعث، فالصلة بين المحور وبين مقدمة السورة قائمة، وسنرى أن الردود على عجب الكافرين تنصب على إثبات صفة القدرة لله عز وجل للوصول إلى أن الله عز وجل لا يعجزه أن يبعث عباده، ولهذا صلته بقوله تعالى في المحور ﴿ **والله على كل شيء قدير** ﴾.

☆ ☆ ☆

الفقرة الأولى في السورة وتتضمنّ الردّ الأول

وتمتدّ من الآية (٤) إلى نهاية الآية (١٥) وهذه هي:

قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَـٰبٌ حَفِيظٌۢ ﴿٤﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ
لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴿٥﴾ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَـٰهَا
وَزَيَّنَّـٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَـٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ

وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ﴿٧﴾ تَبۡصِرَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ ﴿٨﴾ وَنَزَّلۡنَا مِنَ
ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ مُّبَٰرَكٗا فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ جَنَّٰتٖ وَحَبَّ ٱلۡحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخۡلَ بَاسِقَٰتٖ
لَّهَا طَلۡعٞ نَّضِيدٞ ﴿١٠﴾ رِّزۡقٗا لِّلۡعِبَادِۖ وَأَحۡيَيۡنَا بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗاۚ كَذَٰلِكَ ٱلۡخُرُوجُ ﴿١١﴾
كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَأَصۡحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٞ وَفِرۡعَوۡنُ وَإِخۡوَٰنُ
لُوطٖ ﴿١٣﴾ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡأَيۡكَةِ وَقَوۡمُ تُبَّعٖۚ كُلّٞ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾
أَفَعَيِينَا بِٱلۡخَلۡقِ ٱلۡأَوَّلِۚ بَلۡ هُمۡ فِي لَبۡسٖ مِّنۡ خَلۡقٖ جَدِيدٖ ﴿١٥﴾

التفسير :

﴿ **قد علمنا ما تنقص الأرض منهم** ﴾ قال ابن كثير : (أي ما تأكل من أجسادهم في البلى نعلم ذلك ، ولا يخفى علينا أين تفرّقت الأبدان وأين ذهبت وإلى أين صارت) أقول : وليس المراد بالأرض هنا التربة فقط ؛ بل الأرض بمجموعها جواً وسطحاً ، فإن الميت إذا تحلّل فللتراب منه حظّ ، وللهواء منه حظ ، وكل ذلك أرض ، فعندما يقال : الأرض يعني الأرض بجملتها ، ويدخل في الأرض بجملتها غلافها الجوي ، قال النسفي : (هذا ردّ لاستبعادهم الرجع ؛ لأن من لطف علمه حتى علم ما تنقص الأرض من أجساد الموتى ، وتأكله من لحومهم وعظامهم كان قادراً على رجعهم أحياءً كما كانوا) ﴿ **وعندنا كتاب حفيظ** ﴾ قال ابن كثير : (أي حافظ لذلك ، فالعلم شامل ، والكتاب أيضاً فيه كل الأشياء مضبوطة) . والمراد بذلك اللوح المحفوظ فإنه حافظ لما أودعه وكتب فيه ، ومن كان هذا علمه وهذا كتابه فكيف يتعجّب من قدرته على بعث الإنسان وإن صار تراباً . ﴿ **بل كذبوا بالحق لما جاءهم** ﴾ دلّت كلمة (بل) هنا كما قال النسفي : (على أنهم جاؤوا بما هو أفظع من تعجبهم ، وهو التكذيب بالحق الذي هو النبوّة الثابتة بالمعجزات في أول وهلة من غير تفكر ولا تدبر ، وقيل الحق القرآن وقيل الإخبار بالبعث) أقول : وعلى أي فإنّ العلة الرئيسية التي تتفرع عنها العلل كلها هي المسارعة في تكذيب الحق قال تعالى ﴿ **فهم في أمر مريج** ﴾ أي : مضطرب مختلف

ملتبس ، قال ابن كثير : (أي وهذا حال كل من خرج عن الحق مهما قال بعد ذلك فَهو باطل) أقول : وقد دلّت الآية على أن الله عز وجل يعاقب المكذبين بالحق بجعلهم في اضطراب يشمل المواقف والآراء والفرد والجماعة ، فهو عقاب تلقائي آني دنيوي ينزل بالمكذبين بالحق .

....

﴿ **أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيّناها** ﴾ قال ابن كثير : يقول تعالى منبهاً على قدرته العظيمة التي أظهر بها ما هو أعظم مما تعجبوا مستبعدين لوقوعه : ﴿ **أفلم ينظروا ...** ﴾ وقال النسفي : (دلّهم على قدرته على البعث فقال ﴿ **أفلم ينظروا** ﴾ حين كفروا بالبعث ﴿ **إلى السماء فوقهم** ﴾ إلى آثار قدرة الله تعالى في خلق العالم ﴿ **كيف بنيناها** ﴾ رفعناها بغير عمد ﴿ **وزيّناها** ﴾ بالنيّرات ﴿ **وما لها من فروج** ﴾ من فتوق وشقوق أي : إنها سليمة من العيوب لا فتق فيها ولا صدع ولا خلل) . ثم قال تعالى ﴿ **والأرض مددناها** ﴾ قال ابن كثير : وسّعناها وفرشناها وقال النسفي : أي دحوناها ﴿ **وألقينا فيها رواسي** ﴾ قال ابن كثير : (وهي الجبال لئلا تميد وتضطرب) ﴿ **وأنبتنا فيها من كل زوج** ﴾ أي : صنف ﴿ **بهيج** ﴾ أي : حسن المنظر يبتهج به لحسنه ، أي من جميع الزروع والثمار والنبات والأنواع ﴿ **تبصرة وذكرى** ﴾ أي : لتبصروا به وتتذكروا ﴿ **لكل عبد منيب** ﴾ أي : راجع إلى ربه متفكّر في بدائع خلقه ، قال ابن كثير : أي ومشاهدة خلق السمٰوات والأرض ، وما جعل الله فيهما من الآيات العظيمة تبصرة ودلالة وذكرى لكل عبد منيب ، أي : خاضع خائف وجل رجّاع إلى الله عز وجل .

كلمة في السياق :

رأينا من كلام النسفي ومن كلام ابن كثير أن هذه الفقرة لفتت النظر إلى قدرة الله ، لتدلل من خلال ذلك على أن استبعاد البعث من قِبَل الكافرين في غير محله ، فإن الله عز وجل الذي هذه آثار قدرته لا يعجزه ما استبعد الكافرون وقوعه وهو البعث ، وقد بيّنت الآيات أن هذه المظاهر إنما تبصّر وتذكّر من اجتمع له صفتان : العبودية لله ، والإنابة إلى الله ، فهؤلاء هم الذين يرون في ذلك ما يستدلون به استدلالاً صحيحاً على ما بعث به الرسل من حق ، وعلى ما أنذروا به من حساب .

﴿ **ونزّلنا من السماء** ﴾أي : من السحاب ﴿ **ماءً مباركاً** ﴾ قال ابن كثير : أي نافعاً ، وقال النسفي : أي كثير المنافع ﴿ **فأنبتنا به** ﴾ أي : بهذا المطر ﴿**جنات**﴾ أي : حدائق من بساتين ونحوها ﴿ **وحبّ الحصيد** ﴾ قال ابن كثير : وهو الزروع الذي يراد لحبه وادّخاره ، قال النسفي : أي وحبّ الزرع ممّا شأنه أن يحصد كالحنطة والشعير وغيرهما ﴿ **والنخل باسقات** ﴾ أي : طوالاً شاهقات ﴿ **لها طلع نضيد** ﴾ أي : منضود أي بعضه فوق بعض لكثرة الطلع وتراكمه ، أو لكثرة ما فيه من الثمر ، والطلع : هو كل ما يطلع من ثمر النخيل ﴿ **رزقاً للعباد** ﴾ أي : للخلق أي أنبتنا هذا كله بالمطر رزقاً للعباد ﴿ **وأحيينا به** ﴾ أي : بذلك الماء ﴿ **بلدة ميتاً** ﴾ أي : قد جف نباتها ﴿ **كذلك الخروج** ﴾ أي : كما حييت هذه البلدة الميتة كذلك تخرجون أحياءً بعد موتكم ، لأن إحياء الأموات كإحياء الموات ، قال ابن كثير : (هذا مثال البعث بعد الموت والهلاك كذلك يحيي الله الموتى ، وهذا شاهد من عظيم قدرته بالحس أعظم مما أنكره الجاحدون للبعث) .

....

أكملت هذه الآيات إقامة الحجة ، إذ عرضت نماذج على قدرة الله ، ثمّ صبّ ذلك كله في التدليل على البعث ، ثمّ عاد السياق عن التكذيب : فلقد ذكرت السورة من قبل : ﴿ **بل كذّبوا بالحق لما جاءهم** ﴾ وهاهي ذي السّورة تحدّثنا عن أن تكذيبهم ليس بدعاً ﴿ **كذبت قبلهم** ﴾ أي : قبل الكافرين المكذّبين لرسول الله ﷺ محمد ﴿ **قوم نوح وأصحاب الرسّ** ﴾ قال النسفي : (هو بئر لم تطو ، وهم قوم باليمامة ...) أي بنجد وفي القصيم من نجد بلدة اسمها الرس فقد تكون هي ﴿ **وثمود وعاد وفرعون** ﴾ وقومه ﴿ **وإخوان لوط** ﴾ وهم أمته الذين بعث إليهم من أهل سدوم ومعاملتها من الغور ، وكيف خسف الله تعالى بهم الأرض ، وأحال أرضهم بحيرة منتنة خبيثة بكفرهم وطغيانهم ، ومخالفتهم الحق ﴿ **وأصحاب الأيكة** ﴾ قال ابن كثير : وهم قوم شعيب عليه الصلاة والسلام ﴿ **وقوم تُبّع** ﴾ قال النسفي : هو ملك باليمن أسلم ودعا قومه إلى الإسلام فكذبوه ، وسمي به لكثرة تبعه قال ابن كثير : وهو اليماني وقد ذكرنا من شأنه في سورة الدخان ما أغنىٰ من إعادته ههنا ولله الحمد والشكر ﴿ **كلٌّ كذّب الرسل** ﴾ قال ابن كثير : أي كل من هذه الأمم وهؤلاء القرون كذّبوا رسولهم ، ومن كذّب رسولاً فكأنما كذّب جميع الرسل ﴿ **فحق وعيد** ﴾ أي : وجب وحلّ وعيدي . وهذا فيه تسلية

لرسول الله ﷺ وتهديد لهم . قال ابن كثير : أي فحقّ عليهم ما أوعدهم الله تعالى على التكذيب من العذاب والنكال ، فليحذر المخاطبون أن يصيبهم ماأصابهم ، فإنهم قد كذبوا رسولهم كما كذّب أولئك .

....

جاءت هذه الآيات تنذر المكذبين الذين كذّبوا بالحق لما جاءهم أن يصيبهم ما أصاب أشباههم ونظراءهم وأمثالهم من المكذبين قبلهم من النقمات والعذاب الأليم في الدنيا ، فبعد إقامة الحجة جاء الإنذار والوعظ ، وقد بقيت عندنا آية واحدة من الفقرة تصبّ على موضوع البعث بشكل مباشر . وإنما ذكر التكذيب بالحق كله في بداية الفقرة ، لأنه الأصل الذي انبثق عنه ذاك الفرع الخبيث ، وهو استبعاد اليوم الآخر . فلنر خاتمة الفقرة التي تنهي الردّ الأول على المكذبين بالحق والمكذبين باليوم الآخر :

....

﴿ **أفعيينا بالخلق الأول** ﴾ قال ابن كثير : أي أفأعجزنا ابتداء الخلق حتى هم في شك عن الإعادة ، قال النسفي : والهمزة للإنكار ، أي إنا لم نعجز عن الخلق الأول فكيف نعجز عن الثاني ؟ والاعتراف بذلك اعتراف بالإعادة ﴿ **بل هم في لبس** ﴾ أي : خلط وشبهة ﴿ **من خلق جديد** ﴾ بعد الموت . قال النسفي : قد لبّس عليهم الشيطان وحيّرهم ، وذلك تسويله إليهم أن إحياء الموتى أمر خارج عن العادة ، فتركوا لذلك الاستدلال الصحيح ، وهو أن من قدر على الإنشاء كان على الإعادة أقدر . قال ابن كثير : وقد تقدم في الصحيح : « يقول الله تعالى : يؤذيني ابن آدم يقول : لن يعيدني كما بدأني وليس أول الخلق بأهون عليَّ من إعادته » .

....

كلمة في السياق :

١ ــ سجّلت مقدّمة السورة تعجّب الكافرين من مجيء النذير ، ومن نذارته بالبعث ، ثمّ جاء ردّ سريع على استبعاد البعث بقوله تعالى : ﴿ **قد علمنا ما تنقص الأرض منهم وعندنا كتاب حفيظ** ﴾ ثمّ ذكرت الفقرة أن علّة مواقفهم الأولى هي تكذيبهم بالحق ، ثمّ لفتت نظرهم إلى ما به تقوم الحجة عليهم بالبعث ، ثمّ بينت أن

تكذيبهم ليس بدعاً في تاريخ البشر ، ثمّ أقامت عليهم الحجة بالإنشاء الأول . فالصلات بين الفقرة الأولى والمقدمة صلات كبيرة وواضحة .

٢ - ثمّ إن الصلات بين الفقرة الأولى على أشدها : فالآية الثانية في الفقرة هي ﴿ **بل كذّبوا بالحق لما جاءهم** ﴾ والآية الأخيرة في الفقرة ﴿ **بل هم في لبس من خلق جديد** ... ﴾ .

٣ - لاحظ كذلك الصلة بين قوله تعالى : ﴿ **بل كذّبوا بالحق لما جاءهم** ﴾ وبين قوله تعالى : ﴿ **كذبت قبلهم قوم نوح** ... ﴾ .

٤ - قلنا إن محور سورة (ق) هو : ﴿ **لله ما في السموٰات وما في الأرض وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله على كل شيء قدير** ﴾ هذه الآية تذكر أنّ ثمّة حساباً ، وأن الله قادر عليه وعلى غيره ، وقد جاءت الفقرة الأولى لتدلل على الأصل وهو مجيء اليوم الآخر ، وتدلل على قدرة الله عليه وعلى غيره ، لتوصلنا إلى الفقرة الثانية التي تحدّثنا عن خلق الإنسان ، وعن علم الله بوساوس نفسه ، ثمّ لتحدثنا عن رحلة الإنسان حتى يدخل أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار . فالفقرة الثانية تصب في تفصيل المحور مع بقائها مشدودة لسياق السورة الخاص في كونها إحدى فقرات ثلاث تردّ على موقف للكافرين ، سجلته مقدّمة سورة (قٓ) .

☆ ☆ ☆

الفقرة الثانية

وتمتد من الآية (١٦) إلى نهاية الآية (٣٧) وهذه هي :

وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ
ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن
قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ
مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ
مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ

فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾ وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَـٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾ أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ
كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ
فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾ قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَـٰكِن كَانَ فِى ضَلَـٰلٍۭ
بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ
ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ
هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَـٰذَا مَا تُوعَدُونَ
لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَـٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾
ٱدْخُلُوهَا بِسَلَـٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾
وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ
﴿٣٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾

التفسير :

﴿ **ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه** ﴾ الوسوسة الصوت الخفي ، ووسوسة النفس ما يخطر ببال الإنسان ويهجس في ضميره من حديث النفس . قال ابن كثير : (يخبر تعالى عن قدرته على الإنسان بأنه خالقه ، وعلمه محيط بجميع أموره ، حتى إنه تعالى يعلم ما توسوس به نفوس بني آدم من الخير والشر) . ﴿ **ونحن أقرب إليه من حبل الوريد** ﴾ الحبل : العرق ، والوريد : عرق في باطن العنق . ﴿ **إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد** ﴾ أي : عن اليمين قعيد ، وعن الشمال قعيد . قال ابن كثير : أي مترصد ، والمتلقيان هما الملكان اللذان يكتبان أعمال الإنسان . قال النسفي : (والمعنى : إنه لطيف يتوصل علمه إلى خطرات النفس ولا شيء أخفى منه ،

وهو أقرب من الإنسان من كل قريب حين يتلقى الحفيظان ما يتلفظ به، إيذاناً بأن استحفاظ الملكين أمر هو غني عنه، وكيف لا يستغني عنه وهو مطلع على أخفى الخفيات ، وإنما ذلك لحكمة، وهو مافي كتبة الملكين وحفظهما ، وعرض صحائف العمل يوم القيامة من زيادة لطف له في الانتهاء عن السيئات والرغبة في الحسنات) ﴿ **ما يلفظ من قول** ﴾ أي : ما يتكلم به وما يرمي به من فمه ﴿ **إلا لديه رقيب** ﴾ أي : حافظ ﴿ **عتيد** ﴾ حاضر ، وهذا وصف لكل من الملكين ، وليس كما فهم بعضهم أن اسم الواحد منهم رقيب ، والثاني عتيد . قال النسفي : (ثم قيل يكتبان كل شيء حتى أنينه في مرضه ، وقيل لا يكتبان إلا ما فيه أجر أو وزر) ورجّح ابن كثير الأول ثم قال النسفي : (وقيل إن الملكين لا يجتنبانه إلا عند الغائط والجماع) أقول : ولكنهما يعلمان حتى في حالة مفارقته ما يقول ويفعل ويكتبانه، ولنا عودة على هذا في الفوائد ﴿ **وجاءت سكرة الموت** ﴾ أي : شدته الذاهبة بالعقل ﴿ **بالحق** ﴾ أي : بحقيقة الأمر أو بالحكمة أو باليقين ﴿ **ذلك** ﴾ أي : الموت ﴿ **ما كنت منه** ﴾ أيها الإنسان ﴿ **تحيد** ﴾ أي : تنفر وتهرب، والمعنى : وجاءت - أيها الإنسان - سكرة الموت بالحق، أي كشفت لك عن اليقين الذي كنت تمتري فيه ، وهذا هو الذي كنت تفرّ منه ، قال ابن كثير : (واختلف المفسرون في المخاطب .. فالصحيح أن المخاطب بذلك الإنسان من حيث هو ، وقيل الكافر ، وقيل غير ذلك) قال النسفي في الآية : لما ذكر إنكارهم البعث واحتج عليهم بقدرته وعلمه، أعلمهم أن ما أنكروه هم لاقُوه عن قريب عند موتهم وعند قيام الساعة ، ونبّه على اقتراب ذلك بأنْ عبّر عنه بلفظ الماضي وهو قوله ﴿ **وجاءت سكرة الموت** ... ﴾ ﴿ **ونفخ في الصور** ﴾ قال النسفي : يعني نفخة البعث ﴿ **ذلك يوم الوعيد** ﴾ أي : وقت ذلك النفخ يوم الوعيد الذي أوعده الله عز وجل خلقه وحذّرهم إياه ﴿ **وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد** ﴾ قال ابن كثير : أي ملك يسوقه إلى المحشر ، وملك يشهد عليه بأعماله ، هذا هو الظاهر من الآية ، وهو اختيار ابن جرير ﴿ **لقد كنت في غفلة من هذا** ﴾ النازل بك اليوم ، أي : يقال له ذلك ﴿ **فكشفنا عنك غطاءك** ﴾ أي : فأزلنا غفلتك بما تشاهده ﴿ **فبصرك اليوم حديد** ﴾ أي : قوي. قال ابن كثير : لأن كل أحد يوم القيامة يكون مستبصراً حتى الكفار في الدنيا يكونون يوم القيامة على الاستقامة ، لكن لا ينفعهم ذلك، وقال النسفي : (جعلت الغفلة كأنها غطاء غطي به جسده كله، أو غشاوة غطى بها عينيه فهو لا يبصر شيئاً، فإذا كان يوم القيامة تيقظ وزالت عنه الغفلة وغطاؤها ، فيبصر ما لم

يبصره من الحق ، ورجع بصره الكليل عن الإبصار لغفلته حديداً لتيقظه) واختلف المفسرون بالمراد في الآية على ثلاثة أقوال ، رجّح ابن كثير أن المراد بذلك كل أحد من بر وفاجر؛ لأن الآخرة بالنسبة إلى الدنيا كاليقظة ، والدنيا كالمنام ، وهذا اختيار ابن جرير . قال ابن كثير : الخطاب مع الإنسان من حيث هو ﴿ **وقال قرينه** ﴾ قال النسفي : الجمهور على أنه الملك الكاتب الشهيد عليه ، وقال ابن كثير : (يقول تعالى مخبراً عن الملك الموكل بعمل ابن آدم أنه يشهد عليه يوم القيامة بما فعل ويقول : ﴿ **هذا ما لديّ عتيد** ﴾ أي : معد محضر بلا زيادة أو نقصان) والمراد بذلك ديوان الأعمال . قال ابن كثير : فعند ذلك يحكم الله في الخليقة بالعدل فيقول ﴿ **ألقيا في جهنم كل كفار** ﴾ بالنعم والمنعم ﴿ **عنيد** ﴾ أي : معاند مجانب للحق معاد لأهله ، معارض له بالباطل ﴿ **منّاع للخير** ﴾ أي : كثير المنع للمال عن حقوقه ، أو منّاع لجنس الخير أن يصل إلى أهله ، أي : لا يؤدي ما عليه من الحقوق ولا برّ فيه ولا صلة ولا صدقة ﴿ **معتد** ﴾ أي : ظالم متخطٍ للحق ﴿ **مريب** ﴾ أي : شاكّ في الله ، وفي دينه ﴿ **الذي جعل مع الله إلهاً آخر** ﴾ أي : أشرك بالله فعبد معه غيره ﴿ **فألقياه في العذاب الشديد** ﴾ أي : في نار جهنم، والخطاب في قوله تعالى ﴿ **ألقيا** ﴾ في أول الآيات الثلاث و ﴿ **فألقياه** ﴾ في آخرها للملكين السائق والشهيد . قال ابن كثير : والظاهر أنها مخاطبة مع السائق والشهيد فالسائق أحضره إلى عرضة الحساب ، فلمّا أدى الشهيد عليه أمرهما الله تعالى بإلقائه في نار جهنم ، وبئس المصير ﴿ **قال قرينه** ﴾ القرين هنا هو الشيطان الذي وكّل به قولاً واحداً ﴿ **ربنا ما أطغيته ولكن كان في ضلال بعيد** ﴾ أي : ما أوقعته في الطغيان ، ولكنه طغى واختار الضلالة على الهدى . قال ابن كثير : أي بل كان هو في نفسه ضالاً قابلاً للباطل معانداً للحق ﴿ **قال** ﴾ الله عز وجل ﴿ **لا تختصموا لديّ** ﴾ قال ابن كثير : يقول الله عز وجل (هذا) للإنسي وقرينه من الجن ، وذلك أنهما يختصمان بين يدي الحق تعالى فيقول الإنسي : يا رب هذا أضلني عن الذكر بعد إذ جاءني ، ويقول الشيطان : ربنا ما أطغيته ولكن كان في ضلال بعيد عن منهج الحق ، فيقول الرب عز وجل لهما : ﴿ **لا تختصموا لديَّ** ﴾ أي : عندي ﴿ **وقد قدّمت إليكم بالوعيد** ﴾ أي : قد أعذرت إليكم على ألسنة الرسل وأنزلت الكتب ، وقامت عليكم الحجج والبينات والبراهين . قال النسفي : أي لاتختصموا في دار الجزاء وموقف الحساب فلا فائدة في اختصامكم ، ولا طائل تحته ، وقد أوعداكم بعذابي على الطغيان في كتبي وعلى ألسنة رسلي ، فما تركت لكم حجة عليّ ﴿ **ما يبدّل القول**

لديّ ﴾ أي : لا تطمعوا أن أُبدّل قولي ووعيدي بإدخال الكفار في النار ﴿ **وما أنا بظلَّام للعبيد** ﴾ فلا أعذب عبداً بغير ذنب قال ابن كثير : أي لست أعذب أحداً بذنب أحد ، ولكن لاأعذّب أحداً إلا بذنبه بعد قيام الحجة عليه ﴿**يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد**﴾ قال ابن كثير : (يخبر تعالى أنه يقول لجهنم يوم القيامة هل امتلأت ، وذلك لأنه تبارك وتعالى وعدها أن سيملؤها من الجِنَّة والناس أجمعين ، فهو سبحانه وتعالى يأمر بمن يأمر به إليها ، ويلقى وهي تقول : هل من مزيد ؟ أي هل بقي شيء تزيدوني ؟ هذا الظاهر من سياق الآية وعليه تدل الأحاديث) . قال النسفي : وهذا على تحقيق القول من جهنم ، وهو غير مستنكر كإنطاق الجوارح ، والسؤال لتوبيخ الكفرة ، لعلمه تعالى بأنها امتلأت أم لا ﴿**وأزلفت**﴾ أي : أدنيت وقربّت ﴿ **الجنة للمتقين غير بعيد** ﴾ قال النسفي : أي مكاناً غير بعيد ﴿ **هذا ما توعدون لكل أوّاب** ﴾ أي : رجّاع تائب مفلح ﴿ **حفيظ** ﴾ أي : حافظ لحدود الله ، أو حفيظ لعهده مع الله قال ابن كثير : أي يحفظ العهد فلا ينقصه ولا ينكثه ﴿ **من خشي الرحمن بالغيب** ﴾ قال ابن كثير : أي من خاف الله في سرّه حيث لا يراه أحد إلا الله عز وجل ، كقوله ﷺ « ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه » ﴿ **وجاء بقلب منيب** ﴾ . قال ابن كثير : أي ولقي الله عز وجل يوم القيامة بقلب منيب سليم إليه ، خاضع لديه . وقال النسفي : أي راجع إلى الله ، وقيل بسريرة مَرضيّة ، وعقيدة صحيحة . ﴿ **ادْخلوها** ﴾ أي : الجنة ﴿ **بسلام** ﴾ أي : سالمين من زوال النعم وحلول النقم . قال قتادة : سلموا من عذاب الله عز وجل ، وسلّم عليهم ملائكة الله ﴿ **ذلك يوم الخلود** ﴾ أي : يخلدون في الجنة فلا يموتون أبداً ، ولا يظعنون أبداً ، ولا يبغون حولاً ﴿ **لهم ما يشاؤون فيها** ﴾ أي : مهما اختاروا وجدوا من أي أصناف الملاذ طلبوا أحضر لهم ﴿ **ولدينا مزيد** ﴾ على ما يشتهون . قال النسفي : والجمهور على أنه رؤية الله تعالى بلا كيف .

....

وبعد هذه الجولة في مشاهد اليوم الآخر يعود السياق لينذر بعذاب الله في الدنيا .

﴿ **وكم أهلكنا قبلهم** ﴾ أي : قبل المكذبين من هذه الأمة ﴿ **من قرن** ﴾ من القرون الذين كذّبوا الرسل ﴿ **هم أشدُّ منهم بطشاً** ﴾ أي : كانوا أكثر منهم وأشدّ قوة فهم أشد من هؤلاء قوة وسطوة ﴿ **فنقّبوا في البلاد** ﴾ أي : فبسبب من قوتهم نقّبوا في

البلاد ، أي ضربوا في الأرض وساروا في البلاد، يبتغون الأرزاق والمتاجر والمكاسب أكثر مما طفتم بها ﴿ **هل من محيص** ﴾ أي : هل من مهرب من الله ، أو الموت . قال ابن كثير : (أي هل من مفر كان لهم من قضاء الله وقدره، وهل نفعهم ما جمعوه ، وردّ عنهم عذاب الله إذ جاءهم لمّا كذبوا الرسل ، فأنتم أيضاً لا مفر لكم ولا محيد ولا مناص ولا محيص إذا أراد الله أن يعذبكم) .

وبعد أن ذكّر الله عز وجل الإنسان بما أمامه يوم القيامة ، وأنذره بطشه في الدنيا تأتي الآن آية تختتم بها الفقرة ، تبيّن أنّ هذه المواعظ والمذكّرات لا يستفيد منها إلا أحد اثنين : صاحب قلب حي ، أو إنسان متأمّل يصغي إليها ويتدبّرها .

....

﴿ **إن في ذلك** ﴾ أي : المذكور في هذه الفقرة ﴿ **لذكرى** ﴾ أي : لعبرة أي : تذكرة وموعظة ﴿ **لمن كان له قلب** ﴾ أي : واع ؛ لأنه من لا يعي قلبه فكأنه لا قلب به ، أو قلب حي ؛ لأن القلب الميت لا يسمع عن الله ﴿ **أو ألقى السمع وهو شهيد** ﴾ أي : أو أصغى وهو حاضر الذهن ؛ لأن من لا يحضر ذهنه فكأنه غائب ، وبهذا انتهت الفقرة الثانية :

كلمة في السياق :

١ - جاءت الفقرة الأولى فذكّرت بعلم الله وقدرته وانتقامه ﴿ **قد علمنا ما تنقص الأرض منهم** ﴾ ﴿ **أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم** ... ﴾ ﴿ **كذبت قبلهم ... كل كذّب الرسل فحق وعيد** ﴾ وجاءت الفقرة الثانية فذكّرت بعلم الله وقدرته وانتقامه : ﴿ **ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه** ﴾ ﴿ **وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أشدّ منهم بطشاً** ... ﴾ وكل ذلك في سياق الردّ على الكافرين في إنكارهم البعث والنذير .

٢ - قلنا إن محور السورة هو قوله تعالى : ﴿ **لله ما في السموٰات وما في الأرض وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء ويعذّب من يشاء والله على كل شيء قدير** ﴾ وقد جاءت الفقرة الثانية فذكّرتنا بعلم الله بما في الأنفس ، وعرضت علينا صورة عن الحشر والنشر والحساب ومن يربح ومن يخسر .

٣ – سبقت آية المحور بآيات الديْن والربا وآيات الإنفاق ، وقد تحدّثت الفقرة التي مرّت معنا عن الذين يمنعون الخير ﴿ **منّاع للخير معتد مريب** ﴾ .

٤ – وقد جاء بعد آية المحور قوله تعالى : ﴿ **آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرّق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير** ﴾ وقد بينت الفقرة من يستحق النجاح ﴿ **هذا ما توعدون لكل أوّاب حفيظ * من خشي الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب** ﴾ ولذلك صلاته بالآية الآتية بعد المحور ، والسورة بمجموعها تتحدّث عن الله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، ولننتقل إلى عرض الفقرة الثالثة .

☆ ☆ ☆

الفقرة الثالثة

وتمتدّ من الآية (٣٨) إلى نهاية الآية (٤٥) وهي خاتمة السورة ، وهذه هي :

وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾
فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ
﴿٣٩﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴿٤٠﴾ وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ
قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْىِۦ
وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا
يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ
وَعِيدِ ﴿٤٥﴾

التفسير :

﴿ **ولقد خلقنا السموٰات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مَسَّنا من لغوب** ﴾

أي : من إعياء ولا تعب ولا نصَب ، لا كما قال اليهود عليهم لعنة الله أنه استراح في اليوم السابع ، وهو موضوع سنعرض له في الفوائد قال ابن كثير : (فيه تقرير للمعاد ، لأن من قدر على خلق السموٰات والأرض ولم يعي بخلقهن قادر على أن يحيي الموتى بطريق الأولى والأخرى) ﴿ **فاصبر على ما يقولون** ﴾ قال النسفي : أي على ما يقول اليهود ويأتون به من الكفر والتشبيه ، أو على ما يقول المشركون في أمر البعث ، فإن من قدر على خلق العالم قدر على بعثهم والانتقام منهم ﴿ **وسبّح بحمد ربك** ﴾ أي : وسبّح حامداً ربك ﴿ **قبل طلوع الشمس** ﴾ الفجر ﴿ **وقبل الغروب** ﴾ الظهر والعصر ﴿ **ومن الليل فسبّحه** ﴾ العشاء ، أو التهجد ﴿ **وأدبار السجود** ﴾ التسبيح في آثار الصلوات ﴿ **واستمع** ﴾ أي : لماأخبرك به من حال يوم القيامة ﴿ **يوم ينادِ المناد** ﴾ أي : إسرافيل ﴿ **من مكان قريب يوم يسمعون الصيحة** ﴾ أي : النفخة الثانية ﴿ **بالحق** ﴾ قال ابن كثير : يعني النفخة في الصور التي تأتي بالحق الذي كان أكثرهم فيه يمترون ﴿ **ذلك يوم الخروج** ﴾ من القبور والأجداث ومن حيث هم .

....

أقامت هذه الآيات الحجة وأمرت الرسول ﷺ والمؤمنين بالصبر ، والصلاة ، والتسبيح في أدبار الصلوات ، وتذكر اليوم الآخر ، ثمّ تأتي بعد ذلك ثلاث آيات تلخص، وتعظ ، وتأمر بالبلاغ ، وتحدّد من يستفيد من البلاغ .

﴿ **إنا نحن نحيي ونميت** ﴾ أي : نحيي الخلق ونميتهم في الدنيا ﴿ **وإلينا المصير** ﴾ أي : مصيرهم ﴿ **يوم تشقّق الأرض عنهم** ﴾ أي : تتصدّع الأرض فتخرج الموتى ﴿ **سراعاً** ﴾ أي : مسرعين ﴿ **ذلك حشر علينا يسير** ﴾ أي : هيّن سهل قال ابن كثير : أي تلك إعادة سهلة علينا يسيرة لدينا ﴿ **نحن أعلم بما يقولون** ﴾ أي : فيك وفينا ، تهديد لهم وتسلية لرسول الله ﷺ. قال ابن كثير : أي نحن علمنا محيط بما يقول لك المشركون من التكذيب فلا يهولنّك ذلك ﴿ **وما أنت عليهم بجبار** ﴾ أي : وما أنت بمجبرهم على الإيمان ، إنما أنت مبلّغ ، ولنا عودة على هذا ﴿ **فذكّر بالقرآن من يخاف وعيد** ﴾ قال ابن كثير : أي بلّغ أنت رسالة ربك، فإنما يتذكر من يخاف الله ووعيده ، ويرجو وعده . وقال النسفي : كقوله ﴿ **إنما أنت منذر من يخشاها** ﴾ لأنه لا ينفع (أي : التذكير) إلا فيه .

كلمة في السياق :

١ - قلنا إن محور السورة هو قوله تعالى : ﴿ **لله ما في السموٰات وما في الأرض وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله على كل شيء قدير** ﴾ وقد جاءت هذه الفقرة لتذكّرنا بالله وبمظاهر قدرته ﴿ **ولقد خلقنا السموٰات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسَّنا من لغوب** ﴾ ﴿ **إنا نحن نحيي ونميت وإلينا المصير** ﴾ .

٢ - تختتم الآية التالية لآية المحور بقوله تعالى : ﴿ **وإليك المصير** ﴾ وقد قرّرت هذه الفقرة أن المصير إلى الله ﴿ **وإلينا المصير** ﴾ وهذا وذلك من مظاهر ارتباط الفقرة بمحور السورة .

٣ - أقامت هذه الفقرة الحجة على منكري البعث ، وعلى الكافرين بالحق ، ورسمت الطريق لرسول الله ﷺ ولأهل الإيمان أن يصبروا ، وأن يعبدوا ، وأن يبلّغوا .

فوائد :

١ - لابن كثير تحليقات رفيعة في ردّ الأقوال الباطلة ذات الأصول الغريبة ، ومن ذلك رده اللطيف على من زعم أن المراد بـ (قٓ) جبل اسمه قاف محيط بالعالم ، وهو كلام باطل عجيب ، إذ واضح لكل متأمل أن قاف حرف كبقية الأحرف التي ابتدأت بها سور قرآنية . قال ابن كثير : (وقد روي عن بعض السلف أنهم قالوا (قٓ) جبل محيط بجميع الأرض يقال له جبل قاف ، وكأن هذا - والله أعلم - من خرافات بني إسرائيل التي أخذها عنهم بعض الناس لما رأى من جواز الرواية عنهم مما لا يصدق ولا يكذب ، وعندي أن هذا وأمثاله وأشباهه من اختلاق بعض زنادقتهم يلبسون به على الناس أمر دينهم ، كما افتريت في هذه الأمة ــ مع جلالة قدر علمائها وحفاظها وأئمتها ــ أحاديث عن النبي ﷺ ، وما بالعهد من قدم ، فكيف بأمة بني إسرائيل مع طول المدى وقلة الحفاظ النقاد فيهم ، وشربهم الخمور ، وتحريف علمائهم الكلم عن مواضعه ، وتبديل كتب الله وآياته ، وإنما أباح الشارع الرواية عنهم في قوله « وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج » فيما قد يجوزه العقل ، فأما فيما تحيله العقول ، ويحكم فيه بالبطلان ، ويغلب على الظنون كذبه ، فليس من هذا القبيل والله أعلم . وقد أكثر كثير من السلف من

المفسرين، وكذا طائفة كثيرة من الخلف من الحكاية عن كتب أهل الكتاب في تفسير القرآن المجيد ، وليس بهم احتياج إلى أخبارهم ولله الحمد والمنة) .

٢ - بمناسبة قوله تعالى ﴿ **ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه** ﴾ قال ابن كثير : (وقد ثبت في الصحيح عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم أنه قال « إن الله تعالى تجاوز لأمتي ما حدّثت به أنفسها ما لم تقل أو تعمل » .

٣ - بمناسبة قوله تعالى ﴿ **ونحن أقرب إليه من حبل الوريد** ﴾ قال ابن كثير : (وقوله عز وجل ﴿ **ونحن أقرب إليه من حبل الوريد** ﴾ يعني : ملائكته تعالى أقرب إلى الإنسان من حبل وريده إليه ، ومن تأوله على العلم فإنما فر لئلا يلزم حلول أو اتحاد ، وهما منفيان بالإجماع تعالى الله وتقدّس ، ولكن اللفظ لا يقتضيه ، فإنه لم يقل وأنا أقرب إليه من حبل الوريد ، وإنما قال ﴿ **ونحن أقرب إليه من حبل الوريد** ﴾ كما قال في المحتضر ﴿ **ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون** ﴾ يعني : ملائكته ، وكما قال تبارك وتعالى ﴿ **إنا نحن نزّلنا الذكر وإنا له لحافظون** ﴾ فالملائكة نزلت بالذكر وهو القرآن بإذن الله عز وجل ، وكذلك الملائكة أقرب إلى الإنسان من حبل وريده إليه باقتدار الله جل وعلا لهم على ذلك ، فللملك لمة من الإنسان كما أن للشيطان لمة ، وكذلك الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم ، كما أخبر بذلك الصادق المصدوق ؛ ولهذا قال تعالى ههنا ﴿ **إذ يتلقى المتلقيان** ﴾ يعني : الملكين اللذين يكتبان عمل الإنسان ﴿ **عن اليمين وعن الشمال قعيد** ﴾ .

٤ - بمناسبة قوله تعالى ﴿ **ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد** ﴾ قال ابن كثير : (وقد اختلف العلماء هل يكتب الملك كل شيء من الكلام . وهو قول الحسن وقتادة ، أو إنما يكتب ما فيه ثواب وعقاب . كما هو قول ابن عباس رضي الله عنهما . على قولين ، وظاهر الآية : الأول لعموم قوله تبارك وتعالى ﴿ **مايلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد** ﴾ وروى الإمام أحمد عن بلال بن الحارث المزني رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله تعالى ما يظن أن تبلغ ما بلغت ، يكتب الله عز وجل له بها رضوانه إلى يوم يلقاه ، وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله تعالى ما يظن أن تبلغ ما بلغت، يكتب الله تعالى عليه بها سخطه إلى يوم يلقاه » فكان علقمة يقول : كم من كلام قد منعنيه حديث بلال بن الحارث، ورواه الترمذي والنسائي وابن ماجه، وقال الترمذي : حسن صحيح وله شاهد في الصحيح ،

وقال الأحنف بن قيس : صاحب اليمين يكتب الخير وهو أمين على صاحب الشمال ، فإن أصاب العبد خطيئة قال له : أمسك ، فإن استغفر الله تعالى نهاه أن يكتبها ، وإن أبى كتبها . رواه ابن أبي حاتم . وقال الحسن البصري وتلا هذه الآية ﴿ **عن اليمين وعن الشمال قعيد** ﴾ : يا ابن آدم بسطت لك صحيفة ، ووكل بك ملكان كريمان ، أحدهما عن يمينك والآخر عن شمالك ، فأما الذي عن يمينك فيحفظ حسناتك ، وأما الذي عن يسارك فيحفظ سيئاتك ، فاعمل ما شئت ، أقلل أو أكثر ، حتى إذا ما مت طويت صحيفتك وجُعلت في عنقك معك في قبرك ، حتى تخرج يوم القيامة فعند ذلك يقول تعالى ﴿ **وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً * اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا** ﴾ ثم يقول : عَدَل والله فيك من جعلك حسيب نفسك ، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ **ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد** ﴾ قال : يكتب كل ما تكلم به من خير أو شر ، حتى إنه ليكتب قوله : أكلت شربت ذهبت جئت رأيت حتى إذا كان يوم الخميس عرض قوله وعمله ، فأقر منه ما كان فيه من خير أو شر ، وألقى سائره ، وذلك قوله تعالى ﴿ **يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب** ﴾ وذكر عن الإمام أحمد أنه كان يئن في مرضه فبلغه عن طاووس أنه قال : يكتب الملك كل شيء حتى الأنين ، فلم يئن أحمد حتى مات رحمه الله) .

٥ - بمناسبة قوله تعالى ﴿ **وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد** ﴾ قال ابن كثير : (وقد روى الطبراني في المعجم الكبير عن الحسن عن سمرة قال : قال رسول الله ﷺ « مثل الذي يفر من الموت مثل الثعلب تطلبه الأرض بديْن فجاء يسعى حتى إذا أعيا وأسهر دخل جحره ، وقالت له الأرض يا ثعلب ديْني ، فخرج وله حصاص فلم يزل كذلك حتى تقطعت عنقه ومات » ومضمون هذا المثل كما لا انفكاك له ولا محيد عن الأرض كذلك الإنسان لا محيد له عن الموت) .

٦ - بمناسبة قوله تعالى ﴿ **ألقيا في جهنم كل كفار عنيد ...** ﴾ قال ابن كثير : (وقد تقدم في الحديث أن عنقاً من النار يبرز للخلائق فينادي بصوت يسمع الخلائق : إني وكّلت بثلاثة ، بكل جبار عنيد ، ومن جعل مع الله إلها آخر ، وبالمصورين ، ثم تنطوي عليهم . وروى الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال « يخرج عنق من النار يتكلم يقول : وكلت اليوم بثلاثة : بكل جبار عنيد ، ومن

جعل مع الله إلهاً آخر ، ومن قتل نفساً بغير نفس ، فتطوى عليهم فتقذفهم في غمرات جهنم ») .

٧ - بمناسبة قوله تعالى ﴿ **يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد** ﴾ قال ابن كثير : (روى البخاري عند تفسير هذه الآية : عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال « يلقى في النار وتقول هل من مزيد ؟ حتى يضع قدمه فيها فتقول قط » وروى الإمام أحمد عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « لا تزال جهنم يلقى فيها وتقول هل من مزيد ؟ حتى يضع رب العزة قدمه فيها فينزوي بعضها إلى بعض وتقول قط قط وعزتك وكرمك ، ولا يزال في الجنة فضل حتى ينشيء الله لها خلقاً آخر فيسكنهم الله تعالى في فضول الجنة » ثم رواه مسلم من حديث قتادة بنحوه ، ورواه أبان العطار وسليمان التيمي عن قتادة بنحوه (حديث آخر) قال البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه - رفعه وأكثر ما كان يوقفه أبو سفيان -: يقال لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد ؟ فيضع الرب تبارك وتعالى قدمه فتقول : قط قط . (طريق أخرى) روى البخاري عن همام بن منبه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « تحاجت الجنة والنار فقالت النار أوثرت بالمتكبرين والمتجبرين ، وقالت الجنة : ما لي لا يدخلني إلا ضعفاء الناس وسقطهم قال الله عز وجل للجنة : أنت رحمتي أرحم بك من أشاء من عبادي ، وقال للنار : إنما أنت عذابي أعذب بك من أشاء من عبادي ولكل واحدة منكما ملؤها ، فأما النار فلا تمتلىء حتى يضع رجله فيها فتقول : قط قط فهنالك تمتلىء وينزوي بعضها إلى بعض ولا يظلم الله عز وجل من خلقه أحداً ، وأما الجنة فإن الله عز وجل ينشيء لها خلقاً آخر) .

٨ - بمناسبة قوله تعالى ﴿ **هذا ما توعدون لكل أوّاب حفيظ** ﴾ قال ابن كثير : (وقال عبيد بن عمير : الأواب الحفيظ الذي لا يجلس مجلساً فيقوم حتى يستغفر الله عز وجل) .

٩ - بمناسبة قوله تعالى ﴿ **لهم ما يشاؤون فيها ولدينا مزيد** ﴾ قال ابن كثير : (وفي الحديث عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : إن رسول الله ﷺ قال له : « إنك لتشتهي الطير في الجنة فيخر بين يديك مشوياً » وروى الإمام أحمد عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : إن رسول الله ﷺ قال : « إذا اشتهى المؤمن الولد في الجنة كان حمله ووضعه وسنه في ساعة واحدة » ورواه الترمذي

وابن ماجه وقال الترمذي : حسن غريب، وزاد : كما اشتهى. وقوله تعالى ﴿ **ولدينا مزيد** ﴾ كقوله عز وجل ﴿ **للذين أحسنوا الحسنى وزيادة** ﴾ وقد تقدم في صحيح مسلم عن صهيب بن سنان الرومي أنها النظر إلى وجه الله الكريم. وقد روى البزار وابن أبي حاتم من حديث شريك القاضي عن أنس بن مالك رضي الله عنه في قوله عز وجل ﴿ **ولدينا مزيد** ﴾ قال : يظهر لهم الرب عز وجل في كل جمعة ، وقد رواه الإمام أبو عبد الله الشافعي مرفوعاً فقال في مسنده عن عبيد الله بن عمير أنه سمع أنس بن مالك رضي الله عنه يقول : أتى جبرائيل عليه الصلاة والسلام بمرآة بيضاء فيها نكتة إلى رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ « ما هذه ؟ » فقال : هذه الجمعة فُضّلت بها أنت وأمتك ، فالناس لكم فيها تبع : اليهود والنصارى ، ولكم فيها خير ، ولكم فيها ساعة لا يوافقها مؤمن يدعو الله تعالى فيها بخير إلا استجيب له ، وهو عندنا يوم المزيد ، قال النبي ﷺ : « يا جبريل وما يوم المزيد ؟ » قال عليه السلام : إن ربك تبارك وتعالى اتخذ في الفردوس وادياً أفيح فيه كثب المسك فإذا كان يوم الجمعة أنزل الله تعالى ما شاء من ملائكته ، وحوله منابر من نور عليها مقاعد النبيين ، وحفت تلك المنابر من ذهب، مكللة بالياقوت والزبرجد ، عليها الشهداء والصديقون ، فجلسوا من ورائهم على تلك الكثب. فيقول الله عز وجل : أنا ربكم، قد صدقتكم وعدي، فسلوني أعطكم ، فيقولون : ربنا نسألك رضوانك ، فيقول : قد رضيت عنكم، ولكم علي ما تمنيتم، ولدي مزيد . فهم يحبون يوم الجمعة لما يعطيهم فيه ربهم تبارك وتعالى من الخير ، وهو اليوم الذي استوى فيه ربكم على العرش ، وفيه خلق آدم ، وفيه تقوم الساعة . هكذا أورده الإمام الشافعي رحمه الله في كتاب الجمعة من الأم ، وله طريق عن أنس بن مالك رضي الله عنه وقد أورد ابن جرير هذا الحديث من رواية عثمان بن عمير عن أنس رضي الله عنه بأبسط من هذا) .

١٠ - رأينا تفسير قوله تعالى ﴿ **وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أشد منهم بطشاً فنقَّبوا في البلاد هل من محيص** ﴾ ولكن هناك قراءة أخرى بكسر قاف (فنقبوا) وعندئذ تصبح الكلمة فعل أمر، قال النسفي : والتنقيب التنقير عن الأمر ، والبحث والطلب ، وإنما أشرنا إلى هذه القراءة ؛ لأن فيها أمراً بالبحث عن الآثار ،والأمر في هذه الحالة للإباحة .

١١ - بمناسبة قوله تعالى ﴿ **ولقد خلقنا السموٰات والأرض وما بينهما في ستة أيام**

وما مسَّنا من لغوب ﴾ نقول : إن التوراة الحالية المحرفة طافحة بذكر أن الله عز وجل خلق الخلق في ستة أيام واستراح في اليوم السابع ، وهو في زعمهم يوم السبت ، ويعللون بأن تحريم يوم السبت عليهم تلك علته ، وهو كلام مردود باطل ؛ لأن التعب نقص ، والله عز وجل منزّه عن كل نقص ، تقول التوراة المحرفة : (فأكملت السموٰات والأرض وكل جندها وفرغ الله في اليوم السابع من عمله الذي عمل فاستراح في اليوم السابع من جميع عمله الذي عمل ، وبارك الله اليوم السابع وقدسه لأنّه فيه استراح) سفر التكوين الإصحاح الثاني . إنك عندما ترى مثل هذا الضلال ، وترى قوله تعالى : ﴿ **ولقد خلقنا السموٰات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسَّنا من لغوب** ﴾ تدرك كم هي نعمة الله عظيمة علينا بهذا القرآن .

١٢ - وبمناسبة قوله تعالى ﴿ **ومن الليل فسبحه وأدبار السجود** ﴾ قال ابن كثير : (قال ابن أبي نجيح عن مجاهد عن ابن عباس رضي الله عنهما هو التسبيح بعد الصلاة . ويؤيد هذا ما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال : جاء فقراء المهاجرين فقالوا : يا رسول الله ذهب أهل الدثور بالدرجات العلى والنعيم المقيم ، فقال النبي ﷺ : « وما ذلك ؟ » قالوا : يصلون كما نصلي ويصومون كما نصوم ، ويتصدقون ولا نتصدق ، ويعتقون ولا نعتق ، قال ﷺ : « أفلا أعلمكم شيئاً إذا فعلتموه سبقتم من بعدكم ولا يكون أحد أفضل منكم إلا من فعل مثل ما فعلتم ؟ تسبِّحون وتحمدون وتكبرون دبر كل صلاة ثلاثاً وثلاثين » قال فقالوا : يا رسول الله سمع إخواننا أهل الأموال بما فعلنا ففعلوا مثله ، فقال ﷺ : « ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء » والقول الثاني أن المراد بقوله تعالى ﴿ **وأدبار السجود** ﴾ هما الركعتان بعد المغرب وروي ذلك عن عمر وعلي وابنه الحسن وابن عباس وأبي هريرة وأبي أمامة رضي الله عنهم وبه يقول مجاهد وعكرمة والشعبي والنخعي والحسن وقتادة وغيرهم) . أقول : ويحتمل أن يكون المراد بتسبيح الليل القيام فيه والتهجد ، ولقد كان رسول الله ﷺ يداوم على قيام الليل .

١٣ - بمناسبة قوله تعالى ﴿ **يوم تشقق الأرض عنهم سراعاً** ﴾ قال ابن كثير : (وذلك أن الله عز وجل ينزل مطراً من السماء ينبت به أجساد الخلائق كلها في قبورها كما ينبت الحب في الثرى بالماء ، فإذا تكاملت الأجساد أمر الله تعالى إسرافيل فينفخ في الصور ، وقد أودعت الأرواح في ثقب في الصور ، فإذا نفخ إسرافيل فيه خرجت الأرواح تتوهج بين السماء والأرض ، فيقول الله عز وجل : وعزتي وجلالي لترجعن كل

روح إلى الجسد الذي كانت تعمره ، فترجع كل روح إلى جسدها فتدب فيه كما يدب السم في اللديغ ، وتنشق الأرض عنهم فيقومون إلى موقف الحساب سراعا مبادرين إلى أمر الله عز وجل ﴿ **مهطعين إلى الداع يقول الكافرون هذا يوم عسر** ﴾ (القمر : ٨) وقال الله تعالى ﴿ **يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده وتظنون إن لبثتم إلا قليلاً** ﴾ (الإسراء: ٥٢) وفي صحيح مسلم عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « أنا أول من تنشق عنه الأرض ») .

١٤ – بمناسبة قوله تعالى ﴿ **وما أنت عليهم بجبار** ﴾ أقول : إن الجبار هو الذي يبطش في هوى نفسه ، أما من يبطش بأمر الشرع فليس جباراً ، ومن ثم فلا تنافي بين قوله تعالى ﴿ **وما أنت عليهم بجبار** ﴾ وبين فريضة الجهاد ، وقتال رسول الله ﷺ للكافرين .

كلمة أخيرة في سورة ق ومجموعتها :

عالجت سورة (قٓ) كما رأينا موضوع العجب من البعث ، وموضوع التكذيب بالحق ، وهما الموضوعان اللذان يجابهما المسلم في حركته ، ومن ثم ندرك صلة سورة (قٓ)بمجموعتها ، فإذا كانت سورة الفتح قد بينت من جملة مابينت خصائص الجماعة المسلمة ووعدت بانتصارها ، وجاءت سورة الحجرات لتبني هذه الجماعة بما يكافىء مهمتها ، فإن سورة (قٓ) عالجت العقبتين الرئيسيتين اللتين سيصادفهما صاحب الدعوة الأول ، والجماعة الإسلامية معه ، وهما عقبتا : التكذيب، والعجب من مضمون الرسالة ، وهذا معنى من معاني سورة (قٓ) ، ومظهر من مظاهر التكامل ما بين سورة (قٓ) ومجموعتها .

....

وبتحديد السورة خصائص أهل النار ﴿ **ألقيا في جهنم كل كفار عنيد * منّاع للخير معتد مريب * الذي جعل مع الله إلهاً آخر فألقياه في العذاب الشديد** ﴾ وبتحديد الخاصية الأولى للإنسان الذي هو مظنّة التذكّر بكتاب الله ، وهي الخوف من وعيد الله ﴿ **فذكّر بالقرآن من يخاف وعيد** ﴾ بتحديد السورة هذه المعاني أعطت المسلم بصراً فيمن يخصه بالتذكير ، وفيمن ييأس منه ، وفي ذلك إعطاء بصيرة لهذه الأمة في حركتها الدائبة نحو إعلاء كلمة الله التي وعد الله بها ، هذا مع وجوب إقامة الحجة على الجميع ،

ولكن أن تعرف أين تلقي بذارك ، فذلك مهم ، وهذا معنى آخر من معاني السورة ، ومظهر من مظاهر التكامل بين سورة قاف ومجموعتها .

....

وفي قوله تعالى ﴿ **إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو القى السمع وهو شهيد** ﴾ إعطاء درس بليغ للقائمين بأمر الدعوة ، أن يعملوا على إحياء القلوب كنقطة بداية ، وأن يكونوا قادرين على اجتذاب الأسماع إليهم ، وطريق إحياء القلوب معروف : وهو الذكر ، والمذاكرة ، والفكر ، وطريق اجتذاب الأسماع لله أن تحسن كيف تخاطب الإنسان ، هذه مهمتنا ، وما علينا إذا رفض الآخرون ، وفي ذلك درس جديد ، ومظهر من مظاهر التكامل ما بين سور المجموعة الخامسة .

....

وإذا كانت سورة الفتح حددت خصائص أهل الإيمان ، وجاءت سورة الحجرات فأمرت ونهت ، فأكملت بيان الخصائص ، فإن سورة (قٓ) عندما تبيّن خصائص أهل الجنة : ﴿ **وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد * هذا ما توعدون لكل أواب حفيظ * من خشي الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب** ﴾ أو عندما تأمر بالموقف المكافىء للكفر ﴿ **فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب * ومن الليل فسبّحه وأدبار السجود * واستمع يوم ينـاد المناد من مكان قريب** ... ﴾ أو عندما تقول : ﴿ **وما أنت عليهم بجبار فذكر بالقرآن من يخاف وعيد** ﴾ إن سورة (قٓ) عندما يكون فيها هذا كله تكمّل ما ذكرته سورة الفتح ، وسورة الحجرات ، من بناء لخصائص الجماعة المسلمة وأفرادها ، وهكذا نجد في هذه المجموعة من قسم المثاني نموذجاً على التكامل بين سور المجموعة الواحدة من مجموعات القسم الواحد .

كلمة في قسم المثاني :

رأينا أن قسم المثاني يتألف من خمس مجموعات ، وقد رأينا أن كل مجموعة من مجموعاته تتكامل مع بعضها ، وأن مجموعاته كذلك تتكامل مع بعضها . ولو أتنا أردنا أن نضرب الأمثلة على التكامل بين سور قسم المثاني ، أو بين مجموعاته لطال بنا المقام ، فلنكتف ببعض الأمثلة : ورد في المجموعة الأولى من قسم المثاني في سورة العنكبوت حديث عن الامتحان ، وعن النصر ، وورد في هذه المجموعة كلام عن الزلزال في سورة

الأحزاب ، ثمّ جاءت سورة سبأ وفاطر ويس فتكاملت بذلك معاني المجموعة الأولى ، ثمّ جاءت مجموعة ثانية فيها سورتا : الصافات وصٓ فأكملت معاني في المجموعة الأولى، ثمّ انطلق قسم المثاني انطلاقة جديدة ، فجاءت مجموعتان هما مجموعة الزمر والشورى فأقامتا الحجة في شأن هذا القرآن ، ثمّ جاءت المجموعة الخامسة فتحدثت عن نصر ، وعن قتال ، وختمت بسورة (قٓ) التي تشبه إلى حدّ بعيد سورة (صٓ) .

....

ولو أننا نظرنا إلى المحاور التي فصّلتها سور قسم المثاني فإننا نجد أنّ كثيراً من هذه السور فصّلت محاور واحدة ، وهذا سبب من أسباب تسمية هذا القسم بقسم المثاني .

....

وقد رأينا أن المجموعة من مجموعات قسم المثاني يبدأ تفصيلها بأوائل سورة البقرة ، ثم تنطلق ، ثم تأتي المجموعة الثانية لتبدأ البداءة نفسها ، ثمّ تنطلق ، وهكذا أعطانا قسم المثاني خمسة تفصيلات جديدة لمعان في سورة البقرة ، على ترتيب ورودها في السورة ، وإن لم يكن ترتيباً متلاصقاً وهذا سبب آخر من أسباب تسمية هذا القسم بالمثاني – والله أعلم – .

كلمة في الأقسام الثلاثة التي مرّت معنا :

رأينا أن القرآن يتألف من أربعة أقسام : قسم الطِوَل ، وقسم المئين ، وقسم المثاني ، وقسم المفصّل ، وقد مرّ معنا تفسير الأقسام الثلاثة ، ولم يبق معنا إلا قسم المفصّل .

....

وقد رأينا أن قسم الطِوَل يتألف من سورة البقرة ومجموعة واحدة ، وقد رأينا أن قسم المئين يتألف من ثلاث مجموعات ، وأن قسم المثاني يتألف من خمس مجموعات ، وعلى هذا فإنه قد مرّ معنا – حتى الآن – سورة البقرة وتسع مجموعات ، كل مجموعة تفصّل في محاور من سورة البقرة ، ابتداءً من أولها إلى محور مافيها ، وهكذا تفعل كل مجموعة .

....

وقد رأينا أن السورة عندما تفصّل في محور فإنها تفصل فيه وفي امتداداته وارتباطاته ، ولذلك فإن المجموعات– ولو لم تفصّل في كل آية من سورة البقرة على حدة– فإنها

فصّلت في مجموع معاني سورة البقرة أكثر من مرة ، وفي كل مرّة تعطينا جديداً .

....

وقد رأينا أن الآيات الأولى من سورة البقرة نالها من التفصيل أكثر من غيرها ، لأنها تتحدّث عن الأساس والطريق .

وسيأتي معنا قسم المفصّل ، وسنرى أن مجموعاته كثيرة ، وهكذا نجد أن تفصيلاً طويلاً ووحيداً لسورة البقرة جاء في القسم الأول ، وأن تفصيلات متوسطة ومتعددة جاءت في القسم الثاني ، وأن تفصيلات أخصر وأكثر عدداً جاءت في القسم الثالث ، وأن تفصيلات كثيرة وقصيرة ستأتي في القسم الرابع ــ قسم المفصّل ــ فلنره .

☆ ☆ ☆

فهرس المجلد التاسع

الموضوع	الصفحة

☆ ☆ ☆

☆ ☆ ☆

☆ ☆ ☆

☆ ☆ ☆

﴿ سورة الأحقاف ﴾ ٥٢٣٧

☆ ☆ ☆

